

موسوعة الشخصيات الإسلامية

المجلد الثالث

أعلام القرون العشرة



أعلام القرون
العشرة

(١٣٨)

الإمام الربيع بن خثيم

توفي ٦٥ هـ

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، والفضل والطول والمنن الجسام، الذي هدانا للإسلام وأسبغ علينا جزيل نعمه وألطفه العظام، وأفاض علينا من خزائن ملكه أنواعاً من الإنعام، وكرم الآدميين وفضلهم على غيرهم من الأنام، وجعل فيهم قادة يدعون بأمره إلى دار السلام، واجتبي من لطف به منهم فجعلهم من الأمثال والأعلام، وطهرهم من الكدر ووضر الآثام، وصيرهم بفضلهم من أولي النهى والأحلام، ووقفهم لإدامة مراقبته ولزوم طاعته على تكرر السنين والأيام. أحمدته أبلغ حمد وأكملته، وأزكاه وأشمله.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الكريم الغفار.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار، أنعم عليه وأفضل وأعطاه ما لم يعطي أحداً وأجزل، وجعله شريف النسب عظيم المقدار، فمن شرفه المعجزات الظاهرات كانشقاق القمر وتسليم الحجر والشجر وغير ذلك من الآيات والعبر، وبجاهه غفر الله تعالى لأبينا أبي البشر

عذراً رسول الله إن قصرت في مدحي فإنّ جمالكم لن يوصفا

جاءت قديماً ذرة من نوركم قد جمل الرحمن منها يوسف

والله لو ماء البحار يجمعها كان المداد لمدح أحمد ما وفا

يكفيه لقيا في السموات العلا وبحضرة المولى الكريم تشرفا

يكفيه أنّ البدر يكسف نوره لكنّ نور محمد لن يكسفا

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والملائكة وآل

كل وأتباعهم الكرام، صلوات متضاعفات دائمت بلا انفصام، وسلّم تسليمات كثيرة.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

لا يمكن لأحد أن يعرف قدر النبي ﷺ حتى يعرف قدر الصحابة الكرام، ولا يعرف قدر الصحابة إلا بمعرفة تلك الطبقة التي تخرجت بهم، ولن نعرف قدر التابعين حتى نعرف قدر الأئمة الذين تخرجوا بهم، هؤلاء الذين تربوا على هذه الموائد الشريفة النظيفة.

حقيقة - أيها السادة - لن نعرف عظمة سيدنا رسول الله حتى نعرف هؤلاء الأبطال الذين تخرجوا من جامعته. ونحن اليوم مع أحد هؤلاء الأئمة الأعلام، إمام عابد قدوة، أدرك زمن سيدنا النبي وأرسل عنه، قالت عنه كتب التراجم: انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين أحدهم عالمنا اليوم.

عالمنا اليوم كان يعد من عقلاء الرجال، لم يُسمع منه كلمة تُعاب عليه على مدار عمره كله، قال عنه تلاميذه: كان من أروع أصحاب سيدنا عبد الله بن مسعود. نحن اليوم نزور سيداً وعلماً من التابعين، هو سيدنا الربيع بن خثيم. ومع الحلقة ثمانية وثلاثين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام الربيع:

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان: نشأ إمامنا منذ نعومة أظفاره في طاعة الله، وفطم نفسه منذ حدثها على تقواه، تصحو أمه من الليل فتجد ابنها اليافع ما يزال صافاً قدميه في محرابه ، ساجداً في مناجاته ، مستغرقاً في صلاته ، كأنه يستعد لامتحان حسابه، فتناديه: يا ربيع ألا تنام؟ فيقول: كيف يستطيع النوم من جن عليه الليل وهو يخشى الآخرة، إن جهنم لا تدعني أنام، ويسجد سيدنا ربيع فإذا هو في سجوده كتب مطروح فتجيء العصفير فتقع عليه وهو مستغرق في مناجاة مولاه جل جلاله .

إن عظمة هؤلاء الرجال أنهم كانوا ينفذون كل ما تعلموه من صاحب الرسالة، ويجعلونه وظيفتهم اليومية، سَمِعَ من سيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن

النبي الكريم صلوات ربي وسلاماته عليه قال: « أيعجز أحدكم أن يقرأ ليلته بثلاث القرآن؟ » يقول الصحابة الكرام: فأشفقنا أن يأمرنا بأمر نعجز عنه فسكتنا، فقاها ثلاث مرات ثم قال: ﴿أَنْ يقرأ ثلث القرآن فإنه من قرأ قل هو الله أحد فقد قرأ ليلته بثلاث القرآن﴾ فكان إمامنا يحب هذه السورة ويقرأها ثلاث مرات، فكأنه قرأ القرآن كله، صلوا على من علمنا.

إخوتي في الله: لما شبَّ الربيع ونما شبَّ ورعه معه ونمت بنموه خشيته من الله تعالى، وربما مرَّ بالآية في ليله الطويل وهو يردد آية واحدة من آيات الله تعالى، وقف مرّة يصلي بالليل فوصل إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية ٢١)، ف وقعت الخشية في قلبه فما زال يكررها وهو يبكي بكاءً شديداً حتى تبل لحيته من دموعه، وتراه أمه لشدة ما يلقي من البكاء والقيام فتناديه: يا بني لعلك قتلت قتيلاً؟ فقال: نعم يا أماه قتلت قتيلاً، فتقول: ومن هذا القتل يا بني نتحمل على أهلنا فيعفوك، والله لو علموا ما تلقى من البكاء والسهر لرحموك، فيقول: يا أماه قتلت نفسي بالذنوب، إلهي أشكو إليك حاجة لا يحسن بثها إلا إليك.

وبلغ من شدة خوفه من الله أن حفر في غرفته قبراً فكان كل ليلة يتمدد فيه ويقرأ قوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ ثم يقوم من قبره ويقول: يا ربيع قد أرجعت فانظر ماذا تعمل؟!

هل سمعتم بمثل هذا المنهج؟ وما أن يصبح بعد ليل العبادة حتى يقول لملائكة الفجر: مرحباً بملائكة الله اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وبعد هذا الخير الذي ساقه الله إليه يلتقيه أصحابه فيسألونه: كيف أصبحت؟ فيقول: أصبحنا ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا، فإذا ما دُعي إلى مجالسة الناس يقول: أخاف أن أغض بصري، أخاف أن لا أردّ

السلام، هكذا كانت حياة الإمام مليئة بالأخلاق والورع والفضيلة، ماتكلم بكلمة إلا بخير، قال عنه معاصروه: ما تكلم في عمره كله بكلمة تعاب، بل بكلمة يصعد ثوبها إلى الملائ الأعلى.

أيها الأحبة والصحب: وقبض الله للإمام سيدين جليلين كريمين قاما على تربيته وتعليمه، كان لهما أشد التأثير في حياته هما: سيدنا عبد الله بن مسعود وسيدنا أبو أيوب الأنصاري، وكان أكثر تعلقه بسيدنا ابن مسعود الذي قيل فيه: إنه كان أقرب الصحابة هدياً وسمتاً بسيدنا محمد ﷺ. فمدرسته كانت من الفقه والعلم والحلم والجرأة بالحق بمكان كادت أن تصل إلى مكانة الصحابة الكرام، حتى قال فيه الإمام الشعبي: (ما رأيت أقوماً قط أكثر علماً ولا أعظم حلماً ولا أكف عن الدنيا من أصحاب ابن مسعود ولولا ما سبقهم به الصحابة ما قدمنا عليهم أحداً)

معشر السادة الكرام: تعلق سيدنا الربيع أكثر ما تعلق بسيدنا عبد الله بن مسعود، تعلق بأستاذه تعلق الوليد بأمه، وأحب الأستاذ تلميذه حب الأب لوحده، فكان يدخل عليه من غير إذن دون أن ينظر يميناً أو شمالاً حتى حسبته جارية ابن مسعود ضريباً، فيسأل ابن مسعود: من القادم؟ فتقول له الجارية: ذاك الشيخ الأعمى. فإذا ما جلس التلميذ مع معلمه الأول لم يؤذن لأحد بالدخول عليهما حتى يخرج الإمام الربيع (جلسة مغلقة خاصة بسيدنا الربيع)، ومن شدة ما آتى الله من فضل وذكاء وفهم وعلم لسيدنا الربيع، يقول سيدنا ابن مسعود للربيع: يا أبا يزيد لو رآك رسول الله لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين (علم وتواضع)، وبعض الناس اليوم ما أوتوا عشر ما أوتي سيدنا الربيع وتراه يظن من حوله أنهم جهلة (نعوذ بالله من التكبر وشوفة الحال).

فكيف بلغ هؤلاء ما بلغوا من المكانة والمجد؟ بلغوه بشيء واحد اتخذوه شعارهم ودينهم ألا وهو الإخلاص، كان شعار إيماننا في حياته أن كل ما لا يراى به وجه الله يضمحل، كان عمله كله سرّاً، ذكره سرّاً، صدقته سرّاً، قيامه بالليل سرّاً، تراه إذا

دخل عليه داخل وفي حجره القرآن غطاه بثوبه خوفاً من الرياء، حتى كان أصحابه يجزمون أن لا أحد في عصره خير من الإمام الربيع، قال له مرة تلميذه (ابن الكواء): دلي على من هو خير منك، قال: نعم، من كان منطقته ذكراً، وصمته تفكراً، ومسيره تدبراً، فهو خير مني.

كان فلتة زمانه، لا يكاد يذكر شيئاً من الدنيا، وإذا جاءته زهد فيها رجاء الآخرة، ولأدلل على هذه القضية بالذات أدعوكم جميعاً لننتقل إلى هناك، إلى دار الربيع في كوفة العراق فرّج الله عن أهلها، دار متواضعة على السنة، قال لزوجته: أشتهي لحم دجاج منذ أربعين يوماً فكففت نفسي رجاء أن تكف فأبّت، قالت له امرأته الصالحة: سبحان الله وأي شيء هذا حتى تكف نفسك عنه قد أحله الله لك، يقول الراوي بإسادة ياكرام: فأرسلت امرأته إلى السوق فاشتريت دجاجة بدرهم فذبحتها وشوتها واختبرت له خبزاً ثم جاءت بالخوان حتى وضعت بين يديه، فلما ذهب ليأكل قام سائل على الباب: (تصدّقوا عليّ بارك الله فيكم) فكفّ الإمام الربيع عن الأكل وقال لامرأته: خذي هذا فلفيه وادفعيه إلى السائل. فتعجبت الزوجة الصالحة، فقال: افعلي ما أمرك به، قالت: فأنا أصنع ما هو خير له وأحب إليه من هذا قال: وما هو؟ قالت: نعطيه ثمن هذا وتأكل أنت بشهوتك. قال: قد أحسنت اثيني بثمرته، فجاءت به، فأخذه هو والدجاجة والخبز ودفعه إلى السائل جميعاً.

هل سمعت مثل هذا الزهد؟ كان يجب أن تكون صدقته كبيرة يراها في ميزان حسناته يوم القيامة، إذا أعطى السائل يعطيه رغيفاً كاملاً ويقول: إني لأستحي أن يُرى في ميزاني أقل من رغيف. سرق له مرة فرس أعطي به عشرين ألفاً فقالوا: ادعوا الله على السارق فقال: اللهم إن كان غنياً فاغفر له، وإن كان فقيراً فأغنه. هذا كله ينم عن صوفية الإمام وصفاء قلبه ونفسه، فأراد الله تعالى أن يكافئه عند وفاته، أراد أن يعطيه مرتبة الشهادة دون جهاد ولا قتال فأصابه بالفالج، ومع

الفالج النصفي الذي أصابه كان لا يترك صلاة الجماعة في المسجد فكاد يُقَاد إلى الصلاة يتهدى بين اثنين صابراً محتسباً، يقول له أصحابه: قد رُحِّص لك، فيقول: إني أسمع حيّ على الصلاة، فمن سمع منكم فليجبه ولو زحفاً، ولو حبواً. قيل له: ألا تداوى؟ فقال: قد مرض من سبقني وتداؤوا فما بقي المداوى ولا المداوي، وأنا بحاجة إلى دواء آخر، أتدرون ما الداء وما الدواء وما الشفاء؟ قالوا: لا، قال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب ولا تعود.

أيها الإخوة الكرام: بقي إمامنا مريضاً بالفالج حتى وفاته سنة خمس وستين للهجرة، وحين حضرته الوفاة راحت ابنته تبكي، فقال لها: يا بنية لم تبكين قولي يا بشرائي أتى الخير، ما غائب ينتظره المؤمن خير من الموت، (غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه) فمن أراد أن يلقاهم هناك فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى الحبيب الأعظم، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك .



* صفة الصفوة ٣/ ٤٠ . صور من حياة التابعين ٥٢ . سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٥٨ . البداية والنهاية ٨ / ٢١٧ . تهذيب التهذيب ٣/ ٢٤٢ . حلية الأولياء ٢/ ١٠٥

(١٣٩)

الإمام الأحنف بن قيس

(٣ - ٦٧ هـ)

الحمد لله الذي جعل مكارم الأخلاق من أعمال الجنان، وجعل حسن الخلق أفضل من جمال الوجه بل هو أفضل شيء يوضع في الميزان.
أحمده سبحانه وتعالى على نعمه فإنه تعالى يحب أن يحمد بكل لسان.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك المنان، شهادة من شهد بها فهي له نجاة وأمان ، وكلمة لا يسبقها عمل ولا تترك ذنباً على الإنسان.
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المبعوث بالحنيفية السمحة إلى الأحمر والأسود من إنس وجان، الذي أُعطي فوائح الكلم وجوامعه واختار الله له خير الكلام القرآن، أول الناس خروجاً إذا بعثوا وخطيبهم إذا وفدوا إلى الملك الديان.
اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين هم لأهل الأرض أمان وسلّم تسلموا.

أما بعد فيا معشر الإخوة الكرام:

كرّم الإسلام العقل والحلم والدين، كرّم الفكر والكرم والشجاعة وفضائل الأخلاق، قرر أنه لا عبرة بجمال الوجه وطول الجسم وعرضه، وماذا يفعل الرجل إذا كانت امرأته جميلة وعقلها صغير، أيلقها كالصورة ينظر إليها صباح مساء؟ وماذا تفعل الزوجة بزوجها الجميل بهي الطلعة إذا كان أهبل أو لا عقل له؟

لا بأس بالقوم من طول ومن عرض جسم البغال وأحلام العصافير

نحن اليوم مع شخصية نتعلّم منها أنه لا خير في قول بلا فعل، ولا في منظر بلا تحبّر، ولا في مال بلا جود، ولا في صديق بلا وفاء، ولا في فقه بلا ورع، ولا في جمال بلا عقل: « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ، نعم، إن كانت شخصيتنا اليوم صاحبها قصير القامة، أعور، أصلع،

دميم الوجه، أجرودي الشعر، متراكب الأسنان، مائل الذقن، ناتي الوجنة، أحنف القدمين (أعوج)، لا يوجد صفة تدم إلا تُرى فيه، لكنه أثبت للعالم أنه سيد بني تميم، الأمير الكبير، العالم النبيل، أبو بحر أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل، كان يفرّ من الشرف والشرف يتبعه ، وحين سُئل كيف يسود المرء قومه يا أبا بحر؟ قال: من كان له دين يحجزه، وحسب يصونه، وعقل يرشده، وحياء يمنعه.

أثبتت شخصيتنا اليوم أن العبرة بالعقل والحلم والدين والسياسة، وأن الجمال جمال الروح والنفس لا جمال الوجه والجسم، وأن التلمذة على عظماء الرجال تجعل المرء عظيماً ، فإن التابع يشرف بشرف المتبوع، إن شخصيتنا اليوم تلميذ لسيدنا عمر الفاروق عظيم عصره وسيد أهل زمانه، إننا مع إمام من المدرسة العمرية، مع سيد من سادات البصرة العراقية، مع سيدنا الأحنف (واسمه الضحاك) بن قيس، ومع الحلقة تسعة وثلاثين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم لتتربوا عن الإمام الأحنف بن قيس.

إخوة الإيمان: ولد سينا الأحنف رضى الله عنه وأرضانا معه الضحاك في السنة ٣ هجري في أرض نجد ، ونشأ يتيماً حيث قتل أبوه وهو طفل لم يدرج بعد، وغمرت أنوار الإيمان قلب الفتى حين قدم رسول الله ﷺ إلى قومه يدعوهم للإسلام، وكان غلاماً لم يطرّ شاربه بعد، وتردد قومه في دخول الإسلام فقال لهم الأحنف: والله ما يدعوكم إلا إلى خير فأجيبوا داعي الهدى تفوزوا وتسودوا، قال فأسلم القوم، وقدم وفدهم إلى سيدنا رسول الله ، ولكن الأحنف لم يكن معهم فحرم شرف الصحبة، ولكنه لم يحرم شرف دعاء سيدنا رسول الله ﷺ فكيف تمّ ذلك؟ حدّث سيدنا الأحنف فقال: بينما أنا أطوف بالبيت زمن عثمان إذ لقيني رجل من بني ليث فأخذ بيدي فقال: ألا أبشرك؟ قلت: بلى، قال: أما تذكر إذ بعثني رسول الله إلى قومك بني سعد أدعوهم إلى الإسلام فجعلت أخبرهم وأعرض عليهم فقلت: إنه يدعو إلى خير وما أسمع إلا حسنا، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال:

اللهم اغفر للأحنف، فكان الأحنف يقول: فما شيء أرجى عندي من ذلك (أحمد ٣٧٢/٥).

إخوتي في الله : لئن كان سيدنا الأحنف قد حرم شرف الصحبة فإنه لم يحرم شرف كونه من التابعين ، فقد التقى بأجلّة الصحابة وأخذ عنهم ، أمثال سيدنا عمر الفاروق وعثمان وعلي وأبي ذر والعباس وابن مسعود وغيرهم. ولأوضح لكم هذه القضية تماماً أدعوكم جميعاً لنزور أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، اسمحوا لي أن أنتقل بكم جميعاً إلى هناك إلى المدينة المنورة، وقبل أن ندخل على سيدنا عمر أرى واجباً علينا أن نسلم على المصطفى ، تعالوا بنا ندخل المسجد النبوي ونقف أمام الحجرة الشريفة ، فهل وقفتم أمامهما جميعاً؟ سلّموا على سيدنا رسول صلّى الله عليه وآله، قولوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، سلّموا على الصديق الأكبر: السلام عليك يا خليفة رسول الله، ثم تعالوا بنا ندخل على عملاق الإسلام سيدنا عمر رضي الله عنه، وأرى وفد بني تميم قد سبقونا لزيارته، وكان معهم سيدنا الأحنف بن قيس، فتكلّم كل واحد من الوفد في شأن خاص له، فلما وصل القول إلى سيدنا الأحنف وكان آخر القوم، قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد: يا أمير المؤمنين فإن أهل مصر نزلوا منازل فرعون وأصحابه، وإن أهل الشام نزلوا منازل قيصر وأصحابه، وإن أهل الكوفة نزلوا منازل كسرى ومصايفه في الأنهار والجنان، وفي مثل عين البعير (الأرض الخصيبة) تأتيهم ثمارهم قبل أن تبلغ، وإن أهل البصرة (قوم الأحنف) نزلوا في أرض سبخة زعقة (ملحة) نشاشة لا يحف ترابها ولا يثبت مرعاها، طرفها بحر أجاج، وطرف في فلاة لا يأتينا شيء إلا في مثل مريء النعامة (قليل جداً) فارفع خسيستنا وانعش وكيستنا وزد في عيالنا عيالاً، وفي رجالنا رجالاً، وصعّر درهما وكبّر قفيزنا، ومر لنا بنهر نستعذب منه. ونظر سيدنا عمر إلى الإمام الأحنف، ثم نظر إلى قومه وقال: عجزتم أن تكونوا مثل هذا، هذا والله السيد، فقال رجل من المهاجرين: يا أمير المؤمنين: إن هذا الذي كفّ عنا بني مرة حين بعثنا رسول الله في صدقاتهم وقد كانوا همّوا بنا، ثم إن الأحنف استأذن في الكلام فقال:

يا أمير المؤمنين إنك ذكرت بني تيم بن مرة فعممتهم بالذم وإنما هم من الناس فيهم الصالح والطالح، فقال: صدقت، فقام رجل من قوم الأحنف يريد أن يتكلم، فقال سيدنا عمر: اجلس فقد كفاكم سيدكم الأحنف.

أيها الأحبة والصحب: لم يترك سيدنا عمر الأحنف ليغادر معهم بل حبسه عنده سنة كاملة، يأتيه كل ليلة فلا يجد إلا ما يحب ، ولم يهدر سيدنا الأحنف هذه السنة بل صار يتردد على أجلة الصحابة يغرف من معين سيدنا رسول الله ﷺ، ثم إن سيدنا عمر دعاه فقال له: يا أحنف هل تدري لما حبستك عندي؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين. فقال: إن رسول الله ﷺ حذرنا كل منافق عليم اللسان وقد بلوتك وخبرتك فرأيت علانيتك حسنة ، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك فاحمد الله يا أحنف، وانحدر إلى مصرك فإني أرجو أن تكون مؤمناً، وأرسل سيدنا الفاروق إلى أمير البصرة وأمره بمشاورة الأحنف في شؤون البصرة.

معشر الإخوة الكرام: أريدكم اليوم أن تعرفوا كيف ساد الأحنف قومه، تعالوا لنر أتباع سيدنا محمد ﷺ كيف ولماذا ذكرهم التاريخ؟

أيها السادة: كان سيدنا الأحنف من أبطال الإسلام، زعيماً في بلده، رئيساً في قومه، شهدت المعارك التي خاضها بصدق إيمانه ومضاء عزيمته، كان إذا حمل السيف في المعارك ينادي:

إن على كلّ رئيس حقاً أن يخضب القناة أو أن تندقا
هذا أولاً،

وثانياً: كان يحاسب نفسه قبل يوم الحساب، يصلي بالليل ثم يقوم إلى المصباح فيضع أصبعه فوق ناره ثم يتألم ويقول: ما حملك يا أحنف على أن صنعت كذا يوم كذا، ثم يدعو ويقول: اللهم إن تغفر لي فأنت أهل لذلك وإن تعذبي فأنا أهل ذاك.
وثالثاً: لم يكن يحب التكبر، يقول: عجبت لمن يجري في مجرى البول مرتين كيف يتكبر.

الأمر الرابع : الذي جعله سيّداً على قومه أنه كان لا يبرم أمراً من دونهم وكان يقول: لا يتم أمر السلطان إلا بالوزراء والأعوان، ولا ينفع الوزراء والأعوان إلا بالموّدة والنصيحة، ولا تنفع الموّدة والنصيحة إلا بالرأي والفقه.

خامساً: كانت منهجيته عجيبة في حياته، اسمعوا ماذا يقول عنها: ثلاث ما أذكرهن إلا لمعتبر، ما أتيت باب السلطان إلا أن أدعى، ولا دخلت بين اثنين حتى يدخلاني بينهما، وما أذكر أحداً بعد أن يقوم عندي إلا بخير. وما نازعني أحد إلا أخذت أمري بأمور: إن كان فوقي عرفت له، وإن كان دوني رفعت قدرتي عنه، وإن كان مثلي تفضّلت عليه.

وكان يقول لأصحابه: جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، إني أبغض الرجل يكون وصافاً لفرجه وبطنه.

واسمحو لي إخوتي : أن أعرض على حضراتكم مدى الحكمة التي وصل إليها إمامنا اليوم: فقد دخل دمشق على سيدنا معاوية أيام ملكه وسلطانه فأغلظ له القول، ومعاوية يلين له ويصفح عنه ويداريه حتى لامته أخته وكانت تسمع كلام الأحنف من وراء حجاب فقالت: يا أمير المؤمنين: من هذا الذين يتهدد ويتوعّد؟ فقال سيدنا معاوية: هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مئة ألف فارس من بني تميم، لا يسألونه فيما غضبت.

الموقف الثاني في البصرة: فقد قتل قتيل وجاء قومه يريدون دم القاتل فجاء الإمام الأحنف فقال لهم: احتكموا، قالوا: نحتكم ديتين (دية واحدة لا تكفي ، لابدّ من ديتين)، قال: ذاك لكم، فلما سكتوا قال: أنا أعطيك ما سألتهم فاسمعوا : إن الله قضى بدية واحدة، وإن النبي قضى بدية واحدة، وإن العرب تعاطى بينها دية واحدة، وأنت اليوم تطالبون وأخشى أن تكونوا غداً مطلوبين فلا ترضى الناس منكم إلا بمثل ما سننتم، قالوا: ردها إلى دية واحدة.

هكذا أيها الإخوة: عاش سيدنا الأحنف حكيماً حميداً سعيداً وسيّداً حتى وافته منيته سنة ٦٧ هـ وأمير العراق يومها صديقه سيدنا مصعب بن الزبير، خرج في

جنازته بغير رداء من شدة حزنه، يقول من وسّده في قبره: ما إن سوّيته حتى رأيته قد فسخ له مد بصري، وأسرع الناس لحضور جنازته رجالاً ونساء، فقد عمّ الأحنف الناس كلهم بخيره وحلمه وكرمه ، وحضرت بنت لأوس السعدي وهي عجوز على راحلتها، وقفت عليه وقالت: من الموائى به حفرتة لوقت حمامه، قيل لها: الأحنف بن قيس، قالت: والله لأن كنتم سبقتونا إلى الاستمتاع به في حياته لا تسبقونا إلى الثناء عليه بعد وفاته، ثم قالت: لله درّك من مجن في جنن، ومدرج في كفن ، وإنا لله وإنا إليه راجعون، نسأل من ابتلانا بموتك وفجعنا بفقدك أن يوسع لك في قبرك، وأن يغفر لك يوم حشرك :

أيها الناس: إن أولياء الله في بلاده هم شهوده على عبادته، وإنا لقائلون حقاً، ومثنون صدقاً، وهو أهل لحسن الثناء، أما والذي كنتُ من أجله في عدّة، ومن الحياة في مدّة، فقد عشت مودوداً حميداً، ومِتّ سعيداً فقيداً، ولقد كنت عظيم الحلم فاضل السلم رفيع العماد، واري الزناد، منيع الحريم، سليم الأديم، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد.

هذا رثاء امرأة فكيف برثاء الرجال! أيها السادة: إن تاريخكم قِيّاض بالمفاخرة والمكارم، ولكنكم لا تكادون تعرفون ، فهلّموا بنا إلى لتتعرّف عليهم هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك .



● وفيات الأعيان ٢٣٠/١ . مختصر تاريخ ابن عساكر . أسد الغابة ٥٥/١ . البداية والنهاية

٣٢٦/٨ . تهذيب التهذيب ١٩١/١ . النجوم الزاهري ١٨٤/١ . شذرات الذهب ٧٨/١

. من وحي المنبر لمولانا المحاميد

(١٤٠)

الإمام القاضي شريح

(٣٢٠ ق. هـ ٧٨ هـ)

الحمد لله الذي نور بجميل هدايته قلوب أهل السعادة، وطهر بكريم ولايته أفئدة الصادقين فأسكن فيها وداده، وحرس سرائر المؤمنين فطرد عنها الشيطان وذاده، ودعاها إلى ما سبق لها من عنايته فأقبلت منقادته، أحمدته سبحانه وتعالى على ما أولى من فضل وأفاده.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة وعد قائمها بالحسنى وزياده.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أقام به منابر الإيمان ورفع عماده، وأزال به سنان البهتان ودفع عناده.

اللهم صلّ وسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين استخلفهم على دينه وملّكهم قياده، وأوضح بهم حجج الدين وأحكام العباد، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام:

أنتقل بكم اليوم في شخصيتنا المكرمة إلى أزهى عهد من عهود الحضارة الإسلامية، إلى أعلى ذروة في سلسلة أجداد المسلمين، إلى العصر الذهبي للإسلام، إلى الأيام التي كانت كلها أعراساً، إلى القلوب الشفافة التي ملئت إيماناً ويقيناً إلى أصحاب سيدنا محمد ﷺ:

وتغفر الخطايا والذنوب

محاسنه فقليل له الحبيب

بمدح المصطفى تحيا القلوب

نبي كامل الأوصاف تمت

نقف اليوم في حضرة قاض أقام العدل بين الناس ستين سنة، فما حاف على أحد ، ولا حاد عن الحق ولا مدَّ يده إلى حرام، ولا ميّز بين ملك وسوقة، قال عن نفسه: "ما شددت لهواتي مع خصم ، ولا لقنت خصماً حجة قط" كانت فراسته صادقة، وشعره ينم عن شخصية رصينة دينة عفيفة.

إنني اليوم أثبت لكم كيف صنع الإسلام الرجال ، اليوم أثبت لكم أن الصحبة والمجاورة والمخالطة لعظائم الرجال تجعل من الإنسان عظيماً.

إننا مع رجل عاش قريباً من عصر النبوة وتلمذ على أيدي رجال المدرسة المحمدية الأولى ، فإذا هو صورة لصحابة سيدنا رسول الله ﷺ في رسوخ الإيمان ، والتعالي عن غرض الدنيا ، والتفاني في مرضاة الله.

إننا مع قاضي المصّرّين البصرة والكوفة سيدنا أبو أمية شريح بن الحارث الكندي رحمه الله ومع الحلقة مئة وأربعين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام شريح القاضي.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: أسلم سيدنا شريح في حياة سيدنا النبي ﷺ وكان في اليمن، لكنه لم يلتق بسيدنا رسول الله ﷺ لذا عُدد من التابعين، وانتقل من اليمن إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم وأخذ ينهل من علم الصحب الكرام حتى غدا علماً بين أقرانه من التابعين، وأصبحت له مكانة مرموقة بين علماء عصره، وقد سئل: بأي شيء أصبت هذا العلم؟ فقال: بمذاكرة العلماء، أخذ منهم وأعطاهم.

واسمحو لي - **معشر السادة** - بدءاً أن أطلعكم على قرار تولي سيدنا شريح القضاء، فقد اشترى سيدنا عمر بن الخطّاب فرساً من أعرابي ونقده الثمن، ثم امتطى صهوته ومضى، فما ابتعد حتى ظهر في الفرس عطب عاقه عن الجري، فعاد إلى الأعرابي وقال: خذ فرسك فإنه معطوب، فقال الأعرابي: لا آخذه يا أمير

المؤمنين وقد بعته لك سليماً صحيحاً، فقال سيدنا عمر: اجعل بيننا وبينك حكماً، فقال الرجل: يحكم بيننا شريح بن الحارث الكندي، فقال عمر: رضيت به، فلما جاء سيدنا شريح سمع مقالة الأعرابي ثم التفت إلى سيدنا عمر وقال: هل أخذت الفرس سليماً يا أمير المؤمنين؟ فقال: نعم، قال شريح: احتفظ بالفرس أو رده بما أخذت.

فنظر سيدنا عمر إلى شريح متعجباً وقال: وهل القضاء إلا هكذا؟ قول فصل وحكم عدل، سر إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها.

معشر السادة الكرام: غادر سيدنا شريح المدينة، ولكن يبدو أن سيدنا عمر أرسله دون توجيهات مباشرة، فاستدرك الفاروق وكتب إليه رسالة في القضاء، أرى واجباً علي أن أذيعها على حضراتكم فاسمعوها: يقول:

- ١ - إذا أتاك أمر في كتاب الله فاقض به.
- ٢ - فإذا لم يكن وكان في سنة رسول الله فاقض به.
- ٣ - فإن لم يكن فيهما فاقض بما قضى به أئمة الهدى.
- ٤ - فإن لم يكن فأنت بالخيار إن شئت تجتهد رأيك، وإن شئت تؤامرني ، ولا أرى مؤامرتك إياي إلا أسلم لك، والسلام.

هذه هي وثيقة القضاء التي اتخذها القاضي شريح في حياته، فوثيقة القضاء التي أرسلها عملاق الإسلام تعني أن القضاء فصل الخصومة بين خصمين فأكثر بحكم الله تعالى، أي تسوية الخلاف بينهم بإعادة الحقوق إلى أصحابها ، فإن كان القضاء وسيلة إلى الرشوة وسلباً لحقوق الناس كان حراماً ولا ينفذ حكم القاضي حينئذ.

كان الإمام شريح القاضي قبل أن يحكم في قضية يحضر الشهود والمدعي والمدعى عليه ويحذرهم الله تعالى وغضبه، يلتفت إلى المدعي ويقول له: اعلم أنني لا أعلم أنك ظالم أو مظلوم ولكنني أقضي لك بشهادة الشهود، وإن قضائي لا يحل لك شيئاً حرمه الله تعالى.

ثم يلتفت إلى الشهود ويقول: اتقوا الله فإِنَّمَا يَقْضِي عَلَى هَذَا الْمُدْعَى عَلَيْهِ أَنْتُمْ،
فإِذَا أَنْ تَشْهَدُوا بِالْحَقِّ أَوْ تَمْضُوا، يَفْعَلْ ذَلِكَ فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ.

إخوتي في الله: هذه المنهجية الفريدة جعلت من سيدنا علي أمير المؤمنين في
عصره يقلد الإمام شريحاً القاضي أرفع وسام في القضاء ، فكيف تم ذلك؟

للإجابة عن هذا السؤال أستمحكم أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك إلى العراق
رغم وجود ١٥٠,٠٠٠ جندي أمريكي، ولكننا مع ذلك سندخل معاً أرض العراق
داعين الله تعالى أن يفرج عن أهلها وكما أخرج عنهم البول يخرج عنهم الغائط
الأمريكي الباقي أعني به ١٥٠,٠٠٠ جندي أمريكي (ارفعوا أكفكم وقولوا فرج الله
عن أهلنا في العراق).

نحن الآن في حضرة جدي أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب ، فقد نادى
في الناس:

. يا أيها الناس يأتوني فقهاؤكم يسألوني وأسألمهم غداً.

فلما كان الغد غدوا إليه حتى امتلأت الرحبة، فجعل يسألمهم ويسألونه حتى
ارتفع النهار وتصدعوا غير سيدنا شريح جاث على ركبتيه ، لا يسأله عن شيء إلا
أجاب ، ولا يسأل شريحاً عن شيء إلا أخبره ، حتى قال جدي سيدنا علي:
(اسمعوا نتيجة الامتحانات الشفهية، إليكم الوسام الأرفع في الدولة العلوية
الإسلامية) قال جدي سيدنا علي: " اذهب فأنت أقضى العرب".

أيها الأحبة والصَّحْب: أعتقد أنكم الآن أصبحتم في شوق لحضور إحدى
جلسات المحاكمات التي يترأسها القاضي شريح، تذكروا أننا بجوار بغداد في منطقة
يقال لها الكوفة فرج الله عن أهلها.

ها نحن ندخل قاعة المحكمة ونرى تحت يد القاضي قضايا متعددة:

القضية الأولى: جدّة صبي وأُمّه يختصمان فيه ، كلّ واحدة تقول أنا أرْفَق به،

قالت الجدة:

أبا أمية أتيناك وأنت المرء نأتيه أتاك ابن وأماه وكلتنا تفديه
فلو كنت تأيمت لما نازعتك فيه تزوجت فهاتيه ولا يذهب بك التيه
ألا أيها القاضي فهذي قصتي فيه.

فقال الأم:

ألا أيها القاضي	قد قالت لك الجده
قولاً فاستمع مني	ولا تنظرني رده
تعزي النفس عن ابني	وكبدي حملت كبده
فلما صار في حجري	يتيماً ضائعاً وحده
تزوجت رجاء الخ	ير من يكفيني فقده
ومن يظهر لي الود	ومن يحسن لي رفده

هذه القضية التي طرحت أمام القاضي شريح، فما هو الحكم الذي حكم به ؟
اسمعه:

قد سمع القاضي ما قلتما وعلى القاضي جهد إن عقل
قال للجدة بيني بالصبي وخذي ابنك من ذات العلل
إنها لو صبرت كان لها قبل دعواها يبغيها البدل
فقضى به للجدة.

القضية الثانية: مع ابن القاضي شريح، فقد جاء ولده وقال له: يا أبت إن بيني وبين قوم خصومة فانظر فيها، فإن كان الحق لي قاضيتهم ، وإن كان علي صالحتهم، ثم قصّ عليه قصته فقال له: انطلق فقاضيتهم، فمضى إليهم ابن القاضي ودعاهم لمقاضتهم في المحكمة، وما أن مثلوا أمام القاضي قضى لهم على ولده، فلما رجع شريح وابنه إلى البيت قال الولد لأبيه: فضحتني يا أبت ، والله لو لم استشرك من قبل لما لمتك، فقال شريح القاضي: يا بني لأنت أحب إلي من ملء الأرض من

أمثالهم ولكن الله عز وجل أعز علي منك، لقد خشيتُ أن أخبرك بأن الحق لهم فتصالحهم صلحاً يفوت عليهم بعض حقك ، فقلت لك ما قلت .

أيها الإخوة: وأما القضية الأخيرة فهي عظيمة وهامة، ووالله لولا الإسلام والإيمان ، ولولا الله لما حكم فيها بالعدل، ذلك أن المدعي فيها أمير المؤمنين وابن عم النبي الأمين سيدنا علي بن أبي طالب .

فقد افتقد سيدنا علي درعه أثناء عودته من إحدى المعارك ، فلما قدم السوق وجد رجلاً يهودياً يبيعها، فأسرع إليه وقال: هذه درعي سقطت عن جمل لي، فقال البائع اليهودي: بل هي درعي وفي يدي

يا أمير المؤمنين، فقال سيدنا علي: بل هي لي لم أبعها ولم أهبها لأحد، فقال اليهودي: بيني وبينك قاضي المسلمين، فقال: قد أنصفت فهلّم إليه، وما هي إلا لحظات حتى وقفا بباب القاضي شريح، فقال: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: وجدت درعي مع هذا ، وقد سقطت مني في يوم كذا ، وهي لم تصل إليه لا ببيع ولا هبة.

فقال شريح القاضي: ما تقول أيها الرجل؟ فقال: الدرع درعي وهي في يدي، ولا أتهم أمير المؤمنين بالكذب. وهنا قال شريح: يا أمير المؤمنين لا ريب عندي في أنك صادق وأن الدرع درعك ولكن لا بدّ لك من شاهدين يشهدان على صحة دعواك، فقال سيدنا علي: نعم، عبدي قنبر وولدي الحسن يشهدان، فقال الإمام شريح: ولكن شهادة الابن لأبيه لا تقبل يا أمير المؤمنين. وهنا التفت سيدنا علي إلى اليهودي وقال: خذها فليس عندي شاهد غيرهما، فقال اليهودي: هل هذا هو دينكم! أمير المؤمنين يقاضيني أمام قاضيه ، وقاضيه يقضي لي عليه! أشهد أنّ هذا الدّين الذي يأمر بهذا دين الحق، أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، اعلم أيها القاضي أنّ الدرع درع أمير المؤمنين وقد تبعت جيش صفين

فسقطت الدرع من جملة فأخذتها، فقال سيدنا علي:

. أما وإنك قد أسلمت فإني وهبتها لك، ووهبت لك هذا الفرس معها أيضاً.
هذه هي عدالة الإسلام، وهذا هو القاضي شريح الذي بقي قاضياً زمن سيدنا
عمر وعثمان وعلي ومعاوية وعاش مئة وعشر سنين ، وتوفي سنة ثمان وسبعين
هجرية ، وترك لقضاة القرن الواحد والعشرين مثلاً يضرب في عدالة القضاء.
إنّ سيدنا شريحاً حجة على كل قاض في عصرنا ، وسوف يسأل الله القضاة في
عصرنا عن عدالتهم فإن قالوا يوم القيامة: لقد عجزنا وخنّا وغدرنا ، فسوف يجيبهم
الله تعالى: ولكن شريحاً لم يغدر ولم يعجز، وغداً سيعلم الظالم من الخاسر، غداً الظالم
ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر أن ينصفه الله تعالى ونصر الله قريب إن بقينا هنا، وما
أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الجالس فيها عليه أن
يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله •

صلى الله
عليه
وسلم

• صفة الصفوة . أسد الغابة ٣٩٤/٢ . الإصابة في تمييز الصحابة . البداية والنهاية ٢٢/٩ .
تهذيب التهذيب ٣٢٨/٤ حلية الأولياء ١٣٢/٤ . شذرات الذهب ٨٥/١ . النجوم الزاهرة
١٩٤/١ . وفيات الأعيان ٤٦٠/٢ .

(١٤١)

الإمام أبو إدريس الخولاني

(٨ . ٨٠ هـ)

الحمد لله الذي ذرأ وبرأ وصور العالم صورا ، وخلق من الماء بشراً فشق له سمعاً وبصراً وأمضى بقدرته وإرادته قضاءً وقدرًا ، وأظهر بحكمته من آياته عبرا ، جبر من خضع لديه ووقف بالدِّلة منكسرا ، وأغنى بفضله من تمسك بجبله وأمسى إليه مفتقرا.

فسبحانه من إله ليس في قدرته مرا ، ولا في وحدانيته امترا، وهو السميع البصير الذي يسمع ويرى.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له نظر إلى الماء فعاد من الهيبة حجرا، وإلى الجماد فسال برحمته كالسيل وجرى.

وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله تواضع فلم يبد تكبرا، وقطع ليالیه يناجي الله سهرا، بسط كفاً منكسرا ، وجاد بالدنيا علانية وسرا، فاستنشق منه العارفون عنبرا وعطرا

يا من تخيّرهُ الإله لخلقه فحباه بالخلق الزكي الطاهر

أنت النبي وخير عصابة آدم يا من يجود كفيض بحر زاخر

ميكال معك وجبرئيل كلاهما مدد لنصرك من عزيز قاهر

روحي الفداء لمن أخلاقه شهدت بأنه خير مخلوق من البشر

عمت فضائله كل العباد كما عم البرية ضوء الشمس والقمر

اللهم صلّ وسلم وبارك وعظم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين رفع

الله لهم ذكرا، وسلم تسليما.

أما بعد فيا معشر الإخوة الكرام:

كلما فتحنا سجل الصفحات المشرقة لأمتنا الإسلامية وأبطالها الميامين، وجدنا قصائد العظمة مكتوبة بكل لغات الأرض ولهجاتها، كلما استعرضنا شخصية من الشخصيات الإسلامية أحسنا برجفة في قلوبنا ونحن نرى ما قدموه للإسلام ليصل إلينا صافياً ثراً كاملاً، مساكين أولئك الذين لم يقرؤوا عن عظماء الإسلام، لأنه يستوي في حقهم الماضي والحاضر والزمان والمكان .

إن الطيب يعبق بصفحات الماضي وهو يرسل لنا نسائم تاريخهم وأعمالهم. نحن اليوم مع قاض كبير، كان قاضي دمشق في عصره، وكان خطيبها الأول وعالمها الأكبر وواعظها وعميد مسجدها الأول، تطلع علماء عصره إلى مقامه، وتمنى كل عالم وخطيب أن ينال تلك المكانة التي نالها ضيفنا اليوم، كان إذا تكلم ارتجل درساً لم يسمع الناس مثله، هزّ فيه القلوب ولعب بالعواطف، وملك المشاعر وجاء بشيء عجيب، مما نبه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى مكانته، فولاه القضاء فقام به خير قيام، لم يرتش، ولم يقبل هدية، ولم يبع دينه بدنياء، وكان علماً من أعلام دمشق ، نحن اليوم ننزل ضيوفاً على سيدنا أبي إدريس الخولاني واسمه عائذ بن عبد الله.

ومع الحلقة واحد وأربعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام أبي إدريس الخولاني :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد هذا الإمام عام فتح مكة في حياة سيدنا رسول الله ﷺ ، قدم من اليمن وسكن خولان وهي قرية بجوار داريا ، قدم مع قومه فدخلوا على سيدنا معاوية بن أبي سفيان ليسلموا عليه ، فما أن استقر بهم المقام حتى قال سيدنا معاوية: يا أهل اليمن إن فيكم خلافاً ما تخطئكم . قالوا : ما هي ؟ قال: الجود

والحدّة وكثرة الأولاد. وهنا انبرى سيدنا أبو إدريس للكلام فقال: أما ما ذكرت عن الجود فذلك لمعرفتنا من الله عز وجل بحسن الخلف، وأما الحدّة فإن قلوبنا ملئت خيراً فليس فيها للشر موضع، وأما كثرة الأولاد فإننا لسنا نعزل ذلك عن نساءنا. قال سيدنا معاوية صدقت لا يفضض الله فاك.

معشر الإخوة: واستوطن سيدنا أبو إدريس قريباً من داريا ، وكان يأتي دمشق ليتتلمذ على عظماء عصره حملة الكتاب والسنة ، فتتلمذ على سيدنا أبي ذر الغفاري وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وابن عباس ، حتى كان يوم من الأيام فدخل دمشق إذ به يرى فتىً براق الثنايا ، وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه ، فسأل عنه فقالوا: هذا معاذ بن جبل صاحب سيدنا رسول الله (فقال في نفسه: أبكر غداً حتى ألقاه وليس معه أحد) ، فلما كان الغد هجر (جاء باكراً) فوجد سيدنا معاذاً قد سبقه إلى المسجد ووجده يصلي، فانتظره حتى قضى صلاته ثم جاء من قبل وجهه فسلم عليه ثم قال: والله إني لأحبك لله. فقال: آله؟ فقلت لله. فأخذ بمجوبة ردائي وجذبني إليه وقال: أبشر فإني سمعت رسول الله يقول: قال الله تبارك وتعالى وجبت محبتي للمتحابين في، والمتجالسين في ، والمتزاورين في، والمتبازلين في، والمتحابون في الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله) كانت تلمذته على الرعيل الأول قد رفعته إلى خلافتهم في العلم ، فورث مكانة سيدنا أبي الدرداء سيد أهل الشام، حتى قال فيه تلميذه مكحول الدمشقي: ما رأيت مثل أبي إدريس الخولاني.

كان لسيدنا أبي إدريس جلاله عجيبة عند الناس ، يجلس في مجلس وعظه وتحديثه معظماً للعلم وحديث رسول الله، ومن عظم حديث رسول الله فكأنه عظمه في حياته، وسيدنا أبو إدريس كان يحدث بالأحاديث من غير ذكر لراويها، فقال له رجل: هذا الحديث عمن يا أبا إدريس (أي صحابي رواه) فقال: لأننا أقدر على

الإسناد في علم الحديث (أنت يهملك متن الحديث، يهملك أوامر النبي ماذا يهملك الصحابي، خذ زبدة الحديث) .

وأرى لزماً علي . إخواني . أن أحضر معكم مجلساً لسيدنا أبي إدريس في مسجد دمشق الذي سمي فيما بعد بالمسجد الأموي حينما جدده الوليد بن عبد الملك. تعالوا لأشهد معكم مشهداً لم تشهد أعينكم مثله، ما سمعنا به إلا مرة واحدة ، فقد كان سيدنا أبو إدريس وهو عميد المسجد وشيخه (مدرسه ومعلمه وسيد علمائه) كان فيه حلقات تدرسية يبدؤونها بتلاوة القرآن الكريم، جميعهم يدرسون القرآن ، فكانت كل حلقة إذا وصلوا إلى سجدة يرسلون إلى سيدنا أبي إدريس. لماذا؟ لكي يقرأ لهم هذه الآية بصوت مرتفع يسمعه جميع الحلقات يتلوا آية السجدة وينصت الجميع لقراءته العذبة فيسجد لها ويسجد أهل الحلقات جميعاً. وربما سجدوا في الجلسة الواحدة اثنتي عشرة سجدة.

وما أن ينتهي درس التجويد والحفظ والإقراء حتى تأتي جميع الحلقات فتجتمع إلى سيدنا أبي إدريس ليأخذوا على يديه التوجيهات النبوية صباحاً ، يحدثهم مرة عن حديث، ومرة عن غزوة، ومرة عن موعظة، يفعل ذلك كله من حفظه لا يتوقف حتى تقام الصلاة أو يقوم هو من مجلسه.

ومرة تحدّث عن غزوة لسيدنا النبي (والنبي ﷺ غزا سبعاً وعشرين غزوة خلال تسع سنوات) راح يسرد لهم الغزوة وكأنه حضرها مع سيدنا محمد ﷺ ، استوعب تفاصيلها ووقائعها حتى قال له رجل في ناحية المسجد: أحضرت هذه الغزوة ؟ فقال : لا . فقال الرجل: قد حضرتها أنا مع رسول الله ﷺ ولأنت أحفظ لها مني. كان عظيماً إذا تحدّث بالسّير والجهاد، وعظيماً إذا حدّث بالأحاديث النبوية، وكان إذا اتخذ هيئة في الدرس لا يغيرها حتى ينتهي من مجلسه، كان إذا جلس لم يحتب حتى يقوم، وإذا احتبى لم يحلّ حبوته حتى يقوم.

ما رأيكم . يا إخوة . أن نأخذ من فم هذا الإمام حديثاً نحفظه جميعاً عن رسول الله؟ حديث واحد أنتقيه لكم كان يؤثر جداً في نفس سيدنا أبي إدريس، كان إذا قرأه جثا على ركبتيه من شدة تأثره به ، جاهزين ، نحفظه هذا الأسبوع كرمال سيدنا محمد ، نحن الآن في مجلس سيدنا أبي إدريس وهو يقول: سمعت أبا ذر الغفاري يقول: قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى :

﴿ يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا. يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أباي فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعتم فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي كلكم عار إلا من كسوت فاستكوني أكسكم. يا عبادي لم يبلغ ضرركم أن تضروني ولم يبلغ نفعكم أن تنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم اجتمعوا وكانوا على أفجر قلب رجل منكم لم ينقص ذلك من ملكي مثقال ذرة. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني جميعاً فأعطيت كل إنسان منهم مسألته لم ينقص ذلك من ملكي إلا كما ينقص المحيط إذا غمس في البحر.

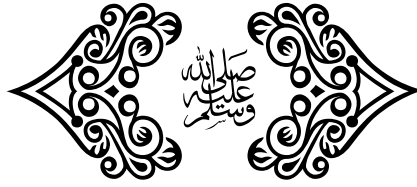
﴿ يا عبادي إنما هي أعمالكم ترد إليكم فمن وجد خيراً فليحمدني، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه ﴾ (م) .

فكان سيدنا أبو إدريس الخولاني يقول: فمن جعل همومه همّاً واحداً كفاه الله همومه، ومن كان له في كل واحدٍ هم لم يبال الله في أيها هلك. فيا أيها الناس عقّوا- يرحمكم الله- فإنه ما عفّ نساء قوم قط حتى تعفّ رجالهم.

أيها الناس: لا يهتك الله ستر عبد في قلبه مثقال ذرة خيراً.

(عليكم بالمساجد) فإن المساجد مجالس الكرام، ليعقبن الله الذين يمشون إلى المساجد في الظلم نوراً تاماً يوم القيامة.

أيها الأحبة والصحب: هذا نموذج من المجلس العظيم الذي كان يعقده عميد المسجد الأموي سيدنا أبو إدريس ، حتى جاء عبد الملك بن مروان فعينه قاضياً على دمشق فقال سيدنا أبو إدريس: عزلتموني عن رغبتى وتركتموني في رهبتى. وبقي سيدنا أبو إدريس سيداً كريماً ، وعلماً معلماً ، حتى وافته منيته في داريا سنة ثمانين هجرية لتبقى أرض الشام مباركة بالأحياء والأموات ، وأنا أدعوكم جميعاً لزيارة هذا الإمام في داريا غداً السبت عند صلاة المغرب ، لأقرأ معكم السلام عليه هناك على أرض داريا ، فهو يستحق الزيارة ولعل الله يستجيب دعواتنا عنده ، فمن أراد أن يزوره هناك فليبق معنا هنا ، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ. الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه ، وتحيتنا إليك ياسيدي يا رسول الله، الصلاة والسلام عليك .



• مصادر : تهذيب التهذيب لابن حجر ٥ / ٨٥ . حلية الأولياء لأبي نعيم ٥ / ١٢٢ . تهذيب

ابن عساكر ٧ / ٢٠٣ . تذكرة الحفاظ ١ / ٥٣ . سير أعلام النبلاء ٤ / ٢٥٢

(١٤٢)

الإمام عروة بن الزبير

(٢٣ . ٩٣ هـ)

الحمد لله الذي وفق لنشر محاسن التابعين وطيبها في أحسن كتاب ، وجعل ذلك
قرّة لأعين الأحباب، وذخيرة ليوم المآب .

أحمده سبحانه وتعالى وأشكره ، فبحمده يفتح كل كتاب ، ويختتم كل خطاب.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجلب كل ثواب وتدفع كل
عقاب.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أحيا بشريعته وطريقته قلوب ذوي
الألباب، والذي انقشع بنوره ظلام كل سحاب وكدر كل ارتياب ف:

سلامي على خير الأنام وسيدي حبيب رب العالمين محمد

بشير نذير هاشمي مكرم عطوف رؤوف من يسمى بأحمد

صلى عليك الله يا علم الهدى ما لاح بدر في السماء توقد

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه خير آل
وصاحب وسلم تسليماً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

أعود بكم اليوم أربعة عشر قرناً من الزمان، رحلة بعيدة في الزمان لألتقي مع
حضراتكم بأحد الفقهاء السبعة المتميزين الذين كانوا في مدينة سيدنا رسول الله،
فهو عالم المدينة قبل الإمام مالك، جمع الشرف من أطرافه: والده كان حواري سيدنا
رسول الله (ناصره) وابن عمته صفية، أخذ عنه الفصاحة وقوة الشخصية، وأمه
السيدة أسماء بنت سيدنا أبي بكر الصديق أخذ عنها الحلم والأناة والصبر.

وخالته السيدة عائشة أم المؤمنين أخذ عنها ما روته عن سيدنا رسول الله ، كما أخذ عنها الشعر ، وأخوه شهيد الإسلام الفارس المصلوب الخليفة بعد سيدنا الحسن البطل المقدام سيدنا عبد الله بن الزبير .

وكان شيخه الأول سيدنا زيد بن ثابت مترئساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض في عهد سيدنا عمر وعثمان وعلي ، وأما شيخه الثاني فكان سيدنا أبو هريرة سيد الحفاظ في عصره .

هؤلاء هم السادة الذين تربى على أيديهم حتى أصبح هذا الإمام وعاءً عظيماً من أوعية العلم وبحراً لا تكدّره الدلاء ، هذا هو العالم الأجل ، كريم الأبوين أبي النفس القرشي الأسدي الذي نزل اليوم جميعاً ضيوفاً عليه إنه :

سيدنا أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام

ومع الحلقة اثنين وأربعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن سيدنا عروة بن الزبير :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه .

إخوة الإيمان: في عصر ملئ علماً وعدلاً ، ونصراً وفخراً ، وبالضبط في آخر خلافة سيدنا عمر بن الخطاب وفي سنة ٢٣ هـ ولد سيدنا عروة ، وكان أصغر من أخيه الخليفة الراشدي السابع سيدنا عبد الله بعشرين سنة . وفي هذا الجو الصحي الإسلامي العظيم ، في جو كله طهر وحياء وعفاف وعلم وتقوى وورع نما وترعرع فحفظ الحديث والفقه وانشغل بالعلم والعبادة فكان ورده في الليلة الواحدة ربع القرآن ، ومع العلم الذكر والعبادة فكان يسرد الصوم سرداً ، لم يتركه إلا يوماً واحداً واسمحوا لي أن أنقل لكم هذا المشهد الفريد الذي أبطاله سيدنا عروة وأخوه مصعب وعبد الملك بن مروان ، أنتقل بكم إلى الكعبة المشرفة إلى حجر إسماعيل ، حيث أنقل لكم هذا الحدث ، إذ اجتمع الأربعة القرشيون وقالوا : تمنوا . فقال سيدنا عبد

الله بن الزبير: أنا أتمنى الخلافة. وقال سيدنا مصعب: أنا أتمنى إمرة العراقيين وأتزوج عقيلي قريش وأجمل جميلات العصر سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة، وقال عبد الملك: أتمنى أن أقعد مقعد معاوية وأحكم الأرض. وقال سيدنا عروة: أنا لست في شيء في ذلك: أنا أتمنى أن أكون عالماً وأن أدخل الجنة.

يقول الراوي يا سادة يا كرام: فلم تكن إلا سنون حتى نال كل من الثلاثة ما تمناه: حكم مصعب العراقيين وتزوج العقيلتين، وبويع عبد الله بالخلافة وكان له الحجاز والعراق ومصر وأطراف الشام وكاد يدخل دمشق لولا قضاء الله فقضى شهيداً كريماً بيد الحجاج الفاسق. وعاد الأمر إلى عبد الملك بن مروان فحكم الأرض، وأصبح سيدنا عروة بن الزبير عالم الزمان، فكان من تلامذته سيدنا جعفر الصادق عالم الشيعة، والإمام الزهري عالم الحديث، وعطاء بن أبي رباح عالم مكة، وعمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين وابن المنكر سيد أهل زمانه.

حتى ما كان يدخل المسجد النبوي الشريف إلا ويتسارع إليه الناس يستفتونه في دين الله .

واتخذ له قصرًا منيفاً في العقيق وحوله أرض زرع فيها النخيل ، وكانت من أجمل البساتين، كان كلما دخله قرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، وكان هذا البستان ما إن يثمر الرطب حتى يثلم حائطه (يثقبه) ثم يأذن للناس فيدخلون يأكلون ويحملون الرطب إلى بيوتهم ، فهل رأيتم مثل هذا الإمام؟ وحين اتخذه في العقيق أي بعيداً عن المسجد النبوي قالوا له: جفوت رسول الله ﷺ . فقال لهم: ما جفوته. ولكني رأيت مساجدهم لاهية، وأسواقهم لاغية، والفاحشة في فجاجهم عالية، فكان فيما هنالك عما هم فيه عافية.

وحفر بئراً في جوار بستانه كانت مأوها طيبة يقصدها الناس ويتزودون منها إلى بلادهم يحملونها كما يحملون زمزم من مكة.

معشر المسلمين: وما أن أسس سيدنا عروة قصره حتى فكر بالزوجة فأبي البيوتات يصاهر؟ كان يطوف حول الكعبة المشرفة فوقعت عيناه على سيدنا عبد الله بن عمر فتقدم إليه وخطب ابنته سودة، فلم يجبه بشيء لأن الكلام بغير الذكر والدعاء في الطواف مكروه، فلما صار في المدينة جاء إليه زائراً فقال له: كنت قد ذكرت أنك تريد سودة. فقال نعم. فقال يا غلام ادع عبد الله بن عبد الله ونافعاً مولى عبد الله فلما حضرا قال: هذا عروة بن أبي عبد الله وقد علمنا حاله وقد خطب إلي سودة وقد زوجته إياها بما جعل الله للمسلمات على المسلمين من إحسان معروف أو تسريح بإحسان وعلى أن يستحلها بما يستحل مثلها. أقبلت يا عروة؟ قال: نعم. قال: بارك الله لك.

هكذا بكل بساطة ، بدون تعقيدات الحياة .

إخوتي في الله: لا أريدكم أن تخوضوا في علم هذا الإمام العظيم الفقيه، ولكن احفظوا عنه ثلاث وصايا هي من عيون فقهه وحكمته فهو القائل: ما برَّ والده من شدَّ الطرف إليه؟ وهو القائل: رب كلمة ذلَّ احتملتها (تحمّلتها) أورثني عزاً طويلاً. وقال: ما حدثت أحداً بشيء من العلم قط لا يبلغه عقله إلا كان ضلالة عليه. حكمة بالغة فاحفظوها.

أيها الأحبة والصحب: ولما أراد تعالى إظهار البركة لأهل الشام ساق إليها الأخيار والأبرار وكان منهم سيدنا عروة بن الزبير ، فها هو يدخل بلدكم دمشق فاستقبلوه بالتزويج عنه ، ها نحن نستقبله على باب الخلافة الأموية في الدار الخضراء جوار الجامع الأموي سنة ست وثمانين للهجرة، في عهد الوليد بن عبد الملك ، الذي حقق هذا الحلم الذي لا يزال يتعلل بذكره قادة المعسكر الشرقي والغربي : حلم العدالة الاجتماعية، فجعل الأمة كلها واحدة ليس فيها عاجز ولا محتاج، وفعل في القرن السابع الميلادي ما لم تفعل مثله دولة في قرن العشرين، قضى على الفقر والمرض والجهل، وجعل لكل أعمى مرافقاً يقوده وأجرة هذا الخادم على

خزانة الدولة، وجمع الأيتام وجعل لهم مدارس مجانية على نفقة الخزينة، وجعل للفقهاء والعلماء رواتب من خزانة الدولة، ومنع الشحادة والسؤال ورتب للفقراء العاجزين ملاجئ وقرر لهم رواتب، ولو كان الحديث عن الوليد لسمعتهم من سيرته العجب العجاب وقد ذكرته لكم يوم تحدثت عن تاريخ الخلفاء في كتابي تاريخ المئة الأولى الهجرية.

أيها السادة: الوليد استقبل سيدنا عروة كأعز ما يستقبل أمير أو ملك أو قائد فهو أخو خليفة، ومن الأسرة التي طالما عادت بني أمية ونازعتهم الملك بالسيف واستقبله معزاً مكرماً كما يجب أن يستقبل العلماء في عصر قوة الدولة الإسلامية. لكن ضيف الخليفة سرعان ما أصيبت رجله الآكلة (الغرغرينا) فحزن عليه الخليفة حزناً بالغاً وحشد له الأطباء من كل مكان ليداووه من هذا الداء الذي نجم في رجله، وخرج الأطباء وقرروا جميعاً لا بد من قطع رجله. وجزع الخليفة ولم يدع باباً من أبواب الترغيب والترهيب إلا وفتح له وعرض عليهم كنوز الخزانة ولكنهم عجزوا. وترك لنا التاريخ وصفاً لهذه العملية الجراحية التي تمت قبل ألف وأربعمئة سنة في الوقت الذي كان فيه أهل أوربة يسرحون فيه مع الأنعام. عرضوا عليه الخمر ليسكروه فلا يحس بألم القطع، فأبى وقال: لا أستعين على قدر الله بمعصية الله، فأرادوا أن يشرب المرقد (البنج) فأبى لئلا يغيب لحظة عن ذكر الله فال لهم: فماذا يفعلون ؟ إذا رأيتموني دخلت في الصلاة وجلست للتشهد ودخلت على الله فافعلوا ما شئتم ، فإنني أكون حاضراً مع الله تعالى.

الصلاة صلة بين العبد وربّه، فلما رأوه جلس للتشهد قطعوا اللحم بالسكين المحمي بالنار حتى إذا بلغوا العظم نشره بالمنشار ، ثم عمدوا إلى قطع الدم بالطريقة التي كانوا يعرفونها جاؤوا بالزيت المحمي فغطسوها به وكووا محل الدم وعندها أغمي عليه. فقال الوليد: ما رأيت شيخاً قط أصبر من هذا.

واستيقظ سيدنا عروة ليرى رجله وقد وضعت في الطست فقال: لقد علم الله تعالى الذي حملي عليك أني ما مشيت بك إلى معصية قط.

وسمعت صرخه في القصر؟ ماذا حدث؟ سقط ابن سيدنا عروة من أعلى سطح في اصطبل الوليد بن عبد الملك فضرته الدواب بقوائمها فقتلته. وتماسك سيدنا عروة وجاؤوا يعزونه فوجدوه مستقبل القبلة يتوجه إلى الله تعالى وسمعوه يقول: اللهم كان لي بنون سبعة فأخذت واحداً وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرفاً وأبقيت ثلاثة، ولئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت فقد أبقيت.

وكانت أجمل تعزیه عزيزها سيدنا عروة قول رجل له : والله يا أبا عبد الله ما بك حاجة إلى المشي ولا أرب في السعي وما أعددتك للصراع ولا للسباق وقد تقدمك عضو من أعضائك وابن من أبنائك إلى الجنة، والكل تبع للبعض إن شاء الله ، ولقد أبقي الله منك لنا ما كنا إليه فقراء علمك ورأيك والله ولي ثوابك والضمين بحسابك. فقال عروة: ما عزاني أحد مثلك.

أيها الإخوة الكرام: كل مصاب في الدنيا يوجد من هو أشد منه مصاباً، ومن نظر إلى من هو دونه رضي واسترح وليس إلا بالصبر والثقة بالله.

فيا أيها المصابون: إن الله هو الذي أعطى وهو الذي أخذ، وما دفن أحد من المسلمين في التراب ولكن ذهب إلى ضيافه أكرم الأكرمين ، فهل تأسون لو كان استضافه قريب كريم أو صديق مخلص؟ فكيف وقد صار إلى أكرم الأكرمين.

وقد انتقل سيدنا عروة إلى أكرم الأكرمين وهو ابن سبع وستين سنة ، سنة ثلاث وتسعين من الهجرة، والتقى هناك مع حبيبنا سيدنا محمد، فمن أراد أن يلتقي بهما هناك فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله **الصلاة والسلام عليك.**

(١٤٣)

الإمام علي بن سيدنا الحسين

(٣٨ . ٩٤ هـ)

الحمد لله الذي تقدّر بكل كمال، وتفضل على عباده بجزيل النوال، بيده الخير كله فله الحمد على كل حال أحمدته على ما منح من النعماء، وأشكره في البكور والأصال.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله تقدّس عن الأشباه والأمثال ، وجل عن صفات المحدثين من الفناء والزوال والتحول والانتقال، جواد لا يبخل، وغني لا يفتقر، وكريمٌ يتدبّر بالإحسان قبل السؤال

إلهي بك أستجير ومن يجير سواكا فارحم ضعيفاً يحتمي بحماك

يا رب قد أذنبت فاغفر ذلتي أنت المجيب لكل من ناداك

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المنعوت بالخلق العظيم وشرف الخلال.

اللهم صلّ وسلم وبارك وعظم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعشيرته

وأنصاره خير صحب وآل ، الموصوفين بنعوت الجمال وسلم تسليماً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

استعدوا اليوم فنحن على موعد لزيارة إمام من أئمة المسلمين ، نحن اليوم في زيارة من ؟ أي سيد من سادات الأمة المحمدية ، أزور مع حضراتكم اليوم سيداً من سادات آل البيت النبوي الشريف، وأحد أحفاد أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب من ولده سيدنا الحسين السبط . والمنسوبون لسيدنا علي قسمان : سادة أشراف ، وعلويون ، السادة الأشراف هم أبناء سيدتنا فاطمة وأحفادها ، والعلويون أبناء سيدنا علي من غير السيدة فاطمة كنسل محمد بن الحنفية بن سيدنا علي كرم

الله وجهه . ونحن اليوم مع سيد شريف . كان ثقة ، كثير الحديث عالياً ، رفيعاً ، ورعاً قال عنه من أرخ له (ابن تيمية) : إنه من كبار التابعين وساداتهم علماً وديناً.

وقال عنه الإمام الزهري: ما رأيت أفقه منه، وقال ابن المسيب: ما رأيت أورع منه، ولكثرة عباداته وعلو صفاته لقب بزين العابدين وسيد العابدين والزكي الأمين وذو النفقات، إنه جدي سيدنا أبو محمد علي بن سيدنا الحسين رضي الله عنهما.

ومع الحلقة ثلاثة وأربعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن هذا الإمام:

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوتي في الله: ولد هذا الإمام بالمدينة المنورة سنة ثمان وثلاثين من الهجرة أيام جده سيدنا علي ابن أبي طالب، وقبل وفاته بسنتين، فأبوه سيدنا الحسين الشهيد، وأمه بنت ملك الفرس يزدجرد وكانت تلقب بملكة النساء، وكان سيدنا علي زين العابدين مع أبيه يوم استشهاد في كربلاء، وكان مريضاً محموراً نائماً على الفراش لذلك لم يقتل، وكان له ثلاث وعشرون سنة فلم يتعرضوا له، بل أحضروه مع آله إلى دمشق، فأكرمه يزيد بن سيدنا معاوية وورده مع آله إلى المدينة المنورة.

اشتهر هذا الإمام بتبعه للحكمة من أفواه الرجال الثقات سواء كانوا أحراراً أم عبيداً ، لا يهمه أن يجلس في حلقة من دونه في الشرف، كان يدخل المسجد فيشق الناس حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم فيقال له: غفر الله لك أنت سيد الناس تأتي تتخطى حتى تجلس مع هذا العبد، فكان يقول: العلم يبتغي ويؤتى ويطلب من حيث كان.

إخوة الإيمان : بقي سيدنا علي بن زين العابدين هكذا دأبه حتى أصبح علماً من أعلام الأمة وإماماً يقتدى به في الدين والبر والتقوى ، كان يستمد من أنوار جده المصطفى ﷺ ويتأسى به في كل أحواله، يحكى أنه طلب غلامه مرة وناداه مرتين فلم يجبه مع أنه سمع فقال له: أما سمعت ندائي؟ فقال: بلى قد سمعت، فقال

له: ما الذي حملك على ترك إجابتي. قال أمنت منك وعرفت حسن خلقك وطمعت في حلمك فتكاسلت وأبطأت في الإجابة، فسّر زين العابدين من حسن إجابته وقال: الحمد لله الذي أمن مني عبدي.

وقامت مرة جارية له تصب على يديه الماء في طست وهو يغسل يديه بعد الطعام، فإذا بالإبريق يسقط من يدها في الطست ويتناثر رذاذ الماء ورشاشة على وجهه وثيابه، فنظر إليها فقرأت قوله تعالى: ﴿وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾، فقال: كظمت غيظي، ثم قرأت: ﴿وَالْعَافِينَ مِنَ النَّاسِ﴾، فقال: عفوت عنك، ثم قرأت: ﴿وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، فقال: اذهبي فأنت حرّة لوجه الله.

وكانت نساء قريش قد رغبن عن الأولاد وزهدن بهم، فلما رأين نشأة سيدنا علي زين العابدين صارت كل منهن تريد أن تنجب ولدًا رجاء أن يكون مثله في أخلاقه ودينه.

من كلامه (عجبت لمن يحتمي من الطعام لضرّه ولا يحتمي من الذنب لموته) من قنع بما قسم الله فهو من أغنى الناس، أربع عزّهن ذل: البنت (ولو مريم) والدّين ولو درهم، والغربة ولو ليلة، والسؤال ولو أين الطريق.

شهد له كل من عرفه ورآه وتلمذ على يديه بأنه كان أفضل بيت رسول الله حتى قيل: لم يكن هاشمي في عصره أفقه منه. سئل مرة: كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر عند رسول الله ﷺ فأشار بيده إلى القبر الشريف ثم قال: بمنزلتهما منه الساعة (كانا معه في الدنيا وما هما معه في البرزخ).

وجاء آخر فقال: أخبرني عن أبي بكر قال: عن الصديق تسأل؟ قال: وتسميه الصديق؟ قال: ثكلتك أمك قد سمّاه صديقاً من هو خير مني رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار، فمن لم يسمّه الصديق فلا صدّق الله قوله. اذهب فأحبّ أبا بكر وعمر وتولّهما فما كان من أمر ففي عنقي.

وقيل لسيدنا سعيد بن المسيّب: ما رأيت أروع من فلان. فقال له: هل رأيت علي بن الحسين؟ قال: لا قال: ما رأيت أروع منه. بعث إليه والي العراق بمئة ألف فكره أن يقبلها وخاف أن يردها فاحتبسها عنده فلما قتل المختار والي العراق بعث بها إلى عبد الملك بن مروان الخليفة، وقال له: ابعث من يقبضها فأرسل إليه عبد الملك: يا بن العم خذها قد جعلتها لك، فقبلها.

لكنه كان لا يحتفظ بهذا المال لنفسه فقط بل كان يتصدّق به في السرّ على مساكين المدينة ويقول: (إن الصدقة في سواد الليل تطفئ غضب الرب) فلما مات وغسلوه رأوا آثار حمل الخبز على ظهره إلى منازل الأرمال ، وكان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم ، فلما مات سيدنا علي فقدوا ذلك الذي كان يأتيهم بالليل ، فحسبوا عدد من كان يعولهم فإذا هو مئة بيت. كان يعول مئة بيت رغم أن عدد أولاده كان أربعة عشر ولداً ، منهم الإمام الباقر، أبو جعفر محمد ، سمي بالباقر من بقر العلم أي شقه فقد عرف أصله وخفيه، وكان إماماً مجتهداً أهلاً للخلافة، ورث عن أبيه المجد والسؤود والشرف والثقة، وهو أحد الأئمة الاثني عشر الذين تبجلهم الشيعة الإمامية وتقول بعصمتهم وبمعرفتهم بجميع الدين، والحق ألا عصمة إلا للملائكة والنبين ، وكل أحد يصيب ويخطئ ويؤخذ منه ويترك سوى سيدنا النبي ، فإنه معصوم مؤيد بالوحي .

وكان الإمام محمد الباقر بن سيدنا علي زين العابدين يكرر ويقول (اللهم أني أتولى وأحبّ أبا بكر وعمر ، اللهم إن كان في نفسي غير ذلك فلا نالني شفاعة سيدنا محمد يوم القيامة)

معشر الإخوة الكرام: عرف سيدنا زين العابدين بالتقوى و العبادة و شدة الخشوع ، كان إذا توضأ اصفرّ لونه فإذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة ، ف قيل له عن ذلك: فقال تدرون بين يدي من أقوم ومن أناجي.

يُصلي كلَّ يوم ليلة ألف ركعة بتمام الخشوع والركوع ، وقد وقع حريق في بيته وهو ساجد فجعلوا ينادون يا بن رسول الله النار، فما رفع رأسه حتى طفعت، فقبل له في ذلك فقال: ألهتني عنها النار الأخرى. وكان لدعائه في السجود لذة ومناجاة من دعائه (اللهم إني أعوذ بك أن تحسن في لوائح العيون علانيتي وتقبح في خفيات العيون سريري، اللهم كما أسأتُ وأحسنَتَ إلي فإذا عدت فعد علي. اللهم لا تكلني إلى نفسي فأعجز عنها، ولا تكلني إلى المخلوقين فيضيعوني. عُبيدك بفنائك، مسكينك بفنائك، سائلك بفنائك، فقيرك بفنائك، يقول طاووس: فو الله ما دعوت بها في كرب قط إلا كشف عني)

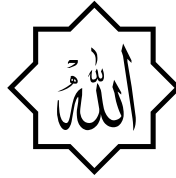
أيها السادة الكرام: هذا التذلل بين يدي الباري عز وجل أورثه عزاً وجاهاً بين الناس، وبعمامته التي كان يرخي عذبتها بين كتفيه خلف ظهره، كانت له جلالة عظيمة في قلوبهم وحق له والله ذلك فقد كان أهلاً للخلافة لشرفه وسؤدده وعلمه وكمال عقله ، لما حج هشام بن عبد الملك قبيل توليه للخلافة، أراد استلام الحجر الأسود زوحم عليه، وإذا دنا جدي سيدنا علي بن الحسين من الحجر الأسود تفرقوا عنه إجلالاً له، فوجم لها هشام و قال: من هذا؟! فما أعرفه، فسمعه الشاعر الفرزدق فقال له على البديهة:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقى النقي الطاهر العلم
إذا رأته قریش قال قائلها	إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يغضي حياءً ويغضي من مهابته	فما يكلم إلا حين يبتسم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله	بجده أنبياء الله قد ختموا

إخوة الإيمان: عاش جدي زين العابدين سبعاً وخمسين سنة قضاها بالطاعة والعبادة ، فلما كانت سنة أربع وتسعين هجرية مرض ومرضاً شديداً ودخل عليه جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ يعودونه فقالوا له: كيف أصبحت يا زين رسول

الله فدتك أنفسنا؟ قال: في عافية ، والله محمود على ذلك، فكيف أصبحتم جميعاً قالوا: أصبحنا والله لك يا بن رسول الله محبين وادين . فقال لهم: من أحبنا الله أسكنه الله في ظل ظليل يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، ومن أحبنا يريد مكافأتنا كافأه الله عنا الجنة، ومن أحبنا لغرض ديننا آتاه الله رزقه من حيث لا يحتسب. ثم مات الإمام من يومه وصلي عليه وحمل إلى البقيع ليدفن بجوار آل البيت النبوي الشريف.

وهكذا قضيت مع حضراتكم نصف ساعة استغرقت حياة إمامنا، لأعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا؟ هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.



(١٤٤)

الإمام سعيد بن جبير

(٤٠ هـ . ٩٥ هـ)

الحمد لله مسهل ما صعب من الأمور الكائنات، المتقدّس عن الحدث والنقصان والآفات، المستحقّ لكمال النعوت والصفات، المسبّح بصنوف اللغات، المحمود على جميع الأفعال والحالات أحمده على ترادف نعمة السابغات، حمداً دائماً على ممر الأوقات والساعات .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة منزّهة عن الشك والشبهات.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله استخرجه من أشرف الآباء والأمهات، وابتعثه بالمعجزات البالغات، والآيات والحجج الواضحات، وختم به النبوة والرسالات، واتخذ له أتباعاً رباهم على البطولات، فهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ .

سيدي أبا القاسم يا رسول الله

يا خاتم النبأ إنك مرسل

إنّ الإله بنى عليك محبة

في خلقه ومحمداً سماً

صلى عليك الله يا خير الورى

اللهم صلّ وسلّم بارك وعظم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأنصاره إلى يوم الدين ونشر العظام الباليات وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

شخصيتنا اليوم شخصية مميزة ، تحدّت الموت مقابل كلمة الحق، لم يمنعه السلطان الجائر أن يقول كلمة الحق في وجهه، شخصيتنا اليوم تذكرنا بحديث عن

سيدنا رسول الله ﷺ حين قال : ﴿سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله﴾ ، نحن اليوم نزور إماماً من أئمة العراق (فرّج الله عنها) هو إمام حافظ مقرئ مفسّر فقيه بگاء شهيد سعيد سديد حميد، تابعي قالوا فيه: (كان أعلم التابعين بالقرآن : سيدنا مجاهد، وأعلمهم بالحج : سيدنا عطاء، وأعلمهم بالحلال والحرام سيدنا طاووس، وأعلمهم بالطلاق: سيدنا سعيد بن المسيب، وأجمعهم لهذه العلوم كلها شخصيتنا: سيدنا سعيد بن جبیر أستاذ الأساتيد في عصره، تتلمذ على يديه خلق لا يحصون، لأنه كان يحب نشر العلم وهو القائل: لئن أنشر علمي أحب إلي من أذهب به إلى قبري، وددت الناس أخذ ما عندي فإنه مما يهمني. إننا معشر السادة - مع شخصية اليوم ، فارس العلم وبطل الحق سيدنا أبو عبد الله سعيد بن جبیر .

ومع الحلقة أربعة وأربعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن سيدنا الإمام سعيد بن جبیر رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان: ولد هذا الإمام العلم في خلافة جدي سيدنا الحسن بن سيدنا علي رضي الله عنهما أي حوالي سنة / ٤٠ هـ / وتلقته عين العناية الإلهية من كل جانب، فحفظ القرآن في سن مبكرة، وهياً الله له أساتذة كانوا أعلام الأمة في عصرهم ، اسمعوا وافتخروا بأساتذتكم فقد تتلمذ على كبار الصحابة الكرام منهم جدي سيدنا عبد الله بن عباس، وأم المؤمنين السيدة عائشة ، وسيدنا أبو موسى الأشعري ، وسيدنا أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الروسي، وسيدنا عبد الله بن عمر، وسيدنا عبد الله بن الزبير ، وسيدنا أنس بن مالك، وسيدنا أبو سعيد الخدري، فأوتي الفضل من أوسع أبوابه حتى قيل فيه: ليس في أصحاب سيدنا ابن عباس مثله، كان يأتيه فيكتب عنه حتى يملأ منه صُحُفُهُ ، ثم يكتب على كفيه

ويديه إن فرغت الصحف، حتى أخذ علم هؤلاء جميعاً ، وشهدوا له أنه أعلم أهل الكوفة في عصره.

وكان عابداً مع العلم من الدرجة الأولى قال عن نفسه: ما مضت عليّ ليلتان منذ قتل سيدنا الحسين رضي الله عنه إلا أقرأ فيهما القرآن إلا مريضاً أو مسافراً، ومن كثرة عباداته أنه دخل الكعبة فقرأ القرآن كله في ركعة واحدة، وكان له في رمضان ختمة يقرأها ما بين العشاءين، قال وكانوا يؤخرون العشاء.

وفي كل سنة يحج من ذي القعدة من الكوفة، ويعتمر في رجب براً على الجمال ، هذا علاوة على الذكر والشكر لله تعالى ، فمن استطاع أن يفعل مثل فعل إمامنا، قال له جدي سيدنا ابن عباس مَرَّة: حَدِّثْ يا سعيد. فقال: أحدث وأنت هاهنا. فقال سيدنا ابن عباس: أو ليس من نعمة الله عليك أن تحدّث وأنا شاهد، فإن أصبت فذاك وإن أخطأت علمتك. فكان يحدث ويقول:

● التوكل على الله جماع الإيمان ، اللهم أني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك.

● والخشية أن تخشى الله حتى تحول خشيتك بينك وبين معصيتك فتلك الخشية.

● والذكر طاعة الله فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر وإنْ أكثر التسبيح وتلاوة القرآن.

ولقد نال سيدنا سعيد بن جبیر وساماً عظيماً من جدي ابن عباس ، فقد كان الناس يأتونه من الكوفة بعدما عمي يسألونه، فكان يقول لهم: تسألوني وفيكم سعيد بن جبیر .

وجاء رجل إلى سيدنا ابن عمر فسأله عن فريضة (مواريث) فقال له: ائت سعيد بن جبیر فإنه أعلم مني بالحساب وهو يفرض ما أفرض.

إخوتي في الله: وما أن نضجت شخصية إمامنا حتى صار إماماً يقتدى به ، وكان له مجلسان يحدث الناس فيهما: بعد الفجر حتى تطلع الشمس. وكان قد اتخذ عمامة قد أرحى عذبتها بين كتفيه أكثر من شبر.

وحينما تولى الحجاج بن يوسف الثقفي ولاية العراق والمشرق وراح يسوس الناس بالعصا ورآه والياً ظلوماً جبّاراً ناصبياً (يسب الصحابة) خبيثاً سفاكاً للدماء، وعرف كيف حاصر سيدنا عبد الله بن الزبير في الكعبة ورمأها بالمنجنيق وهدمها وأذل أهل الحرمين ، لما رأى ذلك كله منه قام هو والقراء بحملة عشواء عليه سنة ٨٢ هـ ، قام ليعلن للناس أن الحجاج ممن نسبّه ولا نخبه بل نبغضه في الله تعالى، فما كان من الحجاج إلا أن راح يصطاد مناوئيه واحداً واحداً فهرب سيدنا سعيد بن جبير من بلد إلى بلد، ترك أهله وعشيرته وزوجه الحامل وبقي هارباً من وجهه بين مكة والمدينة إلى سنة خمس وتسعين (١٣ سنة وهو هارب هائم على وجهه مهاجراً في سبيل الله) واستقرّ به المقام في مكة فلما تولى خالد بن عبد الله القسري ولاية مكة أرسل يطلبه فقال تلامذة الإمام: يا إمام إنا لا نأمنه عليك فبرى أن تخرج من مكة ، فقال سيدنا سعيد بن جبير: والله لقد فررت حتى استحييت من الله تعالى.

يقول الراوي يا سادة يا كرام: فجاء حراس والي مكة فساquوه بالحديد وهو ثابت الجنان كأنه ذاهب إلى الجنان، أخذوه وابنته في حجره هو وبعض أصحابه ، وحاول تلامذته أن يفدوه بأرواحهم فقال لهم: هونوا عليكم ما أراي إلا مقتولاً، وسأخبركم إني كنت وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء ثم سألنا الله الشهادة، فكلنا صاحبي رزقها وأنا أنتظرها.

ودّع التلامذة شيخهم وسبق بالحديد وهو غير هَيَّاب ، سيق من أمام الكعبة إلى الكوفة، وفي الطريق وصلوا إلى دير ليرتاحوا فيه فأبى أن ينزل ضيفاً على راهب الدير وقال: لا أدخل منزل مشرك أبداً. فقال راهب الدير: ها هنا أسود فأخاف عليك أن تفتك بك ، فقال: لا تخافوا علي من الأسود إن معي ربي يصرفها عني، فأخذوا

عليه موثقاً ألا يهرب، فبات الحراس داخل الدير، وبات سيدنا سعيد خارج الدير قائماً متعبداً ليلته يقرأ كتاب الله، والراهب في أعلى الدير يرقب هذا الأسير وهو يتعجب من فعله، فما هي إلا ساعات حتى أقبلت لبوة (زوجة الأسد) ودنت من سيدنا سعيد وهو يصلي وراحت تتمسح به ، ثم أمرت من قبل الواحد الديان أن تربص قريباً من سيدنا سعيد تحرسه من السباع، وأرسل الله لسيدنا سعيد الأسد زوج اللبوة ليجلس مع اللبوة يحرسان سيدنا سعيداً بأمر الواحد الأحد. لم يصدق الراهب والجنود ما رأَت العينان لكن الراهب صدّق أن من أطاع الله أطاعه كل شيء.

أيها الأحبة والصحب: وما أن أصبح الصباح حتى انصرف الأسدان وأقبل الراهب والحراس يقبلون عليه يقبلون يديه ورجليه ، وأعلن الراهب إسلامه لما رأى من صلاح سيدنا سعيد وأدب الأسدين معه، وراح الجنود يعتذرون منه ويقولون: حلفنا الحجاج بالطلاق والعناق إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نشخصك إليه (موجوداً) فمرنا بما شئت : فقال : امضوا لأمركم فياني لائذ بخالقي ولا راد لقضائه. فنظروا إليه وقد اغبر لونه ولم يأكل ولم يشرب ولم يضحك منذ يوم لقوه وصحبوه فقالوا: يا خير أهل الأرض ليتنا لم نعرفك، الويل لنا ، اعذرنا عند خالقنا يوم الحشر الأكبر.

أيها السادة: وما أن وصل سيدنا سعيد بن جبير وداست قدمه المباركة أرض الكوفة حتى أدخل على الحجاج الطاغية، سأله ما أسمك فقال: سعيد بن جبير . قال: بل أنت شقي بن كسير قال: بل أمي كانت أعلم باسمي منك. قال: شقيت أنت وشقيت أمك.

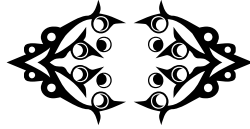
قال: الغيب يعلمه غيرك، قال: لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى، قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً. قال ويلك يا سعيد قال: الويل لمن زحزح من الجنة وأدخل النار. قال: اختر أي قتلة تريد أن أقتلك. قال: اختر لنفسك يا حجاج، فو الله ما تقتلني قتلة إلا قتلتك قتلة في الآخرة. قال: اذهبوا به فاقتلوه. فلما خرج من الباب

ضحك. قال: ما أضحكك قال عجبت من جرأتك على الله وحلمه عليك. فقال: هاتوا النطع والسيف العريض واقتلوه هنا. فقال: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً قال: وجهوه لغير القبلة. فقال: فأينما تولوا فثم وجه الله. قال: كبوه على وجهه. فقال: منها خلقناكم وفيها نعيدكم. قال: اذبحوه فنأدى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة ، ثم دعا عليه: اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي.

فذبح على النطع وفار دمه حتى ملأ الأرض، فقال لطبيبه: لم فار الدم هكذا. فقال: أمني على نفسي قال : أنت آمن ، فقال: قتلته مظلوماً.

يقول الراوي يا سادة يا كرام فما عاش الحجاج بعدها إلا خمس عشرة ليلة أصيب في معدته بقرحه أكلت معدته، فما عرف النوم عينيه حتى مات غماً وكمداً ، وهو يقول: قتلني سعيد بن جبير . ورؤي الحجاج في المنام ف قيل: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلني الله بكل واحد قتلته قتله، وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة.

وهكذا- **معشر الإخوة**- قضى سيدنا سعيد بن جبير سنة خمس وتسعين هجرية شهيداً حميداً ولحق بالرعيّل الأول هناك، فمن أراد أن يكون معهم يوم القيامة هناك فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيّتنا إليك ياسيدي يا رسول الله،
الصلاة والسلام عليك .



* حلية الأولياء ٤/ ٢٧٤ . وفيات الأعيان ٢/ ٣٧١ . سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٢١ . البداية والنهاية ٤/ ٢٢١

(١٤٥)

الإمام مجاهد بن جبر

(٢١ هـ . ١٠٢ هـ)

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، فتحدى بأقصر سورة من سوره مصارع الخطباء من العرب العاربة فلم يجد به قديراً، وأفحم من تصدّى لمعارضته من فصحاء عدنان وبلغاء قحطان حتى حسبوا أنهم سحروا تسحيراً، ثم بين للناس ما نزل إليهم حسبما عنّ لهم من مصالحهم ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب تذكيراً .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنزل آيات محكمات هنّ أم الكتاب وآخر متشابهات هي رموز الخطاب تأويلاً وتفسيراً .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله الله تعالى للعالم أجمع ليتفكروا في آياته تفكيراً ، ويذهب عنهم الرجس ويبطّروهم تطهيراً .

فمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فهو في الدارين حميد وسعيد، ومن لم يرفع إليه رأسه وأطفأ نبراسه يعيش ذميماً ويصل سعيراً .

فيا واجب الوجود، ويا فائض الجود، ويا غاية كل مقصود صلّ على هذا النبي الكريم والسيد السند الرؤوف الرحيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن أعانه وقرر تبيان كتابه تقريراً، وأفض علينا من بركاتهم ، واسلك بنا مسالك كراماتهم ، وسلم عليهم وعلينا تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

وقفت معكم في الجمعة الماضية لأتحدث عن الإمام مجاهد التابعي، ومهّدت للحديث عنه بذكر شيخه الصحابي الجليل سيدنا ابن عباس رضي الله عنه الذي

حمل العلم كابراً عن كابر، وثبت بما لا يدع لنا مجالاً للشك أنه حوى علم الأولين من الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة الكرام، ثم حمل عنه هذا العلم كله وريثه الإمام مجاهد بن جبر، حتى عدّه المؤرخون شيخ القراء والمفسرين (الزركلي ٦ / ١٦١) وقال عنه الإمام الذهبي : (أجمعت الأمة على إمامته والاحتجاج به)، وقال عنه سيدنا سفيان الثوري (إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به) (تفسير الطبري ٩١/١)، وتمنى العلماء بعده أن يكونوا قد اجتمعوا به أحب إليهم من أهلهم وأموالهم (ابن جريج) .

والحقيقة كل الحقيقة أنك إذا أردت أن تعرف قدرك عند الله فانظر فيما أقامك ، ولقد أقام الله عز وجل الإمام مجاهداً مدافعاً عن كتابه الكريم شارحاً وموضحاً لأحكامه، أقامه في التفسير أي في فهم كلام الله تعالى المنزل على نبيه وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه.

وسيدنا رسول الله ﷺ يقول : « خير الكلام كلام الله وخير الهدى هدى سيدنا محمد ﷺ » فإمامنا اليوم في أعلى مقام، لأن هذه المهمة (تبيان كلام الله) مهمة الأنبياء يقول عزّ من قائل :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل ٤٤) وقال ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (النحل ٦٤) .

فنحن اليوم ننزل ضيوفاً على هذا التابعي الجليل سيدنا أبي الحجاج مجاهد بن جبر المكي، ومع الحلقة خمسة وأربعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام مجاهد بن جبر : رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان :

ولد سيدنا مجاهد في خلافة أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب سنة إحدى وعشرين من الهجرة . وأحب العلم منذ حداثة سنه، وكان يلتمسه أينما كان (فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها) فإذا وجد صحيفة سيدنا جابر اطلع عليها، وإذا رأى أهل الكتاب يعلمون شيئاً لم يستحي أن يسأله منهم . ولم يوقفه حبه للعلم على الكتب والرجال فحسب ، وإنما كان يسافر لطلب العلم ويرحل إليه ويشتاق إلى أن يرى الآثار التاريخية بنفسه ، مريداً بذلك وجه الله تعالى، وهو القائل : طلبنا هذا العلم ومالنا فيه نية، ثم رزقنا الله النية بعد . وكان من كرامته على الله تعالى أن أوجده في عصر الصحابة الكرام لينهل من علمهم فتتلمذ على أكابرهم، تتلمذ على سيدتنا عائشة وأم سلمة وجويرية من أمهات المؤمنين .

وتتلمذ على العبادلة الأربعة ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وابن الزبير ، ونهل من علم سيدنا جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة، وحديث عن علماء التابعين وعلماء الأمصار أمثال عطاء وعكرمة وطاووس وعمرو بن دينار ، فحاز الشرف والعلم من أوسع أبوابه .

لكن مولانا عز وجل هَيَّأَ لِيلازم القرآن خاصة فأصبح فيه من كبار المتخصصين به، أتعرفون كيف ؟ لزم مجالس سيدنا ابن عباس مدة طويلة، ينهل من علم التفسير ورحم الله من قال :

أخي لن تنال العلم إلا بستةٍ سأنيك عن تفصيلها بيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبُلغة وصحبة أستاذٍ وطول زمان

فقرأ عليه القرآن الكريم أولاً ثلاث مرات من فاتحته إلى خاتمته، يوقفه عند كل آية ، ويسأله فيم نزلت وكيف كانت ؟ ولم يكتف بذلك، بل استعرضه بشكل سريع ثلاثين مرة، حتى غدا الإمام الأول في تفسير القرآن والقراءات، وراح يدرّسه بعد أن برع فيه، وشهد له علماء عصره بالتقدم في هذا الفن فقال عنه سيدنا سفيان الثوري : خذوا التفسير من أربعة : مجاهد ، وسعيد بن جبير وعكرمة والضحاك بن مزاحم (ت ١٠٢ هـ) . وكان سيدنا مجاهد أعلمهم بالتفسير، لذا اعتمد على تفسيره مولانا الإمام الشافعي والإمام أحمد والإمام البخاري، حتى قال ابن كثير الدمشقي المفسّر (١٤ / ١) إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد " . وغدا تفسيره أول معجم شرح فيه كلمات القرآن، ووضح ألفاظه الغامضة، وبين عباراته العويصة، أو غير المألوفة ، حتى يتجلى لنا هذا الإمام كأنه لغوي خبير قادر على كلام العرب ولغتهم عارف بأساليب بياهم ، وكان هو نفسه يقول : (من لم يكن عالماً بلغات العرب لا يحلّ له التفسير) (روح المعاني للآلوسي ٥ / ١) .

وفوق ذلك نراه فقيهاً يدرك بقربخته الوقادة فحوى الكلام وكنه معاني الآية، لكنه قليلاً ما نراه يتكلم في المسائل الفقهية أوفي الناسخ والمنسوخ أو في اختلاف القراءات .

وكان يرخص للمريض في التماس البركة من القرآن ، ويقول : « لا بأس أن تكتب القرآن (بالزعران) ثم تسقيه القرآن »
وكان يأمر بمراعاة آداب القرآن الكريم ويقول : « إذا ثاءبت وأنت تقرأ فأمسك عن القرآن تعظيماً حتى يذهب ثأؤبك »

إخوتي في الله:

كان إمامنا دائم التفكير، متواضعاً ، إذا رأيته كأنه مغموم مهموم ، حتى قال فيه أحد أصحابه (الأعمش) : كنت إذا رأيت مجاهداً ازدريته، فإذا نطق خرج من فيه اللؤلؤ (تذكرة الحفاظ ٨٠/١) وحين سئل عن ذلك قال : أخذ ابن عباس بيدي ثم قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي وقال لي : «يا عبد الله كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» (خ ٦٤١٦ . ت ٢٣٣٣ . ج ٤١١٤ . أحمد ٢/٢٤) وقال له ابن عمر : «إذا أمسيت فلا تذكر نفسك بالصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك». (المعارف لابن قتيبة ٤١١)

أيها الأحبة والصحب :

نفذ سيدنا مجاهد هذا الحديث تنفيذاً حرفياً فكان حقاً كعابر سبيل، انطلق في الأرض وأحب السفر، ليأخذ عن العلماء وينشر العلم ، وكان لا يسمع بأعجوبة إلا اشتاق إلى رؤيتها حتى إنه ذهب إلى حضرموت ببئر هوت، وسافر إلى القسطنطينية ومعه وجوه أهل الشام مع مسلمة بن عبد الملك، وسافر إلى العراق وأطال المكث في الكوفة وأقام بها حتى عدّ من أهلها، وقال فيه ابن قتيبة: «كان أشد أهل العراق في الرأي والقياس الشعبي وأسهلهم فيه مجاهد » (تاريخ مختلف الحديث لابن قتيبة ٦٩)

معشر السادة الكرام :

لا شك أنكم أصبحتم في شوق شديد لحضور درس هذا الإمام في التفسير، فإلى هناك إلى مكة المكرمة، إلى جوار الكعبة المشرفة، ها هو إمامنا يقرر المعاني التفسيرية للقرآن ، تفسير وتأويل، التفسير هو الإيضاح والتبيين لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُوكَ بِمِثْلِ إِلَّا جُنَّاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (أي بياناً وتفصيلاً) والتفسير

يستعمل لبيان الألفاظ، والتأويل يستعمل في المعاني (أي يخبر عن حقيقة المراد من اللفظ دون أن يخالف الكتاب والسنة) .

بدأ سيدنا مجاهد درسه بالحديث عن القرآن والعمل بأحكامه فتلا قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَّدَقَ بِهِ أَوْلُكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (الزمر ٣٣)

أتعرفون من هم ؟

هم الذين يجيئون بالقرآن قد اتبعوه أو اتبعوا ما فيه. (عندما تتبع القرآن تعزّ دينك) من أعزّ نفسه أذل دينه، ومن أذل نفسه أعزّ دينه . طاعة الله عز وجل خير لكم ، ألم تسمعوا قوله تعالى ﴿ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أي طاعته عز وجل خير لكم، ألم يقل جل جلاله ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ أي خذ من دنياك لآخرتك أن تعمل فيها بطاعته جل جلاله . ولهذا أمرنا تعالى بالقنوت فقال : ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ : القنوت الركوع والخشوع وغض البصر وخفض الجناح من هيبة الله تعالى، كانت العلماء إذا قام أحدهم إلى الصلاة هاب الرحمن عز وجل ، أن يشدّ نظره أو يلتفت أو يقلب الحصى أو يعبث بشيء أو يحدث نفسه بشيء من الدنيا إلا ناسياً مادام في الصلاة .

(ولذا مدحهم الله تعالى فقال ﴿ سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ : أي الخشوع في الصلاة .

(أتعلمون) : لم ير أبلis ابن آدم ساجداً قط إلا التطم ودعا بالويل ثم يقول: أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فلم أسجد فلي النار .
(الصلاح الصلاح) إن الله ليصلح بصلاح العبد ولده وولد ولده ، بلغني أن عيس ابن مريم عليه السلام يقول : طوبى للمؤمن ثم طوبى له ، كيف يخلفه الله تعالى فيمن ترك بخير .

إن العبد إذا أقبل على الله تعالى بقلبه أقبل الله عزّ وجل بقلوب المؤمنين إليه .
(عليكم بالإخلاص) أما سمعتم أمر الله تعالى لنبيه ﷺ وتبتّل إليه تبتيلاً ﴿ أي
أخلص له إخلاصاً .

(وهذا الإخلاص لا يتأتى إلا بالعلم) والعلم لا يتعلمه مستح ولا متكبر (بل
هو بتوفيق من الله تعالى)

هو الذي قال (يؤتي الحكمة من يشاء) : الحكمة العلم والفقه ، أما اليوم
فذهب العلماء فما بقي إلا المتعلمون ، فالجته فيكم كاللاعب فيمن كان قبلكم .
(فاغتنموا أيام حياتكم) فما من يوم إلا ويقول : ابن آدم قد دخلت عليك ولن
أرجع بعد اليوم فانظر ما تعمل فيّ .

وراحت قطرات اللؤلؤ تتقاطر بنعومة وسلاسة على الحاضرين وهم يجدون لذّة ما
بعدها لذّة، يفهمون كلام الله تعالى .

وقاموا جميعاً من المجلس مسرعين إلى الإمام يصافحونه ويهتئون به ، فأمسك يد
أحدهم ليعطي الموعدة الأخيرة لهم قال : « إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما
إذا أخذ بيد صاحبه وضحك إليه تحاتت خطاياهما كما يتحات ورق الشجر » ،
فقليل له : بمصافحته يغفر لهما، هذا يسير . فقال للإمام مجاهد لا تقل ذلك أما
سمعت قوله تعالى ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾
(تفسير الطبري ٦٣ أنفال)

فيا أحباب رسول الله :

خرج الإمام مجاهد في مجلسه ذلك الذي يمتلئ إخلاصاً وعلماً ليتمتحنه الله تعالى
امتحاناً شديداً إذ سجنه الحجاج لأنه كان من المناوئين لحكمه حتى سنة ٩٦ حيث
مات الحجاج من كثرة دعاء المساجين عليه الذين بلغوا ثمانين ألف سجين .

عاد بعدها الإمام إلى مكة أم القرى ، إلى البيت العتيق الذي أعتقه الله من الجبابة أن يدعيه أحد منهم ، وناءت السنوات بكلكلها على كاهله ، ولازم الصلاة في الحرم المكي هناك ، وهناك وأمام الكعبة المشرفة وبين الركن والمقام ، وبين الملتزم و الحطيم قام الإمام ليصلي ، فما أن سجد لرافع السماء بلا عمد حتى قبضه الله إليه ساجداً في أشرف بقعة وأقرب درجة إلى الله ، إلى الجنة ، انتقلت روحه إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر سنة اثنتين ومئة هجرية بعد أن تمرغت أعضاؤه هناك سجوداً وعبودية ، لحق تلميذ آخر من تلاميذ مدرسة سيدنا محمد إلى هناك ، معزراً مكرماً ، فمن أراد أن يلحق به هناك فليبق معنا هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى الحبيب الأعظم وتحتينا إليك يا سيدي يا رسول الله



• المصادر

تاريخ ابن عساكر ١٢٥/١٦	تذكرة الحفاظ ٨٠/١
تاريخ الإسلام للذهبي ١٩٠/٤	المعارف لابن قتيبه ٤١١
مقدمة تفسير مجاهد	تاريخ مختلف الحديث لابن قتيبه ٦٩
تهذيب التهذيب لابن حجر ٤٣/١	روح المعاني للألوسي ج ٥/١
الحلية لأبي نعيم ٢٧٩/٣	تفسير الطبري ٩١/١
سير أعلام النبلاء ٤٤٩/٤	الكامل لابن الأثير ٣١/٥
شذرات الذهب لابن العماد ١٩/٢	البداية والنهاية لابن كثير ٢٢٤/٩
الأعلام للزركلي ١٦١/٦	تفسير ابن كثير ٤ / ١

(١٤٦)

الإمام الشعبي

(١٩ هـ . ١٠٤ هـ)

الحمد لله محدث الأكوان والأعيان، ومبدع الأركان والأزمان، ومنشئ الألباب والأبدان، ومنتخب الأحاب والخلان، الذي نور أسرار الأبرار بما أودعها من البراهين والعرفان، فعبر عن معرفته المنطق واللسان، وترجم عن براهينه الأكف والبنان.

أحمده سبحانه وتعالى وأشكره على نعمه المتواترة وخاصة التنزيل والعرفان .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ألزم الحجة بالقادة المرسلين، وشرح المنهج بالعلماء المحققين، الذين جعلهم الله خلفاء الأنبياء وعرفاء الأصفياء المقربين ، المؤيدين بالمعرفة والتحقيق والمتابعين بالرفق والتصديق .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، عن الله بلغّ وشرع ، وبأمره قام وصدع، ولمتبعيه غرس وزرع .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحابته المنتخبين، وسلم تسليماً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

حدثنا اليوم عن عالم يختلف عن كل من حدثكم عنه من العلماء، فاق في التقى والصلاح الإمام أحمد بن حنبل، وفاق في الاجتهاد والفقہ الإمام أبا حنيفة ، وفاق في السيرة ابن اسحق، وفاق في الزهد والورع سعيد بن المسيب ، وفاق في القضاء القاضي شريح ، وفاق في رواية الحديث مكحولاً الدمشقي والإمام البخاري، وفاق في التفسير عطاء ومجاهداً ، وتحذى الشعراء وهو لم يكن شاعراً

فقال لهم : « إني أقلكم شعراً لكنني لو شئت لحدثتكم بالشعر شهراً »، فكان أعلم أهل زمانه بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز والآفاق. مرّ عليه ابن عمر وهو يحدث المغازي فقال: « كأنّ هذا كان شاهداً معنا وهو أحفظ لها مني وأعلم ». فلم تر عينك مثله في عصره، ولم ير هو مثل نفسه قال مرة عن نفسه : « ماسمعت منذ عشرين سنة رجلاً يحدث بحديث إلا وأنا أعلم به منه، ولقد نسيت من العلم ما لو حفظه رجل لكان عالماً » . وكانت حلقاته عظيمة في الدروس رغم وجود خمسمئة صحابي في عصره تأتيه الفتاوى دونهم .

اجتمع مع الشاعر الأخطل عند عبد الملك بن مروان فلما خرجا قال الأخطل للإمام : « يا إمام ارفق بي فإنك تغرف من آنية شتى وأنا أغرف من إناء واحد ». ومع كل هذا العلم تراه إذا سألته سؤالاً ولم يعرف جوابه قال : « لا أدري » (لا أدري نصف العلم)

قيل له : إنا لنستحي من كثرة ما تسأل فتقول : لا أدري فقال : لكن ملائكة الله المقربون لم يستحيوا حين سئلوا عما لا يعلمون أن قالوا : ﴿ لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ .

وإذا شددوا عليه بالسؤال وهو لا يعرف الجواب جابههم وزجرهم، قال له مرة رجل (ليث) : « يا معشر العلماء، يا معشر الفقهاء تروون عنا أحاديثكم و تبهوننا بالمسألة » . فقال له إمامنا: « يا معشر الفقهاء يا معشر العلماء لسنا بفقهاء ولا علماء ولكننا قوم سمعنا حديثاً فنحن نحدثكم بما سمعنا » (ذلك أن آراءه الفقهية كانت مستندة إلى الأحاديث النبوية) إنما الفقيه من ورع عن محارم الله ، والعالم من خاف الله، ثم أعطاهم القاعدة في التعليم والتعلم فقال : « لا تمنعوا العلم أهله فتأثموا، ولا تحدثوا به غير أهله فتأثموا »

هذا جانب العلم في الرجل، وانظر معي إلى الجانب العقلي الكبير الذي أوتيّه هذا الإمام، يزن الناس بميزان الذهب (مبلغرام) خذوا هذه الفائدة اليوم واعرفوا قدر الناس، يقول :

« إذا كانت محاسن الرجل تغلب مساويه فذلكم الرجل الكامل، وإذا كانا متقاربين فذلكم المتماسك وإذا كانت المساوي أكثر من المحاسن فذلكم المتهتك.

الرجال الثلاثة : فرجل ، ونصف رجل، ولا شيء :

١. فأما الرجل التام فالذي له رأي وهو يستشير .

٢. وأما نصف الرجل فالذي ليس له رأي وهو يستشير

٣. وأما الذي لا شيء فالذي ليس له رأي ولا يستشير .

بهذه الأوسمة فاق إمامنا اليوم أهل عصره ، وكنت تسمع شهادة المعاصرين والمؤرخين في جنابات التاريخ تشيد به وتقول :

كان سيدنا عمر في زمانه رأس الناس، وهو جامع، وكان بعده ابن عباس في زمانه، وكان بعده الشعبي في زمانه، وكان بعده الثوري في زمانه .

إننا معشر الإخوة الكرام مع الإمام العلم أوجد زمانه في فنون العلم ، مع سيدنا أبي عمرو عامر بن شراحيل الشعبي.

ومع الحلقة ستة وأربعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام الشعبي :

رضي عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد إمامنا الشعبي في الكوفة في خلافة أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لست سنين خلت منها ، ورأى سيدنا علياً وصلى خلفه، وسمع عدّة من كبار الصحابة الكرام أثناء تنقله في الأمصار وسفره في البلدان لطلب

العلوم ، من هؤلاء السيدة عائشة وأم سلمة وميمونة من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .

وسيدنا سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد من العشرة المبشرين بالجنة ، وأبو موسى الأشعري وأبو هريرة وأنس بن مالك من أساتذة الصحابة الكرام ، وبلغ عدد الذين أخذ عنهم من الصحب الكرام ثمانية وأربعين صحابيا .

حتى غدا أستاذاً عظيماً في مدرسة سيدنا محمد ﷺ وكان من تلامذته خلق كثير على رأسهم سيدنا مكحول الدمشقي وسيدنا أبو حنيفة النعمان بن ثابت .

وكانت له منهجية فريدة في طلب العلم حياته كلها، سئل : من أين لك كل هذا العلم ؟ فقال :

بنفي الاغتنام (لا يعبأ بالهم ولا بالغم)، والسير في البلاد (لأخذ العلم عن كل الرجال في جميع البلدان) وصبر كصبر الحمام ، وبكور كبكور الغراب .

ثم قال : لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن فحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبل من عمره مارأيت سفره ضائعاً، ولو سافر في طلب الدنيا والشهوات إلى خارج هذا المسجد لرأيت سفره عقوبةً وضياًعاً .

هذه منهجية أولى ، المنهجية الثانية :

الملكة والحافظة القوية التي آتاها الله تعالى إمامنا الشعبي لشدة النور الإلهي الذي كان يعمر قلبه فقد قال : « ما حدثني رجل بحديث قط إلا حفظته ، ولا أحببت أن يعيده علي »

المنهجية الثالثة : كان ينتقي العلوم المفيدة، ويأمر الناس بالانتقاء فكفى بالمرء إثماً أن يحدّث بكل ما سمع، كان يقول : العلم أكثر من عدد القطر (المطر) فخذ من كل شيء أحسنه ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ .

وليس هذا فقط بل كان يدعو إلى التريث في الفتوى لئلا يخطئ المفتي، لأن الناس جبلت على ذكر السيئة ونسيان الحسنات وهو القائل : لو أصبت تسعاً وتسعين وأخطأت في واحدة لأخذوا الواحدة وتركوا التسع والتسعين .

المنهجية الرابعة : كان احترامه لطبقة الصحابة عظيماً ، فهم الذين اكتحلت عيونهم بمراى الحبيب الأعظم ، وهم الذين نقلوا إلينا هذا العلم، لذلك كان يضرب برأيه عرض الحائط إذا سمع في المسألة قولاً لصحابي جليل، كان احترامه لآرائهم عظيماً، سئل عن مسألة مرة فقال : قال فيها عمر بن الخطاب كذا، وقال فيها علي بن أبي طالب كذا ، فقال السائل: وأنت ما تقول ؟ فقال : ما تصنع برأي بعد قولهما، إذا اختلف الناس في شيء فانظر كيف صنع عمر، فإن عمر لم يكن يصنع شيئاً حتى يشاور . حب أبي بكر وعمر ومعرفة فضلها من السنة .

كان جواب الإمام الشعبي بليغاً ودرساً لمن بعده حتى لا يتناول أحد على مقام الشريعة برأيه، على المسلمين احترام الشريعة وعدم مخالفة السنّة قال رجل أمامه : " كانت عائشة من أبغض زوجات النبي إليه " فقال الإمام الشعبي : خالفت سنة نبيك . (كانت عائشة حبيبة رسول الله ﷺ وكانت إذا حدثت عن النبي تقول حدثني حبيبي رسول الله) ثم يتابع الإمام الشعبي تصحيح عقيدة السائل ويقول أحبّ أهل بيت نبيك ولا تكن رافضياً، واعمل بالقرآن ولا تكن حرورياً (من الخوارج) واعلم أن ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك فلا تكن قدريا ، وأطع الإمام وإن كان عبداً حبشياً ، وقف عند الشبهات ولا تكن مرجئاً .

كان الإمام الشعبي يحدث بهذا الكلام ويوجه السائل ورجل خلفه يغتابه، الإمام يحذّر السائل من العقيدة الضالة، ورجل خلف الإمام لم يعجبه حديثه فيغتاب الإمام، فالتفت إليه الإمام وقال :

هنيئاً مرئياً غير داءٍ مُخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

وأعطى درساً في الأخلاق لا مثيل له فقال : ليس حسن الجوار أن تكف أذاك
عن الجار، ولكن حسن الجوار أن تصبر على أذى الجار، واسمعوا إلى منبع الحكم
وقطرات اللؤلؤ تخرج من فم الإمام وهو يتابع كلامه فيقول : تعايش الناس بالدين
زمناً طويلاً حتى ذهب الدين ، ثم تعايش الناس بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثم
تعايش الناس بالحياء زمناً حتى ذهب الحياء، ثم تعايش الناس بالرغبة والرهبة، وأظن
أنه سيأتي بعد هذا ما هو أشد منه :

أرى أناساً بأدنى الدين قد قنعوا و لا أراهم رضوا في العيش بالدون
فاستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

ثم التفت إلى الرجل وصفعه صفعه إيمانية أيقظته من غفلته فقال : إن الله تعالى
يقول : ﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾ : هذا بيان للناس عن
العمى، وهدى من الضلالة، وموعظة من الجهل، من كذب على القرآن فقد كذب
على الله .

إخوتي في الله :

وصلت أخبار هذا الإمام إلى الخليفة عبد الملك بن مروان فاستدعى الإمام
ليرسله رسولاً عنه إلى ملك الروم ، فاسمحو لي أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك إلى
قرب الجامع الأموي إلى قصر بني أمية، حيث استقبل الإمام استقبال الوزراء
والسفراء، وأجلس الخليفة عبد الملك نابغة المسلمين بجواره، وامتحنه امتحاناً بسيطاً
ليتأكد هل ما وصل إليه عنه صحيح أم لا ؟

سأله : يا شعبي : ما العلم ؟ قال : يا أمير المؤمنين : العلم ما يقربك من الجنة
ويبعدك من النار.

قال : يا شعبي ما العقل ؟ قال : ما يعرفك عواقب رشدك ومواقع غيك .
قال : متى يعرف الرجل كمال عقله؟ قال : إذا كان حافظاً للسانه ، مدارياً
لأهل زمانه، مقبلاً على شأنه.

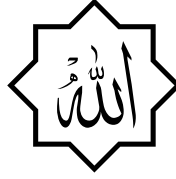
وهنا كلفه الخليفة بالسفر إلى ملك الروم رسولاً عنه ليسأله عن الإسلام .
وتعالوا يحدثنا الإمام الشعبي عن موقفه من ملك الروم قال: لما وصلت إليه جعل
لا يسألني عن شيء إلا أجبته، وكانت الرسل لا تطيل الإقامة عنده، فحبسني أياماً
كثيرة حتى استحشت خروجي ، فلما أردت الانصراف سألني (أي ملك الروم):
. هل أنت من أهل بيت المملكة ؟ (أنت من أقارب الخليفة) .

فقلت : لا، ولكنني رجل من العرب في الجملة .
فقال : إذا أديت الرسائل إلى صاحبك فأوصل له هذه الرقعة .
فلما صرت إلى عبد الملك تذكرت الرقعة فسلمتها له، فقال : أتدري ما في الرقعة
؟ قلت : لا .

قال : اقرأها، فقرأها فإذا فيها :
« عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملّكوا غيره »
وهنا انبرى الإمام الشعبي إلى الخليفة عبد الملك وقال : إن ملك الروم قال هذا
لأنه لم يرك يا أمير المؤمنين، فكيف لو رآك .
فقال الخليفة : أفندري لم كتبها ؟ قلت : لا .
قال : حسدني عليك وأراد أن يغربني بقتلك . (اذهب يا شعبي بالأمان والسلام
وجزاك الله عن الإسلام خيراً) .

وهكذا كنت مع حضراتكم مع إمام قضى ثنتين و ثمانين سنة عالماً فذاً وإماماً
كبيراً بعد أن مات فجأة، لكنه قبل أن يموت بلحظات دعا الله تعالى فقال :
اللهم إني أحسب نفسي عندك فهي أعزّ الأنفس علي .

مات الإمام سنة ١٠٤ هـ وحين بلغ الإمام الحسن البصري موته قال : إنا لله
وإنا إليه راجعون، إن كان لقديم السن، كثير العلم ، وإنه لمن الإسلام بمكان .
كان الشعبي أيها الإخوة عظيماً في تعلمه ، عظيماً في تدريسه ، عظيماً في
حياته ، واستحق أن يسجل اسمه هنا في عداد أساتذة مدرسة سيدنا محمد ﷺ .



الحلية ٤ / ٣١٠

طبقات الشافعية للعبادي ٥٨

تاريخ بغداد ١٠ / ١٦٧

مختصر تاريخ ابن عسك ١١ / ٢٤٩

وفيات الأعيان ٣ / ١٢

تهذيب التهذيب ٥ / ٦٥

البداية والنهاية ٩ / ٢٣٠

شذرات الذهب ٢ / ٢٤

سير أعلام النبلاء ١٤

المعارف لابن قتيبة ٤٤٩ .

(١٤٧)

الإمام محمد بن سيرين

(٣٢ . ١١٠ هـ)

الحمد لله الذي اختاره من عباده من صلح للعبادة وانتقى، وجعلهم خدماً
وقسّمهم أقساماً وفرقا، وخصّهم بعنايته ونظر إليهم ورعاهم برعايته وأخذ عليهم
عهداً وموثقا، صافاهم فاصطفاهم وناداهم فأدناهم وحيّاهم بالوصل واللقا.

يا مالك رقي وغاية مطلبي رفقا فقد ذاب الفؤاد تشوقا

حاشاكمو أن تطردوني سادتي وبحكم قلبي غدا متعلّقا

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تجلّى لعباده المقربين على طور
السحر، فتملّى الحب وفاز بالنظر وخرّ كلّم الوجد صعقا.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، من نشر الله له ذكراً ورفع له قدرا،
وشرح له صدرا، وأعطاه الشفاعة الكبرى، وشرف به الوجود دنيا وأخرى، وملاً
الأكوان من نشره عطرا

لما بدا وجه النبي تهللت كل البقاع وقد نطقن سرورا

صلّوا عليه وسلّموا تسليما

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعترته وأنصاره
من أعتق الله رقابهم عتقا، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد :

فيا معشر الإخوة الكرام :

إلى أين تتجه اليوم في زيارتنا؟ فقد زرت معكم الشرق والغرب، ودخلنا جزيرة
العرب مرّات، وإذا كنا لا نستطيع دخول العراق بأجسامنا فسندخل اليوم معكم إلى
أرض العراق الحبيب بعقولنا وقلوبنا.

أزور معكم اليوم مدينة البصرة فَرَّجَ الله عنها، فإن في البصرة من السلف الصالح رجالاً من أمة سيدنا محمد ﷺ كان الواحد منهم أمة وحده، كما هو مضيفنا اليوم، فقد كان نسيج وحده.

نحن اليوم مع الإمام شيخ الإسلام الفقيه الورع والأديب الصدوق الحجة ، الذي لم يكن كوفي ولا بصري له مثل ورعه، ولم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء منه مع أن النبي قال: « إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » . نحن اليوم مع آية من آيات الله تعالى ما رآه أحد إلا ذكر الله تعالى، إننا مع صاحب العقل الرصين والورع المتين ، المطعم للإخوان والزائرين ، ومعظم الرجاء للمذنبين والموحدين سيدنا محمد بن سيرين المكنى بأبي بكر.

ومع الحلقة سبعة وأربعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام ابن سيرين . رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان: ولد إمامنا لسنتين بقيتا من خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان والده عبداً عند سيدنا أنس بن مالك فكاتبه على أربعين ألف درهم فأداها، وكان يعمل في التجارة.

وأما والدته إمامنا فكانت من الحجاز امرأة صالحة مربية، وكان هو بارّاً بها، يشتري لها ثوباً ألين ما يجد، فإذا كان يوم عيد صبغ لها ثياباً وقدمه لها، وما رؤي معها رافعاً صوته عليها، كان إذا كلمها كالمصغي لها، حتى إن من رآه معها يظن أن به مرضاً من خفض كلامه عندها.

وله إخوة أكثرهم تابعيون ثقة.

وهيأ الله له أستاذة من كبار صحابة سيدنا رسول الله فسمع من سيدنا أبي هريرة وسيدنا عمران وسيدنا ابن عباس وسيدنا ابن عمر وسيدنا أنس بن مالك حتى أحصي من تتلمذ عليهم من الصحابة فبلغوا ثلاثين صحابياً.

وكان له دقة برواية الحديث، فقد كان سيدنا الحسن البصري يروي الحديث بالمعنى ويرويه هو بحذافيره وحروفه، ومن أحاديثه التي رواها حديث واحد أدعوكم اليوم لحفظه، ونحن نقدمه هدية لسيدنا محمد بمناسبة عيد مولده ﷺ، هذا الحديث رواه سيدنا محمد بن سيرين عن شيخه سيدنا أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي مخرّج في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ فِي الْجُمُعَةِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَصَلِّيْ بِهَا سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا خَيْرًا إِلَّا لَا أُعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ﴾ (١٧ كلمة)

فماذا تتوقعون أن تكون نشأة هذا الإمام العظيم وصحابة نبينا أشياخه الكرام، لقد نشأ صوّاماً قوّاماً ينشد الشعر، ويحب المزاح وقد يضحك حتى تدمع عيناه من شدة الضحك، يأخذ في أحاديث قومه لكنه ما أن يُسأل في حديث نبوي حتى يتغيّر لونه وتنقبض نفسه، كان الذي يسمع ضحكه في النهار هو نفسه الذي يسمع بُكاءه في الليل وخشوعه بين يدي رب العالمين.

كانت أخلاقه العالية الفاضلة تمنعه أن يتكلم على أحد أو يغتاب أحداً من المسلمين، وإذا ذُكر عنده رجل بسيئة ذكره هو بأحسن ما يعلم، حتى إن ناساً جاؤوه فقالوا: إنا نلنا منك (اغتبتاك) فاجعلنا في حل فقال: لا أحل لكم شيئاً حرّمه الله تعالى.

إخوتي في الله تعالى: ولما كانت الحرفة أماناً من الفقر، فقد تعلّم إمامنا التجارة من أبيه، فكان تاجراً أميناً صادقاً ورعاً في بيعه وشرائه، إذا باع شيئاً يقول للمشتري: هل رضيت؟ فيقول: نعم، فيعيدها عليه ثلاثاً، ثم يدعو رجلين فيُشهدهما على البيعة (تنفيذاً لأمر الله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾)، وكان في سوقه ذاكرةً لله تعالى، وإذا دخل عليه نصف النهار رفع صوته بالذكر فيقول له جاره: يا أبا بكر في هذه الساعة؟ فيقول: إنها ساعة غفلة، وكان حريصاً على عدم الغش في بيعه حرصه على العلم والحديث، يمنعه من ذلك خوفه من الله تعالى، ورغم إصابته

بالصمم فإنه أصبح أكبر شخصية من الشخصيات الإسلامية، وكانوا يُراودونه على القضاء، وهو يفرّ منهم من بلد إلى بلد، من البصرة إلى الكوفة، إلى دمشق إلى المدينة إلى مكة، قال فيه أحد معاصريه: ثلاثة لم ترى عيناك مثلهم: ابن سيرين في العراق، القاسم بن محمد بن سيدنا أبي بكر الصديق بالحجاز ورجاء بن حيوة بالشام، كأنهم التقوا فتاوصوا على المنهج نفسه، وقد حاول مرة أحدهم أن ينال من الصحابة الكرام عندما سأل إمامنا عن فتوى فأجاد الإجابة فقال له: هذه فتواي، ولو أدركت رفقة الصحابة لما أدركته عقولنا. وكان يقول: إذا أراد الله تعالى بعد خيراً جعل له واعظاً من قلبه يأمره وينهاه. لا تأخذ دينك من أهل البدع والأهواء لا حديثاً ولا علماً ولا تسمع منهم ولا كرامة .

أيها الأحبة والصحب: كان الإمام يعظّم هيئة أهل العلم فيلبس فاخر الثياب ويحب البياض لأنه السنّة ، ويتعمم بعمامة بيضاء قد أرخى عذبتها بين كتفيه، لكن أشهر ما اشتهر به إمامنا اشتهر بتعبير الرؤيا، وكان له في ذلك تأييد إلهي، وسيدنا رسول الله يقول: ﴿الرؤية لأوّل معبرٍ أول﴾ إنسان تحكي له رؤياك ويؤولها لك يقع كما أولها بإذن الله تعالى، وإذا عرضت عليه رؤيا سيئة يقول لصاحبها: اتق الله في اليقظة لا يضرك ما رأيت في النوم.

ولأدلل على هذه القضية بشكل دقيق أدعوكم جميعاً لنتنقل على جناح السرعة إلى هناك، إلى البصرة، لعلّ الله أن يكتبنا مع المجاهدين فيها ولو جهاد العلم فهو اليوم أعظم الجهاد، وإمامنا يجيب على المرائي بجرأة وتأييد من الله تعالى، وكأنه من آل سيدنا يعقوب، فقد جاءه رجل يقول له: رأيت وكأني وجارية سوداء نأكل من قصعة سمكة، فقال له سيدنا محمد بن سيرين: أتعوني إلى طعام عندك؟ قال: نعم، فدعاه فلما وضعت المائدة إذا جارية سوداء فقال ابن سيرين: هل وطأت هذه الجارية؟ فقال الرجل: لا، قال سيدنا الإمام: بينه وبينه: هذه الجارية رجل وليست بأنثى وهو يأتي امرأتك وأنت لا تعلم ، فقم إلى المخدع وادخل على الجارية وانظرها.

يقول الراوي يا سادة يا كرام: فدخل الرجل المخدع وإذا به يصيح: رجل والله يا أبا بكر، فقال سيدنا الإمام: هو الذي يشاركك في أكل السمكة. وجاءه آخر فقال: إني رأيت كأن على رأسي تاجاً من ذهب (شو رأيكم سيصير أميراً أم ملكاً أم وزيراً؟ اسمعوا ماذا قال الإمام) قال: اتق الله فإن أباك في أرض غربة وقد ذهب بصره وهو يريد أن تأتيه ولا تفعل، قال: صدقت يا أبا بكر، والله هذا كتاب منه يقول لي أنا مسافر وفقدت بصري فأمرك أن تأتي إلي. وجاءه آخر فقال: يا إمام رأيت في المنام كأني أغسل ثوبي وهو لا يتنظف فقال له: أنت رجل معادٍ لأخيك (فاتق الله تعالى).

وقال آخر: رأيت في المنام كأني أشرب من عين له شِعبان فوجدت أحدهما عذباً والآخر ملحاً، فقال سيدنا محمد بن سيرين: اتق الله، لك امرأة وأنت تصاحب أختها.

وجاءه صديق قال له: رأيت كأن الجوزاء تقدّمت الثريا، فقال الإمام: هذا الحسن البصري يموت قبلي ثم أتبعه وهو أرفع مني.

معشر السادة الكرام: ترك لنا الإمام كتابه في تعبير الرؤيا لمن شاء مطالعته، لكنني وقبل أن أنزل من مقامي هذا أرى الإمام مالكاً يطرق باب سيدنا محمد بن سيرين ويبدو أنّ في الأمر شيئاً فتعالوا نزر الحبيب الأعظم ، سلّموا وصلّوا على سيدنا رسول الله ، وترضوا عن الوزيرين الجليلين الصديق والفاروق، ثم أخرج بكم لزيارة هذين الإمامين العظيمين، يقول الإمام مالك: (رأيت ملك الموت في المنام فسألته: كم بقي من عمري فأشار لي بأصابعه الخمسة، فسألته كم تكون تلك الخمسة سنوات هي أو شهور تلك، أيام هذه؟ لكنني استيقظت ولم يخبرني، فأتيتك لتعبر لي هذه الرؤية، فقال له الإمام المؤول المعبر سيدنا محمد بن سيرين: يا إمامنا! ما هي سنوات ولا شهور ولا أيام، إن ملك الموت يريد أن يقول لك إن سؤالك هذا في خمسة أمور من الغيب لا يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ

الساعة وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت إِنَّ اللَّهَ عليم خبير﴿١﴾.

هذا هو العلم وهؤلاء هم العلماء، هكذا قضى الإمام حياته مواظباً عند العلماء إلى أن وقعت في يده صفقة زيت فأخذ يتفحصها قبل أن يبيعها يفتح زقاً زقاً، صفقة بأربعين ألف درهم فإذا به يرى في زق منها فأرة فظن الإمام أنها وقعت في المعصرة فصبّ الزيت كله على الأرض خشية أن يكون نجساً، فأفلس، فحبس من أجل المال وحقوق العباد، فقال: سبحان الله قلت مرة لرجل: يا مفلس، فعاقبني الله بهذه الكلمة.

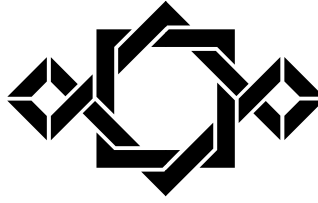
دخل السجن واستحيا منه السجّان، إمام بهذا العلم والدين يسجن فقال له: يا سيدي أنت في الليل تذهب إلى أهلك فإذا أصبحت أتيت إلى السجن، فماذا كان موقف الإمام؟ قال: لا والله لا أكون لك عوناً على خيانة السلطان.

وتوفي سيدنا أنس بن مالك أستاذه وهو في السجن وكان أوصى سيدنا أنس أن يصلّي عليه إماماً سيدنا محمد بن سيرين فاستأذنوا له الوالي، فخرج فصلّى عليه ثم عاد إلى السجن دون أن يمرّ على أهله.

فلما حضرته الوفاة أوصى أولاده جميعاً بتقوى الله تعالى ويصلح ذات بينهم، وكان عدد أولاده أكثر من ثلاثين ولداً منهم ولده عبد الله دعاه والده فضمن له دينه على الناس أن يوفيههم، وكان قد بلغ الإمام ثمان وسبعين سنة فارتقت روحه إلى عليين في البصرة سنة عشر ومئة هجرية. فقضى ولده عبد الله عنه ثلاثين ألف درهم، يقول الراوي يا سادة يا كرام، فما مات ولده عبد الله حتى قوّموا ماله الذي تركه فإذا هو ثلاث مئة ألف درهم.

مات سيدنا ابن سيرين بعد سيدنا الحسن بمئة يوم ورؤي في المنام فإذا هو قد بلغه الله تعالى مراتب عالية في الجنّة فقيل: فما فعل الحسن؟ قال: رفع فوقي بسبعين درجة بطول حزنه وخوفه من الله تعالى.

وهكذا معشر الإخوة زرت وإياكم علماً من أعلام الأمة ما بالعراق أحد يقدم
عليه في زمانه، فمن أراد أن يجتمع به هناك، فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا
مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحتنا إليك
ياسيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك^١



١ المصادر: سير أعلام النبلاء ٦/٤. ٦٠٦.

الحلية ٢/٢٦٣

وفيات الأعيان ٤/١٨١

البداية النهاية ٩/٢٦٧

تهذيب تاريخ ابن عساكر لابن منظور ٢٢/٢١٧

(١٤٨)

الإمام مكحول الدمشقي

(ت ١١٢ هـ)

الحمد لله البر الجواد، الذي جلّت نعمه عن الإحصاء والأعداد، خالق اللطف والإرشاد، الهادي إلى سبيل الرشاد، المانّ بالاعتناء بسنة حبيبه وخليله عبده ورسوله ﷺ، وعلى من لطف به من العباد. المخصص هذه الأمة بعلم الإسناد الذي لم يشاركها فيه أحد من الأمم على تكرّر العصور والآباد، الذي نصب لحفظ هذه السنة المكرّمة الشريفة المطهّرة خواص من الحفّاظ النقاد، وجعلهم ذابّين عنها في جميع الأزمان والبلاد، باذلين وسعهم في تبين الصحة من طرقها والفساد، وحفظاً لهذه الأمة إلى يوم التناد، ولا يزال على القيام بذلك جماعات في الأعصار كلها إلى انقضاء الدنيا وإقبال الميعاد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً بوحديته ، واعترافاً بما يجب على الخلق كافة من الإذعان لربوبيته.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين صاحب الشفاعة العظمى ولواء الحمد والمقام المحمود سيد المرسلين ، المخصوص بالمعجزة الباهرة المستمرة على تكرّر السنين ، التي تحدّى بها أفصح القرون وأفحّم تغيير الملّحين ، وبجوامع الكلم وسماحة شريعته ووضع إصر المتقدمين، المكرّم بتفضيل أمته على الأمم السابقين.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على سيدنا محمد وعلى سائر النبيين وسائر عباد الله الصالحين وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام : ما إن سمع المسلمون سيدنا رسول الله يدعو لمن حفظ أحاديثه النبوية وبلّغها، ما إن سمعوه يقول: ﴿لَنْضُرَ الله امرأ سمع

مني مقالة فبلغها كما سمعها ﴿م﴾ حتى سارع المحدثون يسافرون الليالي ذوات العدد ليحصلوا حديثاً واحداً حفظه صحابي أو تابعي ، ولسان حالهم يقول:

علم الحديث أجلّ السؤل والوطر فاقطع به العيش تعرف لذة العمر
فالحق بقوم إذا لاحت وجوههم رأيته من سنى التوفيق كالقمر
أضحوا من السنّة العليا في سنن سهل وقاموا بحفظ الدين والأثر

أجل شيء لديهم قال أخبرنا عن الرسول بما قد صحّ من خبر
لا شيء أحسن من قال الرسول وما أجل من سند عن كلّ مشتهر
يوم يمر ولم أرو الحديث به فلست أحسب ذاك اليوم من عمري
كأنه بين ظهرينا نشاهده في مجلس الدرس بالآصال والبكر
صلى عليه إله العرش ثم على أشياعه ما جرى طلّ على زهر

ولهذا نرى المحدثين يتكبدون المشاق ويسیرون في القفار ليجمعوا حديث رسول الله ﷺ حتى إن سيدنا أبا أيوب الأنصاري يرحل من الحجاز إلى مصر ليلتقي الصحابي عقبة ليتثبت من حديث واحد سمعه من رسول الله ، فيقول عقبه سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿من ستر مؤمناً في الدنيا على خزية (الشيء الذي يستحيا منه) ستره الله يوم القيامة﴾.

يقول المحدث أبو العالية: كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ بالبصرة فلا نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم، وحتى قال ابن مسعود: لو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله مني تبلغه الأبل لأتيته. فكان لسان حال الراوي أو المحدث (عامر الشعبي) يقول: (لو أنّ رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن لسمع كلمة حكمة ما رأيت أنّ سفره ضاع) (جامع بيان العلم وفضله ٩٥/١).

وجاء رجل إلى سيدنا أبي الدرداء وكان يجلس في الجامع الأموي فقال له: أتيتك من مدينة رسول الله ﷺ لحديث بلغني أنك تحدّث به عن النبي قال: فما جاء بك تجارة؟ قال: لا، قال: ولا جاء بك غيره؟ قال: لا، وهنا قال سيدنا أبو الدرداء

[أبشر] فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿لَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا رِضًى لَطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعِلْمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِلَّا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطٍّ وَافِرٍ﴾ (هب ٨١/١ - جه ٨١/١).

أيها الإخوة: بهؤلاء الرجال حفظ الله العلم النبوي ونشروا الحديث في أصقاع الأرض، ونحن اليوم مع أحد هؤلاء الأبطال الذين حملوا الراية وأدوها بأمانة، إننا مع عالم أهل الشام في عصره وأحد أوعية العلم والآثار، مع سيدنا أبي عبد الله مكحول الدمشقي الفقيه. ومع الحلقة ثمانية وأربعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربضوا عن المحدث الإمام مكحول الدمشقي.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد سيدنا مكحول بن شهاب في كابل عاصمة أفغانستان، وطاف البلاد شرقاً وغرباً، وبيع كالعبيد ثم عتق بمصر، ولم يدع بها علماً إلا احتوى به صدره، ثم أتى المدينة المنورة فلم يدع بها علماً إلا احتوى عليه، ثم دخل الشام، فقولوا أهلاً وسهلاً بالإمام (د ٢٧٥٠ - أحمد ٣١٩/٥) وأصبح من كبار العلماء وروى عن بعض الصحابة الكرام وعدّ من أوساط التابعين الثقة الصادقين ورأى سيدنا أنساً ووائلته بن الاسقع وغيرهما، حتى قال الرواة عنه: إذا جاءنا العلم من الشام عن مكحول قبلناه، وكان من تلامذته كبار الأئمة الأعلام أمثال الإمام الأوزاعي وابن الزهري وابن اسحق، وفيه قال عنه تلميذه ابن الزهري: (العلماء في خلافة هشام بن عبد الملك أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة،

وعامر الشعبي بالكوفة، والحسن البصري في البصرة، ومكحول بالشام).

ولأدلل لكم على مدى ما وصل إليه الإمام من العلم و فاق أقرانه إليكم هذه المناظرة بينه وبين الإمام ابن الزهري، فقد تذاكرا التيمم فقال له الزهري: المسح إلى الآباط، فقال له: عمن أخذت هذا؟ قال الزهري: من كتاب الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم﴾ فهي كلها يد، فقال الإمام مكحول: فإنّ الله تعالى يقول: ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ فمن أين تقطع اليد؟! (من الرسغ) قال: فخصمه.

إخوتي في الله: هذا العلم كان يرافقه العبادة، وعلم بلا عبادة كالسيف غير المصقول، فنرى إمامنا صوّماً قوّماً كريماً جواداً يعلم أصحابه فيقول: (من أحى ليله في ذكر الله أصبح كيوم ولدته أمه) كان يصوم الاثنين والخميس ويقول: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين، وبعث يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، وترفع أعمال بني آدم يوم الاثنين والخميس) ولذا كان يجب صومهما.

وبلغ من كرمه وجوده أنه أعطي مرة عشرة آلاف دينار فوزّعها كلها خمسين خمسين في سبيل الله ، وكان لا يحب اتخاذ منديل للتنشيف من الوضوء بل كان يمسح بطرف ثوبه ويقول: الوضوء بركة، وأنا أحب أن لا تعدو ثوبي. وكان رضي الله عنه يتعاهد ثوبه بالنظافة، ويعتني بالطيب ويقول لمن حوله: من طابت ريحه زاد في عقله، ومن نطّف ثوبه قلّ همّه.

أعتقد . معشر السادة . أنكم أصبحتم في شوق لحضور المجلس الذي كان يعقده سيدنا مكحول الدمشقي ، ومجلسه اليوم له نكهة خاصة فهو يتحدث عن الاستغفار ومكفّرات الذنوب، فتعالوا بنا نحضر هذا الدرس هنا في الجامع الأموي على مرمى حجر من مسجدنا، ها هو يستفتح بالحمد والثناء على الله والصلاة على النبي ﷺ ثم كان من أقواله:

أربع من كنّ فيه كنّ له، وثلاث من كنّ فيه كنّ عليه:

. فأما الأربع اللاتي له: فالشكر والإيمان والدعاء والاستغفار، قال الله تعالى:

﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ ، وقال: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾، وقال: ﴿وما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾.

- وأما الثلاث اللاتي عليه: فالمكر والبغي والنكث، قال الله تعالى: ﴿من نكث فإِنَّمَا ينكث على نفسه﴾، وقال: ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾، وقال: ﴿إنَّمَا بغيكم على أنفسكم﴾، وقال تعالى: ﴿ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً﴾. وضع عنهم الإثم في الخطأ، ووضع المغفرة على العمد.

(فالاستغفار عظيم) وإذا كان في أمة خمسة عشر رجلاً يستغفرون الله كل يوم خمساً وعشرين مرة لم يؤاخذ الله تلك الأمة بعذاب العامة. (ألا فليعلموا) أن أرق الناس قلوباً أقلهم ذنباً. ومن قال استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفرت له ذنوبه ولو كان فارّاً من الزحف . (وابك يا مسكين على ذنبك) فعينان لا تمسهما العذاب: عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس من وراء المسلمين.

﴿فلا تيأسوا من رحمة الله وبرّوا آباءكم﴾ فإن بر الوالدين كفارة للكبائر.

التقى يوماً سيدنا يحيى بن زكريا وسيدنا عيسى بن مريم عليهم السلام فضحك سيدنا عيسى في وجه سيدنا يحيى وصافحه، فقال له سيدنا يحيى: يا ابن خالتي مالي أراك ضاحكاً قد أمنت؟ فقال له سيدنا عيسى: يا ابن خالتي مالي أراك عابساً كأنك قد يئست. فأوحى الله عزّ وجلّ إليهما: إن أحبكما إلي أبشكما بصاحبه .

﴿لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾، بينما امرأة من الحي يقال لها الفارعة بنت المستورة قائمة تتعبد إذ هي بإبليس ساجداً على صفاة تسيل دموعه على خديّه حتى بلّ الأرض، فقالت له: يا إبليس ما يغني عنك طول السجود، فقال: أيتها المرأة الصالحة بنت الشيخ الصالح: أرجو إذ أبرّ الله بي قسمه أن يخرجني

من النار، وهنا قال سيدنا مكحول: فهذا إبليس يرجو رحمة الله فكيف نحن عبيد الله؟! (اللهم ارحمنا برحمتك).

هذا جزء من الدرس العام الذي يعقده سيدنا مكحول وأثناء الدرس يحضر شقيق الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان ليجلس في حلقة الإمام مكحول فلما رآه أصحابه همّوا بالتوسعة له فقال سيدنا مكحول: مكانكم دعوه يجلس حيث أدرك يتعلم التواضع.

هذه هي التربية العملية تربية سيدنا محمد ﷺ، هؤلاء هم الرجال الذين حملوا الراية من الحيا إلى الممات.

وقبل وفاته دخلوا عليه وهو مريض فقال له أحدهم: أحسن الله عافيتك يا أبا عبد الله، فقال: ألا لحاق بمن يرجى عفوهِ خير من البقاء مع من لا يؤمن شرّه. فقال له آخر: يا أبا عبد الله أتحبّ الجنّة؟ فقال: ومن لا يحبّ الجنّة! فقيل له: فأحبّ الموت لأنك لن ترى الجنّة حتى تموت.

وهكذا يرى الإمام مكحول الجنّة، ولا شك أن الله تعالى أكرمهُ برؤية سيدنا محمد ﷺ عندما رحل إلى جوار الله سنة/ ١١٢ هـ دخلها ليلتقي بسيدنا محمد ﷺ هناك ، فمن أراد أن يلتقي به هناك معه بسيدنا محمد ﷺ، فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك (١)

١ حلية الأولياء ١٧٧/٥

سير أعلام النبلاء ١٥٥/١٥

تهذيب التهذيب ٢٨٩/١٠

وفيات الأعيان ٢٨٠/٥

سدرات الذهب ٦٦/٢

(١٤٩)

الإمام ثابت البناني

(٤١ - ١٢٧ هـ)

الحمد لله الذي تحيّر في بحار عظمته قلوب العارفين، وتنزهت في بستان وصله نفوس العابدين، وطاشت بنسيم أنسه صدور العاقلين، وتلاشت بكشف قدسه أرواح المحبين، أخرج من صلب سيدنا إبراهيم طفلاً قال عنه وهو أصدق القائلين: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾، وجعل من نسله وأتباعه سادات العاملين وأمراء العالمين، فسبحانه وجلّ جلاله لم يزل سمياً بصيراً وإلهاً قديراً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة اتخذها حجة وابتغى بها جنة وحريراً.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله بين يدي الساعة شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً وقمراً منيراً.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة توقّر بها كبيراً، وترحم بها صغيراً، خصوصاً على الإمام الأول، صاحب المقدم الذي استخلفه رسول الله في محرابه وقدمه في الصلاة على سائر أصحابه صاحب القلب الرفيق ذي التوفيق، الهمام بالتحقيق في التصديق، الإمام الأجلّ سيدنا أبي بكر الصديق، وعلى الخليفة الملقب بالفاروق، القائم بأداء الحقوق الناطق بالصواب، الذي وافق حكمه حكم الكتاب، أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب الذي كان عدله سيفاً مشهوراً، وعلى الموصوف بذي النورين المشهور بالحسن والإحسان، من كانت تستحي منه ملائكة الرحمن، جامع القرآن أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان الذي على مَرّ القضاء صبوراً، وعلى الشجرة الطيبة الزكية جلي المناقب، ولي الرغائب، خير المواهب، الأسد الغالب، ليث الكتائب

غيث المطالب أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب وسائر الصحابة وسلّم تسليمًا كثيراً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

نحن اليوم مع فتى مكتمل الخلق ، متدفقاً حيوية ونشاطاً، ذكي الفؤاد، حاد الفطنة، نزعاً إلى المكارم. منذ نعومة أظافره كان الناس يرونه إما عاكفاً على مجلس القرآن والذكر، أو صافاً قدميه في محرابه يتعبّد، يصدق فيه قول مولانا عزّ وجلّ: ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾.

نحن اليوم مع إمام كان من أئمة العلم والعمل، من زهاد أهل البصرة ومحدثيهم، شهد له سيدنا أنس بن مالك بأنه من مفاتيح الخير، وأهل البصرة - يا إخوة - اشتهروا بالعبادة مثلاً اشتهر أهل الكوفة بالعلم، فكانوا إذا مدحوا أحداً قال: عنده فقه كوفي وعبادة بصري.

فنحن اليوم مع واحد من هؤلاء، ذلكم هو رائعة المسلمين في عصره سيدنا أبو محمد ثابت بن أسلم البناني، العربي الأصيل، ومع الحلقة مئة وتسعة وأربعين من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربّوا عن الإمام ثابت البناني.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان: ولد سيدنا ثابت في خلافة سيدنا معاوية رضي الله عنهما، فأقبل على طلب العلم منذ نعومة أظافره فوجد العلم وموائده غزاً طرياً خالياً فتمكّن منه واستقرّ فيه، وجعل همّه الأكبر التضرّع من كتاب الله والتزود من حديث رسول الله، فاستضاء فكره بنور القرآن، واستنارت بصيرته بهدي النبوة، وامتلاً صدره بالمعرفة والحكمة، ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾، وأُتيح له أن يأخذ عن طائفة كبيرة من الصحابة الكرام، كان من أهمهم سيدنا أنس بن مالك وسيدنا عبد الله بن عمر وسيدنا عبد الله بن زبير.

وكان يعتني بمظهره الإسلامي فيلبس الثياب الثمينة والعمائم، لكنه علم أن العلم وحده لا يكفي فأقبل على العبادة حتى صار أعبد أهل زمانه بشهادة علماء عصره وهو القائل: كابدت الصلاة عشرين سنة وتنعمت بها عشرين سنة ، فكان رضي الله عنه يقرأ القرآن في كل يوم وليلة ، ويصوم الدهر ويقول لأصحابه: الصلاة خدمة الله في الأرض، لو علم الله عزّ وجلّ شيئاً أفضل من الصلاة لما قال: ﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب﴾ ، فكان يصلي قائماً حتى يعي فإذا أعيا جلس وصلى وهو جالس، قال عنه بعض معاصريه: ما ترك ثابت في المسجد سارية إلا وختم القرآن عندها وبكى عندها ، ولم يدع مسجداً في البصرة إلا صلى فيه، واسمحوا لي أن أنقل لكم هذا المشهد في حدث فريد، أنقله لكم من البصرة فرج الله عنها وعن أهلنا في العراق وأهلنا في فلسطين، ها نحن نشهد سيدنا ثابتاً مع رجل جاءه يستعين به على القاضي في حاجة، فلم يرده سيدنا ثابت بل خرج معه فجعل لا يمر بمسجد في طريقه إلا نزل فصلّى ركعتين حتى انتهى إلى القاضي فكلمه في حاجة الرجل فقضاها، ثم أقبل سيدنا ثابت على الرجل فقال: لعلّ شقّ عليك ما ترى؟! قال: نعم، فقال سيدنا ثابت: لكنني ما صليت صلاة إلا طلبت من الله أن يقضي حاجتك.

إخوتي في الله: التقى سيدنا ثابت البناني سيدنا أنس بن مالك فكان التقاؤه به زهرة عمره ، فقد نظر سيدنا أنس إلى عيني سيدنا ثابت فيقول: ما أشبه عينيك بعيني رسول الله ﷺ، يقول الراوي يا سادة يا كرام: فما زال سيدنا ثابت ييكّي وييكّي وأضلاعه ترتجف حباً بالله ورسول الله حتى عمشت عيناه وكادت تذهبان فنهاه الكحال عن البكاء فقال: فما خير في عينين إذا لم ييكّيا وأبى أن يعالج.

وكان سيدنا ثابت إذا أتى سيدنا أنساً (وتتلمذ عليه ٤٥ سنة) أخذ يده فقبّلها ويقول: يد مست يد رسول الله ﷺ فكان سيدنا أنس يقول لجارته : ناوليني طيباً أمسّ به يدي فإن ثابتاً لا يرضى حتى يقبّل يدي ويقول : يد مست يد

رسول الله ﷺ.

انظروا يا سادة إلى ما يفعله ويقولُه هذا الإمام بعد سيدنا النبي بخمسين سنة، فما الذي نقوله نحن في وقتنا لو وجدنا بعض شعرة للنبي أو شسع نعل كان له، أو قلامة ظفر أو شقفة من إناء شرب فيه، فلو بذل الغني معظم أمواله في تحصيل شيء من ذلك عنده أكنت تعدّه مبدراً أو سفيهاً؟ كلا فابذلوا أموالكم يا سادة في زيارة واحدة لسيدنا محمد ﷺ في المسجد الذي بناه بيده، وقفوا بخشوع عند حجرته وسلّموا عليه في بلده، والتدّوا بالنظر إلى أحده وأحبّوه فقد كان نبينا يحبه، وتحلوا بالحلول في روضته ومقعده، فلن تكن يا أخي مؤمناً حتى يكون هذا السيد أحب إليك من نفسك وولّدك وأموالك والناس كلهم.

قبلوا حجراً مكرماً نزل من الجنة، وضع فمك مقبلاً مكاناً قبله سيد البشر ييقين، فهنّأك الله بما أعطاك، فما فوق ذلك مفخر، ولو أني ظفرت بالمحجن (العصا) الذي أشار به رسول الله ﷺ إلى الحجر الأسود ثم قبل المحجن لحق لنا أن نزدحم على ذلك المحجن بالتقبيل والتبجيل، حجر معظم بمنزلة يمين الله في الأرض مسّنة شفتنا نبينا ﷺ لاثماً له، فإن فاتك الحج وتلقيت وفد الحجيج فالترم الحاج وقبل فمه وقل كما قال سيدنا ثابت فم مسّ بالتقبيل حجراً قبله خليلي رسول الله ﷺ.

أيها الأحبة والصحب: نحن اليوم مدعوون جميعاً للمثول في أعتاب هذا الإمام وحضور درسه فهيئوا أنفسكم لندخل على هذا الإمام ونحن نترضى عنه، يقول سيدنا ثابت لتلامذته:

اذكروا الله في كل يوم وساعة تريحوا يومكم كله ، وإني لأعلم حين يذكرني ربي عزّ وجل، قال: فعجب أصحابه وتلامذته وقالوا: ومتى؟ قال: إذا ذكرته ذكرني ﴿فاذكروني أذكركم﴾، وإني لأعلم حين يستجيب لي ربي، فقالوا: كيف؟ قال: إذا وجل قلبي واقتشّر جلدي، وفاضت عينا لي وفيّ في الدعاء قثمٌ أعلم أنه قد استجيب لي.

أتعلمون: بلغنا أن العبد المؤمن يوقف يوم القيامة بين يدي الله عز وجل فيقول الله له:

يا عبدي أكنت تعبدني فيمن يعبدني؟ قال فيقول العبد: يا رب نعم، قال فيقول له: أكنت تدعوني فيمن يدعوني؟ قال فيقول: يارب نعم، فيقول: أكنت تذكرني فيمن يذكرني، قال: يارب نعم، فيقول الله له: وعزّيتي ما ذكرتني في موطن قط إلا ذكرتك فيه، ولا دعوتني بدعوة قط إلا استجبتها لك.

يا أحباب رسول الله: قضى سيدنا ثابت ستاً وثمانين سنة عابداً قائماً ذاكراً إماماً قدوة ، قلّده علماء عصره بلقب شيخ الإسلام حتى مرض وصار يعجز عن القيام والصوم، وفي آخر يوم له دخل عليه أصحابه وتلامذته يعودونه فقال لهم: ياإخوتي لم أقدر أن أصليّ البارحة كما كنت أصليّ ولم أقدر أن أصوم، ولا أنزل إلى أصحابي فأذكر معهم، اللهم إذ حبستني عن ذلك فلا تدعني في الدنيا ساعة.

يقول ولده: فاحتضر سيدنا ثابت من ليلته فصار ولده يلقيه لا إله إلا الله وهو في الموت، فقال له: يا بني دعني فأني في وردي السادس أو السابع.

ومات سيدنا ثابت سنة سبع وعشرين ومئة وحملت جنازته حتى وسّد في لحده. **أيها الإخوة:** من شيع جنازته كتب له قيراط في الجنة، فتعالوا بنا نشيع جنازة سيدنا ثابت، يقول من دفن سيدنا ثابتاً: أدخلت ثابتاً البناني في لحده ومعني فلان، فلما سويّنا عليه اللّبن سقطت لبنة فإذا بثابت البناني قائم يصليّ في قبره. فوجيء الرجلان بما رآياه وسويا عليه التراب وأسرعوا إلى ابنة سيدنا ثابت فقالا: ما كان عمل أبليك ثابت؟ قالت: وما رأيتم؟ فأخبرناها، فقالت: كان أبي يقوم الليل خمسين سنة فإذا كان السحر قال في دعائه: اللهم إن كنت أعطيت أحداً الصلاة في قبره (يصليّ في قبره) فأعطينها، قالت ابنته: فما كان الله ليرد ذلك الدعاء.

بقول من كان يسكن بجوار المقابر : كنا إذا مررنا بجنّات قبر ثابت بالأسحار سمعنا قراءة القرآن.

وهكذا - معشر الإخوة - استعرضت لحضراتكم حياة سيد من التابعين، كان تلميذاً باراً لسيدنا أنس ، وتابعاً مخلصاً لسيدنا محمد ﷺ ، وعابداً ذاكرًا لله رب العالمين.

فمن أراد أن يحشر معه هناك في أعلى جنات الخلد فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك(١)

صلى الله
عليه
وسلم

١ المصادر: سير أعلام النبلاء ٢٢٠/٥

سير أعلام النبلاء ٤٣/٤

حلية الأولياء ٢/٣١٨

قضايا إيمانية ١٤٦٣/٤

(١٥٠)

الإمام جعفر الصادق

(٨٠ هـ . ١٤٨ هـ)

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال، وبكرمه وجوده تدرك الآمال، وإليه المرجع والمآل أحمده حمداً لا توازنه الجبال من السموات والأرض على كل حال. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو الباقي بلا زوال، المنزه عن الحلول والانتقال عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وخيرته من خلقه، وصفيه وخليله ووليه وحييه المفضل.

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ والفضل الشامخ والعلم الراسخ والجمال والكمال. وعلى آله وأصحابه وكثرته الطيبين ما أفل كوكب وطلع هلال وسلم تسليماً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

من هو الإمام العلم شيخ بني هاشم؟

من هو أبو عبد الله القرشي الهاشمي العلوي النبوي المدني؟، من هو الإمام الذي أبأوه كلهم أئمة في الدين، وأولاده وأحفاده علماء برره، من هو شيخ الأئمة الأعلام الإمام أبي حنيفة وابن جريح وسفيان الثوري وشعبه والإمام مالك وسفيان بن عيينه ومسلم بن خالد الزنجي. من هو شيخ هؤلاء جميعاً، من هو البكري المنتسب أيضاً إلى الصديق من أمه وجدته.

إنه الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الشهيد أبي بن عبد الله الحسين ربحانة النبي وسبطه بن سيدتنا فاطمة بنت سيدنا ومولانا محمد ﷺ .

ومع الحلقة الخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام جعفر الصادق.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوتي في الله:

ولد هذا الإمام العلم سنة ثمانين هجرية في المدينة ، فهو تابعي لأنه رأى بعض الصحابة كسيدنا أنس بن مالك. وتلقى العلوم عن والده الإمام محمد الباقر وجده القاسم بن محمد بن سيدنا أبي بكر الصديق وشيوخ مكة والمدينة كسيدنا عطاء بن أبي رباح والإمام الزهري حتى أصبح آية من آيات الله تعالى في العلم، وكان من رآه يقول: كنت إذا نظرت إليه علمت أنه من سلالة النبيين ، وكان هو يقول: سلوني قبل أن تفقدوني فإنه لا يحدثكم أحد بمثل حديثي. ولما تتلمذ عليه مولانا الإمام أبو حنيفة وسئل من أفقه من رأيت؟ قال: ما رأيت أحداً أفقه من جعفر بن محمد.

ولمعت بوراق هذا الإمام وظهر أثر انتسابه إلى مدينة العلم حتى سارع إليه الناس من كل حذب وصوب ، ومن جاءه من أهل العلم الإمام سفيان الثوري ، جاءه زائراً وأبى أن يخرج من عنده حتى يحدثه، فقال الإمام جعفر الصادق: أما إني أحدثك وما كثرة الحديث لك بخير:

١ - يا سفيان إذا أنعم الله عليك نعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر فيها فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ (إبراهيم ٧).

٢- وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار فإن الله تعالى يقول :
﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال
وبنين﴾ (نوح ١٠-١٣) .

٣- يا سفيان إذا حزبك أمر من السلطان أو غيره فأكثر من قول لا حول ولا
قوة إلا بالله فأنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة.
فعقد سفيان بيده وقال: ثلاث وأي ثلاث ، قال الإمام جعفر الصادق: عقلها
والله أبو عبد الله ولينفعه الله بها.

إخوة الإيمان :

تفجرت ينابيع الحكمة من جدي الإمام جعفر الصادق حتى أصبح قمة في
عصره لا يرقى إليها إلا من هو من أمثاله من آل بيت النبوة، واختزنت حكمه
حجب الزمان والمكان وسارت بها الركبان، ولأدلل على هذه القضية الهامة في حياة
هذا الإمام اسمحو لي أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك، إلى مدينة سيد الكائنات إلى
مدينة الأُمِّي الذي علم العلماء إلى سيدنا ومولانا محمد ﷺ ، أدعوكم لأحضر
مجلس هذا الإمام لنسمع تلك الحكم والدرر ينطق بها فم طاهر نقي يقول:
« لا زاد أفضل من التقوى، ولا شيء أحسن من الصمت، ولا عدو أضر من
الجهل، ولا داء ألد من الكذب من لم يستح عند العيب ويرعو عند الشيب ويخشى
الله بظهر الغيب فلا خير فيه » .

الفقهاء أمناء الرسل فإذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلى السلاطين فاتهموهم .
منع الجود سوء الظن بالمعبود (أيها الناس) الصلاة قربان كل تقى، والحج جهاد
كل ضعيف وزكاة البدن الصيام، والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر، واستنزوا الرزق
بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة، وما عال من اقتصد، والتقدير نصف المعيشة،
وقلة العيال أحد اليسارين ومن أحزن والديه فقد عقهما، ومن ضرب بيده على

فخذه عند مصيبيته فقد حبط أجره، الصنعية لا تكون إلا عند ذي حسب أو دين،
والله ينزل الصبر على قدر المصيبة ، وينزل الرزق على قدر المؤنة.

معشر الإخوة الكرام :

عرف منهج الإمام بمنهج السنّة الصحيح لم يخرج عنه قيد شعرة، قيل له مرة: إن جاري يزعم أنك تبرأ من أبي بكر وعمر فقال الإمام جعفر الصادق: برئ الله من جارك، والله إني لأرجو أن ينفعني بقربي من أبي بكر، كان آل أبي بكر يدعون على عهد رسول الله ﷺ آل رسول الله ﷺ ، أما أبو بكر وعمر فكانا إمامي هدى، ثم قال: أيسبّ الرجل جده، أبو بكر جدي، لا نالني شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما، وأبرأ من عدوهما، ما أرجو من شفاعة علي شيئاً إلا وأنا أرجو شفاعة أبي بكر مثله، بلغوا عني من زعم أي إمام معصوم مفترض الطاعة فأنا منه بريء، ومن زعم أي أبرأ من أبي بكر وعمر فأنا منه بريء ، لقد أكل أبو بكر وعمر من ثمار الجنة. فقام رجل فقال : (يا إمام إن قوماً يزعمون أن من طلق ثلاثاً بجهالة ردّ إلى السنة تجعلونها واحدة يروونها عنكم، فقال الإمام جعفر الصادق: معاذ الله ما هذا من قولنا، من طلق ثلاثاً فهو كما قال) .

هذا منهج الإمام هذا هو العلم وما سواه باطل منهج أصيل يوافق منهج الأئمة من الصحب والتابعين ومن بعدهم. لقد غلب الإمام جعفر بمنهجه سلطان السلاطين وكيد المبطلين فوشوا به إلى الخليفة المنصور بأنه يحرض عليه الناس فقال: المنصور جعفر بن محمد يلحد في سلطاني قتلي الله إن لم أقتله ، أرسلوا في طلبه.

أيها السادة:

وقد الإمام جعفر الصادق وما أن دخل ونظر إليه المنصور مقبلاً إلى مجلسه حتى وقعت هيئته في قلبه وقام من مجلسه وتلقى الإمام قائلاً مرحباً بالنقي الساحة البريء من الدغل والخيانة أخي وابن عمي. فأقعده معه على سريريه وأقبل عليه بوجهه

وسأله عن حاله ثم قال: سلني عن حاجتك؟ فقال الإمام: أهل مكة والمدينة قد تأخر عطاؤهم فتأمر لهم به، قال: أفعل. ثم قال: يا جارية أثني بالتحفة فأنته بزجاجة غالية عطر بها الإمام وانصرف. ولحق الحاجب به فقال: يا بن رسول الله أتيت بك ولا أشك أنه قاتلك ، فكان منه ما رأيت وقد رأيتك تحرك شفتيك بشيء عند الدخول فما هو؟ قال: قلت: اللهم احرسني بعينيك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام واحفظني بقدرتك علي، ولا تهلكني وأنت رجائي، رب كم من نعمة أنعمت بها علي قل لك عندها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قل لها عندك صبري، فيا من قل عند نعمته شكري فلم يحرمي، ويا من قل عند بليته صبري فلم يخذلني، ويا من تراني على المعاصي فلم ينصحي، ويا ذا النعم التي لا تحصى أبداً ، ويا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً: أعني على ديني بدنيا، وعلى آخرتي بتقوى، واحفظني متى غبت عنه ، يا وهاب أسألك فرجاً قريباً، وصبراً جميلاً والعافية من جميع البلايا وشكر العافية » .

أيها الأحبة والصحب:

أعقب الإمام ستة ذكوراً وبنثاً ، ومن أولاده الإمام موسى الكاظم (١٢٨- ١٨٣) أحد أئمة الدين نزل بغداد واشتهر بالعبادة والعلم ولقب بالكاظم لأنه كان يحسن إلى من كان يسيء إليه ويكظم غيظه ، وكان سخيّاً كريماً يخرج بالليل وفي كفه صرر من الدراهم يتفقد الفقراء في بيوتهم. ناظر الخليفة هارون الرشيد فغلبه ، قال له يوماً : كيف قلتُم نحن ذرية رسول الله وأنتم بنو علي وإنما ينسب الرجل إلى جده لأبيه دون جده لأمه، فقرأ الإمام موسى الكاظم قوله تعالى: ﴿ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وذكرياً ويحيى وعيسى﴾ (الأنعام ٨٤)، وليس لعيسى أب وإنما ألحق بمرتبة الأنبياء، من قبل أمه وكذلك ألحقنا بذرية النبي من قبل أمنا فاطمة.

أعقب الإمام موسى الكاظم سبعة وثلاثين ولداً أشهرهم الإمام علي الرضا (١٤٨ - ٢٠٣ هـ) فهذه الذرية الطيبة وهذه السلسلة المباركة بدأها رسول الله ﷺ وانتهت إلى هؤلاء الأئمة الأعلام.

لكن كتاباً عظيماً حوى المعارف والعلوم كانت من أعظم ما كتبه الإمام جعفر الصادق كتاباً سَمَّاهُ (الجفر) ذكر فيه كل ما يحتاجه الناس إلى علمه يوم القيامة ، وضع فيها الإمام خلاصة حكمه العالية، قبل أن يمرض مرض الموت سنة ١٤٨ هـ، وعندما رأى الإمام جعفر الصادق أن الموت نازل به لا محال دعا ولده الإمام موسى الكاظم وأوصاه بوصية جامعة مانعة قال له:

«يا بني من قنع بما قسم له استغنى، ومن مدَّ عينيه إلى ما في يدي غيره مات فقيراً، ومن لم يرضى بما قسم له اتهم الله في قضائه، ومن استصغر ذلّة غيره استعظم ذلّة نفسه، ومن كشف حجاب غيره انكشفت عورته، ومن سلّ سيف البغي قُتل به، ومن احتفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه، ومن داخل السفهاء حقّر، ومن خالط العلماء وقرّ، ومن دخل مداخل السوء اتهم. يا بني إياك أن تذري بالرجال فيندري بك، وإياك من الدخول فيما لا يعينك فتذلّ لذلك. يا بني قل الحق لك وعليك تُستشار بين أقربائك. كن للقرآن تالياً، وللإسلام فاشياً، وللمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً، ولمن قطعك واصلأً، ولمن سكت عنك مبتدأً، ولمن سألك معطياً.

وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء في القلوب، وإياك والتعرّض لعيوب الناس فمنزلة المتعرّض لعيوب الناس كمنزلة الهدف.

إذا طلبت الجود فعليك بمعادنه، فإن للجود معادن وللمعادن أصولاً، وللأصول فروعاً، وللفروع ثمرأً، ولا يطيب الثمر إلا بفرع، ولا فرع إلا بأصل، ولا أصل إلا بمعدن طيب.

زر الأخيار ولا تزر الفجار فإنهم صخرة لا يتفجر مأوها، وشجرة لا يخضر ورقها، وأرض لا يظهر عشبها» .

حكمة بالغة ملأت حياة الإمام جعفر الصادق الثماني والستين سنة، وحين مات ماتت الحكمة في الشفاء وامتلأت قلوب الناس بالحزن وهم يوسّدونه في تربة البقيع، مضى فقيه المدينة وعابدها إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وأعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك .

• صفو الصفوة ٢ / ٩٤

حلية الأولياء ٣ / ١٩٢

وفيات الأعيان ١ / ١٠٥

أحسن القصص لفكري ٤ / ٢٨٦

سير أعلام النبلاء ٦ / ٢٥٥

الكامل في التاريخ (حوادث ١٤٥)

تهذيب التهذيب ٢ / ١٠٣

شذرات الذهب ١ / ٢٠

(١٥١)

الإمام عبد الرحمن الأوزاعي

(٨٨ هـ ، ١٥٧ هـ)

الحمد لله الكريم الغفار، الحليم الستار، مكور الليل على النهار، وكل شيء عنده بمقدار، حارت في قضايه العقول والأفكار، وتاه في بيداء أبديته أولو البصائر والاعتبار، فسبحانه من إله اصطفى واجتبي وانتقى وارتضى واختار.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

وعن نديع وعن مصاحب

إله جلّ عن شبه ومثل

ينازعه ولا ضد محارب

تفرّد في علاه فلا شريك

وجلّ عن المماثل والمناسب

تحجب حيث شاء فلا يداني

وهل يخفى الحبيب عن الحبايب

تجلّى للقلوب فليس يخفى

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، نبيه المنتخب ورسوله المختار، سيد

البادين والحضار، وإمام المتقين الأخيار، توجّه مولانا تاج الوقار، نور به جميع

الأقطار، وجعل له خلفاء أئمة أبرار.

صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

أضحى على المولى الكريم كريماً

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً

كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

نحن اليوم هنا، في بلاد الشام، في دمشق على باب العمارة قبل ألف وثلاثمئة

عام، نحن في يوم من أيام سنة ٨٨ هجرية في يوم مشهود ولد فيه إمام مجتهد، علم

من أعلام الإسلام، وإمام من أئمة الفقه الكبار، أصحاب المذاهب المتبعة وأحد

أفراد الدنيا علماً وذكاءً ونبلاً ورفعةً . كان إمام أهل الشام يعمل بمذهبه أكثر من مئتي عام إنه:

شيخ الإسلام الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، نشأ يتيماً فقيراً في حجر أمه، ولم يشغله فقره عن طلب العلم، بل كانت أمه تنقله من بلد إلى بلد حتى أصبح شاباً في خلافة سيدنا عمر بن عبد العزيز، يتعاهد العلم ويتلقاه من أهله وسادات الأمة، وما أن بلغ سن الثلاثين أو الأربعين حتى كان من صدور العلم وعلماء العصر ومن الصلحاء العبّاد. وطار صيته في الآفاق وأصبح له مذهب مستقل مشهور عمل به فقهاء الشام وفقهاء الأندلس حتى قيل: (إذا اجتمع الثوري والأوزاعي ومالك على أمر فهو سنة). أي فهو حق غالباً كما تقول: إذا اتفق الأئمة الأربعة على شيء كان الحق معهم غالباً. يقول أحد تلامذته وهو الوليد بن مسلم: ما كنت أحرص على سماع الحديث والعلم من الأوزاعي (كان لا يحرص على حضور درسه) حتى رأيت رسول الله في المنام والأوزاعي إلى جنبه فقلت: يا رسول الله عمن أحمل العلم، فقال: عن هذا، وأشار إلى الأوزاعي.

إخوتي في الله: لما سمع الأوزاعي ثواب الجهاد والمرابطة في سبيل الله أحب أن يسكن في ثغر من ثغور الشام ألا وهو على طرف بيروت، منطقة سميت باسم الأوزاعي اليوم لأنه أصبح إماماً يقتدى به وعلماً يقصد من كل مكان. هذا هو الإمام الذي أريد أن أحدثكم عنه اليوم.

إننا مع الحلقة واحد وخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام الأوزاعي :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: كان الإمام الأوزاعي يتبع منهج النبوة في العلم والعبادة والأخلاق والعمل والسلوك، كان إذا أذن الفجر صلّى وثبت في مصلاه يذكر الله تعالى حتى

تطلع الشمس، فإذا طلعت قام يلتقي بطلابه يفيضون بذكر الله تعالى والتفقه في الدين ورواية الأحاديث، وقد سجّل التاريخ للإمام آلاف الأحاديث رواها عن سيدنا رسول الله ، وكان للشام كما كان الثوري لأهل الكوفة والإمام مالك لأهل المدينة، والإمام الليث لمصر.

وشهد له عصره أنه من العبادة على شيء لم يُسمع في عصره مثله، ما أذن عليه الظهر قط يوماً إلا وكان قبلها قائماً يصلي، وما أذن عليه الفجر إلا وكان قبله قائماً يصلي، وهو القائل:

(من أطل الليل هَوّن الله عليه وقوف يوم القيامة).

يصلي بتخشع حتى يقول من رآه: كأنه أعمى من شدة الخشوع في الصلاة. وكان يُسأل: كيف الخشوع يا إمام. فيقول: الخشوع غض البصر (ألا تعرف من على يمينك وشمالك) وخفض الجناح (الانكسار لله تعالى) ولين القلب وهو الحزن والخوف.

صلاة بالنهار وصلاة بالليل، وقرآن وبكاء ، إن العلم لا يؤتى إلا بالعبادة والذكر، وكانت أمه ربما تدخل عليه غرفته وتتفقد موضع مصلاه فتجده رطباً من دموعه في الليل، فمن طلب العلم لا بد أن يكون عابداً.

أيها الأحبة والصحب: شهد الإمام الأوزاعي عصرين، عصر الدولة الأموية وعصر الدولة العباسية، فلم يكن في أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه، ولا أروع ولا أعلم ولا أنصح ولا أوقر ولا أحلم ولا أكثر صمتاً، ما تكلم بكلمة إلا كان على من يسمعها من جلسائه أن يكتبها عنه من حسنها.

خاض غمار الحياة وكتب ما كتب من العلم حتى كانت صنعتها الكتابة، لكن شاء الله أن تحرف كتبه فلا يبقى منها إلا ما نقله تلامذته عنه.

أيها السادة: لا أستطيع أن أحدثكم بمناقبه كلها فلنقف عند بعض المناقب، ولنأخذ منها دروساً ، درساً للعلماء ودرساً للحكام ودرساً في الوقوف عند المبادئ الإسلامية ، ورحم الله من يسمع فيعي ويعلم فيعمل.

كان العلماء - يا إخوة - في القديم يحترمون بعضهم بعضاً، ويتأدّبون بآداب الخلاف، قاعدتهم في ذلك: (الخلاف في الرأي لا يفسد للودّ قضية)، لذلك كانوا إذا التقوا ببعضهم ولو اختلفوا في الرأي كانوا يكرمون بعضهم بعضاً، ولأدلل على هذه القضية اليوم اسمحو لي أن أنتقل بكم من هنا إلى هناك، إلى مكة المكرمة زارها الله تشریفاً وتكريماً ومهابة، فقد قدم الإمام الأوزاعي إليها حاجاً فخرج علماء مكة ومنهم الإمام سفيان الثوري خرجوا لاستقباله استقبال العلماء العاملين، ولاستقبال الملوك الفاتحين، وكان يسير أمام موكبه الإمام الثوري يفسح له الطريق وكأنه الإمام الأعظم. إن المسلمين الأوائل كانوا يعرفون قدر العلماء ، فخلف من بعدهم خلف زهدوا بالعلماء وأقلّوا من احترامهم بمعنى ما قيل:

لا ترى عالماً يَحِلُّ بأرض	إلا أورثوه دار هوان
هذه الكعبة بيت الله	يسعى لحجّها الثقلان
وترى أزهّد الناس فيها	أهلها لقرب المكان

إن الإمام الأوزاعي كان بمفرده أمة ، وخلف من تلامذته أمة ، لأنه كان يحترم الكبير والصغير والمسلم وغير المسلم ، ويعلّم الناس حب بعضهم بعضاً واحترام الرعيل الأول، علّمهم حب قرابة سيدنا محمد ﷺ واحترام أصحابه (حبّ القرابة واحترام الصحابة)، وهو القائل لتلامذته: لا تذكروا أحداً من أصحاب النبي إلا بخير، العلم ما جاء عن أصحاب سيدنا محمد ﷺ ، فيحرم سب أو شتم الصحابة، وهو القائل: لا يجتمع حبّ عليّ وعثمان إلا في قلب مؤمن.

إخواني: وكان العلماء عندهم عزّة النفس والشجاعة في قول الحق غير هيابين قوة السلطان وعسكره، وقد استدعاه مرة أمير جيش المنصور وكان جبّاراً سقّاكاً للدماء صعب المراس، فماذا كان موقف الإمام الأوزاعي؟ كيف جابه الباطل بالحق؟
إنني أدعوكم الآن يا سادة لنزور معاً حماة (بلدة أبي الفداء) لنرى هذا الطاغية الذي كان حريصاً أن يبطش بالإمام بأي وسيلة، ويحاول أن يسأله أسئلة ليحجب عنها بغير ما يحب الأمير ليقطع رأسه.

أنقل لكم هذه الأنباء في وقت انتهى فيها عمّ الخليفة السفّاح عبد الله بن علي من قتل بني أمية ونزل حماة واستدعى الإمام إليه، وقدم الإمام، وما أن صار بالباب حتى أخذ اثنان بعضديه وأدخلوه ضمن صفّين من الرجال معهم السيوف المصلّطة، وأمام الأمير سيف ونطع تقطع عليه الرقاب، وما أن سلّم حتى قال له أمير الجيش: أنت عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي؟ قال: نعم أصلح الله الأمير، فقال: أتعدّ مقامنا هذا ومسيرنا (في القضاء على الأمويين) جهاداً؟ قال الإمام: جاءت الآثار عن النبي المختار أنه قال: ﴿إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ﴾.

وكان الأمير يمسك بخيزانه ينكت فيها الأرض، وكلّما تكلم الأوزاعي ضرب الأرض بقوة وجعل من حوله يعضّون على أيديهم من الغيظ، ثم رفع رأسه وسأل مسألة رجل يريد أن يقتل رجلاً وقال: ما تقول في دماء بني أمية (قال: وكان قد قتل في حماة منهم نيفاً وسبعين) فقال الإمام: (دمائهم عليك حرام) قال فانتفخت عيناه وأوداجه ثم أردف الإمام وقال: جاءت الآثار عن رسول الله أنه قال: ﴿لَا يَحِلُّ دَمُ مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثَ: الثِّبِّ الزَّانِي وَالنَّفْسِ بِالنَّفْسِ وَالتَّارِكِ لِدِينِهِ الْمَفَارِقِ الْجَمَاعَةِ (المرتد)﴾ خ ٧٦/١٢ - م ١٦٧٦، وقد كان بينك وبينهم عهد.

فقال: ويحك أجعلتني وإياهم لا عهد بيننا.

يقول الإمام: فخافت نفسي وجعلت أتوقع رأسي تقع بين يدي وكرهت القتل، ثم ذكرت مقامي بين يدي الله عز وجل فتشجعت، فعاد الأمير يسأل: ياأوزاعي ما تقول في أموال بني أمية؟ فقال: إن كانت لهم حراماً فهي عليك حرام وإن كانت لهم حلالاً فما أحلها الله لك إلا بحقها.

ولما أحسَّ الأوزاعي بأن الأمير يريد أن يستدرجه للقتل قال: ائذن لي في البول. فخرج الإمام وهو لا يخطو خطوة إلا وهو يقول: إن رأسي يقع عندها.

وهكذا. **معشر الإخوة.** قضى الإمام حياته فأحبّه الصغير والكبير والأمير والرعية المسلم وغير المسلم، لأنه لم يؤذ أحداً بل أحسن لجميع الناس وقضى بينهم بالعدل والقسطاس، حتى قيل فيه: لو خيرت من أختار خليفة على المسلمين لاخترت الأوزاعي، لأنه وسع الناس جميعاً في قلبه الكبير.

وربما لأجل ذلك لم يحرمه الله أجر الشهادة في سبيله، فقد دخل حمام السوق في يوم من أيام سنة ١٥٧هـ وكان صاحب الحمام من خيار أصحاب الأوزاعي، وخرج صاحب الحمام لحاجة فأغلق عليه وذهب، فلما جاء وجد الإمام مستقبلاً القبلة وقد مات، فثارت ضجة في السوق بوفاته وقدم الناس من كل حذب وصوب حين سمعوا بوفاته. يقول الراوي يا سادة يا كرام (سالم بن المنذر) خرجت في جنازته أربعة أمم، حملة المسلمون، وخرجت اليهود في ناحية، والنصارى في ناحية، والقبط في ناحية.

وهكذا قضينا مع الإمام الأوزاعي دقائق زمنية استعرضنا فيها تسعة وستين عاماً من حياته هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك ياسيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.

• صفة الصفوة ٤٦٦

مختصر تاريخ ابن عساكر لابن منظور

البداية والنهاية لابن كثير

تهذيب الأسماء واللغات للنووي

الأوزاعي: مروان الشعار

الأنساب للسمعاني

حلية الأولياء

تهذيب التهذيب لابن حجر

(١٥٢)

الإمام شعبة بن الحجاج

(٨٠ هـ . ١٦٠ هـ)

الحمد لله الذي لم يزل بالنعم منعماً، وبالمعروف معروفاً، وبالإحسان محسناً، وبالكرم موصوفاً، كلَّ يوم هو في شأن، يكشف كرباً، ويغفر ذنباً ويغيث ملهوفاً، ويجير خائفاً ويرسل بالآيات تخويفاً.

أحمده سبحانه وتعالى وأستغفره ، وأسأله لي ولكم السلامة من حِمْلِ العصيان وإن كان الحِمْل خفيفاً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة للذي فطر السموات والأرض حنيفاً.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، خلقه الله سيذاً كريماً، صادقاً أميناً، شريفاً عفيفاً.

اللهم صلِّ وسلِّم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه صلاةً وسلاماً تزيدهم بها تفضيلاً وتشريفاً ، وسلِّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

لم تشهد البشرية في تاريخ حياتها ضبطاً لكلمات نبي أو رسول مثلما شهدته لسيدنا محمد ﷺ، إذ هيأ الله له رجالاً من أصحابه ومن تبعهم يحملون هذه المسؤولية بشرف وإخلاص إرضاءً لله ورسوله ، وكان إذا أراد أحد ما عدو أو جاهل يريد أن يدس أو يخلط أو يدلس في حديثه ﷺ، انبرى إليه الأئمة المحدثون ينبّهون عليه وينفون بين المحدثين، كل ذلك ضمن منهج علمي فريد، منهج لا يكتفي ببيان

محاسن المساعي في مناقب الأوزاعي للحنبلي
موسوعة فقه الإمام الأوزاعي للجبوري

سير أعلام النبلاء للذهبي ١١٧/٧
الأوزاعي وتعاليمه الإنسانية

القواعد وتفصيلها وتحريها، بل يدعّمها بالشواهد من أقوال أئمة العلم كالإمام الشافعي وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني والبخاري ومسلم وغيرهم، مع قمة في البحث النقدي ، حتى ألف الإمام الترمذي وغيره كتباً تبين علّة كلّ حديث، ومتى يجرح الراوي ولا يقبل قوله، وما أسباب تجريح الرواة وعدم الأخذ عنهم.

والجرح والتعديل -يا سادة- علم من أهم علوم الحديث إذ به يوثق المحدث أو يضعّف أو يجهل أو يكذب.

وعليّنا أن نعلم أن الجرح والتعديل يطال كل راوٍ عدا الصحابة الكرام رضي الله عنهم لأنهم فوق ذلك، ولأن نور النبوة منعهم أن يحدثوا عن سيدنا رسول الله ما لم يقل، كل الطبقات يطالها علم الجرح والتعديل إلا الصحب الكرام، ولذلك صار لحفاظ الحديث طبقات:

أعلاها: ثقة - متقن - ثبت - حجة - عدل حافظ - ضابط.

وأعلى منها: ماكرر فيه أحد هذه الألفاظ: ثقة أو ثقة ثبت.

وربما تجد لعلماء النقد أوصافاً للمحدثين أعلى منها مثل: أوثق الناس - أثبت الناس - إليه المنتهى في الثبوت - لا أحد أثبت منه.

ونحن اليوم مع رجل من هؤلاء الأثبات، هو أول من اخترع هذا العلم ، أي أول من جرّح وعدّل، نحن اليوم مع إمام حافظ ثبت حجة ناقد جهيد، هو أول من لقب بأمير المؤمنين في الحديث، عالم من علماء أهل البصرة وشيخها (اللهم فترج عن أهلنا في البصرة) روى آلاف الأحاديث وكان رأساً في العلم والعمل، منقطع القرين، عنه أخذ علماء الحديث علم الجرح والتعديل وانتشر في الآفاق حتى خضع له الكبير والصغير، وحتى قال فيه مولانا الإمام الشافعي رضي الله عنه: (لولاه لما عُرف الحديث بالعراق).

إننا مع أمير المؤمنين في الرواية والتحديث في العراق، مع سيد من سادات التابعين رأى سيدنا أنساً بن مالك وعمراً بن سلمة، وحدّث عن سادات التابعين

كسيدنا الحسن البصري، مع سيدنا شعبة بن الحجاج بن الورد ، و مع الحلقة
اثنان وخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع
الدرويشية، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم لتتروا عن الإمام شعبة.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان:

ولد سيدنا شعبة بن الحجاج ويكنى بأبي بسطام سنة ثمانين للهجرة في دولة عبد
الملك بن مروان، في منطقة واسط، ثم سكن البصرة، وابتدأ رحلة العلم والعمل بمهنة
عالية ونشاط دائم، فتعلم العربية والشعر حتى برع فيهما وصار إماماً من أئمتها،
قال فيه إمام العربية الأصمعي: (لم نر قط أعلم من شعبة بالشعر)، ثم انتقل إلى
الحديث النبوي ليحصله ويجمعه في صدره، جاء إلى سيدنا قتادة بن دعامه
السدوسي وكان من مشايخه، وكان يحب الشعر فيقول له شعبة : أنشدك بيتاً
وتحدثني حديثاً، فيحدثه حديثين، ويقول له قتادة: أزيدك؟ فيقول: لا، حتى
أتفهما وأتقنهما.

وكنتم تراه يسافر الليالي ذوات العدد ليحصل الحديث النبوي الشريف صيفاً
وشتاءً، يقول سيدنا سفيان بن عيينة رضي الله عنه: لقيت شعبة في يوم مطير على
حمار أوتر ، فقلت: إلى أين؟ قال: أذهب إلى الأسود بن قيس لأستفيد منه حديثاً.
وكانت له طريقة فريدة في تلقي الحديث وقبوله، فقد كان المحدثون إذا سمعوا
حديثاً مرة واحدة قبلوه وحفظوه إلا سيدنا شعبة فقد كان ينتقي أجود الأسانيد
ويغربلها بمعيار النقد، ولا يقبل حديثاً إلا إذا رواه له عدد من الثقات، لذا كنت تراه
يترك الأحاديث الحسان إذا لم ترو عن عدد من الرواة، وقد صرح هو بهذا المنهج
فقال: (كم من عصيدة فاتتني)، "كم من حديث جيد قد فاتني".

ويقول سيدنا حماد بن زيد الراوي: إذا خالفني شعبة في حديث صرتُ إلى قوله، فقليل له: ولم؟ فقال: إن شعبة كان لا يرضى أن يسمع الحديث عشرين مرة (ليحدث به) وأنا أرضى أن أسمعه مرة.

فسيدنا شعبة من شدّة ورعه في تلقي الحديث كان لا يروي الأحاديث إلى رسول الله إلا بعد التثبت ، وربما زار مكة والمدينة وبغداد ليصحح حديثاً واحداً ، شعاره في ذلك:

(كل حديث ليس فيه حدثنا وأخبرنا فهو خلّ وبقل).

وليتك تراه عندما يأتيه الحديث الحسن ، وقد وضع يده على رأسه وصاح : أوّه، أفرّق من جودته.

يصيح من فرحته بهذا الحديث، لكنه في موضع آخر يترك الأخذ عن بعض المحدثين الذين يراهم على مخالفة للشرع المطهر ولو بارتكاب الصغائر، كان شرط عدالة الراوي فيمن يأخذ عنهم شرطاً أولياً، يفتش عن حاله ، ويسأل عنه ، حتى كان إذا جلس إلى المحدثين يقول لهم: تعالوا نعتب في الله ساعة، تعالوا نذكر مساوئ أصحاب الحديث لنحذر الأخذ عمن له مساوئ. لذا كان إذا سئل: لم لم تأخذ عن فلان وفلان، فكان يجيبهم قائلاً: ذاك رأيته في الحمام بغير إزار، وهذا رأيته يزن بميزان فاسترجح في ميزانه، ولذا لا أحدث عنهما.

وكان يعلن على الملأ أسماء الذين حازوا ثقته في الحديث ويقول: حدثوا عن الأشراف (آل البيت) فإنهم لا يكذبون (على جدّهم رسول الله).

ولشدّة حرصه على الحديث النبوي الشريف إذا وعظ أحداً يكذب على رسول الله ولم يتعظ يذهب إلى القاضي ليشتكى عليه، لا يخشى أن يقول كلمة الحق إذا سمع كذباً على النبي الكريم، مرّ ذات يوم مع تلميذه الإمام عبد الرحمن بن مهدي برجل يحدث بحديث يرفعه إلى النبي ﷺ فقال: كذب، ليس بحديث، والله لولا أن لا

يحلّ لي أن أسكت عنه لسكت. ويأتي إلى الكذاب ويقول: لا تحدّث وإلا استعديت عليك السلطان.

بقي على هذه الطريقة حياته كلها يسمع وينتقد ، يتردد على الأثبات عشرات المرات بل المئات تردد على عمرو بن دينار خمسمئة مرة لسمع منه مئة حديث فقط.

كان ينزّه لسانه عن الكذب ، وخاصة الكذب عن رسول الله ﷺ بعد أن سمع الحديث المتواتر: «**من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**» . (خ)

وهو القائل رضي الله عنه: (لأن آخر من السماء أو من فوق هذا القصر أحب إلي من أن أقول قال فلان لشيء لم أسمعه منه). فكفى بالمرء إثماً أن يحدّث بكل ما سمع.

دخلوا عليه يوماً في البيت فرأوا جراباً معلقاً في السقف فقال: ترون هذا الجراب؟ والله لقد كتبت فيه عن الحكم بن أبي ليلي عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ ما لو حدّثكم به لرقصتم، والله لا حدّثكموه (خوفاً من أن يكون في إسنادها مقال).
إخوتي في الله:

بقيت هذه المنهجية الفدّة في حياة إمامنا بين يدي أشياخ الحديث حتى سمع من أربعمئة شيخ من التابعين، وقال عنه تلميذه أبو داود الطيالسي: سمعت من شعبة سبعة آلاف حديث. جمع خلالها حديث المصرين البصرة والكوفة، وصار إمامهما بلا منازع، ولذا قال فيه سيدنا الإمام أحمد بن حنبل: كان شعبة أمةً وحده في هذا الشأن .

وصار التلامذة الذين خرّجهم من كبار العلماء، اسمعوا الأسماء اللامعة من تلاميذه: سيدنا سفيان بن عيينة - شريك القاضي - سفيان الثوري - يحيى بن سعيد القطان - عبد الرحمن بن مهدي - والقاضي أبو يوسف رضي الله عنهم.

كلّ ذلك - أيها الإخوة - مع ورع ودين وعبادة وخشية ، وزهد وتقشف ،
وتواضع وعقّة، يعترف بفضل أشياخه ويقول: كل من سمعت منه حديثاً فأنا له
عبد.

نعم كان سيدنا شعبة بن الحجاج عبداً على الحقيقة عبد الله تعالى حتى جفّ
جلده على عظمه، ليس بينهما لحم، يصوم الدهر كله دون أن يرى عليه أثر الصوم،
يركع فلا يرفع رأسه حتى يظنوا أنه قد نسي. قال فيه أحد تلامذته (أبو زيد الهروي):
رأيت شعبة يصلي حتى تَرَمَّ قدماه.

وكان مع فقره من أرقّ الناس، وربما مرَّ به السائل فيدخل بيته فيعطيه ما أمكنه،
وربما إذا كان يمشي مع صاحبه وسأله سائل استدان من صاحبه ليعطي الفقراء.
وإذا جلس في مجلس للحديث مع الناس يقول: لولا حوائج لي إليكم ماجلست
معكم، وكانت حوائجه أن يسأل لجيرانه الفقراء.

وإذا ركب زورقاً لينقله من شط إلى شط دفع عن جميع الراكبين (يراهم من
الفقراء) .

ركب مرّة حماراً له فلقيه صاحبه سليمان بن المغيرة ييكي : ما ييكيك؟ قال:
مات حماري وذهبت علي الجمعة وذهبت حوائجي، فقال له شعبة: والله ما أملك
إلا هذا الحمار ، ثم نزل عنه ودفعه إليه وقال: خذ الحمار ولا تبك.

وكان إذا جلس للدرس ووقف على مجلسه سائل لا يحدث حتى يعطي السائل
أحد الناس فقام يوماً سائل ثم جلس فقال: ما شأنه؟ فقيل له: إن عبد الرحمن بن
مهدي ضمن له أن يعطيه درهماً.

وإليكم هذا الموقف الذي لم نسمعه إلا مرّة واحدة فقط، سمعناه عن شعبة،
حدّث سيدنا أبو داود قال: كنا عند شعبة نكتب ما يملّي فسأل سائل، فقال
شعبة: تصدّقوا، فلم يتصدّق أحد، فقال: تصدّقوا فإن أبا اسحق حدثني عن عبد
الله بن معقل عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ:

﴿اتقوا النار ولو بشق تمرة﴾ (خ ٢٢٥/٣ - م ١٠١٦).

فلم يتصدق أحد، فقال: تصدقوا، فإن عمرو بن مرة حدثني عن خيشمة عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة﴾ (خ ٣٧٥/١٠ - م ١٠١٦ - ن ٧٥/٥).

فلم يتصدق أحد، فقال: تصدقوا فإن مُحِلًّا الضَّيِّ حدثني عن عدي بن حاتم قال، قال رسول الله ﷺ: ﴿استتروا من النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة﴾ (ن ٧٤/٥).

فلم يتصدق أحد، وهنا قال سيدنا شعبة لمن حوله: قوموا عني فوالله لا حدثتكم ثلاثة أشهر، ثم دخل منزله فأخرج عجينة، فأعطاه السائل فقال: خذ هذا، فإنه طعامنا اليوم .

أيها السادة:

بقي سيدنا شعبة يدافع عن سنة رسول الله ﷺ حياته كلها حتى وافاه الأجل في البصرة سنة ستين ومئة هجرية ، بعد أن قضى حياته في علم وعمل، ودعوة وعبادة، وتهجد ووعظ، وإرشاد وزهد، وورع وعزلة عن أهل السلطة.

ولما بلغ خبر موته سيدنا سفيان قال: مات الحديث ، مات إمام الحديث، وأما الحديث فهو باق إلى اليوم رغم تحريف الغالين وانتحال المبطلين.

بقي الحديث منتشراً في أصقاع الأرض هنا وهناك، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحتينا إليك ياسيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك (١)

تاريخ بغداد ٣٠٢/٧

وفيات الأعيان ٤٦٩/٢

سير أعلام النبلاء ٢٠٢/٧

(١) حلية الأولياء ١٤٤/٧

الكامل ٥٠/٦

شذرات الذهب ٢٦٩/٢

(١٥٣)

الإمام سفيان الثوري

(٩٧ . ١٦١ هـ)

الحمد لله العظيم الشأن، القديم الإحسان، الباقي وكل من عليها فان، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، كل يوم هو في شأن، يكشف كرباً، ويغفر ذنباً ويرفع قوماً ويضع آخرين، ولا يزال على مر الزمان يحبّ التوابين ويحبّ المتطهرين ويبغض المتكبرين والمتجبرين وأهل البغي والعدوان، أحمدته سبحانه وتعالى وأسأله الهداية وأعوذ به من الخزي والهوان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ملكه ولا ثان، بل هو المنفرد بالملك والتدبير والسلطان.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المبعوث بأفضل الأديان.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

نحن اليوم مع من؟ مع أي أمير؟ مع أي شيخ للإسلام وإمام من الحفاظ وسيد من العلماء العاملين في زمانه؟ من هو صاحب كتاب الجامع في الحديث النبوي الشريف؟

إنه سيدنا أبو عبد الله سفيان الثوري الكوفي سفيان بن سعيد بن مسروق، يصل نسبه إلى نزار بن معد بن عدنان أحد أجداد سيدنا رسول الله ﷺ.

محدث قيل فيه (ابن عينية): أصحاب الحديث ثلاثة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه.

عالم قيل فيه (ابن المبارك): ما أعلم على الأرض أعلم من سفيان.
مجتهد قيل فيه (بشر الحافي): سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما.
حجة ثبت قال فيه أحد الأئمة الأكابر في الحفظ والدين (شعيب بن حرب):
إنني لأحسب يحاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من الله على الخلق يقال لهم: لم
تدركوا نبيكم عليه الصلاة والسلام: فلقد رأيتم سفيان الثوري ألا اقتديتم به.
إننا - معشر الإخوة - مع الحلقة ثلاثة وخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام
الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً
لتنترضوا عن الإمام سفيان الثوري:

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: إننا مع الصفحة الأولى من حياة هذا الإمام: الولادة وطلب
العلم.

ولد هذا الإمام سنة سبع وتسعين هجرية، من والدين سيدين كريمين، فقد كان
والده سعيد محدثاً صادقاً من ثقات الكوفيين ويعدّ من صغار التابعين، وكانت أمه
تقول له:

. اذهب فاطلب العلم وأنا أنفق عليك من عملي في الغزل.

فطلب العلم وهو حدث باعتهاء والده، وهو القائل: طلبت العلم فلم يكن لي
نية، ثم رزقني الله النية (المخلصة)، وكان يتردد على شيوخ عصره يتلقى العلوم عنهم
حتى بلغ عدد شيوخه ستمئة شيخ، كبارهم حدّثوه عن سيدنا أبي هريرة وجدي ابن
العباس وأمثالهما.

وكانوا يتعجبون في صغره من فرط ذكائه وحفظه حتى بدأ يحدّث وهو بعد ما زال
شاباً، وكان ابن مهدي يحدّث فيقول: رأى أبو اسحق السبّيعي سفيان الثوري مقبلاً

فقال: «وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا»، (مريم)، وبقي الإمام يدرّس طيلة حياته ويروي الأحاديث وتزداد تلامذته حتى ذكر ابن الجوزي له أكثر من عشرين ألفاً. وكان يقال له: إلى متى تطلب الحديث؟ فيقول: (أي خير أنا فيه خير من الحديث فأصير إليه إنّ الحديث فيه علوم الدنيا). ومن تلامذته عمالقة العلماء والفقهاء والمجتهدين منهم الإمام جعفر الصادق، والإمام أبو حنيفة النعمان والإمام أبو بكر والأوزاعي والإمام سفيان بن عيينة والإمام المحدث أبو داود الطيالسي، والإمام عبد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح شيخ الإمام الشافعي ويحيى بن معين حتى قال أحد تلامذته (وهو عبيد الله الأشجعي): سمعت من الثوري ثلاثين ألف حديث.

وأطلق معظم هؤلاء على سيدنا سفيان الثوري لقب أمير المؤمنين في الحديث. واسمعوا الأوسمة الشريفة التي علّقت على صدر هذا الإمام عبر الزمان يقول ابن المبارك:

كتبته عن ألف ومئة شيخ ما كتبت أفضل من سفيان. وقال فيه من أرّخ له: الإمام سفيان من أئمة الدين رأس في الزهد والخوف من الله تعالى، ورأس في الحفظ، ورأس في معرفة الآثار، ورأس في الفقه لا يخاف في الله لومة لائم.

وحين سئل كيف نلت هذه المكانة؟ قال: ما بلغني عن رسول الله حديث قط إلا عملت به ولو مرة، زينوا العلم والحديث بأنفسكم ولا تتزينوا به، وها هو يحذّر تلامذته من الكذب في الحديث ويقول لهم: لو همّ رجل أن يكذب في الحديث وهو في بيت جوف بيت لأظهر الله عليه.

إخوتي في الله:

وأرى على رأس الصفحة الثانية شيخاً زاهداً عالماً ورعاً قد عركته السنون ينطق بالحكمة وأمثلة لكم بمثالين على ذلك:

فقد كان يحب أن يكون للمؤمن مالٌ حتى لا يحتاج إلى الناس فكان يقول: لأن أخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن أحتاج إلى الناس، كان المال فيما مضى يكره فأما اليوم فهو ترس المؤمن.

المال داء هذه الأمة والعالم طبيب هذه الأمة فإذا جر العالم الداء إلى نفسه فمتى يبرئ الناس ويقول: احذر سخط الله في ثلاثة: احذر أن تقصّر فيما أمرك، واحذر أن يراك وأنت لا ترضى بما قسم لك، وأن تطلب شيئاً من الدنيا فلا تجده أن تسخط على ربك.

ومن أقواله: أحب أن يكون صاحب العلم في كفاية فإن الآفات إليه أسرع والألسنة إليه أسرع. من سرّ بالدنيا نُزع خوف الآخرة من قلبه.

هذا رأيه وفلسفته بالمال أنه وسيلة لا غاية وكان رأيه بالزهد على السنة يقول: ليس الزهد بأكل الغليظ ولبس الخشن، ولكنه قصر الأمل، وارتقاب الموت، إن أقبح الرعية أن تأكل الدنيا بعمل الآخرة. الزهد زهدان: زهد فريضة وزهد نافلة، فالفرض أن تدع الفخر والكبر والعلو والرياء والسمعة والتزيين للناس. وأما زهد النافلة فأن تدع ما أعطاك من الحلال فإذا تركت شيئاً من ذلك صار فريضة عليك ألا تتركه إلا لله.

أيها الأجابة والصحب:

وأرى على رأس الصفحة الثالثة إماماً جريئاً يقف في وجه الخلفاء والأمراء الذين حادوا عن منهج السلف فنراه يقف في وجه من يفضّل سيدنا علياً على سيدنا أبي بكر وعمر في الخلافة، ويكفر من يسب الصديق والفاروق وزييرا رسول الله وهو القائل: «من قدّم (في الفضل) على أبي بكر وعمر أحداً فقد أزرى على اثني عشرة ألفاً من أصحاب رسول الله توفي رسول الله وهو عنهم راض ». .

وقد سئل عن رجل مات كان يشتم الصديق فقال: كافر بالله العظيم. فقالوا: إنه مات نصلّ عليه؟! قال: لا، ولا كرامة. فضجّ الناس وهم يقولون: إنه يقول لا إله إلا الله ما نضنع به؟ قال: لا تمسّوه بأيديكم (لا تغسلوه ولا تكفّنوه ولا تصلّوا عليه) ارفعوه بالخشب وألقوه في قبره.

كان إذا دخل على الخلفاء ورأى المنافقين قال: احذر يا أمير المؤمنين من هؤلاء الأعوان والمترددين إليك فإن هلاكك على أيديهم، يأكلون طعامك ويأخذون دراهمك، ويغشونك ويمدحونك بما ليس فيك. فحنق عليه الخليفة أبو جعفر المنصور، وحين خرج إلى مكة حاجاً أرسل أعوانه وقال لهم: تدخلون مكة وتنصبون صليباً من خشب فإذا وجدتم سفيان الثوري فاصلبوه، فنشروا الصليب وبحثوا عن سيدنا سفيان فوجدوه في الحرم رأسه في حجر الفضيل بن عياض (شيخ الزاهدين وأحد تلامذته الذين حدّثوا عنه) ورجلاه في حجر سفيان بن عينية شيخ المحدثين بعده، فقالوا: يا أبا عبد الله اتق الله ولا تُشمت بنا الأعداء. وهنا تقدم الإمام إلى أستار الكعبة وقال: بُرئت منه إن دخل مكة (إذا دخل مكة لا أكون سفيان) فنادى منادٍ ألا إن أبا جعفر المنصور قد مات. مات قبل أن يدخل مكة كرامة لسفيان الثوري عند الله تعالى.

معشر السادة الكرام:

أقام الإمام في مكة سنة ما فتر فيها عن العبادة سوى ما بين العصر إلى المغرب كان يجلس فيها مع أصحاب الحديث يتذكرون السنة النبوية ، وتولى الخليفة المهدي الخلافة وحرص أن يُؤتي به إليه فجئ إليه إلى الكوفة دار الخلافة فدخل عليه وسلّم تسليم العامة ولم يسلم بالخلافة، فأقبل عليه المهدي بوجه طلق وقال: تَغِيْرُ منا ها هنا وها هنا، وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك، فقد قدرنا عليك الآن، ألا تخشى أن نحكم فيك بهوانا، فقال سفيان: إن تحكم فيّ يحكم فيك قادر مقتدر يفرّق بين الحق والباطل. فقبل للخليفة: إئذن لنا بضرب عنقه. فقال المهدي: اسكت وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم، عينوه على قضاء الكوفة على ألا يعترض عليه في حكم. فكتب له قرار تعيينه فأخذه وخرج فرمى به في نهر دجلة وهرب. فطلب في كل بلد فلم يجده .

وأقام في اختفائه نحو سنة في البصرة ، ومرض بالبطن وكان يخدمه أحد تلامذته (عبد الرحمن بن مهدي) ويترك صلاة الجماعة، فكأنه استثقل ترك صلاة الجماعة فسأل الإمام سفيان فقال له: خدمة مسلم ساعة أفضل من صلاة الجماعة. فقال التلميذ ممن سمعت هذا يا إمام؟ فقال: حدّثني فلان عن فلان أنه قال: لأن أخدم رجلاً من المسلمين على علة يوماً واحداً أحبّ إلي من صلاة الجماعة ستين عاماً لم يفتني فيه التكبيرة الأولى. وأخذ ماء الإمام إلى الطبيب فقال: هذا بول راهب، هذا بول رجل قد فتت الحزن كبده، ماله دواء.

فلما طال مرض الإمام صار ينادي الموت ويقول: يا موت يا موت. ثم قال: لا أتمناه ولا أدعو به . فلما حضرته الوفاة بكى وجزع فقيل له: يا أبا عبد الله ما هذا البكاء. قال: لشدة ما نزل بي من الموت، الموت والله شديد، إن روح المؤمن تخرج رشحاً ثم قال: لله أرحم من الوالدة الشفيقة الرفيقة، إنه جواد كريم، وكيف لي أن

أحب لقاءه وأنا أكره الموت، أوّاه، أوّاه من الموت، فبكي جميع من كان حوله، وكان أصحابه يقولون ما سمعناه يأنّ ويقول أوّاه إلا عند ذهاب عقله.

معشر الإخوة:

ها نحن الآن أمام الصفحة الأخيرة من حياة هذا الإمام، إننا في الليلة الأخيرة التي رؤي في المنام أن أحداً ينادي مات أمير المؤمنين. كانت ليلة شديدة عليه ، ومع ذلك لم يترك قيام الليل ، حتى توضأ تلك الليلة ستين مرة وما ترك قيام الليل، ونزل عن فراشه ووضع خدّه على الأرض وقال: ما أشد الموت. يا ابن المهدي إقرأ عليّ يس فإنه يقال إنه يخفف عن المريض، فقرأها عليه فما فرغ حتى مات.

مات الإمام سفيان سنة إحدى وستين ومئة ، ورؤي في المنام ف قيل ما صنعت؟ فقال: أنا مع السفارة الكرام البررة ، والتقى بسيدنا رسول الله وصافحه وشدّ على يده وجزاه عنه خيراً.

إخواني: كانت آخر وصايا الإمام قوله: ينبغي للرجل أن يكره ولده على العلم فإنه مسؤول عنه، وهكذا قضينا مع أحد الأئمة في الدين، مع تلميذ آخر من تلاميذ هذه المدرسة هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك ياسيدي يا رسول الله

الصلاة والسلام عليك

● مصادر :

.وفيات الأعيان لابن خلكان ٢١٠/١

.طبقات ابن سعد ٢٥٧/٦

.المعارف لابن قتيبة ٢١٧

.حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٥٦/٦

.تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ١١١/٤

.تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٥١ / ٩

.سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٢٩/٧

(١٥٤)

الإمام إبراهيم بن أدهم

(١٠٠ . ١٦٢ هـ)

الحمد لله الذي أظهر بدائع مصنوعاته على أحسن نظام، وخصّ من بينها من شاء بمزيد الفضل والإنعام ، ووفقه وهداه إلى دين الإسلام ، وأرشده إلى طريق معرفة الحلال وتجنب الحرام.

وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له ذو الجلال والإكرام.
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المفضل على جميع الأنام.
اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الغر الكرام،
وسلم تسليماً.

أما بعد: فيا معشر السادة الكرام:

ما أكثر القمم الشوامخ التي تغادرنا عبر الزمن دون أن يستفيد منها المسلمون،
كالسحب التي تجتاز عبر طبقات الجو دون أن تمطر قطرة على البلاد، ويبقى الله
ذكر المخلصين طيباً عبر القرون.

﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

ونحن اليوم مع إمام قدوة ، وسيد من سادات الأمة ، مع سلطان الزاهدين ،
وعلم العارفين الربانيين أصله من بلخ من خراسان ، وسكن الشام ودخل دمشق.
كان قبل أن يبلغ شأ الأولياء والصالحين ومقام التحقيق يدعو: اللهم انقلني من ذلّ
معصيتك إلى عزّ طاعتك.

نحن اليوم مع رجل من العرب ، كان كبير الشأن في باب الورع ، شعاره في
ذلك: أطب طعمتك ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار. صحب
أكابر علماء زمانه كسيدنا سفيان الثوري والفضيل بن عياض وشقيق البلخي ،

وشهدوا له أنه كان على قدم إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقال فيه سيدنا بشر الحافي: ما أعرف عالماً إلا وقد أكل بدينه إلا فلان وفلان وإبراهيم بن أدهم.

ومع الحلقة أربعة وخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، أطرق وإياكم باب سيدنا إبراهيم بن أدهم زائرين، وقبل الزيارة أدعوكم جميعاً لتتوضوا عن الإمام سيدنا إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان:

كان سيدنا إبراهيم بن أدهم من أبناء الملوك أي الولاة ، وحج والده مع أمه وهي حامل به، وبين أيديهما الخدم والحشم والمراكب ، فولدت أمه إبراهيم بمكة حوالي المئة هجرية، فجعلت تطوف به على الخلق في المسجد الحرام وتقول : ادعوا لأبني أن يجعله الله رجلاً صالحاً.

ونشأ بين أبويه في سعة ورغد عيش ، يرافقه خدم والده أينما حلّ أو ارتحل أو خرج للصيد، وخرج يوماً ليصطاد فرأى ثعلباً أو أرنباً فانطلق ليصطاده فهتف به هاتف (ملك أو ولي أو خاطر): ألهذا خلقت أم بهذا أمرت؟! فاستعاذ بالله من الشيطان ، ثم كرّر ليصطاد فهتف به مرة ثانية وهو على الفرس : والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، ما هذا العبث: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ (المؤمنون ١١٥). فأخذته رعدة وصحوة وقال: والله ما هذا بشيطان، ونزل عن دابته وصادف راعياً لأبيه فأعطاه فرسه وما معه، وأخذ جبة الراعي ولبسها ثم دخل البادية تائهاً هائماً على وجهه ، ساح مستغفراً متفكيراً يطلب الهداية من الله مع طلبه المال الحلال ، فمن أرسل الله تعالى إليه في بادية التوبة والمحبة؟

إخوتي في الله:

للإجابة عن هذا السؤال أقترح على حضراتكم أن أنتقل بكم إلى هناك إلى بادية خراسان لأجتمع مع حضراتكم بضيوف سيدنا إبراهيم بن أدهم المكرمين: والعجيب أن الضيف الأول الذي لقيه في الصحراء كان حسن الثياب، طيب الرائحة حسن الوجه، سأله: يا غلام من أين وإلى أين؟ فقال سيدنا إبراهيم: من الدنيا إلى الآخرة فقال له أنت جائع؟ قال: نعم. فقام الشيخ فصلّى ركعتين وسلّم، فإذا عن يمينه طعام وعن شماله ماء، فقال له: كل فأكل وشرب حتى ارتوى، فقال له الشيخ: اعقل وافهم، لا تحزن ولا تستعجل فإن العجلة من الشيطان، وإياك والتمرد على الله، فإن العبد إذا تمرّد على الله أورث الله قلبه الظلمة والضلالة مع حرمان الرزق، ولا يبالي الله تعالى في أي وادٍ هلك، وإن الله عزّ وجلّ إذا أراد بعبد خيراً جعل في قلبه سراجاً يفرّق بين الحق والباطل. ويا غلام إني معلمك اسم الله الأعظم فإذا أنت جعت فادع الله عزّ وجلّ به حتى يشبعك، وإذا عطشت فادع الله عزّ وجلّ به حتى يرويك، ثم قال الشيخ: اللهم احببني عنه واحببه عني، فاختلفي الشيخ بلحظة.

معشر السادة:

ومضى سيدنا إبراهيم بن أدهم وهو يذكر اسم الله الأعظم فلقيه رجل آخر طيب الرائحة حسن الثياب فأخذ بمقعد إزاره وقال له: ما حاجتك ومن لقيت في سفرك هذا؟ قال: لقيت شيخاً صفته كذا وكذا فبكى الرجل، فقال سيدنا إبراهيم: أقسمت عليك بالله من ذلك الشيخ؟ فقال الرجل: ذلك النبي إلياس عليه السلام أرسله الله تعالى ليعلمك دينك ويعلمك الاسم الأعظم، فلا تدع على أحد فيهلكه الله في الدنيا والآخرة، واعبد ربك على تحقيق المشاهدة والمراقبة، واعلم أنه أقرب إليك من حبل الوريد، فقال سيدنا إبراهيم: وأنت يرحمك الله من أنت؟ فقال: أنا الخضر.

أيها الإخوة الكرام:

وهنا بدأت مرحلة المجاهدة للإمام ، فصار يتحرى الورع، ويهيم على وجهه يطلب الحلال، حتى إنه يطوي الأيام الثلاثة ولا يأكل إلا في الرابع، فقيل له: اترك خراسان وانتقل إلى الشام فإن فيه الحلال.

وهكذا شرف الله تعالى بسيدنا إبراهيم البلاد، جاء إليها ليعمل بكد يمينه وعرق جبينه، فعمل حملاً، وعمل حصّاداً ، وعمل ناطوراً ، والتقى بعلماء عصره حتى التقى بالإمام الأوزاعي وقال له: يا أبا إسحق إن إخوانك يكفونك ، فكان يقول: دعوني فإنه بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة. وكان إذا حصد ارتجز وقال:

اتخذ الله صاحباً ودّع الناس جانباً

وكان يردد: ما نُبَلِّ عندنا من نُبَلِّ بالجهاد ولا بالحج بل كان يَعْطِل ما يدخل بطنه.

وكان يعلم أصحابه ويقول: الزهد منه ما هو فرض ومنه ما هو فضل: الزهد الفرض ما كان في الحرام (الزهد في الحرام فرض) والزهد الفضل ما كان في الحلال، وهناك زهد سلامة وهو الزهد في الشبهات.

وزهده في الدنيا جعله يلبس الثياب القليلة ويصوم في الحضر والسفر ولا ينام الليل وهو يتفكر، وفي إحدى الليالي أمسى مع أصحابه لا يجدون ما يفتروا عليه عند المغرب، فقال لأصحابه يعزيهم: ماذا أنعم الله على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة ولا حج ولا صدقة ولا صلة رحم، لا تغتموا فرزق الله سيأتيكم، نحن والله الملوك الأغنياء تعجلنا الراحة لا نبالي على أي حال كنا إذا أطعنا الله تعالى. قوموا بنا إلى الصلاة، فما أن أتموا صلاتهم حتى أرسل الله إليهم رجلاً مع الخبز والتمر وضعه أمامهم. هذا صدق التوكل على الله.

والأعجب من هذا الموقف أن أصحابه ذكروا عنه أنهم لما قرروا الحج بقوا أياماً في الطريق إلى مكة لم يجدوا طعاماً حتى دخلوا الكوفة فأووا إلى مسجد خرب، فنظر سيدنا إبراهيم إلى من معه وقال له: أرى بك الجوع قد بلغ مبلغه، فقال له: هو ما رأى الشيخ، فقال إلي بدواة وقرطاس فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

أنت المقصود إليه بكلّ حال	والمشار إليه بكلّ معنى
أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر	أنا جائع أنا خانع أنا عاري
هي ستة فأنا الضمين لنصفها	فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك وهم نار خضتها	فأجر فديتك من دخول النار

ثم دفع بالرقعة إلى صاحبه وقال: اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك، فخرج صاحبه (حذيفة المرعشي) فأول من لقيه على بغلة دفعها إليه ، فأخذها الرجل وبكى وقال: ما فعل صاحب هذه الرقعة؟ فقلت: هو في المسجد الفلاني، فدفع إليه صرة فيها ستمئة دينار ثم لقي رجلاً آخر فقال له: من صاحب هذه البغلة؟ فقال نصراني. فجاء إلى إبراهيم فأخبره بالقصة، فقال: لا تمسها فإنه يجيء الساعة فلما كان بعد ساعة جاء النصراني وأكب على رأس إبراهيم ابن آدم وأسلم لساعته.

هذه أول كرامة على الطريق إلى مكة، وكان في أثناء الطريق يحذّر أصحابه أن لا يكونوا متواضعين عابدين فإن الحج عبودية لله تعالى ، وكان من قوله لصاحبه: (اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات:

أولها: أن تغلق باب العز وتفتح باب الذل.

ثانيها: أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد.

ثالثها: أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر.

رابعها: أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر (تنفق في سبيل الله).

خامسها: أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة.

سادسها: أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت.

وما أن وصلوا إلى بادية الشام وتوسطوها حتى ظهر لهم أسد هصور فقيل لسيدنا ابن آدم: هذا السبع قد ظهر لنا، فقال: لهم: أرونيه فناده: يا قَسُورَة: إن كنت أُمُرت فينا بشيء فامض لما أُمُرت به، وإلا فعد من حيث أتيت، قال: فولى السبع هارباً بإذن الله تعالى.

وما أن وصلوا إلى بيروت وركبوا في السفينة وتوسطوا البحر حتى هاجت وماجت واضطربت من شدة الرياح فقال له صاحبه: يا أبا إسحق: ما ترى؟ ففتح كفيه وقال: يا حي حيث لا حي، ويا حي قبل كل حي، ويا حي يا قيوم يا محسن يا مجمل قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك .

فهدأت السفينة بإذن الله.

ونزلوا في جدة وساروا إلى مكة، وبينما هو يطوف إذ رآه صاحبه ينظر إلى غلام قد افتتن الناس به لحسنه وجماله، وحوله الخدم فجعل سيدنا إبراهيم يديم النظر إليه فقال له صاحبه: أراك تديم النظر إلى هذا الغلام! فقال: هذا ولدي وابني وهؤلاء غلماني وخدمي حوله، ولولا شيء لقبلته، ولكن انطلق فسلم عليه مني وعانقه عني. فقال: فمضيت إليه وسلمت عليه من والده وعانقته فإذا بالولد يسرع إلى أبيه ويضمه إلى صدره وتنهمر دموع الحب بين الوالد وولده، ثم صرفه

مع خدمه وسمع الإمام وهو يقول:

وأيتمت العيال لكي أراكا

هجرت الخلق طراً في هواكا

لما حنَّ الفؤاد إلى سواكا

ولو قطعني في الحب إرباً

أيها الأجابة والصحب:

وما أن توجه الإمام إلى الصفا ووقف أمام جبل أبي قبيس المطل على الصفا حتى سأله صاحبه قبل السعي سؤالاً وقال له: إلى أي مدى تبلغ كرامة المؤمن عند الله؟ فقال: لو أن مؤمناً مستكمل الإيمان يهزّ الجبل لتحرك، فإذا بجبل أبي قبيس يتحرك، فقال له الإمام إبراهيم: اسكن ليس إياك عنيت. ثم التفت إلى صاحبه وقال: على المؤمن (لكي تكون له الكرامات) ألا يكون ذليلاً إلا لله، كل من ذلّ لغير الله فهو والكلب سواء، وكل عالم لا يكون تقيّاً فهو والذئب سواء، وكل ملك لا يكون عادلاً فهو واللص سواء .

وذهل أصحاب الإمام من قوة حكمة الإمام فقد كانت هذه الحجة حجة الحكم والكرامات ، وكأن الله تعالى جعله يلتقي بولده ليودّعه الوداع الأخير. فقد عاد سيدنا إبراهيم بن أدهم إلى هنا، إلى دمشق الغوطة ليعمل حارساً في بستان، وقد علا الشيب رأسه وقارب المسير إلى الله، وكانت وصيته الجامعة الفريدة التي أوصى بها أصحابه تنم عن خبرته الطويلة في الحياة، ولا بأس في ختام هذا المقام أن أوردتها على حضراتكم إن سمحتم، قال لشقيق البلخي: عليك بالناس، وإياك من الناس، ولا بد من الناس ، فإن الناس هم الناس ، وليس الناس بالناس، ذهب الناس وبقي الناس، وما أرهم بالناس وإنما غمسوا في ماء الناس. وصار من حوله ينظرون إلى الشيخ الإمام كأنه لم يفهم هذه المتناقضات، فقالوا فسّرنا لنا يا إمام، فقال:

أما قولي عليك بالناس: أي مجالسة العلماء.

وأما قولي إياك من الناس: أي مجالسة السفهاء.

وأما قولي لا بد من الناس: أي في الصلوات الخمس والجمعة والحج والجهاد واتباع الجنائز والشراء والبيع ونحوه.

وأما قولي الناس هم الناس: أي فالفقهاء والحكماء.

وأما قولي فليس الناس بالناس: فأهل البدع والأهواء.
وأما قولي ذهب الناس: أي ذهب سيدنا النبي وأصحابه.
وأما قولي بقي الناس: يعني من جاء بعدهم ممن روى عنهم.
وأما قولي وما أراهم بالناس إنما غمَسُوا في ماء الناس: فنحن وأمثالنا.
أيها الإخوة: كانت هذه هي وصية الإمام التي وصَّى بها قبل أن تفيض روح
الإمام إلى بارئها بعد اثنتين وستين سنة عاشها زاهداً عابداً ورعاً تقياً.
أتدرون أين قبر الإمام اليوم إنه في بلدتكم دمشق على مسافة عشرة كيلومترات،
إنه في منطقة مرج السلطان التي سمَّيت على اسمه ، والحقيقة أن القبر هناك هو قبره
وليس قبر سيدنا أبي يزيد البسطامي سلطان العارفين ، بل قبر سلطان الزاهدين ،
فإلى هناك زوروا هذا القبر وتوسلوا به إلى الله لعلَّ الله أن يفرِّج عنا هنا، وما أدراك ما
هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه وتحيتنا إليك
يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك .



• الرسالة القشيرية ٨

شرح الرسالة للأنصاري ١/٧٠

الموسوعة الصوفية للخفي

صفة الصفوة

طبقات الصوفية للسلمي ١٥

(١٥٥)

طغر قريش عبد الرحمن الداخل

(١١٣-١٧٢هـ)

الحمد لله الذي فضّل بعض البلدان على بعض كما فضّل بعض الأيام ، وشرف الشام بما احتوت عليه من الفضائل وبمن سكنها من الأنبياء العظام ، وميّزها بعدما ميّز بلده الأمين وبيته الحرام ، فله تعالى في مخلوقاته شؤون وخواص تظهر في الأمكنة والأزمنة والأشخاص .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أكرم بلادنا الشامية بما أجراه فيها من الأنهار وسلسل من مياهها خلال المنازل والديار وأنبث بظاهرها من الحبوب والثمار وجعلها موطناً لعباده الأخيار .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله حفظ الشام بالملائكة المقربين ، وجعلها في كفالة رب العالمين ، وجعل من أهلها قوماً ظاهرين لا يضرهم من خالفهم إلى يوم الدين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد أشرف المرسلين وخير الأنام ، القائل وهو الصادق الأمين : عليكم بالشام. وعلى آله وأصحابه المكرمين هداة الأنام ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

هل قرأتم قصص المغامرات الكبرى ، أو رأيتم أفلامها ، تصوروا أغرب قصة ابتكرها خيال أديب ، لتروا أن أعجب قصص الخيال لا تبلغ حقيقة هذه الشخصية التاريخية الواقعية التي نقف اليوم بحضرتها .

قصة رجل رمته الحياة بأدهى الدواهي ، ونزلت به إلى الحضيض الذي يدعو أشد الناس أعصاباً إلى الجنون والانتحار فقفز قفزة واحدة من حضيض الإخفاق

إلى ذروة الفوز والنجاح .

نحن مع أمير استلم إرث أمية ملطخاً بالوحدل مغموساً بالدم فجعله أسمى من النجم وأبهى من سنا الشمس ، سيد كريم أنشأ دولة عاشت قرنين ونصف من الزمان وسجد لإسلامها ملوك الإفرنج والروم .
كان هذا هو موجز الأنباء وإليكم الأنباء بالتفصيل .

معشر الإخوة الكرام :

كانت بلدتنا هذه دمشق في عهد مظلم من عهودها السود يحكمها حكام صغار النفوس كبار المطاعم والأهواء ، جبنوا عن المكارم والفتوح ، وجروؤا على المعاصي والفسوق ، همهم حفلات اللهو ومجال الطرب ، ناموا على ملذاتهم وسهر أعدائهم ، سكروا بنشوة السلطان وخمرة الهوى وصحا خصومهم ، أولئك هم بعض ولاية بني أمية في أواخر العهد بأمية ، نسي الأحفاد منهم سيرة الأجداد ، نزعت أمية ثوب الجهاد وطوت راية الفتوح واستكانت إلى اللهو والدعة ، لم يعد فيهم مثل سيدنا معاوية ولا عبد الملك ولا الوليد ولا سيدنا عمر ابن عبد العزيز ، ولا في قوادها مثل قتيبة الباهلي ومحمد بن القاسم والمهلب وطارق بن زياد ، واعتلى سرير الملك ملوك صغار ضعاف ، ظلمت أمية وفجرت ، والظلم والفجور توأمان ، ما كان الحاكم قوياً قديراً إلا كان عادلاً ، ولا كان عاجزاً فاجراً إلا كان ظالماً يستر ضعفه عن الفضيلة بظلم الرعية ، وذاقت أمية عاقبة ظلمها ، فكيف تم ذلك ؟

أعدّ الحطب في الخفاء ، وهيء البارود ، ولم يبق على انبعاث النار إلا أن تقدح الشرارة الأولى ، وكانت الشرارة من أقصى الأرض من خراسان الجزء الجنوبي من أفغانستان ، واندلعت النار وفتشت أمية عن الرجل الذي يعيد سيرة أخلافها الأولى سيدنا معاوية وعبد الملك ، ووجدته ، وكان مروان ... ، وكان مروان كاسمه صخراً صلداً ، رجلاً حقاً ، ولكن جاء مع الأسف والدينا مولية ، والنهار آفل ، وضاعت أمية إلى الأبد سنة ١٣٢ هـ وضاع العرب ، وما أضاعهم إلا الانقسام ، والعصبية

والجاهلية بين قيسية ويمانية ، وتلكم مصيبة العرب أبداً ، ولو كان العرب متحدين ، ولو كانوا صفاً واحداً ما حكمهم عبيد المعتصم من الأتراك ، ولا ممالك المماليك من كل أمة ، ولا غلبهم اليوم على فلسطين كلاب البشر وجراثيم الإنسانية اليهود ، وحكم الفرس دولة الإسلام باسم بني العباس ، فخلت من أمية القصور وامتألت بأمية القبور ، وجفتهم أعواد المناير ، وتتبع الدولة الجديدة بني أمية قتلاً وحرماً وإهلاكاً ، ولم يفلت منهم إلا شاب واحد ، هو البطل الذي أحدثكم عنه اليوم .

إننا . أيها الإخوة . مع أمير الأندلس وسلطانها الفاتح ، الذي حكم ثلاثاً وثلاثين سنة حكماً مطلقاً ، وبقي الملك في عقبه إلى سنة أربعمئة ، إننا مع :

الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الملقب بعبد الرحمن الداخل .

ومع الحلقة خمسة وخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الأمير عبد الرحمن الداخل :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد عبد الرحمن على أرض تدمر سنة ثلاث عشرة ومئة هجرية في خلافة جده هشام بن عبد الملك ، وعاش في كنف القصور الملكية لبني أمية ، فلما نقض الله ملكهم سنة اثنتين وثلاثين ومئة (١٣٢ هـ) لم ييأس ، وكانت له أعصاب فُدَّت من فولاذ ، وَبَصَرٌ كَأَنَّهُ ينظر من وراء الغيب ، وَعَقْلٌ لا تدنو إلى إدراك تفكيره العقول ، رمى ببصره إلى البلدان فوجدها كلها مغلقة دونه ، وترامى إلى ذهنه البشرى التي كان يسمعها أن رجلاً من بني أمية يعيد مجدهم في الأندلس ، فهتف في نفسه هاتف لماذا لا يكون هو ؟ أن يكون هو ، ولكن هيهات فدون الأندلس صحارى وجبال ومهالك ، ودون الأندلس سدس محيط الأرض . فكيف سيتم له ذلك وهو فرد مطارد ، فرد واحد بقي من الأسرة التي حكمت ثلث المعمور

من سطح هذه الأرض ، ورفعت راية الإسلام على أقطار لم تكن تدري ما الإسلام ، من هنا من دمشق إلى الهند وتخوم الصين ، ومن هنا إلى وسط فرنسا ، ومن هنا إلى أسوار القسطنطينية ، ومن هنا إلى جبال الحبشة ، إن ذهب هذا الفرد لايبقى في الأرض أثر من عبد شمس شيخ بني أمية.

وكانت الدنيا عليهم : الدولة والجيش والناس تألبت الدنيا كلها على أمية ، ونُسيت فتوح أمية ، ولكن أمية هي التي زرعت الظلم فحصدت الهلاك والناس ينسون فضل الأسلاف إن عمَّ ظلم الأخلاف ، والناس يغفرون كل شيء إلا أن يتخم الحاكم شعبه بالجوع ، ويشترى لذاته بألم الشعب، ويحرم الشعب ليعطي قريباً أو بعيداً ، فماذا يصنع عبد الرحمن هذا ؟ أين يذهب والبلدان كلها قد خضعت للسفاح من بني العباس ، وأين يحتفي والناس كلهم يدلون عليه إن عرفوه ؟ وليس معه إلا غلامه بدر، وما معه إلا حفنة من الدنانير وجوهرة وصلت إليه لو أخرجها لبيعها عرفوه بها فقتلوه.

هذا هو الوضع الحرج الذي أصابه ، ولكن لم ييأس و اعتمد على الله ، والقضاء والقدر لا شك نازل ، ولا يغني حذر عن قدر ، انطلق مع غلامه بدر يمشي ، يمشي في الليل ويختبئ في النهار من قرية إلى قرية ، ومن ركن إلى ركن والطريق لا تنتهي ، تصورا أن تمشوا من دمشق إلى بيروت بلا زاد ولا راحلة ، فكيف من الشام إلى مصر ، ومن مصر إلى طرابلس ، ومن طرابلس إلى تونس ، ومن تونس إلى الجزائر ، ومن الجزائر إلى أقصى المغرب، ثم يعبر البحر ليصل إلى الأندلس، وكلما أضاء النهار قيض الله له من يحميه ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

إخوتي في الله : وصل عبد الرحمن إلى الأندلس سنة ثمان وثلاثين ومئة هجرية وكان قواد الأندلس وجندها يدينون بالولاء لبني أمية ، فبعث إلى قائد أعلمه بشأنه ، فأسرع وقبّل يده وفرح به وقال له : كنا نتحدث أنه إذا انقرض ملك بني أمية بالشرق نبغ منهم عبد الرحمن بالمغرب، ثم كتب إلى المواليين له وأجمعوا على بيعته

واستوثقوا من أمراء العرب وشيوخ البربر ، فلما استحکم الأمر أظهروا بيعته بعد ثمانية أشهر ، ثم بدأت فتوحاته، ومنَّ الله عليه أن كل بلدة افتتحها اتبعه أهلها ضمن جنوده حتى اجتمع له عسكر وجيش عظيم .

وكان رضي الله عنه من أهل العلم وعلى سيرة جميلة من العدل، وجعل له مجلس شورى من أهل العلم والتقوى .

وهكذا ترون . **أيها السادة** . كيف استطاع هذا الطريد الشريد أن يرقى بنفسه في المعمرة، وأن يكون سياسياً كأبرع سياسي في الدنيا ، ويفرض نفسه على الناس فرضاً حتى انقادوا له ، وكذلك ينقاد الناس للعبقريّة والبيان ، وكان قائداً كأبرع القادة في التاريخ يخوض المعارك ويدير الحروب حتى صار سيد الأندلس وذلت له القبائل ، وسلم له الأمر وأوقع الله بأعدائه أفظع الوقائع ، وخطب لعبد الرحمن بجميع الأمصار على المنابر ، وفرت الروم ، وتعلقت بالجلال .

لكن أعظم إنجاز له بعد الفتح بناء جامع قرطبة الذي كان شطر منه كنيسة وشطر مسجداً ، فاشترى الشطر الثاني من النصارى بمئة ألف دينار وقبضوها على ملأ من الناس ، ثم عمل هذا الجامع الذي هو فخر الأرض وشرفها ، وكان تأسيسه سنة سبعين ومئة أنفق فيه آلاف الدنانير ووضع فيه المحاريب والأقواس وبني منبره من أفخر الأنواع الأبنوس والصندل وبلغت أعمدة جامع قرطبة أربعمئة سارية وتسع سواري، وبني له منارة عدت من أعاجيب الدنيا ، بل عدَّ المسجد الجامع هذا من نوادر المساجد هناك حتى عزَّ الإسلام في الأندلس في دولة الداخل ، مما حدا بالخليفة المنصور العباسي لما بلغه ما فعل الأمير عبد الرحمن وأيسست جيوشه أن تصل إلى مملكة الأندلس أن يقول : ذاك صقر قریش ، دخل

المغرب وقد قتل قومه ، فلم يزل يضرب العدنانية بالقحطانية حتى ملك .

أيها الأحبة والصحب :

ولما بلغ الستين من عمره نزل إلى حديقة قصره حيث زرع نخلة بين الأشجار هناك ، نخلة وحيدة ، رآها فتذكر ديار الشام وحن إلى قومه بعد أن دخلت عليه السنة الثانية والسبعين بعد المئة، فخاطب النخلة قائلاً :

يا نخل أنت غريبة مثلي	في الغرب نائية عن الأصل
فابكي وهل تبكي مكمنة	عجماء لم تطبع على خبل
لو أنها تبكي إذن لبكيت	ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت وأخرجني	بغضي بني العباس عن أهلي

رحل عبد الرحمن الداخل كما سيرحل كل حاكم وملك وأمير ، رحل ولم يعيش إلى الأبد ، لكنه ترك لمن بعده درساً في تواريخ الأمم للأمل الذي يذيب الصعاب كما تذيب الشمس جبلاً من الثلج ، والهمة التي تضم المشرق إلى المغرب، والعبقريّة التي تنشئ وتشيد من العدم وجوداً ضخماً .

فيا شباب الإسلام اصنعوا التاريخ بدل أن تقرؤوه، لاتبأسوا كما لم يبأس عبد الرحمن الداخل صقر قريش • .

• المصادر : سير أعلام النبلاء ٢٤٤/٨ . مختصر ابن عساكر لابن منظور ٥١/١٥ . الكامل لابن الأثير ٤ / ٣٦٢ . فوات الوفيات ٢ / ٣٠٢ . نفح الطيب للمقري ١ / ٣٢٧-٣ / ٢٧ . رجال من التاريخ للطنطاوي ٣٠٣

(١٥٦)

الإمام أبو الحارث الليث بن سعد

(٩٤ هـ . ١٧٥ هـ)

الحمد لله الذي زحزح همم الأولياء عن السكون إلى العاجلة، وشرح صدور السعداء لإيثار الآجلة، المنفرد بالكمال والكبرياء والجلال والبقاء والعز الذي لا نفاد له، القلوب تعرفه بصنعتة، والرقاب خاضعة لعزته، والعقول في تعظيمه حائرة ذاهلة.

أحمده سبحانه وتعالى على ما أسبغ علينا من نعم كامله.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ضمن الربح لمن عامله، وغفر زلات عباده عند المساءلة، وقرب أحبابه فعيونهم في خدمته ساهره .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أرسله إلى أمة غافلة ليدمر حزب الشيطان بالمكافحة والمناضلة، فأوضح كل مشكله ، وبين حكم كل نازله، وأضحت شمس الإيمان مشرقه ، ونجوم البهتان آفله .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة متواصلة ، وسلّم تسليماً .

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أقف اليوم بينكم إجلالاً وإكباراً أمام علم عظيم وسيد كريم من سادات الأمة، ساد أهل زمانه فقهاً وعلماً وحفظاً وفضلاً وكرماً، حتى لقب بإمام الديار المصرية بلا منازع، وأجمعوا على أنه نظير الإمام مالك في الفقه، وعديله في الاجتهاد وأنه كان لمصر مثل مالك للمدينة، لا يفتي ومالك في المدينة، ولا يفتي وهو في مصر حتى قيل فيه: لولا الإمام مالك والإمام الليث لضللنا، بل يحلف القائل فيقول: والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث (ابن وهب).

وقال فيه الإمام النووي (في تهذيبه): أجمعوا على جلالته وأمانته وعلو مرتبته في
الفقه والحديث. فهل عرفتم من هو يا سادة؟
هو الذي جمع الله له الدنيا والدين، والجاه والتقوى، وكان سيد مصر، أمره قبل أمر
الولاة وحكمه فوق حكم القضاة، إنه:

الإمام أبو الحارث الليث بن سعد الفقيه المصري، كان فقيه البلد، عربي
اللسان، يحسن القرآن والنحو والحديث والشعر، وحين قدم الإمام الشافعي رحمته الله
مصر أتى قبر الليث بن سعد وقال: ما فاتني شيء كان أشد عليّ من الليث بن
سعد، وقال: لله درك يا إمام لقد حزت أربع خصال لم يكملهن عالم: العلم والعمل
والزهد والكرم، ثم التفت إلى أصحابه وقال: (الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه
لم يقوموا به) أي لم يدوّنوا فقهه كما دوّنوا فقه الأئمة الأربعة، وكاد ينسى اسمه فلا
يعرفه إلا العلماء، على حين عرف الأئمة أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد كل
مسلم.

إننا معشر الإخوة مع الحلقة ستة وخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام
الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً
لتتعرضوا عن الإمام الليث بن سعد.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوتي في الله: ولد هذا الإمام سنة أربع وتسعين هجرية في شعبان في يوم الجمعة
، وشبَّ ورحل في طلب العلم، رحل لا كما يرحل الطلاب اليوم إلى أمريكا وأوروبا،
بل رحل كما يرحل السلف ليتلقوا الدين والتقوى والسلوك الإسلامي ويجتمعوا
بالعلماء الصالحين، رحل إلى الحجاز ونحل من علم الإمام نافع التلميذ الخاص لابن
عمر، وعطاء بن أبي رباح، وشهاب الزهري، ورحل إلى العراق فأخذ علم ابن
مسعود عن تلامذته، ثم عاد إلى بلاده إماماً فذاً ليس له نظير.

واشتهر مع العلم بالكرم، وبلغ من كرمه أنه كان لا يتغذى وحده ولا يتعشى وحده إلا مع الناس.

وكانت تأتيه المرأة بكأس تشتكي إليه مرض زوجها وأنه وصف له العسل، فيقول لها: اذهبي إلى الوكيل فقولي له يعطيك مطراً ، أو زقاً (يسع ١٢٠ رطلاً) فيقال له: إنما تريد قليلاً من العسل فيقول: أعطها مطراً إنها سألت بقدرها فأعطيناها بقدرنا. وكان يكرم أصحابه من أهل العلم ليتفرغوا للعلم ولا يسألوا الناس، ويقول له: صن بهذه الألف دينار (ألف ليرة ذهبية) الحكمة التي آتاك الله تعالى.

إخوة الإيمان: كان دخل الإمام الليث في السنة من عشرين ألف دينار إلى ثمانين أو مئة ألف دينار، أي حوالي ٢٠٠ مليون ليرة سورية في كل سنة، لا يأتي رأس السنة إلا وقد أنفقها كلها لوجه الله ، ولهذا قيل: ما وجبت عليه زكاة قط. كان لا يرد سائلاً، ويتصدق عند كل صلاة على ثلاث مئة مسكين، وكان الفقراء يزدحمون على بابه كل يوم فيخرج إليهم ويتصدق عليهم جميعاً ثم يدور على سبعين بيتاً من الأراامل يتصدق عليهم. وإليكم هذه الحادثة التي تدل على سعة فضله وكرمه وحسن معاملة الفقراء.

مشهد فريد لا تجد في سني حياتك ولا حياة آبائك مثيلاً له: فقد صودرت دار لرجل من أهل مصر وبيعت داره بأربعة آلاف درهم، فاشترها الإمام وبعث وكيله ليتسلم المفاتيح فوجد فيها أيتاماً وعائلة، فقالوا: بالله عليك اتركنا إلى الليل حتى ننظر خربة (أرض مهجورة) نذهب إليها، فتركهم الوكيل، وجاء إلى الإمام الليث يحكي له قصة اليتامى، فبكى الإمام الليث وقال: عُدْ إليهم وقل لهم الدار لكم، ولكم كل يوم نفقتكم.

وحين حج وزار المدينة المنورة أهدى إليه الإمام مالك صينية مملوءة تمرًا فردّها إليه مملوءة ذهباً.

وسمع أن الإمام مالك يحتاج إلى عصفر لصباغ بعض ثيابه فأهدى إليه جمالاً
محمّلة بالعصفر فدعا له الإمام مالك بالخير والبركة.

أيها الأحبة والصحب:

وتناهى إلى سمع الإمام الليث أن أهل مصر يكرهون سيدنا عثمان بن عفان،
فما زال يذكر فضائل سيدنا عثمان في مجالسه ومكرماته وتوقير النبي له حتى ترك
أهل مصر كلامهم عن سيدنا عثمان وصاروا يوقّرونه ويحترمونهم وكفّوا عن انتقاصهم
له تعظيماً للإمام الليث، وكانت أمراء مصر لا يقطعون أمراً دونه، وكان لليث أربع
مجالس كل يوم:

١ - مجلس لحوائج السلطان يأتيه سلطان مصر أو أميرها في شؤون الدولة، فإن
أنكر منه أو من القاضي أمراً كتب إلى أمير المؤمنين فيأتيه العزل.

٢ - ومجلس لأصحاب الحديث.

٣ - ومجلس لأصحاب المسائل الفقهية.

٤ - ومجلس لحوائج الناس.

معشر الإخوة الكرام:

أنتقل بكم الآن إلى المؤتمر العام لعلماء الدولة الإسلامية الذي عقده الخليفة
هارون الرشيد في حاضرة الخلافة بغداد العراق فرّج الله عنها، فقد وقع أمر جَلل بين
الخليفة وزوجته السيدة زبيدة فقال لها الخليفة: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة.
ندم الخليفة على هذه الكلمة، وجمع الفقهاء فاختلفوا، فكتب إلى البلدان
يستحضر علماءها إليه في أكبر مؤتمر فقهي عقده الخليفة فتكلّم كل العلماء والإمام
الليث ساكت، فقال الخليفة: لم تتكلّم يا أبا الحارث؟ فقال: إذا أخلّى أمير
المؤمنين مجلسه كلمته فصرفهم. فقال: يدنيني أمير المؤمنين. فأدناه. فقال: أتكلّم
على الأمان؟ قال: نعم. فأمر بإحضار مصحف، فأحضر، فقال: تصفحه يا أمير

المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها. ففعل فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ قال أمسك يا أمير المؤمنين. قل: والله. قال: فاشتد ذلك على الخليفة. فقال: يا أمير المؤمنين الشرط أملك. فقال: قل: والله الذي لا إله إلا هو إني أخاف مقام ربي، فقال الخليفة ذلك. فقال الإمام الليث: يا أمير المؤمنين فهي جنتان وليست بجنة واحدة. قال: فسمع التصفيق والفرح من وراء الستر فقال الرشيد: أحسنت يا أبا الحارث، وأمر له بالجوائز والخلع، وأمر له بإقطاع الجيزة، ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره.

وهكذا - معشر السادة - ساد الإمام الليث أهل زمانه وكان له ولد يدعى شعبياً كان مثل أبيه في الفضل والمكارم.

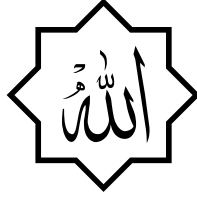
توفي الإمام الليث سنة خمس وسبعين ومئة في يوم جمعة منتصف شعبان (حب) بعد إحدى وثمانين سنة قضاها في العلم والخير وخرجت جنازته في العاصمة مصر فما رأيت جنازة بعدها أعظم منها، وراح الناس يعزي بعضهم بعضاً، وكأن كل منهم صاحب الجنازة، سمع قائلاً:

ذهب الليث فلا ليث لكم ومضى العلم غريباً وقبر
أيها السادة الكرام:

كان الإمام الليث نموذجاً لطراز من العلماء نتمنى أن نرى أمثاله في هذا العصر، أن نرى علماء يكون لهم مثل هذا العلم وهذه الأمانة في نقله، وهذا العقل الكبير، وهذه السياسة في معاشره الملوك، وهذه المنزلة وهذا الجاه وأن يكون لهم (خاصة) مثل هذا المال الذي يستغنون به، المال الذي يحصلونه بجدّهم وكدهم، لا الذي يجمعونه بمدّ أيديهم إلى الناس، وأن يكون لهم مثل هذا الكرم، إن الإمام الليث حجة على أئمة الدين بعده، فمن أراد أن يكون مثل هذا الإمام فليسأل الله تعالى ذلك هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن

يرفع التحية إلى السيد الأعظم، وتحتينا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم^(١)



^(١) المصادر:

البداية والنهاية لابن كثير ١٦٤/١١

وفيات الأعيان لابن خلكان ١٢٧/٤

أحسن القصص لعلي فكري ١٧٥/٤

رجال من التاريخ لعلي الطنطاوي ١٢٥

(١٥٧)

السيدة رابعة العدوية

(١٠٠ - ١٨٠ هـ)

الحمد لله الذي تعرف إلى أوليائه بنعوت الجمال فعرفوه، وأسهروا ليلهم بمناجاته فباهى الله بأحوالهم الملائكة، وكيف لا وقد أحبَّهم وأحبوه ، حمى إقليم قلوبهم من طوارق الغفلة فلا يتركوه، تفقدوا دفتر أعمالهم من غلط الخطأ وصححوه.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خوَّف عباده يوم الحساب فحفظوا الأمانة فيما ائتمنوه، فنالوا المقصود من محبوبهم وفوق ما طلبوه : ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليفه الكريم ونبيه الجليل العظيم، أعطاه الله العطاء الجزيل والتبجيل والتكريم، أعطاه الحوض وصفاً من جميع الأكدار وتوجه بتاج الوقار ونور به جميع الأقطار، وشرف به البادين والحضار:
أضحى على مولى الكريم كريماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً
اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه السادة الأبرار ، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فبما معشر الإخوة الكرام:

هذه الحلقة عن سيدة، سيدة أثبتت للدنيا منذ قرون أن المرأة يمكن أن تكون أعظم من الرجال وأعبد من الرجال حتى يعتدّوا بها، نحن اليوم مع امرأة خلّفت في التاريخ دويّاً تتناقل أصداءه العصور، لم تتخرّج من الجامعة، فلم يكن في أيامها جامعات، لكنها كانت ولا تزال تدرّس آدابها في كليات الدّين ومعاهد الشرع، كما تدرّس أبلغ النصوص الأدبية، لأنّ عليّة القوم حملوا عنها حكماً كثيرة.

كانت في عصرها مثلاً يحتذى ، ملأت الدنيا بالتوحيد والزهد ومعرفة الله ومقام الإحسان ، وشغلت الناس على ممر الدهور، امرأة علّمت العلماء ، وأدّبت المفتين ، وكانت بليغة بارعة البيان، وكانت لقوة شخصيتها أن أطلق عليها علماء عصرها بالموذّبة وشاعرة المحبة الإلهية.

إننا مع البصرية الزاهدة العابدة سيدتنا أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية رضي الله عنها، ومع الحلقة سبعة وخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن السيدة رابعة العدوية :

رضي الله عنها وأرضاها وأرضاها معها

إخوة الإيمان: كانت السيدة أم الخير البنت الرابعة لأبويها، خرجت وهي طفلة هي وأخواتها من شدة الجوع وقت أن نزل القحط في البصرة ، فوجدها رجل باعها بستة دراهم، وكانت تقرض الشعر وتغنيه وتعزف على الناي، ولها مزاج فني رقيق وميل طبعي إلى الحزن، وقد وجد سيدها أن يستعملها للغناء في مجالسه، وكان ذلك يسخطها عليه بسبب اتجاهاتها الدينية القوية حتى إنها شرعت في الهرب ، وناجت ربنا عزّ وجلّ قائلة: إلهي إني غريبة ويتيمة وأرسف في قيود الرّق، ولكن همي الكبير هو أن أعرف أراضٍ أنت عني أم غير راضٍ؟

كانت تخشى أن تبوء بغضب الله بسبب ما كان يجبرها عليه سيدها، مما جعلها تُقبل أكثر على العبادة والابتغال إلى الله أن يقيّلها من عثرتها، وقد تسمّع عليها سيدها في ليلة فوجدها تقول وهي ساجدة: (إلهي أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك، ونور عيني في خدمة عبتك، ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن خدمتك، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبدتك) ، فلما كان الصباح طلبها سيدها وأعتقها.

إخوتي في الله: ما أن عَتَقْتُ السيدة رابعة من الرِّق حتى أقبلت بكليتها على العبادة ، وحتى ضرب بعبادتها الأمثال : أعبد من رابعة، كانت إذا انتهت من صلاة العشاء تصعد إلى سطح دارها وتقف للنظر والتأمل في عتمة الليل ، تنظر إلى النجوم وتقول: (إلهي أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلي كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك).

وإليكم - أيها الإخوة- المناجاة بعذب الكلام الذي كانت تناجي فيه مولانا عز وجل، قالت له مرة:

أحبك حَيِّن حبَّ الهوى	وحباً لأنك أهلك لذاكا
فأما الذي هو حبُّ الهوى	فشغلي بذكرك عمَّن سواكا
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك للحجب حتى أراكا

ثم تقف لتصلِّي قيام الليل ، تناجي حبيبها وتقرأ كلامه القرآن ، وتذكره وتدعو ، فإذا كان السحر قالت: إلهي هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أَقْبَلْتُ مني ليلتي فَأُهْنَأُ أم رددتها عليَّ فَأَعزَى ، فوعزتكَ هذا دأبي ما أحيتني وأعنتني. ثم تهجع هجعة بعد سنة الفجر حتى يسفر، ثم تخاطب نفسها وتقول: يا نفس كم تنامين وإلى كم تقومين، يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلى يوم النشور.

معشر السَّادة:

هكذا كان ديدن هذه المرأة الصالحة ، تركت الدنيا وراء ظهرها ، وعزفت عن الزواج ، وكانت تخطب من الصوفية والعلماء والأمراء، خطبها أمير البصرة ووعدا بمئة ألف مهراً وبعشرة آلاف في كلِّ شهر دخلاً ، فكتبت إليه تقول: (ما يسرني أنك لي عبد وأن كل مالك لي وأنتك شغلتنني عن الله طرفة عين) وكانت تقول:

تركت هوى ليلي وسُعدى بمعزل	وعدتُ إلى مصحوب أول منزل
ونادت بي الأشواق مهلاً فهذه	منازل من تهوى رويدك فانزل

حقاً - أيها الإخوة- كانت السيدة رابعة العدوية إمامة العشق الإلهي ، أدبت من طرق بابها من الفقهاء والوعاظ فكشفت خبايا نفوسهم من كلامهم ، حتى كانوا يصرّحون بأنهم كانوا لا يستريحون من الدنيا إلا إذا جلسوا عندها وسمعوا كلامها، دخل عليها سيدنا سفيان الثوري وصاحبه فرأى بيتاً مفروشاً بفرش لا يساوي دراهم ، شن بالي ولبد تصلّي عليه ، وستر تتقي به الرجال، وهنا نادى سيدنا سفيان: واحزنه! فقالت لا تكذب قل: واقلة حزنه، لو كنت محزوناً ما هنّاك العيش، فقال: اللهم إني أسألك السلامة، فبكت سيدتنا رابعة، فقال: ما يبكيك؟ قالت: أنت عرّضتني للبكاء، فقال: وكيف؟ قالت: أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها، فكيف وأنت متلطخ بها يا سفيان، إنما أنت أيام معدودة فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وأنت تعلم فاعمل. وتذاكر القوم ساعة ، وذكروا شيئاً من الدنيا فلما قاموا قالت السيدة رابعة لخادمتها، إذا جاء هذا الشيخ وأصحابه فلا تأذني لهم فإني رأيتهم يحبون الدنيا، وراحت تقول: أستغفر الله من قلة صدقي من قولي أستغفر الله، وسجدت وبكيت، فلما دخلت عليها خادمتها، وأحسّت بمكانها رفعت رأسها فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها، وقالت: لا أريد أن أحدث أحداً إلا الله، ونادت من قلب مكلوم:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدّثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجلّيس مؤانس وحبّيب قلبي في الفؤاد أنيسي

أيها الأحبة والصحب: عاشت السيدة رابعة ثمانين سنة عابدة تقية زاهدة ذاكرة حتى حضرتها الوفاة فقالت لخادمتها: لا تؤذني بموتي أحداً وكفّيني في جبّي هذه (جبة من شعر كانت تقوم الليل فيها إذا هدأت العيون) وتوفيت سنة ثمانين ومئة هجرية ، وكفّنت في تلك الجبة وفي خمار صوف كانت تلبسه، تقول خادمتها عبدة: رأيتهما بعد وفاتها بسنة عليها حلّة من استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم

أرى شيئاً قط أحسن منه. فقالت لها: يا رابعة ما فعلت الجبة التي كفناك فيها والخمار الصوف؟ قالت: نزعت عني وأبدلني الله بها هذا الحرير ، وطويت أكفاني وختم عليها ورفعت في عليين ليثقل بها ميزاني يوم القيامة، قالت عبدة: فمريني بأمر أتقرب به إلى الله عزّ وجل، قالت: عليك بكثرة ذكره أوشك أن تغتبطي بذلك في قبرك.

فأكثرُوا . يا إخوة . من ذكر الله عسى الله تعالى أن يجمعنا مع أوليائه هناك كما جمعنا معهم هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله
الصلاة والسلام عليك



• الموسوعة الصوفية ١٧٣ . صفة الصفوة . الرسالة القشيرية ٨٦ - ١٧٣ .

شرح الرسالة القشيرية للأنصاري . شذرات الذهب ١/١٩٣ . الطبقات الكبرى للشعراني

٥٦ . النجوم الزاهرة ١/٣٣٠ . الإحياء للغزالي ٢/٢٦٧ . جامع كرامات الأولياء ٧١ / ٢

(١٥٨)

الإمام عبد الله بن المبارك

(١١٨هـ. ١٨١هـ)

الحمد لله الذي تعاضم ملكوته فاقتدر ، وتعالى جبروته فقهر ، الذي أعزّ من شاء ونصر ، ورفع أقواماً بحكمته وخفض أقواماً آخر .

أحمده سبحانه وتعالى على نعمه التي تربو على ذرات الرمل وقطرات المطر .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له العليم بما بطن وظهر .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ومجتباه من البشر ، نبي شق عن صدره وشق له القمر ، حبيب ظللته الغمام وأجابت لدعوته الشجر ، سيد عظيم أيده الله بمعجزات الآيات والسور .

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه قادات الخير إلى يوم المحشر وسلم تسليماً .

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

من العظماء رجال ضربوا في أودية البلاغة، وسلكوا طرق البيان، وصاروا أئمة القول وأعلام الكلام، ومنهم رجال صرموا حياتهم وأمضوا أعمارهم في النظر في أدلة القرآن والسنة وتخريج المسائل حتى صاروا سادة الفقهاء وصدور العلماء. ومنهم رجال كانوا قواداً مظفرين ينتزعون النصر من الهلاك لا يحاربون للقتل ولا للتخريب ولا للأذى، ولكن ليدافعوا عن الحق والحضارة والدين. ومنهم رجال كانت عظمتهم أن كرهوا العظمة ونبذوها وزهدوا في الدنيا واستصغروها، فأقبلوا على العبادة وأنسوا بالله وتحافت جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً.

ونحن اليوم - معشر الإخوة - مع عظيم جمع هذا كله وأكثر منه، فكان محدثاً حافظاً وفقهياً عابداً وأديباً لغوياً فصيحاً وشاعراً زاهداً ملأ حياته سخاءً وغزواً

وشجاعة وفروسية ، نحن اليوم مع أحد أعلام الإسلام، أعز الصالحين وقهر الطغاة الجبارين وترك آثاراً على الأرض وآثاراً في العقول لكثرة الترحال والتطواف والغزو والتجارة حتى قضى نحبه وهو في جهاد العلم، إننا مع عالم زمانه وأمير الأتقياء في وقته سيدنا عبد الله بن المبارك (أبو عبد الرحمن) .

ومع الحلقة ثمانية وخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام عبد الله بن المبارك.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

ولد هذا الإمام سنة ١٨ هـ في بلدة العلماء (مرو) والنسبة إليها مروزي وبلادها تسمى بلاد خراسان قيل بها: ما أخرجت خراسان مثل: ابن المبارك والنضر بن شُمَيْل ويحيى بن يحيى.

وظهرت مخايل الذكاء والفطنة عليه منذ صغره فما انتهى شيئاً إلا حفظه، فقد مرّ بعد خروجه من الكتاب على رجل يخطب خطبة طويلة أعجبتة فلما فرغ منها أعادها على أصحابه وقد حفظها.

لكنه انقطع بعدها عن العلم سنوات حتى بلغ العشرين فرده مولانا عز وجل إلى حظيرة العلم وبدأ رحلته في طلبه فارتحل من خراسان إلى العراق ، ومن العراق إلى الشام ، ومن الشام إلى مصر ومنها إلى جزيرة العرب واليمن وفيه الحرمين الشريفين ، حتى بلغ عدد أشياخه أربعة آلاف شيخ. وحتى قال فيه الإمام ابن حنبل: (لم يكن أحد في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه) فكان من شيوخه الإمام الأوزاعي وأبو حنيفة وابن جريح شيخ الحرم المكي وسفيان الثوري وشعبة الإمام المحدث والإمام مالك والليث بن سعد وسفيان بن عيينه وخلق كثير حمل عنهم علم أهل خراسان وعلم أهل العراق وأهل الحجاز وأهل اليمن وأهل الشام. ونال أعلى المراتب العلمية في عصره وصار حجة بالإجماع، وصار في المحدثين مثل أمير المؤمنين في الناس بل

صار نسيج وحده . وشهد له علماء عصره فقالوا: ما رأينا في دهرنا هذا من يصلح لخلافة المسلمين إلا ابن المبارك.

وقال فيه شيخه سيدنا سفيان الثوري: إني لأشتهي في عمري كله أن أكون سنة مثل ابن المبارك فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام ، كان أعلم أهل المشرق والمغرب . وقال شيخه سفيان بن عيينة: نظرت في أمر الصحابة وأمر عبد الله ابن المبارك فما رأيت لهم عليه فضلاً إلا بصحبته النبي ﷺ وغزوهم معه.

فكما أن الصحابة لم تفتنهم الدنيا كذلك لم تفتن الدنيا سيدنا ابن المبارك رغم أن رأس ماله نحو ٤٠٠ ألف، كان ينفق معظمها على إخوانه في الحج والجهاد، وسمحوا لي أن أعرض على حضراتكم هذا المشهد الفريد من نوعه، مشهد أهل مرو وقد أتوا إلى ابن المبارك واجتمعوا عليه ليكتبهم في عداد قافلة الحج التي يسافر بها كل عام فجاء بصندوق وقال لهم ليضع كل منكم صرته مكتوب اسمه عليها حتى أنفق عليه منها أثناء الحج.

وخرجت القافلة بأهل مرو يقودها الغني الشاكر ، ها هو لم يترك مجالاً للإنفاق عليهم إلا فعله طيلة رحلة الحج ، وهو يقدم لهم أطيب الطعام والحلوى، ويشترى لهم من مكة والمدينة الهدايا، ويعلمهم المناسك حتى عاد بهم إلى بلادهم سالمين، حتى إذا مضى ثلاثة أيام دعاهم إليه وفتح الصندوق ودفع لكل رجل منهم صرته كاملة غير منقوصة (والحجة كلها على حساب الله) يفعل ذلك كل عام فإذا ما عوتب في ذلك قال: إني لأعرف مكان قوم لهم فضل وصدق طلبوا العلم فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم احتاجوا (أي صاروا فقراء) فإن تركناهم ضاع علمهم ، وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد ﷺ ، لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم.

لذلك كان له مجالس علم يعقدها أسبوعياً ولكي أرى مع حضراتكم مدى الرقي العلمي الذي وصل إليه هذا الإمام، سمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى بغداد فرج الله عنها وعن أهلها لأحضر مع حضراتكم مجلس ابن المبارك. ها هو يفتح

كتابه العظيم. ويبدأ بتلاوة سنده ثم يحدث الحديث تلو الآخر ويصول ويجول في التفسير والفقه والوعظ والإرشاد واللغة والبيان ويحضر على العلم والتعليم واحترام العلماء ومن أقواله: من استخفّ بالعلماء ذهب آخرته، ومن استخف بالأمرء ذهب دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهب مروءته.

من بخل بالعلم ابتلي بثلاث: إما موت يذهب علمه وإما ينسى، وإما يلازم السلطان فيذهب علمه، وإذا غلبت محاسن الرجل على مساوئه لم تذكر المساوئ، وإذا غلبت المساوئ على المحاسن لم تذكر المحاسن. ثم سئل ابن المبارك ثلاثة أسئلة:

س ١:

سئل ما خير ما أعطي الإنسان؟ فقال: غريزة عقل، قلت فإن لم يكن؟ قال: حسن أدب قلت: فإن لم يكن؟ قال: أخ شفيق يستشير قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل.

س ٢:

سئل: ما الكبر؟ قال: أن تزدرى الناس . فسأله عن العجب؟ قال: أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العُجب.

س ٣:

سئل: من الناس؟ فقال: العلماء . سئل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد.

وسئل: فمن السفلة؟ قال الذين يعيشون بدينهم قال رسول الله: ﴿البركة مع

أكابرکم﴾

إخوتي في الله: وانتهى درس الإمام في المسجد بعد العشاء وأقبل إليه رجل أعمى يستوقفه ويسأله أن يدعو الله له أن يرد عليه بصره، فرفع الإمام يديه بكل خشوع وصدق التجاء يدعو من لا يخيب أحداً ، وما أن أنزل يديه حتى عاد الأعمى مبصراً بإذن الله (وصدق رسول الله : البركة مع أكابرکم) وخرج الإمام من المسجد

وكانت الليلة باردة فإذا برجل على الباب يأتيه ويسأله ويذاكره عند باب المسجد فما زال يذاكره ويذاكره حتى جاء المؤذن للصبح.

أرايتم مثل أخلاق لإمام يستمدها من معين النبوة ، فقه وحديث وتفسير وزهد وكرم وعقل كبير واجتهاد في العبادة، كان يحب السجود وكان يعجبه إذا ختم ختمه أن يكون دعاؤه في السجود. ذكر عنده عابد أهل عصره الفضيل بن عياض فكتب إليه:

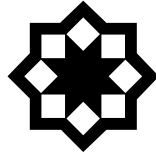
يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب جيده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبرنا رهب السنايك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من قال نبينا قول صحيح صادق لا يُكذَّب
لا يستوي وغبار خيل الله في أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيناً ليس الشهيد بميت لا يُكذَّب

أيها الأجلة والصحب: وبقي هذا الإمام يث العلم والمعرفة ويحج عاماً ويغزو عاماً وما بينها يكثر الجلوس في بيته حتى قيل له: ألا تستوحش؟ لماذا لا تجلس معنا، فقال: كيف استوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه، أجلس معهم وأنظر في كتبهم، وما أصنع معكم وأنتم تغتابون الناس.

وفي سحر ليلة من ليالي رمضان المبارك سنة ١٨١ هـ وقد بلغ الإمام الثالثة والستين احتضر الإمام ليقدّم على ربه عز وجل بعد حياة مديدة مليئة بالعلم والعبادة ، ومع ذلك وهو في هذه الحالة لم يدع التعليم إذ أن رجلاً جعل يلقيه الشهادة ويكثر عليه فقال له: لست تحسن، وأخاف أن تؤذي مسلماً بعدي، إذا لقتني فقلت: لا إله إلا الله ثم لم أحدث كلاماً بعدها فدعني، فإذا أحدثت كلاماً فلقتني حتى يكون آخر كلامي لا إله إلا الله ، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله

دخل الجنة، ولذلك رؤي بعد موته وهو واقف على باب الجنة ويده مفتاح فسئل عن هذا المفتاح فقال: هذا مفتاح الجنة أعطاني إياه رسول الله وقال: حتى أزور الرب فكن أمني في السماء كما كنت أمني في الأرض.

وهكذا معشر السادة كنت مع حضراتكم في زيارة للإمام ابن المبارك أحد الأساتيد العظام في هذه المدرسة هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى المربي الأعظم، وتحيتنا إليك يا سيدي يارسول الله الصلاة والسلام عليك .



• صفة الصفوة

حلية الأولياء ١٦٢/٨

تاريخ بغداد

وفيات الأعيان ٣٢/٣

تهذيب التهذيب ٣٨٢/٥

النجوم الزاهرة ٢٧/٢

الطبقات الكبرى للشعراني ٥٠

شذرات الذهب ٢٩٥/١

(١٥٩)

الإمام الفضيل بن عياض

توفي ١٨٦ هـ

الحمد لله الذي تفرّد بجمال ملكوته وتوحد بجمال جبروته، وتعزّز بعلو أحديته، وتقّدس بسمو صمديته وتكبر في ذاته عن مضارعة كل نظير ، وتنزّه في صفاته عن كل تناءٍ وتصوير ، له الصفات المختصّه بحقه، والآيات الناطقة بأنه غير مشبه بخلقه، فسبحانه من عزيز لا حدّ يناله، ولا عدّ يحتاله ولا أمد يحصره، ولا أحد ينصره ، ولا ولد يشفعه ، ولا عدد يجمعه ، ولا مكان يمسكه، ولا زمان يدركه ، ولا فهم يقدره ، ولا هم يصوره. تعالى عن أن يقال كيف هو أو أين هو. أحّمده سبحانه على ما يولي ويصنع ، وأتوكل عليه وأقنع ، وأرضى بما يعطي ويمنع.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة موقن بتوحيده مستجير بحسن تأييده.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبّيه المصطفى ، وأمينه المجتبي ، ورسوله المبعوث إلى كافة الورى .

اللهم صلّ وسلم وبارك وعظم على سيدنا محمد وعلى آله مصاييح الدجى وأصحابه مفاتيح الهدى ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أقف اليوم بينكم لأبين حقيقة هامة، ولأصحح الزيف وأزيل القشور عن اللباب، فأني أخاف أن تمتد أثواب الباطل فتغطي وجه الحق، أخاف أن تبدل سماء الحقيقة بغيوم الأكاذيب ، أخاف من سحب الترهات أن تحول بين إشراق الحق أو تحجب نوره.

أقف اليوم وبعد حلقات ممتدة زهقت الباطل، رددت فيها بطريق غير مباشر على الذين يقولون إن التصوف يبين الدين أو يغير الإسلام ، وأن له مفهوماً سلبياً يدعو إلى الركون والركود والخمول والخمود، ويهدف إلى العزلة والعكوف والانطواء ، أو أنه دروشه وبهذه ومظاهر تنفر منها الأذواق، وتنبو عنها العيون ، وتعزف عنها النفس الأبية.

نعم- أيها السادة- تبلبلت الفكرة في أذهان الكثير عن التصوف وحقيقته وطقوسه ورسومه فحملوا على التصوف وعلى رجاله ، مدّعين أن هذا الأمر مستحدث في الدين ، وأن الشرع يعارضه ولا يعاضده، والمرء عدو ما جهل (من جهل شيئاً عاداه) إن بين هؤلاء وبين التصوف جفوة أو فجوة، وكنت أود ألا يتسرع هؤلاء في أحكامهم على التصوف، ولو تزود خصوم التصوف بالاطلاع على أمهات كتب التصوف التي أرخت لرواده وتحذّثت عن خطوطه واتجاهاته لوجدوا أنهم متحاملون عليه ، وأنهم قد تسرعوا في الحكم من غير أن يتسلحوا بالبرهان، ألا فليعلم الجاهلون- أعداء التصوف، أن المنهج الصوفي الصحيح هو المنهج الإسلامي بعينه ، لا فارق ولا لبس ولا اختلاف ، وأن التصوف في صفائه ونقائه هو الإيمان المتين المكين في عنقه وقوته وإيجابيته، هو الإسلام في سماحته وسموه، هو التدين في أسمى صورته.

لقد عرف التصوف في القرون الثلاثة الأولى التي أخبر عنها رسول الله وشهد لها بالخيرية، فلماذا التحامل على هذه الطائفة؟! لماذا المغالاة والشطط؟! لقد تغير الحق إلى باطل، مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، زال الورع وطوي بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة.

ولأجل ذلك أردت أن أستعرض حياة هؤلاء الأئمة لأرد الحق إلى نصابه، لأعلنها عالية أن منكر التصوف تنبعث منه روائح الانحراف الديني، هو ينتهك الدين باسم الدفاع عنه، ولو زعم وتشدق أنه هو وحده حافظ الدين وسادته وراعيه.

أيها السادة: إننا ومن خلال استعراض حياة هؤلاء السادة الأعلام نعطيهم بعض حقهم من الإنصاف، وخاصة ونحن نستعرض اليوم الإمام لهؤلاء والمثل، نحن اليوم مع إمام من أئمة التصوف والدين، وعلم من أعلام المسلمين ، شهد له بالفضل والدين من لا يُشَقُّ له غبار، شهد لإمامنا الإمام الذهبي فقال عنه: إنه الإمام القدوة ، الثبت شيخ الإسلام . وقال عنه ابن المبارك: ما رأيت أروع منه. ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل منه.

وحدَّث عن هذا الإمام أئمة أبرار أمثال سيدنا سفيان بن عيينه، وسفيان الثوري، والإمام الشافعي، وبشر الحافي، والسري السقطي.

أُتَعرِفون-**أيها الإخوة**- من هذا الإمام الذي قلد هذه الأوسمة كلها ، إنه شيخ أهل مكة في عصره تقوى وورعاً ونوراً وهداية سيدنا **الفضيل بن عياض** رضي الله عنه.

ومع الحلقة تسعة وخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن هذا الإمام.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد هذا الإمام ونشأ بسمرقند ، ولما اشتدَّ عوده تداعى مع مجموعة من قطاع الطرق يقطعون الطريق على القوافل والناس آحاداً وجماعات ، حتى خافه أهل المناطق فكانوا لا يخرجون ليلاً ، يقولون: إن فضيلاً على الطريق لا يترك أحداً من شرّه.

لكن الصلحة بلمحة، فقد عشق جارية وصار يرتقي إليها الجدران ليلاً يحادثها، وفيما هو في ذات ليلة في الهزيع الأخير من الليل ارتقى جدار أحد البيوت فسمع صاحب البيت يتلو كتاب الله وسمعه يقرأ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾. فلما سمعها جمد الدم في عروقه وسالت دموعه على خديّه، وكأن الآية نزلت لأجله، فصار يبكي ويقول: بلى يارب قد آن ، بلى يا رب قد آن ، قد آن ، اللهم إني قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام.

معشر الإخوة الكرام: رحل الفضيل من بلاده تائباً طالباً للعلم، فلقى علماء عصره في الكوفة والحجاز، على رأس هؤلاء علم الأئمة سيدنا جعفر الصادق. إن توبة الفضيل الصادقة مع الله جعلته حجة أهل زمانه لذا قال فيه سيدنا ابن المبارك: إن الفضيل بن عياض صدق الله فأجرى الحكمة على لسانه، ولأنه عمل بعلمه، ومن عمل بعلمه استغنى عن ما لا يعلم، ومن عمل بما علم وفقه الله لما لا يعلم، ومن ساء خلقه شان دينه وحسبه ومروءته.

هذه شهادة ابن المبارك، هذه الشهادة أعظم من شهادة الدكتوراه (الفضيل صدق الله تعالى) كانت توبته صادقة فتغيرت حاله من الباطل إلى الحق، أصبح الله في قلبه رهبة وخوف، ألا ينفعه الله بتوبته؟ لذا كان ينصح ولده علياً (ولده ببركة الأب صار أحد أولياء عصره)، الولد لحق والده بالولاية كما شهد له بذلك الإمام الذهبي فقال: كان ابنه علي من كبار الأولياء ومات قبل والده (قبل سنة ١٨٦ هـ)، أتعرفون كيف مات سيدي علي بن الفضيل؟ مات وهو يسمع والده يقرأ آية من كتاب الله، فقد كان صوته بالقرآن رخيماً حزيناً، كانت قراءته حزينة بطيئة مترسلة كأنه يخاطب إنساناً، كان ولده يصلي خلف الأب في صلاة المغرب فقرأ الأب: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ، كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ. عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ فصار الأب يكرر (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) حتى سقط الولد مغشياً عليه والأب يبكي ومات الولد. وشهد له علماء عصره ومن أرخوا له فقالوا: كان علي قانتاً لله خاشعاً، رجلاً ربانياً كبير الشأن (الذهبي في السير ٤٤٣/٨).

الشاهد من الكلام أن سيدنا الفضيل كان يوجه ولده ويربيه ويقول له: لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال؟ فقال ابنه علي: يا أبة إن الحلال عزيز. قال: يا بني وإن قليله عند الله كثير، [لا تخف إلا الله] من خاف الله لا يضره أحد، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد. يا بني: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل كبلتك خطيئتك (فإياك والدنيا)، فقد جعل الله

الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها، يابني: لأعلمنك .

كلمة هي خير من الدنيا وما فيها: والله لئن علم الله فيك إخراج الآدميين من قلبك حتى لا يكون في قلبك سلطان لغيره لم تسأله شيئاً إلا أعطاك.

إخوتي في الله : أتدرون هذه النصائح التي كان ينصحها سيدنا الفضيل لولده، كان بعد ذلك يتوجه سراً إلى الله يدعو لولده ويقول: (اللهم إني اجتهدت أن أؤدب علياً فلم أقدر على تأديبه فأدّبه أنت لي).

ومات الولد بعد أن صار من الأولياء، ولما وسّد الولد في القبر ضحك سيدنا الفضيل، ضحك بعد ثلاثين سنة لم يُر فيها ضاحكاً ولا متبسماً، أتدرون لماذا تكلف الضحك بموت ولده على خلاف عادته؟ لأن الله تعالى يحب من عبده أن يكون راضياً بقضائه وقدره، وهذه مرتبة عالية جداً ، لذلك يقول سيدنا عبد الله بن المبارك: ما بقي في الحجاز أحد من الأبدال إلا فضيل بن عياض وابنه علي.

ابن المبارك يقول عن الصوفية: إنهم من الأبدال، وبعض الناس يدّعون اليوم أن الصوفية يخالفون الشريعة، فأبي شيء في الفضيل وابنه مما يخالف الشريعة. إن الصوفية الحقّة - يا إخوان - لا تسمح لأتباعها بأن يقوموا بأذى حيوان فكيف بإنسان، قال الفضيل لرجل: والله لا يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق، فكيف تؤذي مسلماً! (بل)، من أظهر لأخيه الود والصفاء بلسانه وأضر له الغدر والبغضاء لعنه الله فأصمّه وأعمى بصيرة قلبه.

بالله عليكم يا سادة هل تترك أذى المسلمين يخالف الشريعة؟ هل تعظيم الله يخالف الشريعة؟ يقول أحد تلاميذ الإمام الفضيل (إبراهيم بن الأشعث): ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل ، كان إذا ذكر الله أو ذُكر عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه وبكى حتى يرحمه من يحضره، وكان دائم الحزن، شديد الفكرة، ما رأيت رجلاً يريد الله بعلمه وعمله وأخذه وعطائه ومنعه وبذله، وبغضه وحبه وخصاله كلها غيره.

أيها الأحبة والصحب: فماذا بعد هذه الحياة المليئة بالرهبة والحب لله والعلم والعمل ، والمعلوم أن من أطاع الله أطاعه كلُّ شيء ، بعد هذه الحياة المليئة بطاعة الله أوقف الله على باب الفضيل أمير المؤمنين هارون الرشيد، أتى بجلالة قدره يوم حج البيت الحرام ليقف على باب سيدنا الفضيل، فماذا فعل معه؟ أتدرون كيف استقبل الخليفة بأي حرس شرف؟ أدخله إلى داره بعد أن أطفأ السراج وكأنه يدخل إلى قبر، فصار الخليفة يتلمّس في العتمة بيده حتى وقعت يده على الفضيل فقال له: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عزّ وجل، بهذا الاستقبال الرهيب شعر الخليفة أنه أمام إنسان رباني، وقف شعر الخليفة من هذه الكلمة ، فبماذا وعظ الفضيل الخليفة أعظم حكام الأرض في عصره؟

أيها السادة: لجلالة هذا الموقف أدعوكم جميعاً وفي ختام جلستنا هذه أن أزور معكم مكة حرسها الله تعالى حيث أعظم شخصيتين اجتمعنا على ظهر أظهر بقعة على الأرض ، في أعظم مشهد عرفه التاريخ، رئيس عشرين دولة إسلامية يجلس بين يدي صوفي (استغفر الله) عظيم من عظماء الصوفية وأين؟ في مكان عاتم مظلم ، فما هي الكلمات التي دارت بين الإمامين إمام المسلمين وإمام الصوفية؟ قال الفضيل وهو يعظه:

● إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك من الموت.
● إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن قلبك كبير المسلمين عندك أباً ،
وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً، فوقّر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك.

● إن أردت النجاة غداً من عذاب الله عزّ وجلّ فأحب للمسلمين ما تحبه لنفسك واکره لهم ما تكره لنفسك، إني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام.
وهنا أخذت الخليفة هارون الرشيد قشعريرة ونوبة من البكاء حتى غشي عليه، فقال له وزيره الفضل بن الربيع: ارفق بأمر المؤمنين، فقال: يا فضل تقتله أنت

وأصحابك وأرفق أنا به! فلما أفاق الخليفة قال للإمام الفضيل: زدني رحمك الله، فقال له: يا أخي أذكرك طولَ سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد.

وتحطل دموع الخليفة وهو يقول: زدني رحمك الله فقال له: يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى جاء إلى النبي فقال يا رسول الله أمّرني على إمارة فقال له النبي: إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل.

والخليفة يبكي لا يرقأ له دمع، والفضيل يقول له: يا حسن الوجه! أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد رعيتك، فإن النبي قال: من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة(خ)

أيها الإخوة لم يخرج الإمام من بيت الفضيل حتى جاءته الجارية وقالت له قد أذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف. فانصرف الخليفة من الدار المتواضعة وهو يقول لوزيره: هذا سيد المسلمين .

وهكذا إخوتي - وقفت معكم مع شخصية من أهل الإيمان والعمل من أهل التصوف، فإياكم أن يفسد أهل البغي عليكم صدوركم، إياكم أن تفسدوا علينا ديننا يا أعداء التصوف، وتذكروا قول الله تعالى: ﴿والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون﴾ هنا مدرسة سيدنا محمد، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله، الصلاة والسلام عليك .

• الرسالة القشيرية ٩

شرح الرسالة القشيرية للأ نصاري

الموسوعة الصوفية للخفي

صفة الصفوة ٥٤٣

حلية الأولياء ٢٩٧/٨

تهذيب التهذيب ٣٧٣/٧

(١٦٠)

الإمام هارون الرشيد

(١٤٨ هـ . ١٩٣ هـ)

الحمد لله المتّصف بصفات الكمال ، المنعوت بنعوت الجلال والجمال ، المنفرد بالإنعام والإفضال والعطاء والنوال، المحسن المجمل على ممر الأيام والليال.
أحمده حمداً لا تغير له ولا زوال، وأشكره شكراً لا تحول له ولا انفصال.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ندّ ولا مثال ، شهادة أدخرها ليوم لا بيع فيه ولا خلال .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الداعي إلى أصح الأقوال وأسدّ الأفعال،
المنعوت بالخلق العظيم وشرف الخلال ، المحكم للأحكام والمميز بين الحلال والحرام .
اللهم صلّ وسلم وبارك وعظم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه
خير صحب وخير آل ، صلاة دائمة بالغدو والآصال، وسلم تسليما كثيرا .
أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

نحن اليوم في أي مدينة ؟ في أي زمن؟ في أي حدث؟ مع أي ملك؟ مع أي
سلسلة من أمجاد العرب المسلمين؟

أنتقل بكم اليوم إلى أزهر عهد من عهود الحضارة الإسلامية، إلى الدور الذهبي،
إلى الأيام التي كانت كلها أعراساً، إلى أكبر ملوك الأرض.

أنتقل بكم إلى مدينة شهدت من الترف والبذخ والعظمة والجلال ما لم تشهد
مثله مدينة ، لاروما ولا غيرها ، وكانت باريس قرية أصغر من روما، وكانت أميركا
صحراء ما فيها إلا الوحوش خلفاء بوش.

أدعوكم اليوم إلى مدينة فيها القصور والبساتين التي تفتن العيون، مدينة فيها ستة
آلاف حمام وسوق ، وعشرون ألف مسجد، وفي نهرها ثلاثون ألف زورق، وفيها من

الاختراعات التي أدهشت أوروبا حتى حسب شارلمان أن في الساعة التي أهدها إياها ملكنا جنياً يقرع أجراسها.

فهل سمعتم بمدينة اختصرت فيها الدنيا، فكان فيها أمم من كل جنس ولسان في الدنيا، إنها مدينة بغداد (فرّج الله عنها) بغداد **هارون الرشيد** بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن سيدنا عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي. ومع **الحلقة ستين بعد المئة** من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان:

ولد الخليفة هارون الرشيد سنة ثمان وأربعين ومئة هجرية، والحظ هو الذي جعله أشهر ملوك الإسلام، فأبوه خليفة وجده خليفة وكان أخوه الهادي خليفة والرشيد ولي عهده فلما مات الهادي سنة سبعين ومئة تولى هارون الرشيد ، وكان من أنبل الخلفاء وأحشم الملوك، يحج عاماً ويغزو عاماً ، وربما حج وغزا في العام نفسه، ذا شجاعة ورأي، وفصاحة وعلم وبصر بأعباء الخلافة، وله نظر جيد في الأدب والفقه، سريع الحفظ يحفظ قصيدة من مئة بيت إذا أُلقيت أمامه لأول مرة من الشاعر ، وكان يصلي كلّ يوم مئة ركعة في خلافته، ويتصدق ويعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، يحب العلماء ويعظمّ حرّمات الدين ويُبغض الجِدال، ويكي على نفسه وعلى ذنوبه لا سيما إذا وعظ، وكان يحب المديح والشعراء ويقول الشعر.

معشر الإخوة الكرام : علينا أن نعرف أن أعظم حكام الإسلام حقيقة هم الذين جمعوا صلاح النفس وإصلاح الدولة، وكانوا أصل تقى وأهل بصر وجمعوا التوفيق في الدنيا والدين.

علينا أن نعرف أن أمير المؤمنين هارون الرشيد كان من أمثال الستة الكبار الصديق والفاروق وذي النورين وحيدر وعبد الله بن الزبير وعمر بن عبد العزيز ونور الدين زنكي وصلاح الدين .

يا سادة:

هكذا كان الخليفة هارون الرشيد كان يحكم وحده حكماً مطلقاً عشرين حكومة من حكومات اليوم (عشرون بلداً)، الرشيد كان يقول للسحابة عندما يراها: أمطري حيث شئت فسيأتي خراجك. الرشيد الذي كان دخل خزانته الخاصة ٤١١ مليون دينار من الذهب كل سنة، ولست أحدثكم اليوم عن حياة الرشيد عامة، ولا أستطيع أن أوفي الحديث عنه في نصف ساعة ولو كنت من أرباب الكرامات، ولكن حديثي عن ناحية منه واحدة هي الرشيد والعلماء.

وكان العلماء معه ثلاثة أصناف، صنف يسايره ليرضيه، ويأخذ من دنياه، وهؤلاء هم الأقل، ولم ينالوا منه خيراً كثيراً لأن المنافقين من العلماء وإن نجحوا حيناً لا تكون نيتهم إلا الخيبة والخسران ، وصنف يغلظ له القول ويشدد عليه الموعظة ويقول بحق الله بلا محاملة ولا رعاية لمقامه الدنيوي ، ولا يتعمدون ذلك بل يرونه الشيء الطبيعي لأنهم مع الله دائماً قد حققوا الدنيا وكل ما فيها من جاه ومال ، فلم يعد يروعه ملك ولا عظمة أمير، وهؤلاء قلة أيضاً، ردوا عطايه وجوائزهم ولكن حازوا احترامه وإكباره.

والكثرة من العلماء كانوا يقولون الحق، ولكنهم يصوغونه الصياغة المقبولة ويعطونه الدواء ولكن ببرشامة، ويسايرونه دون أن ذلك على حساب دينهم، ومن هؤلاء الأعلام أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة والإمام الليث بن سعد، وهذه هي الطريقة المثلى لمعاشرة الملوك.

واسمحوا لي - معشر الإخوة - أن أنتقل بكم إلى قصر الخليفة الجديد الذي بناه في الرقة بعد توليه الخلافة بعشر سنوات، ويبدو أن خلافاً وقع بينه وبين زوجته

السيدة زبيدة فحلف يمين طلاق أنها لا تبيت هذه الليلة في ملكه كَلِّه، ودعا الخليفة المفتين والعلماء فقالوا: لا نرى إلا أنها قد طلقت. فقال الخليفة هل بقي أحد من العلماء لم يأتنا، فقالوا: القاضي أبو يوسف.

فجاء القاضي واستشاره الخليفة في يمين الطلاق المعلق فقال القاضي أبو يوسف: تبيت زوجة أمير المؤمنين الليلة في المسجد فإنه بيت الله.

- إخواني في الله - لم يعرف عن الخليفة الرشيد أنه بطش بأحد، كاد مرة يبطش بعمر بن حبيب القاضي فقد ذكر الرشيد أبا هريرة واتهمه بالكذب، فردّ عليه القاضي عمر بشدة، فدعاه والسيوف أمامه ليضرب عنقه، فقال القاضي عمر في نفسه: يا رب أني دافعت عن صاحب نبيك فدافع عني، ثم التفت إلى الرشيد وقال: يا أمير المؤمنين إذا كان الصحابة كذابين كان الدين كذاباً، لأنه روي عنهم. فعاد الرشيد إلى نفسه وعفا عنه وأجازه.

دخل عليه أحد العلماء وقال : يا أمير المؤمنين : لو غصصت بلقمة بم تشتري جرعة ماء فقال: بنصف ملكي . ثم سأله : لو حصرت ولم تستطع إخراج البول من جسمك بم تشتري البولة فقال : بنصف مالي الثاني . وهنا قال العالم : ما هذا الملك الذي يساوي جرعة ماء وبولة .

أيها الأحبة والصحب: لم يعرف زمان كثر فيه العلماء كثرهم في زمان الرشيد، وقد جعل لطلاب العلم رواتب يبلغ أعلاها أربعة آلاف ليرة ذهبية في السنة، وحتى صار الولد يحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين ، ويحفظ الحديث ودواوين الشعر في الحادية عشرة ، وينظر العلماء وهو ابن خمس عشرة سنة. وكان للعلماء أسمى المنازل في مجلسه، يدعوهم إلى مائدته الخاصة، ومرة صب الماء بنفسه للمحدث أبي معاوية الضرير وهو يغسل يديه بعد الأكل، وقال له: أتدري من يصب عليك الماء؟ قال: لا قال: أنا الرشيد (أعظم ملوك التاريخ، وسيد ربع العالم وحاكم عشرين دولة من دول اليوم).

أتدرون ماذا قال العالم؟ لم يتحرك ولم يهتز ولم ير في ذلك إلا شيئاً عادياً فقال هادئاً:

- إنما أكرمت العلم يا أمير المؤمنين. واستمر في غسل يديه.

وبلغ من حبه العلم أن رحل هو وولده: الأمين والمأمون لطلب العلم وقراءة الموطأ على الإمام مالك، من دار خلافته الجديدة الرقة إلى المدينة المنورة، كما يرحل الطلاب الموفدون اليوم، وجلس بين يدي مالك في حلقة الدرس هو وأولاده ليسمعوا حديث رسول الله، وهذا لم يسمع عن ملك في المشرق والمغرب إلا عن صلاح الدين الأيوبي لما رحل إلى الإسكندرية لسماع الحديث، قال السيوطي: ولا أعرف لهما ثالثاً.

معشر السادة:

ولما دخلت سنة ثلاث وتسعين ومئة رأى الخليفة هارون الرشيد وهو على سريريه أن ذراعاً بدت من تحته يعرفها وفي الكف تربة حمراء وسمع قائلاً يقول: هذه التربة التي تدفن فيها. فقال وأين هذه التربة فقيل له: طوس. وراح من حوله يهونون عليه، ومضت الأيام حتى اتجه نحو خراسان للغزو حيث مرض فدخل طوس فبينما هو يمرض في بستان إذ ذكر الرؤيا ووثب وقال أحضروا لي تربة من هذا البستان فجاء بها إليه مرافقه مسرور حاسراً عن ذراعيه فقال والله هذه الذراع التي رأيتها في منامي وهذا الكف بعينها وهذه التربة الحمراء ما خرقت شيئاً، وأقبل على البكاء والعبادة وأمر بقبوره فحفر في موضع الدار التي فيها، وأنزل إليه قوماً فقرؤوا القرآن حتى ختموا وهو يقف على شفير القبر ويقول: ابن آدم تصير إلى هذا، وكان يقول في تلك الحال: واسوأاته من سيدي رسول الله ﷺ

وهكذا - **معشر الإخوة** - قضى الخليفة هارون الرشيد ورحل إلى الله كما سيرحل كل ملك وكل خليفة وكل حاكم، بعد أن أمضى خمساً وأربعين سنة منها ثلاث وعشرون سنة في الخلافة وتذكروا أنه كان أحد التلامذة المخلصين المجاهدين

في هذه المدرسة، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن
يرفع التحية إلى السيد الأعظم محمد ﷺ، وتحيتنا إليك ياسيدي يارسول الله الصلاة
والسلام عليك.



-
- تاريخ بغداد ٤٥/١٢
 - سير أعلام النبلاء ٢٨٦/٩
 - رجال من التاريخ ١١٧
 - شذرات الذهب ٣٣٤/١
 - الكامل لابن الأثير ١٠٦/٦
 - تاريخ الطبري ٢٣٠/٨
 - تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٨٣

(١٦١)

الإمام وكيع بن الجراح

(١٢٩ . ١٩٧ هـ)

الحمد لله الذي يَخَصُّ من يشاء برحمته ، وملبسٍ من سبقت له منه الحسنَى
أثواب عنايته، ومفضِّل بعض الخلق بما منحهم به من طرائف نعمته ولطائف منته،
ومصَرِّف الأحكام في العبيد فمن شقي وسعيد ومقرَّبٍ وطريد، لا يسأل عما يفعل
ولا رادّ لمقتضى إرادته.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، نطقت بوجدانيته عجائب
مخلوقاته، وشهدت بقدرته على تنفيذ مراده بدائع مصنوعاته.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المنتخِل من خلاصة المجد الأثيل، ونبيه
المنتخب من أعلى سنام الفخر الأصيل وذروته.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعترته وأنصاره ،
وسلِّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أقف اليوم بإجلال أمام أحد المربين المخلصين والمحدثين من الأئمة الكبار ،
الذي شهد له علماء عصره ومنهم الإمام أحمد بن حنبل : أن عيناً لم تر قط مثله،
وأنه الرجل الذي فاق أهل زمانه، وقال آخر: ما وصف لي أحد رأيته دون الصفة
إلا إمامنا اليوم فإنه فوق ما وصف لي.

وقال فيه أحد المحدثين الكبار وهو سيدنا يحيى بن معين: والله ما رأيت أحداً
يحدِّث لله غيره وما رأيت رجلاً أحفظ منه، وهو في زمانه كالأوزاعي في زمانه. وحين
ترجم له الإمام الذهبي قال عنه: إنه الإمام الحافظ محدِّث العراق أبو سفيان الكوفي

أحد الأعلام، كان من بحور العلم وأئمة الحفظ، قال عنه سيدنا عبد الله ابن مبارك وقد سئل: مَنْ رجلُ الكوفة اليوم؟ فسكت ثم قال: رجل المقرئين وكيع بن الجراح. نحن اليوم مع رجل بدّ أهل زمانه وفاقهم حفظاً، وانحت الرؤوس إجلالاً لعلمه وتربيته وزهده، حتى قال فيه الإمام أبو نعيم: ما دام هذا التنين حياً ما يفلح أحد معه.

إننا مع أحد سادة الأمة وعلم أعلامها سيدنا وكيع بن الجراح، ومع الحلقة واحد وستين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام وكيع الجراح.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد إمامنا سنة تسع وعشرين ومئة هجرية في الكوفة فرّج الله عن أهلها، وكان والده ناظراً على بيت المال بالكوفة، وبدأ والده يشجعه على حفظ الحديث منذ نعومة أظفاره، كان يرسله بمعاشات الأئمة إلى بيوتهم، يقول لولده: إذهب بهذا العطاء إلى سليمان الأعمش المحدث، وقل له يحدثك بخمسة أحاديث عن سيدنا رسول الله ﷺ، فكان سيدنا وكيع يحفظ هذه الأحاديث بأسانيدھا عن ظهر قلب.

وكان من الأئمة الذي التقى بهم وأخذ عنهم سيدنا سفيان الثوري، كان كلما التقى به يقول له: تعال أي شيء سمعت اليوم؟ فيقول سيدنا وكيع: حدثني فلان بكذا وحدثني فلان بكذا، فيسمعه سيدنا سفيان الثوري ويتعجب من حفظه ويقول لمن حوله: إن هذا لا يموت حتى يكون له شأن.

يقول الراوي يا سادة يا كرام: فما هي إلا سنوات حتى مات سيدنا سفيان الثوري وقعد سيدنا وكيع مكانه محدثاً في العراق.

يقول سيدنا وكيع: ما كتبت عن الثوري قط، كنت أحفظ حفظاً الأحاديث التي يرويها لنا، فإذا رجعت إلى البيت كتبتها. ولعظم شأنه عند شيخه فإن سيدنا

سفيان حدّث عن وكيع أيضاً رغم أنه شيخه، كما حدّث عنه سيدنا عبد الله بن المبارك رغم أنه أكبر منه سنّاً.

إخوتي في الله: وتمّت نعمة الله على هذا الإمام، فغدا أهل العراق ينقادون إليه لشدة حفظه ، حتى قال فيه سيدنا الإمام أحمد بن حنبل: ما رأيت أحداً أوعى للعلم ولا أحفظ من وكيع، ما رأيت عيناى مثله، يحفظ الحديث جيداً ، ويذكر الفقه فيحسن ، مع ورع واجتهاد ، ولا يتكلم في أحد، (حقاً). وكيع إمام المسلمين في زمانه.

أسمعت شهادة الإمام أحمد في سيدنا وكيع مع تحرّيه وشدة ورعه، وقد شاهد الأئمة الكبار أمثال سيدنا الإمام الشافعي وسفيان بن عيينة والقاضي أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة وغيرهم كثير. إن هذه الشهادة الغالية العالية جعلت من سيدنا وكيع ثقة مأموناً وحجة في عصره، ولقد كان المحدث يكبر فيأتي إليه طلاب الحديث فيقول: قد كبرت ونسيت الحديث اذهبوا إلى وكيع في بني رؤاس.

وكان لحسن حظ الأئمة الحفاظ أنهم كانوا يتذكرون الحديث في مجلس يعقدونه ، وربما يبقى ليلة كاملة من بعد صلاة العشاء إلى الصبح يتذكرون مع سيدنا وكيع ، وربما سرد لهم في مجلس واحد سبعة حديث حفظاً من ذاكرته في جلسة واحدة، فيخرجون من الجلسة يتعجبون من حفظه رضي الله عنه، حتى قال عنه الإمام أحمد: وكيع مطبوع الحفظ (الله فطره على الحفظ)، لذلك كانوا إذا اجتمعوا في مجلس وتذكروا فيه ودخل سيدنا وكيع سكتوا جميعاً لجلالته وهيبته، فيكون هو الذي يحدّث في المجلس.

أيها الأحبة والصحب: وذاع صيت سيدنا وكيع في البلاد وبين الحفاظ ، وبدأ الناس يممون شطره في رحلة الحديث ليأخذوا عنه ، لأن سنده في الحديث أصح أسانيد العراقيين، فإذا ما روى الإمام أحمد عن سيدنا وكيع عن سيدنا سفيان الثوري

عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله عن سيدنا رسول الله ﷺ كان هذا السند أصح الأسانيد وأفضلها، سند فيه فقيه يروي عن فقيه عن فقيه.

يرحل الناس إليه ليحضرُوا مجلسه الذي يعقده بعد صلاة الصبح إلى ارتفاع النهار ، ثم ينصرف فيقبل ، ثم يصلي الظهر ، ثم يقصد السقائين فيعلمهم القرآن إلى حدود العصر ، ثم يرجع إلى مسجده فيصلي العصر ويقرأ ويذكر الله إلى آخر النهار ، ثم يدخل منزله ، فإذا كان الليل كان له مع مولانا شأن آخر ، يقول ولده: كان أبي يصوم الدهر ويفطر يوم الشك والعيدين ، وفي الليل يقوم يصلي فلا ييق في دارنا أحد إلا صلى ، حتى إن جارية لنا سوداء لتصلي . وكان إذا صلى لم يتحرك في صلاته ولا يميل على رجل واحدة ، ولا ينام حتى يقرأ ثلث القرآن ، ثم يقوم آخر الليل فيقرأ السور الأخيرة كجزء عم ، ثم يجلس فيأخذ بالاستغفار حتى يطلع الفجر ، فهل رأيتم أروع من هذه العبادة المقترنة بالعلم؟

معشر الإخوة: لا شك أنكم قد أصبحتم في شوق لحضور مجلس سيدنا وكيع ، لذا اسمحوا لي أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك إلى إمام المسلمين في الكوفة ، فرج الله عنه ، وأريدكم أن تتذكروا أن سيدنا وكيعاً بدأ أول درس له في سن الثالثة والثلاثين ، وأنه جلس للتحديث والتدريس بعد إمام عصره سيدنا سفيان الثوري ، رضي الله عنهم.

ها هو يجلس في صدر حلقة في جامع الكوفة ، وأصحاب العمائم البيضاء الكثيرة حوله يمسكون الأقلام يدونون الأحاديث بالأسانيد العالية ، ويبدأ درسه بذكر الأحاديث الشريفة فمما يُروى بإسناده إلى سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿إِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَادْعُوهُ وَلَا تَقْعُوهَا فِيهِ﴾ (د) ، وقوله ﷺ: ﴿لَا نَعْمَ الْإِدَامُ الْخَلَّ﴾ ، ثم يأخذ بشرح الحديث ويفيض كلامه بالحكمة كقوله:

- لا يكمل الرجل حتى يكتب عمن هو فوقه ، وعمن هو مثله ، وعمن هو دونه.

وربما يكون مجلسه مناظرة مع رجل، كما حَدَّثَ معه مرة ، إذ جاءه رجل يناظره في شيء من أمر الدنيا أو الورع فقال له الإمام: (لو أن رجلاً نذر أن لا يأكل إلا حلالاً ، ولا يلبس إلا حلالاً ، ولا يمشي إلا حلالاً لقلنا له : إخلع ثيابك وارم بنفسك في الفرات ، ولكن لا تجد إلا السعة) ثم قال: لو أن رجلاً بلغ في ترك الدنيا مثل سلمان وأبي ذر وأبي الدرداء رضي الله عنهم ما قلنا له زاهداً، لأن الزهد لا يكون إلا على ترك الحلال المحض، والحلال المحض لا نعرفه اليوم فالدنيا عندنا حلال وحرام وشبهات، فالحلال حساب ، والحرام عذاب، والشبهات عتاب. فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة، خذ منها ما يقيمك، فإن كانت حلالاً كنت قد زهدت فيها، وإن كانت حراماً كنت قد أخذت منها ما يقيمك ، لأنه لا يحل لك من الميتة إلا قدر ما يقيمك، وإن كانت شبهات كان فيها عتاب يسير. إنما العاقل من عقل عن الله أمره ليس من عقل أمر دنياه.

وكانت الناس في مجلسه كأنهم في صلاة ، فإذا فعل أحدهم شيئاً في مجلسه تركهم وخرج منه لأنه كان يوقر مجلس رسول الله ﷺ وحديثه، وكان أحدهم قد سأل الإمام وكيعاً وقد نثر بين أيديهم في المجلس مئآت الأحاديث من حفظه، سأله بأي شيء أوتيت هذا العلم والحفظ ؟ وما هي أدوية الحفظ؟ فقال للسائل: إن علّمتك دواء تستعمله؟ فقال السائل: أي والله. فقال سيدنا وكيع: ترك المعاصي، ما جرّبت مثله للحفظ. وقد اشتكى سيدنا الإمام الشافعي لسيدنا وكيع الشكوى نفسها فقال مولانا الإمام الشافعي رضي الله عنه:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعاصٍ

أيها الإخوة: حجّ سيدنا وكيع سنة ست وتسعين ومئة هجرية، وما إن رجع حتى نزل به الموت في محرم سنة سبع وتسعين ومئة ، وهو ابن ست وستين سنة، يقول ولده مليح: لما نزل بأبي الموت أخرج إلي يده فقال: يا بني ترى يدي ما

ضربت بها شيئاً (أي محرماً قط) ، ويتابع سيدنا مליح بن سيدنا وكيع وحدثني داود بن يحيى فقال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت : يا رسول الله من الأبدال؟ قال: الذين لا يضربون بأيديهم شيئاً وإنَّ وكيع بن الجراح منهم، والتفت سيدنا وكيع إلى ولده فقال: إن سفيان أتاني في المنام فبشّرني بجواره فأنا مبادر إليه .

وبادر سيدنا وكيع إلى هناك من هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.^١



^١ المصادر: مختصر تاريخ دمشق: ٢٩٢/٢٦

صفة الصفوة ٣/١١٩

حلية الأولياء ٣٦٨/٨

سير أعلام النبلاء ١٤٠/٩

(١٦٢)
الإمام سفيان بن عيينة
(١٠٧ هـ - ١٩٨ هـ)

الحمد لله الذي قَرَّبَ إلى جنابه من أحبِّ واختار ، وصيَّره من أحبابه السادة الأبرار، وطرد عن بابه كلَّ شقي وجبار، وحرمه جزيل ثوابه فالحكم لله الواحد القهار.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أبدع الخلائق بقدرته، وقَدَّر أرزاقهم وآجالهم بحكمته، وفَضَّل بعضهم على بعضٍ في الشرف والنسب فانتخب منهم الأنبياء والرسل الأخيار.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أنعم الله عليه وأفضل، وأعطاه ما لم يُعْط أحداً وأَجْزَلَ وجعله شريف النسب عظيم المقدار، فهو خيار من خيار من خيار، ومن شرفه المعجزات الظاهرات كانشقاق القمر وتسليم الحجر والشجر، وغير ذلك من الآيات والعبر، وبجأه غفر الله تعالى لأبينا أبي البشر.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد ورضي الله عن أصحابه أبي بكر الصديق رفيقه في الغار، ورضي الله عن عمر بن الخطاب الذي نَزَّه الحق عمَّا يقول الكفار، وحُصِّ اللهم عثمان شهيد الدار، واجعل أفضل الرضا على سيدنا علي مهلك الكفار بالصَّارم البتار، وعلى الستة الباقيين من العشرة الكرام الأخيار، وعن سائر الصحابة من المهاجرين والأنصار، عدد ما ناح طائر وترنم في الأسحار، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أول العلم الاستماع ثم الإنصات ثم الحفظ ثم النشر (فاستمعوا إلي ثم أنصتوا أي أصغوا واحفظوا عني ثم انشروا ذلك على الناس) واذكروا أنه:

- ما تنعم متنعم بمثل ذكر الله، لا إله إلا الله في الآخرة بمنزلة الماء في الدنيا، لا يحيا شيء في الدنيا إلا على الماء، فمن لم يكن معه لا إله إلا الله فهو ميت، ومن كان معه فهو حي.
 - واعلموا: أنه لم يُعطَ أحد في الدنيا شيئاً أفضل من النبوة، ولم يعط بعد النبوة شيء أفضل من طلب العلم والفقه، ولم يعط في الآخرة أفضل من الرحمة.
 - إذا وافقت سريرتك علانيتك فذلك العدل، وإذا كانت السرية أفضل من العلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضل فذلك الجور (ونسمة نفاقاً).
 - من كانت معصيته في الشهوة فارح له المغفرة (إن تاب وأتاب)، ومن كانت معصيته في كبر فاخش عليه، فإن آدم عصى مشتهياً فغفر له وإبليس عصى متكبراً فلعن.
 - لم يجتهد أحد قط اجتهاداً، ولم يتعب أحد قط عبادة أفضل من ترك ما نهى الله عنه.
- بهذه الحكم - معشر الإخوة - التي نطق بها لسان عبد نور الله قلبه، أطرق معكم اليوم باب علم من أعلام الأمة هو صاحب هذه الحكم، إمام شهد الحكم الإسلامي أيام كان من الأطلسي إلى حدود الصين.
- هو محدث ولد في عصر كان فيه أكبر مجتهد المذهب الحنفي سيدنا الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان، وأكبر مجتهد للمذهب المالكي سيدنا مالك بن أنس، وأكبر مجتهد في المذهب الشافعي سيدنا الإمام محمد بن إدريس الشافعي وغيرهم من أئمة الهدى والدين، أمثال الأوزاعي والثوري والليث وداود، وكان فيه من علماء العربية الأفاضل أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤)، والخليل بن أحمد الفراهيدي عبقرى عصره (ت ١٧٠ هـ) ثم سيويوه واسمه عمرو بن عثمان (ت ١٥٤ هـ).

مع هذه المنافسة العلمية الشريفة، وفي هذا العصر أقوى العصور سياسة وأحسنها علماً واجتهاداً وأطيبها ديناً وخلقاً بعد عصر الصحابة والتابعين.

مع هؤلاء الأعلام لمع اسم علم حكيم من أصحاب الحديث هو أحد الأحدين (أي من ليس له نظير)، إنه الفتى الهلالي الذي حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين، وكتب الحديث وهو ابن سبع سنين، وكان يقف على أبواب المحدثين فيمنع من الدخول عليهم لصغر سنّه، وكان له تسعة إخوة منهم أربعة محدّثون هو أوثقهم وأثبتهم، فما أن بلغ العشرين حتى كان قد حفظ سبعة آلاف حديث بأسانيدھا ولقب بالمحدّث لقّبه به الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان، إنه قرين الإمام مالك في العلم والحديث، وشيخ شيوخ مكة بلا منازع: سيدنا الإمام سفيان بن عيينة رضي الله عنه ومع الحلقة اثنان وستين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام سفيان بن عيينة.

رضي الله عنه وأرضاه، وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد هذا الإمام في الكوفة في النصف الثاني من شعبان سنة (١٠٧) سبع ومئة هجرية، وهاجر مع والده إلى مكة أم القرى، البلد المبارك الذي ما عرف أهله في حياتهم الدينية وسلوكهم غير كتاب الله وسنة رسوله وبعض اجتهادات الصحابة والتابعين.

وقيض الله للإمام أساتذة اعتنوا بكتاب الله وبالأحاديث وشرحه، فنشأ حافظاً محدّثاً لم يُعَنَّ بالفقه والاجتهاد عناية الإمام مالك فيهما، فقد ألّف الإمام في ذلك وأفتى وقُصِدَ من بلاد كثيرة للفتوى، وأما الإمام سفيان فقد كان فيه أهلية الفتوى كاملة، ولكنه كان يكف عنه ورعاً، يقول مولانا الإمام الشافعي: (ما رأيت أحداً فيه من آلة العلم ما في سفيان بن عيينة وما رأيت أكف عن الفتيا منه).

وكان إذا سئل عن شيء يقول: لا أحسن (ونصف العلم لا أدري)، فيقال له: من نسأل؟ فيقول: سلوا العلماء وسلوا الله التوفيق، سلوا هذا الفتى و يشير إلى الإمام الشافعي، فمن أين جاء هذا الإمام بعلم الحديث، من هم هؤلاء العلماء الذين نقلوا له سبعة آلاف حديث، من هم آباؤه في الدين الذي تربى على أيديهم؟ للإجابة عن هذه الأسئلة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن هذا الإمام وشيوخه.

ذلك أن أعظم شيوخه الذين درس عليهم الإمام عمرو بن دينار مفتي مكة ثلاثين سنة (ت ١٢٥) أخذ عنه ابن عينية ألف حديث إلا خمسين.

والإمام الثاني الذي أخذ عنه الإمام محمد بن مسلم الزهري حافظ زمانه نزيل الشام (٥٦-١٢٤ هـ) أول من دَوّن العلم وكتبه، حفظ عنه نحو ألف حديث فكان عمرو بن دينار يروي عن سيدنا بن عمر عن سيدنا النبي ، ومحمد بن مسلم الزهري يروي عن سيدنا أنس عن النبي ﷺ ، فليس بين الإمام ابن عينية وبين سيدنا النبي إلا رجلاَن فقط التابعي والصحابي.

ومن شيوخه الذين روى عنهم شيخ الحرم المكي ابن جريج (ت ١٥٠) وشعبة بن الحجاج أمير المؤمنين في الحديث (٨٠-١٦٥ هـ) وإمام أهل البصرة في الحديث الإمام سفيان الثوري.

ومن كبار أصحابه المكثرين عنه مولانا الإمام الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) والقرينان أعني بهما الإمام أحمد بن حنبل والإمام علي بن المديني (١٦١-٢٣٤ هـ) أمير المؤمنين في الحديث الإمام الحجة ، فهما قرينان في العلم ، قولوا رضي الله عنهم، وما زال الإمام ابن عينية يتتبع ثقات الرجال حتى أصبح عدد شيوخه من التابعين (احذروا) ستة وثمانين من أعلامهم، يأخذ عنهم علم رسول الله ﷺ حتى قال فيه مولانا الإمام الشافعي: (لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز)، إن أصول الأحكام نيف وخمسمئة حديث كلها عند مالك إلا ثلاثين حديثاً، وكلها عند ابن

عينية إلا ستة أحاديث » ، أسمعتم شهادة علماء عصره به؟ بل قال له شيخه ابن جريج: ما يلقي منك عمرو بن دينار غلب على وسادته (زاحمته على مكانته) حتى لقبه هارون الرشيد: بسيد الناس.

إخوتي في الله: فماذا بعد أن امتلأ الإمام علماً وحفظاً؟ ماذا بعد أن أتقن وجود وجمع وصنّف وانتهى إليه علو الإسناد؟ ماذا تتوقعون النتيجة؟

لا شك أنكم لتقولون: إن الناس أقبلوا عليه من كل حذب وصوب، وازدحم الخلق عليه، وهذا صحيح، فقد اجتمع الخلق عليه وأقبلوا عليه إقبالاً منقطع النظير وكان فيهم العلماء المجتهدون وكبار المحدثين حتى عدّ في حلقاته أو درسه ألف رجل عليهم العمام، لكن الطريف فيهم أنهم جاؤوا إلى مجلسه يوماً فلم يجدوه في المسجد، وانتظروه فلم يأت، فقاموا جميعاً يقصدون داره لا يبالون حاله أمستريح هو أم نائم أم مريض، فاستأذنوا عليه فلم يأذن لهم، أتعرفون ماذا فعلوا؟ يقول الراوي **ياسادة يا كرام:** فكسرنا الباب ودخلنا وقد جلس مذهولاً مما فعل هؤلاء. فقال: سبحان الله دخلتم داري بغير إذني ، وقد حدثنا الزهري عن سهل بن سعد أن رجلاً اطلع في جحر من باب النبي، ومع النبي مدرى يحك بها رأسه. فقال: لو علمت أنك تنظر إلي لطعنت بها عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل النظر (خ ١٢/٣١٥ - م ٢١٥٧)، قال: فقالوا جميعاً: ندمنا يا أبا محمد. فقال: ندمتم، حدثنا عبد الكريم الجزري عن زياد عن عبد الله بن معقل عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: **﴿الندم توبة﴾** (أحمد ١/٣٧٦) أخرجوا فقد أخذتم رأس مال ابن عينية. وخرج الناس على أمل أن يحضروا الدرس بعد أيام في المسجد.

وأرى لزماً عليّ أن أتلمذ مع حضراتكم على يدي هذا الإمام ولو لدرس واحد، فاسمحوا لي أن أدعوكم لحضور درس الإمام، ولسنا وحدنا في هذا الدرس بل معنا مولانا الإمام الشافعي، ها هو يفسر لنا قوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**

والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ فيقول العدل: الإنصاف، والإحسان التفضل.

ها هو يُسأل: لأي شيء سَمَّى الله عزَّ وجلَّ نفسه المؤمن، فقال: يُؤمِّنُ عذابه بالطاعة.

وحدَّثنا أن سيدنا النبي ﷺ مرَّ به رجل وهو مع امرأته صفية (وهي محتجبة مجلبة) فقال: ﴿تعال هذه امرأتى صفية. فقال الرجل: سبحان الله يا رسول الله! فقال: إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم﴾. وما أن أتم الإمام ابن عينية هذا الحديث حتى التفت إلى سيدنا الإمام الشافعي وقال: ما فقه هذا الحديث يا أبا عبد الله؟ فقال الإمام الشافعي: (إنَّ كان القوم اتهموا النبي ﷺ كانوا بتهمة إياه كفاراً، لكن النبي أدب من بعده فقال: إذا كنتم هكذا فافعلوا هكذا حتى لا يظن بكم ظنَّ السوء، لا أن النبي وهو أمين الله في أرضه اتهم). فقال الإمام ابن عينية: جزاك الله خيراً يا أبا عبد الله فما يحيئنا منك إلا كل مانحبه.

هذا الدرس يا سادة كان في مكة، لكن درساً آخر ينتظرنا الآن في مدينة سيدنا رسول الله فلكي يكمل سرورنا أدعوكم الآن لتكتحل عيوننا بمراى الروضة المطهَّرة والسلام على خير البرية، ها نحن ندخل المدينة فصلَّوا على ساكنها، ها نحن ندخل مسجد سيدنا رسول الله فسلِّموا عليه (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته).

وأرى بعين الإيمان واليقين الإمام سفيان بن عينية يستأذن في الدخول على الإمام مالك. فقال الإمام مالك: رجل صالح صاحب سنة أدخلوه، فدخل وسلَّم وصافح فقال الإمام مالك: لولا أنها بدعة لعانقناك، فقال الإمام ابن عينية: قد عانق من هو خيرٌ منا رسولُ الله. فقال الإمام مالك: جعفرًا؟ قال: نعم، قال الإمام مالك: ذاك حديث خاص يا أبا محمد ليس بعام، فقال الإمام سفيان: ماعمَّ جعفر يعمَّنَّا، وما خصَّه يخصَّنَّا إذا كنا صالحين، أفتأذن أن أحدث في مجلسك؟ قال: نعم يا أبا محمد، فقال: حدثني عبد الله بن طاوس عن أبيه عن عبد الله بن عباس أنه لما

قدم جعفر من أرض الحبشة اعتنقه النبي وقَبِل ما بين عينيه وقال : ﴿جَعْفَرُ أَشْبَهُ
بِي خُلُقًا وَخُلُقًا﴾.

معشر الإخوة الكرام: وعاد الإمام سفيان بن عيينة إلى مكة إلى حج بيت الله
الحرام ليحج الحجة الثانية والسبعين، وكان في كل عام، ومنذ أن كان عمره تسع
سنين يقول على عرفات الله: (اللهم لا تجعله آخر العهد منك) فلما كان سنة سبع
وتسعين ومئة (١٩٧ هـ) قال: قد وافيت هذا الموضوع سبعين عاماً أقول في كل سنة
اللهم لا تجعله آخر العهد من هذا المكان وإني قد استحيت الله من كثرة ما أسأله
من ذلك، فرجع الإمام وتوفي داخل سنة ثمان وتسعين ومئة، بعد أن عاش إحدى
وسبعين سنة، فمن (ابن مناذر):

من كان يبكي ورعاً عالماً	فليبك للإسلام سفيان
راحوا بسفيان على نعشه	والعلم مكسوين أكفانا
يا واحد الأمة في علمها	لقيت من ذي العرش رضوانا
تجلو من الحكمة أنوارها	ما تشتهي الأنفس ألوانا

وهكذا - معشر السادة الكرام - قضينا مع إمام من أئمة الهدى كان تلميذاً
في المدرسة هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد، الجالس فيها عليه أن
يرفع التحية إلى المربي الأعظم، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله: الصلاة والسلام
عليك.

● صفة الصفوة

تهذيب التهذيب ٢٩٤/٨

حلية الأولياء ٨٤/٨

شذرات الذهب ٣٦١/١

طبقات الصوفية للسلمي ١٤/٦

النجوم الزاهرة ١٢١/٢

وفيات الأعيان ٤٧/٤

سفيان بن عيينة للدقر

(١٦٣)

الإمام معروف الكرخي

(ت ٢٠٠ هـ)

الحمد لله منزّل الكتاب ، ومفصّل الخطاب، وفاتح أبواب الصواب، ومانح أسباب الثواب، أحّمده وهباته تنزل بغير حساب، وأعبدّه وإليه المرجع والمآب، وأرجوه وأخافه فيبده الثواب والعقاب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقدمات دلائلها مبينة الأسباب، ونتيجة اعتقادها جنة مفتحة الأبواب.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أرسله وقد طال زمان الفترة ونسيت الآداب، وبَعَدَ عهد النبوة فزال الحق وانجاب، فمنازل الهدى خراب وللناس بالشهوات والشبهات إعجاب ، حتى أفرد النظر بالدنيا وادّعي تعدّد الأرباب، فاختر الله سيدنا محمداً في أشرف الأنساب وخيرة الأحساب نذيراً بين يدي العذاب ، وبشيراً لمن أطاع الحق وأجاب.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد صلاة وسلاماً يدخل فيهما الآل والأصحاب والمحبون والأحباب ، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أنقل لكم اليوم الأنباء من بغداد فرّج الله عنها بيث خارجي من منطقة الكرخ، حيث نلتقي اليوم بعلم الزهاد وبركة العصر، وحتى لا تضيع بركات إمامنا اليوم، أنزل مع حضراتكم على زائر كريم عزيز وولي مكرم جليل هو سيدنا معروف الكرخي ابن فيروز ، ومع الحلقة ثلاثة وستين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام معروف.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان: ظهرت أمارات اصطفاء الإمام وولايته واجتبايته حال الصبا، فقد كان أبواه نصرانيين أسلماه إلى مؤدب النصارى، فكان يقول له: قل ثالث ثلاثة ، فيقول معروف: بل أحد أحد فيضربه المؤدب ليقولها ، وهو يقول: هو الواحد الأحد، ثم إنه ضربه ضرباً شديداً فهرب على وجهه في الأرض سنين، فكانت أمه تبكي وتقول: لئن ردّ الله عليّ ابني معروفاً لأتبعنه على أي دين كان، فقدم عليها بعد سنين فقالت له: يا بني على أي دين أنت؟ فقال: على دين الإسلام، قال: فأسلمت أمه ونظقت بالشهادتين وأسلم أهل البيت جميعاً ببركة معروف الكرخي

صلواته

معشر الإخوة الكرام: سلك الإمام معروف طريق العلم والمجاهدة والزهد والتقوى حتى صار بركة أهل زمانه ، وكان سيدنا سفيان بن عيينة إذا رأى أهل بغداد يسأل فيقول: ما فعل ذلك أكبر الذي قبلكم ببغداد ؟ فيقولون: من هو؟ فيقول أبو محفوظ: معروف، فيقولون: هو بخير، فيقول لهم: لا يزال أهل تلك المدينة بخير ما بقي فيهم.

وكان رضي الله عنه مؤذناً لا يحب أن يصلي بالناس إماماً، وكان إذا أذن استغرق في ذكر الله تعالى، فإذا قال أشهد أن لا إله إلا الله وقف شعر لحيته ورأسه كأنه زرع لشدة حضوره مع الله تعالى.

كان ذاكرةً من الطراز الأول لا يفتر عن الذكر في جميع أوقاته ، حتى لما أراد الحلاق قص شاربه لم يسكت لسانه عن الذكر ، فقال الحلاق: كيف أقص؟ فقال: أنت تعمل وأنا أعمل.

أتعرفون كم مرة كان ورده؟ يتلو ورده عشرة آلاف مرة وهو يقول: وا غوثاه يا الله ثم يقرأ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبِّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ (الأنفال ٩).

لذلك كان الناس يقولون إنه مستجاب الدعوة ، خرجوا مرة ليستسقوا وكان

فيهم فما بدأوا يقبلون أرديتهم حتى أصابهم المطر بإذن الله تعالى.
وجاءه رجل (خليل الصياد) وقال له: يا أبا محفوظ ابني قد غاب في الأنبار بعيداً
عن بغداد فوجدت أمه وجداً شديداً، قال: فما تشاء؟ قلت: تدعو الله أن يرده
عليها، قال: فرفع كفيه وقال: اللهم إنَّ السماء سماءك والأرض أرضك وما بينهما
لك فأت به، يقول الراوي ياسادة ياكرام: فأتيت باب المدينة فإذا ابني قائم منبهر
فقلت: يا محمد، فقال:

يا أبة الساعة كنت بالأنبار [فما أدري من جاء بي إلى بغداد].

إخوتي في الله: ولأدلل لكم على مدى الحكمة العظيمة التي آتاها الله الإمام
معروف، اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك، إلى بغداد فرّج الله عنها، وأرى بعين
الإيمان سيدنا معروفاً قاعداً على شط نهر دجلة، وإذ بشباب يمرون به في زورق
يضربون الملاهي ويشربون الخمر، فقال له أصحابه: أما ترى أن هؤلاء في هذا الماء
يعصون الله؟! أَدع عليهم، فرفع يده إلى السماء فقال: إلهي وسيدي أسألك أن
تفرّجهم في الجنّة كما فرّجتهم في الدنيا. فقال له أصحابه: إنما قلنا لك أَدع الله
عليهم ولم نقل لك أَدع الله لهم. فقال: إذا فرّجهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم
يضرّكم بشيء.

هذا هو منهج الإصلاح الذي اتبعه سيدنا معروف في حياته، منهج أخلاقي
عظيم، ولا يتم هذا المنهج لصاحبه إلا إذا تحلّى بالصدق والإصلاح والصالح
والتقوى، ولذلك نرى الإمام معروفاً يدعو أصحابه إلى هذا المنهج ويقول: قلوب
الطاهرين تُشرح بالتقوى، وتزهو بالبر، وقلوب الفجّار تظلم بالفجور وتعمى بسوء
النّيّة. إذا كنت لا تحسن أن تتق: أكلت الربا، ولقيت المرأة فلم تغض عنها،
ووضعت سيفك على عاتقك (تركت الجهاد).

وكان يحضّ أصحابه وتلامذته على ترك ما لا يعينهم ويقول: علامة مقت الله
العبد أن تراه مشتغلاً بما لا يعنيه من أمر نفسه. من كابر الله صرعه، ومن نازعه

قمعه، ومن ماكره خدعه، ومن توكل عليه منعه، ومن تواضع له رفعه ، وكلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله.

أيها الأحبة: كان سيدنا معروف عالماً عاملاً لم يأمر أصحابه بشيء لم يلتزم به، بل زهد بالدنيا وعلّق قلبه ونفسه بالآخرة، كان إذا جاءه رجل بمال يهبه له تصدّق به على سائل يمرّ به، فتبكي نفسه على المال المتصدق به فيقول لها: **يا نفس كم تبكين أخلصي تخلّصي.**

كان يعلم أصحابه الزهد في الدنيا بنفسه وبقوله: سُئل مرة بأي شيء قدر الطائعون على طاعة الله تعالى فقال: بإخراج الدنيا من قلوبهم، ولو كانت في قلوبهم ما صحت لهم سجدة. فقال له آخر: فيما تخرج الدنيا من القلب؟ فقال: بصفاء الود وحسن المعاملة.

كان الإمام معروف من العلماء العاملين من الدرجة الأولى، وكان يخفي عبادته وصلاته ويعتبر أن العمل بالشرعية يفضي إلى النهاية السعيدة ، وهو القائل: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل، وأغلق عليه باب الفترة والكسل، طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، فالعمل أساس بناء الجنّة (دخول الجنّة برحمة الله ولكن بناءك فيها يكون بعملك وأنت وذراعك). ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، الإيمان بلا عمل نقص في المسلم، والعمل هو الصلاة والصيام والحج والزكاة، وقد سأله أحد أصحابه كيف تصوم؟ فغالط السائل وقال له: صوم النبي ﷺ كذا وكذا. فألح عليه السائل وأقسم عليه أن يجيبه فانتفض سيدنا معروف وقال: أصبح دهري صائماً فمن دعائي أكلت ولم أقل إني صائم. ومرّ به وهو صائم سقاء يقول: رحم الله من شرب فشرب رجاء أن يرحمه الله تعالى.

هكذا العلم والعمل صوم بالنهار وقيام بالليل، وحلاوة قيام الليل عنده أنه كان ينشد قبل الفجر في السحر ويقول:

أي شيء تريد مني الذنوب شُغِفْتُ بي فليس عني تغيب
ما تضر الذنوب لو أعتقتني رحمة لي فقد علاني المشيب

معشر السادة: أترون هذه المجاهدات وتلك العبادات مع الإخلاص والتقوى، لقد قرَّبته إلى الله فأعطاه من المكانة والكرامة ما تقرَّر به عينه، قال له مرَّة أحد أصحابه: بلغني أنك تمشي على الماء، قال: ما وقع هذا، ولكن إذا هممت بالعبور جُمع لي طرفا النهر فأتخطاه، كانت تطوى له الأرض كما كانت تطوى لنبي الله سليمان داود، وما كان معجزة لنبي جاز أن تكون كرامة لولي، رؤي مرَّة في وجهه أثر شجَّة (جرح) فقليل له: سل عما يعينك عافاك الله، فأقسم عليه، فتغير وجه سيدنا معروف وقال: صلَّيت البارحة ومضيت فطفت بالبيت العتيق وجئت لأشرب زمزم فزلقت فأصاب وجهي هذا.

أيها الإخوة: مرض الإمام معروف الكرخي قبل أن يودع الدنيا ، فدخل الناس يعودونه في مرض موته ويستوصونه ، قال له أحدهم : أوصني، فقال: توكل على الله حتى يكون جليستك وأنيسك وموضع شكواك، وأكثر من ذكر الموت حتى لا يكون لك جليس غيره، واعلم أن الشفاء لِمَا نزل بك كتمانُه (لا تشكو إلا الله) وأن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك ولا يعطونك ولا يمنعونك (إنما يفعل ذلك الله) ثم قيل له: هل توص بشيء؟ فقال: إذا مت فتصدَّقوا بقميصي هذا، فإني أحب أن أخرج من الدنيا كما دخلت إليها عريانا.

أيها السادة: مات سيدنا معروف سنة مئتين للهجرة ببغداد، وإذا كان للناس حاجة إلى الله جاؤوا إلى قبر معروف فدعوا الله تعالى فيستجيب لهم ، لأن البقاع المباركة يستجاب عندها الدعاء، كما أن الدعاء في السحر مرجو الإجابة ، ودبر الصلوات المكتوبات ، وفي المساجد.

وكنـت أريد أن أسدل الستار على حياة الإمام لكن مشهداً آخر أسـرني إذ أن بعض أصحاب الإمام رأوه في المنام (أحمد بن الفتح - وعبد الله بن سعيد الأنصاري)، يقول الراوي: رأيت بشر بن الحارث في منامي وهو قاعد في بستان وبين يديه مائدة وهو يأكل منها، فقلت له: يا أبا نصر ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأباحني الجنة بأسرها وقال لي: كل من جميع ثمارها واشرب من أنهارها وتمتع بجميع ما فيها كما كنت تحرم نفسك الشهوات في دار الدنيا. فقلت له: فأين أخوك أحمد بن حنبل؟ فقال: هو قائم على باب الجنة يشفع لأهل السنة، ممن يقول القرآن كلام الله غير مخلوق؟ فقلت له: فما فعل معروف الكرخي؟ فحرك رأسه ثم قال: هيهات حالت بيننا وبينه الحجب، إن معلرفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته ولا خوفاً من ناره، وإنما عبده شوقاً إليه فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى ورفع الحجب بينه وبينه وقال: (يباهي به ملائكته: يا ملائكتي من هذا؟ فقالت الملائكة: أنت أعلم هذا معلرف الكرخي، قد سكر من حبك لا يفيق إلا بـلقائك).

فمن كانت له حاجة هنا فليسأل الله بجاه سيدنا معلرف أن يستجيب له وأن يجمعه معه هناك، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك^(١).



(١) المصادر: سير أعلام النبلاء للذهبي . طبقات الصوفية ١/٨٣

(١٦٤)

الإمام أبو سليمان الداراني

(١٤٠ هـ . ٢٠٤ هـ)

الحمد لله الذي أحاط بحوادث الدنيا والآخرة خبراً، وجعل لكل شيء قدراً،
وأسبل على الخلائق رعاية وستراً، أحمدته على نعمائه شكراً، وأسلم لقضائه صبراً.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أعدّها ليوم القيامة ذخراً،
وأستمدّها على الأعداء نصراً.

وأشهد أنّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله، أرسله إلى البرية عذراً ونذراً، فدعا إلى
الله سرّاً وجهراً، ونشر رحمته على العالمين نشرًا.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على سيدنا ومولانا محمد ﷺ وعلى آله
وأصحابه وأدم لهم يا مولاي أجراً وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أنزل اليوم معكم على ضيف من أهل الشام ، وبالذات على ابن بلدة قريبة من
دمشق، من أهل داريا، وشهرته تغني عن الإكثار فيه، إنه سيدنا أبو سليمان
الداراني عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، كان أحد عباد الله الصالحين، اشتهر
بالزهد والعبادة وقيام الليل، قدم بغداد فالتقى بأئمة عصره أمثال: سيدنا سفيان
الثوري ، ولكنه اشتغل بالتعبّد عن الرواية، ثم عاد إلى الشام وأقام بداريا حتى توفي .

كان هذا موجز الأنباء وإليكم الأنباء بالتفصيل، ومع الحلقة أربعة وستين بعد
المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية
هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربّوا عن سيدنا أبي سليمان لداراني:

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان: ولد هذا الإمام في داريا سنة ١٤٠ هـ، وأقبل في شبابه على آلات اللهو والموسيقا يصغي إليها ويجد لذته فيها ، حتى دعي إلى مجلس وعظ في المسجد أثر في قلبه فرجع إلى بيته فكسّر آلات اللهو وتاب إلى الله تعالى حق التوبة، ثم سافر إلى بغداد يتلقى العلم مع العمل ، وزهد في الدنيا وبدأ سبيل المجاهدة مع الله تعالى ووضع نصب عينيه قوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾، أي أن الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله تعالى إلى ما لا يعلمون، فكيف تكون المجاهدة في الله تعالى!؟

نظر سيدنا أبو سليمان الداراني إلى كتاب الله تعالى وإلى السنة فكان إذا ألهم شيئاً من الخير يعرضه على الكتاب والسنة فإذا وافق ذلك عمل به وكان يقول: ربما يقع في قلبي الإلهام أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة، وكان إذا قرأ القرآن في الليل ربما يقوم في الآية الواحدة خمس ليال يتفكر فيها وهو يتلوها، فيستغرب تلميذه الخاص الإمام أحمد بن أبي الحواري ذلك منه فكان يحبيه سيدنا أبو سليمان بقوله: إذا لذت لك القراءة فلا تركع ولا تسجد، وإذا لذت لك السجود فلا تركع ولا تقرأ، والأمر الذي يُفتح لك فيه فالزمه.

وبدأ بتجويع نفسه ، لأنها كانت السبب في معصية الله ، وكان يقول: إذا جاع القلب وعطش صفا ورق، وإذا شبع وروي عمي، مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع، إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وإن الجوع عنده في خزائن مدخرة فلا يعطي إلا من أحبّ خاصة.

قال لتلميذه الإمام أحمد: يا أحمد جوع قليل وعري قليل وفقير قليل وضر قليل وقد انقضت عنك أيام الدنيا. يا أحمد ما أنجب من أنجب إلا بالقبول من مشايخهم كم أقول لك: لا تفتح أصابعك في القصعة وأنت لا تقبل مني، يا أحمد عهدت قوماً من القرّاء وشهدت طوائف من الصوفية يعدون الجوع فيهم غنيمة كما تعد

أنت وأصحابك الشبع غنيمة، أي شيء يزيد الفاسقون عليكم إذا كان كلما اشتهيتم شيئاً أكلتموه وأولئك كلما أرادوا شيئاً فعلوه. يا أحمد: لئن أترك من عشائي لقمة أحب إلي من أن أقوم الليل إلى آخره .

بعبارة أخرى سيدنا أبو سليمان زهد في الدنيا زهداً عجيباً وكان يردد بين طلابه وإخوانه لكل شيء مهر، ومهر الجنة ترك الدنيا بما فيها، ما يسرني أن لي من أول الدنيا إلى الآخرة أنفقه في وجوه البر، وأني أغفل عن الله طرفة عين، من صارع الدنيا صرعته، إذا أحب العبد الدنيا فآثرها يقول الله عز وجل: لأنسينه معرفتي حتى يلغاني وهو لا يعرفني.

وكان يأكل ويشرب خوفاً من أن يضعف عن أداء الفرائض، واسمعوا إلى قاعدته الكلية في الزهد بعد أن تترضوا عنه، يقول: اختلفوا علينا في الزهد بالعراق، فمنهم من قال: الزهد في ترك لقاء الناس، ومنهم من قال: في ترك الشهوات، ومنهم من قال: في ترك الشبع، وأنا أقول: إن الزهد في ترك ما يشغلك عن الله.

إخوتي في الله:

هذه المنهجية الفريدة في المجاهدة في الله تعالى كانت ثمرتها العبادة والالتجاء إلى الله تعالى، والقيام في محراب العبودية، كان إذا انتصف الليل توضاً وقام بين يدي مولاه ، علم وعبادة أسرّ إلى تلميذه الخاص الإمام أحمد بن أبي الحواري فقال: لأهل الطاعة في ليلهم ألد من أهل اللهو بلهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء.

بات ذات ليلة فلما انتصف الليل قام ليتهيأ فلما أدخل يده في الإناء ليتوضأ بقي واقفاً على حالته لم يشعر بنفسه حتى طلع الصبح وحان وقت الإقامة فخشي تلميذه أن تفوته صلاة الفجر فناده: الصلاة يرحمك الله، فاتتبه سيدنا أبو سليمان وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال: يا أحمد أدخلت يدي في الإناء فعرض لي عارض من سرّي وهتف بي هاتف من نفسي: هب أنك غسلت بالماء ما ظهر

منك فيما تغسل قلبك، فبقيت متعكراً فألهمت أن أقول: أغسل قلبي بالغموم والأحزان، فكان بعد ذلك يبكي بكاءً مرّاً على ذنوبه.

يقول تلميذه الخاص الإمام أحمد: دخلت على أبي سليمان وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ فقال: يا أحمد ولم لا أبكي؟! إذا جنّ الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبي افترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم، وتقطرت في محاريبهم أشرف الجليل سبحانه فنادى: يا جبريل بعيني من تلذذ بكلامي، واستراح إلى ذكرى، وإني لمطلع عليهم في خلواتهم، أسمع أنينهم، وأرى بكاءهم فلم لا تنادي فيهم يا جبريل؟ ما هذا البكاء؟ هل رأيتم حبيباً يعذب أحباءه؟ أم كيف يجمل بي أن آخذ قوماً إذا جنهم الليل تعلّقوا بيّ (وناجونى)، حلفت إذا وردوا عليّ القيامة لأكشفنّ لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إليّ وأنظر إليهم».

وبكى الإمام أحمد واشتد بكاء سيدنا أبو سليمان، وتوجه إلى الله تعالى يناجيه ويقول: وعزتك وجلالك لأن طالبتني بسريرتي طالبتك بتوحيديك، وإن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك، وإن جعلتني مع أهل النار أخبرت أهل النار بحبي إليك.

معشر السادة الكرام:

هكذا كانت مجاهدات الإمام أبي سليمان الداراني، عابداً داعياً مولانا في جنبات الليالي صيفاً وشتاء لا يفتر عن الذكر، وفي ليلة باردة جلس في محرابه يدعو، فخبأ إحدى يديه من البرد وبقيت اليد الأخرى ممدودة، فغلبته عيناه فهتف به هاتف: يا أبا سليمان قد وضعنا في يدك الممدودة نصيبتها من الدعاء، ولو كانت اليد الأخرى ممدودة لوضعنا فيها نصيبتها، فانتبه من نومه ومدّ يده الأخرى وآل على نفسه أن لا يدعو إلا ويداه ممدودتان حرّاً كان أو برداً، فكل من يمد

يديه إلى الله يضع الله في يديه ما يسأل والدليل الإمام أبو سليمان الداراني.

إمام العابدين لا يترك قيام الليل أبداً لأنه يعتبره شرف المؤمن، ما رضي عن نفسه مرة ولم ير لها قيمة مذاق حلاوة الخدمة في الليل، بينما هو ساجد ذات ليلة إذ نام في سجوده فإذا به يرى حورية من حوريات الجنة (حوراء) توقظه وتقول له: حبيبي أترقد عيناك والملك يقظان ينظر إلى المتهمدين في تهجدهم، بؤساً لعين آثرت لذة النوم على لذة مناجاة العزيز، قم فقد دنا الفراغ ، ولقي المحبون بعضهم بعضاً فما هذا الرقاد؟ حبيبي وقرة عيني أترقد عيناك وأنا أرى لك في الخدور منذ كذا وكذا.

أيها الأحبة:

بلغ سيدنا أبو سليمان مرتبة عالية بين زهاد وعباد عصره وأقبل الناس يستوصونه، وقد شارف على شاطئ اللقاء مع أهل الجنة، سأله أحدهم: كيف أوتيت هذا العلم وهذه الحكمة؟ فقال: إذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت وعادت بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علماً.

وقال له رجل: أوصني فقال: قال زاهد لزاهد أوصني فقال: لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك. قال: زدني، قال: ما عندي زيادة.

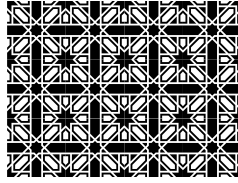
وسأله رجل: ما أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل، فبكى وقال: مثلك يسأل عن هذا! أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله أن يطلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة غيره.

معشر الإخوة الكرام:

وما أن آذنت شمس حياة الإمام بالغروب عام أربع ومئتين للهجرة وخلا الإمام بتلميذه الخاص ليوصيه الوصية الأخيرة، والتلميذ ينظر بشغف إلى سيده وإمامه، قال له: يا أحمد كن كوكباً، فإن لم تكن كوكباً فكن قمرًا، فإن لم تكن قمرًا، فكن شمسًا، فقلت: يا أبا سليمان! القمر أضوأ من الكوكب، والشمس أضوأ من القمر، قال: يا أحمد كن مثل الكوكب طلع أول الليل إلى الفجر، فقم أول الليل إلى آخره

فإن لم تقوى على قيام الليل فكن مثل الشمس تطلع أول النهار إلى آخره، فإن لم تقدر على قيام الليل فلا تعص الله في النهار.

هذه هي النصيحة الغالية التي قدمها لنا اليوم فارس العبادة وزاهد الدنيا ، فهل منا من ينفذ هذه الوصية، إن إمامنا اليوم موجود بيننا في داريا هنا، ونسأل الله أن يجمع بيننا وبينه يوم القيامة هناك، فمن أراد أن يجتمع معه هناك فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك*.



* مصادر أبو سليمان الداراني :

تاريخ ابن عساكر ١٤ / ١٨٧ . سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٨٢ . صفة الصفوة ٤ . طبقات الصوفية للسلمي . حلية الأولياء ١٠

(١٦٥)
الإمام أسد بن الفرات
توفي ٢١٣ هـ

الحمد لله الذي فقّه في دينه من اصطفاه من العلماء الأعلام، وجعلهم كواكب
يهتدي بهم كل ضال في حِلِّك الظلام.
أحمده على جميع نعمائه وأشكره على تزايد آلائه.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك العلام.
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله سيد الأنام.
اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه السادة الكرام،
وسلم تسليماً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام

نحن اليوم في تونس الخضراء (فرج الله عنها) قبل ألف وثلاثمئة عام تقريباً، وفي
يوم من أيام سنة ١٧٢/هـ في يوم مشهود، اجتمع فيه أهل تونس لوداع شاب
عمره ثلاثون سنة، غريب عن تونس أصله من نيسابور، وذهب أبوه إلى المغرب في
الحملة التي جردها الخليفة المنصور للقضاء على ثورة البرابرة فرأت أمه وهي حامل به
كأن حشيشاً نبت على ظهري ترعاه البهائم ، فعبر لها المعبرون بأنها حامل بولد
يكون عالماً ويحمل الناس عنه العلم . فحط والده رحاله في تونس الخضراء ، فنشأ
الشاب في تونس، وأخذ عن علمائها، فلما استوفى ما عندهم عزم على الرحلة.
وما كان القوم يرحلون لليل المتع وجلب الشهوات بل كانوا يرحلون للعلم
وحده، وما كان سفرهم سهلاً ولا مريحاً بل كان سفرّاً طويلاً شاقاً يمتد الطريق فيه
أشهرّاً طويلاً.

ونحن نرى الطلاب اليوم إذا أرادوا تحصيل العلوم يذهبون في أيامنا إلى الغرب، لأن الغرب أرقى ، أما يومئذ فكانوا يأتون من الغرب إلى الشرق، لأن الشرق أرقى رقىا وأعظم حضارة.

لا شك أنكم باشتياق لمعرفة هذا الشاب الذي اجتمع أهل تونس لوداعه: إنه أسد بن الفرات، الفقيه الأмирال (أمير الماء) الملقب بأسد السُّنة. ومع الحلقة خمسة وستين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً أن تترضوا عن الإمام أسد بن الفرات.

رضي الله عنه وأرضاه

إخوة الإيمان:

كان للعلم مركزان (جامعتان كبيرتان) جامعة أثرية تعنى بالنقد وبدراسة النصوص، مقرّها المدينة المنورة وأستاذها الأكبر الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه. وجامعة فقهية تميل إلى النظر العقلي والبحث الفقهي ومقرّها العراق، وأستاذها الأكبر سيدنا الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه. فقصّد أسد بن الفرات جامعة المدينة، وكانت الجامعات هي الجوامع، ففيها حلقات العلم كله، علوم اللسان وعلوم الدين، ولزم الإمام مالكا. وكان لسيدنا مالك هيبَةٌ في الصدور، لا يجرؤ أحد أن يناقشه في قضية لم تقع، لا يسمح أن يقال أمامه لو وقع كذا ما حكمه، بل يسألون عما وقع من الأحداث ولا يلحّون عليه في السؤال، فكان سيدنا أسد يفرّج من كل مسألة مسألة، ويلج في طرح الأسئلة عليه، وكان تلامذة الإمام يرون منه هذه الجرأة فيحْمِلونه أسئلتهم ليلقيها على الإمام مالك حتى ضجر منه الإمام وقال له: إن أردت هذه السلسلة (إن كان كذا كان كذا) فعليك بالعراق.

لأن الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة كما قال مولانا الإمام الشافعي رضى الله عنه ، كانت مدرسة الإمام أبي حنيفة تدعى مدرسة أهل الرأي، يفترضون المسائل ويجدون حلاً لها فيقولون: رأيت لو كان كذا كان حكمه كذا، رأيت ، رأيت، لذا لقبوا بالأرايين.

وهنا ودع سيدنا أسد السنة الإمام مالكا وقال له : أوصنا : فقال الإمام مالك: أوصيك بتقوى الله العظيم والقرآن ومناصحة هذه الأمة خيراً . وانتقل إلى جامعة العراق.

وكان الإمام أبو حنيفة قد مضى إلى رحمة الله تعالى وولي أستاذية مدرسته تلاميذه، يُقدّمهم أبو يوسف ومحمد بن الحسن رضى الله عنهما .

وكان قد تصدر للتدريس الإمام محمد بن الحسن ، وانتهت إليه رئاسة العلماء فلزم هذين الأستاذين وأحب أن يكون له درس خاص يغرف فيه من علم الإمام محمد بن الحسن ليحمله إلى بلاده، درس خاص ، أريد اليوم أن أسجل للإمام محمد بن الحسن هذه المنقبة أستاذ كبير له آلاف التلاميذ، وتجيئه كل يوم عشرات المسائل ليفتي فيها يُقدّم عليه شاب مجهول فيسأل أن يقطع له من وقته الثمين حصّة خاصة به، وماذا ترونه يقول له؟

ماذا يصنع الأستاذ الكبير في إحدى الجامعات الغربية اليوم إن جاءه تلميذ مشرقي فطلب منه هذا الطلب؟! يطرده، أو يعتذر له بلطف، وإذا كان كريماً جداً أعطاه ساعة في الشهر.

أتعرفون ماذا فعل الإمام محمد بن الحسن (أعظم شخصية من شخصيات العراق في عصره)؟

أخذ هذا الشاب المغربي إلى بيته وأعطاه غرفة بجانب غرفته، وكان يسهر معه الليل، يضع أمام التلميذ قدح ماء، فإذا نعس نضح وجهه بالماء ليصحو.

ما طلب منه أجراً، ولا سألته مالاً، بل كان هو الذي يطعمه ويسكنه، ذلك لأن العلم كان في رأي أسلافنا الأولين عبادة قريبة إلى الله، فالطالب يطلب العلم لله، لا للشهادة ولا للدنيا، والأستاذ يعلم العلم لله لا للرتب ولا للمنصب.

معشر الإخوة الكرام:

كان أسد السنة أول من نعرفه جمع بين مذهب المالكية والحنفية، وبين المدرسة الأثرية ومدرسة الرأي في العراق ثم أزمع الرحلة إلى أين؟ إلى مصر.

أيها السادة :

أنتقل بكم الآن إلى مصر القاهرة، إلى عالمين جليلين من تلاميذ الإمام مالك يتصدّران التدريس فيها : أشهب وابن القاسم.

ولم يكن مولانا الإمام الشافعي قد نشأ بعد، وكان كلاهما مجتهداً يخالف إمامه في بعض المسائل، ولكن أشهب فيه حدّه وفي لسانه طول، وفي ابن القاسم أناة ولين .
لزم أشهب حتى سمعه يوماً يردّ مسألة على الإمام أبي حنيفة ومالك بلفظة خشنه ، فغضب أسد السنّة ، وكان كما عهدنا صريحاً جريئاً، فصرخ على ملأ من الناس وقال له قولاً فظيعاً، اسمحوا لي أن أرويه قال له: ما مثلك ومثلهما إلا كمثّل رجل أتى بحرين زاخرين فبال بينهما فرغى بوله فقال: هذا بحر ثالث.

وفارقه إلى ابن القاسم فلزمه مدّة ، وجمع ما أخذ من ابن القاسم من مسائل وأفاض عليها من ذهنه جمعاً بين جامعتي المدينة والعراق وجعلها في رسالة مدوّنه سمّاها الأسدية.

أتدرون ما فعل الله بهذا الكتاب ؟ لقد تناقله الطلبة حتى أصبح أساس الفقه المالكي ، ببركة صاحبه.

رجع الإمام إلى القيروان، المدينة التي أنشأها البطل الفاتح عقبة بن نافع، عاد بعد عشرين سنة قضاها بين العلماء والأئمة وقد ناهز الخمسين ، فجلس للتدريس

والإقراء يوفّي دينه، يعطي التلاميذ كما أعطاه الأساتذة لله، لا للأجر ولا للمنصب. وصارت مدونته الكتاب الرسمي لكل مدرسة مالكية، وأخذها عنه تلميذه سَحْنُون وصار لها شروح وحواشي حتى اشتهرت بمدونة سحنون، وإن كان أصلها لابن الفرات.

أمضى عشرين سنة في العلم حتى جاءه المنصب، فقلد القضاء سنة ٢٠٣ هـ مع أبي محرز الكنائي إلا أنه كان فيه لبن، وأما أسد السنة فأسد في الحق، ووقف برأيه أمام والي القيروان موقفاً مشرفاً، وأجاب جواباً حاسماً صارماً (الكامل لابن الأثير ١٨٦/٥)

إخوتي في الله :

هذا هو خبر الأسد ، أسد طالب العلم ، وأسد الفقيه، وأسد القاضي، وأريد أن أشهد معكم مشهداً أخيراً خبر أسد القائد والأميرال .

حكم المسلمون أطراف البحر المتوسط وكانت صقلية تحت حمايتهم، فإذا بأمر صقلية يأتي إلى أمير المغرب ويخبره أن حكومة صقلية نقضت العهد وحبست أسرى المسلمين، وأساءت إلى الجالية الإسلامية ، وتردد الحاكم في قبول خبر الواحد، وأحب أن يقف على حكم الشرع فيه، هل يكفي هذا الخبر لاعتبار المعاهدة منتهية وإعلان الحرب، ودعا القاضيين، أما أبو محرز فلم ير ذلك كافياً لا بد من شاهدين ، وأما أسد السنة فقال : إن المعاهدة ، إنما أبرمت على أيدي الرسل وإخبار الرسل كاف لنقضها. إن مولانا عز وجل يقول ﴿ فلا تهنأ ولا

تدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ﴾ فنحن الأعلون.

وهنا بدأ الأمير يجهّز الأسطول، وطلب القاضي أسد أن يكون مع المجاهدين، فأبى الأمير خوفاً عليه فألح وألح وقال: وجدتم من يسير لكم المراكب، وما أحوجكم إلى من يسيرها بالكتاب والسنة.

فلما رأى الأمير منه الجِدَّ ولَّاه إمارة الحملة، كان يريد أن يكون جندياً لا أميراً، فقال للأمير: أبعِد القضاء والنظر في الحلال والحرام تعزلي وتوليبي الإمارة (لأن القضاء في عرفهم فوق الإمارة) فقال الأمير: ما عزلتك عن القضاء ولكن أضفت إليك الإمارة ، فأنت قاض وأمير .

جهز الأسطول وكان مؤلفاً في ثمان وتسعين قطعة حربية فيه جيش من عشرة آلاف راجل وتسعمئة فارس .

وخرج الناس للوداع وتكلم الحاكم والخطباء ثم قام القاضي الأميرال ليتكلم. احزروا ماذا قال؟: بدل أن يفخر أو يتكبر ويبرق ويرعد جعل من هذا الموقف مدرسة دعا مدرساً فقال:

والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط وما أرى أحد من أسلافي مثل هذا قط. وما بلغته إلا بالعلم فعليكم بالعلم، انصبوا فيه أذهانكم وكدوا به أجسادكم تبلغوا به الدنيا والآخرة)

أيها السادة لعلكم تتساءلون ماذا صنع الشيخ بقيادة الأسطول ولا علم له بالحرب والبحر، أريدكم أن تعلموا أن الله تعالى وفق القاضي الأميرال أيما توفيق وكان كاسمه أسد غاب، إذ أراد الجند بعد أن طالت أيام المعركة وقَلَّتْ الأقوات تحركت عناصر الشغب فيهم وعزموا على العصيان وأرادوا العودة إلى ديارهم، وهذا معناه إعلان الثورة، فماذا صنع الفقيه القاضي لقد تناول السوط من يد أحد الحراس أنتصب أمام الثوار وضرب زعيمهم أولاً وثانياً ولبسته قوة سماوية خارقة هي قوة الإيمان وصرخ بالجنود: إلى الإمام. وتقدّمهم نحو العدو وهبَّ الجند خلفه تدفعهم الملائكة والنصرة للإسلام وكان الظفر، وكان الفتح، وكان ابتداء الدولة الإسلامية في صقلية التي امتدت قروناً، ولكن الثمن كان غالياً، فقد استشهد القائد البطل الفقيه القاضي أسد بن الفرات سنة ٢١٣ هـ استشهد فيها أو بعدها. هوى وهو يحمل

راية النصر ودفن بجوار مسجد بنى باسمه في صقلية (ترتيب المدارك ٢/٢٧٨) يقول الراوي يا سادة يا كرام : كان أسد يرفع اللواء وهو يزمزم وأقبل على قراءة يس، وحرص الناس وحمل وحملوا معه فهزم الله جموع النصارى ، ورأيت أسداً وقد سالت الدماء على قناة اللواء حتى صار تحت إبطه .

ولما بلغ أبا محرز موته استعظمه وقال : اليوم مات العلم .

هوى طاهر الأثواب لم تق روضة غداة ثوى إلا اشتهدت أنها قبر^(١)

^١رجال من التاريخ للطنطاوي ١٥٥

شذرات الذهب للعكري ٣ / ٦٠

البداية والنهاية لابن كثير ١٠ / ٢٦٧

نفح الطيب للمقري ٣ / ١٦٢

من وحي المنبر للمحاميد

الكامل لابن الأثير ٥ / ١٤١

سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠ / ٢٢٥

أسهل المدارك

ترتيب المدارك للقاضي عياض ١ / ٢٧٠

الوجيز في علوم الحديث ونصوصه د.عجاج الخطيب

(١٦٦)

الإمام بشر الحافي

(١٥٠ . ٢٢٧ هـ)

الحمد لله الذي رفع منازل المخلصين ، وتحلّى بالرضوان على المطيعين والمحسنين ،
وشرح صدور أحبابه بنور اليقين ، وأذاقهم لذة قربه فشغلّتهم عن الخلق أجمعين .
أحمده حمد المنيين إليه ، وأشكره شكر المعتمدين عليه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قال في كلام موجز المبني واضح
المعنى : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا
الزكاة وذلك دين القيمة﴾

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين ، المبلغ كلّ ما أمر
بتبليغه من ربّ العالمين .

اللهم صلّ وسلم وبارك وعظم على جميع رسل الله المبشرين والمنذرين لئلا
يكون على الله حجةٌ بعد الرسل ولا سيما من ختم الله به الرسالة سيدّ العالمين عبده
ورسوله سيدنا محمداً الأمين وآله وأصحابه وعترته وأنصاره ومن تبعهم بإحسان إلى
يوم الدين ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

نحن اليوم مع إمام عالم رباني ، كان إماماً في الزهد ، إماماً في الورع والإخلاص ،
محدث ثقة جبل لا يروي إلا حديثاً صحيحاً ، كان من أولاد الرؤساء فصحب
الفضيل بن عياض وتتلّمذ على الإمام مالك وابن المبارك والقاضي أبي يوسف حتى
صار علماً من أعلام المسلمين .

إنه سيدنا أبو نصر بشر الحافي بن الحارث المروزي ثم البغدادي رضي الله عنه .

ومع الحلقة ستة وستين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام بشر الحافي: رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان تعالوا بنا نسلط الأشعة الكاشفة على حياة إمامنا ، لعل ذلك يكون منا دافعاً نحو العمل في الشريعة ، ونقارن بين حياة الرعيل الأول وبين أحوالنا مع الله تعالى.

ولد سيدنا بشر سنة (١٥٠) وسكن بغداد ، وكانت بغداد قبلة أهل المشرق ترفاً ورفاهية، فلحق بركب الشباب اللاهية، لكن مع مجونه ولهوه كان طيب القلب شهماً كريماً مع بقية من دين كانت عنده، رأى مرة في الطريق ورقة مكتوب عليها اسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام فأخذها واشترى بدرهم كان معه طيباً أو مسكاً وماء ورد ، فجعل يتتبع اسم الله تعالى ويطيّب به ثم جعلها في شق حائط.

وشاء الله تعالى أن يختاره من بين أقرانه ، فبعث إليه رجلاً يطرق بابه بعد ليلة صاحبة ففتحت له الجارية ، فسألها عن سيدها وقال لها: يا جارية سيدك حر أم عبد ؟ فقالت له: بل حر. فقال لها: صدقت، لو كان عبداً لذاق طعم العبودية لله تعالى.

وطرقت هذه الكلمات سمع بشر الحافي فنزل من أعلى المنزل حافياً ولحق الرجل في الطريق حتى التقاه وسمع منه وتاب على يديه ، فكان بعد ذلك لا يلبس نعليه ويقول لقد تاب الله علي وأنا حافي القدمين فلن ألبسهما.

ورأى فيما يرى النائم في ليلتها وكأن قائلاً يقول له: يا بشر طيب اسمي لأطيين اسمك ، وكما طهرته لأطهر قلبك.

إخوتي في الله: استيقظ سيدنا بشر بعد ذلك بغير الروح التي كان عليها، فقد استيقظ القلب بعد رقوده وعادت روح الإيمان تسري في حناياه ، فترك أصحاب المجون واللهو ، وصحب شيخ الصوفية في عصره سيدنا الفضيل بن عياض ،

فتحولت حياته من البذخ والسرف إلى الزهد والتقشف، وبدأ يجوع نفسه الأمانة بالسوء حتى تنصاع له وتنقاد لقلبه.

وارتحل في طلب العلم إلى مكة والكوفة والبصرة ، وسمع من أكابر علماء عصره حتى أصبح محدثاً ثقة مأموناً ، وشهد له علماء عصره فقالوا (إبراهيم الحربي) : ما أخرجت بغداد أتمّ عقلاً من بشر ولا أحفظ للسان، كأن في كل شعرة منه عقل، وطئ الناس عقبه خمسين سنة، ما عرف له غيبة المسلم، وما رؤي أفضل منه، لو قُسم عقله على أهل بغداد صاروا عقلاء.

سافر في المجاهدة والتصوف سيرة أسلافه في قتل النفس الأمانة في السوء، قام بتجويعها

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

اتَّبَعَ سياسة الجوع والصوم، وكان يجد حلاوة في العبادة وهو القائل (لا تجد حلاوة العبادة، حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا الجوع يصفِّي الفؤاد ، ويميت الهوى ويورث العلم الدقيق، طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعِد غيب لم يره).

معشر السادة: كان لإمامنا بشر في كل يوم رغيْف ، كلما وضعه بين يديه تأتبه هرة تنظر إليه فيأكل ويرمي لها، وهو القائل: ما شبع منذ خمسين سنة ، وإني لأشتهي شواء منذ أربعين سنة ما صفا لي ثمنه.

كان فقر الإمام اختيارياً، كان كل الناس يسألون الله تعالى الغنى وهو يسأل الله الفقر ، دخل مرة مصلاًه فصلى أربع ركعات أتمهنّ بالخشوع ، ثم دعا الله تعالى فقال: اللهم إنك تعلم أنّ الذلّ أحبُّ إليّ من العزّ ، وأن الفقر أحبُّ إليّ من الغنى، وأن الموت أحبُّ إليّ من البقاء.

كان زاهداً ويزهّد الناس في الدنيا ويحدّثهم من غرورها ، ويقول لهم : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه. واسمحوا لي أن أنقل وجهة نظره من شعره يقول:

قَطَعَ الليالي مع الأيام في خَلَقِ والنوم تحت رواق الهمّ والقلقِ
أحرى وأعذر لي من أن يقال غداً إني التمسست الغنى من كف مختلقِ
قالوا فنتعت بهذا قلت الفُئوع غنى ليس الغنى كثرة الأموال والورقِ
رضيت بالله في عسري وفي يسري فلست أسلك إلا أوضح الطرقِ.
هؤلاء هم الرجال الذين اشتروا الآخرة بالدنيا ، باعوا الدنيا لأجل الآخرة ،
بحسبك يا أخي المسلم أقواماً موتى تحيى القلوب بذكرهم ، وأقوام أحياء تعمى
الأبصار بالنظر إليهم.

أيها الأحبة والصحب :

إن إمامنا كان يَحذّر في حياته كلها من شيئين : الدنيا والرياء ، لأن الرياء يَجِبُط
العمل و هو الشرك الخفي الذي حذرنا منه رسول الله ﷺ ، كان يخشى من الشهرة
مخافة الرياء ويقول: لقد شهري ربي في الدنيا فليته لا يفضحني في القيامة ، ما أقبح
بمثلي يُظَنُّ في ظنٍّ وأنا على خلافه ، إنما ينبغي لي أن أكون أكثر مما يظن بي، إني
أكره الموت، وما يكره الموت إلا مريب، ولولا أي مريب لأي شيء أكره الموت ،
غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه وإخفاء مكانه عنهم. اللهم استر واجعل تحت السَّتر
ما تحب فربما سترت على ما تكره.

أيها الإخوة هذه المنهجية دعت الإمام بشراً أن يمتنع عن التحديث بالأحاديث
التي يحفظها خوف الرياء ، قيل له يوماً: ألا تحدّث؟ فقال: أنا أشتهي أن أهدّث،
وإذا أعجبك الكلام فأصمت وإذا أعجبك الصمت فتكلم، ثم التفت لمن حوله
وقال: بي داء ما لم أعالج نفسي لا أتفرغ لغيري فإذا عاجلت نفسي تفرغت لغيري،
ما أبصرني بموضع الداء وموضع الدواء إن أعاني منه بمعونة ثم قال: أنتم الداء، أرى
وجوه قوم لا يخافون ، متهاونين بأمور الآخرة.

هكذا كان الإمام شديد النصح لأصحابه وإخوانه ، لكنه يخاف أن يؤخذ بالرياء
عندما يتكلم وينصح ، رفع مرة دعواه إلى الله تعالى يشكو إليه حاله ويقول: اللهم

إنك تعلم أني أخاف أن أتكلّم، اللهم إنك تعلم أني أخاف أن أسكت، اللهم إنك تعلم أني أخاف أن تأخذني فيما بين السكوت والكلام.

فهو في كل حالاته خائف من الرياء، كان يحب أن يعمل في الخفاء لا يطلع عليه أحد من الخلق ، كان يقول: الصدقة أفضل من الحج والعمرة والجهاد ، فاستغرب أصحابه كلامه وسألوه: لم؟ فقال: الحاج والمعتمر والمجاهد كلّ منهم يركب ويرجع ويراه الناس، وأما المتصدّق فيعطي سرّاً لا يراه إلا الله عز وجل.

الدنيا والرياء كانا يقلقان الإمام أشدّ القلق ، ويخاف أن يعود إلى حالته الأولى التي كان عليها قبل التوبة ، ويرى أن الله قد أنعم عليه نعمة عظيمة بهدايته ، دخل على أخته في ليلة فوضع إحدى رجليه داخل الدار والأخرى خارج الدار ، وبقي زمناً طويلاً يتفكر فقالت له أخته: بماذا تفكر ؟ فقال: تفكرت في بشر النصراني وبشر اليهودي وبشر المجوسي ونفسي واسمي بشر ، فقلت: ما الذي سبق منك حتى خصك (الله بهدايته) ، ففكرت في تفضله علي وحمده علي أن جعلني من خاصته وألبسني لباس أحبائه(والله يا أختاه) لو علمت أن رضى الله أن أشدّ في رجلي حجراً ثم ألقي نفسي في البحر لفعلت.

ثم توجع الإمام من شدة جوعه فقالت له أخته: إئذن لي حتى أصنع قليلاً من الحساء مع كف دقيق تتحساه يرم جوفك ، فقال لها: ويحك أخاف أن يسألني ربي من أين لك الدقيق؟ فلا أدري أي شيء أقول له، فبكى وبكت أخته وبكى من معهما ، وبقيت تبكي عليه الليل والنهار وهو يتوجع حتى رآته يتنفس تنفساً ضعيفاً فقالت له: يا أخي ليت أُمّي لم تلدني، فقد والله تقطّع كبدي مما أرى بك فقال لها: وأنا يا ليت أُمك لم تلدني، وإذ قد ولدتنني لم يدرّ لها ثدي علي.

وماتت أخت بشر قبله، فلما وقف على قبرها وقد بلغ السبعين قال: إن العبد إذا قصر في طاعة ربه سلبه الله من يؤنسه.

أيها السادة: وصلت المكانة بسيدنا بشر أن استأذن عليه الخليفة المأمون أن يزوره فأبى فقال الخليفة المأمون: لم يبق في هذه الكره أحد يستحي منه غير بشر بن الحارث. ورأى رسول الله في منامه فقال له: يا بشر أتدري لم رفعك الله من بين أقرانك؟ قال: لا يا رسول الله . قال: باتباعك لسنتي وخدمتك للصالحين ونصيحتك لإخوانك ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي ، وهو الذي بلغك منازل الأبرار. **أيها الإخوة:** بلغ سيدنا بشر منازل الأبرار بعد أن مات ، ولم يتزوج ، مات وماله في عصره نظير كما قال الإمام أحمد ، مات سنة ٢٢٧ هـ .

وازدحم الناس على صلاة الجنازة صلي عليه بعد صلاة الصبح ، ولشدة الزحام لم يصلوا إلى المقبرة ليدفنوه إلا بعد صلاة العشاء .

وهكذا إخواني قضيت مع حضراتكم مع قمة أخرى من قمم الرجال ، قمة لم يصل إليها أحد إلا من رحم ربك ، فمن أراد أن يصل إلى تلك القمة فليبق معنا هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه ، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله

الصلاة والسلام عليك

• الرسالة القشيرية

شرح الرسالة القشيرية

الموسوعة الصوفية للخفي

صفة الصفوة

طبقات الصوفية للسلمي ٣٩

جامع كرامات الأولياء للنبهاني ٦٠٧ / ١

(١٦٧)

الإمام يحيى بن معين

١٥٨ هـ . ٢٣٣ هـ

الحمد لله البر الجواد، الذي جلت نعمه عن الإحصاء والأعداد، خالق اللطف والإرشاد، الهادي إلى سبيل الرشاد، المان بالاعتناء بسنة حبيبه وخليله عبده ورسوله ﷺ سيد العباد، المخصص لهذه الأمة بعلم الإسناد، الذي لم يشركها فيه أحد من الأمم على تكرر العصور والآباد ، الذي نصب لحفظ السنة الشريفة خواص من الحفاظ النقاد، وجعلهم ذابين عنها في جميع الأزمان والبلاد
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إقراراً بوحدانيته واعتراضاً بما يجب على الخلق كافة من الإذعان لربوبيته.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين ، صاحب الشفاعة العظمى ولواء الحمد ، والمقام المحمود سيد المرسلين ، المخصوص بالمعجزة الباهرة المستمرة على تكرر السنين ، التي تحدى بها أفصح القرون وأفحمت تغيير الملحدتين.
أرسله بجوامع الكلم وسماحة شريعته ووضع إصر المتقدمين ، المكرم بتفضيل أمته على الأمم السابقين . سيدي أبا القاسم يا رسول الله:

يا خير مبعوث وأشرف مرسل وشفيع قوم أذنبوا وأساءوا

أنوارك العظمى إذا ما أشرقت يوم القيامة فالورى سعداء

صلى عليك الله يا خير الورى

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله والصحابة والتابعين ،
وسائر عباد الله الصالحين ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

لم تعرف الإنسانية في حياتها توثيقاً لكلام أحد مثلما عرفته لسيدنا محمد رسول الله ﷺ ، ليس لأمة من الأمم علم كعلم الحديث النبوي الشريف، اجثوا عن أي أمة استطاعت أن تتبّع كل كلمة قالها نبيها أو زعيمها، ويتبين مسراها خلال العصور ، من سمعها؟ ومن نقلها عنه، وما هو الطريق الذي مشت فيه من شخص إلى شخص، لا في يوم أو يومين، بل في القرون الطوال، مع تمحيص وجرح وتعديل وبحث في أحوال الرجال .

أستطيع أن أقول . أيها السادة . إن علم الحديث من حيث السند (وهو طريق الرواية) قد بلغ في الكمال ما لا زيادة عليه لمستزيد، والفضل في ذلك للمحدثين. المحدثون أو أهل الحديث أكثر الناس صواباً، وأندرههم خطأ، وأشدّهم إنصافاً، وأبعدهم عن التحامل، فإذا اتفقوا على تعديل أو جرح لراوٍ فتمسك به، واعضض عليه بناجذيك ولا تتجاوزته فتندم، ومن شدّ منهم فلا عبرة به، وإذا أردت يا أخي المسلم أن تستريح من عناء تمحيص السند فأعط القوس باريها وخذ عن الحفاظ الثقات، والله . يا سادة . لولا الحفاظ الأكابر لخطبت الزنادقة على المنابر.

إننا اليوم مع ثبت وثقة من هؤلاء الأثبات، مع إمام حافظ جهبذ، سمع من الأئمة الكبار.

أنتم اليوم في زيارة سيد كريم كان المحدثون إذا أرادوا أن يحدثوا بحديثه يقول الواحد منهم : حدثني من لم تطلع الشمس على أكبر منه. وما أن يروه يدخل عليهم مجلس حديث حتى يرتعدوا هيبة له .

هو أسنّ الجماعة الكبار في الحديث الشريف ، ذلك أنّ ربانيي الحديث الأربعة (أي الذي انتهى إليهم الحديث أربعة) فأعلمهم بالحلال والحرام سيدنا الإمام أحمد

، وأحسنهم سياقة للحديث وأداءً سيدنا علي بن المديني، وأحسنهم وضعاً لكتاب سيدنا أبو بكر بن أبي شيبة، وأعلمهم بصحيح الحديث وسقيمه إمامنا اليوم ، حتى قال فيه الإمام أحمد بن حنبل: كل حديث لا يعرفه هذا الإمام فليس هو بحديث، لأن الله تعالى أوجده في هذا القرن ليظهر كذب الكذابين .

فكانوا كلّهم يتأدّبون معه، ويعترفون له وهو يجلس بينهم متجملًا في لباسه معظّمًا حديث رسول الله ﷺ .

فنحن اليوم مع شيخ المحدثين سيدنا يحيى بن معين ومع الحلقة سبعة وستين بعد المئة من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربّوا عن الإمام يحيى بن معين:

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد إمامنا سنة (ثمان وخمسين و مئة هـ) وكان والده على خراج منطقة الري، فمات وخلف ليحيى ابنه ألف ألف درهم (مليون درهم) فأنفقه كله على طلب الحديث ، حتى لم يبقَ له نعل يلبسه، أنفق ذلك كله حتى وصل إلى قرية من قرى مصر، تصوّرُوا رجلاً أصله من منطقة الأنبار (على بعد ستين كم من بغداد) ونشأ في بغداد ينفق مليون درهم على طلب الحديث ، وتدوينه على علماء عصره أمثال سيدنا عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة، ووكيعة بن الجراح، وعبد الرحمن بن مهدي، وخلق كثير بالعراق والحجاز والجزيرة والشام حتى وصل إلى مصر، لم يترك أحداً ممن يشار إليه بالبنان إلا وأخذ عنه أو عن أحد تلامذته الثقات ، حتى انتهى إلى مصر بعد أن انتهى إليه علم الناس وجمعه في صدره وأنفق المليون درهم، وهو ينتقل من بلد إلى بلد، لا بالطائرة، ولا بالسيارة، بل على بغلته يقطع الصحارى والقفار من الأنبار في العراق إلى مصر وبات هو وأصحابه طاوين، باتوا

وبطونهم خاوية وقلوبهم مطمئنة بصدق وعد الله ورسوله، أن الله قد تكفل برزق طالب العلم .

اسمعوا يا شباب وأنتم تطلبون العلم، لا تخافوا من الفاقة، بل احضروا الدروس ولو كانت أيديكم خاوية وتأكدوا أنكم ستخرجون منها وقد ملأها الله تعالى بكرمه وجوده والدليل سيدنا يحيى بن معين ، بات مع رفاقه جوعاً في رحلة طلب الحديث، أتعرفون ماذا وجدوا عندما استيقظوا لصلاة الصبح؟ وجدوا وعاءً كبيراً مليئاً بسمك مشوي وليس عنده أحد فصاروا يقولون: من أين جاء هذا السمك ؟ فقال لهم الإمام : اقتسموه وكلوه فإني أظنّ أنه رزق رزقكم الله تعالى .

هذا هو صدق التوكل على الله ، وصدق الله العظيم ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ كافيهِ ومعطيه .

كانت تلك الطبقة حريصة أشد الحرص على أن تأكل من الحلال وتلبس من الحلال لذلك رفع الله ذكرها في الأرض

المال يذهب حلّـه وحرامه	طراً وتبقى في غد آثامه
ليس التقى بمتقٍ لإلهه	حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما تحوي وتكسب كفه	ويكون في حسن الحديث كلامه
نطق النبي لنا به عن ربه	فعلى النبي صلاته وسلامه

إخوتي في الله :

رغم أن سيدنا يحيى بن معين بدأ بكتابة العلم وهو ابن عشرين سنة لكنه حصل على احترام الأئمة جميعاً، وأصبح مصدر فخر للإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي بأنهم من تلامذته ، فرووا حديثه في كتبهم الستة، أتعرفون كم جمع أو كتب بيده من الأحاديث ؟

كتب بيده ألف ألف حديث (مليون) ، وجمع أكثر من مئة حمل حتى دعاه لأن يقول: كل حديث لا يوجد ههنا (وأشار بيده إلى الكتب) فهو كذب .

لقد أصبح ابن معين ناقداً من الدرجة الأولى، فبمجرد أن يُذكر أمامه السند أو متن الحديث يعرف هل هو صحيح أم لا ؟ بل صرح مرة فقال عن سبب هذه الأريحية في معرفة الحديث فقال: لو لم نكتب الحديث (الواحد) خمسين مرة ما عرفناه .

وإليك هذا التصريح الخطير الذي يصّرح به إمام عظيم من أئمة الحديث هو سيدنا علي بن المديني يقول : كنت إذا قدمت بغداد منذ أربعين سنة كان الذي يذاكرني أحمد بن حنبل، فرمّا اختلفنا في الشيء فنسأل أبا زكريا (يحيى بن معين) فيقوم فيخرجه، ما كان أعرفه بموضع حديثه، ما رأيت في الناس مثله (فكان أعلم بالإنسان من غيره، ما قدر أحد أن يقلب عليه إسناداً قط (عمرو الناقد)

وكان من لطفه ودماثة أخلاقه أنه إذا أخطأ أحد أمامه في الإسناد أو في المتن قدم إليه وأسرّ إليه بالخطأ ليصححه دون أن يعنفه، شعاره في ذلك : من نصح أخاه في السر فقد زانه، ومن نصحه في العلانية فقد شانه، هذا اللطف والأخلاق العالية كان معها اعتقاد في المخطئين أنهم من الصالحين، لذا كان يقول: إننا لنطعن على أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة من أكثر من مئتي سنة.

شاع قدر الإمام وحنكته في معرفة الحديث النبوي بين الناس كافة حتى صار عنوان صحيفة المؤمن حب سيدنا يحيى بن معين، يقول أبو حاتم الرازي : إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة ، وإذا رأيت الرجل يبغض يحيى بن معين فاعلم أنه كذاب (لأنه إنما يبغضه لما يبين من أمر الكذابين) .

كل هذا مع علم وفقه في معاني الحديث، ولأدلل لكم على هذه القضية أذكر لكم مثلاً واحداً لعلها تعيها أذن واعية .

كان أحد المحدثين يحدث في مجلسه فيقول : (لما قدم سيدنا معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ) (أحمد ٣٨١/٤ - ج١٨٥٣) فقال سيدنا النبي ﷺ ما هذا يا معاذ ؟ قال أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك. فقال رسول الله ﷺ لا تفعلوا، فإني لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها، ولو سأها نفسها وهي على قتب لم تمنعه (حسن حب ١٢٩٠).

والتفت المحدث فرأى ابن معين يدخل فتوجه إليه بالسؤال وقال : كيف يا إمام يفهم هذا الحديث (ولو سأها نفسها وهي على قتب لم تمنعه) ، (والقتب ما يوضع على ظهر البعير كالسرج بالنسبة للفرس) فقال الإمام على البديهة : كانت المرأة في الجاهلية إذا أرادت أن تلد تقعد على قتب ليكون أسرع لولادتها. هكذا بكل ثقة أجاب ، وكأنه يشهد الواقعة في ذلك الوقت.

بقيت تلك المنهجية في حياة إمامنا حتى بلغ الخامسة والسبعين، ومرت الدنيا أمامه كأنها الحلم، خمس وسبعون سنة بلغها الإمام مرت بأحداثها كأنها كانت بالأمس، وكان ينتقل حاجاً بين بغداد ومكة والمدينة، فإذا غادر إلى مكة عاد إلى المدينة لشوقه إلى النبي الأعظم ﷺ ، حتى كانت السنة الأخيرة التي دخل بها في السادسة والسبعين ، قدم المدينة من بغداد حتى إذا عزم على الرحيل وتوجه تلقاء مكة لحج بيت الله الحرام، ونام تلك الليلة مع رفاقه فرأى في النوم هاتفاً يهتف به:

يا أبا زكريا أترغب عن جواربي، فقام من نومه وقال لرفقائه امضوا فيني راجع إلى المدينة، فمضوا ورجع، فما أن أقام بها ثلاثاً حتى مات ليلة الجمعة.

فلما أصبح الناس تسامعوا بموته ، فاجتمع الناس والعلماء وجاءت بنو هاشم فقالوا : نخرج له سرير رسول الله الذي غسل عليه، فكره العامة ذلك وكثر الكلام، فقالت بنو هاشم : نحن أولى بالنبي ﷺ وهو أهل أن يغسل عليه، فغسل، وصلى عليه الناس مع والي المدينة ، وحمل على الأعناق وكان كلما مرّ بجي صلوا عليه، ونودي بين يدي الجنازة:

هذا الذي ينفي الكذب عن رسول الله

ودفن في البقيع يوم الجمعة سنة ٢٣٣ هـ.

وما أن حط رحاله في روضته حتى رُوي في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال: أعطاني وحباني وزوجني ثلاثمة حوراء.

وهكذا . **معشر السادة** . مضى إلى الله تعالى أحد سادات الأمة، وباهى الله به الملائكة ، ولا شك أنه استقبله هناك سيدنا رسول الله ﷺ ، بالترحاب، فمن أراد أن يستقبله النبي هناك فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ ، الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية للحبيب ، وتحيتنا إليك* .

يا سيدي يا رسول الله : الصلاة والسلام عليك



* سير أعلام النبلاء للذهبي ٧١/١١ . تاريخ بغداد ١٧٢/١٢ . طبقات الحنابلة ٣٦١/١ .
وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٩/٦ . تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ٢٨٠/١١ .
شذرات الذهب لابن العماد ٧٩/٢

(١٦٨)

الإمام حاتم الأصم

(ت ٢٣٧ هـ)

الحمد لله المتفرد باسمه الأسمى المختص بالعزّ الأحمى، الذي ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى.

الظاهر لا تخيلاً ولا وهماً، الباطن تقدساً لا عدماً، وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأسبغ على أوليائه حكماً ونعماً جما.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بعث في الناس رسولاً من أنفسهم وأنفسهم عرباً وعجماً، وأزكاهم محمداً وكرماً.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أرجح الناس عقلاً وحلماً، وأوفرهم علماً وفهماً، وأقواهم يقيناً وعزماً، وأشدّهم رافة ورّحماً، وزكاه مولانا روحاً وجسماً، وحاشاه عيباً ووصماً، وآتاه حكمة وحكماً، وآتاه أتباعاً وحكماء، فتح الله بهم أعيناً عمياً وقلوباً غُلُفاً وأذاناً صمّاً، آمنوا به وعزّروه ونصروه فجعل الله لهم في مغنم السعادة قسماً، وأما من كدّب به وصدّف عن آياته فقد كتب الله عليه الشقاء حتماً، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى.

أضحى على المولى الكريم كريماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعترته وأنصاره صلاة تنمو وتنما، وسلّم تسليماً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

عظمة الأمة الإسلامية أنها خرّجت أبطالاً من مدرسة سيدنا محمد ﷺ، وهذا فضل الله تعالى على هذه الأمة، إذ أنه أعطاها ما أعطى الأنبياء السابقين، ومما أعطى الله الأنبياء السابقين سيدنا لقمان الحكيم الذي نقرأ عنه في القرآن، وسمى

الله سورة كاملة باسمه (لقمان) فقد كان تلميذاً لألف نبي. كنت خلال أسابيع مضت أنظر إذا كان الله تعالى أعطى نبينا كل المعجزات التي أعطاها الله للأنبياء قبله ، فمن هو لقمان الحكيم الذي أكرم الله به هذه الأمة المحمدية؟ بقيت أبحث بين أبطال الرجال أسابيع عن هذه الشخصية الحكيمة حتى جئتمكم بها تزوركم أو تزور أخبارها بينكم.

شخصية نبع كلامها من بحار الأنبياء، أستطيع أن أقول أن إمامنا اليوم رائعة القراء والمحدثين، قدرة ربانية لا تنطق إلا بالحكمة، ولولا أننا علمنا أنه من علماء القرن الثاني الهجري لقلت : إن كلامه كلام نبي يوحى إليه، نحن اليوم مع شخصية إذا سمعتها حسبتها أن ملكاً يلقتها ما تقول. نحن مع رجل إن جلست إليه وتكلم معك قلت: إن روحه تحول في ملكوت الله لتعود إليك بطرائف الحكمة.

تلكم هي شخصية لقمان هذه الأمة، سيدنا أبي عبد الرحمن حاتم الأصم بن عنوان البلخي من خراسان، ومع الحلقة ثمانية وستين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام حاتم الأصم :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان:

سمي إمامنا بالأصم لأنه أصم أذنيه عن شيء ينبغي للعبد أن يتصامم عنه ، فقد أتته امرأة تسأله عن مسألة فخرج منها صوت ريح فخرجت نفسها فقال لها الإمام: ارفعي صوتك، وأراها من نفسه أنه أصم ، فدخل السرور قلب المرأة، قالوا: فلقلب بالأصم لعظيم أدبه وحسن تصرفه، فلم تكن السنين الثلاثين التي صحب فيها شيخه سيدنا شقيق بن إبراهيم البلخي سيد أهل زمانه وشيخ شيوخ خراسان، وسيدنا شقيق هذا صحب الطبقة الأولى وكان تلميذاً لسيدنا إبراهيم بن أدهم، إذاً نحن مع سلسلة الذهب في التصوّف (عدّوا على أصابعكم):

١. سيدنا حاتم الأصم تلميذ سيدنا شقيق أول من تكلم بعلم الحقائق والأحوال.

٢. وشيخه سيدنا إبراهيم بن أدهم.

٣. وشيخ إبراهيم بن أدهم سيدنا سعيد بن جبير.

٤. وشيخ سيدنا سعيد سيدنا ابن عباس.

٥. وسيدهم جميعاً سيدنا محمد ﷺ.

فلم تر عيناك - يا أخي المسلم - ولن تسمع بمثل هذا الإمام ، فلا عجب أن يكون حكيم الأمة لأنه ورث الحكمة كابراً عن كابر ، وسيداً عن سيد ، وحكيماً عن حكيم.

فأريدكم اليوم أن تفتحوا أعينكم وتصغوا بأسماع قلوبهم إلى الكرامة العظيمة التي آتاها هذا الإمام (رضي الله عنه)، اليوم كل واحد مطالب أن يعود إلى البيت ويدون جواب سؤال أسأله لكم، أنت تحضرون خطبة الجمعة هنا منذ اثنتي عشرة سنة، ماذا استفدتم من هذا الحضور؟ سألتكم هذا السؤال كما سأل سيدنا شقيق البلخي تلميذه سيدنا حاتماً، قال له: يا حاتم صحبتني ثلاثين سنة فأني شيء تعلّمت مني؟ فقال سيدنا حاتم: تعلّمت ست كلمات (احفظوا هذه الوصايا الستة) :

١- رأيت الناس في شك من أمر الرزق فتوكلت على الله.

٢- ورأيت لكل رجل صديقاً يفشي إليه سرّه ويشكو إليه فصادقت الخير ليكون معي في الحساب ويجوز معي الصراط.

٣- ورأيت كلّ واحد له عدو، فمن اغتابني فليس بعدوي ، ومن أخذ مني شيئاً ليس بعدوّ، بل عدوي من إذا كنت في طاعة أمرني بمعصية الله ، وذلك إبليس وجنوده فاتخذتهم عدواً وحاربتهم.

٤- ورأيت الناس كلهم لهم طالب وهو ملك الموت، ففرغتُ له نفسي.

٥- ونظرت في الخلق فأحببت ذا وأبغضت ذا، فالذي أحببته لم يعطني، والذي أبغضته لم يأخذ مني شيئاً، فقلت: من أين أُتيت؟ فإذا هو من الحسد فطرحته وأحببت الكل، فكل شيء لم أرضه لنفسي لم أرضه لهم.

٦- ورأيت الناس كلهم لهم بيت ومأوى، ورأيت مأواي القبر، فكل شيء قدرت عليه من الخير قدّمته لنفسي لأعمر قبري.

وهنا قال سيدنا شقيق: عرفت فالزم (عليك بهذه الخصال).

إخوتي في الله: هذه منهجية الإمام حاتم التي انتهجها في حياته كلها، وإنكم ستعجبون أشد العجب حينما تعلمون مدى التوفيق الذي آتاه الله هذا الإمام، ويشهد بذلك سيدنا الإمام أحمد بن حنبل الذي قدم إلى الإمام حاتم ليسأله مسألة، ولحضور هذا الاجتماع الهام أرى لزاماً علينا أن أتقل بكم إلى هناك، إلى العراق فرّج الله عنها.

ها هو الإمام أحمد يوجّه سؤاله إليه فاسمعوه:

قال: كيف التخلّص من الناس؟

فقال الإمام حاتم: أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم، وتقضي حقوقهم ولا تستقصي أحداً حقاً، وتحتمل مكروهمهم، وتكرههم على شيء، وليتك تسلم.

ويبدو أن شخصاً كان يعاني من قلة الخشوع في الصلاة، فاغتنمها فرصة وسأل

الإمام فقال: يا سيدي كيف تصلّي؟

فقال سيدنا حاتم: أقوم بالأمر وأمشي بالسكينة، وأدخل بالنية، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل، وأركع بالخشوع وأسجد بالتواضع، وأسلم بالسنة، وأسلمها بإخلاص إلى الله عزّ وجلّ، وأخاف (بعد كل هذه الاحتياطات للخشوع) أخاف

ألا تقبل مني. فمن منا يصلّي مثل سيدنا حاتم؟!

أيها الأجابة والصحب: لا شك أنكم أصبحتم متشوقين لحضور مجلس سيدنا حاتم الحكيم لتلقي درر الفوائد، ينظمها لنا تقوى هذا الإمام وحاله مع الله تعالى وبقينه به، ها نحن ندخل على الإمام في مجلسه رضى الله عنه، يقول لأصحابه:

- من أصبح وهو مستقيم في أربعة أشياء فهو يتقلب في رضى الله، أولها: الثقة بالله، ثم التوكل ثم الإخلاص، ثم المعرفة، والأشياء كلها تتم بالمعرفة.

- وأصل الطاعة ثلاثة أشياء: الخوف والرجاء والحب.

- وأصل المعصية ثلاثة أشياء: الكبر والحرص والحسد.

- عجبت لمن يعمل بالطاعات ويقول إني أعملها ابتغاء مرضاة الله ثم تراه أبداً ساخطاً على الله راداً لحكمه، أتريد أن ترضيه ولست براصٍ عنه، كيف يرضى عنك وأنت لم ترض عنه.

- أربعة يندمون: أربعة يندمون على أربعة: المقصّر إذا فاته العمل، والمنقطع عن أصدقائه إذا نابته نائبة، والممكن منه عدوه بسوء رأيه، والجريء على الذنوب.

(فكن مجتهداً مجاهداً)، والجهاد ثلاثة: جهاد في سرك مع الشيطان حتى تكسره، وجهاد في العلانية في أداء الفرائض حتى تؤدّيها كما أمر الله، وجهاد مع أعداء الله في غزو الإسلام.

الزّم خدمة مولاك تأتلك الدنيا راغمة والجنة عاشقة، من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب:

- ١- من ادعى حب الله من غير ورع عن محارمه فهو كذاب.
 - ٢- من ادعى حبّ الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب.
 - ٣- من ادعى حبّ النبي ﷺ من غير محبة الفقر فهو كذاب.
 - ٤- إذا كنت تريد أن تعصي مولاك فاعصه في موضع لا يراك.
- هذا غيض من فيض من الحكمة التي آتاها الله لهذا الإمام، وقبل وفاته سنة ٢٣٧ هـ وقف موقفاً عظيماً أسرني، موقفاً أثبت فيه لنا الإمام أنه ذو يقين بالله

ثابت، أستميحكم أن أعرضه على حضراتكم في ختام زيارتنا للإمام، فقد دعا داعي الجهاد فخرج الإمام مع أصحابه لمقاتلة أعداء الله، أترك سيدنا حاتم يروي لنا المشهد (فترضوا عنه) يقول: لقينا الترك وكان بيننا جولة، فرماني تركي بوهق فقلبني عن فرسي ، ونزل عن دابته فقعده على صدري وأخذ بلحيتي هذه الوافرة ، وأخرج من خفه سكيناً ليدبحني، فوحق سيدي ربي ما كان قلبي عند التركي ولا عن سكينه، إنما كان قلبي عند سيدي ربي ، فقلت: يا رب قضيت علي أن يذبحني هذا فعلى الرأس والعين .

إنما أنا لك وملكك. فبينما أنا أخاطب سيدي والتركي قاعد على صدري آخذاً بلحيتي إذ رماه بعض المسلمين بسهم فما أخطأ حلقه، فسقط عني فقامت إليه فأخذت السكين من يده فذبحته، فما هي إلا أن تكون قلوبكم عند السيد حتى تروا من عجائب لطفه ما لا تروه من الآباء والأمهات.

هذه هي النصيحة الأخيرة للإمام حاتم الأصم .

لتكن قلوبنا عند السيد حتى نرى من عجائب لطف الله ما لا نراه من أحد،

كن مع الله ترى الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

هنا مدرسة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك^(١)

صلى الله
عليه
وسلم

١ المصادر: حلية الأولياء ٧٣/٨ - ٨٣

الرسالة القشيرية ٢٠

سير أعلام النبلاء ٤٨٤/١١

صفة الصفوة ٢/٣٩٠

طبقات الصوفية للسلمي ٩١

(١٦٩)

الإمام ذو النون المصري

(ت ٢٤٥ هـ)

الحمد لله الذي انشق أهل صفوته من طيب محبته نسيمًا، ونادمهم في الأسحار
بلذيد الأذكار فأصبح لهم نديمًا، وسقاهم من الكؤوس المصفاة في خلوة المناجاة
شراباً صرفاً قديماً، وتجلّى لهم فهاموا وجداً به فهداهم صراطاً مستقيماً.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كان بالمؤمنين رحيمًا، تحيتهم يوم
يلقونه سلامًا، وأعد لهم أجراً كريماً.

إلهي أنا أسير قدرتك فاجعلي طليق رحمتك، لئن مددت يدي إليك داعياً لطالما
كفيتني ساهياً، أقطع منك رجائي بما عملت يداي ، حسبي من سؤالي علمك
بحالي.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله نبي شرف الله به زمزم وحطيمًا ، وسمّاه
مولانا باسمين من أسمائه رؤوفاً رحيمًا، فكم جبر كسيراً ، وأغنى فقيراً ، ورحم يتيمًا ،
من صلى عليه نال رفعة وتقديماً وعزّاً وتكريماً.

وافى له الروح الأمين مبشراً نادى به يا خير من وطئ الثرى

أجب المهيمن يا محمد كي ترى ملكاً كبيراً في السماء عظيماً

صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ما أطلع الرحمن في

ليلة بدرًا وسلم تسليماً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام : نحن ننزل اليوم ضيوفاً على مصر فرّج الله
عنها وبالذات في جنوبها، في بلاد واسعة عريضة تدعى النوبة، وعلى شاطئ النيل

بالصعيد نلتقي بعالمها وفصيحتها وحكيمها ووليها، كان عالم علماء أهل الحقيقة فيها، والمرجع إليها والمقبول على جميع الألسنة. زهد في الدنيا، وطاف الأرض شرقاً وغرباً ، فدخل بغداد ونزل سرّاً من رأى، وقدم الشام وجبل لبنان، ودخل مدينتنا دمشق فمرحباً به وأهلاً.

معشر الإخوة: .

أرحب باسمكم جميعاً بسيد الزهاد وأمير الصوفية سيدنا **ذي النون المصري** بن إبراهيم. ليس هو بالنبي سيدنا يونس الملقب بذي النون (أي صاحب الحوت) ولكنه سيد من سادات الأمة عُرف بحبه لله ورسوله فقولوا أهلاً وسهلاً به. ومع الحلقة تسعة وستين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام ذي النون المصري.

رضي الله عنه وأرضانا معه

إخوتي في الله:

كان ذو النون المصري ويلقب بأبي الفيض في مطلع شبابه من أرباب السوابق ثم تاب الله عليه، والصلحة بلمحة - كما يقولون - وكم من تائب نقله الله تعالى من الخمارة إلى الإمارة، نقله من ديوان العاصين إلى ديوان الطائعين، إذا صدقت توبة العبد نقله مولانا من ذل المعصية إلى عز الطاعة، وقد سئل ذو النون عن سبب توبته فقليل له: يا أبا الفيض ما سبب توبتك؟ فقال: عجب لا تطيقه، فقليل له: سألتك بمعبودك إلا أخبرني، فقال ذو النون: خرجت من مصر إلى بعض القرى، فلما كنت في صحراء نمت ففتحت عيني، وإذا بطير يُقال له القبرّه أعمى معلق بمكان فسقط على الأرض فانشقت الأرض فخرج منها إناءان صغيران إحداهما ذهب والآخر فضة، في إحداهما سمس وفي الآخر ماء فجعل يأكل من هذا ويشرب

من هذا. فقلت: حسبي قد تبت إلى ربي، ولزمت الباب إلى أن قبلني. (اللهم اقبلنا في ديوان الطائعين).

أيها السادة :

كان إكرام الله لسيدنا ذي النون كبيراً إذ أعطاه الله علماً واسعاً وقلباً خاشعاً وحكمة بليغة «ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو شاء أن يتخذ له لعله» العلم الذي أعطي لذي النون كان علماً وهيباً أكثر منه مكتسباً، حتى أصبح ينطق به كما ينطق به علماءه، سئل مرة عن التوحيد ما هو؟ فقال: أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء بلا فراج، وصنعتة للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه، وليس في السموات العلى ولا في الأرضين السفلى مدبر غير الله، وكل ما تصوّر في وهمك فالله بخلاف ذلك.

قيل له: بما عرفت ربك؟ فقال: عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي.

من عرف الله رضي بالله وسرّ بما قضى الله.

وكان العلماء بالله يُسألون كيف أتى الله تعالى مثل هذا العلم لسيدنا ذي النون؟ فكانوا يقولون السبب كان استغراقه في ذكر الله تعالى على الحقيقة، وكثرة استغفاره، لذلك كانوا يقولون دائماً: (من ذكر الله ذكراً على الحقيقة، نسي في جنب ذكره كل شيء وحفظ الله عليه كل شيء وكان له عوضاً عن كل شيء) .

ذكر واستغفار على الحقيقة، وليس تكراراً بدون خشوع، إن إمامنا صاحب حال مع الله تعالى عظيم، سئل عن الاستغفار من الذنوب فقال:

إن لله عبداً تركوا الذنوب استحياء من كرمه بعد أن تركوه خوفاً من عقوبته، ولو قال الله لك: اعمل ما شئت فلست آخذك بذنب، كان ينبغي أن يزيدك كرمه استحياء منه، وتركاً لمعصيته، إن كنت حرّاً كريماً عبداً شكوراً، فكيف وقد حذرك. فقيل نسألك عن التوبة لا عن هذا؟ فقال: توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص

من الغفلة. من واصل الذنوب نَحْي عن باب المحبوب. قيل: فكيف يتوب العبد ويستغفر؟ فقال: الاستغفار اسم جامع لمعانٍ كثيرة: أولهنّ: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك الرجوع إلى الذنوب، والثالث: أداء كل فرض ضيعه فيما بينه وبين الله عزّ وجلّ، والرابع: أداء المظالم إلى المخلوقين في أموالهم وأعراضهم أو مصالحتهم عليها.

الخامس: إذابة كل لحم ودم نبت من الحرام.

السادس: إذاقة البدن ألم الطاعات كما ذاق حلاوة المعصية.

هذا هو العلم، وهؤلاء هم العلماء، الذكر باب الله الأعظم والاستغفار بابه الثاني، وهذان البابان يوصلان العبد إلى محبة الله تعالى، وقد كان لإمامنا رأي عظيم في محبة الله تعالى، أريد أن أعرضه على حضراتكم لنزن محبتنا لله بميزان دقيق ليس له مثل، هل نحن نحب الله تعالى حقاً؟ تعالوا بنا لنر كيف هو حب الله تعالى، والأنس به، (بعد أن توحدوا الله).

المحبة: أن تحب ما أحب الله وتبغض ما أبغض الله وتفعل الخير كله، وترفض كل ما يشغل عن الله، وألا تخاف في الله لومة لائم مع العطف للمؤمنين والغلظة على الكافرين واتباع رسول الله في الدين. لأن من علامات المحب لله متابعة حبيب الله في أخلاقه وأفعاله وأمره وسننه.

زدنا يا إمامنا محبة الله تعالى، علّمنا ما علامة المحب لله؟ من علامة المحب لله ترك كل ما يشغله عن الله حتى يكون الشغل بالله وحده. من علامة المحبين لله ألا يأنسوا بسواه ولا يستوحشوا معه، إذا سكن حب الله القلب أنس بالله لأن الله أجلّ في قلوب العارفين من أن يحبّوا سواه.

هذا كلام العاشقين أهل الله أهل وداده ومحبته هؤلاء هم الناس، هؤلاء هم

العلماء بالله لهذا كنت تسمعه يقول: الناس كلهم موتى إلا العلماء والعلماء كلهم نيام إلا العاملون، والعاملون كلهم مغترّون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْصَادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ﴾.

إخوة الإيمان:

ظنّ بعض الجهلة من أهل عصره أن توبة الإمام كاذبة، وأن كلامه لا معنى له فأرسل رسالة وشاية إلى الخليفة المتوكل في بغداد يدعوه للقضاء على ذي النون واتهمه بالزندقة، فأمر والي مصر بسجنه والتحقيق بشأنه ثم إرساله موجوداً إلى بغداد، فقبض على ذي النون ووضعت الأغلال في يديه ورجليه وسيق إلى السجن والناس حوله يبكون وهو يقول:

لك من قلبي المكان المصون وكل لوم عليّ فيك يهون
لك غرم لأن أكون قتيلاً فيك والصبر عنك ما لا يكون

وحمل سيدنا ذي النون على سفينة الصحراء مع البريد إلى أن وقف بباب الخليفة المتوكل وقد أمر بقتله.

معشر الإخوة الكرام:

أرى لزماً عليّ الآن أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك، إلى بغداد فَرَجَ الله عنها، إلى الخليفة المتوكل، وأرى السيّاف قائماً وبيده السيف، كما أرى الشرّ في وجوه القوم حول الخليفة، وأدخل سيدنا ذو النون على الخليفة ورأى حالة القوم فالتجأ إلى الله، ونادى من لا يخيب أحداً فقال وهو يُجر بسلاسل الأغلال:

يا من ليس في السموات قطرات، ولا في البحار قطرات، ولا في الرياح دَجَات، ولا في الأرض خبيئات، ولا في قلوب الخلائق خطرات، ولا في أعضاءهم حركات، ولا في عيونهم لحظات إلا وهي ساهرات، وعليك والهات، وبربوبيتك معترفات، وفي

قدرتك متحيرات، فبالقدرة التي تحرّ بها من في الأرضين ومن في السموات إلا صليت على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وأخذت قلبه عني.

يقول الراوي يا سادة يا كرام: ما إن أتمّ ذو النون دُعاءه حتى قام المتوكل بخطو واعتنق ذا النون وقال: أتعبناك يا أبا الفيض، إن تشأ أن تقيم عندنا فأقم وإن تشأ أن تنصرف فانصرف.

قال: فآثر الانصراف إلى الله تعالى. لأن الأنس بالله نور ساطع، والأنس بالخلق غمّ واقع.

آثر الإمام جوار الله تعالى على جوار الخلق، تعب من حياته وشقائها، فطلب جوار الله تعالى، ودخلوا عليه وهو يحتضر فقالوا له: أوصنا؟ فقال: لا تشغلوني فإني متعجب من محاسن لطف الله.

وانتقلت روحه إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر سنة خمس وأربعين ومئتين، وازدحم الناس على جنازته فلم يستطيعوا أن يجتازوا بها بين الناس، فحملوه في مركب ونقلوه إلى المقابر، وجاء الذين وشوا به إلى الخليفة واتهموه بالزندقة جاؤوا يستغفرون الله تعالى من فعلتهم، أتدرون لماذا جاؤوا وشهدوا جنازته! لأنهم رأوا الطيور تسير فوق جنازته تظلل الموكب المهيب بإذن واحد أحد.

وهكذا - معشر الإخوة - شهدت مع حضراتكم علماً من أعلام الأمة ، من أهل الله ، أهل محبته ووداده، فمن أراد أن يلتقي به هناك فليلتق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك .

• الرسالة القشيرية ٨ . شرح الرسالة القشيرية للأنصاري ١/٧٣ . الموسوعة الصوفية للحفني .
صفة الصفوة ٣/٥١٠ . البداية والنهاية ١٠/٣٤٧ . تاريخ بغداد ٨/٣٩٣ . حلية الأولياء
٣٣١/٩ . ٣/١٠ . طبقات الشعراني ١/٨١ . النجوم الزاهرة ٢/٣٢٠ . وفيات الأعيان
٣١٥/١ . طبقات الصوفية للسلمي ١٥

(١٧٠)

الإمام البخاري

(١٩٤ هـ . ٢٥٦ هـ)

الحمد لله الذي رفع لأهل الدين منارا ، وأفاض على العالمين من جامع أسرارهِ أنوارا .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رفع الرايات الأبدية لظهور الدولة المحمدية، فأطلع من أفلاك الجمال من بروج الكمال شمساً وقمراً منيراً. وأخرج من خلال أشجار الفتوة نبيا لم يجعل له في العالمين نظيرا .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الباذخ، الواضح الأدلة الشامخ، الناسخ بهدية الراسخ كل شريعة ماضيه في العصور الخالية. نبي حوى شرفاً وفضلاً كثيراً، وأخذ الله له العهود على سائر مخلوقات الوجود تعظيماً له وتوقيراً، وأشرق بمحاسن أوصافه تورا وإنجيلا وفرقاناً وزبوراً، وناداه العلي الأعلى ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾

بشراً على الإطلاق

لم يخلق الرحمن مثل محمد

ما ربُّه أحد سوى الخلاق

كلا ولا عرف الخلائق قدره

وأتى يتم مكارم الأخلاق

وهو الذي أرسل للناس رحمة

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وعترته

وأتباعه الذين ازداد بهم الحق إشراقاً وظهوراً وأنواراً ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام:

أف أف اليوم بينكم لأتبارك بنعلي علم من أعلام الأمة، الذين رفع الله لهم ذكراً، وأجرى السنة الخلق ثناء عليه وشكراً، إنه تحدّث سبق الجميع في العناية بحديث

رسول الله ﷺ ووقف عمره عليه، وترك للمسلمين من بعده أصح كتاب بعد القرآن الكريم، وكان له بذلك فضل على كل مسلم جاء بعده. سيد كريم قال عنه شيخه الإمام أحمد بن حنبل: ما أخرجت خراسان مثله. وقال عنه تلميذه الإمام مسلم بن الحجاج صاحب (صحيح مسلم): لا يبغضك إلا حاسد وأشهد أن ليس في الدنيا مثلك، وقال فيه من أرخ له (الذهبي): إنه شيخ الإسلام وإمام الحفاظ، كان رأساً في الذكاء، ورأساً في العلم، ورأساً في الورع والعبادة.

وقال فيه الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني إمام المحدثين في عصره قال: لو فتحت باب الثناء عليه لفني القرطاس ونفدت الأنفاس، فذلك بحر لا ساحل له. **إننا معشر السادة مع أمير المؤمنين في الحديث النبوي الشريف سيدنا الإمام البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل رضي الله عنه.**

ومع الحلقة سبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام البخاري.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: كان والده إسماعيل من تلامذة الإمام مالك الثقات، جمع مع العلم الورع والتقوى وحين حضرته الوفاة قال: لا أعلم في مالي درهماً في حرام ولا في شبهة.

من هذا البطل الإمام التقي الزاهد ولد سيدنا الإمام البخاري بعد صلاة الجمعة ١٣ شوال ١٩٤ هـ ببلدة بخارى. وحين مات أبوه كفله أمه ، وأحسن تربيته من مال أبيه. ولكن الأم فوجئت يوماً أن ولدها محمداً قد عمي فراحت تدعو وتبكي فرأت في منامها سيدنا إبراهيم الخليل يقول لها: يا هذه قد ردّ الله على ابنك بصرة بكثرة دعائك. فأصبح وقد ردّ الله عليه بصره.

وظهر نبوغه وهو ما زال صغيراً يدرس الكتاب إذ رزقه الله قلباً واعياً وحافظه

قوية وذهنًا وقادراً ، وألهم حفظ الحديث على ידי أسياف بلده ، فما بلغ السادسة عشرة حتى حفظ كتب ابن المبارك (ت ١٨١هـ) ووكيع بن الجراح (ت ١٩٧هـ) شيخ الإمام الشافعي .

يقول من ترجم له : إنه كان آية من آيات الله في الأرض ، شافعي المذهب أيد فقهه بالحديث ، إذ حفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سرداً . وكان يقال عنه : إنه كان ينظر في الكتاب مرة واحدة فيحفظ ما فيه من نظرة واحدة . ولأوكد لكم هذا المعنى اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى بخاري بلدة الإمام لأشهد معكم هذا الموقف الفذ ، وعلى أولادنا أن يسمعوا هذا الكلام ، ببر الوالدين وحسن الخلق يبلغ الفتى مالا يبلغه غيره . هاهو الإمام يستمع إلى الدرس ، رفاقه يكتبون الدروس وهو يستمع فقط ، وبعد مضي ستة عشر يوماً قالوا له : لماذا لا تكتب الحديث ، ولاموه : فقال لهم إنكم أكثرتم علي فاعرضوا علي ما كتبتم ، فإذا قد كتبوا خمسة عشر ألف حديث . فقرأها كلها عن ظهر قلبه ، حتى صاروا يصححون ما كتبوا من حفظه . ثم قال لهم : أترون أي آتي إلى الدرس هدرًا وأضيع أيامي . وحين علم الشباب بدقة حفظه صاروا يلحقونه بعد الدروس ويجلسونه في بعض الطريق ويجتمعون عليه وأكثرهم يكتبون عنه .

فمتى بدأ الإمام البخاري الرحلة في طلب الحديث النبوي ؟ للإجابة عن هذا السؤال أريد اليوم أن أرحل بكم إلى مكة أم القرى ، فقد حج الإمام مع أمه وأخيه وأقام بمكة مجاوراً يطلب العلم ويجمع الحديث سنة ٢١٠هـ وبقي يتردد ما بين مكة والمدينة مرات ومرات ، وهناك في أرض الحجاز وضع أساس كتابه الجامع الصحيح فصنف كتابه التاريخ الكبير ، أتعرفون كيف فعل ذلك بدون سراج ولا شمعة ، كان ينتظر الليالي المقمرة في المدينة المنورة ، فيجلس بين المنبر والروض الشريف أي في الروضة المطهرة يكتب كتابه على ضوء القمر .

وكان همّه رضي عنه أنه يجمع أصح الأسانيد في الحديث فراح يسافر بين الشام ومصر ودجلة والفرات والكوفة وبغداد ، مرات ومرات يلتقي بالثقات حتى وصل برحلته إلى بلاد إيران ونيسابور وبلخ والري بالقرب من طهران ، حتى بلغ عدد أشياخه ألفاً وثمانين نفساً من أصحاب الحديث من طبقة أتباع التابعين ومن بعدهم.

ثم كتب صحيح البخاري وألقاه على سبعين ألف رجل من كبار المحدثين أمثال الإمام مسلم (ت ٢٦١هـ) والترمذي (ت ٢٧٩هـ) والنسائي (ت ٣٠٣هـ) وأبو زرعه الرازي (ت ٢٦٤هـ) وأبو حاتم الرازي (ت ٢٧٧هـ) وابن خزيمة (ت ٣١١هـ) يقول الإمام البخاري: أحفظ مئة ألف حديث صحيح ومئتي ألف حديث غير صحيح، وأخرجت هذا الكتاب الصحيح من نحو ستمئة ألف حديث.

أرأيتم - أيها السادة - كيف أصبح الإمام البخاري موسوعة في الحديث النبوي الشريف، ولهذا ترك عدداً لا بأس به من الكتب فيها سوى ما ذكرنا: الأدب المفرد - كتاب بر الوالدين - كتاب رفع اليدين في الصلاة، والمسند الكبير - والعلل - والمبسوط حتى وصلت مؤلفاته إلى ٢١ / مؤلفاً.

وحين ألف صحيح البخاري عرضه على أئمة : يحيى بن معين، وعلي بن المديني وأحمد بن حنبل رضي الله عنهم ، وبقي في تأليفه ست عشرة سنة ، خرج فيه الأحاديث الصحيحة واستنبط الفقه والسيرة والتفسير وكتب فتاوى الصحابة والتابعين وآراء الرجال حتى بلغ تسعة آلاف حديث واثنان وثمانون حديثاً ، ولم يكتب فيه حديثاً حتى يصلي قبله ركعتين لله تعالى .

وشهد لكتابه الأئمة العلماء و أنه أصح الكتب بعد القرآن الكريم ، حتى قال فيه ابن كثير : كتاب الصحيح للإمام البخاري يستسقى بقرائه الغمام ، وأجمع

على قبوله وحمد ما فيه أهل الإسلام، ما قرئ في شدة إلا فرّجت، ولا ركب به في مركب إلا نجت، وكان البخاري مجاب الدعوة وقد دعا لقارئه ، فسار كتابه مسير الشمس ودار في الدنيا دوران الأرض. فبماذا بلغ الإمام ما بلغ؟

أريد أن يسمع هذا طلبة العلم، ليعلموا كيف ينفع الله بهم عباده المؤمنين، إن ما رُزقه للإمام البخاري من حب رسول الله والتفاني في تحصيل الحديث هو الذي سهل له أن يقطع المفاوز والقفار في سبيل العلم، كأنه أشرب في دمه وقلبه الحديث، عاش به، وعاش فيه، لذلك تحمل الجوع والفقر في طلبه حتى يروى أنه في بعض أيام أكل الحشيش من شدة جوعه.

ثم من أسباب إمامته قوله: ما اغتبت أحداً قط منذ علمت أن الغيبة حرام، وكان يقول: إني لأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً.

هكذا كانت أخلاق الإمام البخاري، بالأخلاق والإيمان يسمو الإنسان، لا يكفي العلم يا سادة، لا بد مع العلم من العبادة، لذلك كنت تراه قواماً لليل يتلو كتاب الله حتى يطلع السحر، وكان إذا كان أول ليلة من رمضان يجمع إليه أصحابه فيصلي بهم، ويقرأ في كل ركعة عشرين آية وهكذا إلى أن يختم القرآن، وكان يقرأ في التهجد بعد نصف الليل ثلث القرآن كل ليلة فيختم القرآن عند السحر كل ثلاث ليل، هذا في الليل، أما في النهار فكان كل يوم يقرأ ختمه كاملة، وعند ختمه للقرآن عند آذان المغرب، ويقول عند كل ختمه دعوة مستجابة. وهو القائل:

اغتنم من الفراغ فضل ركوع فعسى أن يكون موتك بغته

كم صحيح رأيت من سقيم ذهبت نفسه الصحيحة فلته

لقد سما الإمام البخاري بالعلم والعبادة، لقد رفع الإمام البخاري شأن العلم والطاعة فرفع الله شأنه وعظمه الناس كما كان يعظم شعائر الله ، اسمعوا كيف كان يعظم المساجد، كان يلقي درسه مرّه أمام الناس فرأى رجلاً يأخذ قذاة من لحيته

ويلقيها على أرض المسجد ، يقول الراوي يا سادة يا كرام: فرأيت الإمام البخاري ينظر إليها وإلى الناس فلما غفل الناس رأيته مدّ يده فرفع القذاة من الأرض فأدخلها في كفه ، فلما خرج من المسجد رأيته أخرجها وطرحها على الأرض، فكأنه صان المسجد عما تصان عنه لحيته.

بهذه الآداب أعلا الله تعالى شأن الإمام ، لما عظم شعائر الله عظمه الله وذاع صيته شرقاً وغرباً وكان كلما دخل بلدًا تلقاه أهلها في تحمّل عظيم ومقدم كريم، حتى تنصب الخيام خارج البلد على بعد ثلاثة أميال منها ويخرج أهلها كلهم وينشرون عليه الدراهم والدنانير، فيدخل مسجدهم ويحدثهم بحديث سيدنا رسول الله.

وكان بعض علماء الحديث في البلاد يقومون بامتحان الإمام في الحديث في الراوية والدراية ولأوضح هذه القضية بالذات سمحوا لي أن أنتقل بكم إلى بغداد فَرَجَ الله عنها ، حيث اجتمع علماء الحديث وعمدوا إلى مئة حديث فكلبوا متونها وأسانيدها، وجعل متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر، فلما جلسوا واجتمع خلق كثير قام واحد فألقى عشرة أحاديث ونسبها لغير رواتها فسألوا عنها الإمام البخاري فقال لا أعرفها، ثم قام آخر فألقى عشرة ثم آخر حتى بلغت مئة حديث ، وهو يقول: لا أعرف هذه الأحاديث لهؤلاء الرواة. فصار أهل الجهل بالحديث يقولون: هل هذا هو البخاري الذي ذاع صيته؟! فلما انتهوا التفت إلى صاحب العشرة الأولى فقال لصاحبها: أما حديثك الأول الذي رويته لي برواية كذا ومتن كذا فرواته فلان عن فلان عن فلان أن النبي قال كذا، صحح له الإسناد(أسماء الرواة) حتى أتى على العشرة الأولى فردّ كل متن إلى إسناده. وكل إسناد إلى متنه ، حتى أتى على المئة من الأحاديث، فقام العلماء يهللون ويكبرون ويعترفون بفضل البخاري فمنهم من يقول : هذا الذي ليس له مثيل. وآخر يقول (أحمد بن حنبل) : ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل البخاري. وآخر يقول (ابن

خزيمة): ما تحت آدم السماء أعلم بالحديث منه. وأقبل عليه الإمام مسلم صاحب الصحيح فقبل بين عينيه وقال: دعني حتى أقبل رجلك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في عله.

أيها الأجرة والصحب: لكن امتحاناً أصعب من هذا الامتحان جرى للإمام البخاري أيام المعتزلة في فتنة القول بخلق القرآن، فقد أرادته المعتزلة أن يقول: إن القرآن مخلوق. وهو يقول القرآن كلام الله وأفعال العباد مخلوقة، واشتد الأمر عليه حينما اشتد الولاة بأخذ كل من يقول بخلق القرآن فصار البخاري يخرج من بلدة إلى بلدة حتى وصل إلى سمرقند في المشرق الأقصى، حتى ملَّ البخاري حياته فضج ليلة ودعا الله تعالى بعد قيام الليل وقال: اللهم ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك، فما أن وصل إلى بلدة تسمى خرتنك حتى قبضه الله إليه مساء يوم الجمعة سنة ٢٥٦هـ ودفن بعد صلاة الظهر بعد أن قضى نحواً من اثنتين وستين سنة قضاها في مدرسة سيدنا محمد ﷺ .

معشر الإخوة: كنت أريد أن أسدل الستار وأكف البنان وأسكت عن البيان عن حياة هذا الإمام ، ولكني رأيت أن أشهد معكم جنازته ودفنه ، فمن شهد جنازة مسلم أعطاه الله قيراطين قالوا ما القيراط يا رسول الله قال: أوزن من جبل أحد. (أو كما قال) يقول تلميذه: لما وضعناه في القبر فاح من تراب قبره رائحة طيبة كالمسك، ودامت أياماً حتى تواتر عند جميع أهل تلك البلاد فصار الناس يأخذون من تراب القبر للبركة، وجاء حاسدوه إلى قبره نادمين تائبين مما فعلوه به.

ويقول آخر (عبد الواحد بن آدم) : رأيت النبي ﷺ رُوي في النوم ومعه جماعة من أصحابه وهو واقف في موضع فسلمت عليه فردّ علي السلام فقلت: ماوقوفك هنا يا رسول الله. قال: انتظر محمد بن إسماعيل.

قال: فلما كان بعد أيام بلغني موته فنظرت فإذا هو قد مات في الساعة التي
رأيت فيها النبي ﷺ

وهكذا - معشر الإخوة - استقبل سيدنا النبي سيدنا الإمام البخاري هناك ،
وها نحن نستقبله معاً هنا اليوم، فمن أراد أن يستقبله هناك فعليه أن يبقى هنا هنا،
وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى
السيد الأعظم وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك .



• صفة الصفوة

تاريخ بغداد ٢/٤ - ٣٣

تهذيب الأسماء واللغات

شذرات الذهب ٢/١٣٤

طبقات الحفاظ ٢٤٨

الإمام البخاري للنووي

وفيات الأعيان لابن خلكان

الأعلام للزركلي

تهذيب التهذيب لابن حجر

(١٧١)

الإمام أبو يزيد البسطامي

(١٨٨ . ٢٦١ هـ)

أحمد الله الواحد في ذاته ، وصفاته الماجد في حلى آياته ، المعروف بالقدم والبقاء قبل إيجاد مخلوقاته، الموصوف بكبرياء رداءه وعظمة إزاره، أستغفرك يا الله وأتوب إليك، وأسأله أن لا يقطع عنا عوائد صلاته ، إلهي أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك ، إلهي غلّقت الملوك أبوابها وبابك مفتوح لمن دعاك، يا رب هذا فرحي بك وأنا أخافك ، فكيف فرحي بك إذا غفرت يوم القيامة ، بحرمة اسمك الأعظم فرّج عنا، اقضِ حوائجنا ، الطف بنا ، أحسن ختامنا ، اجبر كسرنا يا حي يا قيوم.

وأشهد لا إله إلا الله وحده لا شريك له قيل لسيدنا أبي يزيد البسطامي: علمنا الاسم الأعظم. فقال: ليس له حد، إنما هو فراغ قلبك لوحدانيتها، فإذا كنت كذلك فأرفع له أي اسم شئت من أسمائه تعالى.

فيا رب! بأسمائك الحسنى تجلّى علينا بالأنس والرضوان، والعطف والحنان يا ذا الجلال والإكرام.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليفه

ذاك الذي وقف الملوك ببابه وتزاحمت تيجانها لتُشرف

عين النبيين الكرام وتاجهم ومن الإله لغيره لن يصطفي

برضاه يرضى الله جلّ جلاله ويذكره تخبو المحيم وتنظفي

صلّى عليه الله يا علم الله

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسائر أهل الله

أجمعين ، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

نحن اليوم مع سلطان، سلطان عادل ، ليس بملك ولا بأمير ولا حاكم، لكنه سلطان الزاهدين وسلطان العارفين، أشهر من أن يذكر وأعرف من أن يُعرّف، كان نادرة زمانه حالاً وأنفاساً وورعاً وعلماً وزهداً وتقوى، هو أحد المجاهدين في ميادين القتال، جاهد في المجتمع داعياً إلى الله، وجاهد نفسه حتى تتزكى ، وتوكل على الله حق التوكل حتى قال: حسبك من التوكل ألا ترى لك ناصراً غيره، ولا لرزقك رازقاً غيره، ولا لعملك شاهداً غيره.

إننا - معشر السادة - مع قطب زمانه وكوكب أوانه وتلميذ سيدنا جعفر الصادق، مع سلطان العارفين سيدنا أبي يزيد البسطامي واسمه طيفور بن عيسى ، ومع الحلقة واحد وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن هذا الإمام.

إخوتي في الله :

تتجلى عناية الله تعالى بالإمام أبي يزيد البسطامي في أن الله اختار له والدين كريمين ورعين يرعيان الحلال في المطعم والمشرب ، حتى إن التاريخ ليذكر أن والده عندما تزوج بأمه لم يقربها حتى مضى أربعين يوماً حتى علم أن لم يبق في جوفها أثر لما أكلته من قبل، ومن هذين الكريمين ولد سيدنا أبو زيد الذي نشأ باراً بوالديه ، حتى إن أمه مرة طلبت منه كأس ماء في الليل فلما أتى به وجدها نائمة فبقي واقفاً يحمل كأس الماء طيلة ساعات حتى استيقظت فسقاها الماء ، فكان أبو يزيد عندما يحدثه أصحابه عن مكانته يقول: إنما أرى مالي من رضى الأم عليّ، وبدأت علامات استغراقه في الألوهية ، وبدأ الناس يتبركون به وهو بعد ما زال صبيّاً، قال له رجل من أهل الحديث: يا غلام تحسن أن تصلّي؟ فقال نعم! إن شاء الله، فقال له كيف تصلّي؟ قال: أكبّر بالتلبية، وأقرأ بالتartil وأركع بالتعظيم، وأسجد بالتواضع، وأسلم بالتودع، فقال الرجل: يا غلام إذا كان لك هذا الفهم والفضل والمعرفة فلم

تدع الناس يتمسّحون بك؟ فقال: ليس بي يتمسحون لكن يتمسحون بعلم أعطانيه
ربي عزّ وجلّ.

معشر الإخوة:

ويحدثنا سيدنا أبو يزيد عن نفسه فيقول : أقامني الحق تعالى على أبواب العلماء
وصحبه المتعلمين دهرًا طويلاً فلما استكثرت من أنواع العلوم جعلت نفسي تحثني
أنك علمت وعرفت والعالم والعارف في أعلى المراتب، فأشرف بي الحق تعالى حتى
رأيت ازدحام العلماء والعارفين فلم أرى لنفسي معهم موضع قدم، فقلت : العلم
والمعرفة من غير الحقيقة حجة ، فكان عندي أن الحقيقة في العلم والاجتهاد فعلتُ
في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً عليّ أشد من العلم ومتابعته.

أيها السادة:

فلما بدأ سيدنا أبو يزيد يتكلم في علوم الحقائق والتصوف لم يفهم أهل عصره
كلامه فرموه بالعظام ونفوه من بلدهم سبع مرات ، وهم كلما نفوه أنزل الله بهم
البلاء ، حتى أذعنوا له وأجمعوا على تعظيمه ولقبوه بسلطان العارفين. وحين سئل
عن ذلك قال: ما ينال كبار الصالحين في كل وقت من أذى السفهاء، والله سبحانه
يقول عن أنبيائه وهم أصفى الناس لله، ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من
المجرمين﴾ (الفرقان ٣).

ما من عبد اضطنعه الله لنفسه وشغله بذكره وحماه عن مخالفته وجعل له محادثة
بقلبه إلا سلّط عليه فرعون على كل ذلك ينكره ويؤذيه.
وظهر الإمام أبو يزيد البسطامي كزعيم صوفي كبير ، صوفيته عمادها الكتاب
والسنة ويرافقها ذكر الله لا يفتّر لحظة.

سئل مرة عن الصوفي فقال: هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه وسنة رسوله
بشماله، وينظر بإحدى عينيه إلى الجنة، وبالأخرى إلى النار، ويأترز بالدنيا ويرتدي
بالآخرة ، ويلبي من بينهما للمولى لبيك اللهم لبيك.

هل رأيتم هذه المنهجية الصوفية الصادقة ، هل يعتبر الصوفية بميزان الشرع المطهر لا غير ، وهو القائل: عشرة فريضة على البدن: أداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، والتواضع لله ، وكف الأذى عن الإخوان والنصيحة للبر والفاجر ، وطلب المغفرة ، وطلب مرضاة الله في جميع أموره ، وترك الغضب والكبر والبغي والمجادلة من ظهور الخفي ، وأن يكون وصي نفسه يتهياً للموت.

هذا هو العلم ، وهذا هو الصوفي ، وكان يكتشف من هو الصوفي الحقيقي من غير الحقيقي، قال ذات يوم لأحد أصحابه: قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية، وكان رجلاً مشهوراً بالزهد، فمضيا إليه فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة، فانصرف سيدنا أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدّعيه).

معشر السادة : ويحدثنا خادمه وابن أخيه وأصحابه عن مجاهدات الإمام وعباداته بأنه كان يقوم الليل من العشاء إلى الفجر ثم يسجد عند السحر ويطيل سجوده وكان من دعائه: (اللهم طلبوا منك فأعطيتهم طي الأرض والمشى على الماء وركوب الهواء وانقلاب الأعيان) وإني أعوذ بك منها فارحمي وارحم حيرتي وأقم بعبدك مقاماً أتقرب به إليك لا ينافسني في ذلك المقام منافس ، ولا يزاحمني فيه مزاحم ، فلقد أشرفت بي على من سبقوني إليك ورأيتني لا أطيق اللحوق بهم.

ولسيدنا أبي يزيد رأي خاص بالكرامات هو يخاف من الكرامة، ويقول: الأولياء لا يفرحون بإجابة الدعوات التي هي عين الكرامات كالمشي على الماء والهواء وطي الأرض وركوب السماء فإن أدعية الكفار تحاب، والأرض تطوى للشياطين والدجال، والهواء مسخر للطير والماء للحوت فمن أنعم عليه بشيء منها فلا يأمن مكر الله تعالى.

وخرج مرة يزور أخاً له ببلخ فلما وصل إلى نهر وأراد عبوره التقت حافتا النهر. فقال: سيدي ومولاي أيش هذا المكر الخفي؟ وعزتك ما عبدتك لهذا، وعزتك ما أردت هذا.

وكان يخفي كراماته كما تخفي المرأة وجهها خشية أن يعرفها الناس، وكان يقول لو نظرتكم إلى رجلٍ أعطي من الكرامات حتى يتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدوناه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة.

هذا وقد نقل عنه كثير من الأكاذيب مثل قصة الدير والرهبان وغيرها وهو منها بريء، إنما كانت كراماته وقوفه عند الحدود الشرعية، سئل مرة عن العارف وما علامته فقال: ألا يفتر عن ذكر الله ولا يمل من حقه ولا يستأنس بغيره، يقيم على باب ربه ويقبل إليه لا يلتفت إلى شيء يحجبه عنه، ويكون فراره من الخلق إلى الخالق ومن جميع الأسباب إلى ولي الأسباب.

وكان يقول: إن الناس يقولون إن شهادة أن لا إله إلا الله مفتاح الجنة، ولكن لا يفتح المفتاح بغير أسنان، وأسنان مفتاح الجنة أربعة أشياء: لسان بغير كذب ولا غيبة، وقلب بغير مكر ولا خيانة، وبطن بغير حرام ولا شبهة، وعمل بغير هوى ولا بدعة.

علينا أن نعلم أن كرامات سيدنا أبي يزيد كانت وقوفه على حدود الشرع ومعرفته حقوق الربوبية لمولانا، وكان إذا تجاوز آداب الشريعة هتف به هاتف يأذبه، يقول: مددت رجلي في محرابي فهتف بي هاتف: من يجالس الملوك، ينبغي أن يجالسهم بحسن أدب. وقال: رأيت رب العزة في النوم فقلت: يا رب كيف أجذك؟ فقال: فارق نفسك وتعال إلي، خزانتنا مملوءة من الخدمة فإن أردتنا فعليك بالذل والافتقار.

ومرض جاره المجوسي فدخل عليه عائداً فلما بصر المجوسي بأبي يزيد استعظم زيارته وأزال رأسه من فراشه ووضع خده على التراب تعظيماً وإجلالاً لسيدنا أبي يزيد ولبث عنده ساعة، ثم قام منصرفاً وما أن بلغ وسط الدار حتى رفع أبو يزيد

طرفه إلى السماء مستعطفاً رب السماء والأرض فناده صاحب الدار قبل أن يخرج:
يا أبا يزيد آمنت بالله ورسوله محمد، ثم مات الرجل مكانه، فقام أبو يزيد بأمره حتى
دفنه.

قال له رجل : دلّني على عمل أتقرب به إلى الله، فقال له: أحب أوليائه ليحبوك
فإنه ينظر في قلوبهم فلعله ينظر إلى اسمك في قلب وليّه فيغفر لك. وقال له آخر:
أوصني؟ فقال: انظر إلى السماء، فنظر الرجل إلى السماء، فقال له سيدنا أبي يزيد:
أتدري من خلق هذا؟ قال: الله، قال سيدنا أبو يزيد: إن من خلقها لمطلع عليك
حيث كنت فاحذره.

إخوة الإيمان: ولما كانت الليلة التي ودّع فيها الإمام روحه جاءه تلميذ له زائراً من
بلدة أخرى، فلما أراد أن ينصرف إلى بلده استأذن على الخروج فقال له الإمام: لا
تمش حتى تصلّي الجنازة، ولم يكن يعلم الرجل ما تلك الجنازة إلا أنه علم صدق
أستاذه فلم يستخبره علمها حرمة له. فلما أصبح الفجر دقّ المؤذن باب سيدنا أبي
يزيد ليخرج إلى الصلاة، فلما لم يرد فتح الباب عليه فوجده قد فارق الحياة فعلم
التلميذ أن الجنازة كانت جنازة سيدنا أبي يزيد الذي فارق الدنيا سنة ٢٦١ هـ عن
ثلاث وسبعين سنة.

وهكذا قضيت مع حضراتكم مع الإمام الرباني سيدنا أبي يزيد البسطامي في المدرسة
هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع
التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك .

• الرسالة القشيرية ١٣ شرح الرسالة القشيرية للأنصاري ١/١٠٣

الموسوعة الصوفية للحنفي صفة الصفوة ٣/٥٢٢

البداية والنهاية ٣٥/١١ حلية الأولياء ٣٣/١٠

شذرات الذهب ١٤٣/٢ طبقات الصوفية ٦٧

وفيات الأعيان ٢ / ٥٣١ النجوم الزاهرة ٣/٣٥

(١٧٢)

الإمام الجنيد بن محمد بن الجنيد

(٢٢٠ هـ . ٢٩٧ هـ)

الحمد لله الذي بعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها،
وأقام في كل عصر من يحوط هذه الملة بتشديد أركانها وتأييد سننها وتبيينها.
أحمده سبحانه وتعالى حمد من اكتسب من النعم سربالها واحتسى زلالها.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يزيج ظلام الشكوك صُبح
يقينها.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المبعوث لرفع كلمة الإسلام وتشبيدها،
وخفض كلمة الكفر وتوهمينها.
اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله ليوث الغابة وأسد عرينها،
وسلم تسليماً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أزور مع حضراتكم اليوم عظيماً آخر لا تعرفونه ، وما أكثر من لا تعرفون من
عظماء الإسلام إمام آخر كان في سيرته وأحواله مثلاً مضروباً لما ينبغي أن يكون
عليه أئمة المسلمين ، هو حلقة من هذه السلسلة الذهبية التي ضمت حلقاتها سير
الإمام أبي حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل، سيد لُقّب
بإمام الطائفتين إمام أهل الشريعة وإمام أهل الحقيقة ، رزق من القبول وصواب
القول ما لم يقع لغيره، بحيث إذا مرّ بشارع في بغداد وقف الناس له صفوفاً كالملوك،
إذا رأيت علمه رجحته على صوفيته وحاله مع الله، وإذا رأيت صوفيته وحاله مع الله
رجحته على علمه، شهد له ابن عربي في الفتوحات أنه سيد أهل الطائفة الصوفية،
ووصفه ابن الأثير صاحب كتاب الكامل في التاريخ أنه: إمام الدنيا في زمانه، وقال
عنه من أرخ لحياته بأنه شيخ وقته وفريد عصره.

إننا مع البغدادي ولادة ومنشأ ووفاة مع سيدنا أبي القاسم الإمام الجنييد بن محمد بن الجنييد رضي الله عنه وأرضاه، ومع اثنان وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن هذا الإمام.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد هذا الإمام العلم في بغداد سنة نيف وعشرين ومئتين هجرية، وكان المري الأول له خاله الإمام السري السقطي (أوحد زمانه في الورع والسنة وعلم التوحيد ت ٢٥٧هـ) وكان المري الثاني له الإمام المحاسبي (إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والتوحيد وسمي بالمحاسبي لأنه كان يحاسب نفسه عملاً بقول رسول الله : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) ت ٢٤٣هـ).

وظهرت إرهابات المعرفة والنبوغ والفتح عليه وهو ابن سبع، إذ كان بين يدي شيخه السري وهو يلعب فتكلم الجماعة في الشكر وصاروا يناقشون من هو الشاكر فالتفت السري وقال: يا غلام ما الشكر؟ فقال: أن لا يعصى الله بنعمه. وهنا دعا له خاله السري فقال: جعلك الله صاحب حديث صوفياً ولا جعلك صوفياً صاحب حديث. (لأن من حصّل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه).

إخوتي في الله: استجاب الله لدعوة شيخه فانطلق الفتى ينهل من معين علماء عصره وطبقة أشياخه حتى بلغ عددهم مئة وعشرين رجلاً من عِلْيَةِ القوم، وكان يلزم الإمام أبا ثور في الفقه الشافعي ، وأفتى بحضرته وهو ابن عشرين سنة ، حتى انتهت إليه الرياسة في العلم. وهو القائل: (ما أخرج الله علماً إلى الأرض وجعل للخلق إليه سبيلاً إلا وجعل لي فيه حظاً ونصيباً).

وبدأ يجاهد نفسه الأمارة بالسوء ويجوعها فكان يقعد الأسبوع لا يأكل إلا أكلة واحدة، واستمر على ذلك عشرين سنة ، حتى انقادت له نفسه ، وكان ورده اليومي ثلاثمائة ركعة إن لم يأت بها في الليل، دخل خلوته نهاراً وأسبل عليه ستراً وصلى نهاره، وكان يروض نفسه ألا تتكبر على أحد فيجلس تحت درجة في بيته يروضها على التواضع ، فرفع الله قدره في الدنيا بين الناس، سئل مرة: من أين استفدت هذا العلم. فقال: من جلوسي بين يدي الله مشتغلاً بإصلاح قلبي وجوارحي ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة (وأوماً إلى درجة في داره) .

وحين رأى منه شيخه أهلية العلم والتعليم أذن له أن يعقد درساً في الجامع، فرأى في المنام في ليلة جمعة سيدنا رسول الله، وهو يقول له: ألق الدروس على الناس فانتبه ليلاً، وقام إلى باب خاله السري قبل أن يصبح فدق عليه الباب ففتح له خاله وقال له: لم تصدّقنا حتى جاءك الأمر من رسول الله.

معشر الإخوة الكرام: وما دام قد جاء من سيدنا النبي الأمر بإقامة درس لسيدنا الجنيد فأرى لزماً علينا أن نكون مع أوائل الحاضرين لدرس الإمام، فيألى بغداد العراق، أدعوكم جميعاً فادخلوها وأنتم تسألون الله الفرج لها، وأرى بعين الإيمان الخلائق يتجهون إلى المسجد الجامع، وقد علموا أن الإمام الجنيد هو شيخ الدرس لكنني أرى عجباً، وأريدكم أن تعجبوا معي من تركيبة طلاب الدرس، فقد حضر الكتبة ومعهم أقلامهم مجلس الإمام ليدونوا ألفاظه، وحضر الفقهاء لتقريراته الفقهية، وحضر الفلاسفة لدقة نظره ومعانيه، وحضر علماء التوحيد لتحقيقاته الاعتقادية، وحضر الصوفية لإشاراته وحقائقه.

هذه تركيبة طلاب الدرس، فكيف كان ترتيب الدرس، هذا هو الأهم وأريدكم اليوم أن تعزموا النية أن تكونوا من تلاميذ سيدنا الإمام الجنيد علّه يشفع لنا يوم القيامة.

اسمحو لي - معشر السادة- أن أذيع على حضراتكم على الموجات الإيمانية بعضاً من درس الإمام ها هو يحمد الله تعالى (فاحمدوه)، ها هو يصلي على سيدنا محمد ﷺ (فصلوا عليه) ، يقول:

علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، من لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء، يأخذ به عن المتأدين أفسد من اتبعه . من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث (أي لم يفهم أحكامهما) لا يقتدى به في هذا الأمر، فالطريق مسدود إلا عن المقتفين آثار المصطفى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ .

العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك، وحسنات الأبرار سيئات المقربين، والتوحيد الخالص أن يرجع العبد إلى أوله فيكون كما كان قبل أن يكون.

(من أراد أن يتعلم فعليه أن يعمل بما يعلم) العلم يوجب لك استعماله، فإن لم تستعمله في مراتبه كان (حجة) عليك لا (حجة) لك. ولو أقبل صادق على الله ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة (التفت إلى الدنيا) كان ما فاتته أكثر مما ناله. ولا يصفو القلب لعمل الآخرة إلا إن تجرد من حب الدنيا.

ثم عرّج الإمام بدرسه على التصوف وخاض فيه فقال: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوف والمستحسنات، (لأن التصوف عند كثير من الناس عبارة عن التخلق بأشرف الأخلاق الحميدة من الورع والزهد والتوكل والرضا ونحوها، والبعد عن الأخلاق الذميمة من الرياء والكبر والعجب والحسد ونحوها، فالإمام لا يبالي بقليل عن فلان كذا، ولا بقال فلان كذا، مما يأتيه من أفواه الرجال، بل يمارس التصوف عملاً بالجوع والجد في الطاعات) وهو القائل: طريقنا بني على أربع: لا تتكلم إلا عن وجود، ولا تأكل إلا عن فاقة، ولا تنم إلا عن غلبة، ولا تسكت إلا عن خشية. بالخشوع تذلل القلوب لعالم الغيوب،

والإخلاص سر بين العبد وربّه لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيهلكه .

ونظر الناس فراوا بين يدي الإمام سبحة، فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟! فقال طريق به وصلت إلى ربي لا أفارقه. فهو قد وصل إلى الله ليس فقط بالعلم بل أيضاً بالذكر والطاعة.

وسئل: ما بال أصحابك إذا سمعوا القرآن لا يتواجدون بخلاف ما إذا سمعوا الرباعيات (الشعر) فقال: القرآن كلام الله وهو صعب الإدراك، والرباعيات كلام المحبين المخلوقين، وسبب اضطراب القلب عن السماع أنه تعالى لما خاطب الذرّ في الميثاق الأول بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ . استفرغت عذوبة سماع كلامه الأرواح فإذا سمعوا نغمًا طيباً حركهم لذكره. ثم قال: رأيت النبي في المنام فقلت له: ما تقول في السماع الذي نفعل ويحصل منا الحركات فيه، فقال: ما من ليلة إلا وأحضر معكم ولكن أبدؤوا بالقرآن واختموا به.

ثم سأله آخر فقال: إن من أهل المعرفة بالله من إذا وصلوا إلى الله تركوا الصلاة والعبادة فما رأيك بهم؟ فقال الإمام الجنيد: هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال عن بعض المكلفين، وهو عندي هفوة عظيمة والذي يزني ويسرق أحسن حالاً من الذي يقول هذا القول ! ولو أني بقيت ألف عام في الدنيا لم أنتقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بيني وبينها (أي لعجز أو مرض) ومن ثبتت له وصف المحبة يدوم على طرق باب المحبوب، (وها هو النبي مع ما أوتي من النبوة والرسالة والحب في الله وكذا خلفاؤه لم يتركوا الأعمال والعبادة) يقول الراوي يا سادة يا كرام: وكان في طرف المجلس غلام نصراني متنكراً. فقال: أيها الشيخ ما معنى قول رسول الله ﷺ ﴿اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ﴾ قال: فأطرق الإمام أبو القاسم الجنيد ثم رفع رأسه وقال: أسلم فقد حان وقت إسلامك.

فأسلم الغلام.

وهكذا - معشر السادة - قضى الإمام حياته ما بين العلم والولاية، ما بين الشريعة والحقيقة حتى كانت ليلة من إحدى ليالي عام سبعة وتسعين ومئتين هجرية جهد الإمام في هذه الليلة بالعبادة والصلاة وقراءة القرآن، ورآه أصحابه يصلي ويكي ويسجد ويكي حتى ختم القرآن ، فقال له أحدهما: ارفق بنفسك يا أبا القاسم فقال: ما رأيت أحداً أحوج إليه في هذا الوقت، وما هو ذا تطوى صحيفتي ثم بدأ بختمه جديدة فما أن قرأ من البقرة سبعين آية، ما إن وصل الإمام إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ حتى سكت ونظر إليه تلميذه فرآه قد فارق الحياة.

وضجت بغداد بوفاة سيدها ، وخرج الناس كلٌ يريد أن يتبرك بالإمام وهو يدفن بجوار خاله السري ، وأحصي من خرج بجنائزته فبلغوا ستين ألفاً أو يزيد.

يقول أحد أتباعه (محمد بن إبراهيم): رأيت الجنيد في المنام فقلت: ما فعل الله بك. فقال: طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات ، وفنيت تلك العلوم ، ونفدت تلك الرسوم، وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في الأسحار.

وهكذا إخواني كنت مع حضراتكم مع إمام عاش ستاً وسبعين سنة ، قضيتها مع حضراتكم بنصف ساعة هنا، مع إمام درّس في هذه المدرسة هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس قیها عليه أن يرفع التحية إلى السيد الأعظم وتحيّتنا إليك يا سيدي يا رسول الله:

• الصلاة والسلام عليك

• مصادر الإمام الجنيد : صفة الصفوة ٢/٦٥٢

شرح الرسالة القشيرية ١/١٣٩

سير أعلام النبلاء ١٤/٦٦

طبقات الحنابلة ١/١٢٧

وفيات الأعيان ١/٣٧٣

طبقات الصوفية للسلمي ١٥٥

(١٧٣)

الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري

(٢٢٤ هـ . ٣١٠ هـ)

الحمد لله الذي نشر للعلماء أعلاماً، وثبت لهم على الصراط المستقيم أقداماً، وجعل مقام العلم أعلى مقام، وفضل العلماء بإقامة الحجج الدينية ومعرفة الأحكام، وأودع العارفين لطائف سرّه فهم أهل المحاضرة والإلهام، ووفق العاملين لخدمته فهجروا لذيد المنام، وأذاق المحبين لذّة قربه وأنسه فشغلهم عن جميع الأنام. أحمده سبحانه وتعالى على جزيل الإنعام.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك العلام.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيّة وخليله البدر التمام، إمام كل إمام، وسيد المتقين الكرام، بعثه الله رحمة للعباد وفارقاً بين الحلال والحرام، وداعياً إلى كلمة الشهادة والحج والزكاة والصلاة والصيام، فنصح الأمة وكشف الغمّة وجاهد عبّاد الأصنام، سيدي أبا القاسم يا رسول الله

سعدتْ بطلعتك السمواتُ العلا والأرضُ صارتْ جنة خضراء

وسموتَ بالبشر الذين تعلّموا سننَ الشريعة فارتقوا سعداء

ورفعت عهد المرسلين مجاهداً وحملت دين الأنبياء مضاء

صلّى عليك الله يا علم الهدى

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وكثرته وأنصاره هداة الأنام، صلاة دائمة باقية على مر الليالي والأيام ، وسلّم تسليماً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

هذه قصة عالم، إمام أخلص للعلم حتى جعل طلبه أكبر غاياته وغاية حياته، أكثر الترحال ولقي نبلاء الرجال، يمشي الليالي والأيام في طلب علم من العلوم على

الأئمة الأعلام ، حتى صيرّه الله تعالى من أفراد الدهر علماً وحفظاً وتصانيف قلّ أن ترى العيون مثله.

أرحل بكم اليوم إلى طبرستان بلاد الينابيع المتفجرة والأشجار والثمار شرقي روسيا، نرحل لنلتقي بأعجوبة الزمان، فتى حفظ القرآن في سن السابعة، وصار إماماً للصلاة في سن الثامنة، وكتب الحديث الشريف في سن السابعة وبلغ منزلته في الحديث والتفسير وأحكام القرآن وأخبار الأمم شهد له فيها أكابر العلماء حتى جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، يساعده في ذلك والده يُرسل إليه النفقة بين الحين والآخر، فلما مات خَلَفَ له ضيعة بطبرستان ينفق على نفسه منها.

لعلكم تتساءلون من هو هذا الإمام العلم المجتهد، إنه صاحب أعظم كتاب في التفسير والتاريخ: سيدنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.

ولد هذا الإمام سنة ٢٢٤ هـ، وكان والده يحب أن يبقى ولده إلى جواره حتى رأى في المنام أن ولده بين يدي رسول الله ومعه مخللة مملوءة حجارة وهو يرمي بين يديه، فسأل المعبرين فقالوا: إنه إن كبر نصح في دينه ودافع عن شريعة الله تعالى، فسمح له أبوه بالرحلة في طلب العلم، وبدأ سفره في بلاد الدنيا من طبرستان إلى إيران، ومن إيران إلى البصرة، ومن البصرة إلى بغداد، ومن بغداد إلى الشام، ومن الشام إلى مصر وهو يتلقى عن أشياخ ثقة حتى لم يحصى عددهم ، وحفظ في هذه الرحلة أكثر من مئة ألف حديث، ودرس القراءات عن بعض شيوخ الكوفة، وكان شافعي المذهب، فلما اتسع علمه أذاه اجتهاده إلى مذهب مستقل، وما زال يتردد بين الشام ومصر ويضارع شيوخها بعلومه حتى برّهم بعلمه (أي تفوّق عليهم).

إننا — معشر السادة — مع الحلقة ثلاثة وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام محمد بن جعفر الطبري رحمته الله

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان: نحن المسلمين قانوننا هو القرآن وشرحه الرسمي الحديث، ومذكرته الإيضاحية أسباب النزول والتفسير، فمن لم يشتغل بالعلم فهو لا يستطيع أن يفهم الحكمة من القرآن والحديث، فيرجع إلى المختصين، والمختصون هم العلماء المجتهدون أمثال ابن جرير الطبري، وإذا اختلفوا في الفهم والتفسير فهذا شيء طبيعي، كما أن تقليد المذاهب شيء طبيعي، إذ أن من الناس من ينقطع إلى علم من العلوم فيجتهد فيه ويقلّد في غيره، فنحن نقلّد الأطباء والمهندسين ونأخذ بأقوالهم بلا وقوف على دليلها حتى إن الصحابة أنفسهم كان أكثرهم مقلدين ولم يكن يفتي منهم إلا عدد قليل.

ونحن اليوم أمام مجتهد من هؤلاء الذين يقلّدهم الناس، فقد جمع كتاباً فيه آراؤه، كتاباً عظيماً قلّ نظيره، صدّقوني يا سادة ظهر في تاريخنا أئمة أعلام أمثال هذا الإمام وكانوا منار الهدى، وكانوا أساتذة الأرض وألّفوا هذه المؤلفات الكبار التي لا نقدر نحن اليوم على قراءتها فضلاً عن نسخها، فضلاً عن تأليف مثلها، الإمام ابن جرير كتب:

- ١- في التاريخ خمسة عشر مجلداً سمّاه تاريخ الأمم والملوك.
- ٢- وكتب في تاريخ الصحابة والتابعين ألف ورقة.
- ٣- وكتب في اختلاف الفقهاء ثلاثة آلاف ورقة.
- ٤- وكتب اجتهاداته الفقهية في نحو ألفين وخمسمئة ورقة.
- ٥- وكتب في آداب القضاء ألف ورقة.
- ٦- وفي الحديث والأخلاق كتباً لا نظير لها.
- ٧- وأعظم كتاب كتبه تفسير القرآن العظيم.

أندرون - أيها الإخوة . كم بقي الإمام في تأليفه لكتاب التفسير هذا؟ بقي في تأليفه أربعين سنة، وكتب فيه ثلاثين ألف ورقة، حتى عجز النساخ عن نسخه وقالوا: تفنى أعمارنا ولا نستطيع نسخه، فاختصره لهم بنحو ثلاثة آلاف ورقة.

أُتدرون يا سادة في كم سنة أُملى كتابه التفسير على طلابه؟ أملاه عليهم في سبع سنوات جمع فيه بين المنقول (المأثور) والمعقول (التفسير بالرأي) ووضع فيه المعاني اللغوية لكل كلمة ، وإعراب القرآن، وفيه البلاغة، وفيه الفقه، وفيه العقيدة والقراءات، ويرجّح البعض آراءه الخاصة التي توافق المعنى القرآني. لكن ليس كل ترجيحاته صحيحة، وحين انتهى من إملائه قال فيه بعض العلماء: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل تفسير ابن جرير لم يكن كثيراً، وبناءً على هذا التفسير قال فيه العلماء: ما نعلم أحداً على أديم الأرض أعلم من ابن جرير الطبري.

هل تعرفون ماذا فعل بالنسخ بعد ذلك؟ جاء إليهم بكتاب تاريخ العالم من سيدنا آدم إلى وقت ابن جرير فسألوه كم ورقة هذا التاريخ فقال: ثلاثون ألف ورقة، فاصفرت ألوان النسخ وعجزوا أنفسهم عن كتابته فاختصره لهم بنحو ثلاثة آلاف ورقة، فهل في علماء اليوم من يقدر قدره، هل في علماء اليوم من يستطيع أن يقرأ هذين الكتابين فلا يتركهما حتى ينتهي من قراءتهما؟!؟

لكن من التطويل كَلَّتْ الهمم فصار فيه الاختصار ملتزم

إخوتي في الله: تفرّغ الإمام للكتابة والتأليف جعله يترك التكسب ليعتمد على الله ثم ضيعة والده، لكن أجرة الأرض وخارجها تأخّر عنه مرة فاضطرّ الإمام لعفته وهو لا يريد أن يمدّ يده إلا لله فباع بعض أثوابه وهو يقول:

إذا أعسرت لم يعلم شقيقي وأستغني فيستغني صديقي

حيائي حافظ لي ماء وجهي ورفقي في مطالبتي رفيقي

ولو أني سمحت بماء وجهي لكنت إلى العلا سهل الطريق

إخوتي في الله: لكن مولانا عزّ وجلّ لا ينسى من فضله أحداً ، وخصوصاً الذين يخدمون دينه ويدافع عن الشريعة ، وإليكم درساً هاماً ألا نعتد إلا على الله، إليكم درساً في صدق الالتجاء إلى الله، فقد اجتمع المحدثون الأربعة، المحاميد الأربعة اجتمعوا بمصر، سيدنا الإمام محمد بن جرير الطبري وعالم الحديث محمد بن اسحق (ت ٣١١) ومحمد بن نصر العلم في الحديث (ت ٢٩٤) ومحمد بن هارون الروياني

من حَقَّاز الحديث (ت ٣٠٧)، اجتمعوا وقد افتقرت أيديهم من المال ولم يبق عندهم شيء من المال يطلبون فيه العلم ويَطْعَمُونَ ، العالم أصعب شيء عليه ألا يجد أجرة مواصلات لطلب العلم يطوي أياماً جائعاً ولا يستطيع أن يطوي يوماً بدون علم، فاتفقوا أن يُقْرَعُوا فيما بينهم فمن خرجت قرعته يطلب لهم الطعام فخرجت قرعة محمد بن اسحق ، فقام وتوضأ وصلّى ركعتين دعا فيهما الله تعالى واستخاره قبل أن يخرج من البيت، وما أن أتمّ الركعتين حتى طرق الباب فجاءت ثلة من عبيد والي مصر ومع كل منهم مال، فقال العبد الأوّل: أيكم محمد بن نصر فأشاروا إليه فدفع له صرّة فيها خمسون ديناراً، ثم قام العبد الثاني بدفع مثلها إلى الإمام محمد بن جرير ومثلها لمحمد بن هارون، ثم مثلها لمحمد بن اسحق ، فاستغرب الحَقَّاز الأربعة فقالت العبيد: لا تستغربوا، إن أمير المؤمنين رأى قائلاً في المنام ينادي: أدرك المحاميد الأربعة محمد ومحمد ومحمد ومحمد فإتوا جياعاً، فبعث إليكم بهذه الصرر.

أيها الأحبة والصحب: قضى الإمام محمد بن جرير الطبري ستاً وثمانين سنة يعلم ويتعلم لم يتنازل فيها عن الثوابت الإيمانية يوماً، وكان يحرص في حياته على احترام الصحب الكرام الرعيل الأول الذين حملوا لنا هذا العلم الشريف، وأراد مرة واحد أن يطعن في خلافة سيدنا أبي بكر وعمر وأن الخليفة الحقيقي المقدم كان يجب أن يكون سيدنا علياً فطرح الإمام ابن جرير سؤالاً وقال: من قال إن أبا بكر وعمر ليسا بإمامي هدى إيش هو؟ قالوا: مبتدع. فقال ابن جرير: مبتدع؟! مبتدع؟ هذا يقتل ، لأنه طعن على النبي وكذّبه، ومن طعن على النبي مرتد والمرتد يقتل.

بقيت هذه مواقف الإمام حتى وفاته ودخل عليه أصحابه وقد حان وقت الظهر والإمام مريض جداً وقد شارف على السادسة والثمانين، وقام الإمام ليتوضأ يتوكأ على صاحبيه وقالوا: لم لا تجمع بين الظهر والعصر، فأبى الإمام وصلّى الظهر مفرداً، والعصر في وقتها أتمّ صلاة وأحسنها، وانتهى الإمام من صلاته وراح يكثر الذكر

ويكرر الشاهدين ويمسح يده على وجهه، وغمّض بصره بيده وبسطها وفارقت
روحه الحياة ورحل إلى الله تعالى ..

ودّت بقاع بلاد الله لو جعلت قبراً له لحياها جسمه طيباً
كانت حياتك للدنيا وساكنها نوراً فأصبح عنها النور محجوباً
لو تعلم الأرض من وارت لقد خشعت أقطارها لك إجلالاً وترحيباً
وشيع الإمام من أهل بغداد من لا يحصيه إلا الله تعالى حتى لم يستطع الناس أن
يصلّوا عليه كلّهم لضيق المكان ، فصار الناس يصلّون على قبره عدة شهور ليلاً
ونهاراً^(١) .

معشر السادة: لأن مات الإمام فلقد خلف كتباً حيّة لم تمت، وعلماً غزيراً ينهل
منه أهل العلم كل حين، ما زال العلماء هنا ينهلون من المعين هناك، وما أدراك ما
هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إليه، وتحيتنا إليك
يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم



(١) المصادر: الأعلام خير الدين الزركلي

البداية والنهاية لابن كثير ١٥٥/٦

التفسير والمفسرون حسين الذهبي ٦١

سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٧٤/١٤

الطبري أحمد محمد الحوفي ط ١٩٧٠ مصر

معجم الأدباء كتب الطبري ٤٢/٩

طبقات الشافعية ١٢٢/٣ للسبكي

(١٧٤)

الإمام أبو بكر الشبلي

(٢٤٧ . توفي ٣٣٤ هـ)

الحمد لله المبدئ المعيد، الغني الحميد، ذي العفو الواسع والعقاب الشديد، من هداه فهو السعيد السديد، ومن أضله فهو الطريد البعيد، ومن أرشده إلى سبيل النجاة ووفقه فهو الرشيد كل الرشيد.

أحمده سبحانه وتعالى أن قسم خلقه قسمين، وجعلهم فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العرش المجيد، يعلم ما ظهر وما بطن، وما خفي وما علن، وما هجن وما كمن، وهو أقرب إلى كل مريد من حبل الوريد.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الداعي إلى التوحيد، الساعي بالنصح للقريب والبعيد، أشرف من أظلت السماء وأقالت اليد.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه أولي المعونة والتأييد ، صلاة وسلاماً لا تزالان على كَرّ الجديدين في تجديد ، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

نحن اليوم أين؟ إلى أي بلاد الدنيا أسافر بكم؟ نحن اليوم في بغداد فرّج الله عنها، بغداد التي تذخر بالعلماء، نحن قبل ألف ومئتي عام بالضبط، في عام ينتقل فيه موظف كبير من موظفي الدولة إلى داعية، نحن نرى في كل يوم داعية ينتقل ليكون موظفاً في الدولة، أما في الماضي فكانوا يتشرفون بانتقالهم من رجال متنفذين إلى دعاة مخلصين.

نحن اليوم نتحدث عن سيد من هؤلاء، عن تاج من تيجان الإسلام والتصوّف، زهد في الدنيا بعد أن أتت إليه صاغرة، وكان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر ويعجب من قلب عبد عرف ربه ثم عصاه، علّمَ اشتهر شرفه ، وسمت في جنان المعرفة غرفه ، وأضاء كوكب زهده وديانته، ونما فرع ورعه وصيانتته ، حتى صار أوحده زمانه علماً وحالاً، صار لا نظير له في مجاهداته ومعاملاته لربه، كان صوفياً حقاً استوت حالاته، سافراً وحضراً وغيبية ومشهداً.

إننا مع رجل امتزج الحب والتوحيد في نفسه فكان تاجاً على رأسه حتى قال فيه الإمام الجنيد: لكل قوم تاج، وتاج هؤلاء القوم الشبلي، ملك الحب أقطار نفسه ، وشغله عن كل شيء سوى محبوبه، وهام في رياض الحب ، وتاه في بيداؤه، وانغمس في بحاره ، وبقي في لجته إلى أن وافاه القدر المحتوم، كان شعاره في ذلك الحب صراط الأولياء. فكيف وصل الشبلي إلى هذا المقام؟

إننا - معشر السادة - مع الإمام أبي بكر الشبلي ومع الحلقة أربعة وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أَدْعُوكُمْ جميعاً لتتعرضوا على هذا الإمام.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد هذا الإمام ونشأ في بيت عزّ وجاه، وأصله من بلدة شربلة، قرية من قرى سمرقند في بلاد خراسان، وكان والده حاجب الحجاب للخليفة العباسي، وكان خاله أمير الأمراء بالاسكندرية، فهو ابن موظف كبير في الدولة العباسية.

وبدأ حياته في طلب العلم وحضر دروس العلماء ، وكتب الكثير من الحديث ورواه (السلمي) وتفقه على مذهب الإمام مالك (المنائي) حتى غدا فقيهاً عالماً (الشدرات) وهو القائل عن نفسه (كتبت الحديث عشرين سنة وجلست الفقهاء عشرين سنة) وغدا حاجب الوالي في منطقته وأصبح له حلقة يدرّس فيها ويعظ

حتى قال عنه أحد المؤرخين العلماء (أبو عبد الله الرازي): (لم أر في الصوفية أعلم من الشبلي).

ولأدلل على هذه القضية فإنني أدعوكم جميعاً لنحضر معاً مجلس الإمام الشبلي في بغداد، ها هو يسترسل في العلوم الشرعية ينتقل بينها ، يقتطف زهرة من الحديث الشريف ، وزهرة من التفسير، وزهرة من الفقه، ويمزج بين العلوم بشكل عجيب مما يدل على براعته في العلوم الشرعية، وما أن فتح باب الأسئلة بعد الدرس حتى انهالت عليه الأسئلة من كل صوب، وتظهر براعة الإمام في استحضار الإجابات ودقتها ، فاسمحوا لي أن أذيع على حضراتكم بعض هذه الأسئلة المختلفة:

ها هو رجل يسأل عن معنى قوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ فقال الشبلي: معناه ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة.

وسأل آخر ما معنى قوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ فقال: يغضوا من أبصار الرؤوس عما حرم الله تعالى ويغضوا أبصار القلوب عما سوى الله تعالى.

وسئل عن آية: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ فقال: الرحمن لم يزل (قديماً) والعرش محدث (مخلوق) والعرش بالرحمن استوى (لولا الله لزال العرش والسموات) ﴿وهو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ .

ها هو آخر يسأله : ما هي أرجى آية في القرآن؟ فقال: هي قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾، ثم قال: إذا كان الله تعالى أطلق للكفار دخول الجنة بذكر لا إله إلا الله مرة واحدة، أترى من واطب عليها طول عمره كيف يُمنع من دخول الجنة وهو طاهر من نجاسة الشرك؟.

ثم قام آخر وسأله عن التصوّف ما هو؟ فقال: بدء التصوف معرفة الله ، ونهاية التصوف توحيد الله (بدؤه معرفته ونهايته توحيده)، التصوف ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك (السلمي).

لكنّ بعض الناس في عصر الإمام الشبلي كانوا ينكرون على بعض الصوفية أحوالهم ويدّعون أنهم جهلة في العلم، تركوا العلم والتفتوا للذكر لذلك كانوا يعترضون على الإمام الشبلي، وقد ذكر أنه مرّ يوماً بإحدى الحلقات في المسجد، فرآه شيخ الحلقة، فقام له وأجلسه بجانبه والمعتضون ينظرون إلى فعل شيخهم، فأرادوا أن يظهروا لشيخهم أن الإمام الذي احترامه لا يفقه من الدين شيئاً، فوجّهوا سؤالاً إلى الإمام الشبلي وقالوا : إذا اشتبه على المرأة دم الحيض بدم الاستحاضة كيف تصنع؟ فأجاب الإمام أبو بكر بثمانية عشر جواباً، قام شيخ الحلقة وقبّل رأسه وقال: يا أبا بكر ؟ أعرف منها اثنتي عشر وستة ما سمعت بما قط. وهنا خاب أمل السائل في أن ينسب العجز إلى الإمام الشبلي.

بل حاول بعض العلماء أن ينهى الناس عن الاجتماع بالإمام الشبلي والاستماع لكلامه، فصدف أن اجتمع بمجلس فيه الإمام، فأراد أن يخرجه أمام أصحابه فسأله: كم في خمس من الإبل (كم فيها من الزكاة) فلم يردّ عليه الإمام الشبلي لأنه عرف أن السائل يمتحنه وهو يعرف الجواب، فلما أكثر عليه السؤال قال له الإمام الشبلي: هل تريد أن أجيبك شرعاً أم حقيقة؟ أما في واجب الشرع فيلزم صاحب الإبل الخمسة شاة عنها، وأما عندنا أهل الله فيلزم أن يركي بالإبل كلها. فقال له السائل: هل لك في ذلك إمام؟ قال: نعم. قال: من؟ قال: أبو بكر الصديق رضي الله عنه أخرج ماله كلّهُ لله، فقال له النبي: ما خلّيت لعيالك؟ فقال: الله ورسوله. يقول الراوي يا سادة يا كرام: فرجع السائل وهو مبهور من علم الإمام الشبلي. والتفت الإمام إلى أصحابه وقال لهم: من خرج عن ماله كله لله فإمامه أبو بكر، ومن خرج عن بعضه وأمسك بعضه فإمامه عمر، ومن أخذ وأعطى وجمع لله فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي، وكل علم لا يؤدي إلى ترك الدنيا فليس بعلم.

أيها السادة: واستمر الإمام الشبلي مندفعاً نحو العلم حديثاً وفقهاً ثم ماذا؟ يقول عنه الإمام المناوي: (تفقه على مذهب الإمام مالك وكتب حديثاً كثيراً ثم شغلته العناية عن الرواية).

أسمعت شغلته العناية عن الرواية، عناية الله وجهته لغير وجهه في طلب المناصب، التقى بولي من أولياء الله يدعى خير النساج وافتن به وبسلوكه وبحديثه، فقد كان الولي متجرداً إلى الله، وامتلاً قلبه بحبه وانتبه الشبلي إلى أن ما يسعى إليه ظل زائل، وانتفض من أعماقه انتفاضة دفعته مراحل في طريق الأتقياء، ومن الله عليه بجذبة من جذباته، فنزع من قلبه حب الرئاسة واستشرفت نفسه إلى سعادة من نوع آخر، رجع إلى البلدة التي كان حاجب الوالي عليها واعتزل الناس وغير حاشية الملك إلى حاشية أهل الله، فلزم الإمام الجنيد فغرق في المجاهدات والذكر والمحبة الخالصة، تاب على يدي الإمام الجنيد وبايعه على بيع الدنيا وشراء الآخرة، بايعه على ألا يخطر بباله الكون بل يبقى مع المكوّن، حتى قال عنه المؤرخون: (كانت مجاهداته في بدايته فوق الحد)، والمجاهدة تعني الخوف من الله والأمل في القبول والرجاء في الرضا، وصار ينطق بالحكمة لشدة إخلاصه في العبادة، وسمحوا لي معشر الإخوة أن أنقل لكم بعض حكمه لعل الله تعالى ينقلنا إلى ديوان الأولياء كما نقل الإمام الشبلي: يقول: (ذكر الله على الصفاء يُنسي العبد مرارة البلاء)، إن أحدكم يقول: توكلت على الله، وهو يكذب عليه، ولو توكل عليه لرضي بفعله.

لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء حتى تخرج من دار الغرور إلى دار الأمن، إذا كنت قائماً بما أمرت تاركاً لتكلف ما كفيت فأنت كامل العقل، وإذا كنت بالله متعلقاً لا بأعمالك، غير ناظر إلى سواه فأنت كامل المعرفة.

حتى إنه تمنى أن يفدي بنفسه أمة سيدنا محمد ﷺ من النار، فقال: لو كان لي في يوم القيامة أمر لسألت الله أن يملأ جهنم مني وحدي لئلا يبقى متسع لغيري لأفدي بعض أمة سيدنا محمد ﷺ. فرأى في نومه مولانا عز وجل يقول له: أما

تستحي أن تقول ما قلت، إن كنت تتكرم على خلقي بما يضرك فأنا خالق الكرم وأولى أن أتكرم عليهم بما لا يضريني. (أتتكّرّم عليّ وأنا خالق الكرم؟).

أيها الأحبة: ومشى الشبلي يوماً إلى أن جاء مسجد ابن مجاهد أحد علماء عصره فمرّ الشبلي على حلقة فقام إليه ابن مجاهد تعظيماً واحتراماً، قال له أصحابه: أنت لم تقم للوزير لما جاءك! أتقوم للشبلي؟ فقال ابن مجاهد: ألا أقوم لمن يعظّمه رسول الله؟ رأيت النبي في النوم فقال: يا بن مجاهد: إذا كان في غد فسيدخل عليك رجل من أهل الجنة فإذا جاءك فأكرمه. (وها أنا أكرمه لأن النبي أمرني بذلك).

يقول الراوي **يا سادة يا كرام:** فلما كان بعد شهر رأى ابن مجاهد النبي في المنام ثانية فقال: يا ابن مجاهد أكرمك الله كما أكرمت رجلاً من أهل الجنة، فقلت يا رسول الله: بم استحق الشبلي هذا منك؟ فقال: هذا رجل يصلي كل يوم خمس صلوات يذكرني إثر كل صلاة ويقرأ: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ أفلا أكرم من يفعل هذا!.

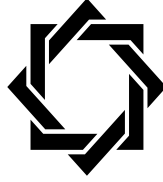
إخوتي في الله:

وهكذا قضى الإمام الشبلي حياته زهداً ورعاً وحباً في الله ورسوله ، وأكبر كرامة له أنه كان مطبّقاً للشريعة موافقاً لله في أوامره ونواهيه ، حتى السنن كان لا يتركها ولو كان مريضاً أشد المرض، وقد قام تلميذه يوضئه في مرض وفاته فنسي التلميذ تحليل لحيته، يقول التلميذ: فقبض على يدي وأدخل أصابعي في لحيته يخللها فبكيت وقلت: ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشريعة؟

عاش الشبلي سبعاً وثمانين سنة ومات سنة ٣٣٤ هـ ببغداد وقره ظاهر يُزار.

وهكذا قلبت مع حضراتكم صفحة أخرى من صفحات الخالدين آملاً من الله أن يجعلني في ميزان حسناتهم يوم القيامة، فمن أراد أن يكون معهم هناك فليبق معنا

هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع
التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك^(١).



^(١) المصادر: أبو بكر الشبلي لعبد الحليم محمود. (صفة الصفوة ٢/٦٧٦)

طبقات الصوفية السلمي ٣٣٧.

(١٧٥)

الإمام أبو بكر الباقلاني

(٣٣٨ . ٤٠٣ هـ)

الحمد لله المبدئ المعيد، الفعال لما يريد ، ذي العرش المجيد والبطش الشديد، الهادي صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد ، المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد ، السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى، واقتفاء آثار صحبه المكرمين بالتأييد والتسديد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك المتجلي على عباده في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد ، المعرف إياهم أنه في ذاته واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا ضد له، منفرد لا ند له ، وأنه واحد قديم لا أول له، أزلي لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدي لا نهاية له قيوم لا انقطاع له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الهادي للأمة الكاشف للغممة، الناطق بالحكمة المبعوث بالرحمة.

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى أصحابه وأزواجه وعترته ، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام

نحن اليوم مع فارس خاض غمار المعارك وانتصر فيها، لم يهزم في معركة قط، لكن معاركه كانت غير معارك الحروب التي نعرفها، لم يكن سلاحه سيفاً أو رمحاً أو

مدفعاً أو رشاشاً، بل كان سلاحه فكراً وعقيداً وفقها فهو فارس من فرسان الكلام، المعارك التي خاضها تسمى عندنا اليوم بالمناظرات، معارك كلامية خاضها الإمام مع الفرق الضالة في عصره المعتزلة والرافضة والخوارج وغيرهم.

وكان من سنة الله تعالى أن يتعاهد عباده بأنبيائه ورسله، فلما ختم الرسالة بسيدنا محمد تعاهد أمته في رأس كلِّ مئة عام بعالم رباني من علماء الأمة ، يحيي لها دينها ويجدد شريعته ، فكان إمام رأس الأربعمئة الهجرية هو فارسنا اليوم.

كان فارساً لا ككل الفرسان، باطنه معمور بالعبادة والديانة، حياته كلها في نصر عقيدة الأشاعرة حتى أصبح فارس هذا العلم ، وسيف السنة ، ولسان الأمة، وحصناً من حصون المسلمين، وأوحد زمانه.

كان أعرف الناس بعلم الكلام(أي العقيدة) وأحسنهم فيه خاطراً وأجودهم لساناً، وأوضحهم بياناً وأصحهم عبارة، حتى ضرب المثل بفهمه ودكائه لذلك كان يجلس إليه العالم النحرير فيحقر نفسه أمام علمه. إنه الإمام العلامة مقدّم الأصوليين القاضي سيدنا أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني.

ومع الحلقة خمسة وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام الباقلاني.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد إمامنا في البصرة سنة ٣٣٨ هـ ثم سكن في بغداد وتلمذ على مشايخ عصره وكان يحفظ المسائل الفقهية الشافعية والمالكية ويفتي فيها، وكان شيخه الأكبر الذي انتفع منه أحد أصحاب سيدنا أبي الحسن الأشعري واسمه محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي.

وكان ورده في كل ليلة عشرين ركعة يصلّيها في الحضر والسفر، فإذا فرغ منها جلس للتأليف فألف من حفظه خمساً وثلاثين ورقة، ولما جمعت مؤلفاته وقسمت على أيام عمره من مولده إلى وفاته فوجد مقابل كل يوم منها عشرون ورقة، يقول المؤرخ الخطيب البغدادي: (كل مصنف ببغداد إنما ينقل من كتب الناس سوى القاضي أبي بكر فإنما صدره يحوي علمه وعلم الناس).

دافع دفاعاً عظيماً على عقيدة الأشاعرة، وانتصر لمذهبهم الإعتقادي، وكان إذا جلس مع فرقة ضالة أكثر من مناظرتها وطول بالأدلة والبراهين، وكان موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب، وله حكايات كثيرة ووقائع جيدة قهر بها خصماءه من سرعة بديهته وأجوبته الحسنة، قدم مرة ليناظر ابن المعلم من الرافضة (رفضوا إمامة الصديق والفاروق) فلما رآه ابن المعلم قال لأصحابه: جاءكم الشيطان. فلما جلس الإمام الباقراني أول ما بدأ أن قال: قال الله تعالى ﴿لَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَوَزَّعُوا﴾ (مريم ٨٣) رد عليه الصاع صاعين وألجمه وأسكته.

إخوتي في الله : أعتقد أنكم أصبحتم في شوق كبير لحضور إحدى المناظرات التي أجزاها الإمام الباقراني (نسب إلى الباقراني من بيعه الباقلاء (القول)). أنتقي مناظرة واحدة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً مناظرة غير عادية اجتمع لها بطارقة النصارى جميعاً مع ملك الروم، كلهم وقفوا في وجه إمامنا أبي بكر الباقراني. فقد وجّه الخليفة عضد الدولة إمامنا إلى ملك الروم، أرسله ليظهر رفعة الإسلام ويناطر الروم في عصره.

إننا الآن على أبواب قصر الملك، وكاد الإمام أن يرجع عن مقابلته لأنهم طلبوا منه قبل الدخول مطالب تخالف الإسلام:

طلبوا منه أولاً أن ينزع هو وأصحابه العمام قبل الدخول، فرفض الإمام وقال: إن الله قد رفعنا بالإسلام وأعزنا نبينا سيدنا محمد ﷺ، وإن من شأن الملوك إذا بعثوا رسلهم إلى ملك آخر رفع أقدارهم لا إذلهم ، سيما إذا كان الرسول من أهل العلم، فقال الملك: قد قبلنا عذره ، ورفعنا منزلته، دعوهم ينزلوا في جناح الضيوف حتى نأذن له بالدخول.

ثم طلبوا منه أن يقبل الأرض بين يدي الملك عند الدخول. فرفض الإمام رفضاً باتاً وقال : نحن أمة لا نسجد إلا لله . ولما علم الملك أنه سيدخل عليه بدون ركوع له صنع باباً صغيراً ليدخل منه القاضي الإمام منحنياً ليوهم الحاضرين أنه قبل الأرض.

معشر الإخوة الكرام :

أنتقل بكم الآن إلى قاعة الملك ، ها هو ملك الروم على عرشه ، والبطارقة عن اليمين وعن الشمال والحاشية حولهما، وأذن للإمام الباقلاني بالدخول، فوصل إلى الباب الصغير وعرف الحيلة ببديهيته، أتعرفون ماذا فعل؟ أدار ظهره للباب ودخل بظهره إلى الملك حتى إذا صار بين يديه رفع رأسه ونصب ظهره وأدار وجهه للملك.

عجب الملك من فطنته ووقعت له الهيبة في قلبه وعظمه وأجلسه عن يمينه، وكان بين يديه آلة طرب فأمر الملك بالعزف على الآلة، التي ما سمعها أحد إلا طرب ومال واهتز، فلما سمعها الإمام خاف على نفسه من المخالفة الشرعية أو يظهر منه طرب بحضرة الملك فجرح رجله حتى خرج منها الدم الكثير، فاشتغل بالألم عن الطرب. فعجب الملك من فعله أيما عجب.

ثم بدأت المناظرة: قال الملك: هذا الذي تدعون في معجزات نبيكم من انشقاق القمر كيف هو عندكم؟ قال الإمام: هو صحيح ، انشق القمر ورآه الحضور .
قال الملك: وكيف لم يره جميع الناس ؟ قال الإمام: لما نزلت المائدة على سيدنا عيسى من السماء، أنتم رأيتموها فقط، لماذا لم يرها اليهود والمجوس وأهل الإلحاد وباقي أهل الأرض؟! فسكت الملك.

يقول الراوي يا سادة يا كرام : وكان بجوار الملك قسيس أو بطرك أشقر الشعر مسبله، تسارر مع الملك. فقال الملك: ما تقولون في المسيح عيسى؟ قال: رُوح الله وكلمته وعبدته ونبيه ورسوله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون، وقرأ عليه آيات في سيدنا عيسى.

فقال: يا مسلم تقولون المسيح عبد ؟ قال: نعم وبه ندين. قال الملك: ولا تقولون أنه ابن الله؟! قال : معاذ الله ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ إنكم لتقولون قولاً عظيماً، فإذا جعلتم المسيح ابن الله فمن أبوه وأخوه وجده وعمه وخاله؟ قال الملك: يا مسلم، العبد يخلق ويحيي ويميت ويبرئ الأكمه والأبرص ؟ قال الإمام: لا يقدر العبد على ذلك إنما ذلك كله من فعل الله ، وإنما فعل المسيح ذلك كله بإذن الله وحده لا من ذات المسيح، ولو كان المسيح يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص من ذاته لجاز أن يقال: موسى فلق البحر، موسى أخرج يده بيضاء من غير سوء من ذاته؟!

وهنا التفت الإمام الباقلاني إلى البطرك وسأل عنه وسلم عليه، وسأل عن صحته وعافيته واحتفل به ، ثم قال له: كيف الأهل والولد، فقال من حوله: ما هذا الذي تقول؟! البطرك ليس له أن يكون زوجه وأولاد، أما علمت أن الراهب يتنزه عن هذا؟ وهنا انبرى لهم الإمام وقال: يا هؤلاء تنزهون هذا الإنسان عن اتخاذ

الصاحبة و الولد، ولا تنزهون ربكم عن الصاحبة و الولد، سوءةً لهذا الرأي ما أبين غلطه.

وسكت القوم وانبهروا وكأنما أصابتهم صاعقة، وكان أول من انتبه أحد الأساقفة قال:

ما فعلت زوجة نبيكم عائشة، وما كان من أمرها بما رُميت به من الإفك. فقال الإمام: موقفها كمریم عندما جاءت بولد تحمله، فبراهما الله ، لكن عائشة لم تأت بولد، ومريم أتت بولد ولم يكن لها زوج) وسكت البطرك وكأنما ألقم حجراً.

وهنا سأل الملك البطرك: ما تقول في هذا الشيطان؟ فقال: تقضي حاجته وتلاطف صاحبه وتبعث إليه بالهدايا وتخرجه من يومك وإلا اتبعته اليهود والنصارى ودخلوا في دينه.

وهكذا . **معشر السادة** . خرج الإمام من هذه المناظرة العالمية مرفوع الرأس عزيزاً، أعزّ الله به الإسلام ، وكسّر شوكة أعدائه المناظرين، وكان درساً لمن بعده من العلماء.

عاد ليستقبل كالمملوك الفاتحين من معركة النصر ، عاد شيخ السنة وإمام الأمة إلى بلده بغداد ليربي جيل سيدنا محمد ﷺ على العقيدة الصحيحة، وألف التصانيف المفيدة في العقيدة والرد على الفرق الضالة حتى وافاه الأجل سنة ٤٠٣ هـ .

وصلّى عليه ابنه الحسن وكانت جنازته مشهورة، أمر فيها شيخ الحنابلة منادياً يقول بين يدي جنازته: هذا ناصر السنة والدين والذات عن الشريعة. هذا الذي ألف سبعين ألف ورقة في الشريعة:

انظر إلى جبل قمشي الرجال به وانظر إلى القبر ما يحوي من الصّلف
وانظر إلى صارم الإسلام منغمداً وانظر إلى درة الإسلام في الصّدْف

رحل الإمام إلى الله تعالى وراه الطائي في منامه بعد موته وعليه ثياب حسنه
وبرياض خضرة ، نضرة وسمعه يقرأ في عيشة راضية في جنة عالية، فمن كان يريد أن
يلحق به هناك فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول
الله



مذاهب الإسلاميين د . عبد الرحمن بدوي ٥٦٩/١ هـ

شذرات الذهب للعكري ٢٠/٥

وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٦٩/٤

سير أعلام النبلاء للذهبي ١٩٠/١٧

الأعلام للزركلي ١٧٦/٦

الأنساب للسمعاني ٢٦٥/١

الكامل لابن الأثير ٢٦٩/١١١/٧

ترتيب المدارك للقاضي عياض ٢٠٤/٢

البداية والنهاية لابن كثير ٣٥٠/١١

(١٧٦)

الإمام أبو حامد الإسفراييني

(٣٤٤ . ٤٠٦ هـ)

الحمد لله الأول بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء، القديم الموجود لم يزل، الدائم الباقي بلا زوال، المتوحد بالفردانية، المتفرد بالإلهية، له الأسماء الحسنى والصفات العلى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ الشورى .

العليم القدير ، العلي الكبير، الولي الحميد ، العزيز المجيد، المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، له الخلق والأمر، وبيده النفع والضرر ، وله الحكم والتقدير، وله الملك والتدبير ، ليس له في صفاته شبيه ولا نظير، ولا له في إلهيته شريك ولا ظهير، ولا في ملكه عديل ولا وزير، ولا له في سلطانه ولي ولا نصير، فهو المتفرد بالملك والقدرة، والسلطان والعظمة .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً أحداً، سيداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ونبيه وصفيه ووليه ورضيه ، وأمينه على وحيه ، وخيرته من خلقه .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا و مولانا محمد وعلى اله الطيبين وأصحابه الطاهرين وأزواجه أمهات المؤمنين، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

أزور مع حضراتكم اليوم بلدة العلماء ، بلدة في شرق إيران عجل الله فرجها، يوم كان أهل السنة في أوج سلطاتهم، بلدة تسمى اسفرايين ، بلدة خرجت جماعة كبيرة من العلماء في كل فن قديماً وحديثاً، من مشاهيرهم ثلاثة ملؤوا الأرض علماً بالتأبع :

أولهم: أحد حفاظ الدنيا في الحديث النبوي الشريف، ومن رحل في أقطار الأرض لطلبه، هو سيدنا أبو عوانة يعقوب بن إسحق المتوفى سنة ٣١٦ هـ .
وثانيهم : أستاذ الدنيا في عصره، ومن بلغ حدّ الاجتهاد وهو من العلماء المتبحرة في كل فن، الذي استجمع شرائط الإمامة من العربية والفقه والكلام والأصول ومعرفة الكتاب والسنة، وهو الإمام أبو اسحق إبراهيم بن محمد الاسفراييني المتوفى سنة ٤١٨ هـ، ويوم مات لم تتوقف الأمطار عن النزول إلا ساعة دفنه (الأنساب للسمعاني ١ / ١٤٣) .

وثالثهم : إمامنا اليوم، أتعرفون ماذا قال عنه المؤرخون ؟
لقبوه بلقب الأستاذ وشيخ الإسلام، وآخر لقبه بأنه شيخ الدهر بلا منازع، ووجه العصر بغير مدافع (أي لا مثيل له) إذ أن جميع شيوخ المذاهب دانت له (حنفية شافعية مالكية حنابلة)، وزاد الله من فضله عليه أن تلامذته طبقوا الأرض علماً وملئوها تصانيفاً . وقال عنه الإمام تاج الدين السبكي رضي الله عنه (٤ / ٦١ طبقات الشافعية) إنه جبل من جبال العلم منيع ، وحبر من أحبار الأمة رفيع، وعد الشافعي الثاني على طريقة أهل العراق في الفقه ، ذلك أن المذهب الشافعي فيه طريقتان في تدوين الفروع الفقهية : طريقة الخراسانيين أو المرازمة ورئيسها الإمام القفال المروزي (محمد بن أحمد) (٤٢٩ . ٥٠٧ هـ) وطريقة العراقيين وهي طريقة إمامنا اليوم، وعن هذين الطريقتين انتشر المذهب الشافعي ، بل إن علماءنا الأفذاذ عدوه مجدد الدين للمئة الرابعة الهجرية في الحديث الذي رواه الإمامين أبو داود (٤٢٩١) والحاكم (٤ / ٥٢٢) يقول الإمام ابن الصلاح رضي الله عنه : وعلى الشيخ أبي حامد تأويل بعض العلماء حديث (**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها**) فكان الإمام الشافعي على رأس المئتين (لأبن سيدنا عمر بن عبد العزيز على رأس المئة الأولى) والإمام ابن سريج على رأس الثلاثمئة، وأبو حامد هذا على رأس الأربعمئة .

إننا . **معشر السادة** . ننزل زائرین على الإمام سيد المناظرین سيدنا :

أبي حامد أحمد بن محمد بن أحمد الاسفراييني
ومع الحلقة ستة وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من
جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام أبي حامد
الاسفراييني .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد إمامنا في بلدة اسفرين جهة نيسابور (سنة ٣٤٤ هـ) ،
وبدأ بحفظ القرآن والسنة ، فلما شبَّ عمل حارساً على إحدى الدروب، كان
يطالع دروسه على زيت السراج الخاص بالحرس، فما أن بلغ الحلم أو سن السابعة
عشرة حتى بدأ يفتي في المذهب، ثم قدم بغداد وله عشرون سنة وتابع دراسته في
علوم العربية والشريعة وتفقه على شيوخ كان من أبرزهم شيخان :
الإمام علي بن أحمد المازني الفقيه الورع الزاهد ، وهو من أصحاب الوجوه في
المذهب الشافعي (ت ٣٦٦ هـ) فلما مات لزم عالماً إماماً من أئمة الشافعية هو
الإمام عبد العزيز بن عبد الله الداركي قال عنه المؤرخون: ما رأينا أفقه منه. وعنه
أخذ علماء بغداد (ت ٣٧٥ هـ) وكان فقهه مؤيد بالحديث النبوي ، ولم يكتف
الإمام بالشيوخ بل أرسل إلى مصر يشتري له أمالي الإمام الشافعي بمئة دينار ذهبي
، حتى برع في المذهب وأربى على المتقدمين وصار أواحد وقته ، وانتهت إليه الرئاسة،
وصار فريد زمانه وأنظرهم ، حتى إنه شرح كتاب مختصر المزني في الفقه الشافعي
يشرحه في دروسه من حفظه حتى وبلغت شروحه خمسين مجلداً في المذهب
الشافعي، وسميت بالتعليقة (تعليقة واحدة على كتاب واحد فقط شرحه بخمسين
مجلداً) وكان التلامذة يكتبون عنه ويزدادون يوماً بعد يوم حتى بلغوا ثلاثمائة متفقه
عليهم العمائم، كتبوا عنه من العلم ما لم يكتب نظيره عن أحد بعده من مذاهب
العلماء وبسط الأدلة عليها . حتى قال الإمام الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (
حضرت تدريسه في مسجد عبد الله بن المبارك وصار الناس يقولون : لو رآه
الشافعي لفرح به)

وكان له درسان في الأصول (له فيه تعليقة أخرى) ، وفي الفقه .
وعمّ خيره الشافعي والحنبلي والحنفي والمالكي، حتى صار المناظر الأوحى في
مجالس المناظرات، ومرة غلب بمناظرته كل مناظر فقام إمام الحنفية أبو الحسين
القدوري فقال : الشيخ أبو حامد عندي أفقه وأنظر من الشافعي « من شدة
حجته التي ردّ بها على مناظريه .

لكن أعظم شيء قام به إمامنا شيء لم نسمع به في حياتنا سوى مرة واحدة، إذ
أن الدولة الفاطمية في مصر قام ملكها الحاكم بأمر إبليس فأعلن نفسه إلهاً على
الأرض، إذ أنه ادّعى أنه من ذرية سيدنا علي، وأن الله تعالى حلّ في سيدنا علي
وفي ذريته من بعده، وahan الآن دوره، فأمر الناس حوله أن يسجدوا له ويعبدوه.

وما أن بلغ الخبر الإمام أبا حامد حتى ثارت ثائرتة وتداعى علماء بغداد إلى عقد
مؤتمر في قصر الخليفة العباسي القادر ، مؤتمر شهده العلماء والأئمة من كل مذهب
ومن كلّ فن، وحضر القضاة والأشراف ونقباء الأشراف لهذا الخطب الجلل.

ولذا اسمحو لي . أيها السادة . أن ادعوكم إلى عاصمة الخلافة العباسية لحضور
هذا المؤتمر العام الذي دعا إليه الإمام أبو حامد الإسفراييني باسم الخليفة العباسي .

نحن الآن في بغداد - فرّج الله عنها - وخلال جلسة واحدة للمؤتمر يتلو على
مسامعنا البيان الختامي للمؤتمر، حيث أجمع الحضور على تلقيه بالناجم بدل
الحاكم، وأثبتوا فيه نسب هذا الملك، وأنه ليس من ذرية سيدنا علي، وجيء إلى
المجلس بمصحف من بعض الفرق التابعة لهذا الناجم وهم يدّعون أنه مصحف ابن
مسعود وهو يخالف المصاحف كلها، فأمر الإمام أبو حامد أولاً بحرق هذا المصحف
امام المجلس ، ثم ألقى البيان التالي « هذا ما شهد به القضاة والأئمة : إن جماعة
الحاكم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخزّمي إخوان الكافرين ونطف الشياطين،
شهادة يتقربون بها إلى الله تعالى، معتقدين ما أوجب الله على العلماء أن ينشروه
للناس، فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم، حكم
الله عليه بالبوار والخزي والنكال ابن معد بن إسماعيل بن

عبد الرحمن بن سعيد (لا أسعده الله) فإنه لما صار إلى المغرب تسمى بعبد الله وتلقب بالمهدي وهو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليه وعليهم اللعنة، أدعياء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب، وإن ذلك زور وباطل بإجماع المجلس لا يعلمون فيه خلافاً وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه كفار وفساق وفجار وزنادقة ولمذهب الثنوية واليهودية معتقدون، قد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ولعنوا السلف وادعوا الربوبية »

كتب هذا البيان في شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٢ هـ .

كتب الإمام هذا البيان ولم يخش قوة الدولة التي سمّت نفسها بالدولة الفاطمية، وسيدتنا فاطمة رضي الله عنها منهم براء. ولكن أعداء الله وخاصة أصحاب المصحف الذي حرّقه الإمام كمنوا للإمام وأردوا الغدر به ولكن الله لم يمكنهم منه كما فعل بنبيه سيدنا محمد ﷺ عند الهجرة، إذ هرب من البيت إلى دار أخرى حتى سكنت الفتنة ببغداد.

أيها الأحبة والصحب: علينا أن نعلم أن الإمام قد وصل إلى درجة من المكانة والمنزلة أن هابه الخاص والعام والحاكم والمحكوم، وهو لم يخف في الله لومة لائم، وكانت فتاوية تسري على الملوك والسوقة، حتى إنه مرة أفتى فتوى لم تعجب الخليفة العباسي نفسه وتكلم بحضرة رجال معبراً عن هذا الاستياء ولمح أنه سيعزله عن رئاسة الشافعية، وإذا بالشيخ الإمام أبي حامد الاسفراييني رضي الله عنه يخطّ كتاباً إلى الخليفة يقول فيه:

« اعلم بأنك لست بقادر على عزلي عن ولايتي التي ولّانيها الله تعالى، وأنا أقدر أن اكتب رقعة إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث اعزلك عن خلافتك ، والسلام » .
هل لا حظتم نبرة هذا التهديد إنه إن دلّ على شيء يدل على عظيم جاه الإمام عند الملوك.

فيا أمة الإسلام : احفظوا القاعدة التي نستفيد منها اليوم من حياة هذا الإمام:
« من خاف الله خافه كل شيء » « وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم

عليهم بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والغضب» .

لقد كان الإمام ابو حامد علماً من اعلام الأمة قلّ نظيره، بقي شامخاً عزيزاً عالماً متعلماً حتى وافاه أجله سنة ست وأربعمائة هجرية (٤٠٦ هـ) وخرجت بغداد - ليس الشافعية فقط - بل بغداد كلها في جنازة هذا الإمام تحمله على رؤوسها كما حمل دين الله على رأسه، حتى من كثرة المشيعين الذي كانوا بين حزين وباكٍ، ومتأسف وشديد البكاء، من كثرتم صلوا عليه في الصحراء.

بكت السماء والأرض يوم وفاته	وبكى عليه الوحي والتنزيل
والشمس والقمر المنير تناوحا	حزناً عليه وللنجوم عويل
إن الإمام الفرد في آدابه	ما إن له في العالمين عدل
لا تخدعك منى الحياة فإنها	تلهي وتنسي والمنى تضليل
وتأهبن للموت قبل نزوله	فالموت حتم والبقاء قليل

(الطبقات ٤/٢٨٣)

المصادر : طبقات الشافعية للسبكي ١٤٣/١

سير أعلام النبلاء ١٧/

شذرات الذهب لابن العماد

طبقات الشافعية للإسنوي

طبقات الشافعية لابن شهيه ١٦١/١

وفيات الأعيان لابن خلكان

(١٧٧)

الإمام البيهقي

(٣٨٤ . ٤٥٨ هـ)

الحمد لله الذي شرف قدر العلماء، وجعلهم قدوة لأهل الأرض بعد الأنبياء، ومزج قلوبهم بالقواعد الفقهية بعد أن تجلّى عليها بالمعارف والأسرار الإلهية، فجعلهم حججاً وبراهين لصيانة الدين، فاضمحلّ بهم طغيان المعاندين، وتوجّجهم بذروة المجد وحطّ عنهم كلّ محنة وبليّة، فلذلك خاضوا في قواعده الأصولية، فتهيئوا لإقامة الأحكام بنية صادقة وعزم تام، فبذلك هجروا لذيق المنام وطابت لهم الآخرة من بين الأنام، وزهدوا في الدنيا واعتصموا بالملك العلام

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون لنا حصناً حصيناً، وبها نتخلص مما قر في الفؤاد كميناً، وتكون وسيلة لنجاتنا يوم الفرع الأكبر، بفضل من لا يعجزه شيء ولا يقهر .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله لكافة العرب والعجم، وبظهوره اضمحل الكفر وانعدم .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وبجائه نتوسل فنسلم، وعلى آله وأصحابه الناصرين له في جميع الغزوات، الملازمين لخدمته في جميع الأحوال والأوقات، رضوان الله عليهم وعلى أئمتنا المجتهدين الثقات وعلى أتباعهم في المحبة الصادقين الهداة، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

كنت أسأل نفسي ما هي أسباب نبوغ الأئمة الأثبات في وقت مبكر من حياتهم، وكيف يتّصل نسبهم بالحقيقة المحمدية وتسمو به نفوسهم ؟

فوجدت أنّ البيئة من أهم الوسائل التي تسمو بالمؤمن إلى مصافّ العلماء الذين هم امتداد من أثر النبوة .

لقد وجدت أن الأخلاق السامية العليا التي يربّي عليها المؤمن منذ نعومة أظفاره، مع ما يجتمع إليها من نزاهة قصده وخلوص نيته ، ومراقبته لله تعالى ، وتقلله من أعباء الدنيا، بالإضافة إلى عباداته : إنّ كل ذلك يسمو بروح العالم ويصقل مواهبه ويكبر نبوغه ويسدّد الله خطاه .

ونحن اليوم نזור أحد هؤلاء النوابغ الذين بكر نبوغهم، أزور معكم اليوم منطقة نيسابور في إيران ، وبالذات منطقة بيهق، فكم خرّجت هذه المنطقة من علماء للأمة الإسلامية جمعوا المجد من أطرافه، ومنهم إمامنا اليوم، هو فقيه شافعي من الدرجة الأولى وحافظ كبير للحديث الشريف ، وأصولي كبير ، وحق لنا أن نقول : إنه جبل من جبال العلم، جمع إلى العلم الزهد والورع والإتقان والضبط، وصنّف في نصرة المذهب الشافعي أصولاً وفروعاً حتى عدّ من شيوخ الإسلام الذين يشار إليهم بالبنان :

إنه شيخ خراسان الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي .
ومع الحلقة سبعة وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام أبي بكر البيهقي .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد الإمام البيهقي سنة أربع وثمانين وثلاثمائة هجرية (٣٨٤ هـ) في إحدى قرى بيهق، ثم انتقل إلى بيهق في سن الخامسة عشرة ليتابع تحصيله العلمي، وبدأ بسماع الحديث النبوي (سنة ٣٩٩ هـ) فكتب الحديث وحفظه في صباه وتفقه وبرع وأخذ فن الأصول .

وعلى عادة المحدثين في الرحلة إلى طلب العلم فقد مضى البيهقي إلى بلاد شتى، ارتحل إلى شرق خراسان ثم العراق والحجاز وطوّف في الآفاق وجمع بين علمي الحديث و الفقه، وكان في ذلك يصدر عن نفس خاشعة ورعة ، ترقب الله تعالى وتطلب العلم لوجه الله ، راضٍ صابر على بأساء الحياة لا يشكو قلة ولا عوزاً، سرد الصوم ثلاثين سنة حتى لقب بصائم الدهر، تراه كثير العبادة قائماً آناء الليل وهو القائل :

من اعتر بالمولى فذاك جليل ومن رام عزّاً من سواه ذليل
ولو أنّ نفسي مذ براها ملكيها مضى عمرها في سجدة لقليل
أحب مناجاة الحبيب بأوجه لكنّ لسان المذنبين كليل

كانت همة الإمام العالية ونفسه السامية لا ترى فوق العلم مطلباً أنفـس منه ، وهياً الله تعالى له شيوخاً أثباتاً اعتنوا به أشدّ الاعتناء، أبرزهم صاحب المستدرك في الحديث الإمام أبو عبد الله الحاكم، ومن أهم شيوخه الإمام أبو عبد الرحمن السلمي (محمد بن الحسين ٣٠٣ - ٤١٢ هـ) شيخ خراسان وشيخ الصوفية الذي جمع من الكتب ما لم يسبق إلى ترتيبه حتى بلغت كتبه المئة .

ثم والد إمام الحرمين عبد الله بن يوسف الجويني شيخ الشافعية الملقب بركن الدين (ت ٤٣٨ هـ) والإمام أبو اسحق الاسفراييني أحد المجتهدين في عصره (ت ٤١٨ هـ) ، والإمام ابن فورك شيخ علماء الكلام في عصره الملقب بناصر الدين (٣٢٢ - ٤٠٦ هـ) وغيرهم كثيرون حتى بلغ عدد مشايخه أكثر من مئة شيخ .

معشر الإخوة :

وبارك الله تعالى في علم الإمام البيهقي فأثمر عدداً من التصانيف العظيمة، إذ أن الإمام البيهقي انقطع بقريته مقبلاً على الجمع والتأليف، وأفى فيها عمره، ونصر في هذه المؤلفات مذهب الإمام الشافعي، إذ أيد كل مسألة منه بدليل من السنة

والأثر، وأثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنّ كل حكم نص عليه مولانا الإمام الشافعي نابع من أصل السنة النبوية والكتاب العزيز .

وكانت مصنفاته الـ ٢٦ مصنفاً تتسم بسبقها وشمولها وصحة ما جاء فيها لعدم اعتماده على الروايات المرجوحة والضعيفة مما جعلها تنتشر في الآفاق ويقبل عليها طلاب الحديث .

واسمعوا إلى ما يقوله الإمام السبكي شيخ الشافعية في القرن الثامن عن مصنفات الإمام البيهقي في طبقاته (٩/٤) يقول :

- ١ . وأما كتابه السنن الكبير فما صُنّف في علم الحديث مثله
- ٢ . وأما كتابه معرفة السنن والآثار فلا يستغني عنه فقيه شافعي .
- ٣ . وأما كتابه المبسوط في نصوص الإمام الشافعي فما صنف في نوعه مثله .
- ٤ . وأما كتاب الأسماء والصفات فلا أعرف له نظيراً
- ٥ . وأما كتاب الاعتقاد، وكتاب دلائل النبوة، وكتاب شعب الإيمان وكتاب مناقب الشافعي فأقسم ما لواحد منها نظير .

وهكذا يشهد الإمام السبكي بعظمة مؤلفات الإمام البيهقي ويشيد بها ، مما دعا إمام الحرمين لأن يقول :

« مامن شافعي إلا وللشافعي في عنقه منة إلا البيهقي فإنّ له على الشافعي منّة لتصانيفه في نصرة مذهبه» .

إخوتي في الله : كان الإمام البيهقي على سيرة العلماء الأعلام قانعاً باليسير متجماً في زهده وورعه، لذا جاءت الدعوات الكثيرة من طلبة العلم ولعلماء يطلبون منه الانتقال من بيهق إلى نيسابور ليسمعوا منه كتبه التي ألفها، فما إن وصلها سنة ٤٤١ هـ إحدى وأربعين حتى استقبل استقبالاً عظيماً يليق بمكانته العلمية وعقدت المؤتمرات العلمية التي شهدها آلاف الطلبة، وعقدوا له المجالس وحضره الأئمة، وتكاثر عليه الطلبة وهم يسمعون منه كتبه، يقول الإمام الذهبي: « لو شاء الإمام

البیهقي أن يعمل لنفسه مذهباً يجتهد فيه لكان قادراً على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف الفقهي .

وأرى . معشر الإخوة . لزماً علي أن أحضر مع حضراتكم مجلس من مجالس الإمام لعلنا أن نحسب من جملة أحبابه وتلامذته، فإلى هناك ، إلى نيسابور، إلى العراق والشام ، إلى كل مكان جلس فيه الإمام مؤيداً مذهب أهل السنة والجماعة، وقد انتقيت لكم مجلساً يتكلم فيه الإمام ما يناسب الذكرى التي تعيشها الأمة الإسلامية ألا وهي ذكرى ولادة الحبيب الأعظم يقول :

« أخبرنا أبو عبد الله الحافظ بسنده عن أبي اسحق قال : كان هشام بن عروة يحدث عن أبيه، عن عائشة قالت: « لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ قال رجل يهودي في مجلس من قريش : يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟ فقال القوم : والله ما نعلمه، قال : الله أكبر، أما إذا أخطأتم فلا بأس، انظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد فيكم هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس، لا يرضع ليلتين ذلك أن عفريتاً من الجن أدخل إصبعه في فمه فمنعه الرضاع . فتصدّع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله، فقالوا : لقد ولد لعبد الله بن المطلب غلام سموه محمدا .

فالتقى القوم فقالوا : هل سمعتم حديث هذا اليهودي ؟ بلغكم مولد هذا الغلام ؟ فانطلقوا حتى جاؤوا اليهودي فأخبروه الخبر، فقال : فاذهبوا معي حتى أنظر إليه . فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة .

فقال: أخرجي لنا ابنك فأخرجته، وكشفوا له عن ظهره فرأى تلك الشامة فوقع اليهودي مغشياً عليه، فلما أفاق قالوا : ويلك مالك ؟

قال : ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل، أفرحتم به يا معشر قريش ؟ أما والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب .

(ح ٢ / ٦٠١) وعن عثمان بن أبي العاص قال : حدثني أُمِّي أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ ليلة ولدته قالت : فما شيء أنظر إليه في البيت إلا نور، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول ليقعن علي (مجمع الزوائد ٨ / ٢٢٠)

وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ بسنده عن ابن اسحق قال : كانت آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ تحدّث أنها أتيت حين حملت بمحمد ﷺ فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وقع على الأرض فقولي (أعيذه بالواحد من شر كل حاسد) وقال : فإن آية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام، فإذا وقع فسميه محمداً، فإن اسمه في التوراة والإنجيل : أحمد، يحمدُه أهل السماء والأرض، واسمه في القرآن : محمد . فسمته بذلك . فلما وضعته بعثت إلى عبد المطلب جاريتها وقد هلك عبد الله وهي حبلى

فلما جاءها خبرته خبره، وحدثته بما رأت حين حملت به وما قيل لها فيه، وما أمرت أن تسميه . فأخذه عبد المطلب فأدخله في جوف الكعبة، فقام عبد المطلب يدعو الله ويتشكر الله عز وجل الذي أعطاه إياه، فقال :

الحمد لله الذي أعطاني	هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهدي على الغلمان	أعيذه بالبيت ذي الأركان
حتى يكون بلغة الفتیان	حتى أراه بالغ البنیان
أعيذه من كل ذي شنان	من حاسد مضطرب الجنان
أنت الذي سميت في الفرقان	في كتب ثابتة المعاني
أحمد مكتوب على اللسان	

(طبقات ابن سعد ١ / ١٠٣ . تهذيب تاريخ دمشق ١ / ٢٨٤ . البداية والنهاية (٢٦٤ . ٢) .

أيها السادة الكرام:

أمضى الإمام أربعاً وسبعين سنة في إقراء العلم والحديث، حتى حضرته منيته سنة ٤٥٨ هـ ثمان وخمسين و أربعمئة، وودعه أهل بيهق والقرى إلى مرقد، وارتقت روحه إلى هناك بعد أن كانت هنا، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي ﷺ

صلى الله
عليه
وسلم

المصادر :

سير أعلام النبلاء ١٨ / ١٦٣

وقيات الأعيان ١ / ٧٥

الكامل لابن الأثير ١٠ / ٥٢

الوافي بالوفيات ٦ / ٣٥٤

طبقات السبكي ٨/٤

طبقات الإسنوي ١ / ١٩٨

البداية والنهاية ١٢ / ٩٤

النجوم الزاهرة ٥ / ٧٧

شذرات الذهب ٥ / ٢٤٨

(١٧٨)

الإمام محمد الغزالي

(٤٥٠ . ٥٥٠ هـ)

الحمد لله الذي زحزح هم الأولياء عن السكون إلى العاجلة، وشرح صدور السعداء لإيثار الآجلة، المنفرد بالكمال والكبرياء والجلال والبقاء والعز الذي لانفاذ له، القلوب تعرفه بصنعة والرقاب خاضعة لعزته، والعقول في تعظيمه حائرة ذاهلة. أحمده سبحانه وتعالى على ما أسبغ علينا من نعمة الكاملة. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ضمن الربح لمن عامله، وغفر زلات عبادته عند المساء له، وقرب أحبابه فعيونهم في خدمته ساهره ، ينجيه كل منهم فيقول:

إلهي بك أستجير ومن يجير سواك
يارب قد أذنبت فاغفر ذلتي
فأرحم ضعيفاً يحتتمي بحماك
أنت المحيى لكل من نادك

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله إلى أمة غافله، ليدمر حزب الشيطان بالمكافحة والمناضلة، فأوضح كل مشكله ، وبين حكم كل نازله، حتى أضحت شمس الإيمان مشرقه، ونجوم البهتان آفله.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه صلاة دائمة متواصله، وسلم تسليماً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أحضر وإياكم اليوم مباراة علمية، ليست مباراة في الرياضة أو الغناء، فهي حرام ، تكشف فيه العورات ، ولكنكم لا تعرفون المباريات العلمية التي كانت تسمى المناظرات، ويجتمع لها الناس ويشرف عليها الأمراء وتقام في القصور كالمباريات التي سأحضرها معكم اليوم ، فقد أقيمت في قصر الوزير نظام الملك في منطقة نيسابور.

هذا القصر كان يُدار منه أكثر من نصف بلاد الإسلام، هذه المباريات العلمية أو المناظرات قد تكون في فن من الفنون كالمناظرات النحوية الفقهية وقد تشتمل على أكثر من فن، كما هي اليوم، فمباراتنا اليوم عجيبة حقاً، لأنها مباراة في كل علم.

والمتبارون العلماء جميعاً ضد رجل واحد، أتى هذا القصر للمرة الأولى، حضر العلماء جميعاً ، ووقفوا ضد شاب عمره ثلاث وثلاثون سنة، ولكن اسم هذا الشاب كان قد ملاً الأسماع وسارت بتأليفه الآفاق، كان اليوم الأول للمناظرة في فقه الشافعية أصوله وفروعه، وأوردوا على الشاب غرائب المسائل ، وحضر الوزير نظام الملك وانبهر بأجوبة هذا الشاب، وعجب أكثر عندما أقرّوا للفتى بالإمامة في المذهب ، وبايعوه على رئاسة الشافعية في تلك الديار.

وفي اليوم الثاني ناظر علماء الكلام أي العقيدة، في عصر كان العصر الذهبي في العقيدة، كانت مناظرة هائلة استمرت ساعات انتهت بالإقرار له بأنه إمام في العقيدة، وكان اليوم الثالث موعداً لمناظرة في الفلسفة اليونانية، جاء الفلاسفة الذي قرؤوا كتب أفلاطون وأرسطو متعالين شامخين بأنوفهم كأنهم يترفعون عن الوقوف أمامه ظانين أنه لم يقرأ فلاسفة اليونان ولا شروح فلاسفة الإسلام ، وبدأت المناظرة وما زال الفلاسفة يتضاءلون ويصغرون ويتضاءلون ويصغرون حتى رأوا هذه الفقيه أعرف منهم بمذاهب الفلاسفة وأشد إدراكاً لها، واستمرت المناظرات العامة أياماً قهر فيها هذا الشاب وغلب المناظرين وبويع إماماً على الإطلاق وأعجب به الوزير نظام الملك فقرر تعيينه أستاذاً في الجامعة النظامية الكبرى في بغداد.

لعلكم تسألون من هذا العالم الشاب؟ وهل كانت له هذه المزايا كلها أم أنت

تبالغ وتتهيل! وكيف صارت له هذه المكانة؟

ثقوا - يا إخوتي - إني لا أبالغ ولا أتهيل ، وإنه أكبر مما ما وصفت لكم، وأنه أحد العشرة الكبار جداً من أرباب العلم، وهو أقدر من لخص الفلسفة اليونانية ،

وأقدر من ردّ عليها أيدها وقوّاهها ثم ضربها ضربة لم تقم لها بعده قائمة أبداً، كيف فعل ذلك؟!!

ألّف كتابه (مقاصد الفلاسفة) ألّخص فيه الفلسفة ووضحها ، فأقبل عليه الفلاسفة ليتلمذوا على يديه، ثم ألّف كتابه (تخافت الفلاسفة) فكان هذا الكتاب كالضربة القاضية في الملائمة ، لا يقوم بعدها الخصم أبداً.

وقد انفرد هذا الإمام بميزة لم تكن لسواه، فقد بلغ في العلوم العقلية مرتبة لا تضاهي وصار مدرّساً في الجامعة النظامية في بغداد، وألّف الكتب العظيمة التي انتشرت في الدنيا وهو ما زال بعد على قيد الحياة، ثم وجد أن ذلك كله لم يرض قلبه عن نفسه فترك كل هذا الجاه العلمي العريض وتفرّغ للعبادة والتأمل والتصوّف وألّف كتابه العظيم إحياء علوم الدين كتاب ليس له نظير في التربية الإسلامية.

أيها السادة:

أعتقد أنكم قد عرفتم من هذا الإمام الشاب، إنه رباني الأمة بالاتفاق، وقطب عصره بلا منازع ، ومجتهد زمانه وأوانه، سيدنا الإمام الغزالي حجة الإسلام ومع الحلقة ثمانية وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً أن تتعرضوا عن سيدنا الإمام الغزالي :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان: كان اسم الغزالي بركة عليه في كل حياته، إذا أن اسمه هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي، ولد بطوس سنة ٤٥٠ هـ، وكان والده يعمل بغزل الصوف وإليه نسب الغزالي، ولم يكن والده عالماً ولكنه كان كلما مرّ على حلقات العلم فيه يتأسّى على حاله وجهله ويسأل الله تعالى أن يرزقه ولدأً فقيهاً، وإن جلس في درس الوعظ يتمنى أن يرزقه الله ولدأً واعظاً.

واستجاب الله له فرزقه ولدين أحدهما : صار أعظم الفقهاء ومجتهد وقته وهو سيدنا الإمام أبو حامد محمد الغزالي، وآخر : اسمه الإمام أحمد من أكبر الوعاظ والصوفية، طغت عليه شهرة الإمام أبو حامد، لكن والدهما أدركته المنية وهما ما يزالان صغيرين.

وكان له صديق صوفي عهد بهما إليه ، فقام بالإنفاق عليهما من مالهما حتى نفذ، ورأى بنور الإيمان أن للفتين مستقبلاً عظيماً، فقال لهما: قد أنفقت عليكما كل ما كان لكما من مال ، وأنا رجل فقير فأرى أن تلتحقا بمدرسة من هذه المدارس الخيرية لتأويكما وتنفق عليكما، فدخلتا المدرسة لأجل السكنى والنفقة لا لأجل العلم خاصة، وفي ذلك يقول الإمام الغزالي: . أردنا هذا العلم للدنيا فأبى الله إلا أن يجعله للآخرة .

كانت هذه المدارس يا ناس تعلّم طالب العلم العلوم الشرعية كما هي المدارس الشرعية اليوم كمعهدنا التهذيب والتعليم ومعهد الفتح ومعهد الأمانة ودار الحديث وغيرها، هذه المدارس بناها الأخيار من أهل الخير تقدم للطلاب الفراش والطعام والشراب والكسوة والنفقة والكتب المجانية، وتحمل هموم الطالب وتعلّمهم مع العلم الأخلاق، والعلم بلا أخلاق شر على صاحبه، الجهل خير منه.

وهنا - أيها الإخوة - يبدأ سيدنا الإمام الغزالي مرحلة جديدة من أهمها الدراسة على الشيوخ وأول شيخ تأثر به الإمام الغزالي أيما تأثير إمام الحرمين الجويني ، لازمه مدة طويلة وقلّده بعدها وساماً عظيماً بقي حياً ، أبد الدهر للأجيال اللاحقة، قال: الغزالي بحر مغرق .

وبعد سنوات الدراسة الطويلة التي بلغت الثلاثين سنة قام بالمناظرة العلمية التي تولى على أثرها التدريس في الجامعة النظامية حتى ضربت بعلمه الأمثال وشدّت إليه الرحال، ونال لقب حجة الإسلام.

إخوتي في الله:

اكتشف الإمام الغزالي بعد أن أصبح إمام الدنيا أن نيته في التدريس الذي كان يمتننه لم تكن خالصة لوجه الله ، وأدرك أنه هالك إن لم يتدارك نفسه فوقع في صراع بينه وبين التدريس والاعتزال، فأصابه بما يسميه علماء طب النفس بالحبسة الكلامية أو عقال المدرس، وتلك حالة يبلغها المرء حينما يتراوح بين أمرين كلاهما صعب عليه تحقيقه، فأقفل الله عليه لسانه، فكان لسانه لا ينطق بكلمة ، وتداعى بالمرض النفسي فحار به الأطباء، فدبّر السفر إلى الشام وتلطّف بالحيل ليخرج من بغداد، فرحل إلى الشام ودخل مدينتنا دمشق أثناء مروره إلى بيت المقدس ، عكف في قبة الصخرة وأغلق عليه بابها ، ثم عاد إلى دمشق إلى الجامع الأموي وسكن الزاوية الغربية التي سميت باسمه.

اعتزل الناس ولم يعرف بشخصه للناس ، ولازم الخلوة والرياضة والمجاهدة عشر سنوات ، يذكر الله ويتعبده كما يفعل الصوفية، وفي هذا المكان الأموي ألف كتابه العظيم إحياء علوم الدين.

وكان يدخل الجامع بزي العوام حتى لا يعرفه أحد، عشر سنوات، ومرة دخل فرأى قروياً يسأل العلماء عن فتوى، ويدور عليهم من حلقة إلى حلقة، فلم يعرفوا جوابها، فناده الإمام الغزالي وسأله: ما مسألتك؟ فنظر إليه الرجل وقال: المفتون لا يعرفوها أفتعرفها أنت؟ قال: هاتما، فألقاها عليه، فأجابه الإمام الغزالي عليها، فطار بها الرجل إلى المفتين ومرّ على الحلقات وقال لهم: العامي يعرف جوابها وأنتم لا تعرفون، فأخبرهم عنه، فقاموا إليه جميعاً وحلّفوه ليعرفوا من هو، فقال لهم بتواضع: محمد الغزالي، فقامت قائمة القوم فرحاً واحتفلوا به وسألوه أن يعقد لهم مجلساً من الغد، فبحثوا عنه في الغد فلم يجدوه ، لأنه كان قد هرب في

الليل ليحج إلى بيت الله الحرام ويكتسب من بركات سيدنا محمد ﷺ.

ثم عاد إلى وطنه بغداد، عاد بقلب جديد ونور جديد، عاد ليصرِّح لكل من حوله: أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن طريقهم أقرب الطرق إلى النبي، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، لأن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرها وباطنها مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله، ومفتاحها هو استغراق القلب بالكلية لذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية لله تعالى. يقول الإمام الغزالي في رسالته: أيها الولد: خلاصة العلم أن تعلم أن الطاعة والعبادة ما هي، واعلم أنهما متابعة الشارع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل، فالعلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة.

كانت أيام الغزالي في الخلوة قد علمته الإخلاص، كانت حاله كحال سيدنا رسول الله ﷺ حين كان يقبل على جبل حراء فيخلو إلى ربه يتعبّد حتى قالت فيه العرب: إنّ محمداً عشق ربه.

عاد الإمام الغزالي بهذه الروح الشفافة لينشر العلم مع الإخلاص ويصلح به نفسه والناس، عقد مجلسه ببغداد وأملى الإحياء على تلامذته، لكنه لم يستمر هذه المرة في بغداد لأنه استقال وعاد إلى بلده طوس، فأنشأ بها تكية ومدرسة وبقي في الذكر والعبادة والتعليم وحفظ الأحاديث الصحاح التي لو قدّر له أن يعيش لأعاد نظره في الإحياء ثانية، لكن تلميذه فوجئ به يوم الاثنين بعد أن صلّى الصبح يقول: إلي بالكفن فأخذه وقبّله ووضع على عينيه وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مدّ رجليه واستقبل القبلة ومات.

مات سنة ٥٠٥ هـ بعد أن صار قطب الوجود. يقول العارف بالله سيدنا أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: رأيت النبي ﷺ في المنام ومعه سيدنا موسى وسيدنا عيسى وهو يباهي بالإمام الغزالي ويقول: أي أمتكما خير مثل هذا؟ قالوا: لا.

لا مثيل للإمام الغزالي لا هنا ولا هناك ، لا على الصعيد العربي ولا الغربي، لقد كان نسيج وحده، فمن أراد أن يلتقي به مع الحبيب الأعظم هناك، فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا؟ هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.

صلى الله
عليه وسلم

المصادر

رجال من التاريخ الشيخ الطنطاوي رحمه الله

البداية والنهاية ١٢/١٧٣

اتحاف السادة المتقين ١/٦

سير أعلام النبلاء ج ١٩ /

(١٧٩)

سيدنا عبد القادر الجيلاني

(٥٤٧٠ هـ . ٥٦١ هـ)

الحمد لله الذي تفرّد بالعزّ والجلال، وتوحد بالكبرياء والكمال، تفضّل على المطيعين بلذيد الإقبال، نعمهم في الدنيا بمعرفته وخدمته، وأكرمهم في العقبى برؤية وجهه ، فلهم النعيم في الحال والمآل.

وأملى للعصاة بإدامة النعم فظنّوا الإمهال إهمال، سبقت قسمته فما يغني الاحتيال ، فتدلّ بين يدي مولاك أيها الفقير، واقرع الباب بدوام الابتهاال، فهو الحُكم الرؤوف الرحيم الذي لا تخيب لديه الآمال.

وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا نفاد لملكه ولا زوال، يعلم ما أضمره العبد من السر وأخفى منه ما لم يخطر على بال.

وأشهد أنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أيّده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وزينه بأشرف الخصال ، ورفعته إلى المقام الأسنى فكان قاب قوسين أو أدنى وآتاه الجمال.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة بالغدو والآصال، وسلم تسليماً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

من منا لا يعرف ملك الزمان، وإمام المكان، من منا اليوم لا يعرف القائم بأمر الله والوارث بكتاب الله، من منا لا يعرف نائب سيدنا رسول الله ﷺ ؟ أتعرفون اليوم من نزور؟ سأزور معكم قطب زمانه وسيد أوانه الذي كان درسه ببغداد يحضره سبعون ألف رجل كلهم تابوا على يديه.

سأدخل معكم على مجلس ما دخله عبد إلا جعله الله تقياً نقياً صالحاً مهدياً، فهل أنتم مستعدون؟ إن لم تكونوا مستعدين فيني لا أستطيع أن أتأخر عنه، لأنني طالما تمنيت زيارته من صغري عندما كان والدي رحمه الله يحدّثني عنه. تعالوا لنسمع كلمة من فمه الطاهر ما قالها أحد من الأولياء ولا الأبدال ولا النقباء ولا النجباء ولا الأقطاب، ما قالها إلا هو، ها هو يقول: **قدمي هذه على رقبة كل ولي لله.**

أتدرون ماذا فعل الأولياء كلهم في عصره؟ أتدرون ماذا فعل سيدي أحمد الرفاعي، وسيدي الشيخ رسلان الدمشقي وسيدي أبو مدين الغوث أمام مريديهم، لقد مدّ كل منهم عنقه وقال: على رقبتني، فاستغرب المريدون الجالسون مع سيدي أحمد الرفاعي في العراق ، وسيدي الشيخ رسلان بدمشق ، وسيدي أبي مدين الغوث في المغرب، سألوا ساداتنا الأولياء هؤلاء فقال كل منهم: الآن ببغداد الشيخ عبد القادر الجيلاني قال:

قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، فمددنا أعناقنا تصديقاً لكلامه.

أيها الإخوة الكرام:

أرحب مع حضراتكم بقطب الأولياء الكرام ، وشيخ المسلمين والإسلام ، ركن الشريعة وعلم الطريقة ، وموضح أسرار الحقيقة ، حامل راية علماء المعارف والمفاخر ، شيخ الشيوخ ، وقدوة الأولياء العارفين الأكابر أستاذ الوجود أرحب بسيدي وجدي الشيخ **عبد القادر الجيلاني** بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن سيدنا الحسن بن سيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا محمد

صلوات الله
وعلى آله

عبدك فوق المعالي رتبة	وله المحاسن والفخار الأفخر
وله الحقائق والطرائق في الهدى	وله المعارف كالكواكب تزهر
وله الفضائل والمكارم والندا	وله المناقب في المحافل تنشر
وله التقدم والمعالي في العلا	وله المراتب في النهاية تكثر
غوث الورى غيث الندى نور الهدى	بدر الدجى شمس الضحى بل أنور
قطع العلوم مع العقول فأصبحت	أطوارها من دونه تتحير
ما في علاه مقالة لمخالف	فمسائل الإجماع فيه تسطر

ومع الحلقة تسعة وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن إماننا سيدي عبد القادر الجيلاني.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان:

ولد جدي سيدنا عبد القادر بجيلان من طبرستان^(١) سنة ٤٧٠ هـ وقدم بغداد شاباً سنة ٤٨٨ هـ، وتفقه حنبلياً على القاضي أبي سعدة المخرمي (ت ٥١٣ هـ) وغيره حتى أحكم الأصول والفروع والخلاف المذهبي ، ولازم الأدب على أبي زكريا التبريزي والإمام حماداً بن مسلم الدباس (الذي انتهت إليه تربية المريدين ببغداد وانعقد عليه الإجماع ، لأنه من أهل الكشف) لازم عليه الخلوة والرياضة والسياسة والمجاهدة والسهر والمقام في الصحراء، وأخذ عليه علم الطريق.

ثم إن الله تعالى أظهره للخلق وأوقع له القبول العظيم وعقد مجلس درسه سنة ٥٢١ هـ، وأظهر الله الحكمة على لسانه، وبدأ يصنّف في الفروع والأصول.

(١) تحت مدائن كسرى.

وقوي بالاشتغال بالتدريس حتى نقلوا عنه (الطبقات الكبرى للشعراني) فقالوا: "كان يتكلم في ثلاثة عشر علماً وكانوا يقرؤون عليه في مدرسة درساً من التفسير ، ودرساً من الحديث ، ودرساً من المذهب ، ودرساً من الخلاف المذهبي، وكانت القراءة عليه طرقي النهار في التفسير وعلوم الحديث ، والمذهب والأصول والنحو . وكان يقرأ بالقراءات بعد الظهر ، ويفتي على مذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وكانت فتواه تُعرض على العلماء بالعراق فتعجبهم أشدّ الإعجاب . رفع إليه مرة سؤال : في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لا بدّ أن يعبد الله عز وجل عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها ، فماذا يفعل من العبادات ؟! فأجاب على الفور :

. يأتي مكة ويحلي له المطاف ، ويطوف سبعاً وحده (سبعة أشواط) وينحلّ يمينه .

فأعجب علماء العراق ، وكانوا قد عجزوا عن الجواب عنها . حتى غدا إمام الحنابلة ، وشيخهم في عصره .

يبدأ درسه بختم القرآن كاملاً بين أصحابه ، ثم يلقي درساً يفهمه مريدوه ، وتزاحم عليه الناس حتى ضاقت عليه مدرسته فخرج منها إلى سور بغداد ، يستند إلى جدار مدرسته ليلقي درسه والناس بين يديه ، فإذا دخل وقت الصلاة صلّى بهم الفريضة إماماً ، أتعرفون ماذا كان يفعل بعد الدرس كل ليلة ، كان رضي الله عنه يأمر كل ليلة بمدّ البساط ، يأكل مع الأضياف ويجالس الضعفاء ، ويصبر على طلبه العلم ، لا يظن جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، ويتفقد من غاب من أصحابه ويسأل عن شأنهم ، ويحفظ ودّهم ، ويعفو عن سيئاتهم ، ويصدّق من حلف له ، ويخفي علمه فيه (قلائد الجواهر) .

يحدّثنا سيدنا عبد القادر فيقول: كانت تأتيني الإلهامات في المنام، كنت أؤمر وأُنهى في النوم واليقظة وكان يغلب عليّ الكلام ويزدحم على قلبي إن لم أتكلّم به،

حتى أكاد أختنق ولا أقدر أن يسكت. وكان يجلس عندي رجلان وثلاثة، وتسامع الناس وازدحم عليّ الخلق حتى صار يحضر مجلسي نحو من سبعين ألفاً.

وكان يقول: أراد الله مني منفعة الخلق، فقد أسلم على يدي أكثر من خمسمئة ، وتاب على يدي أكثر من مئة ألف. ففاق أهل زمانه في علوم الدين وكانت له القدم الراسخة في التصوف حتى عرفت طريقته بالقادرية. وسبب إقبال الناس عليه أن طريقته كانت سهلة على المسلم ومفهومة وتتفق مع روح الإسلام، حتى أشاد به علماء الأمة منهم ابن كثير الدمشقي لقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزهده ومكاشفاته وورعه وصلاحه، كما تأثر به ابن تيمية (الذي كان يحمل على شطط الصوفية) وقال عن طريقته: إنها الطريقة الشرعية الصحيحة، فما هي هذه الطريقة التي أشاد بها العلماء؟

أريدكم - أيها الإخوة - أن تعرفوا أن سيدنا الشيخ عبد القادر هو أول من نادى بالطرق الصوفية وأسسها وكان يقول: إن التصوّف من الصفاء من أدران النفس الأمّارة بالسوء، وأتّه الصّدق مع الحق وحسن الخُلُق مع الخلق. فعنده التصوف هو الأخلاق، من زاد عليك بالأخلاق فقد زاد عليك بالتصوّف، والصوفي يجب أن يكون في كلّ أحواله على ثلاثة أمور: أمر يمتثل له، ونهي يجتنبه، وقَدَرٌ يرضى به. فهذه الثلاثة يجب على الصوفي القادري أن ينطبع بها ليزهد في الدنيا ويفنى عنها.

يقول سيدنا الإمام الشعراوي عنه : " كانت طريقته التوحيد وصفاً وحكماً وحالاً وتحقيقه الشرع ظاهراً وباطناً "

والمتصوّف لا ينبغي أن يخترع لنفسه عبادات وصلوات لم يكتبها الله تعالى عليه، يعني باختصار: التصوف عند سيدي عبد القادر أن يلتزم الصوفي الكتاب والسنة

التزاماً حرفياً، فكل حقيقة يتصف بها الصوفي لا تشهد لها الشريعة الغراء فهي زندقة.

واسمعوا إليه وهو يقول " طُرِّ إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة ، ادخل عليه ويدك في يد الرسول ﷺ ، اجعله وزيرك ومعلمك ، دع يده تزينك وتمشطك وتغْرِضُك عليه " . ويقول منكراً على من يعتقد أن التكاليف الشرعية تسقط عن السالك في حال من الأحوال : " ترك العبادات المفروضات زندقة ، وارتكاب المحظورات معصية ، لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال " (الرباني ١١)

" اتبعوا ولا تبتدعوا ، وأطيعوا ولا تخالفوا " (الطبقات الكبرى للشعراني ١٢٩)
وأريدكم اليوم أن تحفظوا الوصايا السبعة التي كانت تقوم عليها الطريقة القادرية:

- ١ - مجاهدة النفس عن هواها.
- ٢ - التوكل على الله.
- ٣ - حسن الخلق مع الناس.
- ٤ - الذكر لله تعالى.
- ٥ - الصبر على قضائه.
- ٦ - الرضى بقدره.
- ٧ - الصدق في كل أمره.

وأنا أسأل أليست هذه الوصايا السبعة من عيون الشريعة الغراء؟ أليس هذا هو مقام السالكون إلى الله؟ إن سيدنا الشيخ عبد القادر يريد من المريد عنده أن يكون عبد الأمر الإلهي وليس عبد هواه، يريد ما يريده الله تعالى، لا ما تريده نفسه الأمارة بالسوء، هذا هو عين التوحيد، لذا كان رضي الله عنه يقول لمريديه: الخلق حجابك عن نفسك، ونفسك حجابك عن ربك، ما دمت ترى الخلق لا ترى

نفسك، وما دمت ترى نفسك لا ترى ربك.

إخوتي في الله:

بهذه الشفافية الشرعية، وبهذه الروح النورانية وصل سيدنا عبد القادر الجيلاني إلى الولاية القطبية ، وظهرت الكرامات على يديه ، والتي قال عنها الفقيه الحنبلي ابن قدامة (٥٤١ - ٦٢٠ هـ) لم أسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عن الشيخ عبد القادر، ولا رأيت أحداً يعظمه الناس للدين أكثر منه.

وقال عنه سيدنا العز بن عبد السلام الفقيه الشافعي : "ما نقلت إلينا كرامات أحد بالتواتر إلا الشيخ عبد القادر"

وقال سيدنا الإمام النووي (في كتابه بستان العرفين) : " ما علمنا فيما بلغنا من الثقات الناقلين كرامات الأولياء أكثر مما وصل إلينا من كرامات القطب شيخ بغداد محيي الدين عبد القادر الجيلاني رضى الله عنه ، "

جلس جماعة يتحدثون أن الذباب لا يقع على سيدنا الشيخ عبد القادر، فأتاه واحد منهم يسلم على الشيخ في مجلسه فالتفت إليه مولانا الشيخ عبد القادر وقال له: إيش يعمل عندي الذباب، لا دبس الدنيا عندي ولا غسل الآخرة. وقال آخر: كنت وأنا شاب أقرأ النحو وأسمع الناس يصفون حُسن كلام الشيخ عبد القادر ، فكنت أريد أن أسمع ولا يتسع وقتي فاتفق أني حضرت يوماً مجلسه فلما تكلم لم أستحسن كلامه ولم أفهمه وقلت في نفسي: ضاع اليوم مني، فالتفت إلى ناحيتي فقال: ويلك تفضّل النحو على مجالس الذكر وتختار ذلك؟ اصحبنا نصيرك سيبويه (الله يفتح عليك ببركتنا).

وجاء حفيد الوزير بن هبيرة إلى جدّه الوزير يستأذنه أن يزور مولانا الجيلاني فأذن له وقال: خذ هذا المبلغ من الذهب وأعطه للشيخ، فلما نزل مولانا الجيلاني عن المنبر يوم الجمعة سلّم عليه حفيد الوزير، وتحرّج من دفع الذهب إليه أمام الناس، فقال: هات ما معك ولا عليك من الناس وسلّم لي على الوزير. أمطرت السماء مرة

وهو يعطي الدرس فتفرق بعض أهل المجلس ليتقوا المطر ، فرفع رأسه وقال : أنا أجمع عليك وأنت تفرق علي قال: فسكت المطر عن المجلس وبقي على حاله يقع خارج المدرسة ولا يقطر على المجلس قطرة واحدة .

كان أحد شيوخ الصوفية الكبار وهو الشيخ عمر السهروردي يشتغل بعلم الكلام في شبابه وكان عمه يزجره ، فأتيا يوماً إلى الإمام سيدي عبد القادر فشكى عمه للإمام ابن أخيه وأنه مشغول يعلم الكلام . فنظر سيدنا عبد القادر إليه وسأله عن الكتب التي قرأها . (فلم تعجبه) قال فمر بيده المباركة على صدر السهروردي ، يقول فوالله مانزعها وأنا أحفظ من الكتب لفظة . وأنساني الله مسائلها وأقر الله في صدري العلم اللدني في الوقت العاجل وقمت بين يديه وأنا أنطق بالحكمة وقال لي : يا عمر أنت آخر المشهورين في العراق .

وقال رجل يدعى الجباني : كنت أسمع كتاب حلية الأولياء على ابن ناصر ، فرق قلبي وقلت في نفسي أشتهي أن أنقطع عن الخلق في زاوية وأشتغل بالعبادة ، ومضيت وصليت خلف الشيخ عبد القادر فلما صلى جلست بين يديه فنظر إلي وقال : إذا أردت الانقطاع فلا تنقطع حتى تتفقه وتجالس الشيوخ وتتأدب بهم ، فحينئذ يصلح لك الانقطاع ، وإلا فتمضي وتنقطع قبل أن تتفقه وأنت فريخ ما ريشت ، فإن أشكل عليك شيء من أمر دينك تخرج من زاويتك وتسأل الناس عن أمر دينك ، ما أحسن صاحب الزاوية أن يكون كالشمعة يستضاء بنورها .

ودخل عليه الإمام علي بن الهيثي فوفاه فوق سطح مدرسته يصلي الضحى فنظر إلى الفضاء فوجد أربعين صفاً من الأولياء واقفين في كل صف سبعون رجلاً ، فقلت لهم: ألا تجلسون؟ فقالوا: لا نجلس حتى يقضي القطب صلاته ويأذن لنا فإن يده فوق يدينا وقدمه على رقابنا ،

ولما سلم الإمام أقبل القوم يسلمون عليه ويقبلون يديه ، يقول:(ابن الهيثي) ما وجد الإمام عبد القادر في مكان إلا و يقول سيدنا عبد

القادر رضي الله عنه : خرجت في بعض سياحتي إلى البرية ومكثت أياماً لا أجد ماءً فاشتدَّ بي العطش فإذا بغمامة تظللني وينزل علي منها شيء يشبه الندى حتى ترويت ، ثم رأيت ، نوراً أضاء حولي ، وبدت لي صورة ونويت منها : يا عبد القادر أنا ربك ، وقد حللت لك المحرمات ، فقال سيدنا عبد القادر : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فإذا بذلك النور ظلام ، وتلك الصورة دخان ، وإذا هو إبليس ، وإذا بإبليس يجيبه : يا عبد القادر نجوت مني بعلمك ، وبحفظ ربك ، وصدقك في أحوال منا زلاتك ، ولقد أغويت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق .

وسئل الإمام الجبلائي بم عرفته أنه شيطان ، فقال بقوله : قد حللت لك المحرمات .

لكن حدثاً أجلاً وقع للإمام أثناء وجوده في الدرس . فقد اعتدى كافر في الهند على امرأة مسلمة يريد هتك عرضها ، وكانت المرأة تسمع عن كرامات سيدنا الجبلائي ، فنادت : اللهم أنجدي بالجبلائي يا جبلائي الغوث الغوث ، وإذا بالإمام في الدرس يتناول فردة قبقابه فيرمها نحو الهند فيقتله ، وهكذا يثبت لنا حديث البخاري "وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ..."

معشر الإخوة :

عاش جدي الجبلائي تسعين سنة فلما حضره الأجل أوصى ولده ومن حوله فقال : عليك بتقوى الله وطاعته ، ولا تخف أحداً ولا ترجه ، وكل الحوائج كلها إلى الله عز وجل واطلبها منه ، ولا تثق بأحد سوى الله عز وجل ، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه : التوحيد . التوحيد . التوحيد . مروا بأخبار الصفات كما جاءت ، الحكم يتغير والعلم لا يتغير ، الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ ، لا تبغض علم الله بحكمه .

ثم قال : قد حضر عندي غيركم فوسعوا لهم وتأدبوا معهم ، ههنا زحمة عظيمة ، ولا تضيقوا عليهم المكان ، وصار يمد يده ويرفعها عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ،

هو ذا أجي إليكم ، استعنت بلا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ، وانتقل إلى جوار الله سنة ٥٦١ هـ وشيعه أهل بغداد وخلق لا يحصون من الأبدال والأولياء الغائبين والحضار ، ودفن هناك في مدرسته ، فمن أراد أن يجتمع به هناك ، فليبق هنا ، وما أدراك ما هناك ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ •

صلى الله
عليه
وسلم

• مصادر خطبة سيدنا عبد القادر :

- . رجال الفكر والدعوة في الإسلام أبو الحسن الندوي دار ابن كثير ص ٢٣٥
- . قلائد الجواهر في مناقب سيدنا عبد القادر الجيلاني محمد بن يحيى الشافعي الحنبلي
- . طبقات الحنابلة لابن رجب
- . إمام الحنابلة وتاج الأولياء محمد سليمان الطيب
- . سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٤٣٩

(١٨٠)

السلطان نور الدين الزنكي

(٥١١ . ٥٦٩ هـ)

الحمد لله الذي ستر بستره وأجمل ، الشكور الذي عمّ بيره وأجزل ، الرحيم الذي أتمّ إحسانه على المؤمنين وأكمل ، يبعث للأمة رجالاً يجدد بهم الدين الأول ، فسبحان من أقبل بجلوه وبره على من يرجع إليه وأقبل . أحمده سبحانه على ما أنعم وأكرم وتفضل .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد خضع لهيته وتذل ، يقول عزّ من قائل : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أوحى مولانا عزّ وجل إليه الكتاب ونزل .

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين تضرّعوا بين يدي مولانا بقلب مقبّد ودمع مرسل ، وسلّم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

إن من الرجال رجالاً لم يعرف تاريخ البشرية كلهم أظهر منهم نفوساً ، ولا أقوم سيرة ، ولا أعظم أثراً ، اللهم إلا الأنبياء الذين لا تجد عليهم مطعناً في دين ولا خلق ولا سياسة ولا قيادة ، رجال لا تجد أمثالاً لهم في غير التاريخ الإسلامي كالصديق والفاروق وذو النورين وحيدر وابن الزبير وعمر بن عبد العزيز والمتوكل ونور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ، ومن سلك طريقهم ، قد سمعتم إخواني بصلاح الدين ، فهل سمعتم بنور الدين محمود؟ كان الخليفة الصديق وأمير المؤمنين سيدنا عمر قد تقلّد الخلافة في صدر الإسلام حيث الدين غض والزمان مقبل ، وجاء صلاح الدين ونور الدين والزمان مدبر والدين ضعيف ، والعدو

الغاصب يملك أكثر من نصف الشام، والمسلمون دول وحكومات كل بلدة دولة، كانت خلافة بغداد اسماً بلا جسم، وخلافة القاهرة جسداً بلا روح، والدولة السلجوقية تصدعت كنجم الفجر، وقد استفحل هذا الداء الذي رمانا به سيدنا معاوية، داء توارث الملك، وتمكن عظم شرّه حتى صارت القاعدة في دول الإسلام لا سيما في بلاد الشام آنذاك أنه كلما مات ملك تقاسم أولاده ملكه كما يتقاسمون أمواله ودوابه.

ومن هنا صار في الشام نحو من عشر دول صليبية وإسلامية بعد أن كانت الشام كلها قديماً ولاية صغيرة من دولة الإسلام. ولم يخل الزمان من مناوشات بيننا وبين الإفرنج، فقد تداعى أولو النجدة والبأس لقتالهم فلم يدعوهم يستريحون يوماً واحداً أمثال ألب أرسلان الأمير السلجوقي، وآق سنقر جد نور الدين، وحسبت الدولة الصليبية على السواحل الشامية أنها ستبقى إلى الأبد، ثم جاء من بعده ابنه زنكي، عماد الدين زنكي المحارب البطّاش الذي أقلق الصليبيين فقتل أثناء الجهاد ثم جاء سيدنا نور الدين، جاء وقد كان الإفرنج قد ملكوا أكثر البلاد منذ خمسين سنة وكانوا أعداد الرمال، تمدهم أوروبا كلها، وحسب الناس أن هذه الغمّة لن تزول، فما هي إلا أن ظهر الرجل الذي نشر راية القرآن وضرب بسيف سيدنا محمد، إنه سيدنا نور الدين محمود، وبدأ النصر يسير في ركب المسلمين، فكيف تمّ ذلك؟ إننا معشر الإخوة مع الحلقة ثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لأن تترضوا عن السلطان نور الدين محمود.

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان: ولد سيدنا نور الدين في حلب سنة إحدى عشرة وخمس مئة، وأصله من الترك وتربى في حضن أبيه صاحب حلب والموصل وغيرهما، وتعلّم القرآن والفروسية والرمي، وكان شهماً شجاعاً ذا همّة عالية وحرمة وافرة وديانة بيّنة، وحين

استشهد والده سنة ٥٤١ هـ تملك ابنه نور الدين حلب والابن الآخر غازي تولى الموصل ، وتنقّس الإفرنج الصعداء واستبشروا يحسبون أنه قد خلا العرين بموت الأسد، ما دروا أنه الآن قد دخل الأسد العرين، وما دروا أنه قد جاء نور الدين. سيدنا نور الدين التي كانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من المعارك المظفرة، وضع همه في توحيد المسلمين في دولة واحدة وطرد الإفرنج من بلاد الشام، افتتح ملكه بحمل راية العدل والجهاد ، وافتتح نيفاً وخمسين مدينة وحصناً، وعزم على فتح بيت المقدس قبيل وفاته، حتى قيل: قل أن ترى العيون مثله، كسر خلال حياته شوكة الإفرنج مرات ودوخهم وأذلهم ، حتى إن مدينة حارم فتحها بعدما لبثت سبعين سنة حصناً للإفرنج، كان يحب أن يموت شهيداً حتى سمعه كاتبه يسأل الله تعالى أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير.

وكان يلعب الكرة على فرسه ليعلمها الانعطاف والكر والفر في الجهاد، حتى قيل إنه كان أقوى الناس قلباً وبدناً، لم يُر على ظهر فرس أحد أشد منه كأماً خُلق عليه، وحين أَمعن في القتال خاف عليه القادة فقالوا: بالله عليك يا مولانا السلطان لا تخاطر بنفسك فإنك لو قتلت قتل جميع من معك، وأخذت البلاد وفسد حال المسلمين، فقال سيدنا نور الدين: اسكت فإن قولك إساءة أدب على الله، ومن هو محمود، من كان يحفظ الدين والبلاد قبلي غير الذي لا إله إلا هو، ومن هو محمود؟! قال فبكي وأبكى الناس حوله.

إخوتي في الله: بنى سيدنا نور الدين المدارس في دمشق وحلب وبلبك والجوامع والمساجد وأنشأ مشفى لم يبن في الشام قبله مثله، سمي بالمرستان النوري، وقام بإبطال المكوث والضرائب، وبنى داراً للعدل وأنصف الرعية وأوقف الأوقاف في البلاد الشامية. ترك الأذان بحج على خير العمل، وهي بدعة الدولة الفاطمية، وعاد إلى الأذان الشرعي، وكان يتبع السنة ويقف عند حدود الشرع، منع الخمر في بلاده، وكان في عدله آية الآيات، وقف مع خصمه أمام القاضي الشهرزوي وقد

أرسل إلى القاضي أن لا تعاملني إلا معاملة الخصوم ، فحين وصلا وقف السلطان نور الدين مع خصمه بين يدي القاضي حتى انفصلت الخصومة والحكومة، ولم يثبت للرجل على السلطان نور الدين الحق بل ثبت الحق للسلطان على الرجل، فلما تبين ذلك قال السلطان: إنما جئت لئلا يتخلف أحد عن الحضور إلى الشرع إذا دعي إليه ، فإننا نحن معاشر الحكام أعلننا وأدنا تابعون لرسول الله ولشرعه، وأنا أعلم أنه لا حق للرجل عندي، ومع هذا أشهدكم أنني قد أعطيته ذلك الذي ادّعى به ووهبته له.

أيها الأحبة والصحب: مع كل هذه السجايا والمزايا نرى سيدنا نور الدين كثير المطالعة والصلاة في الجماعة ويصوم ويتلو ويسبح ويتشبه بالعلماء الأخيار ويوافي الصالحين ويزورهم ، وكان فقيهاً حنفياً يراعي مذهب الإمام مالك والإمام الشافعي رضي الله عنهم، وله زوجة تدعى عصمة الدين خاتون كانت تكثر من قيام الليل، وله ولد يدعى الصالح إسماعيل أحسن أهل زمانه.

أتعرفون أيها السادة كم مليوناً كان يأخذ من بيت المال ليصرف على نفسه سنوياً؟ وكم كان رصيده في بنوك سويسرا؟ كان رحمه الله لا يأخذ فلساً واحداً من بيت المال، كان يأكل من عمل يده ينسخ الكتب بخطه المريح، ويعمل أغلاقاً للأبواب ويدفعها سرّاً إلى من يبيعها له، حكى من صحبه حضراً وسفراً أنه ما سمع منه كلمة فاحشة في رضاه ولا في ضجره، وله من المناقب ما يستغرق الوصف:

جمع الشجاعة والخشوع لديه ما أحسن الشجعان في الخراب

مما دعا ابن الأثير أن يقول: لم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحرياً للعدل منه.

في هذه الظروف - **يا سادة** - جاء الجيش الصليبي الذي قدّر المؤرخون عدد جنوده بمليون، وهي الحملة الصليبية الثانية، لم يكن جيشاً واحداً ، ولكن جيوش أوروبا جميعها على رأسهم لويس السابع ملك فرنسا وملك ألمانيا، حتى دخل من نجا

منهم من السلجوقيين إلى بيت المقدس وصلّوا في كنيسة القيامة صلاة الموت ثم قصدوا دمشق، وأصبح أهلنا هنا في دمشق في أحد الأيام، وإذا بجيوش الإفرنج في المزة اليوم ، ومخيم الألمان في الملعب البلدي (في المعرض اليوم)، وخيمة ملك فرنسا في الميدان، فهبت دمشق ولدمشق المؤمنة المجاهدة هبات تشده التاريخ، واستنجد صاحبها بسيدنا نور الدين في حلب وأخيه سيف الدين غازي في الموصل ، فأقبل الشقيقان بالجيش اللّجب وقابل المسلّحة من أوروبا وردّوا جيوشها عن دمشق سنة ٥٤٩ هـ.

معشر السادة: وصل سيدنا نور الدين في حصار الإفرنج إلى أطراف مصر ، وحاصره نور الدين عشرين يوماً ، يصوم ولا يفطر إلا على الماء فضعف وكاد يتلف، وكان مهيباً ما يجسر أحداً أن يخاطبه في ذلك، فقال إمامه يحيى : إنه رأى النبي ﷺ في النوم يقول: يا يحيى بشّر نور الدين برحيل الإفرنج عن دميّاط، فقال: يا رسول الله ربما لا يصدقني، فقال له: قل له بعلامة يوم حارم.

وانتبه يحيى من نومه فلما صلّى السلطان نور الدين الصبح مع جنوده وشرع يدعو، هابه يحيى، فالتفت سيدنا نور الدين إلى يحيى وقال: يا يحيى تحدّثني أو أحدثك؟ فارتعد يحيى وسكت، وقال أنا أحدثك: رأيت النبي هذه الليلة وقال لك كذا وكذا، قال: نعم، فبالله يا مولانا السلطان ما معنى قوله: بعلامة يوم حارم؟ فقال: لما التقينا العدو خفت على الإسلام فانفردت ونزلت ومرّغت وجهي على التراب وقلت: يا سيدي من محمود الكلب، الدين دينك والجند جندك وهذا اليوم أفعل ما يليق بكرمك ولا تنصر محموداً ، ومن هو محمود الكلب حتى ينتصر!

أيها الإخوة: ملأت سيرة نور الدين كلّ قلب محبة له ، وكلّ لسان ثناء عليه ، وكان حقاً خليفة محمدياً وكان بعد كلّ نصر يستقبله أهل الشام بالأهازيج: نور الدين يا منصور.

كان سيدنا نور الدين ولياً زاهداً في ثياب قائد، وعالمًا عاملاً في ثياب ملك، وكان واحداً من التسعة الذين لم يعرف مثلهم تاريخنا، هذا الرجل الذي وُحِدَ البلاد وطهرها من الإفرنج ، ووضع الأساس الذي قام عليه بناء صلاح الدين ، فقولوا رضي الله عنك يا نور الدين.

يا أمة العرب والإسلام: كلما تذكرتم خطب العراق وأفغانستان أو هبّت عليكم من نحو فلسطين عاصفة عدوان فاذهبوا إلى نور الدين وصلاح الدين، إنهما بجوار مسجدنا على بعد ٣٠٠ متر، لتذكروا مصائب أكبر من مصيبة يهود، إفرنج أوروبا قامت في بلادنا أكثر من مئة سنة ، وكنا على حال من التفرّق والضعف والجهل شر مما نحن عليه اليوم.

ومع ذلك أزاح الله هذه الغمة ، وصارت حكومات الإفرنج التي عاشت في القدس وفي أطراف الشام قرناً كاملاً صارت خيراً تافهاً في زاوية من زوايا التاريخ لا يدري به أكثر الحاضرين، وسيأتي زمان (قولوا إن شاء الله) يبعث الله لنا فارساً يحمل راية القرآن. تيقنوا يا سادة، سيظهر في العرب نور الدين جديد ينشر راية القرآن التي لم تنهزم قط، نور الدين جديد يضرب بسيف سيدنا محمد ﷺ.

يا إخواني في الدرويشية نحن على موعد بعد الصلاة والدرس أن أسير معكم خطوات إلى قبر ذلك البطل، آخر شارع الحريقة إلى جامع نور الدين الشهيد، الشهيد الذي نال الشهادة على فراشه سنة ٥٦٩ هـ، وريثما أنتقل بحضراتكم سيراً على الأقدام إلى هناك، إلى روضة السلطان نور الدين أدعوكم هنا لترفعوا التحية إلى سيد الوجود والبركة العامة لكل مخلوق موجود (١)

^١ المصادر: ترجمة نور الدين محمود زنكي

سير أعلام النبلاء ٥٣١/٢٠

البداية والنهاية ٢٧٧/١٢

رجال من التاريخ للطنطاوي ١٨١

(١٨١)

الإمام ابن عساكر

(٤٩٩-٥٧١ هـ)

حمداً لمن فجر ينابيع الحكيم والأحكام، كما فجر الأرض عيوناً من بحر الكرم
والإنعام ، وشكراً لمن جعل الأماكن المقدسة مهبطاً لملائكته الكرام .

وخصّ ملائكة الرحمن وجعلها باسطة أجنحتها على الشام (أحمد ت) التي هي
مورد الأقطاب ، ومسكن الأبدال الفخام (أحمد ت)

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صمد لا يمثله عقل، ولا يحده فكر
ولا تدركه الأفهام ، سبق الزمان فلا يقال متى كان ، وخلق المكان فلا يقال أين
كان، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله أينعت غصون شريعته في
قلوب أهل الإسلام ، وانتظمت جوامع كلمه وبدائع حكمه في صكك البلاغة
وفصيح الكلام .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الأئمة الأعلام،
ما سجدت في محراب الطروس جياذ الأقلام ، وسلم تسليمًا .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

هذه شخصية من تاريخ الإسلام ، كانت أعجوبة التاريخ ، تفرّد بعلم الحديث
والاعتقاد الصحيح ، وأطلق عليها معاصروها ألقاباً تشعر بعظمة صاحبها، منها :
ثقة الدين ، صدر الحفاظ ، إمام المحدثين ، ناصر السنة ، محدث الشام ومؤرخها .
نعم اشتهر حياته كمحدث فلما مات ازدادت شهرته كمؤرخ ، وكان فخر
الشافعية في عصره ، وأ نموذجاً كاملاً لطلبة الدورة السادسة في مدرسة سيدنا محمد

رحل وطوّف وجاب البلاد ولقي الشيوخ وجمع من الحديث والأثر ما لم يجمعه أحد . واجتمع فيه عدد من العلوم جعلته عالماً موسوعياً، فهو محدث سني أشعري فقيه شافعي مؤرخ قارئ شاعر أديب ، نظر بعين إلى المشرق وبالأخرى إلى المغرب فوجد العلماء على أقسام: منهم يكتب تاريخ البلدان (كمعجم البلدان) ، آخرون يكتبون في تاريخ الطبقات :طبقات العلماء ، طبقات القراء ، طبقات المفسرين ، والصوفية والآداب والزهاد والنحاة والشعراء والمحدثين والفقهاء ، وبعضهم يؤرخ لبلد بعينه كتاريخ بغداد ، وتاريخ الرقة، وتاريخ أصبهان ، فأراد أن يجمع كل تلك الأنواع في التاريخ في كتاب واحد ، وجد أهل الشام وهو منهم يفخرون بالإسلام وبسيدنا محمد ﷺ وبدمشق وبالجامع الأموي فصنع لهم فخراً آخر ، صنع لهم تاريخاً ليس له مثل . أرخ فيه للحياة الشامية السياسية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية.

فاسمحوا لي . إخوتي . أن أزور مع حضراتكم علماً من أعلام بلدنا الحبيب، وسيداً من أكابر سروات الدماشقة، إنه:

سيدنا علي بن محمد الملقب بابن عساكر الدمشقي صاحب تاريخ دمشق ومع الحلقة واحد وثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن سيدنا علي ابن عساكر :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوتي الإيمان :

أطلّ نور الإمام في أول محرم سنة تسع وتسعين وأربعمئة هجرية (٤٩٩ هـ) من أسرة علمية دينية ينطبق عليها قوله تعالى ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ﴾ .

فوالدته من بيت القرشي أسرة معروفة بالفقه والعلم، وجدّه لأمه (يحيى بن علي) المعروف بابن الصانع قاضي دمشق (٤٤٣-٥٣٤هـ) وخاله قاضيان مشهوران (محمد بن يحيى بن علي ت ٥٣٧هـ) (وسلطان بن يحيى ت ٥٣٠هـ) ووالده فقيه محدّث (٤٨٨-٥٦٣هـ) فهي أسرة ذات حظ سعيد في الإسلام أنجبت هذه العبقرية الفذة .

ورأت أمه حين حملت به قائلاً يقول : تلدين غلاماً يكون له شأن . ورأى أباه أنه يولد له ولد يحيي الله به السنة الشريفة . وصدّق الله تعالى ما رأى الأبوان، فقد شبَّ محباً للسنة المطهرة التي ربّاهما عليه والده وأخوه وشيوخ عصره الذين قرّبوه لما وجدوا من نباهته ورغبته في طلب العلم وهمته العالية، حتى إن شيخه ابن قبيس (علي بن أحمد ٤٤٢-٥٣٠هـ) قال: إني لأرجو أن يحيي الله بك هذا الدين .

إخوتي في الله : كان همّ الإمام الإمام الأول أن يأخذ عن شيوخ دمشق كل ما يستطيع حمله من هذا العلم ، فكان ينتقل من حلقة شيخ إلى أخرى، لا يفوته من إسنادهم شيئاً .

وكان الآباء العلماء يأتون بأولادهم في سن مبكرة معهم إلى مجلس العلم لتلقي الحديث ورؤية الرجال وإسماعهم الحديث ، وبعدها يقوم الولد أو الطالب بنفسه في التلقي ، وهذا هو ما قام به والده وأخوه الصائن.

ثم اتجهت أنظاره نحو المشرق إلى مراكز العلم الكبرى، إلى بغداد وما حولها . وعلى عادة العلماء من أهل الحديث كانت الرحلة في طلب الحديث من خصائص هذه الأمة المحمدية ولم يعهد في الناس قبل الإسلام مثلها، بل صارت أساساً في شرط الثقة العالم وعلمه وفهمه ، لذلك قالوا : **من لم يرحل فلا ثقة بعلمه**. والرحلة . **أيها الإخوة** . تمكن المحدّث من علمه ويحصّل فيها خبرات العلماء ويطلع على مناهجهم وأسانيدهم العالية، ويوثّق الصلة بين العلماء بعضهم مع

بعض فالعلم رحمٌ بين أهله ، فالرحلة إذًا لم تكن غريبة عن ابن عساكر بل رحل أبوه من قبل ورحلت أسرته لهذه الغاية .

واستأذن الفتى والدته ، وأخذ موافقتها ورضاها ، رغم أنه شاب يافع والرحلة بعيدة وخطيرة ، لكنها فعلت كما فعلت أم موسى حين ألقت ولدها في اليمّ وسلمته إلى الله ، فتلقى مولانا الفتى بعنايته وحماه .

أيها الأحبة والصّحب :

بقي الإمام في بغداد خمسة أعوام يحصّل العلم في المدرسة النظامية، وهناك ابتداءً بتأليف تاريخ دمشق ، وراح يأخذ على علماء بغداد وما حولها وينال الإجازات العالية حتى بلغ عدد شيوخه ألفاً وثلاثمئة شيخ وثمانين امرأة . واشتهر في الآفاق اسمه، ولم يعد له نظير إلا ثلاثة في عصره ، هو أبرزهم، يقول كلّ من رآه : مارأينا في سن أبي القاسم الحافظ مثله ، لم يشتغل منذ أربعين سنة إلا بالجمع والتصنيف والتسميع حتى في نزهه وخلوته ، وكان يسمى في بغداد شعلة نار من توقده وذكائه وحسن إدراكه .

ومن عجيب أمره أنه كان يقرأ على الأشياخ ليلاً نهاراً ، وربما لازمهم ليالي طويلة حتى حكى شيخه أبو عبد الله الفراوي قال : قدم علينا ابن عساكر فقراً عليّ في ثلاثة أيام فأكثر فأضجرتني ، وآليت أن أغلق بابي وأمتنع ، جاء هذا الخاطر في الليل فقدم من الغد شخص فقال : أنا رسول رسول الله إليك ، رأيته في النوم فقال : امض إلى الفراوي فقل له: إن قدم رجل من أهل الشام أسمر يطلب حديثي فلا يأخذك منه ضجر ولا ملل . يقول الراوي بإسادة ياكرام : فما كان الفراوي يقوم من مجلسه حتى يقوم الحافظ ابن عساكر أولاً. وأقام عنده سنة كاملة غنم منها مسموعاته، حتى مرض الفراوي ومنعه الطبيب من الإسماع ولكنه لم يرضى أن

يتوقف، وبقي ابن عساكر يقرأ عليه في حالة مرضه وهو على فراشه فلما فارقه بلغته وفاته سنة ٥٣٠ هـ رحمه الله .

ثم حج وعاد إلى دمشق فمكث سنوات ثم بدأ رحلة ثانية إلى المشرق أصبهان وخراسان ونيسابور ، عاد بعدها سنة ٥٣٣ هـ ، وقد أصبح محدثاً حافظاً من أعياء فقهاء الشافعية ، عاد وهو يحمل بين حناياه علماً غزيراً وجوهرتين نفيستين في الحديث هما مسند الإمام أحمد بن حنبل ومسند أبي يعلى الموصلي دخل بهما الشام لأول مرة . وعكف عن التأليف على طريقة المحدثين بالإسناد إلى صاحب الخبر، وكتب خلال حياته أكثر من مئة وخمسين مؤلفاً . عاد ليتصدر الإقراء والتحديث تحت قبة النسر في الجامع الأموي بعد أن استخار الله تعالى واستأذنه أعيان شيوخه، فأملى أكثر من أربعمئة مجلس في الحديث، وهو يتابع تأليف تاريخه العظيم ، وهو يلازم الجماعة في الصف الأول إلا من عذر ، مواظباً على تلاوة القرآن، يختم في كل جمعة ختمة ، ويختم في رمضان كل يوم ليعتكف في المنارة الشرقية في رمضان وعشر ذي الحجة ، تراه كثير النوافل والأذكار ، يحيي ليلة النصف من شعبان والعيدين بالصلاة والتسبيح ويحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة الله تعالى .

كان فريداً في عصره لم يتطلع إلى تحصيل الأملأك وبناء الدور ، وأعرض عن المناصب وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

تزوج وأنجب ثلاثة ذكور وبنثاً أبرزهم القاسم (ت ٦٠٠ هـ) الذي خلفه في التحديث وقام بتبويض كتاب تاريخ دمشق ونقله من المسودات التي كتبها والده ، وحلف ابن عساكر ألا يكلم ولده القاسم حتى يكتب له التاريخ من المسودات، كتبه ابتداء من صدر الإسلام إلى القرن السادس الهجري في ثمانين مجلداً، وهو أعظم ما ألف في تاريخ المدن ترجم فيه للأعيان العلماء والمشاهير الذين سكنوا بدمشق أو مروا بها من زمن الصحابة حتى عصره رتبهم على حروف المعجم مقدماً من اسمه أحمد كرمي عين سيدنا محمد ﷺ .

والحق أقول: إن هذا الكتاب يا أهل الشام فيه تاريخكم ندر على من تقدم من المؤرخين أن يفعل مثله وأتعب من بعده من المتأخرين فلم يصنعوا مثله ، والناظر فيه يحكم بأنه فريد دهره في التواريخ، وأنه الذروة العليا من الشماريخ ، اختصره أكثر من واحد منهم سيدنا أبو شامة شيخ النووي، له عليه مختصران كبير وصغير، وابن منظور صاحب لسان العرب اختصره في ٢٩ مجلداً .

اعتقد أنكم قد أصبحتم بشوق لحضور درسه العام فاسمحوا لي أن انتقل مع حضراتكم قريباً من هنا إلى الجامع الأموي جوار سيدنا يحيى الحصور ، هاهو يتحدث عن بلدتنا دمشق الحبيبة ، وكلنا شوق لنعرف عن هذه البلدة الطيبة وفضلها .

يقول سيدنا الإمام المحدث علي بن محمد ابن عسكر الدمشقي في مجلسه الأول عن تاريخ دمشق :

سميت الشام بسام بن نوح ، واسمه في السريانية شام ، أو لأنها عن شمال الأرض، كما أن اليمن أيمن الأرض ، وكان اسم الشام الأول سورية .

بناها جيرون بن سعد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وسمّاها إرم ذات العماد ، وليس أعمدة الحجارة في وضع أكثر منها بدمشق .

وقيل إن الذي بناها دمسقُس غلام الاسكندر ذو القرنين ، وجعل لها سبعة أبواب على عدد الكواكب السبعة .

ثم ذكر الحافظ ابن عساكر إسناده في الحديث عن سيدنا عبد الله بن حوالة الأزدي (ت ٥٨ هـ) ثم قال :

كنا عند رسول الله ﷺ فشكونا إليه العري والفقر وقلة الشيء ، فقال رسول الله: أبشروا فوالله لأننا من كثرة الشيء أخوفني عليكم من قلته ، والله لا يزال هذا الأمر فيكم حتى يفتح الله أرض فارس وأرض الروم وأرض حمير ، حتى تكونوا أجناداً ثلاثة: جنداً بالشام ، وجنداً باليمن ، وجنداً بالعراق وحتى يعطى الرجل المئة فيتسخطها .

« يابن حوالة كيف أنت إذا أدركتك فتنة تفور في أقطار الأرض كأنها صياصي بقر (قرون بقر) قلت: فما تأمرني يا رسول الله ، خر لي بلداً أكون فيه فلو علمت أنك تبقى لم اختر على قربك قال : عليك بالشام (ثلاثاً) فلما رأى النبي كراهيته إياها قال : هل تدري مايقول الله في الشام ؟ إن الله يقول : يا شام يدي عليك ، يا شام أنت صفوتي من بلادي ، أدخل فيك خيرة من عبادي ، أنت سوط نعمتي وسؤ عذابي ، أنت الأندر وإليك المحشر . ورأيت ليلة أسري بي عموداً أبيض كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة قلت : ما تحملون ؟ قالوا : عمود الإسلام أمرنا أن نضعه بالشام .

(ابن عمرو) : « ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتنة بالشام » .
(ابن عباس) : ومن شك أن المحشر ههنا (يعني الشام) فليقرأ هذه الآية : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر ﴾ .
وهنا قال ابن حوالة عليه السلام : فَحَرِّثُوا أَهْلَ الشَّامِ أَنْ كَذَفَ اللَّهُ بِالْفِتْنِ عَنْ أَيْمَانِكُمْ وَعَنْ شِمَائِلِكُمْ ، والذي نفس ابن حوالة بيده ليقذفنكم الله بفتنة يخرج منها زيافكم (رديئكم) .

وعن وائلة بن الأسقع قال :
« إن الملائكة تغشى مدينتكم هذه يعني دمشق ليلة الجمعة فإذا كان بكرة افترقوا على أبواب دمشق براياتهم وبنودهم فيكونون سبعين رجلاً ثم ارتفعوا ويدعون الله لهم: اللهم اشف مريضهم وردّ غائبهم .

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه تلا هذه الآية ﴿وَأَوْبَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال : هل تدرون أين هي ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : هي بالشام بأرض يقال لها الغوطة ، يقال لها دمشق هي خير مدائن الشام .

وعن النّوّاس بن سمعان قال : « قال رسول الله ﷺ ينزل عيسى بن مريم على المنارة البيضاء شرقي دمشق ». ليس من حديث الشاميين شيء أصح من حديث صدقة بن خالد عن النبي ﷺ : معقل المسلمين أيام الملاحم دمشق .
وعن مكحول : لتمخرن الروم الشام أربعين صباحاً لا يمتنع منها إلا دمشق وعمّان .

وعن عمرو بن جابر الخرمي قال سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يقول : من سكن دمشق نجاً . فقلت : أعن رسول الله ﷺ قال : فعن رأيي أحدثك !؟
وعن رويفع بن ثابت الأنصاري وكان من أصحاب الشجرة قال لابن محيريز : اسكن فلسطين ما استقامت العرب ، فإن نادوا بشعار الجاهلية فاسكن دمشق ، وشرقها خير من غربها .

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لاتزال عصابة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها ، وعلى أبواب بيت المقدس وما حولها ، لا يضرهم خذلان من خذلهم ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة » .

وعن عبد الرحمن بن سلمان الخولاني قال : « سيأتي ملك من ملوك العجم يظهر على المدائن كلها إلا دمشق » .

وعن كعب الأحبار (ت ٣٢ هـ) : أهل الشام يعرفون في الجنة بالثياب الخضراء ، وهم سيف من سيوف الله ينتقم الله بهم ممن عصاه في أرضه .. » .

معاشر المسلمين : شهد ابن عساكر بكلّ أسى المأساة التي حدثت بدمشق سنة ٥٤٣ هـ وهو حصار دمشق من قبل ملوك الإفرنج والصليبيين وأحاطوا بها من كل جانب ، وكانت دمشق قد بقيت مستعصية عليهم ما يزيد على خمسين عاماً ، وسمعت دمشق أخبار نور الدين محمود الفاتح العظيم الذي دعي بالملك العادل وأحيا سنة الخلفاء الراشدين ، فاستنجدوا به فهيئاً جيشاً أنقذ به دمشق بلدتنا هذه سنة ٤٥٩ هـ وطردها عنها الصليبيين ، وهنا التقى الملك العظيم والمؤلف العظيم كأئمتنا كانا على قدر ، اصطحبا عشرين عاماً ، وشهد ابن عساكر فتح مصر أيضاً على

يد السلطان نور الدين، فأرسل إليه بطاقة تهنئة شعرية يحثه فيها أيضاً على فتح القدس الشريف، يقول له :

لما سمحت لأهل الشام بالخشب عوّضت مصر بما فيها من النُشب
وإن بذلت لفتح القدس محتسباً للأجر جوزيت خيراً غير محتسب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وطهر المسجد الأقصى وحوزته من النجاسات والإشراك والصُّلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا وفي القيامة تلقى حسن منقلب

أيها السادة الكرام :

اصطحب ابن عساكر والسلطان نور الدين عشرين سنة ، وطلب منه إكمال تاريخ دمشق لتعود أجداد الأمة كما كانت من قبل ويقرأ التاريخ شباب الأمة فيحافظوا على البلاد كما حافظ عليها أجدادهم ، وبني له مدرسة دار الحديث هي دار السنة التي عرفت بدار الحديث النورية ، والتي يشرف عليها اليوم آل الخطيب، وقد أكل الزمان عليها وشرب وبقي السلطان يحضر مجالس ابن عساكر ويتزاوران حتى أغمض نور الدين عينيه سنة ٥٦٩ هـ .

وحين استقبلت دمشق السلطان صلاح الدين يوسف سنة ٥٧٠ هـ بقي الحافظ ابن عساكر يتابع تدريسه ويحضّر السلطان صلاح الدين على أن يكمل مسيرة أستاذه لفتح بيت المقدس ، لكنه صار يغيب عن مجلس السلطان فلما حضر مرة بعد غياب عاتبه السلطان صلاح الدين يوسف عن انقطاعه فقال له بكل احترام : نزهت نفسي من مجلسك ، فإنني رأيته كبعض مجالس السوق لا يستمع فيه إلى قائل، ولا يردّ جواب متكلم، وقد كنا نحضر مجالس نور الدين كأن على رؤوسنا الطير تعلونا الهيبة والوقار .

وهنا أمر السلطان صلاح الدين أصحابه أن ينصتوا إذا حضر الحافظ ابن عساكر، وهذه كلمة حق أمام سلطان عادل ، هكذا يكون العلماء يصبح

السلطين تلامذتهم ، وكفى بهؤلاء شرفاً لابن عساكر .

فيا أهل الشام :

عاش سيدنا علي بن محمد الملقب بابن عساكر ثنتين وسبعين سنة ملاً الأرض فيها علماً والشام فخراً ، حتى توفي بدمشق في ١١ / رجب سنة ٥٧١ هـ ، وكان الغيث قد احتبس تلك السنة ، فما أن حمل الإمام على نعشه حتى درّ السحاب وسحّ ، فكأن السماء قد بكت عليه بدمع منهمر ، وشيعته دمشق ، وحضر السلطان صلاح الدين وصلى عليه الإمام قطب الدين النيسابوري ، وشيع إلى قبره في باب الصغير .

أي نجم هوى من العلياء	أي ركن وهي من العلماء
لم أمسى من أعظم الأرزاء	إن رزء الإسلام بالحافظ العا
وأقوت معالم الأنبياء	أقفرت بعده ربوع الأحاديث
أسود الحبر أبيض الالاء	كان حبراً يُقري مسامعنا من
بالآلي الأنيفة الالاء	كان بحراً من عام فيه حباه
رجال الحديث والعلماء	كان من أعلم الأنام بأسما
ك السماوات بالبكاء والدعاء	سيرت نعشه الملوك وأملا
حتى جرت دموع السماء	امترى حزنه مدامع أهل الأرض
عن عفة وطيب ثناء	من يمت فليمت ممت أبي القاسم

* المصادر : سير أعلام النبلاء ٥٥٤/٢٠ . الروضتين لأبي شامة ٢٦١/١ . وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٠٩/٣ . المستفاد من ذيل بغداد ١٥٦/١٩ . طبقات السبكي ٢١٥/٧ . طبقات الإسنوي ٩٥/٢ . البداية والنهاية ٢٩٤/١٢ . النجوم الزاهرة ٧٧/٦ . شذرات الذهب ٣٩٥/٦ . منتخبات التواريخ للحصني ٤٧٨ .

(١٨٢)

الإمام أحمد الرفاعي

(٥١٢ . ٥٧٨ هـ)

الحمد لله الصبور الشكور، العلي الكبير السميع البصير العليم القدير، شملت قدرته كل مخلوق، وجرت مشيئته في خلقه بتصاريف الأمور، قدّر مقادير الخلائق وآجالهم وكتب آثارهم وأعمالهم وقسم بينهم معاشهم وأحوالهم، وجعل منهم الأنبياء والعلماء والأولياء والعامة، وأعطاهم ما يشاؤون ومنحهم ما يريدون فهو (يختص برحمته من يشاء) وهو العزيز الغفور.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله جلّ عن الشبيه والنظير، وتعالى عن الشريك والظهير ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأشهد أنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله وخيرته من بريته ، وصفوته من خليقته، وأمينه على وحيه أعرف الخلق به وأعلامهم عنده منزلة وأوسعهم عنده شفاعة، بعثه إلى الإيمان منادياً، وإلى الجنة داعياً وفي مرضاته ساعياً والمعروف آمراً وعن المنكر ناهياً فبلغ رسالاته ربه وصدع بأمره وقام لله بالصبر والشكر حق القيام حتى بلغ رضاه.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على هذا النبي الكريم والسيد السند الرؤوف الرحيم سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأنصاره وكل من وحد الله وعزّف به ودعا إليه ، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر السادة الكرام:

قلما يجتمع المسلم في عصره بالأولياء أو يلتقي بهم، واليوم أدعوكم لا لتلقي بولي، بل بسيد الأولياء بل هو أحد الأقطاب الأربعة الذي أجمعت الأمة على جلالته، وأنهم أركان الولاية العظمى، أدعوكم لتكتحل أعيننا بمراى الإمام القدوة

العابد الزاهد شيخ العارفين، رجل من أحفاد الحبيب الأعظم، نلتقي لنقبل يد سيدنا أبي العباس مولانا تاج الأولياء سيدنا الشيخ أحمد الرفاعي رحمته الله، ومع الحلقة اثنان وثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام الشيخ أحمد الرفاعي .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد مولانا الإمام أحمد بن علي بن أحمد بن رفاعة الرفاعي الحسيني في منطقة واسط في أرض العراق فرّج الله تعالى عنها سنة ٥١٢ هـ، لأن والده قدم به من المغرب وسكن تلك البطائح العراقية، وتزوج بأخت منصور الزاهد، ورزق منها الشيخ أحمد و إخوته لكن والده توفي وأمه حامل به، فرباه خاله الشيخ منصور وكان من مشايخ الصوفية، وهو أوّل شيخ للإمام الرفاعي في سلسلة الشيوخ الرفاعية ، وهي سلسلة تتضمن خمسة عشر إماماً تنتهي بأمر المؤمنين جدي وسيدنا علي كرم الله وجهه.

فلما نشأ تفقه على المذهب الشافعي وقرأ القرآن وظهرت أمارات النجابة والولاية عليه منذ صغره، نشأ يعمل بجمع الخطب وبيعه للأرامل. مرّ به جماعة من الأولياء في صغره فنظروا إليه وهو يجمع الخطب فقال أحدهم: لا إله إلا الله محمد رسول الله ظهرت هذه الشجرة المباركة، فقال الثاني: عمّا قليل يكثر ثمرها ويشرق قمرها، فقال الثالث: عما قليل يرى الناس منها العجب ويكثر نحوها الطلب، فقال الرابع: عن قليل يعلو شأنها ويظهر برهانها.

معشر الإخوة الكرام:

صدقت فراسة الأولياء وتحققت بشاراتهم إذ أن الفتى الهاشمي الحسيني أخذ بالزهد والعبادة على يد خاله حتى رقّ قلبه وعلا قدره، وكان ورده الاستغفار والصلاة والسلام على النبي المختار، زهد بالطعام والشراب حتى كان يأكل كل

يومين أكله ، وكان له ثوب واحد إذا اتسخ نزل الشط كما هو وهو يلبسه يغسله ويفركه عليه، ثم يقف في الشمس حتى يجف.

وإذا دعا أصحابه قَدَم له التمر الفاخر، وينقى له التمر الرديء ويقول: أنا أحق بالدون.

يقول لأصحابه: أقرب الطريق إلى الله الانكسار بعد الذل والافتقار، تعظم أمر الله، وتشفق على خلق الله، وتقتدي بسنة رسول الله ﷺ .

وكان لا ينظر إلى الأمراء ولا يقوم لهم ويقول: النظر في وجوههم يقسي القلوب. وكان من رقة قلبه لا يسمح بقتل نملة، يقول أصحابه: إن هرة نامت على كم سيدي أحمد ونودي بإقامة الصلاة فقصّ كمه وما أزعجها فلما انتهت الصلاة وقامت الهرة عاد ووصله ثانية وقال: عاد الكم كما كان.

وكان له ولأصحابه مجالس للسمع يصير لهم فيها أحوال عجيبة ينزلون في التنور وهو يتضرّم ناراً. فإذا قاموا إلى الذكر والإنشاد يذكرون الله تعالى على النار إلى أن تنطفئ. ومرة دعي وهو ما زال شاباً بعد مع شيخه ابن القارئ ومعه إخوانه إلى طعام، فلما أكلوا بدأ الإنشاد مع قرع الدف فلما طاب القوم وتواجدوا وثب سيدنا أحمد بن الرفاعي فجأة وثقب الدف وكسره، فالتفت الناس إلى شيخه ابن القارئ وقالوا: انظر ما فعل تلميذك، فقال لهم الشيخ: اسألوه فإن أجاب بجواب مقنع وإلا ضمنت لكم الدف، فسألوه: لم كسرت الدف؟ فقال: اسألوا المنشد عما خطر ببالي؟ فقال: إني كنت البارحة عند قوم يشربون فسكروا وتمايلوا كتمايل هؤلاء المشايخ فخطر لي أن هؤلاء كهؤلاء، فلم يتم خاطري حتى قام هذا الفتى وكسر الدف، فعند ذلك نهض المشايخ إلى سيدنا أحمد وقبّلوا يده.

إخوتي في الله: لم يؤلف الإمام كتاباً ، ولكن تلاميذه جمعوا أقواله في كتب أربعة، ذكر فيها موضوع الطريقة الرفاعية وآداب المريد وأخلاق الصوفية وخاصة في كتابه البرهان. والتصوف عنده أساسه احترام الشريعة أولاً وأخيراً، والطرق التي تخالف

الشريعة زندقة، ما لم تشرق منهاهجها بنور علم النبي وعمله فهي باطلة. فطريق الحق هو طريق النبي، والصوفي المتبع هو الذي يعظم شأن النبي لأنه الداعي إلى الله، والمخبر عنه، وهو باب الحضرة الرحمانية، ومن اتصل به اتصل، ومن انفصل عنه انفصل .

والتصوف الحق لا يأخذ بالرأي فما هلك من هلك إلا بالرأي، والتصوف لا يحكم فيه بالرأي إلا في المباحات. والأساس في الطريقة الرفاعية المحمدية إحياء السنّة، والصوفي على الدين ما دام على السنّة، فمن حاد عنها ذلّ عن الطريق .
والطريق عنده: أن تقول آمنت بالله ووقفت عند حدود الله وعظمت ما عظم الله وانتهيت عمّا نهى الله. والرفاعية يقولون: من لم يعرف أدب الظاهر لا يؤتمن على أدب الباطن، وكل الآداب منحصرة في متابعة النبي قولاً وفعلاً وحالاً وخلقاً.

فالطريقة الرفاعية هي نفسها طريقة الإمام الجنيد يزيد عليها مجلس الذكر والإنشاد بما نعرفه اليوم بالحضرة ، والحضرة أمر من المباحات لا يطلق عليها حلال ولا حرام إلا إذا اقترن بها ما يخالف الشرع المطهر كاختلاط الجنسين والعياذ بالله. أما إذا كان مجلس الذكر ليس فيه محرّم فهو مباح، يقوم فيه الذاكرون بالذكر قياماً متأولين آية من كتاب الله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ يذكرون الله بالاسم المفرد ، ويهيّجون الذاكرين بالإنشاد الديني والتوحيد ونبينا ﷺ يقول: ﴿لَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وهذا مجلس لا يغتاب فيه أحد، ولا يذكر فيه أحد إلا الله ورسوله .

ومرّة قام الذاكرون للذكر وإذا بالمجلس طفل لأحدهم نائم، فطاب السماع وأخذ القوم الحال فداس بعضهم على الطفل حتى مات ، فلما انتهى الليل رفع الخادم الغطاء والفرش فوجد الطفل ميتاً ، فأخبروا مولانا الرفاعي الذي قام من فوره إلى الطفل وبسط خرقة وصلى ركعتين ثم مدّ يده يدعو، فلما انتهى نادى على الطفل يا فلان أقعد بإذن الله ثم أمرّ يده المباركة عليه فقام كأن لم يكن به شيء.

لقد سمع أصحابه من الكرامات للإمام بما لم يشك أحد أن الإمام بلغ مبلغاً عظيماً من الولاية. جاءه مرة ضيف فقال له: لي عشرون يوماً لم أذق طعم الأكل، فقال: تمتّني عليّ، فقال: أشتهي إحدى هذه الإوزات الطائرة، يقول الراوي: رفع سيدنا الإمام أحمد يديه وقال: يا رب عجل بشهوة الرجل، قال: فوَقعت الإوزة مشوية بين يدي الشيخ بإذن الله تعالى.. ومدّ سيدنا الرفاعي إلى حجرين كانا إلى جانبه فأمسك بهما فإذا هما رغيفان ساخنان بإذن الله تعالى، فأكل الضيف وشرب، ثم أخذ مولانا الرفاعي عظام الأوزة وجمعها مع ريشها وقال: أيتها العظام المتفرقة والأوصال المتقطعة اذهبي وطيري بأمر الله تعالى بيسم الله الرحمن الرحيم، فعادت الإوزة حيّة وطارَت في الجو.

وكان بعض أصحاب الإمام يراه في المنام في مقعد صدق، رأى ذلك مراراً ولم يخبره بهذه الرؤية فصدف مرة أن حضر عند مولانا الرفاعي في البيت فسمع امرأته تسفه عليه وتؤذيه، بل رأى الزوجة تضرب الإمام على أكتافه وهو ساكت. فانزعج الرجل وخرج من عنده، وأخبر إخوان الشيخ: أيفعل بالشيخ كذا وأنتم سكوت! فقال بعضهم: مهرها خمسمئة دينار وهو فقير. فمضى الرجل وأحضر الخمسمئة دينار وأتى بها إلى الشيخ الرفاعي فقال: ما هذا؟ قال الرجل: مهر هذه الشقية التي فعلت بك كذا وكذا، فتبسّم مولانا الرفاعي وقال: لولا صبري على ضربها ولسانها ما رأيتني في مقعد صدق (عند مليك مقتدر).

أيها الأحبة والصحب: أعظم كرامة لمولانا الرفاعي التقاءه بسيدنا محمد ﷺ في الروضة المطهرة، فقد كان الإمام لا يَفْتُر عن الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، وكان وهو في العراق يرسلها طيبة عطرة، طاهرة زكية إلى الحبيب الأعظم في المدينة. تحملها ملائكة الله وروح الإمام الذي امتلأ قلبه شوقاً لجده رسول الله، فلما حج وزار المدينة المنورة، وصلى في الروضة وقف أمام جدّه المصطفى ومعه أصحابه وحوله الناس، فسلم بشوق وغاب بحب غامر ملأ كيانه وجوارحه وأنشد بين يديه قائلاً:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عني وهي نائتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

وإذا بيد الحبيب الأعظم تمتد من الحجرة الشريفة ويقبلها سيدنا الإمام أحمد الرفاعي أمام الحجيج ثم تعود إلى الحجرة الشريفة، وكبر الناس وكبر الحجيج وكبر الصحب الله أكبر، ونقلت هذه الحادثة عنه بالتواتر، وأمر الشيخ الرفاعي الناس في الحرم ألا يخرج واحد منهم حتى يطأ بقدمه على عنق الشيخ حتى لا تتكبر نفسه، وبويع من الناس إماماً وشيخاً بعد أن زهد الإمام بكل شيء .

بعد هذه المكرمة تمتى لقاء الله تعالى فلقبه سنة ٥٧٨ هـ بعد أن أصبح إماماً هناك وهنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم

المصادر

- إن الأثير في الكامل ٢٠٠/١١
- ابن العماد في شذرات الذهب ٢٥٩/٤
- وفيات الأعيان ١٧١/١
- الموسوعة الصوفية ١٧٨
- ابن كثير في البداية والنهاية ٣١٢/١٢
- جامع كرامات الأولياء ٤٩٠/١
- سير أعلام النبلاء للذهبي ٧٧/٢١

(١٨٣)

الشيخ رسلان الدمشقي

(٤٧٠ . ٥٩٠ هـ)

الحمد لله المرتفع عن إدراك الأبصار الناظره ، المنزه عن التخيلات والأوهام
الخاطره ، العالم تحت أمواج البحار الزاخره كعلمه بحركات خلقه الظاهره ، الذي أيد
الأمه المحمدية بالأولياء والعلماء الصالحين ورجال الآخرة، خصصهم بأشرف أنواره
وتنفيذ أوامره .

أحمده على آلائه ونعمه المتواتره ، وآياته الباهرة المتظاهره ، حمداً أدفع به حلول
كل فاقرة.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة صادرة عن طوية غير
مرتابة ولا فاتره.

وأشهد أنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله المبعوث بالآيات الباهره ، والمفضل
بالمقامات الفاخره الذي ألف بين القلوب المتنافره.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على سيدنا محمد وعلى آله وعترته الطاهره ،
وعلى أصحابه الأنجم الزاهره ، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أزور معكم اليوم الشيخ الشامي، شيخ لأهل الشام فيه اعتقاد كبير ، ويقولون:
من زار هذا الشيخ ودعا عند قبره استجاب الله تعالى دعاءه، والأعجب أن اليهود
والنصارى والمجوس يعتقدونه ويأتون إليه بالنذر على سبيل القرية، مثل الزيت
والشمع والدرهم والدنانير، حتى ثبت لديهم أن من قصده في مهم أو نازلة وتوسل
به إلى الله تعالى قضيت حاجته.

شيخ مجاهد حق الجهاد، حتى إنه أقام زاويته خارج دمشق يرصد منها أعداء الإسلام من الصليبيين وغيرهم، الصليبيون الذين كانوا في عهده ينظرون بلهفة إلى اغتصاب أرض دمشق لتكون قاعدة لهم يتطلعون منها إلى غزو ثغور الإسلام، إلى باقي المدن الشامية ، ثم الاتجاه إلى مصر ، وبعدها إلى أرض الحجاز إلى بكة التي بكت كل مغتصب حاول الاستيلاء عليها. فكان هذا الإمام لهم بالمرصاد .

قدّم للإسلام هو والأولياء والمجاهدون خدمة جلّى لولاها لتغير وجه تاريخنا، وكان الإسلام سيتعرّض إلى خطر كبير، لذلك كان أهل الشام في عراضاتهم ينادون باسمه عالياً: شيخ رسلان يا شيخ رسلان يا حامي البر والشام، إننا مع العارف بالله الولي المجاهد سيدنا الشيخ رسلان الدمشقي، ومع الحلقة ثلاثة وثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربّوا عن الإمام الشيخ رسلان الدمشقي:

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد سيدنا الشيخ رسلان سنة ٤٧٠ هـ واسمه الصحيح أرسلان بن يعقوب بن عبد الرحمن، كان أباه من المجاهدين، وكلمة أرسلان تعني الأسد بالتركية، نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام وترسيخه في الأرض. وصحب شيخه أبا عامر المؤدّب، واتخذ حرفة له نشاراً للخشب، وظهرت على شيخنا أرسلان علائم الصلاح والتقوى، إذ كان يقسّم الأجرة التي يأخذها من عمله أثلاثاً: ثلث ينفقه على نفسه وثلث يتصدّق به وثلث لكسوته.

بل إن بعض المترجمين له يقول: إنه كان يأخذ ما كان يحصل له من أجرته فيعطيه شيخه أبا عامر، وليقوم شيخه بالنفقة عليه، كان يتعبد بمسجد صغير داخل باب توما، وحفر بيده البئر التي كانت بالمسجد، وكان أهل تلك الناحية يشربون منها للبركة، بل كان الناس إلى عهد قريب بدمشق يأتون نهر العقرباني الذي يمر بجوار مسجد الشيخ وكانت مياهه نظيفة يتبركون بها ويغتسلون.

إخوتي في الله:

بقي سيدنا الشيخ أرسلان عشرين سنة ينشر الخشب بمنشاره يتعبّد بالليل ويعمل بالنهار ، حتى كان يوم وهو ينشر بالمنشار إذا بالمنشار يخاطب الشيخ أرسلان ويقول له:

يا أرسلان ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، فتوقف سيدنا الشيخ أرسلان عن النشر وكذب أذنيه، ثم عاد للعمل ثانية، وإذا بالمنشار يخاطبه ثانية: يا أرسلان ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت. لا إله إلا الله، ويتلقّت حوله فلا يجد أحداً، فيظن أنه خاطر خطر له، فيعود للعمل فإذا بالمنشار يخاطبه الثالثة: وينكسر المنشار ثلاث قطع.

وهنا ترك سيدنا الشيخ أرسلان العمل ، وجلس في هذا المسجد يتعبّد ويخلو إلى ربه عزّ وجلّ. فاشترى له سيدنا السلطان نور الدين الشهيد داراً مجاورة للمسجد ووسع المسجد وبني له منارة ووقف عليه الأوقاف ينفق منه على المسجد.

الآن هذا المسجد الذي بناه سيدنا نور الدين الشهيد يعرف بمقام سيدنا الشيخ أرسلان الدمشقي، أتعرفون هذا المسجد أين يقع؟ يقع بجوار مكان الخيمة التي كان يجلس فيها سيدنا خالد بن الوليد أثناء حصار دمشق في الفتح الإسلامي، والجميل أن سيدنا نور الدين أراد أن يساعد سيدنا الشيخ أرسلان على البناء فبعث إليه بألف دينار مع مملوك له وقال: إن أخذها منك فأنت حرّ لوجه الله، فجاء بها العبد إليه وهو يبني قال: سيدي أرسل لك السلطان هذه الصرة من الذهب لتستعين بها على البناء، فقال سيدنا الشيخ أرسلان: أما يستحي محمود (أي السلطان) يبعث إلي بهذا وفي عباد الله من لو أشار إلى ما حوله لصار ذهباً وفضة!

يقول الراوي يا سادة يا كرام: وأشار سيدنا الشيخ أرسلان بيده يميناً وشمالاً فصارت الحيطان والطين وما حولهما ذهباً وفضة، فتحير المملوك وقال: يا أستاذي إن سيدي علّق عتقي على قبولك هذا الذهب، وهنا تناوله منه وصرفه في الحال على المساكين بحضور المملوك.

معشر السادة الكرام:

كانت هذه أول كرامة اشتهر بها هذا الإمام تناقلها العام والخاص وتتابعته بعدها الكرامات، فصار الناس يرونه سائراً في الهواء، وتارة يمشي على الماء غير مرة، ورآه آخر في البرية والأسد يتمرغ على قدمي الشيخ وهو مستغرق في الذكر لا يلوي على الأسد.

وكان مرة ببستان من بساتين دمشق في زمن الصيف ومعه جماعة من أصحابه فقال له أحدهم: ما وصف الولي المشتغل على أحكام التمكين فقال: هو الذي ملكه الله أن يتصرف في الوجود (أما سمعت قوله تعالى في الحديث القدسي (فكنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولأن سألني لأعطيته) فقال المريد: وما علامة ذلك؟ فأخذ سيدنا الشيخ أرسلان أربعة قضبان أخذ واحداً وقال: هذا هو الصيف، ثم أخذ آخر وقال: هذا الربيع، وأخذ الثالث وقال: هذا الخريف، ورابع قال: هذا الشتاء.

يقول المريدون: فأخذ الغصن الذي سَمَّاه الصيف بيده وهزّه وقال: هذا الصيف، قال: فاشتد بهم الحر، ثم أخذ الذي سَمَّاه الربيع وهزّه فاخضرّ وأوراق شجر البستان ، وأينعت أغصانه وحضرت نسماته، ثم طرحه، وأخذ الذي سَمَّاه الخريف وهزّه فجاءت أوصاف فصل الخريف، ثم طرحه، وأخذ الذي سَمَّاه الشتاء وهزّه فهبت رياح الشتاء واشتد البرد ويبست أوراق شجر البستان.

ثم نظر إلى أطيّار على أشجار البستان: فقام إلى شجرة منهم فهزّها وأشار إلى الطير الذي عليها أن سبّح خالقك، فترّثم الطير بصوت شجي فأطرب السامعين، وراح ينتقل من شجرة إلى شجرة، حتى أشار إلى طائر منهم وأمره أن يمجد الخالق فلم ينطق بشيء، فقال الشيخ اسكت لا عشت، فوقع الطائر على الأرض.

الأولياء تنقاد لهم الأرض والخلق بإذن الله تعالى، الأولياء بخطوة يصبحون في مكة ، وبخطوة ينتقلون إلى المدينة المنورة، لهذا يسمون بأهل الخطوة، تطوى لهم الأرض كما كانت تطوى لنبي الله سليمان، يقول أحد مريدي الإمام الشيخ أرسلان: حججت مع الشيخ واجتمعت به في غرفة، ثم رأيته في جميع المشاهد، وما أتيت موضعاً من المناسك إلا وجدته سبقني إليه، فلما رجعت إلى دمشق سألت عن الشيخ فقالوا: ما غاب عنا يوماً كاملاً قط، بل بعض يوم عرفة، وبعض يوم النحر وبعض أيام التشريق.

يقول المريدون: كان مولانا الشيخ أرسلان عندما يحضر مجلس السماع (مجلس الإنشاد ومديح النبي ﷺ والذكر) يأخذه الحال فنراه يصعد في الهواء ويدور ثم ينزل إلى الأرض ثم يصعد ، يأخذه حاله مع الله تعالى.

جلس مرة تحت شجرة تين يابسة فما أن أسند ظهره إليها حتى عادت خضراء وحملت التين تلك السنة، وكان تينها من أطيب تين دمشق. جلس مع مريديه في المسجد يذكرون الله تعالى فإذا بهم يرون الشيخ يقوم ويأخذ الحصى من الأرض ويرمي به من يده، وإذا بالإفرنج يصل الخبر إليهم أنهم نزلوا إلى الساحل الشامي والمسلمون يتبعونهم ، فكانوا المسلمون المجاهدون يقولون: كنا نرى الحصى تنزل من السماء في الهواء على رؤوس الإفرنج فتهلك الفرس والفارس بإذن الله تعالى ، فكان كالملائكة ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول.

أيها الأحبة والصحب: بقي مولانا الشيخ رسلان متعبدًا في مسجده بدمشق حتى أتاه أمر الله سنة تسعين وخمسمئة ، وحُمل نعشه على أعناق الرجال وجاءت طيور خضر ظللت على نعشه، حتى دفن إلى جوار شيخه أبي عامر المؤدب.

غادر فرداً بعد أن ولد فرداً ، وترك رسائل في التوحيد و التصوّف فيها الشريعة والحقيقة ، غادر وترك لنا من الشعر أربعة أبيات يناجي فيها الحق جل جلاله:

يا من علا فرأى ما في الغيوب وما	تحت الثرى وظلام الليل منسدل
أنت الغياث لمن ضاقت مذاهبه إنا	أنت الدليل لمن حارت به الحيل
قصدناك والآمال واثقة فإن عفوت	والكل يدعوك ملهوف ومبتهل
فدو فضل وذو كرم	وإن سطوت فأنت الحاكم العدل

فإن عفوت فدو فضل وذو كرم اعفوا عنا، اجبر خاطرنا ،فرج عنا كرمال سيدنا الشيخ رسلان، اجبر كسرنا هنا كما جبرت كسر المسلمين هناك ، وما أدراك ما هنا؟ هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

المصادر

الكامل: لابن الأثير ٣٢٩/٨

البداية والنهاية لابن كثير ٢٠٠/١٢

الشيخ أرسلان : عزة حصرية .

الشيخ أرسلان الدمشقي : محمد بن طولون الصالحي ت ٩٥٣هـ

الوافي بالوفيات: صلاح الصفدي ت ٧٦٤هـ

معجم المؤلفين لكحاله ٢٢٤/٢

الأعلام : للزركلي ٢٨٨/١

(١٨٤)

الإمام الشاطبي

(٥٣٨ هـ . ٥٩٠ هـ)

الحمد لله الذي خلق الأشياء فقدرها تقديرا ومنح الإنسان عقلاً فجعله سمياً بصيراً، وشرفه بما عرفه به من العلم ونور قلبه تنويراً، وأرسل سيدنا محمداً ﷺ إلى كافة الخلق بشيراً ونذيراً، وأنزل عليه كتاباً منيراً، وأودعه حكمة وحكماً وترغيباً وتحذيراً، وألهم حفاظه تلاوة له وتحبيراً، وعلم عباده علومه تفهيماً وتبصيراً، وضرب فيه الأمثال ليزيل جهالة برهانا واضحا وصواباً لا تحا ووفر فضله توفيراً، في الصدور محفوظاً و بالألسنة متلوّاً، وفي الصحف مسطوراً، يهدي للتي هي أقوم ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً، أحمدته سبحانه وتعالى على تواتر إنعامه حمداً كثيراً وأتوكل عليه مفضلاً أمري إليه ومستجيراً.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يغدو قلب قائلها مطمئناً

مستنيراً

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي كساه من فضله عزاً ومهابة وتوقيراً	هم بالحبيب محمد وذويه
إن الهيام بحبه يحييني	جسد تمكّن حب أحمد فيه
والله إن الأرض لا تبليـه	أو كيف يبليه التراب وحبه
في قلبه ومديحه في فيه	أكثر عليه من الصلاة فإنها
هي نور قبرك عندما تأويه	

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعترته كما أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، وسلم تسليمًا :

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

إنكم لن تعرفوا قدر إمامنا اليوم حتى أعرفكم بمقدمة بسيطة عما فعله هذا الإمام
بجزء من علوم القرآن وهو علم القراءات . فقد صح في الحديث النبوي الشريف : «
أن القرآن أنزل على سبعة أحرف » .

وأصح ما قيل في هذه الحروف السبعة أنها اللغات السبع التي كان لها الظهور
على غيرها من لغات العرب صحة واستقامة وهي لغات : قريش وهذيل و ثقيف
وهوازن وكنانة وقيم واليمن .

يقول سيدنا أبو شامة (شيخ الإمام النووي) نقلاً عن شيوخه : (أنزل القرآن
بلسان قريش ثم أبيع للعرب أن يقرؤوه بلغاتهم التي جرت عادتهم باستعمالهم على
اختلافهم في الألفاظ والإعراب) (الاتقان ٤٧)

فلما جاء سيدنا عثمان وأراد رسم المصحف اختار أشيعها تداولاً وأعمها ،
وبقي الصحابة ومن تبعهم يقرؤون بهذه اللغات في مختلف الأمصار، ثم تخصص قوم
بنوع واحد في القراءة واعتنوا بطبعها أتم عناية حتى صاروا في ذلك أئمة يقتدى بهم
ويرحل إليهم ويؤخذ عنهم ، وأجمع أهل بلدهم على تلقي قراءتهم بالقبول، ولم
يختلف عليهم إثنان، ولتصديهم لتلك القراءة بالذات نسبت إليهم ف قيل : قراءة
عاصم، قراء نافع ... إلخ

فهؤلاء سفراء القراءات في العالم الإسلامي ولأتبارك بأسمائهم اسمحوا لي أن
أعدّهم لكم تعداداً فقط ، ولأبدأ بدمشق الشام وإمام جامعها الأموي وشيخ القراء
فيها : الإمام عبد الله بن عامر الدمشقي (١١٨ هـ) .

وكان سفير مكة إمامها في القراءة: عبد الله بن كثير الداري المكي (١٢٠هـ)

وكان في الكوفة رئيس القراء فيها: عاصم بن أبي السجود الكوفي (١٢٧ هـ)

والإمام حمزة بن حبيب الزيات (١٥٠ هـ) الذي كان يقول : ما قرأت حرفاً من كتاب الله إلا بأثر) .

والإمام علي بن حمزة الكسائي (١٨٩ هـ) أعلم الناس بالنحو والعربية والقرآن وكان السفير في البصرة : الإمام أبو عمرو (زبان) بن العلاء المازني البصري (١٥٤ هـ) أعلم الناس بالقرآن والعربية .

وكان في مدينة الحبيب الأعظم الإمام: نافع بن عبد الرحمن العيثي (١٦٩ هـ) أقرأهم هذه القراءة أكثر من سبعين سنة.

(هؤلاء هيئة القراءة في العالم الإسلامي) وأحبُّ أن أشير هنا إلى نقطتين هامتين: الأولى : أن هذه القراءات السبع ليست هي الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن بل هي قراءات ثابتة عن هؤلاء السبعة .

النقطة الثانية : أن الاختلاف في القراءات ينحصر في أحوال ثلاث : الأولى : تتصل بأحرف العرب أو لغاتها (إمالة . إشمام . تريق . تفخيم) مما لفظت به القبائل وهو المعنى بالأحرف السبعة .

الثانية : تتصل برسم المصحف لأنه كان غير منقوط ولا مشكول حتى زمن عبد الملك بن مروان فقام الحجاج بإسناد هذا العمل إلى رجلين يحيى بن يعمر، والحسن البصري فنقطاه وشكلاه .

الثالثة : تتصل بإحلال كلمة مكان كلمة أو تقديم كلمة على كلمة أو زيادة أو نقصان .

وسميت هذه القراءات السبع بالمتواترة لأن أهل كل بلد من بلاد القراء نقلوا هذه القراءات عن أئمتها السبعة الذين ذكرتهم (وليس أنها متواترة عن النبي)

معشر السادة : هؤلاء الأئمة السبعة ومعها راويان لكل منهم أفنى كل إمام منهم عمره يقرئ بهذه القراءة فقط، فما رأيكم دام فضلكم أن يقوم رجل من عمالقة المسلمين وصفه المؤرخون بالأعمى و المكفوف والضرير يحمل علم هؤلاء

الأربعة عشر في صدره ويقوم بنشر هذه القراءات معاً ، وبديل أن نرحل إلى كل بلد (دمشق - الكوفة - البصرة - المدينة المنورة - مكة) جعل الناس ترحل إليه فقط ، بل ودَّ كلِّ إمام أن يصلي خلفه ليعد من جماعته ، لأنه كان منقطع القرين ، رأساً في القراءات ، أديباً شاعراً ، متقناً لأصول العربية ، ناسكاً خاشعاً ولياً .

ما إن حطت قدماه أرض مصر قادماً من الأندلس وكان مالِكياً حتى تحول ببركة الإمام الشافعي وصلاح الدين الأيوبي (٥٨٩ هـ) فصار شافعيّاً واتبع في العقيدة الإمام أبا الحسن الأشعري (ت ٣٢٤ هـ) بعد أن تحكم المذهب الشيعي بمصر خلال فترة الحكم الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) .

وكان لصبره واحتسابه وطمعه في نيل رضا الله عوض عن بصره ببصيرة وبصر بالعلم والدين ، لم يقعه عماه عن التعلم والتعليم كما قعد بآخرين ، وإنما خاض غمار الحياة ناهلاً من كلّ علم وفن حتى أصبح إمام زمانه وأعجوبة دهره ، ومن شدة إخلاصه نظم قصيدة في القراءات ، وما أن انتهى منها حتى ترك الناس كل القصائد وحفظوا قصيدته تلك ، وَقَلَّ من اشتغل في القراءات إلا وقدّم حفظها ومعرفتها . إننا مع سيد القراء وإمام المقرئين :

سيدنا أبي القاسم بن فيره بن خلف الشاطبي الأندلسي^(١)

ومع الحلقة أربعة وثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام أبي القاسم الشاطبي رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد سيدنا أبو القاسم (وهو اسمه) في شاطبة مدينة بشرق الأندلس آخر سنة ٥٣٨ هـ ، وتعلق بالقرآن منذ نعومة أظفاره فحفظه وجمعه وقرأ القراءات وهو صغير فكان أنيسه ورفيقه ، وكان ذا همة عالية ونفس تواقّة لا تقنع

(١) وهو غير الشاطبي صاحب الموافقات إبراهيم بن موسى ت ٧٩٠ هـ

بالتيسير من العلم ومسائله فقرأ الحديث والفقه والعربية وبرع فيها حتى فاق أهل عصره بله بلدته شاطبة وتصدر للإقراء في بلده وهو حدث قارب البلوغ .

وأولع بحفظ كتاب يسمى (التيسير في القراءات السبع) لأبي عمرو (عثمان بن سعيد) الداني ت ٤٤٤ هـ قرأه وأقرأه مراراً وتكراراً حتى استقرت مسائله في نفسه غيباً، ومن ميزاته أن حفظه لا يجارى ولا يبارى، بل نقل عنه أنه إذا قرئ أمامه صحيحا البخاري ومسلم والموطأ يصحح النسخة من حفظه حتى وصفه ابن الجزري : بأنه أعجوبة في الذكاء وآية من آيات الله وغاية في القراءات والتفسير ، حافظاً للحديث، بصيراً بالعربية، إماماً في اللغة (غاية النهاية ٢١/٢) فماذا قدّم هذا الإمام للأمة الإسلامية.

أيها السادة: رأى الإمام أبو القاسم الشاطبي أن الطلاب يتعسر عليهم حفظ القراءات فعمل لهم منظومة في القراءات قل نظيرها، بدأها بشاطبة وأتمها خلال رحلته عبر بلاد الدنيا المغرب الأوسط ومصر والشام والحجاز حتى بلغ عدد أبياتها ١١٧٣ بيتاً من البحر الطويل صدرها بأنه أخلص بها الله تعالى ، يقول :

لعلّ إله العرش يا إخوتي يقي	جماعتنا كل المكاره هولا
ويجعلنا ممن يكون كتابه	شفيعاً لهم إذا ما نسوه فيمحلا
يا ربّ أنت الله حسبي وعدتي	عليك اعتمادي ضارعاً متوكلا
وسميتها حرز الأمان تيمناً	وجه التهاني فاهنه متقبلا
وفي يسرها التيسير رمت اختصاره	فأجنت بعون الله منه مؤملا

فلما فرغ منها رأى رسول الله ﷺ في منامه، وهو يقوم بين يديه ويقدم قصيدته إليه، فيتناولها سيد الكائنات بيده الشريفة ويقول : هي مباركة من حفظها دخل الجنة.

وحمل الإمام الشاطبي هذه القصيدة وراح يطوف بها حول الكعبة كلما دخل الحرم، أخذها معه أثناء إقامته بمكة وحجه ، حتى قيل طاف بها اثني عشر ألف طوافاً، وهو يدعو بهذا الدعاء: « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ربّ هذا البيت العظيم انفع بها كلّ من يقرؤها »

يقول سيدنا الإمام أبو شامة : «نبغت في آخر الدهر أعجوبة لأهل العصر، فبذ الناس سواها من مصنفات القراءات وأقبلوا عليها لما حوت من ضبط المشكلات وتقييد المهملات مع صغر الحجم وكثرة العلم» . ولقد أعجب بها الإمام أبو شامة إعجاباً شديداً دفعه إلى شرحها (وللشاطبية ٥٤ شرحاً) ثم اختصر هذا الشرح بالوجيز، ثم قام بمعارضة هذه القصيدة استدرك على الشاطبي ما فاتته أحياناً، ونقد أبياته ونظم أبياتاً يقترحها ويستكمل بها نقص ما في الشاطبية على الوزن نفسه والقافية نفسها.

إخوتي في الله : توجّه الإمام في آخر حياته نحو مصر بعد أن طار صيته في الآفاق واستقبله القاضي الفاضل (عبد الرحيم بن علي الشامي ت ٥٩٦ هـ) وزير صلاح الدين الأيوبي، وانزله مدرسته وأسكنه داراً فسيحة خارجها، ورحل إليه الناس من كلّ حذب وصوب ليأخذوا عنه القراءات السبع المتواترة حتى أصبح شيخ القراء في الديار المصرية بلا منازع، يقول سيدنا أبو شامة شيخ الإمام النووي يصف لنا تعظيم الناس للإمام الشاطبي: ولقد لقيت جماعة من أصحاب مشايخ أئمة أكابر في أعيان هذه الأمة بمصر والشام وكلهم يعتقد فيه الولاية وأكثر مع إجلال له وتعظيم وتوقير حتى قيل : من أراد أن يصلي خلف رجل لم

يعص الله قط في صغره ولا كبره فليصل خلف أبي القاسم الشاطبي .

حتى حملي ذلك على أن قلت :

بصحبة شيخ مصر الشاطبي

لقيت جماعة فضلاء فازوا

كتعظيم الصحابة للنبي

وكلهم يعظمه كثيراً

أيها الأجابة والصحب:

هذان البيتان وصف لمجلس الشاطبي مع تلامذته، مجلس وقار لا ترفع فيه الأصوات، ولا يتكلم بفضول الكلام، وأنا أدعوكم جميعاً الآن لحضور هذا المجلس، فإلى مصر القاهرة، إلى ما قبل الفجر لأرى مع حضراتكم طلاب القرآن يأتونه باكراً ليقرؤوا أولاً فأولاً، إذ كان للإمام الشاطبي سنن خاصة وعادات في تدريسه وطرائق في إقائه يلزم بها نفسه وتلامذته.

يعقد مجلس الإقراء بعد صلاة الفجر إلى وقت الظهر ويبقى على طهارة كاملة (أي يصلي الظهر مع وضوء الفجر) فإذا ما جلس قال : من جاء أولاً فليقرأ. ثم يتتابع المقرئون، إلا مرة واحدة فإنه قال : من جاء ثانياً فليقرأ، فشرع الثاني بالقراءة، وبقي الأول متعجباً يتفكر لماذا لا يقرأ هو ؟ هل ارتكب جناية أوجبت حرمان الشيخ له؟ راح يتفكر فتذكر أنه احتلم تلك الليلة، فبادر إلى حمام المدرسة واغتسل ثم عاد ، وكان الثاني يتابع القراءة، فلما رجع والشيخ قاعد أعمى على حاله، وفرغ الثاني من قراءته قال الشيخ : من جاء أولاً فليقرأ.

فدلّ هذا على كرامته وصلاحه بل كان ينبه أصحابه إلى أشياء عملوها في السر لا يعلمها إلا الله تعالى.

وكانت إذا قرئت عليه سجدة تلاوة لا يسجد أحد ممن يقرأ عليه، وكذلك سنة أشياخه، قالوا : السبب أن حال المقرئ والمعلم يخالف حال من يتلو القرآن لنفسه، وقد روى البخاري ومسلم (خ ١٠٧٢ - ٥٧٧) عن زيد بن ثابت قال :

كنت أقرأ القرآن على رسول الله ﷺ فقرأت سورة النجم فلم يسجد ولم نسجد.
وكان يعتني عناية بالغة بوقوفات القرآن على معنى يحسن الوقوف عليه.
وكان يقرأ القرآن الكريم بقراءة التحقيق، لأنّ القرآن يقرأ بمراتب ثلاث: بالتحقيق
والتدوير والحدّر، وهي في حقيقتها سرعات متفاوتة متباينة أبطؤها التحقيق وأسرعها
الحدّر، والتدوير وسط بينهما.

والتحقيق يعني بلوغ حقيقة الشيء، ولا يكون إلا بإعطاء كلّ حرف حقه،
وإشباع المد وتحقيق الهمزة وإتمام الحركات وتوفية الغنات ، وكلّ ذلك مع الترسّل
والتؤدة وملاحظة الجائز من الوقوف ، وهذه الطريقة هي المستحسنة في التعليم
والإقراء.

وكان إذا ختم القرآن يحرص على الدعاء عند ختمه بدعاء يكون مروياً عن
رسول الله ﷺ ، وقد روي أن الدعاء مستجاب عند ختم القرآن وأنه يحضره أربعة
آلاف ملك يؤمنون على الدعاء.

وأن كتاب الله اوثق شافع	وأغنى غناء واهباً متفضلاً
وخير جليس لا يملّ حديثه	وترداده يزداد فيه تجملاً
وحيث الفتى يرتاع في ظلماته	من القبر يلقاه سناً متهللاً

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ...

يا أحباب رسول الله ﷺ بقي الشاطي يعطى أغلى ما يملك وهو وقته يعلم
ويثقف ويهذب بدون أجرة ، وهذا من أعظم الجود وأبين الكرم ، وزوّج ابنته من
اعمى (وكان له بنت وابن عمّر بعده) تلميذ له زوجه ابنته ثم بلغه انه يقرأ الأصول
مع القراءات فاستدعاه بين يديه وأخذ بأذنه وقال له :

- أتقرأ الأصول . قال : نعم

فمدّ بأذنه وقال : من الفضول أعمى يقرأ الأصول (ليس للعميان إلا القرآن)
إنّما كلمة غالية ونصيحة وافية هي خبرة الإمام الشاطبي الكفيف البصير في حياته
كلها التي ختمت له حين بلغ الثانية والخمسين فتوفي سنة ٥٩٠ هـ
فجزاك الله عنا كلّ الجزاء أيها الإمام، حفظت لنا هذه القراءات من أن تندثر
فاللهم كما حفظ هذه القراءات وخدم كتابك الكريم اجعل الحور العين خدامه
وأعلى الجنان مآبه يا أرحم الراحمين •.

• المصادر :

الأعلام للزركلي

البداية والنهاية لابن كثير

البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة (عبد الفتاح القاضي)

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي

الذيل على الروضتين لأبي شامة

الوافي في شرح الشاطبية (عبد الفتاح القاضي)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (ابن تغري بردي)

معجم المؤلفين (عمر ضاحالة)

سير أعلام النبلاء للذهبي

وفيات الأعيان لابن خلكان

شذرات الذهب في أخبار من ذهب (لابن العماد)

نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب (أحمد محمد المقرئ)

(١٨٥)

الإمام الغوث أبو مدين

(٥١٤ . ٥٩٤ هـ)

الحمد لله المستحق لغاية التحميد ، المتوحد في كبريائه من غير تكييف ولا تحديد، الغني المغني المبدئ المعيد، الذي لا يفنى عطاؤه ولا يبئد.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق الخلائق فجعل منهم أئمة أعلام وسلكهم أحسن الطريق إلى الأمر الرشيد ، وصوّرهم بأحسن صورهم وبشّره في الجنة بالنعيم والتخليد وبصّرهم بعين الاعتبار وحدّهم من عذاب النار والوعيد.
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف من أظلت السماء وأقلت البيد.
اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أولي المعونة على الطاعة والتأييد صلاة دائمة في كل حين تنمو وتزيد، وسلّم تسليماً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

أزور مع حضراتكم اليوم المغرب العربي الأقصى لنمرغ أرواحنا ونشرح صدورنا ونملاً أعيننا بولي من أولياء الله تعالى جمع علم الشريعة والحقيقة، كان وما زال عين أعيان مشايخ الغرب، وصدور المربين ، أستاذ أعظم، وعارف أفخم، عظيم الأكابر، رأس الصوفية في وقته، علم نعتة زاهد، زاهد مراقب مشاهد ، يُقصد ويُزار من جميع الأقطار، وبنیان العرفان إليه يشار، ولد ببجاية ونشأ بها وترقى حتى صار إمام الصديقيين في وقته بلا شقاق.

خاض بحار الأحوال، ونال أسرار المعارف، خصوصاً مقام التوكل، سئل عنه سيدنا الخضر فقال عنه: هو إمام الصديقيين في وقته، آتاه الله مفتاحاً من السر المصون بحجاب القدس ، ما في وقته أجمع لأسرار المرسلين منه.

كثير مريدوه حتى خاف السلطان على ملكه منه فاستدعاه لتكون منيته في بلدة تلمسان في الجزائر حرسها الله من كل جائر، أندون من هذا الإمام العلم؟ إنه سيدنا أبو مدين الغوث شعيب بن الحسن، ومع الحلقة خمسة وثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن سيدنا أبي مدين الغوث:

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : أصل سيدنا أبي مدين من إشبيليا من الأندلس ، ولد سنة ٥١٤ هـ تقريباً ، توفي والده في عهد مبكر، وكان له غنم، وهو أصغر إخوانه فكلفوه برعاية الغنم، وكان يغدو بها ويروح ويرى الفتيان يقرؤون القرآن ، أو يتعبدون بالذكر فيعجبه منظرهم ويخشع له قلبه، فيدنو منهم ويسمع ولا يستطيع أن يحفظ شيئاً من القرآن ، ولا يعرف كيف يصلي ، وحز ذلك في نفسه وجعله يفكر ويطيل التفكير ويقول: إن الغنم لا تدع لي فرصة للتعليم أو للتعبد فيوماً مبدعاً قويت عزيمته على الفرار ليتعلم القرآن والصلاة، لكنه ما إن فرّ حتى أدركه أخوه وهدده إن لم يرجع ليقتلنه، فعاد حزينا وفي نفسه حسرة، ولكنه بقي مصراً على الهرب، فحانت فرصته الثانية، لكنه في هذه المرة أخذ عصا الغنم وأسرع في الليل، وشعر أخوه أن الهرب سيتكرر فراقب أخاه وأدركه في هذه المرة وحمله الغضب على أن يأخذ سيفاً ليضرب أخاه ، لكن العناية الإلهية تداركته ، رفع أخوه السيف ليضربه فاتقاها سيدنا شعيب بالعصا، وإذا بالكرامة تحدث، وإذا بالسيف ينكسر والعصا باقية، ذهل أخوه وثاب إلى رشده فتحدث مع أخيه شعيب ، ورأى الإصرار في عينيه في الذهاب للتعليم وحفظ القرآن فودّعه قائلاً :

. إذهب حيث شئت.

فسار على وجهه حتى وصل البحر ، فوجد أناساً في خيمة فخرج منها شيخ سألته عن أمره فحدثه وجلس إليه أياماً، فكان إذا جاء رمى بخيط الصنارة إلى

البحر استخرج سمكة فشواها وقدمها للفتى ثم قال له : انصرف إلى المدينة حتى تتعلم العلم ، فإنّ الله تعالى لا يعبد إلا بالعلم.

إخوتي في الله: أصابت هذه الحكمة قلب الفتى شعيب حتى اتخذها شعاراً له ومنهجاً في حياته كلها (إن الله لا يعبد إلا بالعلم)، وما كان الجاهل في يوم من الأيام قدوة ولا مرشداً ولا شيخاً يهدي الآخرين، قدم الفتى إلى فاس وأقام بجامعها فتعلم الوضوء والصلاة ، وكان ذاك في البداية حدثاً ضخماً في حياته وكان أثناءها يدور في الجامع على حلقة حلقة ويجلس إلى الفقهاء والوعاظ، وكان يعجب لأنه كان لا يفهم كلمة مما يقولون، وينظر إلى الجالسين فيراهم يفهمون ويناقشون ويتحدثون فاتهم نفسه بالغباء، حتى جاء إلى حلقة شيخ وقع كلامه في قلبه موقع الفهم والمعرفة، فسأل من هذا؟ فقالوا: إنه الشيخ أبو الحسن بن حرزهم الفقيه النابه، فقال له: إني أفهم ما تقول، فقال له الإمام أبو الحسن: إني قصدت الله بكلامي فخرج من القلب.

كان الإمام أبو الحسن فقيهاً ربانياً صوفياً زاهداً، كان تعليمه أول شمعة أضاءت في حياة سيدنا أبو مدين العلمية، قرأ عليه كتاب الرعاية لحقوق الله الذي ألفه الإمام الحارث المحاسبي، ثم قرأ كتاب الإحياء (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي. وقد قال فيه سيدنا أبو مدين: طالعت كتب التذكير فما رأيت كالأحياء للإمام الغزالي.

ثم درس على يدي شيخه كتاب السنن في الحديث للإمام الترمذي. أما علوم الصوفية فقد درسها على الشيخ الصالح أبي علي الدقاق، وهو من كبار مشايخ الصوفية، بل إمامهم في عصره، وهو أول من أخذ عنه الشيخ أبو مدين التصوف، ثم قرأ الرسالة القشيرية في التصوف وهو كتاب يدرسه كل سالك لطريق التصوف، وكان من الكتب المفضلة عنده.

ولكن التصوف ليس علماً تكفي فيه الدراسة ، بل ممارسة وسلوك وعمل ،
التنزه عن أخلاق النفس المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب
عن ما سوى الله تعالى ، وتخليته بذكر الله ، وإذا كان رضي الله عنه قد درس الراعي
والإحياء وعلوم التصوف فليس معنى ذلك أنه أصبح صوفياً ، لا ، بل لا بد من
الممارسة والسلوك والأخذ في طريق مقامات الأحوال ، فقيض الله له الشيخ أبا
يعزى ، شيخ له أسلوب قاسٍ في التربية ، ولكنه أسلوب مثمر ، وما إن طرق بابه مع
أصحابه حتى أقبل عليهم دونه ، فلما حضر الطعام منعه من الأكل ، فقعد في ركن
الدار ، فكلما أحضر الطعام وأراد أن يقوم إليه منعه وانتهره ، حتى انقضت ثلاثة
أيام وذهب ضوء عينيه من قلة الطعام ، فصار يبكي طول الليل فما أن أصبح حتى
استدعاه الشيخ أبو يعزى ومسح على عينيه فأبصر بإذن الله ، ثم مسح بيده على
صدره وقال للحاضرين: هذا يكون له شأن عظيم بإذن الله تعالى. يقول سيدنا أبو
مدين: طالعت أخبار الصالحين في زمن أويس القرني إلى زماننا فما رأيت أعجب
من أبي يعزى ، وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالي.

معشر الإخوة: كان سيدي أبو مدين الغوث إذا سمع تفسيراً لآية أو حديثاً قنع
بهما وانصرف إلى موضع خال من الناس اتخذه مأوى للعمل فيعمل بالآية
والحديث ، كما كان يفعل الصحابة الكرام ، يحفظون سورة لا يجاوزونها حتى يعملوا
بها ، ومرة كان يمشي على الشط يحفظ ويعمل بما حفظ ، إذ تنزل سفينة للإفرنج فيها
أرقاء مسلمون فاخطفوه وأركبوه السفينة مع الأرقاء المسلمين.

يقول الراوي يا سادة يا كرام: فتوقفت السفينة على أرض الشط لا تتحرك ،
فقال بعضهم: لعل هذا الرجل قسيس أنزلوه ، فرفض سيدنا أبو مدين النزول حتى
ينزل معه الأرقاء فتركوهم جميعاً وسارت السفينة بإذن الله تعالى ، هكذا مضت به
السنون يتعلم ويعمل حتى أصبح عالماً صوفياً وشيخاً مرشداً بتوفيق الله تعالى وعنايته
من المبدأ حتى النهاية.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

وقد وفق إمامنا للوصول إلى مرتبة فاق أهل زمانه إرشاداً وتوجيهاً وعلماً حتى بلغ مرتبة القطب الغوث ، ولقبه أهل زمانه أبو مدين الغوث ، وذلك بعد أن التقى بسيدنا عبد القادر الجيلاني في مكة المكرمة ونال منه العطاء الإلهي على يديه، ثم إننا نرى إمامنا يستوطن بيجابة ، ويبدأ أهل العلم من شرق وغرب يرحلون إليه حتى حسده بعض العلماء ، فقدموا إليه يحاولون امتحانه وسماعه في درسه العام.

أيها السادة: وإنني والله في شوق لحضور هذا الدرس معكم لننال الفيوضات الربانية التي أفاضها الله تعالى على هذا الإمام ، فاسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى بجاية المغربية ، لأن هؤلاء الرهط قد وصلوا إلى بجاية ودخلوا عليه ووجدوه يفيض بالنور ويستخرج الدرر من قيعان البحور، سمعوه يقول:

" شاهد مشاهدته لك، ولا تشاهد مشاهدتك له (وهذا من أركان الإحسان أن تعبد الله كأنك تراك فإن لم تك تراه فإنه يراك)، من خدم الصالحين ارتفع بخدمته، ومن حرم احترام الأولياء ابتلاه الله بالملقت من خلقه، كل فقير (أي صوفي) الأخذ أحب إليه من العطاء لم يشم للتصوف رائحة.

ما لذّة العيش إلا صحبة الفقرا	هم السلاطين والسادات والأمرا وخلّ
فاصبحهم وتأدب في مجالسهم	حظك مهما قدموك ورى واعلم بأن
واستغنم الوقت واحضر دائماً معهم	الرضا يختصّ من حضرا

الله قلّ وذر الوجود وما حوى	إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكلّ دون الله إن حققته من لا	عدم على التفصيل والإجمال فوجوده
وجود لذاته من ذاته فالعارفون فتّوا	لولاه عين محال شيئاً سوى المتكبر
ولما يشهدوا	المتعالى

هذا هو العلم، وهذه هي ثمرة التصوف، ولا تكون هذه الثمرة إلا عن طريق الشيخ المربي.

الشيخ من هذبك بأخلاقه، وأدبك بإطراقه، وأثار باطنك بإشراقه، إذا شهد الإنسان حقاً أن لا إله إلا الله تحطمت أصنام الشرك في نفسه، الشهوات، الجاه، المنصب، الثراء، الاستعلاء، الغلبة، العجب، الكبرياء فأصبح تسليماً كله وهذا ثمرة التصوف، ثمرة التصوف تسليم كله. أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هي العليا، كما يعلن هؤلاء بالمعاصي ولا يستحيون من الله، احذروا صحبة المبتدعة إبقاءً على دينكم، واحذروا صحبة النساء إبقاءً على إيمان قلوبكم.

أيها الأحبة والصحب:

وقعت هذه العبارات الإيمانية على رؤوس الحاسدين كالصاعقة، فلم يكونوا يتوقعون أن يسمعوا مثل هذا الكلام، وهالهم أكثر الكم الهائل الذي يحضر عند الشيخ من المعتمين، وطأطأ كل منهم رأسه توقيراً واحتراماً للكلام النابع من القلب، عرفوا صدق الشيخ أبي مدين الغوث، والتفت سيدنا أبو مدين إليهم ورحب بأسمائهم واحداً واحداً مرحباً بالفقيه أبي محمد عبد الحق، وبالفقيه أبي علي المسيلي، رحب بهم دون أن يعرفهم أو يعرفوه، وأقبلوا عليه يضمونه ويتوبون على يديه، كل من كان يأتي معترضاً على الشيخ كان يكشفه بلحظة بإذن الله (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)، جاء عالم ليعترض عليه في مجلسه فالتفت إليه الشيخ وسأله: لم جئت؟ قال: لأقتبس من أنوارك، فقال: أخرج المصحف الذي في كمك افتحه اقرأ ما في أعلاه فقرأ الرجل فإذا هو: ﴿الذين كذبوا شعبياً كانوا هم الخاسرين﴾ (الأعراف)، ألا تكفيك هذه الآية؟ فاعترف الرجل وتاب.

ومرة سافر مع مريديه، ونزلوا في صحراء فسمعوا في الليل أصواتاً فخافوا الأذى، وتمنوا ضوءاً يؤنسهم لشدة الظلمة، فصلى الشيخ تحت شجرة ركعتين ودعا، فأضاءت الشجرة كالصباح إلى الصباح ببركة سيدي أبي مدين. يقول تلميذه سيدنا

الشيخ: محي الدين بن عربي: كان شيخنا أبو مدين إذا خطر له خاطر في نفسه وجد جوابه مكتوباً في جيبه، فخطر له يوماً أن يطلّق امرأته، وكان أحد العارفين بالله حاضراً فرأى مخطوطاً في جيب سيدي أبو مدين: (أمسك عليك زوجك).

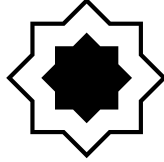
معشر السادة الكرام:

و حين آذن شمس العمر بالرحيل، وأذن الله لشمس الأصيل بالأفول، وكثر أتباع الإمام حتى خاف سلطان مراکش على ملكه منه، فاستدعاه معزّزاً مكرّماً عن طريق عامله ببجاية فخاف تلامذته عليه، فقال لهم سيدي أبو مدين الغوث: شعيب شيخ كبير ضعيف لا يقوى على المشي، وقدّر الله له منيته بغير هذا المكان، ولا بد للوصول إلى موضع المنية، ومع ذلك لن يصل إلينا السلطان بشيء لأنني سأموت قبل الوصول إليه! فسكت القوم وودّعوا شيخهم الوداع الأخير.

وسار ركب الإمام الغوث إلى أن وصل إلى مشارف تلمسان في الجزائر، فنظر الإمام إليها وقال: لا بأس بالنوم والرقاد في المكان، يقول تلميذه (أبو علي الصواف): وضع مولانا الغوث طرفه على الأرض عندما حط الرحال، وسمّعه يقول: الله الله الله حتى رقّ صوته وغادر إلى الله تعالى.

غادرنا بجسده عام ٥٩٤ هـ أربعة وتسعين وخمسمئة في مشهد عظيم لم ير أهل تلمسان مثله، وبني على قبره مزاراً وقبة، يقول أحد تلامذته: رأيت الشيخ أبا مدين (في المنام)، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني ربي عزّ وجل بين يديه وقال لي: يا شعيب ماذا عن يمينك؟ قلت: عطاؤك، قال: وماذا عن شمالك؟ قلت: يارب قضاؤك، قال: يا شعيب قد ضاعفت لك هذا، وغفرت لك هذا، طوبى لمن رآك أو رأى من رآك.

وهكذا قضيت مع حضراتكم في رحاب القطب الرباني الغوث أبي مدين ، وزرناه
معاً في فاس وبجابه وتلمسان، رأيناه هنا وهناك، وما أرداك ما هنا؟ هنا مدرسة
سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحتنا إليك ياسيدي يا
رسول الله الصلاة والسلام عليك^١



^١ المصادر: سيدنا أبو مدين الغوث: الشيخ عبد الحليم محمود

سير أعلام النبلاء : للذهبي

الأعلام : للزركلي

الموسوعة الصوفية للحفني ٥٩٤

جامع كرامات الأولياء : للنبهاني ٥١٤/٨٠

(١٨٦)

الإمام الرازي

(٥٤٤ هـ . ٦٠٦ هـ)

الحمد لله الذي عزّت معرفته فلا يدرك بالمعقول خافيتها ، وجلّت صفته فلا يتكدر بالمنقول صفو صافيتها .

ومّت كلمته فلا يرّد حكم قاضيتها ، وعلت سلطنته فجلّت تعاليها ، ودامت أزليته فمن ذا يضاهيها .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، توخّده الكائنات ونواحيها ، والسموات ودراريها ، قدر الأعوام والشهود والأيام ولياليها ، فسبحانه من إله عظيم أزليته كأبديته لا تنفد ولا تنتهي .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله فضله في الدنيا والآخرة ، وجعله معظماً فيها ، أنزل عليه السور ومثانيها ، وفتح له باب العزة وأنزل عليه آيات جلّت عن كلام حاكيتها .

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وسلّم تسليماً كثيراً .
أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

هل سمعتم بملك بدون مُلك ؟ هل سمعتم بسيد إذا خرج ليركب كانت مرافقته ٣٠٠ رجل عليهم التيجان؟ تيجان الإسلام ، الناس اليوم يفتخرون بالأموال والأولاد، والأراضي والضياع، أما إمامنا اليوم أتعرفون بم كان فخره كان يفتخر بالدين، بالإسلام، بالعلم لذا لقّبه معاصروه بلقب فخر الدين .

والناس يتخصصون في عصرنا بفن من الفنون، طب، هندسة، فقه، عقيدة، أما إمامنا اليوم فكان علماً من أعلام الأمة بكل فن، وله بكل فن مؤلف، لم تر أعينكم مثله، أما علم الكلام (العقيدة) فكلّ ساكت خلفه، وأما علوم الحكمة فلقد تدرع

بجلباتها وتلفع بأثوابها، وأما الشرعيات: تفسير، فقه أصول وغيرها فكان بحراً لا يجارى، ولم تكفه علوم الأرض بل اتجه إلى علم الفلك وألف فيه كتاباً سَمَّاهُ السِّرَّ المكتوم في مخاطبة الشمس والنجوم.

فنحن اليوم مع أعجوبة زمانه ، وسلطان المتكلمين في عصره، وأحد المبعوثين على رأس المئة السادسة لتجديد الدِّين.

نحن مع سيف الإسلام على الفرق الضالة، الذي أحضر ألف دليل ودليل عقلي على وجود الله تعالى ، وترك لنا أعظم كتاب في تفسير القرآن ربط فيه الآيات ببعضها والسورة بالسورة حتى كأن القرآن وحدة متكاملة وقصة واحدة وموضوع واحد ، ربطها ربطاً لم تعرف المكتبة الإسلامية مثله من قبل وحين كان يلقي درسه مرّة وسئل عن فاتحة الكتاب قال: أستطيع أن أستنبط لكم من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة.

فاستهجن العلماء كلامه ، وأشاع عنه قالة السوء حساؤه ، وقالوا : دعوى عريضة والعجز ظاهر ، أتعرفون ماذا فعل؟

بدأ بتأليف تفسير القرآن لم يكن مثله قبله ولم يستطع أن يأتي بمثله بعده، فسّر فيه سورة الفاتحة: بعشر صفحات، بعشرين، بثلاثين صفحة ، لقد فسّرها بمجلد كبير فيه ٤٠٠ صفحة ، وقدم الدليل على صحة كلامه ودعواه. فخضع له كل قاصٍ ودان، وذاع صيته في البلدان وانتشرت مؤلفاته حتى صار فريد عصره ونسيج وحده.

إننا اليوم مع إمام فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل، ذي الفنون الباهرة، العلامة الكبير، كبير الأذكياء والحكماء و المصنفين ، الأصولي الإمام سيدنا محمد بن عمر الرازي الشافعي القرشي، وكنيته أبو المعالي ولقبه فخر الدين.

ومع الحلقة ستة وثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام فخر الدين الرازي.

رضي الله عنه وأرضاه ورضي عنا معه

إخوة الإيمان :

ولد إمامنا في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمئة هجرية في مدينة الري، والنسبة إليها رازي. ودرس على أبيه الإمام ضياء الدين عمر بن الحسين خطيب الري بين والده والإمام الشافعي ثمانية رجال في سلسلة الفقه، ثم تتلمذ على علماء عصره ، وبدأ يحفظ عليهم جملة من الكتب في مختلف العلوم ، فقد حفظ كتاباً كاملاً في العقيدة هو كتاب الشامل لإمام الحرمين، وحفظ في الأصول كتاب المستصفى للإمام الغزالي ، وكان أعجوبة زمانه في الحفظ حتى قضى شطر عمره بتحصيل العلوم وبرع فيها وألف فيها ، ثم جلس للتدريس والوعظ.

معشر السادة الكرام :

عظمة الإمام لا تأتي فقط من علمه الذي وهبه الله إياه ووفقه إليه، بل تأتي أيضاً من كونه عاش في عصر مليء بالاضطرابات الفكرية والسياسية، فقد كان في فترة حرجه، فالوَهَن بلغ بالدولة العباسية مبلغه، وكانت أخبار الحروب الصليبية في الشام، وأخبار التتار في المشرق تقض مضاجع المسلمين، وكانت الخلافات المذهبية والعقدية شديدة، واستفحل الشر عند الفرق الضالة حتى عمدوا إلى الإغتيالات الفردية ذهب ضحيتها الوزير نظام الملك وقاضي قضاة أصبهان، حتى خافهم كل أمير وعالم ، وهنا انبرى لهم الإمام الرزاي بقوة وعزم وبدأ يؤلف ويرد عليهم، ويعقد معهم مناظرات وينافح عن الدين وعن العقيدة الأشعرية وأهل السنة ، حتى رجع بسببه خلق كثير من الطوائف الضالة رجعوا إلى مذهب أهل السنة، حتى لقب بمنطقته هراه: شيخ الإسلام ، ومدحه الشعراء، قال فيه ابن عنين الشاعر:

ماتت به بدع تمادى عمرها دهرأ وكاد خلافتها لا ينجلي

فعلا به الإسلام أرفع هضبة ورسا سواه في الحضيض الأسفل

الفرق الضالة هزمت ووقعت في الحضيض، وأما صيت إمامنا فطار في الآفاق وصار الناس يقصدونه بل العلماء يقصدونه من البلاد ، وتشد إليه الرحال من الأقطار، حتى حكى عنه بعض المؤرخين أنه حضر درسه يوماً في مدرسة بخوارزم ودرسه حافل بالأفاضل واليوم شاتٍ، وقد سقط ثلج كثير، وخوارزم بردها شديد إلى غاية ما يكون ، فسقطت حمامه يتبعها بعض الجوارح ، فلما وقعت رجع عنا الجراح خوفاً من الناس الحاضرين فلم تقدر الحمامة على الطيران من خوفها وشدة البرد، فقام إليها الإمام فخر الدين الرازي من الدرس ورق لها وأخذها بيده ، الشاهد كثرة الحضور لشدة انتفاعهم بالدرس، وكان يدرسهم باللغتين العربية والفارسية ، فإذا ما استغرق في الدرس خشع قلبه وبكى.

لكن المناظرة بلغت أشدها مع أهل خوارزم ، فلما قهرهم وغلبهم إذ بهم يجمعون عليه ويخرجوه من بلدهم ، فخرج الإمام الرازي وهو يعتب عليهم ، وكان مما قال له:

المراء ما دام حياً يستهان به ويعظم الرزء فيه حين يفتقد.

فإلى أين غادر الإمام؟

غادر الإمام مستسلماً لقضاء الله تعالى وقدره فكافأه الله تعالى ، أخرج له لينعمه بالدنيا ويؤتيه الملك فقد عاد إلى الري بلده ، وكان فيها طبيب حاذق له ثروة ونعمة، وله ابنتان ولفخر الدين ابنان، فمرض الطبيب وأيقن بالموت فزوج ابنتيه من ابني الإمام ، ثم مات الطبيب وخلف ثروة نال منها الإمام نصيباً وافراً فتاجر بهذا المال، فحصل له منه مال طائل .

ثم اتصل بالسلطان خوارزم شاه وحظي عنده، ونال أسنى المراتب ولم يبلغ أحد منزلته عنده.

إخوتي في الله : كانت مكافأة الله تعالى للإمام كبيرة كونه سلك طريق العلم، علم غزير ومال وفير وتلامذة كثير، كان له تلامذة في كل فن إذا خرج خرجوا وراءه تعظيماً وتوقيراً، ثلاثمئة تاج من تيجان الإسلام من العمائم، وخرج في هذا الموكب في إحدى المرات ، وإذا على قارعة الطريق امرأة عجوز ترى هذا المشهد المهيب فتسأل: من هذا الرجل؟ فقل لها: ألم تعرفيه؟ هذا الذي أحضر ألف دليل ودليل على وجود الله . فقالت المرأة العجوز على البديهة:

. لو لم يكن لديه ألف شك وشك في وجود الله لم يحضر ألف دليل ودليل.
فنقلوا للإمام عبارة المرأة العجوز ، فرفع الإمام يديه داعياً وقال: اللهم إني أسألك
إيماناً كإيمان العجائز.

لا يحتاج وجود الله إلى دليل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

بعد هذا العمر الطويل الذي قضاه بالدليل والبرهان، والعقل والمنطق والحكمة والكلام، ندم الإمام الرازي وبكى وقال : ليتني لم أشتغل بعلم الكلام، ثم أنشد:

نهاية إقدام العقول عقل وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة	فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها	رجال فزالوا والجبال جبال

ندم الإمام على شدة استغراقه بعلم الكلام ، لأنه لم يجدها تروي غليلاً أو تشفي غليلاً، وهو القائل: لقد رأيت أن أصح الطرق في التدريس هي طريقة القرآن ، أقرأ فيه (ليس كمثله شيء) و(قل هو الله أحد) و(الرحمن على العرش استوى) و(إليه يصعد الكلم الطيب) ، يكفي القرآن ، كفى بالقرآن واعظاً وإماماً وبرهاناً
أيها السادة :

لقد أدى الإمام رسالته كاملة في نشر عقيدة أهل السنة وقمع الفرق الضالة
فنال منهم وكان بينه وبين بعضها السيف الأحمر، حتى سعوا إليه فدسّوا له السمَّ
فمات، فما فرحوا بشيء فرحهم بموته، مات يوم عيد الفطر سنة ست وستمئة ، وله
بضع وستون سنة، وكان يوم وفاته مشهوداً
ودّع من حوله ورحل إلى الله، رحل وقد ترك لنا ذخيرة عظيمة للمكتبة الإسلامية
من نظر فيها عاد نظره بالعجب العجاب.
رحل بعد أن أدى رسالته كاملة ، العتب علينا إن لم نطالع كتب الشريعة، إن لم
نجلس إلى العلماء. اللهم اجعل الشريعة حجة لنا ولا تجعلها حجة علينا ، واجعلنا
من العلماء العالمين.
هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي ، وتحيتنا إليك يا
سيدي يارسول الله



* سير أعلام النبلاء ٥٠٠/٢ . وفيات الأعيان ٢٤٨/٤ . شذرات الذهب ٤٠/٧ .
ذيل الروضتين لأبي شامة ٦٨ . مقدمة تفسير الرازي . الأعلام للزركلي ٣١٣/٦

(١٨٧)

سيدنا ابن الفارض ج ١

(٥٧٦-٦٣٢ هـ)

الحمد لله الذي أورد أوليائه مناهل الصفا، وهداهم بلطفه إلى سلوك سبيل المودة والصفا، وجعل صبا الغرام تحبّ على رياض أسرارهم، وتسري فتسري لقلوبهم أحاديث أخبارهم.

فسبحانه لا نحصى ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه وهو ولي كل إنعام .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يصطفي من الملائكة رسلاً ومن خاصة الناس أنبياء ومن عامتهم أولياء وأصفياء يحبهم ويحبونه.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله سيد الأنبياء، وإمام الأصفياء، وتاج من مشى تحت أديم السماء أبرأ بهدايته مرض القلوب، وأزال بإشراق حكمته عن الأفئدة غيوب الغيوب

أرى كل مدح في النبي مقصراً وإن بالغ المثنى عليه وأكثر
إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما تمدح الورى
صلى عليك الله يا علم الهدى

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على هذا النبي الكريم، والسيد السند الرؤوف الرحيم، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله أشرف الأنام، وأصحابه السادة الكرام، ما أطرب سجع الحمام ، وفاح نشر البشام صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم القيام وسلم تسليماً كثيراً

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

أفتح اليوم لكم صفحة في الحب، فلا تقولوا : يا عجباً شيخ ودكتور في الشريعة يتكلم عن الحب، ومن هو الذي حرّم على المشايخ القول في الحب، ذلك أن حب

الشيخ ليس فيه عشق امرأة، كما يفهم شباب اليوم قبل الزواج ، ولكنه حب شريف، حب طاهر، حب يصل الأرض بالسماء، حب يحبك من تحت التراب .
وإن خطرت يوماً على خاطر امرئ أقامت به الأفراح وارتحل الهم
ولوعبت في الشرق أنفاس طيها وفي الغرب مزكوم لعاد له الشم
ولو جليت سراً على أكمه غدا بصيراً ومن راووقها تسمع الصم
ولو رسم الراقي حروف اسمها على جبين مصاب جن أبرأه الرسم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى ونور ولا نار وروح ولا جسم
على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

ستسمعون اليوم حديثاً بلا حروف ولا كلمات ، ذلك أن عالمنا اليوم عالم شاعر، والشعراء خالدون، وسأعلو بكم ما استطعت إلى جوه وأدخل بكم إلى عالمه، فإن للشعراء عالماً لا يحيط به عالم الناس، ولن نفهم شعره تماماً حتى أفتح لكم إلى الماضي كوة الذكريات، وحتى نكون مستغرقين بذكر الله في هدهات الأسحار، وعندها فقط تفهم النفس المؤمنة شعره العجيب الغريب .

كان شاعرنا يمسي ويصبح، وينام ويستيقظ ، يغيب ويحضر تحت تأثير حبه لله تعالى وحبه لرسوله الكريم، وهل هناك أعظم من حب الله وحب رسول الله.

نسخت بجي آية العشق من قبلي فأهل الهوى جندي وحكمي على الكل
كل فتى يهوى فيني إمامه وإني بريء من فتى سامع العذل

دارت حياته حول محور واحد هو حب الله ورسوله، اتصل بهما، وتقرب إليهما في حال اليقظة عن طريق الوجد والذكر، والله تعالى يقول « أنا جليس من ذكرني » ، وفي حال النوم عن طريق الحلم ، والنبي يقول « من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي »

غاب شاعرنا في الحب عن كل من حوله وفني في ذات الله حتى لقب بحق لقب سلطان المحبين والعاشقين، وعدّ رأس شعراء الصوفية من العرب ، بل هو

الأول في نظر المصريين بلا منازع .

تسامى بحبه عن الجمال الإنساني المعين إلى الجمال الإلهي المطلق، وجد فيه عزاء قلبه وراحة روحه وسعادته التي لا تعدلها سعادة ، ثم أخذ نفسه بالمجاهدة والرياضة النفسية حتى خلص شيئاً فشيئاً من سلطان النفس الأمارة بالسوء، وانتقل بها إلى الراضية المرضية، زهد في كل شيء إلا في شيء واحد هو حبه للذات العلية، حتى وصل إلى ما يسمى بمقام وحدة الشهود.

فلم يشهد إلا الله خالقاً ورازقاً ومعيناً وسميعاً وبصيراً وعالمأً وحياً وقادراً ومريداً يقول :

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا	سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفي نظرةً أملتُها	فغدوت معروفاً وكنت منكراً
فدهشت بين جماله وجلاله	وغدا لسان الحال عنى مخبراً
فأدر لحاظك في محاسن وجهه	تلق جميع الحسن فيه مصوراً
قل للذين تقدّموا قبلي ومن	بعدي ومن أضحي لأشجاني
عنى خذوا وبى اقتدوا	وتحدثوا بصباقي بين الورى

حفل ديوانه بأناشيد الحب الإلهي، فصار بها تحفةً أدبية تزهو به العربية على آداب الأمم، وتراثاً روحياً عريقاً تشرف به الصوفية، هو أرق الدواوين شعراً، وأنفسها درراً، براً وبحراً، وأسرعها للقلوب جرحاً، وأكثرها على الطلول نوحاً، إذ هو صادر عن نفثة مصدور، وعاشقٍ مهجور، وقلبٍ بحرٍ النوى مكسور، والناس يلهجون بقوافيه، وما أودع من القوى فيه، تراه ينشد فيه:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

سكر من خمرة المحبة الإلهية التي هي أصل الوجود والخلق، والسكر هنا حالة من الفناء تعتري الذاكر فيغيب عن الوجود في الله كما يغيب السكران بشرب الخمرة، ولكن شتان من غاب عن الوجود بالله وبين من غاب عن الله وغفل عنه بالدنيا، ألا ترى قوله (سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم) من قبل أن يخلق العنب، إنها إذاً

خمرة المحبة الإلهية التي قال عنها رب العزة ﴿لِيُحِبَّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ولعمري ماذا فقد من وجد الله وماذا وجد من فقد الله؟!

الفناء في الله إيثار إرادة الله وأوامره على رغبات النفس وشهواتها ، أما الفناء بمفهوم الكفار فهو اجتهاد العبد في الزهد والتقشف حتى ترق مشاعره فيستأهل به حينئذ أن يحل الله فيه كما حل في مريم العذراء فأصبح بعضها بشراً وبعضها إلهاً، وهذا ما يسمى بالحللول : وهو أن يحل الله في بعض عبادِهِ ويدوب في مخلوقاته كما يدوب السكر في الشراب، هذا كفر وزندقة ، وهذا يوصلنا إلى قضية وحدة الوجود وهي في الإسلام تعني لا وجود إلا لله ووجود سائر الكائنات وجود مجازي غير حقيقي ، مادامت ستبقى ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فوجودها مجازي : أما الوجود الحق فهو الله ، أما في المفهوم الفلسفي وهو كفر: فالصانع هو نفسه المصنوع ، والخالق هو المخلوق البحر هو الله ، والجبل هو الله ، والإنسان هو الله : هذا كفر وزندقة وخروج عن مبادئ الإسلام.

إذا أيها السادة : كان في عصر شاعرنا تياران في التصوف

أحدهما : تيار متمشٍ مع أصول الدين محافظاً على تعاليم الكتاب والسنة .
و ثانيهما : تيار خرج أصحابه على الشرع فلم يتقيدوا بأصوله ومبادئه، بل أباحوا لأنفسهم حرية واحدة النطاق انتهت بهم إلى مذاهب منافية للدين.
ويمثل شاعرنا التيار الأول فهو الذي يقول مخاطباً ربَّ العزة والجلال :

أنتم فروضي و نفلي	أنتم حديثي و شغلي
يا قبلتي في صلاتي	إذا وقفت أصلي
جمالكم نصب عيني	إليه وجهت كلي
وسرركم في ضميري	والقلب طور التجلي

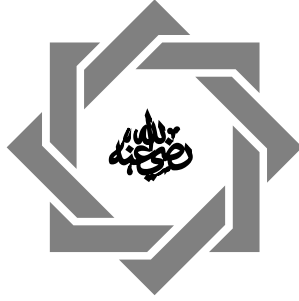
كانت قصائده مبنية على قواعد العلم والعرفان، منبئة عن نتائج الكشف والوجدان، مشيرةً إلى ما أطلع الله شاعرنا عليه ، ووصل قدمه إليه من حقائق التوحيد ودقائق التفريد .

ولم يحظ ديوان بمثل الشروح التي حظي بها ديوانه، تنشد أشعاره في مجالس الذكر ومديح سيدنا محمد ﷺ لإثارة الوجدان، حتى ترجمت قصائده إلى مختلف اللغات . انبرى له ابن تيمية وأمعن في نقده وتجيحه لأنه لم يفهم لغة شعره، كما تصدى له بعض الفقهاء يتهمونونه بالكفر والزندقة، لأن شعره حفل بالرموز والإشارات التي لم يطلعوا عليها ولم يعرفوها ، ونسوا أو تناسوا أنها تعبيرات عن حياة روحية راقية وحالات نفسية رائعة، وأنها لغة الشعر والعاطفة ، فكما أن للعقل منطقاً فكذا للعاطفة منطقها ولغتها. ولا ينبغي لمن لم يعرف هذه اللغة أن يعترض على صاحبها ، لذا انبرى لهم الأئمة الأعلام أمثال شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري، والإمام ابن حجر الهيتمي والإمام السيوطي والإمام عبد الوهاب الشعراني والشيخ عبد الغني النابلسي وغيرهم فدافعوا عنه ونصروه وجعلوه شاعر الحب الأول، لأنه جعل حبه لله تعالى دينه ومذهبه فقال :

وَعَن مَذْهَبِي فِي الْحُبِّ مَالِي مَذْهَبٌ	وَإِنْ مَلْتُ يَوْمًا عَنْهُ فَارَقْتُ مَلَّتِي
وَلَوْ خَطَرْتُ لِي فِي سَوَاكِ إِرَادَةٌ	عَلَى خَاطِرِي سَهْوًا قَضَيْتُ بَرْدَتِي
وَلِي فِي أَتَمِّ الرُّؤْيَيْنِ إِشَارَةٌ	تَنْزَهُ عَنِ رَأْيِ الْحُلُولِ عَقِيدَتِي
وَفِي الذِّكْرِ ذِكْرُ اللَّبْسِ لَيْسَ بِمَنْكَرٍ	وَلَمْ أَعُدْ عَنْ حَكَمِي كِتَابٌ وَسَنَةٌ

فمذهبه مذهب الكتاب والسنة وهو لا يقول بالحلل و الاتحاد كما يقوله الكفرة والزنادقة، وهذه القصيدة (التائية) قصيدة هام فيها الشاعر في الله حباً وبقي في حالة الشهود مع الله أياماً طويلة وهو ينظم وينظم وينظم فيها حتى بلغت أبياتها (٧٦١ بيتاً) فسميت بالتائية الكبرى في كيفية الوصول إلى الله تعالى ورأى الشاعرُ النبي

ﷺ في المنام وسأله ماذا ستسمي هذه القصيدة ؟ فأجابه : لوائح الجنان وروائح الجنان. فقال سيدنا النبي : لا ، بل سمها نظم السلوك .
أيها السادة : يبدو أن الوقت قد أدركنا وعقارب الساعة لا ترحم أحداً ،
وأخاف أن أطيل عليكم، لذا أدعوكم لأن أتوقف معكم عند هذه الحلقة الرابعة
والخمسين، لأخبركم من هو شاعرنا العظيم في الجمعة القادمة بإذن الله ، وأدعوكم
جميعاً لتتوضوا عنه وتستغفروا ربكم عز وجل.



المصادر :

- شذرات الذهب ٢٦١/٧
الموسوعة الصوفية للحفني ٣١١
وفيات الأعيان لابن خلكان
النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١٢٩/٣
جامع كرامات الأولياء للنبهاني ٤١٢/٢
سير أعلام النبلاء ١٢٩/٢٢
ابن الفارض والحب الإلهي محمد مصطفى حلمي
ديوان الشاعر شرح النابلسي .

(١٨٨)

سيدنا عمر ابن الفارض - ج ٢.

(٥٧٦ . ٦٣٢ هـ)

الحمد لله الذي اختص حبيبه الأسنى بمقام قاب قوسين أو أدنى، وقرن اسم سيدنا محمد الشريف بأعظم أسمائه الحسنى .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي عباده وحبيب عباده .
وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله وحبيبه وخليله، أرسله رحمة للعالمين، وخاتماً للنبيين، وحرزاً للأئمة، وإماماً للمتقين، بأوضح دليل، وأفصح تنزيل وأفصح سبيل، وأنفس تبيان وأبدع برهان (ابن الفارض) :

وعلى تفنن واصفيه بمدحه يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على هذا النبي الكريم والسيد السند الرؤوف الرحيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الشرفاء وأصحابه الخلفاء، وعلى إخوانه الأنبياء، ومن اتبعه من الأولياء، صلاة تنشر نفحاتها على أرواحهم الطاهرة، وتسبغ نعمها عليهم باطنة وظاهرة ، وسلم تسليماً تحمله الملائكة، وتبلغه إلى روضاتها الطيبة المباركة .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

قبل أن أعرفكم بشاعرنا اليوم أريد أن أجيب عن سؤال وجه لي على إثر خطبة الجمعة الماضية، والتي شعر فيها بعض الإخوة أن إمامنا الشاعر قد ذكر كثيراً من ألفاظ الحب والهيام، وألفاظ النشوة والخمرة، سألني : ماسبب استعارة هذه الألفاظ في الشعر الصوفي ؟

سؤال وجيه لا بد من الإجابة عليه حتى تتم قضية احترام الشعراء الصوفيين .

وللاجابة عن هذا السؤال أريدكم أن تعرفوا شيئين هامين :

الأول : أن التصوف ليس فلسفة ولا عقيدة، بل هو شعور وتذوق ، التصوف رياضة روحية ومجاهدة نفسية للتقرب من رب البرية والفوز برضاه ومحبتة الأبدية، ليس التصوف إخراج الدنيا من اليد بل إخراجها من القلب، إذ لا رهبانية في الإسلام .

لذلك (وهو الثاني) ارتقى المتصوفة إلى معارج عالية من الشعور والتذوق، ولم يجدوا ألفاظاً تعبر عن مواجدهم الشفافة ، وأشواقهم الملهبة في المعجم الديني .
(إذ لكل غرض شعري ألفاظه) فأغاروا على شعر الغزل ليعبروا عن حبهم لله وشوقهم إليه، وخاصة بعد أن عبر مولانا عن الحب في كتابه فقال ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ وأغاروا على شعر الخمريات ليعبروا عن نشوتهم ولذاتهم في طاعتهم وذكرهم .

وهل للشاعر أن يستعمل هذا التعبير (الشُّكر) مقابل لذته ونشوته ؟ .
أقول : نعم يجوز ، لأن القرآن الكريم استعمل هذا التعبير في مواضع من الكتاب العزيز ليدل على أن صاحبه كأنه شرب الخمر فسكر، هو لم يشربها، لكنه كأنه فعل فسكر بها .

أين هذا في كتاب الله تعالى ؟

في ثلاث سور منه في ق، وسورة سيدنا محمد ﷺ ، والحج .
فعلى موجات سورة ق (١٩) : ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق** ﴾
وعلى موجات سورة سيدنا محمد (١٥) : ﴿ **وأنهاز من خمرٍ لذةٍ للشاربين** ﴾
وعلى موجات سورة الحج (٢) : ﴿ **وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ .

وهنا يصح أن نقول عن شعراء الحب إنهم سكارى وما هم بسكارى (على الحقيقة بشرب الخمر والعياذ بالله) ولكن حبّ الله تعالى في قلوبهم وجوارحهم كبير . قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ هذا هو لسان حال الشعراء الإسلاميين وقلت لكم ولا أزال أقول : إن كبار الصوفية ملتزمون بالقرآن والسنة، والتصوف عندهم هو شدة التمسك بالكتاب والسنة .

أيها السادة : بعد هذه المقدمة البسيطة أستطيع أن أنتقل بحضراتكم الآن إلى حماءه إلى سنة ٥٦٥ هـ حيث خرج أهلها منها لأن زلزالاً أتى عليها وضرب بعض مدنها وقراها، ومن هؤلاء الذين خرجوا رجل يسمى الشيخ علي بن المرشد، ترك حماءه وتوجّه إلى مصر، في عصر الدولة الأيوبية بعد أن قضى القائد صلاح الدين الأيوبي على دولة الفاطميين وقام بنشر مذهب أهل السنة والجماعة في مصر والشام، كان الشيخ علي هذا . أيها الإخوة . من العلماء الفرضيين أي عالماً بعلم الفرائض (المواريث) فغلب عليه التلقيب بالفارض، وكان نائب الحاكم أيضاً في مصر، ثم سئل أن يكون قاضي القضاة أي (وزيراً للعدل بمفهوم العصر) فرفض واعتزل القضاء والناس وآثر الانقطاع إلى الدنيا بقاعة الخطابة في الجامع الأزهر .

ومن هذا العالم أرسل الله إمامنا وشاعرنا الذي حدثتكم عنه في الجمعة الماضية وهو: سيدنا عمر ابن الفارض .

ومع الحلقة ثمانية وثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام ابن الفارض .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد الشاعر بمصر سنة ٥٧٦ هـ الموافق لسنة ١١٨١ م ، وكان والده أول من ألقى بذور العلم والزهد في قلب الفتى النبيل الذي كان يهتم ببيئته وملبسه ويتكلم بالعبارات الفصيحة فلما شب وترعرع اشتغل بفقه الشافعية، وهياً

الله له بعد والده أكابر عصره من العلماء الصوفية وأصحاب المكاشفات والكرامات كبرهان الدين الجعبري (ت ٦٨٧ هـ) والإمام شهاب الدين عمر السهروردي (٥٣٩ . ٦٣٢ هـ) الذي انتهت إليه تربية المريدين ، والمحدث الثقة القاسم بن علي بن عساكر الشافعي (٥٢٧ . ٦٠٠ هـ) . ولكن أقوى الشخصيات الفكرية الصوفية التي تأثر بها عمر بن الفارض هي شخصية سيدنا الشيخ محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ) الذي عاصر ابن الفارض وكان مذهبه أقوى المذاهب أثراً في نفسه .

هذه التلمذة جعلته ينهج منهج الصوفية بما يسمى بالخلوة والعزلة عن الناس، فكان يستأذن والده ليبست بوادٍ في منطقة المقطم، يقضي فيه سواد الليل وبياض النهار، ذاكرًا لله تعالى متفكرًا في آلائه، ثم يعود إلى والده يلزم درسه ومجالسه في علوم الشريعة لغاية وفاة والده، وحتى التقى برجل يدعى الشيخ البقال فنصحه أن يقصد مكة المكرمة وقال له: « سيكون بها الفتح الأكبر عليك إن شاء الله تعالى » لم يتأخر ابن الفارض في المغادرة ، فقصد مكة سياحة كانت سبيله إلى الفتح الإلهي ، فأقام بوادٍ بينه وبين مكة عشرة أيام للراكب المجدد، فكان كل يوم يأتي إلى الحرم المكي يصلي الصلوات الخمس في وقتها (وكان بيته داخل الحرم) وانقطع خلالها عن الناس فكان لا يتصل بهم إلا وقت الصلاة في الحرم الشريف ليصلي ويطوف ، حتى ألفه الوحش والطير وتسامع به أهل مكة والبطحاء وبشعره الفذ فصار بعض العلماء يصحبونه من داخل الحرم إلى خارجه ويجهزون له دابة ليركبها أمام الحرم، وإذا بهم يرون أسداً عظيماً يظهر لهم عند الحرم يأتي إلى الإمام ابن الفارض وينخ له كما ينخ الجمل ويقول : يا سيدي اركب .

وحين رأى أهل مكة مكانة الإمام عند الله إذ سخر له الوحش والطير تسارعوا يحفظون قصائده وينشدونها في الأسفار وعلى المآذن، وخصوصاً القصيدة التي فيها أسماء المشاعر في مكة والتي يقول في مطلعها :

أبرق بدا من جانب الغور لامع أم ارتفعت عن وجه ليلي البراقع
(ليلى اسم الكعبة)

وقصيدته :

قلبي يحدثني بأنك متلفي روحي فداك عرفت أم لم تعرف
(جازيت عليه أم لم تجاز)

وقصيدته :

ته دلالاً فأنت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد أعطاك
وبما شئت في هواك اختبرني فاختياري ماكان فيه رضاكا
إخوتي في الله : قضى ابن الفارض في مكة خمسة عشر عاماً فيها الفتح الإلهي
المبين له، وبقي فيها حتى أواخر سنة ٦٢٩ هـ حيث استدعاه البقال بطريق الاتصال
الروحي ليحضر وفاته ودفنه ويجهزه ويصلي عليه .
فعاد الإمام إلى مصر وقد بلغ صيته كل قاصٍ ودان، وأصبح موضع تقدير عليه
القوم ، وأقام بالأزهر في غرفة والده الراحل، عاد ليملي ديوانه بعد أن نظمه ونسقه
وقدمه للناس بجلته القشبية وتلقاه الناس بالقبول وأقبلوا عليه فلم ينكروا عليه شيئاً
من حالاته ولا نظمه .

وظفر في آخر حياته بإعجاب الملك الكامل به وإقبال الناس عليه، ولا أدلّ على
ذلك من أنه كان حيث يمشي في المدينة وقد ناهز الخامسة والستين يلتفون حوله
ويتهافون عليه ويريد كل منهم أن يقبل يده، فلا يمكّن أحداً من ذلك ، بل كان
يكتفي بمصافحتهم ووضع يده في أيديهم .

وكان الملك الكامل في مصر عاقداً مجلسه من أهل العلم والأدب، وكانوا
يتذاكرون أصعب القوافي فقال الملك : من أصعبها الياء الساكنة، وطلب من
الحاضرين أن يذكر كل منهم ما يحفظ من هذه القافية فلم يتجاوز أحدهم عشرة

أبيات، وهنا قال الملك إنه يحفظ خمسين بيتاً من قصيدة واحدة، وإذا بالقاضي شرف الدين كاتب الملك يقول : أنا أحفظ منها مئة وخمسين بيتاً من قصيدة واحدة وأنشد يقول :

سائق الأظعان يطوي البيد طي منعماً عرج على كثنان طي .

فقال الملك : لمن هي ؟ قال القاضي : لعمر بن الفارض. فأمر الملك له بألف دينار تقدم له برسم الفقراء الواردين عليه، فتردد القاضي وطلب من الملك إعفائه من هذه المهمة متحججاً بأن ابن الفارض لن يقبل الذهب، وأمام إلحاح الملك قصد القاضي إلى الأزهر وترك الذهب مع شخص كان يصحبه، وما كاد يصل إلى بابه حتى وجد ابن الفارض ينتظره ويبتدره ويقول : « يا شرف الدين مالك ولذكري في مجلس السلطان ردّ الذهب إليه ولا ترجع إلي سنة » .

فلما عاد القاضي إلى الملك وأخبره قال الملك : « مثل هذا الشيخ يكون في زماني ولا أزوره، لابدّ لي من زيارته ورؤيته » ، ثم قام ومعه خواص الأمراء إلى الأزهر، لكن ابن الفارض لم يكذبهم بقدمهم حتى خرج من الباب الآخر الذي بالجامع، وسافر إلى الإسكندرية وأقام برأس منارة تدعى المرقب .

يتعبد فيها الليالي ذوات العدد ويخلو مع حبيبه عز وجل يناجيه ويقول :

زدني بفرط الحب فيك تحيراً وارحم حشى بلظى هواك تسعراً
وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى
ياقلب أنت وعدتني في حبهام صبرا فحاذر أن تضيق وتضجرا

وأحياناً يضج إلى الله تعالى أن يطيل الليل حتى يبقى الناس بعيدين عنه ويبقى هو صابراً على العبادة لله تعالى قال مرة :

غيري على السلوان قادر وسواي في العشاق غادر
لي في الغرام سريرة والله أعلم بالسرائر
يا ليل طل يا شوق دم إني على الحالين صابر

هكذا شعراء الحب الإلهي همهم إرضاء محبوبهم وهو الله تعالى
أيها الأحبة والصحب : عاد الإمام ابن الفارض إلى الجامع الأزهر متوعكاً من
مبينه بالمرقب، مرض شاعرنا، وكان يغيب عن الوجود فتتمثل له في غيبوبته الجنة
أمام عينيه وما أعد الله له من ثمرة حبه له، فيتأوه ويصرخ صرخة عظيمة ويكي بكاء
شديداً ويتغير لونه ويسمعونه يقول :

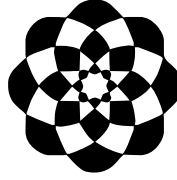
إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت روحي بها زمناً واليوم أحسبها أضغاث أحلام
ثم يصحو ويحدث مَنْ حوله بما رآه ، فيقول له الإمام الجعبري : إن هذا مقام
عظيم، فيردّ عليه ابن الفارض . يا إبراهيم رابعة العدوية تقول وهي امرأة :
« وعزتك ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا رغبة في جنتك، بل كرامة لوجهك الكريم،
ومحبةً فيك » أليس هذا المقام الذي كنت أطلبه وقضيت عمري في السلوك إليه، فسمع
الجعبري صوتاً حوله يقول :

. يا عمر فما تروم ؟ فقال ابن الفارض :

أروم وقد طال المدى منك نظرةً وكم من دماء دون مرماي طُلت
وغاب ابن الفارض عن الوجود ثانية، فرأى الجعبري ابن الفارض وقد تهلل
وجهه وابتسم ، لكنه بعد هذه المرة لم يفق لأنه غاب في حضرة الموجود الحق ﷻ .
توفي الإمام الشاعر سنة ٦٣٢ هـ ، وغسله شيخه وحضر جنازته التي لم ير أهل
مصر أعظم منها ، وتحافت الناس على حمل نعشه حتى دفن بمقبرة العارض
وقال فيه سبطه :

جز بالقرافة تحت ذيل العارض
أبرزت في نظم السلوك عجائباً
وشريت من بحر المحبة والولا
فرويت من بحر محيط فائض
وقل السلام عليك يا ابن الفارض
وكشفت عن سر مصون غامض

فرحمك الله يا ابن الفارض، وجمعنا بك في مستقر رحمته هناك كما جمعنا بك
بروحك هنا، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ ، الجالس فيها عليه أن
يصلّي على النبي .



إضافة إلى المصادر الأولى :
بدائع الزهور ٨١ / ١

(١٨٩)

الشيخ محي الدين بن عربي

(٥٦٠ . ٦٣٨ هـ)

الحمد لله ذي العزّ المجيد، والبطش الشديد، المبدئ المعيد، الفعّال لما يريد، الذي أمر بتكريم العلماء وأكرمهم بدار لهم فيها من خير مزيد. فسبحان من قسم خلقه قسمين، وجعله فريقين، فمنهم شقي وسعيد، وغوي ورشيد: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا كفء له ولا عدل ولا ضد ولا نديد.

وأشهد أنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله الداعي إلى التوحيد، الساعي بالنصح للقریب والبعيد، المحذّر للعصاة من نار تلظى بدوام الوقيد، المبشّر للمؤمنين بدار لا ينفد نعيمها ولا يبيد.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد صلاة وسلاماً لا يزالان على كرّ الجديدين في تجديد ، وسلّم تسليمًا.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام:

هل تعلمون عظيماً في الأمة له من المناصرين مثلما له من المناوئين؟! هل سمعتم برجل شغل بآرائه وأفكاره العقول والأذهان وأثار ثائرة قوم وإعجاب آخرين؟!

إننا اليوم مع هذا النمط من هؤلاء الرجال، مع سيد وضع مناهج تتناول التصوّف والصوفي في جميع درجاته، وكان هو مدرسة عبر القرون، وشهد له أعظم الصوفيين في عصره بأنه سلطان العارفين، كما لقّبه به شيخه سيدنا أبو مدين الغوث، وأطلق عليه آخرون لقب الشيخ الأكبر، فقال عنه الإمام السهروردي في بغداد: إنه بحر الحقائق. أعتقد أنكم عرفتم الشخصية الفذة التي ملكت عقول

المفكرين المشرقين والغربيين، إنه سيدنا الشيخ محيي الدين بن عربي واسمه سيدنا محمد بن علي بن محمد، حبيب أهل الشام من الصالحين، ومع الحلقة تسعة وثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام الشيخ محيي الدين بن عربي:

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان:

ولد سيدنا ابن عربي في السبع عشر من رمضان سنة ستين وخمسمئة (٥٦٠ هـ) في مدينة مرسية بالأندلس ، في ظل أسرة اشتهرت بالكرم والصلاح والتقوى، فأبوه كان رجلاً صالحاً مواظباً على تلاوة القرآن محباً وصاحباً لسورة يس خاصة، عندما دنت ولادته قال لولده ابن عربي:

. اليوم سيكون الرحيل واللقاء.

فقال له سيدنا ابن عربي: كتب الله سلامتكَ في سفرك وبارك لك في لقاءك. فرح الأب من جواب ولده وظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون بشرته من غير سوء ، لها نور يتألأأ فشعر بها الولد ثم انتشرت في وجهه حتى عمّت بدنه ، ثم مات ، ودفنوه ، والنور يتألأأ منه.

وكانت أمه وأخواله من أهل الصلاح والزهد، منهم ملك تلمسان زهد وترك ملكه، وله عموم لهم قدم ثابتة في طريق التصوّف، وهو من قبيلة طيء المشهورة بالكرم، وتزوج من سيدة لها أثر كبير في دفعه إلى طريق الهدى والنور، فهو ابن هذه البيئة الطيبة الصالحة، وصدق الله العظيم: ﴿وَالْبَلَدُ الصَّالِحُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا﴾.

إخوتي في الله: تحولت الأسرة سنة ٥٦٨ هـ إلى أشبيلية ، وهناك تفتحت عبقرية الإمام على التعلم والتفقه والتأدب ، فقرأ القرآن وجمعه على القراءات السبع المتواترة،

وكان لتوجهات شيوخه الأثر الفعال في صقل موهبته الشعرية ، وله منهج عظيم في أنه لم يخرج عن الكتاب والسنة والإجماع ، وفي ذلك يقول: إن عربي في شعره:

نسبوني إلى ابن حزم وإني لست ممن يقول قال ابن حزم
لا ولا غيره فإن مقالي قال نص الكتاب ذلك علمي
أو يقول الرسول أو أجمع الخلق على ما أقول ذلك حكمي

ويؤكد هذا المعنى في كتابه العظيم الفتوحات المكية فيقول: وليس عندنا بحمد الله تعالى تقليد إلا للشارع ﷺ.

ولقد بعدت همته في طلب العلوم وكانت عزيمته لا تعرف الكلل ، فهو كالنحلة دائب الانتقال من روض إلى روض، حتى أجازته مشايخه في العلوم والمعارف ، منهم ابن عساكر وابن الجوزي وحتى وبلغ مرتبة الاجتهاد ، ثم انقطع عن الناس وعاش بين المقابر ، فقال عنه الناس: إن ابن عربي ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الموتى . وجاء الفتح المبين لمغاليق العلوم وأعطاه الله ما غمض من أسرارها. وجعله كعبة القصد.

وتباركت أرض الأندلس وخارجها برحلات الإمام ولقاء شيوخ العالم الإسلامي في المشرق والمغرب، فغرف من بحارهم وفهم إشاراتهم، رسم على ضوء لقائهم طريقه ومذهبه، وكان له اجتماع بسيدنا الخضر ، يوجهه عند وجود الخلاف في الرأي بينه وبين أشياخه، ومرة اختلف في شيء مع شيخه أبي العباس العريني فأتاه سيدنا الخضر : يقول له: إن الحق مع أبي العباس، فعاد ليخبر شيخه بما حدث له، فقال له الشيخ: يا محمد أحتاج معك في كل مسألة أختلف فيها معك أن يقول لك الخضر : صدق أبا العباس؟

طاف سيدنا ابن عربي الأرض ، والتقى بشيوخ عصره حتى بلغوا خمساً وخمسين شيخاً من العمالقة في وقتهم ، درس عليهم التصوف العملي والتبحر بعلوم الشريعة، وحج ومكث في مكة معتكفاً يدرس في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي

،قبل أن يؤلف بعده كتابه العظيم الفتوحات المكية، وعندما ألفه وضعه فوق الكعبة
عاماً كاملاً ثم تناوله فوجده بالحالة التي وضعها عليها لم يؤثر فيه شمس ولا رياح ولا
أمطار ، حتى أيقن أن الله تعالى تقبله بقبول حسن إن شاء الله تعالى .
وقد نظم سيدنا ابن عربي في فنون التصوف دعا فيها إلى الأخلاق والزهد وإيثار
الآخرة على الدنيا، والتشويق إلى سيدنا النبي ﷺ، وهو القائل:

لا تندمن على خير تجود به وإن أغاظك من يقطعه واقترا
فالله يرزق من يعطيه نعمته سواء أنكرها كفرأ أو اعترفا

واسمعوا معي إلى هذه الأبيات التي يدعو فيها إلى الإخلاص:

إن كنت لي أكون لك ما أنت لي ما أنا لك
فاصغ إلى قولي تجد صحة ما قلت لك
ولتلتزم طريقتي واجهد وخلص عملك
تل بما جئت به من كل خير أملك

وقد ظهر سيدنا الشيخ الأكبر كأكبر أديب بين أدباء المشرق والمغرب، وحين
طال تجواله ما بين فاس والأندلس ومصر ومكة وبغداد وتركيا وحلب ، كان طلابه
وتلاميذه ومريدوه يكتثرون ويكثرون ويستقبله الملوك والأمراء عندما يدخل مدنهم ،
ويتعلمون منه التصوف العملي والزهد والكرم الذي لا مثيل له، فحين دخل قونية
من أرض الروم استقبله ملكها وأهداه داراً تساوي مئة ألف درهم، فما نزل بها وأقام
بها ، مرّ به سائل: فقال له: شيء لله، فقال: مالي غير هذه الدار خذها فهي لك.
بعد هذا التجوال في العالم شاء الله تعالى مع دوام الزهد وملازمة العباد أن وجد
ابن عربي نفسه يتوجه إلى مدينتنا دمشق ، فرحبوا به وقولوا رضي الله عنه.

دخل بلدتنا المباركة هذه واقتنى داراً بجوار ملكها الملك شرف الدين عيسى سنة
٦٢٠ هـ، الذي كان يجلس سيدنا ابن عربي ، وينظر إليه نظره إلى أستاذه، وكان يكثر
سيدنا ابن عربي الجلوس في زاوية الإمام الغزالي بالجامع الأموي، ومرة غاب المدرّس

الشافعي والشيخ محيي الدين حاضر، فقال الفقهاء: يا سيدي اذكر لنا درساً وألحوا، قال: أنا مالكي المذهب، ولكن ما الدرس؟ فأخبروه الدرس، وقام الإمام ابن عربي يشرح الدرس ولأهمية هذا الدرس أدعوكم جميعاً لحضوره، ولن أبعد بكم المزار فالجامع الأموي على بعد أمتار منا، فهلموا وأنتم تترضون عن الإمام ابن عربي، يقول سيدنا ابن عربي في بحث الصلاة: (انظروا كيف يتوضأ سيدنا ابن عربي وكيف يصلي) قال: إذا توضأت فاسع في الخروج من الخلاف وتوضأ أسبغ وضوء، وسم الله في بدء كل حركة، واغسل يديك بترك الدنيا منهما، ومضمض بالذكر والتلاوة، واستنشق بشم الروائح الإلهية، واستبري بالخضوع وترك الكبر، واغسل وجهك بالحياء، وذراعيك بالتوكل، وامسح رأسك بالمذلة والافتقار والاعتراف، وامسح أذنيك باستماع القول واتباع أحسنه، واغسل قدميك لإيطاء كثيب المشاهدة، ثم اثن على الله بما هو أهله، وصل على رسوله الذي أوضح لك سنن الهدى، وقف في مصلاك بين يدي ربك من غير تحديد ولا تشبيه، وواجهه بقلبك كما تواجه الكعبة بوجهك، كبره بالتعظيم ومشاهدة عبوديتك، وإذا تلوت فكن على حسب الآية المتلوة، فإن كانت ثناء عليه فكن أنت المحدث وهو الذي يتلو كتابه عليك، فيعلمك الثناء عليه فيما يثني به على نفسه، وكذلك في آية الأمر والنهي، وغير ذلك لتقف عند حدوده وتعرف ما وجه عليك سيدك من الحقوق فتحضرها في قلبك لأدائها والمحافظة عليها، والحظ ناصيتك بيده في ركوعك ورفعك وسجودك وجميع حركاتك، فتسقط لك الدعوى في هذه الملاحظة حتى تسلم، فإذا سلّمت فسلم باللفظ على من أمرك، فإن سلامك على نفسك.

ذهل الحاضرون من هذه الكيفية الجديدة في تدريس بحث الصلاة، وسمعوا بأذانهم تلك المرتبة التي بوأها الله لابن عربي، ورأوا ينايع الحكمة كيف تتفجر من قلبه على لسانه، ويذكر لنا ابن عربي نفسه كيف صار يرى الرؤيا الصادقة فتتحقق في اليقظة كما رآها، وكان يرى أثناء ذكره أنواراً تنبعث من باطنه حتى يبدد ظلام الحجرة التي

يذكر فيها، وبدأ يلتقي بأرواح الأنبياء والأولياء يحاورهم ويحاوروه ، وبقي في ترقٍ دائم حتى ارتقت روحه إلى هناك سنة ٦٣٨ هـ ، ودفن في مرقده في منطقة الصالحية، ثم بنى السلطان سليم إلى جواره مسجد الشيخ محيي الدين.
يا أحباب رسول الله :

إن حياة الشيخ الأكبر على مدى ثمانين عاماً ما زال أثرها حياً باقياً بما تركه من مؤلفات ومعارف، وما زال الدعاء عند قبره مستجاباً، فمن كان يريد من الله شيئاً فليدع هناك كما يدعو هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك



• المصادر: الشيخ محي الدين بن عربي عبد العظيم فرغلي علي القرني

سير أعلام النبلاء للذهبي ٢١

الموسوعة الصوفية . للحفني .

جامع كرامات الأولياء : للنبهاني

(١٩٠)

الإمام أبو الحسن الشاذلي

(٥٩٣ . ٦٥٦ هـ)

الحمد لله الذي جعل جنة الفردوس لعباده المؤمنين نزلاً ، ويسرهم للأعمال الصالحة الموصلة إليها فلم يتخذوا سواها شغلاً ، خلقها لهم قبل أن يخلقهم وأسكنهم إياها قبل أن يوجدتهم ، وحقها بالمكارة ، وأخرجهم إلى دار الامتحان ليبلوهم أيهم أحسن عملاً .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبليغ القاصد من فضله سوله وأمله ، وتنيله من بحر جوده ما قصده وأمله .

وأشهد أن سيدنا وحبیبنا وأمیرنا وقائدنا ووسیلتنا إلى ربنا سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفیه وحبیبه ، وخليله المؤيد بأنواع المعجزات الباهرة ، الذي لا تحصى نعوته الشريفة ومناقبه ولا تعد ولا تحصر آياته المنيفة ومواهبه ،

فاق النبيين في خلق وفي خلق ولم يدانوه في علم ولا كرم
فإن فضل رسول الله ليس له حدّ فيعرب عنه ناطق بقم
لا طيب يعدل ترباً ضمّ أعظمه طوبى لمنتشق منه وملتشم
صلى عليك الله يا علم الهدى

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً .

أما بعد: فيا معشر الأخوة الكرام:

هذه قصة رجل سما إلى سماء العز ، وبلغ من السعادة مالم يكن يبلغ مثله أحد ، كان قطب الزمان وقدوة الأنام وعلم الهداية والمشار إليه بالولاية ، طلع من المغرب هلالاً بل بدرأً ، ونزل بالإسكندرية فعان أهلها منه على البر بجرأً ، وكان وافر الزهد

والعبادة، لائذاً بالمشيئة والإرادة، ذا معارف وأسرار ، وأوراد وأذكار ، ومواعظ وأقوال، وكرامات وأحوال، منفرداً عن الناس، معرضاً عن ساد وساس، يلازم الخلوة والذكر ويقطع أوقاته بالمراقبة والفكر، كان من أعظم العارفين وأكابر المحققين، ساس المريدين سياسة طهر بها قلوبهم ، ورباهم تربية محابها عيوبهم، يأتيه الضال صباحاً فلا يمسي إلا وقد أوصله إلى الله.

وطريقته لاتزال من وقته إلى الآن أوسع الطرق الصوفية وأشهرها، وأكثرها عدداً من الأتباع والمريدين، هو سيد شريف من ذرية سيدنا محمد بن الحسن بن سيدنا علي، وهو زعيم الطريقة الشاذلية، وإمام الأولياء والصوفية، وأحد مفاخر الملة المحمدية، إنه سيدنا وشيخنا ومرشدنا إلى الله سيدي أبو الحسن الشاذلي (واسمه علي بن عبد الله بن عبد الجبار) رضي الله عنه.

ومع الحلقة تسعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام أبي الحسن الشاذلي .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان:

ولد سيدنا الإمام أبو الحسن في المغرب بغماره سنة ٥٩٣ هـ، ثم انتقل إلى شاذلة إحدى قرى تونس ودرس العلوم الشرعية في تونس، حتى أتقنها وصار يناظر عليها مع كونه ضريباً، ثم سلك منهاج التصوف وجدّ واجتهد وتربى على يد شيخه سيدنا عبد السلام بن مشيش (ومقامه في المغرب كمقام الإمام الشاذلي بمصر).

فاعتزل الناس وصخب الحياة إلى الصحاري والقصار وعلى الهضاب وفوق قمم الجبال، يقول سيدنا أبو الحسن الشاذلي: تنسكت ببعض الجبال فألقي في سري من سكن خوف قلبه لم يرفع له عمل، فضقت ذرعاً وأقمت على ذلك عاماً حتى رأيت

المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو يقول: يا مبارك أهلكت نفسك فزق ما بين سكن وخطر فالمؤمن يخطر به ولا يسكن ، فسكن ما بي .

ساح وجاع ثمانين يوماً فظن أن هذا يكفي ليصبح صوفياً على طريق القوم ، فإذا بامرأة خارجة من مغارة كأن وجهها ضياء الشمس حسناً وهي تقول: منحوس منحوس، جاع ثمانين يوماً فأخذ يدل على الله بعمله، وأنا لي ستة أشهر لم أذق فيها طعاماً.

إخوتي في الله:

كان لتربية ابن مشيش أثر بالغ في حياة الشاذلي، رباه على الكرامة وعدم مد يده إلى أحد ، فعمل في التجارة وشارك في الزرع والحرق والحصاد وتربية الماشية. كان كالأئمة الكبار يحب أن يأخذ زينته عند كل مسجد ، ويتحلّى دائماً بالثياب الحسنة، ويقول: اعرف الله وكن كيف شئت، ومن عرف الله فلا عليه أيضاً إن أكل هنيئاً مريئاً.

وكان رضي الله عنه يأمر غلامه فيقول: يا بني برّد الماء فإنك إذا شربت الماء السُّخن فقلت الحمد لله تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك بالحمد لله.

كان سيدنا الشاذلي كشيوخ الطرق الباقين يركب الخيل الجياد ويقول: لاتسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها ، و تنحل أعضاؤك لها فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها.

كان الناس ينتفعون بحديثه الحسن وكلامه المطرب الذي يدخل القلب، تحول إلى مصر وقدم الإسكندرية وكان بها سيدنا أبو الفتح الواسطي ، فوقف بظاهر البلدة وعلى حدودها واستأذنه بروحه ليدخل الإسكندرية ، فسمع صوت الإمام أبا الفتح يقول: طاقية لاتسع راسين، فمات أبو الفتح تلك الليلة، ودخلها سيدنا أبو الحسن ونشر بها سيرته وطريقته وأحزابه، واعتقده الخاص والعام وكان يعلم أصحابه سر

الطريقة فيقول ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعر والنخالة، ولا ببقية الصناعة، وإنما هو بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية. ويكره من المريد أن يكون متعطلاً وأن يسأل الناس، ويقول: إذا أردت أن تكون من أصحابي فلا تسأل أحداً شيئاً، وإن أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله، وإن كنت مقتدياً بالرسول في الأخذ فكن مقتدياً به كيف يأخذ، كان صلى الله عليه وسلم لا يأخذ شيئاً إلا ليشيب عليه من يعطيه ويعوضه عليه، فإن تطهرت نفسك وتقدسك هكذا فاقبل وإلا فلا.

أيها الأحبة والصحب:

كان تصوف الإمام الشاذلي وأصحابه ومنهم تلميذه الأول أبو العباس المرسي وبعده سيدنا ابن عطاء السكندري ، وهم أركان الطريقة الشاذلية، كان تصوفهم سنياً، ابتعدوا فيه عن الفلسفة واقتربوا جداً من الإمام الغزالي وطلبوا من مريديهم أن يتخذوه قدوة، ويقول الشاذلي لهم: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد الغزالي، وكتابه الإحياء يورث العلم، وكتاب قوت القلوب للمكي يورث النور.

وكان يطلق شعاره في التصوف ويقول: التصوف تدريب النفس على العبودية وردها إلى لأحكام الربوبية.

هكذا هو التصوف الشرعي، تصوف مرتبط بالكتاب والسنة، ولكن بعض المغرضين شوشوا على طريقة الشيخ ، وأرسلوا إلى سلطان الإسكندرية بأنه سيفسد عليه الناس ، وربما يستولي أصحابه على ملكك والإسكندرية لكثرة أتباعه، فبعث إليه السلطان رجاله ليغلظ عليه، وهنا عرف مقصد السلطان فقال لخدمته: بئس على هذا الحجر الكبير، فبال عليه فانقلب الحجر ذهباً، فقال لرجال السلطان خذوا هذا للسلطان يضعه في بيت المال، فلما وصل الحجر للسلطان رجع عما فيه من سوء الاعتقاد بالإمام، ثم نزل لزيارته وواصله وعرض عليه الأموال فأبى وقال: الذي يبول خادمه على الحجر فيصير ذهباً بإذن الله تعالى لا يحتاج لأحد من الخلق.

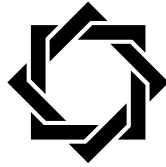
ومرّة كان الإمام أبو الحسن الشاذلي يتكلم في الزهد وهو يلبس تلك الثياب الفاخرة، وكان في المجلس فقير عليه أثواب رثة، فقال الفقير في نفسه: كيف يتكلم الشيخ في الزهد وعليه هذه الكسوة؟ أنا الزاهد في هذه الدنيا، فالتفت إليه سيدنا أبو الحسن وقال: ثيابك هذه ثياب الرغبة في الدنيا، لأنها تقول للناس أنا فقير، أنا فقير، وثيابنا هذه تنادي علينا بلسان الغنى وتقول صاحبها غني متعفف، فقام الفقير على رؤوس الناس وقال: أستغفر الله وأتوب إليه، السماح السماح ياسيدي، وهنا كساه الإمام كسوة جيدة.

معشر الأخوة الكرام:

حج سيدنا أبو الحسن مراراً، فلما كان سنة وفاته ٦٥٦ هـ توفاه الله تعالى على طريق الحج بالصحراء في مصر ودفن حيث مات، يقول تلميذه أبو العباس المرسى: جلّت في الملكوت فرأيت أبا مدين متعلقاً بساق العرش، فقلت: ما علومك؟ قال: أحد وسبعون، قلت ما مقامك؟ قال: رابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال، قلت فما تقول في الشاذلي؟ قال: زاد علي بأربعين علماً، هو البحر الذي لا يحاط به. واليوم في تونس يتباركون بسيدنا أبي الحسن الشاذلي ومن عظيم ما ذكر أنهم إذا أجروا مباريات في الرياضة بين الفريق التونسي وغيره ويكاد الفريق الآخر يغلب الفريق التونسي ، يقوم الجمهور بإنشاد أنشودة تذكر مناقب الشاذلي وتتوسل به إلى الله ، فيدب الحماس بالفريق التونسي وينتصر على خصمه بإذن الله تعالى .

أيها الأخوة:

إليكم الحدث الأخير في سيدنا أبي الحسن، كان الماء في المنطقة الصحراوية التي دفن فيها الإمام أبو الحسن أجاجاً، كان الماء لا يستطيع أن يشربه الشارب إلا بصعوبة، فما دفن سيدنا الإمام أبو الحسن بجواره حتى انقلب الماء عذباً فراتاً ببركة سيدنا أبي الحسن، كان أجاجاً هناك قبل أن يدفن، فلما دفن بجواره أصبح عذباً هنا، عذب بذكر سيدنا محمد هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك^(١)



١. الشعر الصوفي في مصر - علي صافي حسين ص ٦٠ .

. شذرات الذهب في أخبار من ذهب - عبد الحي العكري الحنبلي الدمشقي ٤٨/٧ .

. جامع كرامات الأولياء للنبهاني ٣٤١/٢ .

. الموسوعة الصوفية .

(١٩١)

الإمام عبد العزيز بن عبد السلام

(٥٧٧ هـ . ٦٦٠ هـ)

الحمد لله الذي عزّ جلاله فلا تدركه الأفهام، وسما كماله فلا تحيط به الأوهام، وشهدت أفعاله أنه الحكيم العلام، الموصوف بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام، هو الله الملك القدوس السلام. قسّم عطائه بين خلقه في الظاهر والباطن أقسام: فالمؤمنون حبيب إليهم الإيمان، وشرح صدورهم للإسلام، والكافرون حجبهم عن بابه وجرت بشقاوتهم الأقلام، والعلماء زينهم بإقامة الحجج الدينية ومعرفة الأحكام، والعارفون أودعهم لطائف سرّه فهم أهل المحاضرة والإلهام، والعاملون وقّتهم لخدمته فهجروا لذيد المنام، والمحبون أذاقهم لذة قربهِ وأنسهم فشغلهم عن جميع الأنام، والغافلون أذهّم عن النظر في العواقب فجنحوا للآثام.

فسبحان من منح ومنع، ووصل وقطع، وفرّق وجمع، فبمشيئته الإحجام والإقدام، أحمدُه على ما أولانا من جزيل الإنعام.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من قال ربّي الله ثم استقام.

وأشهد أنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله قد ارتفع من غبار الشرك قتام، وسطع من أبواب الكفر ظلام، فلم يزل ﷺ يناضل بالحجج والسنام والحسام، ويقاقل في سبيل الله بعزم واهتمام حتى انقشع عن سماء الحق تراكم الظلام، وطلع من أفق الإيمان بدر التمام، وأظهر الله الحلال على الحرام.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه البرّة الكرام، ما وكف قطر واضطرب نهر، وانفتح زهر ومال غصن وغرّد حمام، وسلّم تسليمًا.

أما بعد: يا معشر الإخوة الكرام

سمعنا ونسمع لقب السلطان والملك ، سلطان البلد الفلاني، وملك البلاد الفلانية، ولكن هل سمعتم بسلطان العلماء؟ سلطان جمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والأصول والفقه والأخلاق حتى بلغ فيه رتبة الاجتهاد في المذهب الشافعي ، وصار إمام عصره بلا مدافع ، وقصد بالفتاوى من الآفاق، وصنّف المؤلفات المفيدة ، سلطان بقوته وجراته، يجهر بالحق ويقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا فرق عنده بين ملك وسوقه وأمير ووزير، قاض لا يخاف في الله لومة لائم ، محترم وقور تخشى السلاطين والأمراء صولته وسلطانه. سلطان بورعه وزهده وأخلاقه العالية، ينشر العلم ويحكم بالعدل، عاش فقيراً ومات فقيراً ، ولم يبع دينه وكرامته أبداً.

هل عرفتم من هذا الإمام العلم؟ السلطان على السلاطين، إنه سيدنا عبد العزيز بن عبد السلام العربي الأصيل، دمشقي المولد مصري الإقامة والوفاة، شافعي المذهب، أشعري العقيدة. ويعرف بالإمام العز بن عبد السلام، ومع الحلقة واحد وتسعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربضوا عن الإمام العز بن عبد السلام:

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد مولانا الإمام العز بدمشق سنة ٥٧٧ هـ ونشأ في أسرة فقيرة مغمورة وتوجه إلى طلب العلم بجد واجتهاد في الجامع الأموي بدمشق، يساعده على ذلك ذكاؤه الخارق وملكاتة الفطرية ومواهبه الإلهية ، فحفظ كتاباً كاملاً في الفقه الشافعي هو كتاب التنبيه، واختار فطاحل العلماء العاملين ليكون تلميذاً لهم، أمثال فخر الدين بن عساكر شيخ الشافعية بالشام صاحب الكلمة المهابة عند الملوك (ت ٦٧١ هـ) ، وأخذ الحديث عن مسند الشام الشيخ جمال الدين بن الحرساني قاضي القضاة (ت ٦١٤ هـ) ، وسيف الدين الآمدي الفقيه الشافعي

الأصولي الذي لو ناظر الشيطان لغلبه (ت ٦٣١ هـ) ، وغيرهم من علماء دمشق التي كانت تغص بالعلم والعلماء حتى ارتوى منهم وهضم ما تلقاه.

ثم بدأ بالعطاء المبارك والنفع العميم ، فقام بالتدريس والفتوى في الشام حتى لقب بمفتي الشام، وكان موفقاً في الفتوى جريئاً فيها ، وبدأ يُقصد بالفتاوى من الآفاق ، حتى قصده أهل الموصل من العراق . وكتبوا عنه الفتاوى الموصلية وكان مقرّه في الجامع الأموي بالزاوية الغزالية الغربي ، يمزج درسه بال نوادر والأشعار والمرح واستعمال المزاح وطرح التكلف ، معتمداً على ذكائه وموهبته وحضور بديهته.

ومع التدريس كان خطيباً فذاً على منبر الجامع الأموي، لسنّاً جريئاً عالماً مخلصاً، له تأثير في القلوب ، أحيا بها الإمام العزّ رسالة المنبر الأصيلة، ترك فيها بدع المنبر كلبس السواد من الخطباء ودق السيف على المنبر وسجع الخطب والثناء المفرط على الحكام.

لكنه لم يستمر طويلاً في خطابة دمشق إذ أن ملك الشام تحالف مع الإفرنج وسلّمهم بعض الثغور وسمح لهم بدخول دمشق ليشتروا الأسلحة ليقتلوا بها المسلمين في باقي الثغور ، فشق ذلك على الإمام العز واعتبره خيانة للأمة ، فقام على المنبر وفضح الملك على الملأ وقال: يحرم على أهل دمشق وغيرهم مبايعة الإفرنج ، لأنهم يشترون السلاح ليقاتلوا به إخواننا المسلمين، وكان الملك خارج المدينة فأمر بعزل الإمام العز عن وظائفه وحبسه ثم أطلقه.

فهاجر الإمام العز مع صديقه ابن الحاجب المالكي (ت ٦٣٩ هـ) وقد ناهز الستين من عمره، هاجر على حمار له ،خرج به بدون مال ولا متاع ، لكنه عرّج إلى بيت المقدس ، وأقام بها مدّة، فإذا به يفاجأ بملك دمشق ومعه ملوك الإفرنج بعساكرهم وجيوشهم قد حطّوا ببيت المقدس، يقصدون الديار المصرية فسيّر ملك دمشق بعض خواصه إلى الشيخ بمنذيله ليرادوه على أن يرجع عن رأيه ليعود إلى مناصبه على أحسن الحال.

فاجتمع به رسول الملك فلاينه وسائسه على أن يرضخ للملك ويقبل يده لا غير، فقال الإمام العز لرسول الملك: والله يا مسكين ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً أن أقبل يده، يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ.

فحبس الإمام العز في خيمة جوار خيمة الملك، وراح يقرأ القرآن في الليل والنهار، فقال الملك للملوك الفرنجة: تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم. قال: هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته لإنكاره عليّ تسليمي حصون المسلمين لكم، وعزلته عن الخطابة والتدريس بدمشق ثم أخرجته فجاء القدس، وقد جدّدت حبسه لأجلكم، فقال له ملوك الفرنجة: لو كان هذا قسيسنا لغسلنا رجله وشربنا مرقتها.

إخوتي في الله: هاجر الإمام العز لمصر بعد أن سبقته شهرته إليها، فتلقيه سلطانها الملك نجم الدين أيوب بالتعظيم والإكرام، وعيّنه فوراً خطيباً لأعظم مساجد مصر وهو جامع عمر بن العاص، ثم عيّنه قاض القضاة (أي بمثابة وزير العدل اليوم)، وتهيب العلماء من الفتوى بحضرته، ومضى بمناصبه خير قيام، فجاهر بالحق وحارب الفساد وأصدر الأحكام على الحكام، وهددهم إن لم ينفذوها بعزل نفسه، ومعناه قيام الثورة الشعبية ضدهم، فضرب الإمام العز بذلك المثل الأعلى للقضاة.

وقف مرة بوجه السلطان نجم الدين أيوب في يوم وقد خرج على قومه في زينته، والأمراء يقبلون الأرض بين يديه فقال له: يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوء لك ملك مصر ثم تبيح الخمر، فقال: هذا أنا ما عملته، هذا

من زمان أبي، فقال: أنت من الذين يقولون: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ (الزخرف ٢٢)، وهنا أمر السلطان بإبطال الحانة التي بيع فيه الخمر فوراً.

وقدم طلاب الشيخ يسألونه: كيف فعل ذلك مع الملك؟ فقال: رأيته في تلك العظمة فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه، فقالوا: أما خفت؟ فقال: استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان قدامي كالقط.

فكان يشبهه في مصر بسيدنا عمر بن عبد العزيز في حكمه وعدله، حتى إن وزيراً من وزراء الملك بنى في أحد المساجد بمصر مكاناً للهو والطرب واللعب ، فقام الإمام العز بإصدار أمر بهدم ذلك المكان، بل قام بنفسه مع أولاده وتلامذته بهدمها وأسقط عدالة الوزير.

كان يواجه مواقفه بقوة الإيمان واليقين مواقف لم تُعرف لسواه من العلماء، وكان الملك نجم الدين أيوب أراد أن يقوّي جيشه ويحمي نفسه فاشترى من مال الدولة المماليك الأتراك، ودرّجهم على الفروسية والفتوة والقتال حتى نالوا ثقته وأصبحوا أمراء الجيش ، وبلغ أحدهم أن صار نائب الملك. ولما تولّى العز منصب قاضي القضاة أعلن أن حكم هؤلاء الأمراء المماليك غير نافذ في السلطنة ، لأنهم لا يزالون في حكم الرق لبيت مال المسلمين، ومن جملةهم نائب الملك، وأوقف تصرفاتهم ، فثاروا على الإمام العز، ولكن كبّحوا جماح الغضب وجاءوا يساومون الإمام العز بالحسنى ، فصمم الإمام على حكم الشرع ، وأنه يجب بيعهم في المزاد العلني لصالح بيت المال ثم يتم عتقهم ليصبحوا أحراراً..

فقال نائب الملك: كيف ينادى علينا بالبيع ونحن ملوك الأرض! والله لأضربنه بسيفي هذا . فركب بنفسه في جماعته وجاء إلى بيت الإمام والسيف مسلول في يده ، فطرق الباب فخرج ولده عبد اللطيف ثم دخل وأخبر والده ، فقال الإمام العز: يا ولدي أبوك أقل من أن يقتل في سبيل الله، ثم خرج إليه وكأن قضاء الله نزل على نائب السلطان فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها، وأرعدت مفاصله وصار يبكي وسأل الإمام أن يدعوه له، وقال: ما العمل ياسيدي؟ قال: أنا أنادي عليكم وأبيعكم وأقبض ثمنكم وأضعه في بيت المال.

يقول الراوي يا سادة يا كرام: وتمّ ما أراد الإمام ، ونادى عليهم واحداً واحداً، ثم قام الملك نجم الدين بدفع آخر ما وصل إليه المزاد ، ثم أعتقهم واحتفظ بهم قادة، ومن هنا عُرف الشيخ بأنه **بائع الملوك**.

أيها الأحبة والصحب: ذلكم هو الرجل الذي فاق أهل زمانه، عاش عزيزاً ومات عزيزاً شريفاً، توفي الإمام العز سنة ٦٦٠ هـ وقد بلغ ثلاثاً وثمانين سنة من العمر ، وكان يوم وفاته مشهوداً وصلّى عليه الملك الظاهر بيبرس ، الذي طرد التتار قبل وفاة الشيخ بسنتين ، وقام أهل دمشق الأوفياء لإمامهم العز فصّلوا عليه صلاة الغائب في الجامع الأموي ، وعمل له العزاء في جامع التوبة.

أيها الإخوة: تذكروا أن الإمام العز كان من كبار المفكرين والمجتهدين في القرن السابع الهجري، هانت عليه نفسه في سبيل إعزاز الدين ونصرة المظلومين هنا وهناك، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.

اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

المصادر

سير أعلام النبلاء للذهبي .	العز بن عبد السلام د. عبد الله الوهبي
الإمام العز بن عبد السلام د . علي الفقير .	فوات الوفيات للكتبي
الأعلام للزركلي .	طبقات الشافعية للسبكي
البدر الطالع للشوكاني .	طبقات الشافعية للإسنوي
البداية والنهاية لابن كثير .	العز بن عبد السلام د. محمد الزحيلي
عز الدين بن عبد السلام . رضوان الندوي .	

(١٩٢)

سيدنا الإمام يحيى النووي

(٦٣١.٦٧٦ هـ)

الحمد لله منور البصائر بحقائق معارفه ، ومصور الخواطر خزائن لدقائق لطائفه ،
الذي أودع القلوب من حكمه جواهر وجعل نجوم الهداية بذكره زواهر .
أحمده ولا يستحق الحمد على الحقيقة سواه ، وأعتقد التقصير في كل ما فعله
العبد من شكر نعم ونواه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تكون للنجاة وسيلة
وبرفع الدرجات كفيلة .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي بعثه وطرق الإيمان قد عفت
آثارها، وخبت أنوارها ووهت أركانها، فشيد ﷺ من معالمها ماعفاً، وشفى من العليل
في تأييد كلمة التوحيد ما كان شفاً، وأوضح سبيل الهداية لمن أراد أن يسلكها،
وأظهر كنوز السعادة لمن أحب أن يملكها، فحملها الأئمة الأعلام ووضحوا منها ما
كان مبهماً ، وأقاموا ميزان الشرع باتباع الأمر والنهي بعد أن كان الوجود قد خلا
منها .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أهل المجد والعلى،
والأئمة الذين تحلّوا بأبهى الحلى، وقاموا من أوامره بسنته وفرضه فأصبحوا معالم
الهدى ومصابيح الدجى، فهم وسائل النجاة والمشارئ إليهم بقوله عز وجل ﴿ يرفع
الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ صلاة دائمة ماعلم عالم ،
وشيدت للدين معالم، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد فيا معشر الإخوة الكرام : هذه شخصية شيخ من دمشق، عالم من
علماء بلدكم الحبيب، ولكن ليس كما تعرفون من العلماء، بل هو محيي السنة

وميت البدعة، صوفي كبير وقطب الأولياء وفقه الأنعام، شيخ قال عنه شيخ الشافعية في عصره الإمام السبكي (الطبقات ٨ / ٣٩٥) إنه شيخ الإسلام وأستاذ المتأخرين، وحجة الله على اللاحقين، وقال عنه الإمام الذهبي في طبقات الحفاظ (تذكرة الحفاظ ٤ / ١٤٧٠) إنه الإمام الحافظ الأوحى القدوة شيخ الإسلام وعلم الأولياء .

نحن اليوم نزل على شيخ لم يكن يرى تاريخ الإسلام في كل عصوره عشرين من أمثاله، انتزع من العالم أجمع أعظم الإعجاب وأصدق الحب ، وترك في تواريخ الشرق والغرب أكبر الأعماد وأعطر السجايا ، وكان أضخم الأسماء التي رنّت في سمع الزمان، ودوت في أرجاء التاريخ وخلدت على وجه الأرض . والسبب أنه كان مخلصاً كأحسن ما يكون المخلصون، فقيهاً : الفقهاء أمامه قمم صغيرة، له في الشريعة النظر الواسع المحيط بأسرارها، الملم بأصولها وأحكامها، هو حلقة من السلسلة الذهبية لفقهاء الشافعية، حتى بلغ من المنزلة أنّ قوله هو المعتمد في المذهب الشافعي، إذا قال : (قلت: الحكم كذا) كان قوله هو المعتمد، وعلى كتبه مدار الفتوى لذلك لقب بمحرر المذهب الشافعي .

نحن مع صوفي ولي في قلبه إيمان لو صب في الحجر لانبجست منه الحياة، ولو نظر إلى الجبال الرواسي لزال قبل أن ينبث ببنت شفه ، قطب رباني فرّغ قلبه ونفسه من شهوات بطنه وشهوات غريزته وشهوات المجد والغنى والجاه، وهانت عليه الدنيا فلم يكلها لنفسه شيئاً منها، فجاءه منها كل شيء: المجد والجاه والمنزلة، حتى لا يوجد مسلم في بقاع الأرض كلها ومنذ ٧٠٠ سنة إلا ويعرفه ويقدره ويعتزّ بأن لديه كتاباً من كتبه في مكتبته، شيخ هزّه سيدنا محمد ﷺ حتى أفاق أهل الأرض جميعاً بكتبه، وراح أحد كتبه مضرب المثل بين العلماء (بيع الدار واشتر الأذكار) ومع صوفيته وتواضعه وزهده كان يهابه الملوك ويذلّ أمامه الجبارون، وكان حقاً سيداً

وحضوراً، وفي مواجهة الباطل أسداً هصوراً، إننا مع العالم الرباني والفقهاء الشامي سيدنا الإمام محي الدين النووي يحيى بن شرف النووي رضي الله تعالى عنه .
ومع الحلقة اثنان وتسعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام يحيى بن شرف النووي .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد مولانا الإمام أبو زكريا النووي سنة إحدى وثلاثين وستمئة هجرية في بلدة نوى جنوب دمشق على بعد ٩٠ كم منها ، وكان والده من الزهاد الورعين كما وصفه المؤرخون، ويذكر والده أن الإمام في سن السابعة ليلة ٢٧ من رمضان ، انتبه وهو يقول: يا أبت ما هذا الضوء الذي ملأ الدار؟! ، قال : فاستيقظ أهل الدار جميعاً وهم لا يرون شيئاً يقول والده: عرفت أنها ليلة القدر .

رآه والده وهو يحبُّ القرآن منذ صغره، وينصرف عن اللهو واللعب يتلو كتاب الله تعالى، وكان الأطفال ربما يكرهونه على اللعب معهم وهو ابن عشر سنين فيبكي ويفر إلى تلاوته المباركة، ولما جعله أبوه أخيراً في دكان، اشتغل بالقرآن عن البيع والشراء، فشاهده أحد الصالحين ووصى صاحب الدكان أن يعيد الولد إلى أبيه ويعتني به ، لأن هذا فعل الأولياء في الصغر ففرغه والده للعلم.

وكانت أول منقبه له أن أتم حفظ القرآن عند سن البلوغ، مما حدا بوالده أن يُقدم به دمشق وقد بلغ تسع عشرة سنة فسكن بالمدرسة الرواحية جوار الجامع الأموي جهة باب النوفرة وراح ينهل العلم من منابعه الصافية .

إخوتي في الله . أيها الشباب . اسمعوا وأنتم تقدمون على امتحانات آخر السنة كيف أصبح الإمام النووي علماً من أعلام الأمة، إنّ قصة تحصيله الدراسة قصة عجيبة، اسمعوا طرفاً منها لتدركوا كيف تكونت شخصية سيدنا يحيى النووي، إن

إمامنا صار إلى ثلاث مراتب في حياته، كل مرتبة لو كانت لشخص لشّدت إليه الرحال :

كان عَلماً في العلم، عَلماً في التصوف والزهد، عَلماً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكيف تمّ له ذلك ؟

ما إن حطّ الشيخ النووي رحاله في دمشق حتى كان مثله كَمَثَل العطشان الذي فقد الماء أياماً، فراح ينهل من العلوم والفنون بنهم ليس له مثيل، سهر ليله واغتم نهاره، كان يقرأ في اليوم والليلة اثني عشر درساً على الشيوخ في عدة علوم ويحفظ كتاباً بكامله خلال شهرين أو ثلاثة، ويكتب ملاحظات الشيوخ وإملاءاتهم على أطراف كتبه، فلم تمرّ عليه عشر سنوات حتى صار أحد أفذاذ العلماء وأعلام الدنيا.

يا شباب ، يا أمة الإسلام، يا طلاب العلم اسمعوا سيرة هذا الإمام وانهجوا نهجه، كان إيمانه يصنع العجائب، وحمته تزيج الجبال، هذه هي بطولة تلاميذ سيدنا محمد ﷺ بالعلم، والعلم وحده، به فتحنا العالم لا بالسيوف والرماح ، كان سيدنا يحيى النووي يتبع السنة، ويعمل بما يحفظ من الأحاديث في كلّ صغيرة وكبيرة، منهجة في اليوم والليلة كتاب الأذكار، بقي سنتين لا يضع جنبه على الفراش كان إذا غلبته عيناه استند إلى الكتب لحظه وانتبه .

استمد أخلاقه وسيرته من إرث سيدنا محمد ﷺ في التقوى والصلاح، وصار مضرب المثل به في التصوف السني بين الكبار، زهد في الدنيا، وهو يراها أهون من أن يهتم بها ويحرص عليها، فلم يستعبده مال ولا جاه ولا امرأة ، كان سيدنا يحيى بن شرف النووي سيداً وحصوفاً أي لم يتزوج، لم يملأ بطنه مرة، يأكل أكلة واحدة بعد العشاء، ويشرب شربة واحدة سحراً، ومصدر طعامه طعام يرسله إليه أبوه، حرّم على نفسه أن يأكل من فواكه دمشق لأن أكثرها أوقاف للفقراء، استغنى عن أموال الناس ورواتب الدولة ولم يدخل حمام السوق أبداً، حتى عدله أحد شيوخ الإمام الذهبي (إسماعيل بن المعلم) في تضيق العيش في مأكله وملبسه وأحواله وخوفه من

مرض يعطله عن العلم، أتدرون بم أجابه؟ قال : إن فلاناً صام وعبد الله حتى اخضرّ جلده .

والله يا سادة : ما ذلّ العلماء إلا يوم اتكلوا على الرواتب وعلى أموال الوقف وهدايا الناس، ولو أنّ العلماء استغنوا بمالهم عن أموال الناس وعن رواتب الدولة لرأيتم ما عزّة العلم وما هيبة العلماء .

تماماً كما حدث للإمام النووي : انظروه: ها هو منقطع إلى التدريس والإملاء والتأليف، وخلف مؤلفات أكثر من ٤٠ مؤلفاً هي غاية الغايات في جودة البحث ووضوح الأسلوب، حقاً كان مولانا الإمام النووي وفياً للعلم .

يا أحباب النبي الأعظم ﷺ : أجمع المؤرخون الذين ترجموا للإمام النووي على أنه قطب من أقطاب الصوفية، وصفوه بغاية التعبد والخشوع، وتأملوا معي هذا الموقف الذي وصفه لنا أحد تلامذته (محمد البقلي) يقول : كنت ذات ليلة في أواخر الليل بجامع دمشق، والشيخ واقف يصلي إلى سارية في ظلمة وهو يردد قوله تعالى ﴿ وقفوههم إنهم مسؤولون ﴾ يكررها مراراً بخوف وخشوع حتى حصل عندي من ذلك حال عظيم .

فمن أين أتى الإمام بما أتى به، من هم الذين تربى على أيديهم، إنني لست في هذا المقام أقوم بتعداد ذكر أشياخه كلهم، ولكني أحب مثلكم أن أتبرك بأسماء بعضهم وكانوا زهاء سبع وعشرين شيخاً، من هؤلاء الأعلام :

المحدث الضياء بن تمام الحنفي، و الحافظ عبد الرحمن بن قدامة المقدسي (ت ٦٨٢)، والإمام سلاّر بن الحسن الاربلي ثم الحلبي ثم الدمشقي (٦٧٠ هـ) والإمام الكمال اسحق بن أحمد المغربي (ت ٦٥٠ هـ) ثم مفتي دمشق ابن نوح المقدسي (٦٥٤ هـ) والإمام أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ثم الدمشقي الشافعي الفقيه المقرئ النحوي (٥٩٦ . ٦٦٥ هـ) المدفون بتربة الدحداح على طرف شارع الأموي، كان شيخ دار الحديث في العصرية متواضعاً فذاً ، و لأدلل لكم

عن مدى صلاح شيخه أبي شامه، تذكرون يوم فتحوا الطريق داخل تربة الدحداح في الخمسينات كان من ضمن القبور التي أرادوا هدمها قبر الإمام أبي شامة فتحوا القبر بعد ٧٠٠ سنة فوجدوا الشيخ كأنه دفن الآن، فكفنوه وأقاموا على قبره مقاماً. لما مات الإمام أبو شامة هذا تولى الإمام النووي المشيخة بعده (سنة ٦٦٥ هـ) ورغم توليه مشيخة دار الحديث لم ينتقل من غرفته في المدرسة الرواحية وهو بيت عجيب تسكنه الحيات، دخل عليه أحد تلامذته مرة فوجده يطعم حية اللباب ، وهي تأكل من يده (لا تحف هذه جارتنا الحية) .

هناك في هذه الغرفة كتب الإمام جميع كتبه، وكيف؟ على ضوء السراج، وكيف؟ بالريشة والمحبرة، كم كتاباً؟ أكثر من ٤٠ كتاباً ، كم صفحة آلاف الصفحات: روضة الطالبين والمنهاج وشرح مسلم والتحقيق ورياض الصالحين، وشرح المذهب والتقريب والإرشاد في المصطلح والأربعين النووية وبستان العارفين في التصوف والمقاصد في التصوف، وتهذيب الأسماء واللغات في التراجم، أربعون أو ست وأربعون مؤلفاً كتبها الإمام من سن العشرين إلى سن الخامسة والأربعين هذه من أعظم الكرامات ، حتى حُسب أنه كان يكتب كل يوم ثلاث ملازم، كتب هذا تأليفاً فكيف بالقراءة، وكلّها على ضوء السراج وبالريشة ، ومرة كان يكتب فانطفأ السراج فإذا برب العزة والجلال يضيء رأس أصبع الإمام ليتابع كتابته في الظلام أين همتمكم يا طلاب العلم ؟ .

فلما بلغ الولاية والقبطية صار الأولياء يزورونه في الليل، وسهر تلميذ معه (مرة) ففوجئ بالحائط ينشق ويخرج منه شخص له صورة حسنة ويتكلم مع الإمام فطلب من تلميذه أن يكتمها عنه حتى وفاته .

يا شباب : أترون هذا الشيخ المتواضع القابع في مشيخة دار الحديث وحوله كتبه ، كان يهابه أمراء عصره، وكانوا إذا فعلوا شيئاً يخالف الشرع كتب إليهم الإمام بكلّ أدب ووعظهم دون خوف أو وجل، لاسيما الملك الظاهر بيبرس أحد ملوك

الإسلام الأقوياء والذين خاضوا غمار المعارك ضد الصليبيين (بتعبير آخر: ضد أوروبا، وبتعبير عسكري: ضد الحلف الأطلسي) ثم من بعدهم ضد التتار في عين جالوت . الظاهر بيبرس هذا كان إذا ذكر أمامه الإمام النووي أخذته رعدة (فمن خاف الله خافه كل شيء) بل صرح لأحد أتباعه مرة بأنه يفزع من الإمام النووي من شدة صلاحه وتقواه. ومّره أراد نائب الشام أن ينقل كتب العلم التي في خزانة الأموي إلى بلاد العجم، فنهاه الإمام النووي ومنعه، فأراد نائب الشام أن يتناول على الإمام فأغلظ الإمام عليه بالقول. فأراد نائب الشام أن ييطش به ، وكان قد فرش النائب حوله جلود النمار والسباع، فأشار إليها الإمام النووي فقامت سباعاً حية بإذن الله تريد أن تفتك بالنائب وكشرت عن أنيابها ففر هارباً هو وجماعته. ثم جيء بالنائب يعتذر من الإمام ويقبل رجله . (من خاف الله خافه كل شيء، من أطاع الله أطاعه كل شيء) .

ودخل عليه صديقه ابن النقيب (صاحب عمدة السالك في الفقه) فقال له : أهلاً يا مدرّس الشافعية ، اجلس يا قاضي القضاة، قال فما مضى شهور حتى صار قاضياً للقضاة ومدرّساً للشافعية .

أيها الأحبة والصحب : ولما بلغ سيدنا الإمام النووي الخامسة والأربعين قام بأشياء عجيبة، إذ أنه ترك دمشق وسافر إلى بلده وزار القدس والخليل وردّ الكتب المستعارة من الأوقاف، وزار مقبرة أشياخه فقراً ودعا وبكى، وودّع أصحابه الأحياء، ثم عاد إلى بلده ومريض ومات هناك وذلك سنة ٦٧٦ هـ وارتجت دمشق لوفاته ونعاه ورثاه الشعراء بأكثر من ستمئة بيت، وقدم بعد وفاة الإمام تقي الدين السبكي بركة العصر، ودخل إلى مدرسة دار الحديث ونزل إلى البساط الذي كان يجلس عليه الإمام النووي وراح يمرّج وجهه على البساط الذي كان يدرس عليه وهو يقول :

وفي دار الحديث لطيف معنى
عسى أن أمسّ بحجرٍ وجهي
على بُسْط لها أصبو وآوي
مكاناً مسّه قدم النواوي
فمن أراد أن يجتمع بالإمام هناك فليبق معنا هنا ، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة
سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يصل على النبي :
الصلاة والسلام عليك يا رسول الله



المصادر :

طبقات الإسنوي ٢ / ٢٦٦

فوات الوفيات ٢ / ٤٦٩ . ٤ / ٢٦٤

جامع كرامات الأولياء ٢ / ٥٢٠

طبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٣٩٥

تذكرة الحفاظ للذهبي ٤ / ١٤٧٠

النجوم الزاهرة ٧ / ٢٧٨

البداية والنهاية ١٣ / ٢٧٨

شذرات ابن العماد ٧ / ٦١٨

(١٩٣)

الإمام إبراهيم الدسوقي

(٦٥٣ - ٦٩٦ هـ)

الحمد لله الذي أيد الإسلام بمبعث سيد الأنام، وجعل مدده لكل خليفة وإمام، فهم ظل الله في أرضه يأوي إليه كل ملهوف ، والزعماء القائمون بنهي كل منكر وأمر كل معروف، جعل قصصهم عبرة لأولي الألباب، وتذكرة في كل خبر وكتاب، فمن عدل منهم كان أول السبعة، ومن ظلم كان في أخباره شنعاء

أحمدته حمداً كثيراً على أن عرفنا من صلح منهم ومن فسد، ومن هو في الوغى مدد، وبين الأنام عدد، ونشكره على أن أخرنا عن كل الأمم، وهذا والله من أعظم الإحسان وأسبغ النعم، لنعاين ممن تقدّم آثارهم ونشاهد منازلهم وديارهم ، ونسمع كل ما وقعت وجرت أخبارهم، أعظم بها من منة جليلة وكرامة وفضيلة. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة لا ينقص قدر إيمانها بعد تأكده ، ولا يخفض مجد اتقانها بعد تشييده.

وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الذي كان لقوى الحق أهلاً، ومن جعل بتشريعه طريق الفلاح لسالك سننه سهلاً .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأتباعه ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

تكاملت صورة التصوف الإسلامي في القرنين الخامس والسادس من الهجرة النبوية، بعد أن عُرف في القرن الثالث الهجري كعلم مدوّن لأول مرة، وبدأ يأخذ طريقة كمنهج إصلاحى منظم عن طريق الدعوة الروحية والمجاهدات النفسية والخلقية في مواجهة تيار الترف والانحلال الذي أخذ يدبّ في المجتمع الإسلامي .

والتصوف . أيها الإخوة . كمنهج ثلث الدين الإسلامي ذلك أن الدِّين له ثلاثة أركان :

الإسلام أعمال الجوارح ، والإيمان هو العقيدة، والإحسان هو التصوف : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك (مشاهدة ومراقبة) مراقبة الله في سلوكنا و أخلاقنا .

ولذلك نجد في القرآن الكريم في مواضع عدّة يأمرنا مولانا أن نكون ربّانيين، والربّانية نسبة إلى الرّب وهم العلماء الأتقياء والفقهاء العابدون . فعلى موجات آل عمران :

﴿ كونوا ربانيين (علماء عاملين) بما كنتم تعلّمون الكتاب ﴾ (آل عمران ٧٩) وعلى موجات سورة المائدة (٤٤) ﴿ يحكم بها التّبين الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيون (العلماء) والأحبار ﴾ (الفقهاء) .

فالعالم الرباني هو المتخلّق بأخلاق الله تعالى .
التصوف ليس رسماً وعلماً ولكنه خُلُق، لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة، ولو كان علماً لحصل بالتعلّم، وتستطيع أن تقول : إن التصوف كبج جماع النفس ومحاربة الأهواء لأنّ طبيعتها أمانة بالسوء، وإن شئت قلت : هو صفاء الضمير، والزهد في الدنيا والجاه والمتاع، واتباع سنة المصطفى ﷺ والانقطاع إلى الله تعالى ودوام التفكير والتأمّل.

وجاء علماء القرن الثالث الهجري فأطلقوا على هذه المعاني اسم التصوف اصطلاحاً (ولا مشاخة في الاصطلاح) لك أن تسميه ربانية ، أو تصوفاً أو مقام الإحسان ، صحيح لم يعرف هذا المصطلح في القرن الأول، لكنّ الصحابة الكرام كانوا أئمّة في الزهد وكبح جماح نفوسهم عن الآثام، وضربوا لنا الأمثال بالأخلاق والمعاملة، وكانوا قمماً في الزهد والتقشف والذكر والعبادة.

وعلى منهجهم سار من بعدهم من التابعين وتابع التابعين من الأئمّة الأولياء والأقطاب والأبدال.

ونحن اليوم مع قطب كبير حمل هذا المنهج بين جوانحه، لم يكن علماً من أعلام التصوف فحسب بل كان عالماً متحققاً بالشرعية حتى عُرضت عليه مشيخه الأزهر فأبأها، ومع أنه لم يعمر سوى ثلاث وأربعين سنة لكنه ترك لنا كثيراً من المحاضرات التي ألفها وألقاها على أتباعه .

كتب تبين أنه كان عالماً لا يشق له غبار، وبحر لا يدرك له قرار، حتى لقب بالأستاذ ، ألف في الفقه والتصوف والمواظ مما جعله في مصاف كبار الأولياء والعلماء .

وطريقته تسمى البرهانية لأن لقبه برهان الدين، و الإبراهيمية نسبة إلى اسمه، والدسوقية نسبة إلى بلدته .

إننا مع حفيد من أحفاد رسول الله ﷺ ، حسني النسب ، وقطب من كبار الأولياء في عصره سيدنا :

برهان الدين أبو العينين إبراهيم بن أبي المجد القرشي الدسوقي .

ومع الحلقة ثلاثة وتسعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام إبراهيم الدسوقي .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد الإمام في شعبان سنة ٦٥٣ هـ ثلاث وخمسين وستمئة هجرية، من أبوين كريمين، أما والده فكان يحظى باحترام كبير من قبل أحد العارفين (محمد بن هارون) إذا دخل يجله ويحترمه، حتى عجب أتباعه من ذلك فسألوه فقال :

- إن في ظهره ولياً يبلغ صيته المشرق والمغرب .

وكانت والدته ابنة أحد خلفاء سيدنا الإمام أحمد الرفاعي (أبو الفتح بن أبي الغنائم الواسطي) على درجة كبيرة من الصلاح حدثت عن والدها فقالت : كان إذا دخل رمضان امتنع عن الرضاعة من الفجر إلى غروب الشمس، حتى إنهم شكوا

في رمضان الثاني هل دخل أم لا ؟ فقالت أمه : نعم قد دخل رمضان وهذا أول يوم منه ، فقالوا : وكيف عرفت ؟ قالت : امتنع ولدي إبراهيم عن الارتضاع .

وشبَّ شباباً دلَّ على أنَّ له شأنًا أي شأن كان يقوم الليل ويتقي المحارم، شجاعاً مقاتلاً يضرب بالسيف ويطعن في الرمح ويجيد القتال ، وجميع أتباعه شجعان مجاهدون، وطريقتهم قامت على الجهاد والمجاهدة.

والعجيب أنَّ علمه كان وهيباً، إذ نشأ في قرية لا فقيه فيها ولا معلّم، وكل ما آتاه الله تعالى كان ببركة القرآن الكريم والصلاة على النبي ﷺ.

ودرس الفقه الشافعي من الكتب، ولكثرة الصلاة على النبي ﷺ كان يراه في المنام واليقظة ، ويكشف له عن الأمور ويفتح له أقفال الحجب، لذلك صرح هذا القطب الرباني مرة فقال : « أنا لا منة لأحدٍ عليّ إلا رسولُ الله ﷺ » ليس له شيخ ولا قدوة إلا خير البرية.

ورجل هذا حالة يقول عنه العارفون : إنه يكون متّصفاً بالعلم الدقيق بالكتاب والسنة والسير على هدي المصطفى واتباع سنته القولية والفعلية والإخلاص والخشية من ربِّ البرية.

فهل صدق هؤلاء العارفون فيما قالوه ؟

إخوتي في الله :

إنَّ المطلع على سيرة القطب سيدي إبراهيم الدسوقي ليجد أنَّ الإمام كان يركّز على أنَّ طريقته : شريعة وحقيقة، ويدعو للحفاظ على شعائر الإسلام لمن أراد أن يفوز باليقين.

لذا أيها السادة . اسمحوا لي أن أبادر فوراً بالانتقال بحضراتكم على أجنحة الإيمان ونور اليقين إلى هناك، إلى دسوق حيث القطب الرباني يلخّص منهجيته لمريديه، فلندخل عليه ونحن نترضى عنه، هاهو يقول لهم : « إذا حقّق الرجل إسلامه، وأتقن إيمانه فاز باليقين، لأنَّ المقرّ بالشهادتين بلا إثبات فروض الدّين مسكين، فإذا أتى بالإسلام والشريعة الأعمال المطهرة بالإيمان وأدّى الفرائض

المفروضات من الصلاة والصوم والزكاة والحج والحلال وضبط الدين في الأعمال والأقوال كان هو المسلم المؤمن .

بالله عليكم يا سادة أليس هذا القول من منهل الشريعة، الشريعة التي تثمر بالحقيقة، وقد عرفنا الشريعة، فما هي الحقيقة عند أهل الله ؟

الحقيقة عند العارفين بالله هي الاستغراق في أداء الفرض، بالاندماج بالكلية في العبادة، حتى يشعر الإنسان بلذّة القرب في حضرة الخالق، وهذا ما يسمى عند الفقهاء بالخشوع في الصلاة.

وهذه الحقيقة (أي التحقق بأداء العبادة) ذكرها القطب الدسوقي.

أيها السادة : ما زلت معكم واقفين على الأعتاب، ونحن نسمع الدرر التي يتكلم بها الإمام، ولالإمام كلام بالعبرية والسريانية والأعجمية، فهو يتكلم بجميع اللغات ولجميع الأمم وهذا يعدّ من كراماته، اسمعوه وهو يقول : «من لم يكن متشرّعاً ولا متحقّقاً عفيفاً فليس من أولادي ولو كان ابني لصلي، وكل من كان من المريدين ملازماً للشريعة والحقيقة والطريقة والديانة والصيانة والزهد والورع وقلة الطمع، عاملاً بما علم فهو ولدي وإن كان من أقصى البلاد.

يا ولدي ما دام لسانك يذوق الحرام فلا تطمع أن تذوق من الحكم والمعارف شيئاً ، أتروم أن تتذوق أسرار معاني كلام الله عزّ وجل وأنت في الشهوات غارق؟! أم تروم ذلك وقد تذكّرت كل شيء سواه فلا تتلذّذ إلا بما يحجبك عنه، حاشا لله فإنّ كلام الله عزّ وجل أعزّ وأجلّ من أن يدركه المنصرفون عنه.

لا يجوز لحامل القرآن أن يدنس فمه بأكل حرام ولا بكلام حرام، مثال من ينطق بالقرآن مع تدنّس فمه بغيبة أو نسيمة أو بهتان مثّل من وضع المصحف في القدر، وقد قال العلماء بكفره .

أيها الأحبة والصحب: هذا درس واحد من دروس عدّة من هذا المنهج الفريد الذي أعده رجل من سادات الأمة، سيد ضرب بنفسه المثل ليقّتي به أتباعه،

وكان على درجة كبيرة من علو النفس وارتفاع الهمة، يستر عيوب إخوانه، ويغيث الملهوف، ويجير من احتمى به ولاذ ببابه، وهو القائل :

فإننا لنحمي الذي قد أتى لنا إذا قال غثني يا دسوقي بنية
إذا كان في شرق أو الغرب قال لي أغثني أغثه من سيوف صقلية

وهذا لا يقوله إلا من لا يغفل عن الله طرفه عين، ولا يشهد فاعلاً في الكون إلا الله، وحقاً كان القطب الدسوقي كذلك، اسمعوا إليه وهو يناجي مولانا عزوجل فيقول :

ولقد جعلتك في الفؤاد مؤانسي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للحبيب مؤانس وحبیب قلبي في الفؤاد جليسي

إنَّ القطب رحمته الله أقبل على الله تعالى بكليته بالذكر والعبادة حتى سقاه الله كأس المحبة الإلهية، والله تعالى يقول في الحديث القدسي (فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه) (خ)
شرب القطب الدسوقي من كأس المحبة الإلهية، فحكّمه الله تعالى بكل ما في هذا الكون، يقول رضي الله تعالى عنه :

سقايتني محبوي بكأس المحبة	فتهت عن العشاق سكرًا بخلوتي
ولاح لنا نورُ الجلالة لو أضأ	لصُمُ الجبال الراسيات لدكتِ
ونادمني سرًّا بسرٍ وحكمةٍ	وإنَّ رسول الله شيخي وقدوتي
وعاهدني عهداً حفظتُ لعهد	وعشتُ وثيقاً صادقاً بمحبتي
وحكمني في سائر الأرض كلها	وفي الجن والأشباح ربُّ البرية

معشر الإخوة المسلمين:

كان اتصال القطب الدسوقي بالله تعالى عظيماً أورثه كل شيء، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن أطاع الله أطاعه كلّ شيء، وهو القائل : « لي الآن أربعون سنة ما حجبت عن الله طرفة عين » .

وقد حاول بعض ضعاف القلوب أن يتحدثوه في علمه فقبل التحدي، جاؤوا إليه وهم يخططون للإيقاع به علمياً، وما إن جلسوا إليه وقال لهم : (هاتوا ما عندكم) حتى تبخر ما كان في عقولهم من إعجاز (وكأنهم فقدوا الذاكرة) وراحوا يسخرون من أنفسهم واعترفوا بأنهم أمام ولي عارف بالله ربّاني وصاروا من أتباعه ومريديه فقال فيهم :

فكم من عاقل قد جاءنا وهو منكر فردّ بفضل الله من أهل خرقتي

حتى السلاطين والأمراء الذين كانوا في عصره رضخوا لأمره وانقادوا إليه واتبعوه لما رأوا من إخلاصه وتقواه وعلمه، إذ استنجد الناس بالإمام القطب من الظلم الذي تعرضوا إليه من بعض المماليك المستبدّين بمقدرات البلاد، وكان السلطان آنذاك الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) فكتب إليه القطب أن يكفّ رجال الحكم في دولته عن ظلم الناس لأنه مسؤول أمام الله عن رعيته، فبماذا أجاب السلطان ؟

انظروا إلى بطانة السوء عندما تحيط بالملوك والحكام، إنّ بعض حاشية السلطان أوغروا صدره عليه، وأفهموه أنّ هيبة الحكم وسطوة السلطان تقتضي أن يضرب هذا الرجل المجترئ على الدولة، ومازالوا به حتى أرسل فرقة الجند بقيادة الأمير عزّ الدين إلى دسوق، ونزل تحت خيمة ضربت له هناك على النيل، وأرسل يستدعي القطب أبا العينين الدسوقي رحمته الله فرفض الإمام المجيء إليه وقال للرسول : ارجع فإنّ صاحبك قد أصابه الله بالشلل لتعديه على أهل الله.

فعاد الرسول فوجده لا يستطيع القيام، وعاد الجنود حاملين الأمير وقد باؤوا بالفشل، ولكن بطانة السوء جعلت السلطان يرسل إليه كوكبة من الجند ومعهم

وحوش وسباع ضارية، وما أن برز إليهم الإمام حتى هاجت السباع وماجت وتحولت إلى الجند تريد أن تفتك بهم بقدرة قادر.

عندها فقط تبين للسلطان خليل أن الإمام الدسوقي من الأولياء وليس كما صورته الوشاة، فقرر أن يذهب إليه بنفسه معتذراً يطلب صفحه وبركته، سار من القاهرة إلى دسوق ليقبل يد الإمام الذي بلغ من العمر ثلاثاً وأربعين سنة، وأهل الله يعجل الله تعالى بهم (إنما يعجل الله بالأخير)، اختار الإمام ما عند الله بعد أن أحبه أهل الأرض وأهل السماء (سنة ٦٩٦ هـ) استقبلته السماء بعرس سار فيه الذاكرون يحملون القطب إلى هناك، حيث لا هناك هناك، فمن أراد أن يلتقي به هناك فليق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى النبي الأعظم ﷺ وتحتنا إليك يا سيدي يا رسول الله هي الصلاة والسلام عليك.

المصادر:

جوهرة الدسوقي

الموسوعة الصوفية ١٥٧

الطبقات الكبرى للشعراني ج ١/١٦٥

شذرات الذهب لابن العماد

الإمام أبو العنين الدسوقي (عبد العال كحيل)

(١٩٤)

الإمام عبد الرحمن السيوطي

(٨٤٩ . ٩١١ هـ)

الحمد لله الذي أنزل القرآن وهدى من أحبّ لاقتناء أزهاره واقتباس أنواره،
والأخذ بأوامره ونواهيه، ووعدته ووعيده وأخباره ، واختار منهم خزنة لأسراره،
وأرشدهم لإبراز رموزه، واستنباط كنوزه، ورفع مقام العلم وأهله، ووصل بسببه
انقطاعهم بحبله.

أحمده سبحانه على ما أنعم عليهم من سوابغ نعمه وفضله .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، جعل الإسناد من الدين، وأبقاه
متصلاً بينهم أبد الآبدين حفظاً للدين من الشك والوهم، وصوناً له من التبديل
والتغيير ومحو الرسم .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب الشريعة المطهرة، والسنة
الواضحة النيرة ، المخصوص بجوامع الكلم ، وبدائع الحكم ، ومكارم الأخلاق
ومعالي المهمم ، المعظم بالتشريف والتكريم والإجلال والتعظيم والآيات والذكر الحكيم

رحمة كله وحزم وعزم ووقار وعصمة وحياء
كرمت نفسه فما يخطر السو ء على قلبه ولا الفحشاء
وسع العالمين علماً وحلماً فهو بحر لم تعيه الأعباء
لا تقس بالنبي في الفضل خلقاً فهو البحر والإنام إضاء
كل فضل في العالمين فمن فضل النبي استعاره الفضلاء

صلى عليك الله يا علم الهدى

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين عزّروه ،
ووقّره ووفّوا بالعهد ونصروه وتلقوا شرعه العزيز وآثروه ، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

هل سمعتم بعالم موسوعي يخاله الدارس متخصصاً في كلّ فن، بل وألّف في كلّ
الفنون ؟!

هل سمعتم بعالم هو حجة في كل العلوم التي ألّف فيها حتى فاق أشياخه جميعاً؟!
هل سمعتم بعالم أصبح أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه ويحفظ مئتي ألف
حديث نبوي ، ثم يقول :

ولو وجدت أكثر لحفظت ؟ !

هل سمعتم بعالم ألّف ستمئة مؤلف حتى عُدتّ كتبه مكتبة كاملة لمن أراد أن
يقتني مكتبة فريدة ؟ !

كل ذلك مع شخصية عالم محافظ على كرامته مترفع عن السعي وراء الحكام،
غير متهافت على ولائم السلاطين، ليصبح مثلاً رفيعاً لما ينبغي أن يكون عليه العالم
المسلم سلوكاً وترفعاً في كل زمان ومكان، حتى عُددَ إمام المئنة التاسعة الهجرية بلا
منازع ، نحن اليوم مع سيد لم يجلس إلى الرجال في مصر والشام والحجاز والهند
فحسب، وإنما جلس إلى عدد من الحافظات الفقيهاة الجليلات ضمن الأطر
الشرعية لتلقي العلم .

نحن اليوم ننزل زائرين على مجدد الدين للمئنة التاسعة الهجرية سيدنا الإمام جلال
الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، ومع الحلقة أربعة وتسعين بعد المئنة من
سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة
أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام جلال الدين السيوطي .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان :

ولد الإمام السيوطي في مدينة القاهرة سنة تسع وأربعين وثمانئة للهجرة (٨٤٩ هـ) من أب جليل منتسب إلى أسرة علميه وكان أحد القضاة بأسبوط ثم قدم القاهرة ولازم علماءها كشيخ الاسلام ابن حجر العسقلاني وجلس للتدريس والخطابة والإمامة، وأمّ الخليفة المستكفي في الصلاة ، وكان يجلّه ويعظمه، ثم غلب عليه التصوف وحب الإنفراد عن الناس، وامتنع عن تولي منصب قاضي القضاة في الديار المصرية، وتفرغ لتأليف مجموعة من الكتب، وحمل ولده سيدنا عبد الرحمن إلى رجل من كبار الأولياء (الشيخ محمد المجذوب) ليبارك هذا الطفل .

ذلك هو الشيخ أبو بكر الذي توفي وطفله الوحيد دون السادسة من العمر ، فقام على تربيته مجموعة من العلماء أبرزهم الإمام الكمال بن الهمام أحد أئمة الحنفية (٧٩٠ . ٨٦١ هـ)

وبدا نبوغ الإمام جلال الدين السيوطي منذ نعومة أظفاره، وحرص على حفظ القرآن ودراسة الحديث وأتم حفظ القرآن الكريم وهو دون الثامنة من عمره، ثم حفظ عمدة الأحكام، ومنهاج الفقه للنووي، ومنهاج البيضاوي في الأصول ، وألفية بن مالك في النحو وأجيز بها من قبل أسياده .

إخوتي في الله : ليس ضرورياً أن يفهم الطفل كل ما يفرض عليه حفظه، ولكن العلم الذي يحفظه في تلك السن المبكرة يختزن في حافظته، فإذا ما نما عقله واتسعت مداركه بدأ يستحضر ذلك العلم المختزن في حضرة شيخه الذي يقوم بمهمة الشرح والبيان والتفصيل، وتلكم هي الطريقة التي نشأ عليها وتعلم في ضوئها كبار العلماء القدامى والمحدثين ، ورحم الله من قال « العلم في الصغر كالنقش على الحجر »

إن الإمام جلال الدين السيوطي نهل من علوم شيوخ عصره، حتى إنه يذكر أنه تتلمذ في علم الحديث وحده على نحو مئة وخمسين شيخاً من النابحين في هذا العلم (حسن المحاضرة ١ / ١٩٠)

لكن أبرز شيوخه الذين كان يذكرهم بإجلال الإمام علم الدين صالح بن عمر البلقيني (٧٩١ . ٨٦٨ هـ) وولده الإمام سراج الدين ثم شيخ الإسلام الإمام شرف الدين المناوي (يحيى بن محمد ٧٩٨ . ٦٧١ هـ) ثم الإمام جلال الدين المحلي (٧٩١ . ٨٦٤ هـ) الذي قيل فيه :

«إن ذهنه يثقب الماس، وكان هو يقول عن نفسه : أنا فهمي لا يقبل الخطأ». وأعظم شيخ بقي تحت ناظره أربع عشرة سنة واستفاد منه كثيراً الإمام يحيى الدين محمد بن سليمان الكافيجي (٧٨٨ . ٨٧٩ هـ) حتى قال فيه الإمام السيوطي : ما كنت أعده إلا والداً لي بعد والدي . وكان يلقبه بأستاذ الوجود، وحيناً آخر بأستاذ الدنيا . وإليكم هذا الموقف الفريد مع أستاذه الكافيجي (سمي بذلك لأنه كان كثير النظر بكتاب الكافية في النحو) لأريكم كيف كان السيوطي يتعلم من شيخه:

قال له ذات مرة : أعرب (زيد قائم) . فابتسم السيوطي قائلاً : قد صرنا في مقام الصغار، ونسأل عن هذا ؟ فقال له الشيخ : في (زيد قائم) مئة وثلاثة عشر بحثاً . فلم يقم السيوطي من مجلسه حتى كتبها عنه . لهذا كان يلقبه بأستاذ الأستاذين ، لأنه ما جاءه مرة إلا وسمع منه من التحقيقات والعجائب ما لم يسمعه من قبل، وقد بلغ عدد شيوخه المئات من الرجال والنساء .

معشر الإخوة الكرام :

بدأ الإمام جلال الدين يفتي وهو في سن الثامنة والعشرين (٨٧١ هـ) ، وبدأ يملئ الحديث منذ الثالثة والعشرين من عمره (٨٧٢ هـ) ، وحين حج شرب من ماء زمزم ودعا الله تعالى أن يصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر .

فهل حقق الله تعالى دعاء الإمام ؟ وكيف تمَّ له ذلك ؟
اسمحوا لي . أيها الأخوة . بادئ ذي بدء أن أضعكم في صورة عصر السيوطي
عصر العلماء والموسوعات و المكتبات الضخمة .

فقد وجد في عصر متميز عن بقية العصور حيث وجدت فيه أكبر موسوعة في
اللغة هي معجم لسان العرب لابن منظور المصري (١٥ مجلداً) ، وموسوعة نهاية
الأدب في فنون العرب لابن النويري المصري (٦٧٧ . ٧٣٣ هـ) ٣٠ مجلداً ، وكذا
كتب الفيروز أبادي صاحب القاموس المحيط (٧٢٩ . ٨١٦ هـ) وموسوعة
القلشقندي المصري (٧٥٦ . ٨٢١ هـ) صبح الأعشى في صناعة الإنشا (١٤
مجلداً) وموسوعة ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ . ٨٥٢ هـ) تهذيب التهذيب (١٢
مجلداً) ولسان الميزان له ، وموسوعة ابن تغري بردي (٨١٣ . ٨٧٤ هـ) النجوم
الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢) مجلداً وموسوعة السخاوي (٨٣١ . ٩٠٢ هـ)
الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع (١٨ مجلداً) وغيرهم كثير ، هذا هو عصر
الإمام السيوطي ، الذي أحب السيوطي أن يفوق على علمائه كلهم في كل ما
يكتب ، فكيف فعل ذلك ؟

فعله بأمرين : الكتاب والرحلة في طلب العلم

إذ لم يترك كتاباً من كتب المراجع الكبرى إلا وقد درسه فهماً واستظهاراً ، ولو
استعرضت معكم الكتب التي قرأها السيوطي على أشياخه لا ستغرق خطباً عدّة ،
فضلاً عما كان يقرؤه بنفسه لنفسه ، كما أنه لزم إحدى المكتبات التي تعرف
بالمكتبة المحمودية (أنشئت سنة ٧٩٧ هـ) التي حوت كلّ فن من الفنون ، إذ فيها
أربعة آلاف مجلد . حتى إنه قام هو بفهرسة المكتبة في كتاب سمّاه (بذل المجهود في
خزانة محمود) .

ولم يكتف السيوطي بالكتاب ، بل رحل رحلات داخلية في مصر ، ورحلات
خارجية إلى الأراضي المقدسة في الحجاز ، ثم دخل الشام واليمن ، وضرب في

أكناف الأرض حتى وصل إلى الهند شرقاً وإلى الشمال وغرب إفريقيا غرباً، حتى شابه ابن بطوطة وابن جبير والشريف الإدريسي من الرحالة العرب .

يا شباب: أين همتمكم يا شباب سيدنا محمد، شيخ يدرس دروس فريدة من نوعها، يملئ الحديث ويحجب عن أسئلة التلامذة في وقت واحد، وفي الوقت نفسه يحمل قلمه ومحرته لا يغفل عن الكتابة والتأليف فعل كل ذلك حتى وصل إلى مرتبة عالية حسده عليها العلماء، وبدؤوا يحطون من قدره ويشهرون به (٢/٣ الحسد بين العلماء) فقد انبرى له الإمام السخاوي وبعض تلامذته واتهموه أنه سرق بعض مؤلفاته من كتب المكتبة المحمودية .

ونشط الإمام السيوطي في الدفاع عن نفسه يدفع سهام خصومه الظالمه، ويبيّن أنّه مانقل كلمة من كتاب أو استقى خبراً إلا ردّه إلى مصدره، بل إنه لم يصدر فتوى إلا ولها سند يعتمد على الكتاب والسنة أو رأي إمام من أئمة أهل السنة ومن الأشياء التي أثارت خصومه عليه غير الحسد دعواه الاجتهاد، وأنه المجدد على رأس المئة التاسعة ومنها قوله بنجاة والذي المصطفى ﷺ ، وإمكان رؤية النبي والملك في اليقظة، وأن صلاة الظهر هي الوسطى، وسؤال الميت في قبره سبع مرات، وحرمة ضرب المثل بالأنبياء فيما لا يكون كريماً في العرف من الأمور .

أيها السادة: كل هذه المآخذ ردّ عليها السيوطي، وألف فيها الرسائل، حتى إنه ألف في نجاة أبوي النبي ﷺ عشر رسائل، وألف مقامة الكاوي على تاريخ السخاوي، وتنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء، وتنوير الملك في إمكان رؤية النبي والملك .

مما حدا ببعض خصومه أن ينتبهوا إلى خطئهم وأعلنوا اعتذارهم ليسترضوه ، حتى إنّ الإمام القسطلاني شارح البخاري تلميذ السخاوي توجه حافياً إلى مسكن الإمام قاطعاً مسافة طويلة ودق بابه وقال للإمام :

أنا القسطلاني جئت إليك حافياً ليطيب خاطرك .

ولكن السيوطي لم يفتح له الباب واكتفى بالرد عليه : قد طاب (خاطري) .
وهنا قرر الإمام السيوطي قراراً خطيراً وهو أن يعتزل الناس، وكان سنّه قد بلغ
الأربعين، اعتزلهم واحداً وعشرين عاماً، واتخذ من بيته في جزيرة الروضة معبداً
ومحراباً، صلاته فيها بعد الصلوات الخمس قراءة وتحصيل، وعبادته: تضيف وتألّف،
وهوايته إملاء وتدريس.

وقد كتب كتاباً سَمّاه المقامة اللؤلؤية يذكر فيها أسباب اعتزاله بعد أن
بقي متصدراً للإفتاء سبع عشرة سنة، كما كتب كتاباً سَمّاه « نزول الرحمة
في التحدث بالنعمة » تعلل فيه الإمام بأن ما أصابه من الأذى من أعدائه إنما
هو مما أنعم الله به عليه أسوة بما لحق بأولياء الله وأنبيائه ويمضي في هذا السبيل
فيقول :

« واعلم أنه ما كان كبير في عصر قط إلا كان له عدو، ومن السفلة أذى
الأشراف لم تزل تبلى بالأطراف فكان لآدم عليه السلام إبليس، ولنوح وحام،
ولداود: جالوت، وكان لسليمان: صخر، ولعيسى في حياته الأولى: بختنصر. وفي
الثانية الدجال، ولإبراهيم: النمرود، ولموسى: فرعون، وكان لأشرف خلق الله سيدنا
محمد ﷺ : أبو جهل، وكان لابن عمر عدو يعبث به كلّما مرّ عليه ، وقد نسب
عبد الله بن الزبير إلى الرياء والنفاق في صلاته فصبوا على رأسه ماءً حميماً فسلخ
وجهه ورأسه وهو يصلي ولا يشعر به ، فلما سلم من صلاته قال : ما شأني ؟
فذكروا له القصة، فقال حسبنا الله ونعم الوكيل .

ثم عبّر الإمام السيوطي عن ملله بهذه الحياة على هذه الشاكلة فقال :

طوبى لمن مات فاستراحا ونال من ربه فلاحا

ما نحن إلا في قوم سوء أذاهم قد بدا ولاحا

أيها الأحبة والصحب: إن للإمام السيوطي فضلاً ومنة على العالم الإسلامي
قاطبة، لأنه أكثر جمعاً وتخريجاً للأحاديث النبوية التي يحتاج إليها المحدثون والمفسرون

والفقهاء وعلى علماء التوحيد واللغة والمتشرعون وعلماء الأخلاق، وقد اشتهرت أكثر مصنفاته في حياته في جميع البلاد، وكان في سرعة الكتاب والتأليف آية من آيات الله تعالى، حتى قال تلميذه الداووي : رأيت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً، وقد استقصيت عليه مؤلفاته فوجدتها خمسمئة مؤلف ، وأما تلميذه ابن إياس فعدها فوجدتها ستمئة مؤلف .

ومن كتبه العظيمة الدرا المنثور في التفسير بالمأثور جمع فيه تفاسير النبي ﷺ من بضعة عشر ألف حديث ، وكتابه الخصائص الكبرى التي اختص الله بها سيدنا محمداً ﷺ ، والإتقان في علوم القرآن، وكتاباً اسمه جمع الجوامع أو الجامع الكبير جمع فيه حوالي مئة ألف حديث عن النبي ﷺ طبع في ١٨ مجلداً ، وحين أنهى كتابه هذا رأى النبي ﷺ سنة ٩٠٤ هجرية في شهر ربيع الأول وذكر له هذا الكتاب وقال له : أقرأ عليك شيئاً منه يا رسول الله ؟ فقال : هات يا شيخ الحديث ، هات يا شيخ السنة . فكانت هذه البشارة منه أعظم من الدنيا بخذافيها .

وذكر أحد تلاميذه (الشيخ عبد القادر الشاذلي) أن الإمام السيوطي أخبره أنه رأى النبي ﷺ يقظة، وقال له ! يا شيخ الحديث : فقال له : يا رسول الله أمن أهل الجنة أنا ؟ قال : نعم . فقال : من غير سبق عذاب ؟. فقال : لك ذلك. ولذلك ألف الإمام كتاب تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك . وسأله تلميذه : يا سيدي كم رأيت النبي يقظة ؟ فقال : بضعاً وسبعين مرة .

وذكر خادم السيوطي (محمد علي الحباك) أن الإمام قال له يوماً وقت القيلولة وهو بمصر :

. نريد أن نصلي العصر في مكة بشرط أن تكتم ذلك علي حتى أموت .
فقلت : نعم . قال : فأخذ بيدي وقال: غمض عينيك ، فرمل نحو سبع وعشرين خطوة ثم قال : افتح عينيك فإذا نحن بمكة .

فطفنا وشربنا من زمزم وجلسنا خلف المقام ، فلما صلينا العصر قال : يا فلان ليس العجب من طي الأرض لنا، وإنما العجب من كون أحد من أهل مصر من المجاورين لم يعرفنا. ثم قال : إن شئت تمضي معي وإن شئت فقم حتى وقت الحج، فقلت : بل أذهب مع سيدي . فمشوا إلى خارج الحرم وقال غمض عينيك فهرول بي سبع خطوات ثم قال : افتح عينيك فإذا نحن بالقاهرة .

فيا أحباب رسول الله : أستطيع أن أقول : إنّ الإمام السيوطي عاش العلم بكلّ جوارحه من جوارحه ، بل بكلّ خلجة من خلجات نفسه، وهو القائل : إني رجل حُبب إلي العلم والنظر فيه، وقد رزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع، وقد كملت عندي أدوات الإجتهد بحمد الله تعالى، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً، وما وصلت إليه من هذه العلوم لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخي » .

وكان يتمنى على الله أن يكون إمام المئمة التاسعة الهجرية ، فقال في منظومة تحفة المهتدين بأسماء المجددين :

وهذه تاسعة المئين قد أتت ولا يُخلف ما الهادي وعد

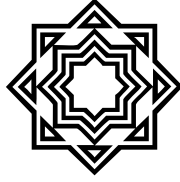
وقد رجوت أنّي المجدد فيها ففضل الله ليس يجحد

لكن الإمام مرض بورم شديد في زراعته الأيسر ، وصار يطمع برحمة الله تعالى ويقول :

لم لا نرجي العفو من ربنا وكيف لا نطمع في حلمه
وفي الصحيحين أتى أنّه بعبده أرحم من أمه

وكانت وفاته في منزله ليلة الجمعة سنة إحدى عشرة وتسعمئة (٩١١ هـ) ودفن بمشهد مهيب وصلي عليه صلاة الغائب بدمشق في الجامع الأموي يوم الجمعة التالية.

مات جلال الدين غيث الورى
وحافظ السنة مهدي الهدى
فيا عيوني انهملي بعده
صبرنا الله عليها وأولاده
مجتهد العصر إمام الوجود
ومرشد الضال بنفع يعود
ويا قلوب انفطري بالوقود
نعيماً حل دار الخلود



المصادر :

- معجم المؤلفين ١٢٨ / ٥
الأعلام ٣٠١ / ٣
جامع كرامات الأولياء ٦٢ / ٢
البدر الطالع للشوكاني ٣٢٨ / ١
الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة للغزي ٢٢٦ / ١
شذرات ابن عماد ٧٤ / ١٠
حسن المحاضرة ١٩٠ / ١

(١٩٥)

الإمام الشيخ زكريا الأنصاري

(٨٢٣-٩٢٦هـ)

الحمد لله الذي أوضح الطريق إلى معرفته لكل سالك وتوحد بالكبرياء والعظمة والممالك ، إله لا وزير له ولا صاحبة ولا مشارك ، صمد ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا فانٍ ولا هالك ، سميع يسمع دعاء كل داعٍ وما تتحرك به شفتاك من ألفاظك وأقوالك .

استوى على العرش كما قال لا كما يخطر ببالك ، لا بنزول ولا بحركة ولا انتقال ، ومهما خطر في النفس كان الله بخلاف ذلك .
هذا اعتقاد المؤمنين ، وهو الذي اتفق عليه سادات الأمة أبو حنيفة وأحمد والشافعي ومالك ، فقم أيها المسلم وتذلل لمالك النواحي وأقبل بافتقارك ، واشكُ حالك إليه فهو أعلم بحالك ، ولا تسأل أحد إلا الله فهو الحاكم على حكام الممالك .

هو الله الواحد لا إله إلا هو كل شيء سواه هالك .
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله سيد عابد وسالك ، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى في سواد الليل الحالك .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أَسود الليل والنهار وما يكون بعد ذلك ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام:

مازلت مصراً على رأيي أن الله تعالى تكفل برزق طالب العلم ، وأنا اليوم أشد إصراراً على هذا المعتقد ، لأن زيارتنا القصيرة اليوم ستكون لشيخ بدأ حياته فقيراً في طلبه العلم فأغناه الله تعالى حتى صار قاضي القضاة، وصار دخله كل يوم ثلاثة

آلاف درهم من التدريس والمناصب التي تقلدها، وأعطى لمن بعده درساً لطلاب العلم أن يتوكلوا على الله تعالى مخلصين له الدين.

نحن اليوم مع إمام عمّر طويلاً حتى رأى تلاميذ تلاميذه شيوخ الإسلام ، وكل منهم يستحق أن يترجم في خطبة مفردة، لأنهم صاروا من الأئمة والمفتين اسمعوا أسماءهم يا شباب حتى تعرفوا أني صادق فيما أقول : أبرزهم فقيه مصر الإمام أحمد الرملي (ت ٩٥٧هـ) وولده العلامة شمس الدين محمد الرملي (٩١٩-١٠٠٤هـ) صاحب النهاية في الفقه الشافعي ، والعلامة الشيخ محمد الخطيب الشربيني (ت ٩٧٧هـ) صاحب مغني المحتاج ، والعلامة الشيخ أحمد بن حجر الهيتمي صاحب تحفة المحتاج (٩٠٩-٩٧٤هـ) والإمام الشيخ عبد الوهاب الشعراني (٨٩٧-٩٧٣هـ) وغيرهم كثيراً .

وحين ترجم له الإمام نجم الدين الغزي المؤرخ (في الكواكب السائرة) قال عنه: إنه شيخ مشايخ الإسلام وعلامة المحققين ولسان المتكلمين ، وسيد الفقهاء والمحدثين ، العالم العامل والولي الكامل ، الجامع بين الشريعة والحقيقة .

فنحن اليوم مع قطب من أقطاب العلم والولاية قلّ نظيره في عالم الفقه والشريعة والتصوف مع سيدنا الإمام الشيخ زكريا الأنصاري ، ومع الحلقة خمسة وتسعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن شيخ الإسلام سيدنا زكريا الأنصاري

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان :

ولد الإمام الشيخ شرق مصر سنة ٨٢٣هـ في بلدة سنيكة التي تعتمد على فلاحة الأرض ، فلما مات والده أرادوا أن يكرهوه على أن يعمل مكان أبيه ، فاستنجدت أمه بأحد الصالحين وهو الشيخ ربيع بن عبد الله السلمي أنه تفرّس بسيدنا زكريا خيراً ، فأجده شرط أن تحبه للأزهر يقرأ العلم ، وتعهّد أن ينفق عليه

من جيبه الخاص فوافقت والدته ودفعت بالصبي إليه فضمه إلى الأزرار الشريف ، فسكن في إحدى غرفه وكانت زوجة الشيخ الصالح ربيع تشرف على تربيته . وهكذا بدأت العناية الإلهية تظهر على الطالب الفقير إذ تكفل الله برزقه، فتفرغ سيدنا زكريا للعلم وعلق قلبه بالله ، فلم يعكف على الاشتغال بشيء من الدنيا ، وكان إذا جاع خرج في الليل إلى حوالي الموضأ فيأكل الفضلات المتبقية من أطعمة المجاورين من الخبز وغيره ، وأقام على ذلك سنين تربيته المرأة الصالحة وزوجها حتى قبض الله له شيخاً من الأولياء :

ليسمع طلاب العلم كيف يعتني الله تعالى بهم ويهيء لهم من أمرهم مرفقاً . قبض الله له رجلاً من الأولياء فكان يتفقده ويشترى له ما يحتاجه من الأكل والكسوة والكتب ، ويقول له سرّاً : لا تخف عني شيئاً تريده (اللهم هيء لنا من أمرنا رشداً) .

إخوتي في الله : اشتغل الإمام في سائر العلوم التي في عصره ، وبرع فيها ، حفظ القرآن الكريم وقرأه على القراءات السبع، وتفقه سادات الأمة في عصره ومصره منهم أناس تعرفون تاريخهم حق المعرفة ولمعت أسماءهم في سماء الإسلام أمثال ابن حجر العسقلاني الإمام المحدث الفقيه الشافعي ، وعلم الدين صالح بن سراج الدين البلقيني ، وقرأ ونخل ، قرأ الأدب والعربية والأصول والحديث والمعقولات حتى لم يدع أحداً ممن يشار إليه بالبنان في كل فن إلا طرق بابه ودرس عليه ، وأجازه خلائق كثيرون يزيدون على مئة وخمسين نفساً .

وكان مع قراءته للعلوم يدرس التصوف ويختار الأئمة الصوفيين الشافعيين ، وتلقن منهم الذكر ، حتى إنه سافر إلى أوطان وقته في الطرق هو سيدي محمد بن عمر الواسطي الشافعي ، ومكث عنده في الخلوة أربعين يوماً ، وقرأ عليه بها قواعد الصوفية له كاملاً . وحديث عنه الشيخ زكريا بالعجائب :

« دخل عليه مرة على حين غفلة منه فرأى له سبع عيون ، فبهت ، فقال له :
يا زكريا إن الرجل إذا كمل صار له عيون بعدد أقاليم الدنيا .

ودخل عليه مرة أخرى فرآه متربعاً في الهواء قريباً من سقف الخلوة » .
وصار الناس يقولون : مادام الشيخ زكريا يحضر مجالس ذكر الصوفية ويدرس
قواعدهم لا يجيء منه شيء في طريق الفقه .

لكن أهل الله يقولون خلاف قولهم ، فإن هذا العلم لا يؤتى إلا لمن مرآة قلبه
صافية ، وصفاء القلب لا يكون إلا بالذكر والعبادة والتواضع والأخلاق وقد أخذ
منهما الشيخ زكريا بحظ وافر .

حتى كان ليلة من الليالي جاء إليه الولي الشيخ ربيع ونظر بعين الولاية فأخذ بيد
الشيخ زكريا والناس نائمون وقال قم معي . فقام معه فأوقفه على سلم طويل
بالجامع وقال له : اصعد ، اصعد ، اصعد إلى آخر درجة ، ثم قال له : انزل ، فنزل
ثم قال له :

. يا زكريا إنك تعيش حتى يموت أقرانك ، ويرتفع شأنك ، وتتولى مشيخة الإسلام
(قضاء القضاة) مدة طويلة ، وترتفع على أقرانك ويصير طلابك مشايخ الإسلام
في حياتك ويكف بصرك ، قال : ولا بد لي من العمى ، قال : لا بد . ثم تركه الشيخ
الصالح ولم يعد يراه .

فهل تحققت كرامة هذا الولي ؟ وهل وصل الشيخ زكرياً إلى أعلى السلم العلمي
في عصره ؟

أيها السادة :

إنني مازلت أثبت لطلبة العلم أن من خدم الشريعة وسخر حياته لله فإن الله
تعالى لن يضيعه والدليل الإمام الشيخ زكريا الأنصاري رحمته الله .

بدأت حياة النضال التدريسي والتأليف عند الإمام بعد أن اكتملت لديه الأهلية
العلمية الفذة التي تمتع بها ، فراح يؤلف في كل فن ، في الفقه ألف كتباً كثيرة تأليفاً

وشرحاً كتحفة الطلاب ، وأسنى المطالب شرح روض الطالب، وفي الحديث شرح صحيح البخاري من عشرة شروح سابقة عليه ، وفي التفسير وفي النحو وفي الأدب ، صار بارعاً في العلوم الشرعية وآلاتها وأقبلت عليه الطلبة للاشتغال عليه ، وولي الجهات والمناصب ثم راوده السلطان على تولي قضاء القضاة فلم يقبله إلا بعد مراجعة متتابة ، ولم ينقطع عن العلم والعمل ليلاً ونهاراً خلال مئة سنة من غير ملل ولا كلل ، وهو يجرر العبارات من غير ضجر ، وقرئت عليه كتبه مراراً وتكراراً حتى إن كتابه شرح البهجة في الفقه الشافعي قرئ عليه سبعاً وخمسين مرة ، وبلغت مؤلفاته أحداً وأربعين مؤلفاً .

أيها الأحبة والصحب : مع كل هذه الدروس ومباشرة القضاء ومهمات الأمور وكثرة إقبال الدنيا كان إمامنا لا يكاد يفتّر عن الطاعة ليلاً ونهاراً ، يصلي النوافل من قيام مع كبر سنّه وبلوغه مئة سنة وأكثر ، ويقول : لأعوّد نفسي على الكسل . وكان اغتنامه للوقت عجبياً ، إذ كان الطلاب أثناء تحريره لعباراته وكتاباتهم كانت تبقى برهة من الزمن فكان الإمام لا يسكت بل يقول : الله الله .

وإذا أطال عليه أحد الكلام يقول : عجل قد ضيعت علينا الزمان . وكانت القواعد الشرعية عنده واضحة، وصوفيته صادقة، واعتقاداته في أمثال الإمام ابن عربي وابن الفارض وأنظارهما من كبار الصوفية اعتقاد الولاية والمحبة، ويتأول كلامهم بتأويل جليلة ويقول : الفقيه إذا لم يكن له معرفة بمصطلح ألفاظ القوم (الصوفية) فهو كالحبز الحاف بغير آدم (زيت ودهن) . وقد حاول قوم أن يكفّروا سيدنا عمر بن الفارض فكتب السلطان إلى العلماء لإبداء آرائهم فيه ، فامتنع الشيخ زكريا أولاً ثم كتب إلى السلطان بأمر أشياخه فقال :

« لا يجوز لمن لم يعرف مصطلح القوم ذوقاً أن يتكلم في حقهم بشيء آخر ، لأن دائرة الولاية من وراء طور العقل لبنائها على الكشف » وأن ابن الفارض ولي الله أوغل في محبة الله تعالى .

يا أحباب المصطفى : قد عرف كل من كان حول الإمام من الخواص أن إمامنا كان يتستر بالقضاء عن الولاية والمكاشفات ، وما زادهم يقيناً بولاية الإمام أنه كان ما دعا لأحد إلا استجاب الله تعالى ودعائه ، وقد أتاه أعمى طلب منه الدعاء ليصير فدعا له الإمام فعاد مبصراً بإذن الله تعالى .

أبصر الأعمى وعمي الإمام الشيخ زكريا ، وقد طال به العمر وبارك الله له فيه وتحققت كرامة الولي ، وصار أعظم شخصيات مصر في عصره يهابه الحكام والعامة.

عاش مئة وثلاث سنوات، وحينما شعر بدنو أجله أنشد في الليل متوسلاً :

إلهي ذنوبي قد تعاضم خطرها	وليس على غير المسامح متكل
إلهي أنا العبد المسيء وليس لي	سواك ولا علم لدي ولا عمل
إلهي أقلني عثرتي وخطيئتي	لأني يامولاي في غاية الخجل
إلهي ذنوبي مثل سبعة أبحر	ولكنها في جنب عفوك كالبلبل
ولولا رجائي أن عفوك واسع	وأنت كريم ما صبرت على زلل
وباللطف والعفو الجميل تولني	وبالخير فامنن عند خاتمة الأجل

كان آخر العهد بالإمام مع تلامذته سيدنا الشيخ عبد الوهاب الشعرائي كان يقرأ عليه شرحه على البخاري ، وإذا بالشيخ زكريا يقول قف واذكر لي ما رأيت الليلة في المنام . فتعجب سيدنا الشيخ عبد الوهاب الشعرائي ثم قال :

رأيت أني معكم في مركب وأنت جالس عن يسار الإمام الشافعي فقلت لي : سلم على الإمام الشافعي فسلمت عليه ودعا لي . والمركب معلقة في بحر مثل عباب النيل ، ورأيت المركب كلها مفروشة بالسندس الأخضر والحبال كلها حرير أخضر ومتكآت حتى انتهينا إلى جنينه أصولها في ساحل البحر وفيها حور حسان ...

فقال الإمام : إن صح منامك فأنا سوف أدفن بالقرب من الإمام الشافعي وكان حاضراً في المجلس شيخان، وتوفي الإمام سنة ست وعشرين وتسعمئة وصلي عليه في الجامع الأزهر في محفل من قضاة الإسلام والعلماء والفضلاء وخلائق لا يحصون، ثم أخذ ليدفن في باب النصر فالتفت الشيخان إلى الإمام الشعراي وقالوا: أين رؤياك يا شعراي ؟ فقال الشعراي الشيخ قال : إن صحت رؤياك .

وإذا بالسلطان يرسل رسولاً ويقول : احمـلوه إلي لنصلي عليه في سبيل المؤمنين فحمل الإمام وصلى عليه السلطان والأمراء ثم قال السلطان : ادفنوه عند الإمام الشافعي رحمته الله .

وهكذا تحققت رؤيا الإمام الشعراي، وصلى عليه أهل الشام صلاة الغائب في الجامع الأموي ، هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك ياسيدي يا رسول الله .

الصلاة والسلام عليك

* المصادر : الأعلام للزركلي ٩٦/٣ . الكواكب السائرة للغزي ١٩٦/١ . جامع كرامات

الأولياء ٨٠/٢ . الطبقات الكبرى للشعراي ١٢٢/٢

(١٩٦)

الإمام عبد الوهّاب الشعراني - ج ١ -

(٨٩٧ . ٩٧٣ هـ)

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت ، بيده مقاليد الأرض
والسماوات ومصاير جميع المخلوقات، (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو فاعبدوه وهو
على كل شي وكيل) .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله تنزه عن الوزير و النظير والمشير
في سائر الحالات.

وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله وصفيه وخليله أزاح الله بنور وجوده ظلم
الجهالات، وأيده بالمعجزات الباهرات، وختم به النبوة والرسالات، وهياً له أبطالاً
حملوا هذا العلم بأمانة وبلغوه في نواحي الأرض في كل الأوقات، ولم يخافوا في الله
لومة لائم من جميع البريات .

اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا
ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه الذين توكّلوا على مدبر أمرهم فأحاطهم بعونه في
الحياة ونعيمه بعد الممات ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام : أقف اليوم مع حضراتكم أمام قمة سامقة
علمية صوفية عالية، قمة عاشت في القرن العاشر الهجري وكان صورة مثالية
للسوفية في عصره، ومناراً وحجة للسالكين إلى الله تعالى .

لأن بعض الناس في هذه الأيام يحاولون تشويه الوجه الحقيقي للتصوف ويتبعون
سقطات المتأخرين لتنفير الناس من التصوف بحجة التمسك بالكتاب والسنة .

وما الصوفي الحق إلا ابنُ الكتاب والسنة وخادمُهما .

اليوم أثبت لكم بما لا يدع مجالاً للشك ما هو موقف الصوفي بالحديث عن إمامنا المجاهد على بصيرة ومعرفة بالكتاب والسنة، فهابه الملوك لأنه لم يذل نفسه لهم، بل اعتز بعزة الله الذي وهبهم العلم والمعرفة ، فصان بذلك حق العلم ورفع من مكانة العلماء وتخلق بأخلاق النبي ﷺ التي يعتز بها الصوفية ، فكان مثلاً كاملاً في الورع والتواضع والزهد والكرم والحياء .

وأعطاه الله تعالى فهماً ثاقباً فتنبه لما يحيط به من خرافات وأوهام ، فجهر بكلمة الحق وأعطى للناس صورة حقيقية للتصوف الحق حتى يفلق الطريق أمام أدعيائه ومستغليه ومشوهي صورته.

ووضع بتأليفه المتعددة وآرائه الثابتة منهجاً صحيحاً يوفق فيه بين آراء الفقهاء والصوفية.

فتحن اليوم في زيارة إمام عامل ، وعابد زاهد ، وفقه شافعي محدث ، ومربي مسلك من ذرية الإمام محمد بن الحنفية بن سيدنا علي بن أبي طالب .

مع سيدنا الإمام القطب الرباني سيدي عبد الوهاب الشعراني رحمته الله
ومع الحلقة ستة وتسعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام الشعراني:
رضي الله عنه وأرضاه ورضي عنا معه

إخوة الإيمان : في ظل دولتين متعاقبتين دولة المماليك الشراكسة ودولة العثمانيين، وفي القرن السادس عشر الميلادي الذي يقابل القرن العاشر الهجري وفي عام ٨٩٧ هـ وُلد سيدنا عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني.

ولد من أسرة علمية صوفية ، وله سبعة أجداد كلهم سلاطين، وجده السلطان أحمد كان معاصراً للصوفي الكبير سيدنا أبي مدين الغوث أحد أساتذة الشيخ الأكبر سيدنا الشيخ محي الدين بن عربي ، وتتلذذ ابنه موسى عليه وصار من أتباعه الذين أخلصوا له وتفانوا في خدمته ، فلما أراد أن ينشر دعوته، أرسل جماعة من أصحابه

في الأرض وأرسل موسى هذا إلى صعيد مصر قائلاً له : عينك أهل الله في صعيد مصر تعيش فيها وتموت فيها. فكان كما قال.

فأسرة الإمام الشعراي في مصر عريقة ، وهذه العراقة كفلت لها الاعتزاز بالدين اعتزازاً جعلها تتجه إلى التصوف على اعتبار أنه جوهر الدين ولُبّه ، والتصوف في حقيقته كما يقول أهله العارفون : علم انقذ في القلوب بعد استنارتها بالعمل بالكتاب والسنة .

وقد ضيّى جد الشعراي بالملك في سبيل التصوف، لأن شيخه أبا مدين أخبره أن التصوف مع السلطة لا يجتمعان، فاختار التصوف وزهد في السلطنة. وأما والده فتذكر الكتب أنه كان عالماً فقيهاً مؤلفاً حافظاً للقرآن الكريم قال لولده سيدي عبد الوهّاب : جمعت من العلوم ما لو اجتمع على سائر العلماء بالجامع الأزهر لقطعتهم بالحجج الواضحة الصحيحة .

معشر الإخوة الكرام :

لكن الإمام الشعراي لم ينعم بوالده كثيراً ، إذ توفي والده في أول سن المراهقة، فنشأ يتيم الأبوين وتولى كفالته أخوه الشيخ عبد القادر وكان عالماً ورعاً، له مناقب كثيرة في الزهد والفقه .

فتولى كفالة الفتى الذي ما أن بلغ سن الثامنة حتى حفظ القرآن الكريم وقرأ متون العلم واطلع على قدر غير يسير من شروحها ، ثم التحق بالأزهر شأن طلاب العلم، ومكث فيه خمس سنين طالباً مجداً يدرس العلوم بشغف ونهم ويحفظ المختصرات، حتى حفظ مختصراً كبيراً في الفقه الشافعي هو (الروض) مختصر (الروضة) ولم يكتف بالأزهر بل راح يقرأ على المحدثين والفقهاء وكبار العلماء ، حتى بلغ شيوخه خمسين شيخاً من أجلاء العلماء الذين كانوا يعجبون به ويدهشون لقوة حافظته وشدة فهمه وكان من أعظمهم شيخ الإسلام في وقته القاضي الإمام الشيخ زكريا الأنصاري، كل ذلك يكتب ما سمعه من التعليقات

على طرف كتبه .

وقيض له من شفق عليه وقدم له المأكل والملبس والمأوى . يقول سيدنا الإمام الشعراي في كتابه (لواقح الأنوار القدسية) : كان جدي الشيخ نور الدين يشفق على الأيتام فببركته قيض الله لي الشيخ خضر الذي رباني وزوجته فعشت معهما في أرغد عيش وأرفهه من المأكل والملبس حتى ماتا .

أيها الأحبة والصحب : لم يكتف سيدنا الشعراي بالعلم بل كان العمل والعبادة ديدنه في حياته كلها، إذ لا بد من العلم مع الذكر ليكون أدعى إلى تثبته وتحقيقه وجمعه بين علمي الشريعة والحقيقة. لذا كنت تراه يكثر من الصوم وكف النفس عن التطلع إلى الشهوات، وحين أقبل على طريق التصوف أقبل عليها بهمة لا تعرف الكلل، بدأها بقطع نفسه عن الدنيا، ومكث سنين لا يضطجع على الأرض لا ليلاً ولا نهاراً، بل اتخذ له حبلاً بسقف غرفته أو خلوته يجعله في عنقه ليلاً حتى لا يسقط، وكان يديم الصوم ويفطر على أوقية من الخبز ثم اعتزل الناس وسكن في أحد الأبراج الخربة مدة سنة .

أعرفون . أيها الإخوة . ماذا أنتجت هذه المجاهدات ؟

لقد قويت روحانية الإمام، وغلبت على جسديته فصار يطير من صحن الجامع إلى سطحه ، وصارت روحه تعشق العلو، تطيعه في الصعود وتستعصي عليه في الهبوط .

وكان يتعاهده في فترة المجاهدات الأولياء والعارفون بالله لما رأوه مقبلاً على العلم منهمكاً به ، ورأوا أمارات النجاة والرئاسة عليه، قال له أحدهم : « أقبل على الله، ويكفيك من العلم ماتعلمته » ، فبدأ يدرس التصوف ويقرأ كتبه ويتبحر بها . ثم لقيه آخر فقال له :

إن أردت حياة قلبك الحياة التي لا موت بعدها، فاخرج عن الركون إلى الخلق وممت عن هواك وإرادتك، وتوجه إلى المسجد الغمري .

فسكن هذا المسجد وكان معهداً علمياً عتيداً خاصاً بالطلاب أقام فيه مدة طويلة تقدر بحوالي سبعة عشر عاماً . وقبض الله له إمام المسجد وأسرته ، ورسم في هذا المسجد مستقبله الروحي الزاهر .

إذ أقبل عليه الناس من كل فج عميق، وقدموا إليه الهدايا والأموال وهو يأبأها، وكلما أبأها ارتفع في أعين الناس ، وكان ذلك يرفعه أيضاً في عين الله لأن إقباله عليه كان صادقاً في الوصول إلى الله .

وفي هذا المسجد اجتمع بسيدنا الخضر على سطح الجامع وكلمه، ودله سيدنا الخضر على الميزان الذي يرى فيه أقوال الأئمة والمجاهدين مستمدة من عين الشريعة. فألف كتابه العظيم (الميزان) .

ثم هياً الله له زوجة صالحة بطريقة عجيبة لم تحدث لأحد. جاءه أحد الأولياء وسأله : هل أنت متزوج ؟

قال الإمام الشعراني : لا

قال الولي : ولم ؟

قال الإمام الشعراني : لأني فقير لا أملك المهر

قال الولي : امدد يدك فقبض يده ثم قال له : زوجتك وأنكحتك زينب بنت خليل القصبي وأقبضت عنك المهر ثلاثين ديناراً وأخدمتك إخوتها الثلاثة وأعطيتك البيت المسجل باسمها، قل: قبلت نكاحها لنفسي، فقال الشعراني : قبلت، وانصرف الولي.

وما إن حل المساء حتى طرق الباب طارق.

قال الشعراني : من ؟

قال : أنا خليل القصبي . وفتح للرجل فقال للشعراني : أريد أن أصاهرک وأزوجك ابنتي. وأطرق الشعراني محتاراً ثم قال : أنا فقير، فإذا برجل يسمع تحاورها عن بعد فقال : أنا عندي ثلاثون ديناراً أدفعها عن الشيخ مهراً، وأصبر عليه حتى

يأذن الله بالفرج. ويقبض القصبي المهر ويقول : ولها بيت على اسمها أعطيه لكما،
ولها ثلاثة إخوة هم خدمك يتعلمون على يديك. (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)
ويتحقق قول الولي ، وتكون زينب هذه أولى زوجاته ويتبعها بعدها بثلاث، ويعد
الشعراني من نعم الله عليه إصلاح زوجاته ، فقد كن طائعات قانتات صابرات ،
ومن زوجته فاطمة أعقب ولده عبد الرحمن ومات بقية أولاده.

معشر السادة: وحين بلغ سيدنا الإمام الشعراني سن السادسة والعشرين أي
سنة ٩٢٣ هـ افتتح السلطان سليم مصر وأقام قلعة الجبل، ووفدت عليه الوفود
للسلام عليه، وحين أراد الرحيل سأل : هل بقي أحد من العلماء أو الأولياء لم نره؟
فقالوا : ما بقي إلا رجل واحد صغير السن لم تجر عاداته أن يقابل أحداً من الولاة،
فقال السلطان سليم : أنا أذهب إليه، وقام السلطان وحاشيته إلى جامع الغمري
فقابل الإمام الشعراني ودخل حبه إلى قلبه واعتقده.

وهكذا نرى . أيها الإخوة . من خلال هذا الفصل الأول من حياة الإمام أن من
أقبل على الله أقبل عليه كل شيء، ومن أعرض عن الله أعرض عنه كل شيء.
احفظوا هذه القاعدة التليدة من خلال الحلقة الأولى من حياة الإمام الشعراني:
من أطاع الله أطاعه كل شيء هنا أو هناك .

وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي
التحية إلى الحبيب وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله هي الصلاة والسلام عليك

صلى الله
عليه وسلم

الإمام عبد الوهاب الشعرائي . ج ٢ .

الحمد لله الذي لا يخيب لديه أمل من أمله، ولا يغيب عن بساط قربه من رضيه وقبله، الأول من غير بداية، الآخر من غير نهاية ، الغني الذي لا شريك له في فعله، استوى على العرش من غير تكيف ولا تشبيه، وقد ضلّ من شبهه ومثله، العرش لا يمسكه، والعقل لا يدركه والوهم لا يصوره، والفكر لا يقدره .

أحمده على ما أسدى من خير وأجزله ، وأبدى من برّ فأكمّله .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله علم الأشياء مجملة ومفصلة.
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده وصفيه الذي أرسله، وحبيبيه الذي أنزل عليه الكتاب فجمع فيه علوم الكتب المنزلة، وهياً له رجالاً وأئمة كشفوا ببرهانه كل مفصلة، وأوضحوا بيان كل مشكلة.

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه
كما جعله بالخير أجود من الريح المرسلة، وسلم تسليماً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

هياً الله للإمام الشعرائي شيوخاً في حياته عرفوه الطريق إلى الله تعالى علماً وذوقاً ،
فكراً وحالاً تعلم منهم أن العلم إذا لم يثمر العمل لا قيمة له، وأن العلم إن لم يكن
وسيلة لتحصيل المكارم فالجهل خير منه، وأمروه بثلاثة أركان هي الأولى للوصول إلى
الله تعالى وهي : الاستغفار، والصلاة على النبي المختار، والذكر بلا إله إلا الله .

دلّه شيخه علي الشوني إلى الصلاة على النبي ﷺ وقال له : إنها تورث المصلي
الفيوضات الروحية والإلهامات النورانية، وتشعره بلذة روحية كلما تردد اسم النبي ﷺ
بالتعظيم والتكريم، وبها تكون معايير الحب والتعلق برسول الله ، وتقوم مقام الشيخ

في الإرشاد والتوجيه، ذلك أن النبي هو الرحمة المهداة وبواسطته أنعم الله علينا بنعمة الإسلام ، وعن طريقه عرف الناس أسس الهداية والنور، لذا أمرنا الله تعالى بالصلاة عليه .

دخلت هذه التوجيهات سويداء قلب الإمام وعجن ذاته بها، واتخذ زاوية لمريديه أقام فيها مجلساً للصلاة على النبي كل ليلة من عام ٩١٨ هـ وحتى فراقه للحياة لسنة ٩٧٣ أي ما يزيد على نصف قرن.

وتأثر بشيخه ابن عنان في كثرة العبادة ودوام السهر وملازمة التهجد وقيام الليل حتى قال الشعراني: كنا ونحن شباب في ليالي الشتاء نراه وهو واقف يصلي على سطح الجامع الغمري ثم ننام ونقوم فنجدّه قائماً يصلي وهو متلفح بحرامه . حتى تعرف على الشيخ علي الخواص سنة ٩٤٥ هـ ليبدأ مرحلة جديدة كانت زهرة حياته ومرحلته الذهبية.

إننا . معشر الإخوة . مع الحلقة سبعة وتسعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع الحلقة المتممة لسيرة الإمام الشعراني أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان:

سيدنا علي الخواص رجل أُمي لا يقرأ ولا يكتب، ومع أن الشعراني كان حجة في العلوم والفنون لكنه تلقن على يدي هذا الإمام الرباني فنون الحكمة العالية التي لم يكن علمه سبق إلى قطرة من قطراتها.

ولأنه تحول هام في حياة الإمام اسمحوا لي أن أدعو حضراتكم لأطير بكم على جناح السرعة إلى هناك، إلى مصر لألتقي معكم بروح هذين الإمامين الجليلين والبحرين العظيمين بحر الشريعة وبحر الحقيقة واسمعوا معي إلى المحاورة الأولى بينهما :

قال له الخواص : إلى من تنتسب ؟

قال الشعراني : إلى السلطان أحمد سلطان المغرب نسباً ، وإلى محمد بن الحنفية شرفاً .

قال الخواص : ما عملك ؟

قال الشعراني : العلم ، أقرؤه وأطلبه وأعلمه .

قال الخواص : سلطنة وشرف وعلم مع فقر (تصوف) لا يجتمعان ، فإن أردت مصاحبتي فاختر الفقر على ما عده .

واختار الإمام الشعراني ، اختار الفقر (التصوف) وصحبة الإمام الخواص .

إنني اليوم أيها السادة وللمرة الأولى أستعرض مع حضراتكم المجاهدات التي يتعرض إليها الصوفيون في الوصول إلى الله تعالى .

ولا تنسوا أن عمدة الطريق إلى الله كثرة الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ .

أول درس أخذه الإمام الشعراني من شيخه الأخير : كيف يجب على العالم ألا يغتر بعلمه ، أو يعتقد في نفسه مهما أوتي من شهادات أو حصل على إجازات أنه وصل إلى نهاية المطاف .

علّمه أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها ، وألا يأنف من اليد التي تقدمها ، ولا يتعالى على الله من الذي يلقنه ، ولا يتسامى على الإنسان الذي يجلس بين يديه .

كان اجتماع الإمام الشعراني بالإمام الخواص إشارة كريمة إلى المعنى الذي يفهم من قصة سيدنا موسى وسيدنا الخضر ، وقد تعلم سيدنا موسى وهو من أولي العزم على يدي سيدنا الخضر النبي علماً لم يدركه ، وحكمة لم يكن يعرفها .

ثاني مجاهدة مرّ بها الإمام أُمّ شيخه له ببيع كتبه كلها والتصدق بثلثها على الفقراء . تصوروا كتب عليها التعليقات والخواشي والشروح بخط يده وتعب أربعين أو خمسين سنة ، لو وزنت بمداد الذهب لرجحت ، لكن الإمام امتثل وباعها كلها وتصدق بثلثها على الفقراء .

يقول الإمام الشعراي : وشعرت كأني سُلبت العلم .
ثم أعطاه شيخه دواءً ثالثاً قال له : اعمل على قطع التفاتك إليها بكثرة ذكر الله تعالى ، فإنهم قالوا : **ملتفت لا يصل** . فصار يكثر من الذكر لينسى كتبه .
وبعد مدة أعطاه جرعة دواء رابعة إذا أمره بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقته وكان يهرب منهم ويرى نفسه خيراً منهم ، فكشفه الشيخ وأعطاه جرعة خامسة وقال : اعمل على قطع أنك خير منهم ، فجاهد بالذكر حتى صار يرى نفسه أدنى من كل فقير .

ثم نقله إلى مقام أعلى : أمره أن يختلط بالناس ويصبر على أذاهم ولا يقابلهم بالمثل ، فعمل على ذلك وقام على خدمتهم والصبر عليهم ، حتى رأى نفسه خيراً منهم ، فكشفه الشيخ وقال : اعمل على قطع هذا الخاطر أيضاً فقطعه بالكلية .
وراح الإمام الخواص ينقله من مقام إلى مقام .

ويرقيه بالذكر سراً وعلانية حتى لا يخطر على باله شيء سوى الله تعالى .
ثم أمره بترك الشهوات مطلقاً، فتركها واكتفى بما يسدّ الرمق وزهد في الدنيا حتى صار شعاره حب الظهور يقصم الظهور ، واستوى بنظره الذهب والتراب، وصارت نفسه تتطلع لتطير في الهواء وصارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهبية في صدره ،
ثم أمره بالتوجه إلى الله تعالى في أن يطلعه على أدلتها الشرعية، ومازال الإمام الخواص يرقيه ويرقيه حتى فتح الله عليه بعلوم نورانية لم ير مثلها سطرها في كتاب الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية .

واغتترف من بحار علوم شيخه والأسرار الروحية مالا يحيط به حصر ولا يدركه عقل، وكان في كل مقام يعطيه مفتاحاً من أسرار الذكر وماحتويه من أسماء الله الحسنى من معان، وما تفيض به من فيوضات لأن الذكر بالنسبة للطرق الصوفية أحد أعمدة الطريق بل هو روحها، وبدونه لا يتمكن المريد من أن ينال شيئاً من الطريق. ويحدثنا إمامنا عن أنوار المجاهدات مع شيخه الخواص فيقول :

غطست في بحر علوم شيخي خمس مرات، فلما أردت أن أغطس السادسة استحال البحر حجراً، وفي كل مرة كنت أغطس فيها كنت أجد صيداً من خزائن علومه (رأى خمس خزائن كل خزانة عليها قفل).

يقول : ففتحت أول قفل بلا إله إلا الله ، ورأيت علوماً برزت من اللوح المحفوظ إلى هذا العالم على اختلاف طبقاته

ثم فتحت قفل الخزانة الثانية باسم الله فرأى تفسير آيات من القرآن بمعان وعبارات لا تدركها العقول.

ثم الخزانة الثالثة فتحت قفلها بالرحمن الرحيم فرأى علوم الحديث .

ثم الخزانة الرابعة بحسبنا الله ونعم الوكيل ، فرأيت علم التأويل .

وفتح القفل الخامس بسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، فرأى جملة من الحقائق النورانية .

أيها الأحبة والصحب:

أهم شيء يجب أن نعرفه عن إمامنا أنه لم يطرق باب التصوف إلا بعد أن صار طالب علم من الدرجة الأولى، وانه التقى بعالم عصره الخواص بعد أن صار إماماً لا يبارى لأن تحكم الشريعة هو الأساس في حياة الصوفي، حتى لا تدخل عليه الخرافات والأوهام .

أستطيع أن أقول إن سيدنا الشعرائي أعجب بشيخه الخواص أيما إعجاب، فعلى الرغم من أميته فإنه كان يتكلم على معاني القرآن العظيم والسنة المشرفة كلاماً نفيساً يتحير فيه العلماء.

حتى وصفه بقوله : الخواص رجل غلب عليه الخفاء فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم إلا العلماء العاملون، لأنه رجل كامل عندنا بلا شك، والكامل إذا بلغ الكمال في العرفان صار غريباً في الأكوان، لقد كان فطامي على يد الخواص .

أتعرفون أيها الأخوة ماذا فعل الشعرائي بالعلوم التي تلقاها من شيخه الخواص؟

لقد أودعها في كتابه الجواهر والدرر، أندرون بعد هذه الرحلة الطويلة إلى الله تعالى ماذا فعل الإمام الشعراي؟ قام بتأليف كتاب قل نظيره سماه (اليواقيت والجواهر)، وفق فيه بين أقوال أهل الشريعة وأهل الحقيقة، وكان يردد الشريعة والحقيقة وجهان لشيء واحد هو الشرع الحنيف .

لا يكمل العالم في مقام العلم حتى يصبح المشرع هو الله تعالى مشهوداً له في كل عمل مشروع .

وَألف كتاباً عظيماً من أعمدة كتب الأخلاق هو كتاب لطائف المنن والأخلاق.

معشر السادة الكرام:

كان تصوف الشعراي تصوفاً أسَّسه على الكتاب والسنة، وصحح مسار الطريق الصوفي المشوه في عصره، وأفرد كتاباً سماه (تنبيه المغترين) أوضح فيه أخلاق الصوفيين الحقيقيين وأنها متلازمة مع ما يدعوا إليه الشرع الشريف، وأوضح أن الاستقامة عين الكرامة، أكبر كرامة للولي الاستقامة على طريق الشريعة.

هكذا كانت حياة الإمام في خدمة الشريعة والدعوة، يقصده في زاويته آلاف المريدين والفقراء وأصبح من المفكرين، بل أطلق عليه مجدد القرن العاشر حتى وافته منيته بعد أن أصيب بفالج سنة ثلاث وسبعين وتسعمئة .

وحملوه على الأعناق في مشهد لم ير المصريون مثله، يتقدم الجنازة نائب السلطان وأعيان مصر وأمرأؤها وقوادها وقضاها وعلمائها وفقهاؤها ومتصوفوها ثم آخرهم عامة الناس، فما بقي أحد في داره إلا جاء أو أرسل ولده لعجزه عن المجيء. لقد كان الإمام عبد الوهاب الشعراي بحق أمةً وحده، ولئن فقدته العالم الإسلامي فإنه ترك لنا تراثاً ضخماً عظيماً من مؤلفاته وخلاصة حياته العلمية و الصوفية بلغت (٣٠٨) مؤلفاً لقد كان تلميذاً صادقاً من تلاميذ سيدنا محمد ﷺ . فمن أراد أن يتعرف عليه حق المعرفة هناك فليقرأ كتبه هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة

سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية للحبيب، وتحيتنا إليك يا
سيدي يا رسول الله هي الصلاة والسلام عليك.

صَلَّى
عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ

المصادر :

- . الموسوعة الصوفية عبد المنعم الحفاجي .
- . جامع كرامات الأولياء للنبهاني .
- . شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد .
- . عبد الوهاب الشعراني عبد الحفيظ القرني .

(١٩٨)

الإمام عبد الرحمن الشاغوري

(١٩١٢ . ٢٠٠٤ م)

الحمد لله الذي تفرد بالبقاء ، وحكم على عباده بالموت والفناء ، وكتب لكل نفس أجلاً لا تجاوزه عند الانقضاء ، وسوّى فيه بين الشريف والمشروف والأقوياء والضعفاء

أحمد سبحانه وتعالى على سوايغ النعم وضوايف الآلاء حمد معترف بالقصور عن إدراك أقلّ مراتب الشناء

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة مخلص في جميع الآناء ، راجٍ رحمة ربه في الإصباح والإمساء

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل الأنبياء وأكرم الأصفياء ، والداعي إلى سلوك المحجّة البيضاء ، من أحبه كان من السعداء ، ومن أبغضه كان من الأشقياء :

حبّ النبي المصطفى	لقلوبنا غسل مذاب
حب النبي المصطفى	يحبيك من تحت التراب
ياسيدي ومحمدي	

أصبحت أغنى واحد	في الكون فيك بلا حساب
أنت الخلايا في دمي	لكنها بك تحتمي بك لاتصاب
صلى عليك الله يا علم الهدى	

اللهم صلّ وسلم وبارك وعظم على هذا النبي الكريم السيد السند الرؤوف الرحيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وعترته وأنصاره ، وسلم تسليماً كثيراً

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

غادرنا إلى جوار ربه العزيز يوم الثلاثاء الثامن من حزيران عام ٢٠٠٤م سيد أهل التوحيد في عصره ، إمام أهل السنة والجماعة ، شيخ الطرق الصوفية جميعاً مولانا وقدوتنا إلى الله تعالى العارف بالله العلامة الجليل

الشيخ عبد الرحمن الشاغوري الحمصي مولداً والدمشقي إقامة ، والأشعري عقيدة ، والشافعي مذهباً ، والشاذلي مشرباً رحمه الله تعالى ورضي عنه ورضي عنا معه .

ولد الشيخ رحمه الله تعالى سنة ١٩١٢ في حمص ، وقضى عمره الذي بلغ سبعاً وتسعين سنة تدريساً وتوجيهاً وتربية وخدمة لإخوانه في الطريق الشاذلي وكان ابن مجالس الذكر ، ابن الحضرة ، ابن العلم ، لم ينته لسانه عن الذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن سعادة العبد أن يطول عمره ويرزقه الله تعالى العمل الصالح

فرحمك الله أيها الشيخ الجليل .

إخوة الإيمان : لا يعلم إلا الله ما أصابنا وأصاب المسلمين ، ولم يخص الأقربين حتى عمّ جميع الموحدين ، ولم يمس الأرحام حتى زعزع رجال الإسلام ، قد سار بروحه الشريفة من عالم الفناء إلى ما أعد الله له من الكرامة في دارالبقاء:

وما الدهر إلا كما ترى رزية حر أو فرق حبيب

قضاء مبرم يشترك فيه جميع الناس ، يمتحن الله به صبرنا ويبتلي به إيماننا ، رحل عنا كما يرحل الخيار ، والموت سبيل تزاحم عليه السابقون واللاحقون ، ومورد ينهل منه الخلائق أجمعون ، إنَّ الدهر لم يلاقنا إلا بما ألفناه ، وما أنكرنا عليه شيئاً عرفناه ، وعزاؤنا أنَّ الموت ليس حُكماً بالإعدام وإنما هو بداية انتقال إلى دار أخرى، من دار الباطل إلى دار الحق ، من دار الفناء إلى دار البقاء من جوار الخلق

إلى رحاب الحق جل جلاله ، وما بينهما برزخ هو أول منازل الآخرة، إن نجا منه العبد فما بعده أهون منه :

القبر باب وكلُّ الناس داخله ياليت علمي بعد الموت ماالدار
الدار دار نعيم إن عملت بها يرضي الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما فانظر لنفسك أيّ الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا وإن هفوا هفوة فالربّ غفار

وأهل الله أيها السادة هم الناجون عند الله ، أهل الله لا يهابون الموت ، وإذا جاءهم استقبلوه بالترحاب ، مرحباً بالموت حبيب جاء على شوق ، لا أفلح من ندم ، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه ، ولذلك اسمعوا ماذا يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا منشرهم)) .

إخوة الإيمان :

إذا مات المؤمن انكشف له عقب موته من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالنسبة إليه كالسجن الضيق ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع فلا يشتهي العودة إلى السجن المظلم ، وقد ضرب لنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً عن رجل مات فقال : أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضي فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه .

أيها السادة :

تسعون عاماً قضاها مولانا الإمام الشاغوري أستطيع أن أقسمها إلى ثلاثة أطوار:

الطور الأول : طور النشأة والاكتمال لأجل المعيشة وهي ثلث قرن .

الطور الثاني :

طور التلمذة على أيدي الشيوخ واكتساب ملكة العلم وأهم شيوخه فيها الشيخ علي الدقر عن طريق شيخ حلقتة وهو الشيخ حسني البغال تلميذ الشيخ الدقر المباشر . ثم الشيخ محمد بركات والد الشيخ عبد الرحمن بركات المعروف من قريب والشيخ الثالث الهام والذي تأثر فيه أشد التأثير وسلك على يديه الشيخ محمد الهاشمي . رحمهم الله جميعاً .

الطور الثالث :

طور المشيخة والعطاء والتدريس وهي الثلث الثالث من التسعين عاماً التي قدرها الله للشيخ أن يحيها وهذه الفترة الثالثة هي التي عاصرنا فيها الشيخ رحمه الله تعالى فنهلنا من علومه وأدبه وطريقته وأحواله ، ثلث قرن . أيها الأخوة الكرام . ونحن بين يدي الشيخ الإمام نعرف من معينه وبراعته في فني التوحيد والتصوف ، أستطيع أن أجزم بأن مولانا الإمام قد قرأ علينا كل الكتب التي قرأها على أشياخه الكرام، وكان يتوّج هذا الدرس براحة نفسية وأريحية شعرية ونسمات ربانية من الأناشيد الدينية التوحيدية ، تارة من نظمه وألحانه ، وتارة من كلام القوم فقد أوتي الشيخ ذوقاً رفيعاً في انتقاء القصائد أخذها عنه أهل هذا الفن ، ومما قاله رضي الله عنه بعد خروجه من الخلوة :

يا واحداً في بديع الحسن لم يزل عطفاً على مغرم يهوى من الأزل
ويا فريداً غدا قلبي له سكناً مع التنزه مالي عنك من بدل
ياراحة الروح ياروح الفؤاد أرح صباً بوصل غدا بالهجر ذا وجل
إن كان موتي حياتي في هواه فقد أرسلت روحي له قبل انقضا أجلي

كان رضي الله عنه يعلمنا حب سيدنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم والتخلق بأخلاقه الشريفة صلى الله عليه وسلم وقال في مدحه صلى الله عليه وسلم :

أوميض برق بان من ذاك اللوى أم بدر تم لاح والليل انطوى
أم ذاك نور المصطفى طه الذي حقاً على عرش الجمال قد استوى
يأيها المختار يا باهي السنا من ذا الذي للحسن مثلك قد حوى
بعض المحاسن منك قد منح الورى أيصح إثبات المحاسن للسوى
ماذا أقول بوصفك الباهي فقد عجز اللسان وزال من فكري القوى

أيها السادة :

كان الوارث المحمدي رضي الله عنه ذا أخلاق عالية ، وتواضع عظيم ، كان لا يرد سائلاً أو طارقاً كان رحمه الله شجرة مثمرة قطوفها دانية ، يقطف من ثمارها الخاص والعام ، يذكرنا بالعلماء الربانيين من السلف الصالح الكرام الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى ، كسيدنا يزيد بن هارون الواسطي ، فإنه بعدما توفي رؤي في المنام وسئل عن حقيقة منكر ونكير فقال أي والله لقد أجلساني وأقعداني وجعلنا يسألان من ربك ما دينك ماذا كنت تقول في هذا الذي أرسل إليك؟ ، فقلت : أمثلي يسأل ، أنا يزيد بن هارون الواسطي ، علّمت الناس دينهم زهاء ستين سنة أمثلي يسأل ؟ قال فقال الملك للملك : صدق هذا يزيد بن هارون الواسطي ، نم يا يزيد نومة العروس هنيئاً لا يوقظك إلا أحب الخلق إليك . فرحمك الله يا شيخنا الجليل ، نشهد أنك كنت هادياً مهدياً ، أدّيت رسالتك على أكمل وجه ، فعليك رحمت الله حسبنا الله على هذه الصحيفة المشرقة التي طويت من صفحات تاريخنا الزاهر، هاهو نجم آخر يغيب ، نجم سطع في سماء البشرية فأضاء ما بين المشرق والمغرب :

لوترانا عند الوداع حيارى نسكب الدمع من فراق الحبيب
كيف يحيى الفؤاد بعد حبيب كان يرعاه بالجمال العجيب
أنت يا نفس هل ترومين صفواً بعد بُعد الحبيب أم هل تطيبي
قالت النفس فالحياة ظلام حيث مال الحبيب نحو للمغيب

أسأل الله أن يجمعنا معك في مستقر رحمته أيها الحبيب الطيب
أيها الأحبة والصحب :

هذه حقيقة الحقائق ، نودع بعضنا بعضاً كل يوم ، ونواري أحبابنا التراب
ليعودوا إلى الطينة التي جُبلوا منها ، هذا هو قدر الله ينفذ فيهم عندما قال مولانا
﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾

هذه البشارة ، سيعيد الله الأبرار إليه ، لنلتقي بهم تحت لواء سيد المرسلين
صلى الله عليه وسلم

نعم لقد غادرنا الإمام ، وهو إن لم يترك إلا ديوان شعر كتبه بيده ، لكنه
ترك خلفه رجالاً حملوا عنه هذا العلم ، صدقوني - يا إخوة - ما كتب عبد العزيز
الخطيب الحسني مؤلفاً إلا وكان فضل الشيخ عبد الرحمن الشاغوري عليه بعد فضل
الله تعالى ، تذكرون خطب القضايا الإيمانية كان شيخنا رضي الله عنه يتابعها
بشغف ، وكان أثناء دخوله إلى جامع نور الدين الشهيد يوقف السيارة لسمع إلى
بعض الخطب ليطمئن على تلميذه وهو يلقي القضايا على المنبر هذا كله مع ما كان
يحمل من صفاء في قلبه وإخلاص في عمله ، لم يحمل حقداً على أحد ، وكان له
بعد نظر إلى عشر سنوات كيف لي أن أترجم الشيخ الإمام في ثلاثين دقيقة وقد
عشت معه ثلاثين سنة، أذكر لكم مثلاً واحداً على بعد نظره .

بعد حوالي ١٥ سنة من تلمذتي على الشيخ، وكنت معيد الدرس عنده ، دخل
على الخط رجل نافسي على المشيخة ورأيته متشوقاً ليكون خليفة الشيخ ، وكنا في

درس يوم الأحد ، وكان الدرس عن الإيثار إيثار الصوفية المستمد من الكتاب والسنة ، فقال هذا الرجل سائلاً الشيخ رحمه الله : وهل أوتر غيري إن نافسني على المشيخة أيضاً (ولو على المشيخة) ؟ فقال الشيخ على البديهة : دعها له ييؤء بإثمها عند الله .

اعتبرت كلمة الشيخ وإن كانت موجهة لهذا الرجل اعتبرتها موجهة لي ، وكان الشيخ يرينا بالإشارة فكيف بالعبارة ، أتعرفون ماذا فعلت ؟ صرت أغيب عن الدرس ، ويقوم ذلك الرجل بقراءة الدرس عني حتى مضت ثلاث سنوات أخذ فيها الإجازة من الشيخ وصار خليفته في دمشق.

وأصابته دعوة الشيخ ، فباء بإثم المشيخة ، أتعرفون ماذا فعل به ؟ وكان قد أجزى في الطريق والخلافة ، والله سَحَب منه الإجازة والخلافة ، وأمر إخواننا في الطريق بعدم حضور مجالس ذلك الرجل ، وعلى أثرها مرض مولانا الشيخ رحمه الله تعالى ومازال مرضه يزداد ودرجته تعلو في الجنات ، وأبقى الله مع ضعف جسده ، ذاكرته وفكره حتى آخر لحظة وإخواننا يزورونه في بيته حتى غط في نوم عميق شهراً أو يزيد ، ووافته منيته مؤمناً مخلصاً محسناً رضي الله عنه

أيها الإخوة هذا غيض من فيض ، حياة تسعين سنة لا أستطيع أن أوفيها بنصف ساعة ، ولكننا ونحن في هذه الساعة المباركة المستجابة نرفع أكفنا إلى الله تعالى أن يجعل مأواه في أعلى عليين ، في جنان الخلد يا شيخنا مع الذين أنعم الله عليهم ، فإلى رحمة الله يا شيخنا ، سلم لنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

((سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار))



● غرر الشام في تراجم آل الخطيب ومعاصيهم د. عبد العزيز الخطيب الحسني

(١٩٩)

إمام المجاهدين
الشيخ أحمد ياسين
(ت ١٤٢٥ هـ . ٢٠٠٤ م)

الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار ، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار ، فجعلهم أعراضاً لسهام الأقدار ، ووكل بهم أمراضاً تزعجهم عن القرار ولم يخص بها الفقراء دون ذوي اليسار ، بل هي آيات الله عدل بالبادين والحضار ، أحمدته على نعمه وأعوذ به من العتو والإصرار .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة منجية من عذاب النار ، مبنوة من شهد بها دار القرار .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله بآمين شعار وأنور منار ، وأظهر إعلان وإسرار ، مؤيداً بالمهاجرين والأنصار ، منصوراً بالملائكة المقربين الأبرار .

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه آناء الليل وأطراف النهار ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

عندما تضيق بي مسالك الحياة ألجأ إلى الله تعالى ، وعندما أرى أحداث العالم الإسلامي تصيب الإنسان المسلم بنزيف داخلي أسأل رسول الله أن يشخص لنا الداء ويصف لنا الدواء .

فمنذ أيام مضت (٢٠٠٤) قامت بعض قوى الشر في غزة بفلسطين من السلاح الجوي الصهيوني تستعرض عضلاتها على شيخ مقعد ، فقامت بإطلاق ثلاثة صواريخ عليه أثناء خروجه من مسجده بعد صلاة الفجر فقتلته وقتلت تسعة من مرافقيه ، أعلنت أبواب الجنان طوائرها لاستقبال أرواحهم مع ملائكة الرحمن ،

حيث اهتزت الأرض تحت أقدام الشيخ أثناء تشييع جسده ، عفواً ما تبقى من جسده الذي توزع أشلاء في الفضاء، وتَوَجَّ الشيخ جهاده الطويل فكان من عداد الشهداء ، لتكون روحه في أجواف طير خضر تسرح في أرجاء الجنة.

وإسرائيل مسرورة باغتيال رجل مقعد لا تسمح الإنسانية بخدشه، إسرائيل يجبروتها وعتادها وحلفائها خافت من رجل مقعد، والحق كل الحق أنها لم تقتل رجلاً يمثل منظمة حماس فحسب ، وإنما قتلت رمزاً من رموز الإسلام هو الشيخ أحمد ياسين، الهدف والغاية ضرب الإسلام.

وبالنيابة عنكم وبالأصالة عن نفسي أوجه رسالة تهنئة إلى إخواننا الفلسطينيين، وأقول لهم ما قاله سيدنا رسول الله لسيدنا جابر عندما استشهد والده في أحد ، فعكف جابر على والده عبد الله بن حرام الشهيد يبكي لفراقه ، ورآه رسول الله فأراد تعزيته ، قال له: ألا أخبرك ما فعل الله بأبيك ؟ قال: بلى قال: إن الله تعالى لم يلق أحداً إلا من وراء حجاب وإنه لقي أباك (كفاحاً) من غير حجاب ، فقال: يا عبد الله تمنّ علي . قال : يا رب إني أريد أن تعيدني إلى الدنيا لأقتل فيك ثانية ، فقال ربّ العزة: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون. قال: فأخبر من ورائي بما أعطيتني ، فأنزل مولانا عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيُسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

أيها الإخوة الكرام:

لما سقط الشهداء التسعة في مثل لمح البصر سألت نفسي : ماذا كان موقف العالم الغربي ؟ كان موقفه كموقف الأمة الإسلامية، روسيا وفرنسا وبريطانيا تستنكر ما فعلته يد يهود، والدول العربية تشجب العدوان على الشيخ ورفاقه ، تونس والمغرب والجزائر وغيرها تستقبل هذا الحادث الأليم بالحزن العميق والأسى، هذا موقف الأمة.

مئات الفلسطينيين يسقطون سنوياً ويقتلون بيد العدو الصهيوني ، وأمريكا تبارك بل تبسط جناحها على الشرق الموحد الذي يقول لا إله إلا الله.

وماذا فعلنا؟ رفعنا أمرنا إلى الأمم المتحدة النصرانية ، وإلى أمريكا الكافرة ، بدل أن نرفعه إلى الله تعالى استعنا بأمريكا والعالم الغربي الكافر.

ومن اعتمد على عقله ضلّ، ومن اعتمد على ماله قل، ومن اعتمد على جاهه ذل، ومن اعتمد على روسيا وأمريكا ملّ، ومن اعتمد على الله فلا ذلّ ولا قلّ ولا ضلّ ولا ملّ.

لماذا نحتمي بأمريكا ؟ لماذا نتوجه إلى شعوب الكفر والإلحاد لتحميننا ؟ إلى متى ستظل الأمة الإسلامية على هذه الحال ؟ أمة حالها أسى: الروس على أرض داغستان من جهة، والعراق وأمريكا دخلا على سنة في حرب ضروس لا يعلم مداها إلا الله ، ولبنان تستغيث من إسرائيل ، وليبيا تستسلم لأمريكا، وبلاد البترول في غفلة معرضون، وسورية تتصدى للكيد الأمريكي، فماذا قال لنا رسول الله في حالنا: « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال: بل إنكم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل » أتدرون ما الغثاء؟ الحطيم الجامد ، النباتات الجافة التي يكتسحها تيار الماء اكتساحاً ، فيرى أسود منتناً على أطراف الشوارع.

ما السبب يا رسول الله؟ قال: « ينزع الله الرعب من قلوب أعدائكم ، ويلقي الوهن في قلوبكم . قالوا: وما الوهن يا رسول الله ؟ قال: حبّ الدنيا وكراهية الموت » ولذلك كان شعار الدولة في عصر الصديق: احرص على الموت توهب لك الحياة.

يا معشر السادة:

كيف أصبح حالنا؟ أصبح غثاء كغثاء السيل ، لا حول لنا ولا قوة.
حكام المسلمين أمرهم أعجب من العجب ، حتى إنك ترى حاكم قطر يطرد
السفير الروسي لأن روسيا اعتقلت قطريين بتهمة الإرهاب ، ويترك قنصلية إسرائيل
مفتوحة في بلاده رغم أن اليهود في كل يوم يقتلون إخواننا في فلسطين، وفعل مثل
فعله حاكم مصر وحاكم المغرب والأردن ، هؤلاء فتحوا سفارات في بلادهم لعدو
المسلمين الأول، لقتلة الأنبياء والمرسلين ، عقدوا معهم عقد صداقة وتعاون مع
شارون رئيس وزراء العدو الصهيوني ، الرجل الذي يدمر مدن المسلمين وأهلنا في
بلاده، عدو من أعداء الله (اللهم دمرها على كل ظالم) حلفاء روسيا يلجؤون إلى
روسيا، وحلفاء أمريكا يلجؤون إلى أمريكا، وتركوا الالتجاء إلى الناصر المنتصر، تركوا
الالتجاء إلى من (يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء
الأرض) ونزح بحرين بغير بالين، وحفر بئرين بإبرتين ، وكنس أرض الحجاز في يوم
شديد الهواء بريشتين ، وغسل عبيدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين خير لي من أن
أقف على باب غير باب الله يضيع فيه ماء عيني .

إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. أما أن نستعين بروسيا
وأمریکا فإن مثل روسيا وأمريكا (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر
قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين) وقت الشدائد لا يعرفونك، لأنك
تنطق بكلمة لا إله إلا الله، لا يعرفونك هم أعداؤك وأعداء نبيك سيدنا محمد ﷺ .

يا حكام المسلمين لا تلجؤوا إلى روسيا ولا إلى أمريكا الجؤوا إلى الله، اركبوا معنا
في سفينتنا ولا تقولوا سنتعصم بجبل أمريكا ، فلا شيء يعصم من أمر الله، يا حكام
المسلمين الجؤوا إلى الله يعطكم نوراً تستفتحون به على أمريكا واليهود، لأن نور الله
يوقد من شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، لا هي إلى موسكو ولا هي إلى
واشنطن.

وأما أنتم يا أهلنا في فلسطين فلا أجد ما أقول لكم إلا كما قال طارق بن زياد لجنوده يوم لقي جيوش الإسبان وكانوا مئة ألف مقاتل، وكان المسلمون سبعة آلاف قال لكم: العدو أمامكم والبحر وراءكم وليس لكم والله إلا التقوى والصبر. مكنوا العقيدة في قلوبكم ، لا تخافوا إلا الله افعلوا كما كان الشيخ أحمد ياسين يفعل ، وقد سئل كيف تخرج وتدخل بحراسة أقل بكثير من تقليدية. فقال: أنا لا أخاف إلا الله .

إن العقيدة إذا مكنتها في قلوبكم لن تخافوا من طائرات اليهود الأمريكية، لن تخافوا F14 و F15، لن تخافوا الأسطول الجوي الفانتوم ولا القنابل النترونية ولا الأسطول السابع أو السادس، إن التجاءكم إلى الله واستنصاركم به يزلزل الجبال من أماكنها، يميناً بالله أحلفها لو اجتمع أهل الدنيا جميعاً من شرقها إلى مغربها ليحاربوا الإسلام فإن الله من ورائهم محيط، لا تخافوا مهما هددتم بالسجون ، ومهما هددتم بالمحاكم ، ومهما هددتم بالتنكيل والتشريد (إنَّ وليكم الله) هو ناصركم وهو مؤيدكم، إن عدنا إلى الله ملأ قلوب أعدائنا بالخوف والرعبة ، إن اليهود يخافونكم ﴿لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ بدليل أنهم بدأوا يقتلون المقعدين والمرضى ، لأنهم لم يقدرُوا على الأصحاء، ولعمري شيخ مقعد مقيد أيقظ أمة نال الشهادة ، فمتى يتحرك صحيح البدن مقيد المهمة؟!

اليهود يخافون المسلمين الذين عقيدتهم تزلزل الجبال ، يذكرني بالرعيل الأول من الصحب الكرام، إن سيدنا خالد بن الوليد أرسل ذات مرة إنذاراً إلى كسرى وقال له: يا كسرى أسلم تسلم وإلا فقد جئتكَ بقوم يحرصون على الموت كما تحرصون على الحياة (لأن الشهادة حياة) والمسلمون يحرصون على الشهادة كما يحرص الفرس على الحياة ، فلما وقع الإنذار في يدي كسرى ارتعدت أوصاله وتفككت أعصابه ، وأرسل إلى حاكم الصين يطلب النجدة والمدد فرد عليه حاكم الصين قائلاً: لا قِبَل لي بقوم لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها.

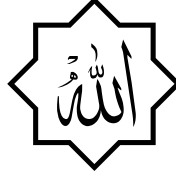
إخوة الإيمان:

علاجنا في العودة إلى الله ، في الصلح مع الله ، الملجأ لا واشنطن ولا موسكو،
إنما الملجأ هو الله، هو الله، هو الله .

اللهم انصرنا على أعدائنا، اللهم ثبت قلوبنا، اللهم ارزقنا الشهادة في سبيلك ،
اللهم ارزقنا موت الكرماء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، اللهم لا تخزنا
يوم اللقاء.

أعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد صلى
الله عليه وسلم، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي
يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.

اللهم صلّ وسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه



(٢٠٠)

استشهاد الرنتيسي

(ت ١٤٢٥ هـ . ٢٠٠٤ م)

الحمد لله مقدّر الموت على العباد، ومحذّر الفوت لينتهزوا فرصة الاجتهاد، وجاعل موت المسلمين وسيلة إلى لقائه، ومدخلاً إلى دارا إحسانه وحسن جزائه، ومعرجاً تعرج به أرواحهم إلى حضرة القدس، ومخرجاً يتروحون فيه من غموم الدنيا بنفحات القرب والأنس.

أحمده على حسن بلائه لنا في الموت والحياة، وأشكره على توفيقه لشهود حسن اختياره للمؤمنين في كل ما قدره وأمضاه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نعبد إلا إياه.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أكرمه بالفضل على سائر خلقه واجتباؤه، وجعله إماماً لأهل أعصار الدنيا، ثم نقله إلى الآخرة ليأتم به أهل تقواه، ولقد خيرّه سبحانه بين الدنيا وبين ما عنده فارتضاه، ولا جرم أنه نقله إلى الرفيق الأعلى، وجعل أعلى الفردوس مثواه.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الثقة الهداة، وأدم ذلك بمدد لا يدرك منتهاه، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام يقول الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾.

قضى الله على هذه الأمة لتبلغ مكانتها العليا بين الأمم، أن تكون أمة الشهداء اقتداءً بالقادة الأتقياء سيدنا حمزة عمّ النبي ، وابن عمه جعفر بن أبي

طالب إلى الشهداء السبعين في بئر معونة ، إلى اليرموك والقادسية وحطين .
واليوم يلحق بهذا الركب العظيم سيدان بطلان كريمان وزعيمان جليلان الشيخ
أحمد ياسين وتلميذه الخاص الدكتور عبد العزيز الرنتيسي ، خمسة وعشرون يوماً بين
الشهيدين، ترى هل اشتاق المعلم لتلميذه ؟ أم اشتاق التلميذ لمعلمه؟ أم الجنة
اشتاقت لهما!

البطل الدكتور عبد العزيز كان يطلب الجنة بالشهادة وهو ساجد، يطلبها
وهو بين صحبه وأهله، فهنئاً لأهل الشهيدين، لأن الشهيد في أعلى جنات الخلد،
والشهداء كما قال سيد العالمين: ﴿أرواحهم في أجواف طير خضر تسرح في
الجنة، الشهيد يشفع لسبعين من أهل بيته كلهم وجبت لهم النار﴾، استشهد
صحابي واسمه الحارث بينما كان يستقي الماء للمجاهدين ، فجاءت أمه إلى رسول
الله تسأله هل ولدها في الجنة أم في النار ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : يا أم حارثة ،
إنها ليست بجنة واحدة ، ولكنها جنات كثيرة ، وإن حارثة لقي الفردوس الأعلى
(حم - خ)

إنني لا أعزي أهل الشهيد والعالم الإسلامي بفقدته بل العزاء لنا إن لم نمض
على الطريق.

الدكتور عبد العزيز كان يستطيع بمهنته أن يقضي حياته ترفاً بين الدول الغنية
طبيباً كأمر الأطباء، ولكنه فضّل حياة الجهاد، فضّل أن يعيش مجاهداً ليموت
شهيداً! أتدرون لماذا؟ لأنه كان مقتدياً بسيدنا رسول الله، أليس هو القائل لنا :
﴿سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله﴾
(حا - والضياء) صحيح.

الدكتور عبد العزيز لم يقف في وجه ظالم واحد، بل وقف في وجه قتلة ظلام
غاشمين، وقف صامداً أمام نظام عالمي يريد أن يقضي على شوكة الإسلام، الدكتور

عبد العزيز تربى في مدرسة القرآن التي تعلم منها ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا، والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً﴾ (النساء ٨٤).

إخوة الإيمان:

هذه الآية توجه النبي وأمة الإسلام من ورائه إلى طريق المقاومة والتحرير: فقاتل: ابدأ بنفسك ، وهكذا فعل الشيخ أحمد ياسين فارس الكرسي ، بدأ بنفسه وتبعه المخلصون من إخوانه ومنهم تلميذه الدكتور عبد العزيز فقاتل: بالسكين بالحجر بالعمليات الاستشهادية ، حتى يتحول تراب الأرض إلى نار تحرق اليهود والأمريكان ، حتى تحيا الأرض بدماء الشهداء.

إن شعب فلسطين كأرض فلسطين تنبت الأبطال والمجاهدين كما تنبت التين والزيتون، إن شعب فلسطين كأصحاب سيدنا محمد ﴿محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم﴾.(الحشر)

إن شعب فلسطين بشّرهم رسول الله منذ ١٤ قرناً أنهم يروون الأرض بدمائهم: ﴿لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلْتَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى كَذَلِكَ﴾ (م-ت-هـ).

فيا إخوتنا في فلسطين: حيّاكم الله وبيّاكم، حيا الله هذه السواعد السخية المقاتلة، كونوا يداً واحدة مع فصائل المقاومة، إنكم إن فعلتم زرعتم الشوك في طريق يهود.

فهل يتحرك زعماء العرب؟

فهل تستيقظ النخوة في رؤوسهم؟ فهل يستصرخ إيمانهم بالله وإسلاماه.
أيها الزعماء: أين جيوشكم ؟ فتيات الأقصى كالإعصار في وجه يهود، وأنتم على عروشكم نيام، يا حكام العرب كيف تستنصرون أمريكا وهي التي دمّرت

جنين بيد اليهود بطائراتها؟! كيف تستنصرون بمن دمر أهلنا في الفلوجة والنجف؟! لا تنتظروا النصر من أمريكا، يا مبارك استحيي من نفسك ، فإن لم تستح من نفسك فاستحيي من شعبك، فإن لم تستح من شعبك فاستح من التاريخ، فإن لم تستح من التاريخ فاستحي من الله تعالى، بسلام أمريكا يقتلنا شارون، طائرات الأباتشي الأمريكية التي تقتل إخوتنا في غزّة هي نفسها التي تقتل إخواننا في الفلوجة، الضحية المسلمة، هي الضحية المسلمة، والجلاد هو الجلاد، والسلاح هو السلاح.

أما آن لزعماء العرب أن يعلموا أن الإدارة الأمريكية متصهينة أكثر من الصهيونية! إنني لا أستغرب وقفة بوش الوقحة، لكن المستغرب أن يبقى بوش أمل النظام العربي، إن البوتش امتداد لترومان، وما أدراك ما ترومان! كلب أمريكا الأسبق الذي أجبر الكونغرس الأمريكي على اتخاذ قرار بمنع اليهود من القدوم إلى أمريكا ليجبرهم على الذهاب إلى فلسطين.

هل تعلمون . يا سادة . أن أول دولة اعترفت بالكيان الصهيوني هي أمريكا بقيادة كلبها ترومان، الرؤساء الأمريكيان يتوارثون الحقد الأسود، في دمهم كريات لو حللها أي مخبر في العالم لوجدوها إيجابيا صهيوني حاقد على الإسلام، نعم، لسنا بقدر أمريكا في السلاح، هذا صحيح.

ولكننا - معشر المسلمين - لا نعتمد في الحرب على السلاح ، بل نعتمد على الله، نحن نصرنا بديننا، وإذا ما في دين ما في نصر ، يا أمة محمد إذا ما في دين ما في نصر، الجهاد ابن الطاعة، إذا ما في طاعة لله ما في جهاد، والنصر ليس بالسلاح والعتاد وشوكة الحرب ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ﴾ ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ إن خالق الأسباب يقدر أن ينصر بدون أسباب.

من الناصر؟ من القادر؟ من المنتصر؟ من العزيز؟

من دمشق إلى فلسطين، شعارهم واحد : هبي يا ريح الجنة ، إنه إيمان بدر
وحنين، إنهم فرسان أبناء الحسين.

إن أمريكا لا تعلم أن بقتل الرنتيسي قد أحيت أمة، إذا مات واحد من
حماس فكلنا حماس، كلنا حماس، كلنا حماس، نحن الباقون.

قتلانا في الجنة وقتلناهم في النار ، باقٍ رغم أنف الطغاة، يا رنتيسي أنت
الإمام وشعبك المجاهد الجبار.

يا شارون ﴿ لا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾ .

يا بوش لا تحسبن أن قتل القادة سيضعفنا ، كلما مات منا سيد قام ألف
سيد . يا شارون ستموت، يا شارون ستسحق ، الله أكبر عليك، كبروا على
شارون، الله أكبر قتل شارون، الله أكبر قتل بوش ، الله أكبر سحق طن إيليط، الله
أكبر على كل أمريكي في العراق، الله أكبر دمرها على يهود، الله أكبر سقط البيت
الأبيض.

ياشارون يا حقير.

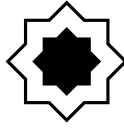
ستدركك المنية في ديارك وتنقل من غناك إلى افتقارك

ودود القبر في عيناك يرعى وعين المسلم ترعى في ديارك

الشهادة هي الشرارة لنار الجهاد، الشهادة ليست عائقاً بل دافعاً لمتابعة
الطريق، لأننا بعنا أنفسنا لله، الدماء التي سالت ستحول إلى بارود تنسف طغيان
أمريكا واليهود، لن يركع شعب ركع لله.

يا شارون يا حقير : نحن أمة الشهداء، وغداً سترى قوافل الشهداء، لن
نضعف بإذن الله، لا والله ، لا وربّ أحمد ياسين، لا وربّ عبد العزيز، لا وربّ
الشهداء، سيبقى الإسلام بين جوانحنا ، ستبقى راية الإسلام عالية خفاقة.

استشهد أحمد ياسين هل مات الإسلام ؟ لا ، قتلوا الرنتيسي هل ذهب
الإسلام، لا، الإسلام يبقى ، بالروح بالدم نفديك يا إسلام، هذا هو شعار الذي
سيجلى عالياً في سماء الدول العربية الإسلامية.
نعاهدكم يا شهداءنا أننا على الدرب ، فيا دماراً لصهيون إن انطلقت قافلة
الشهداء ، ويا فرحة الأقصى إن عاد الدم في الشرايين .
يا أحجار فلسطين كبري الله أكبر، الله أكبر هي في وجه يهود، الله أكبر
حطمي كيانه، الله أكبر ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون ﴾ .



(٢٠١)

الإمام أبو القاسم القشيري

٣٧٦ . ٤٦٥ هـ

أحمدك يا من تقاصر شكري عن أياديه ، وَكَلَّ كُلَّ لِسَانٍ عَنْ مَعَالِيهِ ، وجودك ياسيدي لم يزل فرداً بلا شَبَهٍ ، تعالى عن الوقت ماضيه وآتيه ، لا دهر يُخْلَقُهُ ، لا قهر يلحقه ، لا كشف يظهره ، لا ستر يخفيه ، لا عدَّ يجمعه ، لا ضدَّ يمنعه ، لا حدَّ يقطعه لا قطر يحويه ، لا كون يحصره ، لا عون ينصره ، وليس في الوهم معلوم يضاهيه ، جلالك أزيَّ لا زوال له ، وملكك دائم لا شيء يفنيه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنزل الفرقان هدى وتبياناً ، على صفته سيدنا محمد معجزة وبياناً ، وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله ، وأكرمهم بعلم قصصه ونزله ، ورزقهم الإيمان بحكمه ومتشابهه ، ووعدده ووعيده

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أكرم الأصفياء من عباده ، مَنْ أودعه مِنْ لطائف أسرارهِ وأنواره لاستبصار كتابهِ والكشف عن دقيق إشاراته وخفي رموزه .
اللهم صلّ وسلم وبارك وعظّم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وعترته وأنصاره ، وسلّم تسليماً كثيراً .

أما بعد : معشر الإخوة الكرام

نحن اليوم نحتفل ، احتفالنا اليوم له شكل مختلف عن احتفالاتنا السابقة بزيارة سادات الأمة .

تعظيمنا اليوم لكتاب الله تعالى ، لا على طريقة المفسرين التقليديين ، ولكن على طريقة إمامنا الذي نحتفل به اليوم

إمامنا اليوم يمثل جهة التفسير الإشادي المقبول عند علماء العقيدة والتفسير ،
فإن التفاسير على أقسام : تفاسير اهتمت بالأحكام الفقهيّة والقواعد التبعديّة ،
وتفاسير اهتمت بالعقيدة ، وتفاسير اهتمت باللغة والبلاغة ، وتفاسير اهتمت
بالحديث وأسباب النزول بما يسمى التفسير بالمأثور ، فلما جاء إمامنا نظر إلى
القرآن بنور فتح الله به عليه .

حاول فيه أن يستخدم علمه الصوفي بما عجز المتكلمون عن حله ، ليكشف سرّاً
آخر من أسرار الإعجاز القرآني أبان فيه عن عبقريته في تذوق القرآن .
فهو بعد أن درس العلوم الشرعية بتعمّق وألف في التفسير التقليدي كتاباً قل نظيره
(التيسير في التفسير = التفسير الكبير) نراه يقبل على القرآن ليثبت أن هناك لقاء بين
الشريعة والحقيقة ، وأنهما وجهان لشيء واحد .

نظر إلى المبتدعة والمضلّلين الذين أساءوا إلى التصوف وأهله تحت شعار الثوب
المرقع (والخرقة البالية) فأعلنها عليهم حرباً لا هوادة فيها رآهم يحملون النص
القرآني فوق ما يحتمل من معان .

وابتعدوا عن الخط الأصيل للتفاسير حتى صارت تفاسيرهم جديرة بالدرس في
مجالس الفلسفة . فأتاهم بتفسير ليس فيه عقيدة باطنية مستورة ، ولا مذهب عقلي
خبيء ، بل لقاء كامل بين الشريعة والحقيقة في ظلال كلمات الله .

إن عظمة إمامنا اليوم أنه ردّ على الملحدّين الباطنيين الذين ادعوا أن نصوص
القرآن ليست على ظاهرها ، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية . وبَيَّنْ لهم أن
التفسير المقبول هو ما تحتمله الآية القرآنية ما دام لا يعارض القرآن ، احفظوا هذه
القاعدة . يا شباب . التفسير الصوفي قسمان :

١. تفسير يخالف ظاهر الآية القرآنية ويقول صاحبه : إنه المراد من الآية، كتفسير القرآن للقاشاني .

٢ . وتفسير تحتمله الآية القرآنية ويقول صاحبه إنه تفسير ظني قد يظهر خطؤه في يوم من الأيام .

والمقبول عند العلماء هو التفسير الثاني ما دام لا يعارض القرآن ولا ينافيه ، ومن هنا تكمن عظمة هذا الإمام ، لذلك لقبوه بشيخ المشايخ وأستاذ الجماعة ومقدم الطائفة الصوفية ، بل أجمع أهل عصره على أنه سيد زمانه وقدوة وقته وبركة المسلمين في ذلك العصر .

نحن اليوم مع سيد لم ير مثل نفسه في كمال براعته ، الذي ألف الرسالة القشيرية المشهورة في التصوف ، إنه سيدنا الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري .

ومع الحلقة الخامسة والستين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام الأستاذ أبي القاسم القشيري

رضي الله عنه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد الإمام في إحدى نواحي نيسابور من أبوين عربيين في ربيع الأول سنة ٣٧٦هـ (الموافق ٩٨٦م) ونسبة القشيري إلى القبيلة العربية العدنانية .

نشأ يتيماً ، قدم به إلى نيسابور صغيراً فتعلم الحساب ليشارك في تنظيم الاقتصاد في بلده ، لكن الله تعالى وجهه إلى العلوم الشرعية ، إذ وجد في عصره عمالقة الإسلام وفحول العلماء أمثال ابن فورك و محمد بن أبي بكر الطوسي وأبي إسحق

الاسفراينبي، والإمام البيهقي (أحمد بن الحسين) إذ ظفر القشيري في كنفهم برعاية خاصة ورأوا عنده حسن الاستعداد لحمل الرسالة واستقامة الخلق .

رأوه عندما يستريح الفتيان من الدرس ينكب هو على القراءة والاستذكار ، ولفت نظرهم ولوعه بالعلوم العقلية وبخاصة تلك التي تتناول المسائل التي طالما استبحر الخلاف حولها بين الأشاعرة والمعتزلة ، وهو بالتالي نَمَى هذه الموهبة حين اطلع على كتب إمامنا الباقلاني ، وكان الطلاب يكتبون الدروس وهو لا يكتب ، ويتعجب منه شيخه الإمام أبو إسحاق الإسفراينبي مما دعاه يوماً أن يسأله : يا بني لماذا لا تكتب (كما يكتب الطلبة) أما علمت أن هذا العلم لا يحصل بالسماع ؟ فقال القشيري لشيخه : سألني ما شئت عن أي درس شئت ؟

وهنا امتحنه شيخه وراح يسأله عن الدروس الماضية وصار القشيري يجيبه ويعيد عليه كل ما قرره شيخه من غير إخلال بشيء . فتعجب منه وأكرمه وقال له: ما كنت أدري يا بني: أنك بلغت هذا المحل فلست تحتاج إلى درس . يكفيك أن تطالع مصنفاتي وتنظر في طريقي ، وإن أشكل عليك شيء طالعني به، ففعل ذلك ، وجمع بين طريقة الاسفراينبي وطريقة ابن فورك في علم العقيدة .

أريد أن أريكم . أيها الإخوة . كيف أن الله تعالى إذا أراد بقوم سعادة سخر لهم سعيداً فسعدوا به ، فمع كل مقومات الهمة والنشاط العلمي والدأب الذهني لا بد من الأشياء ، لا بدّ من الأدلاء على طريق الله تعالى ، لا بد من هادٍ يهديني ، وقد منح الله تعالى الإمام القشيري كل مقومات الإمامة في الدين (في الشريعة) وأراد مولانا عز وجل له أن يجعله إماماً في الحقيقة بعد أن صار إماماً في الشريعة ، أن يطلعه الله تعالى على طريق أهل الله ، على مقام الإحسان أو التصوف .

وقد سمعنا من شيخنا الشاغوري رحمه الله تعالى كثيراً (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق) وجهه الله

تعالى يوماً إلى مجلس من لون آخر ، يتصدره شيخ من طراز آخر ، استمع إليه القشيري وهو يعظ على طريقة الصوفية ، ويتحدث في الرياضيات والمجاهدات الروحية والأحوال والكشوفات والأذواق والمواجيد والمعارف العليا ، التي تنال من الحق إلى عباده الذين اصطفاهم ، وإذا بالرجل والحديث يستوليان عليه ويملكان فيه كل ذرة ، سأل : من هذا الشيخ ؟ فقالوا :

. إنه الإمام أبو علي الحسن بن علي الدقاق .

وهنا قال مباشرة : ما خلقت إلا لأخدم هذا الإمام وأتعلم منه هذا العلم .

لاتدع خدمة الأكابر واعلم أن في عشرة الصغار الصغار
وابغ من يمينه لك يمن وترى في اليسار منه اليسار

فكان بعد ذلك يكون أول من يأتي لمجلسه وآخر من ينهض منه . ولحه الشيخ ورأى فيه إصغاءً ولفناً للنظر فقرّبه منه وحباه بعطفه . ثم جاء إليه يوماً وشكى له أنه لا يستطيع أن يجمع بين العلم وبين مجالس الدقاق ، وهو يؤثر أن ينصرف بكلّ همته إلى علم القلوب .

وابتسم الشيخ أبو علي وتطلع إلى وجه الشاب وقال :

. إنما ينبغي لك أن تتقن دراستك بقدر طاقتك.

ليسمع الأفّاكون والخراصون الذين يتهمون الصوفية بأنهم قوم يجانبون العقل ، ويحتقرون العلم ، ويأمرون تلامذتهم بكسر محابرههم (كما يدّعي ابن الجوزي غفر الله له) .

إخوتي في الله : راح الفتى بكلّ همة وعزيمة يجمع بين طريقتي العلم والتصوف ، وأعجب الدقاق بمثابرته واستقامته وتواضعه فاختره لابنته فاطمة ، مؤثراً إياه على سائر أقربائها الذين تقدّموا لخطبتها . وهكذا توثقت الصلة بين الإمام والشاب ،

وصار الإمام الدقاق رائده وملهمه ، وبصره بآفات النفس وأدوائها ، وكشف له عن الكثير من الخفايا والحقائق وبلغه أعلى المراتب .

فهل رأيتُم نعمة الشيخ التي أنعمها الله علي الإمام القشيري ، آواه الله إلى ركن شديد ، فقد وجد في عمه شيخاً ورائداً وصديقاً وناصحاً مما جعله يستوي في شخصيته ويتميز الخط الفكري له بالاستقامة والاعتدال والوضوح والصدق والإخلاص والبذل .

يا سادة : اسمحوا لي أن أبين لكم أثر شيخه الدقاق في حياته كلها ، الإمام الدقاق كان إمام وقته ولسان عصره ، جنيدي الطريقة ، سري الحقيقة ، بارع في الأصول والفقه الشافعي والعربية ، انتهى إليه طريق التصوف في عصره وله كرامات باهرة (ت ٤٠٥ هـ) (الإسنوي ٢٥٣/١) .

انظروا إلى أدب المريد مع شيخه ، يقول القشيري : لم أدخل على الأستاذ أبي علي في وقت بدايتي إلا صائماً ، وكنت أغتسل قبله ، وكنت أحضر إلى باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشاماً من أن أدخل عليه ، فإذا دخلت يصحبني شبه خدر ، ثم إذا قعدت إليه لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة بل هو يتدبرني ويشرح لي ما أريد ، تكرر ذلك منه كثيراً وكنت أفكر في نفسي أنه لو بعث الله عز وجل في وقتي رسولاً إلى الخلق هل يمكنني أن أزيد في حشمته على قلبه فوق ما كان منه رحمه الله ، فكان لا يتصور لي أن ذلك ممكن ولا أذكر أنه خطر ببالي قط أن أعترض عليه إلى أن خرج من الدنيا رحمه الله تعالى .

وبعد وفاة شيخه صارت الأستاذية في الطريق إلى إمامنا أبي القاسم القشيري وعكف على التدريس والتأليف حتى بلغت مؤلفاته خمسة وعشرين مؤلفاً ، وبلغ المتممون إليه آلافاً يجلسون في مجلسه يملئ عليهم كتبه ، يهاجم فيه الفرق الضالة والمعتزلة مما أثار عليه وزيراً للسلطان ، فوشى به وبالأشاعرة إلى السلطان وأخذ منه

أمراً بملاحقتهم ، فضجَّ الناس وهرب إمام الحرمين إلى مكة ، وتوزع باقي الأشاعرة في الأرض وحبس الإمام القشيري ، ثم أخرجه مريدوه من سجنه وغادروا وطنهم وضربوا في الأرض عشر سنين ، حتى هياً الله له الخليفة العباس فأفرد له مجلساً في مسجد قصره ، عظّمه فيه وأقبل بوجوه الناس إليه ، وبدأ يملّي تفسيره الفريد فما الذي دعا الإمام إلى هذا العمل ؟ و لماذا ؟

أولاً : فعل ذلك إثراءً للمكتبة الإسلامية .

وثانياً : حتى لا يأتي بعده أناس يدعون التصوف ليخرجوا القرآن عما يريد الله تعالى ورسوله .

وثالثاً : دعاه إلى ذلك آيات وأحاديث :

أما الآيات فقوله تعالى على موجات سورة النساء (٧٨) : ﴿فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ وقوله تعالى (٨٢) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

فهذه الآيات وأمثالها تشير إلى أن القرآن له لفظ وقصد ، أو قل إن شئت : ظهر وبطن . لأن الله تعالى حين نعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثاً وحضهم على التدبر في آيات القرآن لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون الكلام نفسه ، أو حضّهم على فهم ظاهره ، لأن القوم عرب ، والقرآن لم يخرج عن لغتهم ، فهم يفهمون ظاهره ولا شك ، وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب ، وحضّهم على التدبر ليقفوا على مقصود الله ومراده ، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم .

وبهذا وردت الأحاديث كحديث (الفريابي من رواية الحسن مرسلًا) " لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ولكل حد مطلع " . وحديث (الديلمي من رواية ابن عوف مرفوعاً) : " القرآن تحت العرش ، له ظهر وبطن ، يحاج العباد "

ففي هذين الحديثين تصريح بأن القرآن له ظهر وبطن ، أي لفظ وتأويل ، أو هو ما ظهر من معاني الآية لأهل العلم ، وبطنها ما تضمنه من الأسرار التي اطلع عليها أهل الحقيقة.

لكل حرف حد (أي منتهى فيما أراد الله من معناه) ، ولكل حد مطلع أي لكل غامض من المعاني والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به .

إنّ إمامنا القشيري . أيها السادة . وجد في تفسيره تأييداً من مواقف الصحب الكرام ، لأنّ حبر الأمة سيدنا ابن العباس (كما هو عن ابن أبي حاتم) كان يقول : " إن القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون ... " .
وكان سيدنا أبو الدرداء يقول : " لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوهاً "

ونظر القشيري فرأى حديثاً في البخاري فيه يسأل سيدنا عمر الصحابة جميعاً عما يقولون في قوله تعالى ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ فسألهم فقالوا : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وهنا يجد ابن عباس يقول مفاجئاً الصحابة إلا سيدنا عمر : بل هو أجل رسول الله أعلمه الله إياه . إذا جاء نصر الله والفتح (وذلك علامة أجلك) فسبح بحمد ربك واستغفره . فقال سيدنا عمر : ما أعلم من الآية إلا ما تقول .

يا شباب : انتبهوا هذا الحديث أصل هام في فعل إمامنا القشيري ، لأن سيدنا عمر وابن العباس فهموا الآية فهماً من وراء المعنى الظاهر ، وهو المعنى الباطن الذي تدل عليه السورة بطريقة الإشارة . والأدلة كثيرة في هذا المعنى .

فسر الإمام القرآن كله تفسيراً إشارياً وفوجئ بعد أن قام الإمام بعمل تفسيره الإشاري العظيم (لطائف الإشارات) . بمرض ولده مرضاً شديداً ، فجمعوا له الأطباء حتى يأسوا من شفائه ، ولكن إيماننا لم ييأس من روح الله فرأى في منامه الحق جل جلاله فشكى إليه فقال له مولانا عز وجل : اجمع آيات الشفاء وقرأها عليه واكتبها في إناء واجعل فيها مشروباً واسقه إياه ، ففعل الإمام ذلك فعوفي الولد بإذن الله تعالى .

وآيات الشفاء ست : ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ (التوبة ١٤) ﴿وشفاء لما في الصدور﴾ (يونس ٥٥) ﴿فيه شفاء للناس﴾ (النحل ٦٩) ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ (الإسراء ٨٢) ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ (الشعراء ٨٠) ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ (فصلت ٤٤) أيها الأحبة والصحب : أراد الله أن يعزّ إيماننا أكثر وأكثر ، فدعاه إلى بيته الحرام في عام حج فيه عدد كبير من الأئمة والقضاة قيل بلغوا ٤٠٠ ، اجتمعوا في مؤتمر عظيم ليتدارسوا وضع نيسابور الذي سيطر عليها ذلك الوزير الخبيث ، فأجمعوا جميعاً أن لا يتكلم في المجلس إلا الإمام أبو القاسم القشيري ، فصعد المنبر ، وظلّ يتكلم ، وهم يجدون لكلامه وقعاً مؤثراً في قلوبهم وعقولهم حتى قال واصفه : لو قرع الصخر بسوط تحذيره لذاب ، ولو ربط إبليس في مجلسه لتاب . ثم نظر الإمام نحو المشرق ملياً وساد صمت لحظات وكأنه ينظر إلى حدث جلل ثم قبض لحيته وصاح بصوت عال :

. يا أهل خراسان بلادكم بلادكم ، إن الوزير الكندي غريمكم يقطع الآن إرباً إرباً ، وإني أشاهده الساعة وقد تمزقت أعضاؤه .

يقول الإمام السبكي في طبقاته : فضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه قد أمر السلطان بأن يقطع الوزير الخبيث إرباً إرباً وأن يرسل عضو منه إلى كل مكان . وهلل الناس وكبروا لهذه الكرامة ، وعادوا بعد الحج مع الإمام إلى مواطنهم ، وبقي القشيري ينشر كتباً تنصر العقيدة الأشعرية . وقربه السلطان ألب أرسلان و وزيره نظام الملك ، وغدا الوزير الجديد أحد تلامذته والمقربين إليه ، ومن أعزّ الإسلام أعزّه الله .

أيها السادة : بقي الإمام لآخر لحظة لا تفوته ركعة قائماً رغم مرضه الذي جعله يرحل إلى الله تعالى عام ٤٦٥ هـ حيث دفن بجوار شيخه الدقاق ، ومن شدة حزن أولاده العبادلة الستة عليه لم يمس أحد كتبه حزناً عليه ولا دخلوا غرفته إلا بعد سنين احتراماً وتعظيماً له .

وكان للإمام فرس يركبها فلما مات امتنعت من العلف ولم تطعم شيئاً ولم تمكن راكباً من ركوبها ومكثت أياماً بعده على هذه الحال حتى ماتت حزناً عليه . وإذا مات أهل العلم وأهل التقوى والأولياء فعلى الدنيا السلام .

المصادر :

- تاريخ بغداد ٩ / ٦٤
- شذرات الذهب ٥ / ٢٧٥
- الطبقات الكبرى للسبكي ٥ / ١٥٣
- وفيات الأعيان ٣ / ٢٠٥
- الكمال لابن الأثير ١٠ / ٣١
- البداية والنهاية ١٢ / ١٠٧
- النجوم الزاهرة ٥ / ٩١
- لطائف الإشارات للقشيري . المقدمة .

(٢٠٢)

جابر بن حيان

١٢٠. ٢٠٠ هـ

الحمد لله الذي قصَّ لنا من آياته عجبا ، وأفادنا بتوفيقه إرشاداً وأدبا ، وأرسل
فيها رسولاً كريماً نجبا ، أطلعه على الحقائق ففاق أخاً وأبا ، وعُرضت عليه الجبال
ذهبا فأعرض عنها ونأى وأبى ، وأكرم الأمة الإسلامية بطوائف العلماء على
حسب أنواع العلم فله الفضل علينا وجبا .

أحمدته سبحانه وتعالى وأشكره ، وأتوب إليه وأستغفره ، حمداً أرغم به أنف من
جحد وأبى ، وأبْلُغ من فضله الواسع رشداً وأرباً .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون للنجاة سببا .
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المجتبي ، أشرف البرية حسبا ، وأطهرهم
نسبا .

اللهم صل وسلم وبارك وعظم وأنعم وتفضل على هذا النبي الكريم و السيد
السند الرؤوف الرحيم سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله السادة النجبا ، وأصحابه
الذين سادوا الخليفة عجباً وعربا ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

من هو الذي وضع دعائم علم الكيمياء وأسسها ؟

من هو الذي حوّل بعض المعادن إلى معادن أخرى ؟

من هو الذي استطاع أن يسلب الخواص من العناصر والمركبات وأعطاها خاصية
جديدة إليها ، من هو هذا العالم الذي ركب العناصر ببعض وحلل بعضها من

بعض ؟

من هو هذا الطبيب الكيميائي العربي الذي فعل ذلك ؟ وكان أول من اشتغل بالكيمياء القديمة ، وتعتبر كتبه التي بلغت فوق المئة كتاب من أهم ما كتب في عصره ويعتبر المدافع الأول عن نظرية تحويل المعادن إلى ذهب ، وترجمت كتبه إلى اللاتينية ثم الإنكليزية ؟؟

نحن اليوم في زيارة متميزة للعالم الكيميائي العبقري الفذ جابر بن حيان .
ومع الحلقة السادسة والستين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام جابر بن حيان رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : سكن والد الإمام حيان الكوفة يبيع فيها أنواع الطيب والعطور ، أثناء اهتمامه بالشؤون السياسية وأمور الحكم ، وهو لا يفتأ يجاهر بعدائه للأسرة الأموية وسخطه عليهم ويحرض الناس على الأمويين ، حتى وصل في تجوله أثناء جمعه للزهور إلى مدينة طوس الخرسانية ، وفي طوس وضعت زوجته مولودها جابراً سنة عشرين ومئة (١٢٠ هـ) .

لكن يد الأمويين استطاعت أن تقبض عليه وتضعه في السجن وتحكم عليه بالإعدام فنشأ الفتى يتيماً وساقه الله تعالى نحو العلم والتعليم ، حتى وقعت يده على رسائل تركها عالم وأمير من أمراء الأسرة الأموية هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .
وكان خالد هذا أعرض عن السياسة ونأى بنفسه عن ميدان الخصومة والتنافس بين أفراد بني أمية وصرف جلّ اهتمامه إلى العلم والفلسفة ، ولا سيما الكيمياء وكتب بها رسائل وكتباً وجمع مكتبة عظيمة (ت ٨٥ هـ)

إخوتي في الله :

لازم جابر التأمل والتدبر لهذه الرسائل فأولع بها ، وحين انتقلت الخلافة إلى بني العباس سنة (١٣٢ هـ) رجع جابر إلى الكوفة حيث التقى بالإمام جعفر الصادق ولزمه ، ويبدو أن القوم حوله لم يهتموا بهذا العلم الذي تخصص به جابر فألف كتاباً يشمل على ألف ورقة في الكيمياء (خمسمئة رسالة) ونسبها للإمام جعفر الصادق كي تلقى رواجاً عند مرديه .

وبسبب احتكاكه بالإمام جعفر الصادق لاقى احتراماً في الأوساط ، وحين أنشأ أبو جعفر المنصور مدينة بغداد وسمّاها مدينة السلام ، وراحت وفود العلماء ورجال الفكر تنتقل إليها وغدت صرحاً حضارياً كبيراً في العالم الإسلامي كان جابر من بين هؤلاء الذين أمّوا عاصمة الخلافة ، وحين تسلم هارون الرشيد سدة الخلافة قرّب إليه البرامكة حتى تبوأ زعيمهم يحيى البرمكي وولده المكانة العليا ، إذ أن الفضل بن يحيى صار القائد الأعلى للعسكر والجند الذين بلغوا نصف مليون رجل ، كان منهم في بغداد وحدها عشرون ألف رجل ، وانعقدت بين أسرة البرامكة وجابر بن حيان صلة وثيقة ومودة حميمة . والبرامكة . يا سادّة . سموا في عهد الرشيد إلى سماء العزّ، وكتب في تاريخهم قصص كآلف ليلة وليلة ، فقد حازوا الدنيا وبذلوها ، وجمعوا الكنوز وفرّقوها ، وجادوا بالملايين على الشعراء ، لكنهم تركوا الأمانة ، أمانة السهر على الأمة وأقبلوا على الملذات ، وناموا عن أداء الواجب .

واحتل سيدهم يحيى بن خالد البرمكي الخطوة الأولى عند الرشيد ، وولاه وزارته وكان والده من الرضاة بل ولّاه ما هو أكبر من الوزارة : نيابة الخلافة ، وقال له : أنت أجلسني هذا المجلس ببركتك وحسن تدبيرك وقد قلدتك أمر الرعية ، ودفع إليه خاتمه . ولهذا قال الشاعر (إبراهيم الموصلي) :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي الندى فهارون واليها ويحيى وزيرها

ودامت دولة البرامكة سبع عشرة سنة ، كان خلالها جابر بن حيان على صلة وثيقة بهم وخاصة بجعفر بن يحيى البرمكي وزادها قوة ومحبة أن ابنة يحيى البرمكي وزير الدولة أصابها مرض شديد أدى إلى ضعفها وتدهور صحتها ، وكان يحيى ولعاً بها أشد الولع لأنها أثيرة لديه مستولية على قلبه ، فسأل جابراً علاجاً لها فنصحه أن يصب عليها الماء البارد ويسقيها بعض المسكنات ، ولكن حالتها لم تتحسن فألح يحيى في البحث عن علاج لابنته فطلب جابر أن يراها ليصل إلى معرفة ما بها ، وراح يدرس حالتها وهي مشفية على الموت ، فهداه الله إلى وصف دواء مركب من عدة مواد طبية فشربته الجارية على أيام ، وإذا بها تستعيد صحتها وتسترد نضارتها مما بعث الفرح في قلب يحيى وراح يقبل يد هذا العالم الطيب ، وأقام له مجلساً يعلم فيه الكيمياء والطب .

أيها الأحبة والصحب :

تأتي مكانة هذا الإمام أنه صنع للمشتغلين بهذا العلم منهجاً واضحاً ودستوراً بيناً استعانت به أوروبا واعتمدت عليه ، يقول أحد من أرخ للحركة الكيميائية: لجابر في الكيمياء ما لأرسطو طاليس قبله في المنطق ، وهو أول من استخرج حامض الكبريتيك وسمّاه زيت الزاج ، وأول من اكتشف الصودا الكاوية ، وأول من استحضر ماء الذهب " .

وقال (لوبون) : " تتألف من كتب جابر موسوعة علمية تحتوي على خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره ، وقد اشتملت كتبه على بيان مركبات كيميائية كانت مجهولة قبله ، وهو أول من وصف أعمال التقطير والتبلور والتذويب والتحويل " .

هذه شهادات علماء أوربا ، فهل صدقوا في ذلك ؟

تعالوا بنا . **معشر السادة** . لنر المنهج التربوي الذي اتبعه الإمام جابر في تدريسه الكيمياء ، فهو أولاً : نبه كل من يريد أن يصبح كيميائياً أن يعين الغرض من التجربة ، وثانياً : أن يتجنب ما هو مستحيل وعقيم ، وثالثاً : أن يعتني باختيار الزمن الملائم والفصل المناسب لإجراء التجربة العلمية ، وأن يكون محل إجرائها في مكان معزول واشترط على الباحث شرطين : الصبر والكتمان ، وعلمه أن الإخفاق مرة ومرتين وثلاثاً لا يعني التوقف واليأس .

أيها السادة : لهذا المنهج الفريد نرى الطلاب يزدحمون على باب الإمام جابر ، وخرج مرة إليهم ووجه إليهم نصيحة تربوية عظيمة جلييلة لا يعرف قدرها إلا العالمون ، فاسمحوا لي أن انتقل بحضراتكم إلى هناك ، إلى بغداد فرج الله عنها ، حاضرة الخلافة العباسية ، ها هو يقول لطلابه : (قبل أن تدخلوا أريد أن أمتحنكم أولاً لأرى مدى قبولكم لهذا العلم) :

" فأول ما يجب على الأستاذ : أن يمتحن قريحة المتعلم ومقدار ما فيه من قبول ، وقدرته على حفظ ما تعلمه ، فإذا وجد الأستاذ من تلميذه قبولاً أخذ يسقيه أوائل العلوم التي تتناسب مع قدرته على القبول ، وتتناسب مع سنّه وخبرته ، ولم يزل يلقيه العلم أولاً بأول ، كلما احتمل الزيادة زاده ، مع امتحانه فيما كان قد تعلمه ، وإن وجده ينسى وتخبل في حفظه أنقص المقدار وعاتبه على ذلك عتاباً كالإيماء من غير إمعان في التصريح " .

هذه منهجية العلماء في تربية الطلبة ، وهي نصيحة غالية على المربين الانتباه إليها .

معاشر المسلمين : تدفق إنتاج الإمام وتلاحقت تجاربه وبقي يتردد على الإمام جعفر الصادق (ت ١٤٨ هـ) حتى طلب الإمام جعفر منه أوراقاً مقاومة للحرارة والاحتراق لينسخ عليها أحد كتبه القيمة ، فقام جابر يجري تجاربه على أنواع الورق حتى توصل إلى خليطة يصنع منها الورق المطلوب فنسخ عليها الكتاب المذكور ، وأقبل على أستاذه الصادق وقد تحلّق حوله المريّدون ، وحمل كتاب أستاذه وقال له: هذا هو الكتاب النفيس يا سيدي سيقى زماناً طويلاً لا تخاف عليه تلفاً ولا حرقاً وأخذ الكتاب وقذف به في نار المدفأة وهو يتنسم ، فهبّت التلامذة لإنقاذ الكتاب، وكم كانت دهشتهم عظيمة حينما خمدت النار والكتاب على حاله لم يصب بأي أذى أو ضرر .

أيها السادة : أصبح الإمام جابر إمام علم الكيمياء في عصره حتى نكب البرامكة نكبة عظيمة ، إذ أن الرشيد وجدهم قد خانوا الأمانة واهتموا بملذاتهم وتركوا سياسة الدولة فانقلب عليهم سنة ١٨٧ هـ وقرر التخلص من نفوذهم ، فلاحقهم وشتت شملهم وقتل معظمهم . يقول المؤرخ ابن خلدون : (إنما نكبت البرامكة لما كان من استبدادهم على الدولة واحتجاجهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه " .

فوجئ جابر بن حيان بأصدقائه قد مزقوا شر ممزق وجرت في الشوارع دماؤهم غزيرة تملأ الفجاج فهرب من البلاد وقطع السهول والوهاد ينتظر أن تنام عنه عيون الخليفة ، وأن تهدأ الثورة بعد طول اشتعال ، وفي ذلك يقول ابن النديم : (إن جابر بن حيان دفعه إلى التنقل في البلدان لا يستقرّ به بلد خوف من السلطان على نفسه . (

أيها السادة : لكن جابراً لم يتوقف عطاؤه فقد كان عصر المأمون عليه برداً وسلاماً وبلغت مؤلفاته مئتين واثنين وثلاثين مؤلفاً ، وغداً واحداً من أشهر اللامعين في تاريخ العلوم عند العرب والمسلمين حتى وافته منيته عام / ٢٠٠ هـ/ وهو في مدينة طوس ، بعد أن ترك ذكراً لا يمحوه الزمان هنا أو هناك ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله

المصادر :

جابر بن حيان سلسلة أعلام العرب

الموسوعة الميسرة ١/ ٥٩٠

فوات الوفيات ١/ ٢٧٥

الأعلام للزركلي ٢/ ١٠٣

تاريخ ابن خلدون

فهرست ابن النديم

(٢٠٣)

الإمام عدي بن مسافر

٤٦٧ . ٥٥٧ هـ

الحمد لمن اصطفى لدينه خلاصة العالمين ، وهدى من أحبه للتفقه في الدين ،
حمداً نسلك به منهج العارفين ، ومنح به دخول رياض الشاكرين .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة الموقنين .

وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله بهجة الموحدين ، الحاوي لجميع فضائل
المرسلين من نبه العقول لتحرير تنقيح أحكام الدين البحر المحيط القدوة العظمى في
الدين ، وكل الأولياء والأقطاب والأبدال منحهم الله أسرار الإيمان وأنوار الإحسان
واليقين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه هداة الأمة
والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

هل سمعتم بسيد على قدم سيدنا موسى ؟ إذا ذكر اسمه على الأسد جمد ، و إذا
ذكر على موج البحر سكن ؟ هل سمعتم بسيد شيوخه كلهم أولياء بل أقطاب ؟ ومن
كثرة كراماته وأحواله جاوز حسن اعتقاد الناس فيه الحد ، ومن كثرة فضائله كني بأبي
الفضائل .

أزور مع حضرته اليوم قطباً من أقطاب الرجال ، وعلماً من أعلام التصوف لا
يشق له غبار ، نحن اليوم ندخل إلى العراق رغماً عن الأمريكان الذين سيذلهم الله أكثر
وأكثر ببركة أهل الله هناك ، وخاصة من نحن بزيارته ووقع الاتفاق على ولايته .

نحن اليوم مع قطب المشايخ وبركة الوقت سيدنا عدي بن مسافر (ابن إسماعيل الشامي من ذرية مروان بن الحكم) . ومع الحلقة السابعة والستين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربضوا عن الإمام عدي بن مسافر .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه .

إخوة الإيمان : كان والد إمامنا من الزهاد الصوفيين، ساح في بلاد الله ثلاثين سنة، لا يفتّر لسانه عن الذكر ، مع التحري الشديد بأكل الحلال . وبينما هو نائم ذات ليلة إذ رأى قائلاً يقول :

- يا شيخ مسافر امض إلى أهلك من هذه الليلة وواقع زوجتك فإنها تحمل منك بذكر يكون له ذكر وشأن .

فتوجه إلى بلده وأتى داره ، وطرق الباب على زوجه يستأذنها بالدخول ، وكان قد غاب عنها سنين متطولة فقالت :

- إن أرت أن تجتمع بي هذه الليلة فاطلع على هذا الكوم وناد : يا أهل البلد أنا مسافر قد أتيت إلى أهلي .

فقال لها : ولأي شيء أفعل ذلك .

قالت : لأنك تجتمع بي هذه الليلة وتمضي إلى سبيلك فأحمل منك ، فيقول أهل البلد: زوجك له ثلاثون سنة غائباً فمن أين لك هذا الحمل .

ففعل ما أمرته زوجته فلما حملت منه وكمل له سبعة أشهر جنيناً مرّ به شيخان من العارفين بالله شيخ وتلميذه وهما الشيخ مسلمة بن نعمة السروجي ، وتلميذه عقيل المنبجي ، فقال الشيخ لتلميذه : . سلم بنا على ولي الله تعالى .

فقال الشيخ عقيل : وأين ولي الله ؟

فقال : إن هذه المرأة حامل بعدي بن مسافر الولي . فنظر إلى المرأة وإذا نور صاعد عليها ، فسلما على النور ومضيا في حال سبيلهما .

فلما ولد الإمام سنة ٤٦٧ هـ في منطقة البقاع من بعلبك ، وبعد سبع سنين من ذلك اليوم مرَّ الشيخان مسلمة وعقيل على ذلك المكان فرأى الشيخ مسلمة سيدنا عدياً وهو يلعب مع الصبيان لعبة الحرب ، فقال الشيخ مسلمة : تعرف هذا الغلام ؟ فقال له : من هو ؟ قال : عدي بن مسافر فسلما عليه فرد عليهما السلام مرتين ، فقال له مسلمة : سلمنا عليك مرة واحدة فرددت علينا مرتين لأي شيء هذا ؟ قال له : المرة الثانية عوضاً عن سلامكما علي وأنا في بطن أمي .

إخوتي في الله :

نشأ سيدنا عدي طالباً للعلم من الدرجة الأولى فقرأ الفقه الشافعي وتمكن من ناصيته، وسلك مع العلم طريق المجاهدات هذب نفسه وأدبها على كثير من المشايخ علماء الصوفية ، التقى بعمالقة الإسلام في الطريق إلى الله تعالى ، أمثال سيدنا حماد الدباس شيخ سيدنا عبد القادر الجيلاني ، والشيخ عقيل المنبجي وسيدنا عبد القادر الجيلاني وسيدنا عبد القاهر السهروردي (ت ٥٦٣ هـ وهو عم سيدنا عمر السهروردي) وكانت مجاهداته تتعذر على كثير من أقرانه إذا ساخ في جبال الموصل من العراق صائماً زاهداً ، وبنى لنفسه هناك زاوية يتعبد فيها ويذكر الله تعالى فيها مع أهل تلك النواحي الذين مالوا إليه لما رأوا من صلاحه وتقواه وعلمه ، وكراماته حتى لم يسمع لأرباب الزاوية مثله ، وشهد له سيدنا عبد القادر الجيلاني بالسلطنة على الأولياء ، فقال :

" لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لناها عدي "

ولم تكن نبوة مكتسبة	ولو رقى في الخير أعلى عقبه
بل ذلك فضل الله يؤتيه لمن	يشاء جل الله واهب المنن

وتبعه خلق كثير على طريقته ، وصارت طريقته تسمى بالطريقة العدوية واعتقده جميع الأديان، يأتون إليه من أصقاع الأرض يتبركون به ويطلبون منه الدعاء .

جاء إليه مرة ثلاثة نصارى وثلاثة يهود فعرض عليهم الإسلام فامتنعوا ، فوضع في فم كل واحد لقمة من لبن فأسلموا وقالوا لما خالط اللبن جسمهم :نسخ منا ما كان غير الإسلام ، فقال سيدنا عدي : . وعزة المعبود ما أسلمتم حتى أسلمت شياطينكم على يدي وإني استوهبتكم من الله تعالى .

ومرَّ برجل يحمل فاكهة فقال له : بعني هذه الفاكهة . فقال : ولم ؟ قال : لأنها تقول لي : أنقذني من هذا الرجل فإنه قد اشتراني ليشرب عليَّ الخمر . فأغمي على الرجل وسقط على وجهه ، فلما أفاق تاب على يديه .

أيها الأحبة والصحب : الكرامة ثابتة في القرآن والسنة ، فمن الكرامات التي حدثنا عنها مولانا عزّ وجل ما حدث لسيدتنا مريم من ولادة سيدنا عيسى من غير أب ، وما حدث لعرش بلقيس حين جاء به وزير سليمان بطرفة عين من اليمن إلى فلسطين .

والكرامة تعني إعطاء ملكة التصرف في الأشياء للأولياء بإذن الله تعالى ، فيبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله ويحيي الموتى بإذن الله ، إذا توجه إلى شيء أعطاه ، يقول عزّ من قائل في الحديث القدسي (خ) : "ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه" تطوى لهم الأرض ، ويسمعون عن بعد ، ويشاهدون ما خفي عن الأعين بإذن الله تعالى .

باختصار : الأولياء خلفاء الأنبياء ، خرج الإمام مع أحد مريديه فمرا بجوار مقبرة فالتفت إليه وقال : . يا رجاء (اسم مریده) أما تسمع صاحب ذلك القبر يستغيث ، فنظر وإذا بدخان ساطع قد خرج من القبر ، فمشى الإمام ووقف على القبر وما زال

يسأل الله تعالى أن يعفو عنه حتى انقطع الدخان ، ثم التفت إليه وقال: يا رجاء قد غفر الله لهذا وارتفع عنه العذاب ، ثم ناداه بالكردى: أنت طيب. قال: نعم طيب ورفع الله عني العذاب .

معاشر المسلمين : وأرى جماعةً من أصحاب العمام والصالحين يأتون من أطراف الأرض ليزوروا الإمام عدياً رضي الله عنه ، فهلّموا نتبارك معهم بهذا الإمام وندخل الموصل معهم فرج الله عن أهلها ، ها نحن ندخل على الإمام (فترضوا عنه) ، ها هو يجلس مع مريديه يتحاورون في كرامات الأولياء ودرجاتهم ، ومما قاله : كل شيخ لا يعلم مريده كم يقلب في الليل ما هو بشيخ ولو أنه في مشرق الأرض أو مغربها ليبصر مريده هل هو على حلال أم حرام.

فقال بعض الجالسين نريد منك أن ترينا من كرامات القوم فقال الإمام: نحن فقراء. فقالوا : لابد من ذلك . فقال لهم : إن الله رجالاً يقولون لهذه الأشجار اسجدي لله تعالى فتسجد . فإذا بالأشجار التي أشار إليها الإمام سجدت لله ، وهي الآن لا تنبت شجرة إلا وهي منحنية إلى جهة زاوية الإمام .

لا تستغربوا - يا إخوة . فالكرامة أمر لا يدخل تحت نطاق العقل ، أمر خارق للعادة يجريه الله على يد الولي تكريماً له وتعظيماً قال له رجل من الصالحين اشتهر بالسياحة في الأرض (وهو يعقوب بن عبد المقتدر): يا سيدي أنا أطوف في الصحراء والقفار في سياحتي، وأرى من السباع ما لا يحصى، وأخاف أن يصلوا إلي بأذى . فقال له الإمام عدي :

. إذا رأيت سبعاً تخافه فقل : يقول لك عدي بن مسافر اذهب ودعني ، وإذا رأيت هول البحر فقل : أيتها الأمواج المتلاطمة يقول لك عدي بن مسافر اسكني. وما قال ذلك إلا لكرامته على الله تعالى ، وما وصل الشيخ إلى ما وصل إليه إلا بكثرة الذكر ، يذكر الله بحضور قلب ، وهناك أناس يقولون لك : أنا لا أذكر الله

لأنني لا أشعر بخشوع في الذكر ، وهذا غلط ، لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك فيه فلعلَّ الله تعالى أن ينقلك من ذكر بلا حضور إلى ذكر بحضور قلب .

قضية الذكر كان يؤكد عليها في مجالسه ، ويبين لمريديه فضل الذكر ، وأن كل شيء في هذا الكون يذكر الله ويسبحه ، بل أخذ يصف لهم ديكاً يؤذن في أوقات الصلاة تحت العرش . فقال رجل يقال له أبو حفص : أرجوك يا سيدي أن تسمعي صوت الديك . فلما حان الظهر قال له الشيخ : أدن مني وضع أذنك على أذني فسمع صوت الديك بالأذان فأغمي عليه .

هذا غيظ من فيض من كرامات الإمام ، ولو أني حدثكم بكراماته الأخرى فلن تصدق عقولكم ولكن العلماء جميعاً قرروا أن ما كان معجزة لنبي جاز أن تكون كرامة لولي ، يجوز للأولياء من الكرامات بعدد معجزات الأولياء ، وكل ولي على قدم نبي ، وهذا ليس غريباً عنهم فإنهم مستجابو الدعوة ، ولقد أكد مولانا هذا الكلام في القرآن فقال : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ ، فلا تستغربوا ولا تتعجبوا ، فالله قادر على كل شيء .

أيها الإخوة :

بقي الإمام في زاويته متعبداً زاهداً ذاكراً حتى رحل إلى الله سنة ٥٨٥ هـ ودفن بزاويته وقبره هناك هناك ، فمن أراد أن يجتمع به هناك فليبق هنا هناوما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ ، الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله .

المصادر :

١. شذرات الذهب ٦ / ٣٠٠
٢. الأعلام للزركلي ٤ / ٢٢١
٣. وفيات الأعيان ٣ / ٢٥٤
- ٤ - جامع كرامات الأولياء ٢ / ٢٩٥

(٢٠٤)

علي بن عبد الله بن العباس

٤٠ - ١١٧ هـ

الحمد لله الذي أظهر بهجة دينه القويم ، وهدى من وفقه إلى صراط مستقيم .
أحمد سبحانه وتعالى وأشكره على ما أنعم وعلم ، وسدد إلى الصواب وقوم .
وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد القهار ، الكريم الحليم الستار .
وأشهد أن سينا محمداً عبده ورسوله وصفيه حبيبه وخليله .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى إخوانه من النبيين ، وعلى آل
كلِّ وسائر الصالحين . وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً .
أما بعد فيا معشر الإخوة الكرام :

ما هو العلم الذي يهدف إلى تهذيب النفس وترقيق القلب وتنمية المراقبة الذاتية لله
تعالى؟

ما هو الفن الذي يجعل صاحبه منصرفاً إلى مرضاة الله تعالى وإخلاص النية والبعد عن
الرياء والمعاصي وارتكاب المناهي ؟

ما هي الشخصية التي توجب على صاحبها أن يجمع بين الفقه وعلوم الشريعة وبين
السلوك والتربية والصلة بالله تعالى ؟

أستطيع أن أقول بكل فخر واعتزاز إنه التصوف أو الزهد أو الورع أو الطريقة ،
سماه ما شئت فهو من الإسلام فلا مشاحة في الاصطلاح .

نعم هذا المصطلح أو هذا العلم لم يعرف في القرن الأول ، ولكن الصحابة والتابعين
ضربوا فيه بنصيب وافر ، فلم يتَّسَمَ عصر الصحابة بتسمية علم سوى أنهم أصحاب
سيدنا رسول الله ﷺ إذ لا أفضلية فوقها ، فأطلق عليهم :الصحابة . ولما أدرك أهل
العصر الثاني سمي من صحب الصحابة بالتابعين ، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب

فقيل لخواص الناس من لهم شدة وعناية بأمر الدين : الزهاد والعباد ، ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهاداً فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة : الصوفية (من التصوف) واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المئتين من الهجرة ، وأول من سمي بالصوفي أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة (١٥٠ هـ) .

وقد جمع سيدنا أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه الزهد من الصحابة والتابعين وتابعيهم ما شاء الله تعالى .

وكان الزهد . أيها السادة . هو البذرة الأولى للتصوف ، ويعدّ الإمام الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) من أهم رواد التصوف ، وأقدم كتاب للزهد وجد لأهل السنة والجماعة كتاب لسيدنا عبد الله بن المبارك (١٨١ هـ) ثم للإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) ثم للكلاباذي (محمد بن إسحق الحنفي ت ٣٨٠ هـ) وهو كتاب التعرف لمذهب التصوف ، ثم قوت القلوب لأبي طالب المكي (محمد بن علي ت ٣٨٦ هـ) ثم تجمعت هذه الأقوال في كتاب واحد يعد موسوعة للتصوف هو كتاب حلية الأولياء للمحدث أبي نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠ هـ) .

فالتصوف . أيها الإخوة . عرف به جهابذة الرجال ، وقد ذكرت لكم من أعلامهم في القرن الثاني محمد بن سيرين (ت ١١٠ هـ) وابن المبارك ، والفضيل بن عياض ومعروفاً الكرخي (٢٠٠ هـ) وبشراً الحافي (٢٢٧ هـ) ونحن اليوم مع سيد شريف آخر ضرب المثل في العبادة لمن بعده ، وأعرض عن الدنيا حتى تراكمت عليه الديون مع شرفه وولايته وعراقة نسبه ، إننا مع الفتى الهاشمي سيدنا علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم جد الخلفاء من بني العباس .

ومع الحلقة الثامنة والستين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن سيدنا علي بن عبد الله بن العباس

رضي الله عنهم وأرضاهم وأرضانا معهم

إخوة الإيمان : ولد سيدنا علي بن عبد الله في خلافة سيدنا علي بن أبي طالب سنة ٤٠ هـ في ليلة جمعة سابع عشر من شهر رمضان ، وكان سيدنا عبد الله بن العباس يحرص أشد الحرص على أن يصلي خلف أمير المؤمنين سيدنا علي وحين صلى الظهر مرة افتقده ، فقال : ما بال أبي العباس لم يحضر الظهر ، فقالوا : . ولد له مولود يا أمير المؤمنين .

. فقال : امضوا بنا إليه . فأثاه فهناه وقال :

- شكرت الواهب وبورك لك في الموهوب . ما سميت به ؟ فقال : أو يجوز لي أن أسميه حتى تسميه؟ فأمر به فأخرج إليه فأخذه وحنكه سيدنا علي ودعا له ثم رده إليه وقال: قد سميت به علياً وكنيته أبا الحسن .

يقول الراوي يا سادة يا كرام : فما كان مساءً حتى استشهد سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

إخوتي في الله : كان سيدنا علي بن عبد الله أصغر ولد أبيه ، ونشأ أجمل قرشي على وجه الأرض وأوسمه وأكثرهم عبادة وصلابة ، وكان يدعى السجاد لكثرة صلواته ، وله بستان فيه خمسمئة شجرة زيتون يصلي في كل يوم إلى كل شجرة ركعتين ، حتى قيل له وعي ذي الثغفات (أي أنه صار في ركبتيه مثل ثفن البعير) .

حضر دروس والده ، وشبَّ آدم جسيماً ، مفرطاً في الطول ، وله لحية طويلة ، إذا طاف كأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله ، وكان مع هذا الطول يكون إلى

منكب أبيه سيدنا عبد الله العباس ، وكان سيدنا عبد الله إلى منكب أبيه العباس ،
وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب .

شهد للإمام علي بن عبد الله بالولاية والتقدم في الفضل أهل عصره وبلغ من
احترام الناس له وتوقيره أن أهل الحجاز كان إذا قدم إليهم حاجاً أو معتمراً عطلت
قريش مجالسها في المسجد الحرام ، وهجرت مواضع حلقها ولزمت مجلسه إعظاماً
وإجلالاً وتبجيلاً له ، فإن قعد قعدوا ، وإن نهض نهضوا ، وإن مشى مشوا جميعاً
حوله ولا يزالون كذلك حتى يخرج من الحرم (كانوا يعظمونه أكثر من الخليفة لأنه من
آل بيت النبوة ومن العلماء والأولياء) كان لا يرى لقرشي في المسجد الحرام مجلس
علم حتى يخرج سيدنا علي بن عبد الله من الحرم (رضي الله عنه)
وفد سيدنا علي على عبد الملك بن مروان فأكرمه وأجلسه على سريرته وسأله عن
كنيته فأخبره : أبو الحسن علي بن عبد الله .

قال : فكره عبد الملك أن يسمع اسم سيدنا علي وكنيته
فقال : لا يجتمع في عسكري هذا الاسم وهذه الكنية لأحد .
فسأله : هل لك ولد ؟

قال : وكان ولد له يومئذ (محمد) فأخبره بذلك فكناه : أبا محمد .
وكان لعبد الملك زوجة من بني هاشم تدعى لبابة بنت سيدنا عبد الله بن جعفر
الطيبار ، فعرض تفاحاً ثم رمى بها إليها (وكان أبخر : رائحة فمه كريهة) فدعت
بسكين فقال : ما تصنعين بها فقالت : أميط عنها الأذى فطلقها . يقول الراوي يا
سادة يا كرام : فتزوجها بعد ذلك سيدنا علي بن عبد الله بن العباس ، وكذلك تزوج
زوجة مروان بن الحكم (أم خالد بن يزيد بن معاوية) بعد أن طلقها
مروان ، حتى قيل : إنما يتزوج بأمهات الخلفاء . واغتاز عبد الملك من تزوج سيدنا علي
بمطلقة ، وكان سيدنا علي بن عبد الله أقرع ، وكانت لا تفارقه قلنسوته ، فبعث عبد

الملك جارية وهو جالس مع لبابة فكشفت رأسه على غفلة لترى ما به .فقال لبابة للجارية : " هاشمي أقرع أحبُّ إلي من أموي أبخر " أيها الأحبة والصحب :

لما كان عهد الوليد بن عبد الملك اغتاز الوليد من الإمام علي مما فعل من تزوجه بزوجة أبيه فلما قدم عليه أمر به فضرب بالسياط و أخرجه إلى أطراف الشام (الأردن)، عاش فيها هو وأولاده وفيها ولد السفاح والمنصور وبها تربيا ومنها انتقلا إلى الكوفة .

لكن الإمام علي بن عبد الله كشف الله له الحجب بما وصل إليه من مرتبة الولاية العليا، أن حفيداً من أحفاده سيفتح الله بهما دولة بني العباس ، فاسمحو لي أن أعرض على مسامعكم هذا المشهد وأنتقل بكم إلى مكان قريب من هنا ، إلى جوار الجامع الأموي حيث قدم سيدنا علي بن عبد الله بن العباس دمشق (فرحبوا به وترضوا عنه) ، دخل إلى القصر الأموي معزراً مكرمأ ، وأدخل على الخليفة هشام ابن عبد الملك ومعه ابنا ابنه السفاح والمنصور (ابنا محمد بن علي) ، فقام له وأوسع له سريره وبزّه وسأله حاجته فقال له : ثلاثون ألف درهم علي دين ، وتستوصي بابني هذين خيراً لأنهما سيملكان الأرض من بعدي .فقضى له حاجته فشكره وولى . ثم التفت هشام لأصحابه فقال : . إن هذا الشيخ قد اختلّ وأسنّ وخلط فصار يقول : إن هذا الأمر (الخلافة) سينتقل إلى ولده .

فسمعه سيدنا علي على الباب فقال :والله ليكون ذلك وليملكنّ هذان .

يقول الراوي يا سادة يا كرام : توفي الإمام علي سنة ١١٧هـ وكان أول خليفة تولى من بني العباس بعد أن قُضي على بني أمية : السفاح في الكوفة ، ولم يزل المُلْكُ في عقبه ، وولد له نيف وعشرون ولداً ذكراً .وتحققت كرامة الإمام علي بن عبد الله

هناك ، كما تحققت كرامة الأولياء هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد
صلى الله عليه وسلم ، الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :
الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله

المصادر :

صفة الصفوة لابن الجوزي / ٤٥٧

تهذيب التهذيب لابن حجر ٣٥٧/٧

شذرات الذهب لابن العماد ١ / ١٤٨

سير أعلام النبلاء للذهبي

حلية الأولياء ٣ / ٢٠٧

وفيات الأعيان ٣ / ٢٧٤

مقدمة الرسالة القشيرية

مقدمة طبقات الصوفية للسلمي

(٢٠٥)

الإمام علي السبكي/١

٦٨٣ - ٧٥٦ هـ

الحمد لله الرحمن الرحيم ، الذي ما برحت عواطف رحمته على العباد تعود ،
الرازق لمن في قعور البحار ومهامه القفار ومن في المهود ، الغني الكريم فكل أحد
مفتقر إليه وهو جم العطايا واسع الجود ، الذي أطلع من آفاق التوفيق لعلماء الأمة
نجوم السعود ، وجلّى عرائس الوجود في مرآة الشهود ، فمن فهم عظمة هؤلاء الرجال
بلغ المقصود .

أحمد سبحانه وتعالى على فواضل نعمه وهو بكل لسان على كل حال مسبح
معبود .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس له ند ولا ضد ولا شبيه وليس
كمثله شيء في وجوب الوجود .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب المقام المحمود ، وسيد الوجود
والبركة العامة لكل مخلوق موجود .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الموفين بالعقود
وسلم تسليماً

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

هذا سيد لا يكفي للحديث عنه خطبة أو خطبتان لأن له في كل مظهر من
مظاهر الحياة في الشام أثراً ، وفي كل ناحية من نواحي الفكر عملاً ، ولأنه باعث
نخضة ، وكان معلم جيل .

هَلَّتْ أنواره من مصر حتى ملأت دنيا العرب سبق زمانه في كل فن ، مع ورع
ودين وسلوكٍ سبيل الأقدمين ، شيخ الإسلام حالاً وعلماً ، شافعي الزمان ، وحجة
الإسلام وأحد الأئمة المجتهدين الكرام :

وكان من العلوم بحيث يقضى له من كل علم بالجميع

إذا دعا اخترقت دعواته السبع الطباق مع يدين بالكرم مبسوطتين ، لا يقاس إلا
بحاتم ولا ينشد إلا (على قدر أهل العزم تأتي العزائم) يقطع ليله تسبيحاً وقرآناً وقياماً
لا يفارقه أحياناً ﴿فاعتبروا يا أولي الأنصار﴾ اليوم أثبت لكم من خلال هذا الإمام
كم هو تأثير الوالدين على تربية الأبناء . وأن صلاح الآباء يمتد بالتربية الصالحة إلى
صلاح الأبناء .

وما دان الفتى بحجا ولكن يعوّده التدين أقربوه

فقد كان والده قاضياً وعلى جانب عظيم من العلم ، يستغرق غالب ليله وجميع
نهاره ، وربما لا تصدّقون ولكنها الحقيقة .

هذا الإمام الوالد ما زال يصحبه إلى مجالسه ويورده موارد العلماء والمحدّثين
والمفسرين والنحاة والأصوليين والأدباء حتى غدا صدرّاً من صدورهم ، وبرز في طلب
العلم حتى أسكت لسان كل متكلم ، وأمات ذكر كل متقدم ، وأحيا الله به إمامة
الشافعي بنشر مذهبه .

وحين تولى قضاء الشام حكم بسيرة العمرين في الإنصاف ، ثم ولاه نائب الشام
دار الحديث باستحقاق وقد عادت به الشام معمورة الأندية باهرة العلماء حتى قيل
فيه : شيخ الإسلام ، وجه الأمة باتفاق :

يا سعد هذا الشافعي الذي بلغه الله تعالى رضاه
يكفيه يوم الحشر أن عُذَّ في أصحابه السبكي قاضي القضاة

هذا هو الإمام السبكي الذي جاءكم اليوم زائراً إننا مع فخر العلماء، وحجة المذهب، ومفتي الطرق وقدوة الحفاظ، وآخر المجتهدين، وقاضي القضاة سيدنا تقي الدين علي السبكي (ابن عبد الكافي) الأنصاري الخزرجي ومع الحلقة التاسعة والستين من سلسلة الشخصيات الإسلامية أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام علي السبكي رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه .

إخوة الإيمان: ولد سيدنا علي السبكي سنة ثلاث وثمانين وستمئة هجرية ، وسلك من صغره نشأة الشباب المؤمن ، فحفظ القرآن وقرأه على القراءات وبلغ فيه مبلغاً عظيماً حتى قيل : إنه فاق أبا عمرو الداني والسخاوي ، وقرأ العلوم بطريقة لم نسمعها عن أحد ، يخرج من صلاة الصبح فيشتعل على الشيوخ إلى أن يعود قريب الظهر ، فيأكل طعامه ثم يعود إلى الاشتغال إلى المغرب فيأكل شيئاً حلواً لطيفاً ثم يشتغل بالليل، فما أن بلغ خمس عشر سنة حتى زوجه والده بابنة عمه وألزمها ألا تحدث ولده بشيء من شؤون الدنيا ، بل هو يتولى شأنهما فكان يشتغل في النهار ولا يراها إلا بالليل .

ماذا تتوقعون من رجل هذا شأنه أن يجمع من العلوم خلال حياته الغضة الطرية ؟ اسمعوا الأجل والأعجب : لم يكتف والده بذلك ، بل أدخله إلى القاهرة ، وفيها وفي عصره سادات الأمة ، منهم ابن الرفعة (أحمد بن محمد بن علي (٦٤٥ - ٧١٤ هـ) فقيه زمانه في المذهب الشافعي ، وفيها الإمام النظار علاء الدين الباجي الشافعي (علي بن محمد ٦٣١ - ٧١٤ هـ) والحافظ المحدث أبو محمد الدمياطي (عبد المؤمن بن خلف ٦١٣ - ٧٠٥ هـ) إمام أهل الحديث وفارسه .

فما زال والده يقرئه العلوم عليهم مع التفسير والقراءات والفرائض والنحو مع جملة من علوم التصوف على يد إمام عصره سيدنا ابن عطاء الله السكندري المحدث الملهم بالحكم ، مازال به ينتقل من عالم إلى عالم ومن مقرئ إلى مقرئ ، ومن محدث إلى

محدث ، حتى غدا إماماً عظيماً وتربع على عرش الولاية وأصبح مرجع العلماء
والسلاطين ، ووصفه المؤرخون بأنه بحر زاخر لا تنفى درره ، لو رآه

الشافعي لقال فرحاً به : يا مزني ما هذا المزن الطيب :

علامة العلماء والبحر الذي لا ينتهي ولكل بحر ساحله

كل هذا العلم مع العبادة ودين ، كان إذا أهلَّ شهر رجب لا يخرج من بيته ثلاثة
أشهر : رجب وشعبان ورمضان يتعبد فيها لا يخرج إلا لصلاة الجمعة ، وأكثر نومه
بالنهار ، وأكثر ليله تلاوة وذكر وقيام وتهجد ، إذا جلس جلس تالياً ذاكراً ينزه
نفسه، عن الغيبة حتى إن أحد أعدائه مات فأظهر عليه التأسف والتألم ، فسئل : لم
هذا وهو كان يظلمك ؟ فقال : لعلي كرهته بقلبي في وقت لحظ دنيوي .

إخوتي في الله : ولما أراد الله تعالى أن يبارك الشام بخطا هذا الإمام وصلاحه وتقواه
شاء أن يموت قاضي الشام القاضي جلال الدين القزويني ، فاستدعى الملك الناصر
محمد بن قلاوون سيدنا السبكي وطلب منه أن يولييه القضاء على الشام فأبى فما زال
السلطان به إلى أن ألزمه إياها ، فقدم دمشق فرحبوا به وترضوا عنه
(رضي الله عنه) .

سار تقي الدين السبكي بأهل الشام بالحق والعدل ، وجلس للتحديث أيضاً
بمدرسة الكلاسة وهناك تتلمذ على يديه إمامان من أعظم الأئمة في الحديث
والمصطلح وعلم الرجال :

أما الأول : فرجل من منطقة المزة هو الحافظ أبو الحجاج المزني (يوسف بن عبد
الرحمن القضاعي ٦٥٤ - ٧٤٢ هـ) صاحب كتاب تهذيب الكمال .

وأما الثاني : فالإمام الذهبي حافظ زمانه (محمد بن أحمد ٦٧٣ - ٧٤٨ هـ) .

وهنا في دمشق الشام تولى الإمام تقي الدين علي السبكي مع القضاء والتحديث
خطابة الجامع الأموي وباشرها مدة لطيفة حتى قال فيه الإمام الذهبي :

. ما صعد هذا المنبر بعد العز بن عبد السلام أعظم منه :

ليهن المنبر الأموي لما علاه الحاكم البحر التقى
شيوخ العصر أحفظهم جميعاً وأخطبهم وأقضاهم علي

أيها الأحبة و الصحب :

وكما يفعل الله بالأخيار يعجلهم إليه توفي الإمام الحافظ المزي شيخ دار الحديث الأشرافية بدمشق فقام إمامنا قاضي القضاة سيدنا السبكي بترشيح الإمام شمس الدين الذهبي لها، وسعى العلماء لابن النقيب ليتولاها ، وتكلموا في حق الذهبي بأن ليس بأشعري العقيدة، وأن المزي ما وليها إذ وليها إلا بعد أن كتب بخطه وأشهد على نفسه بأنه أشعري العقيدة، وازداد الخلاف بين العلماء، فجمع ملك الأمراء الأمير علاء الدين نائب الشام إذ ذاك العلماء، فلما استشار الإمام السبكي أشار عليه بالذهبي، فصاح الشافعية والحنفية والمالكية معترضين وتوقفوا فيه أجمعون، وكان بين الحاضرين شيخ الحنفية الإمام نجم الدين الفخفاري، فتوجه إليه الإمام السبكي فقال: ما تقولون يا إمام. فقال الإمام الحنفي: وإليكم دار الحديث تساق. فضح الناس استحساناً لهذا الرأي، وهنا قال ملك الأمراء: أعلم الناس اليوم بهذا العلم قاضي القضاة السبكي والذهبي، وقاضي القضاة أشعري قطعاً، وقطع الشك باليقين أولى".

وهكذا تولى الإمام تقي الدين السبكي قاضي القضاة مدرسة دار الحديث في العصرية اليوم وقام أمام هذا الجمع من العلماء والمحدثين والأمراء والفقهاء يعتلي منصة شيخ دار الحديث ، قاض مرَّ عليه زمن طويل لم يتحدث فيه في علم رجال الحديث وقف يريد أن يثبت مهارته وجدارته أمام علماء عصره ، منهم إمام رجال الحديث وشيخهم محمد الذهبي ، فاسمحو لي . معشر الإخوة . أن أتقل بكم إلى هناك لأشهد معكم هذا المشهد الفريد وهذا الدرس العظيم ، فإلى هناك إلى سوق العصرية أدخل معكم دار الحديث المكتظة بأصناف العلماء والقضاة :

ها هو يبدأ درسه برواية سنده من طريق البخاري ومسلم إلى أن وصل إلى سيدنا أنس ثم إلى سيدنا رسول الله أنه كان في البقيع فنادى رجل : يا أبا القاسم فالتفت إليه النبي ﷺ فقال الرجل: لم أعنك يا رسول الله إنما دعوت فلاناً . وهنا قال ﷺ : " تسموا باسمي ولا تكونوا بكنيتي " قال لنا الشيخ الإمام الوالد تغمده الله برحمته : هذا حديث صحيح متفق عليه .

وقد اختلف العلماء في التكني بأبي القاسم ، والمختار عندي امتناعه مطلقاً لمن اسمه محمد ولغيره في زمانه ﷺ وبعده لإطلاق النهي ، وليس للتخصيص أو التقييد دليل قوي ، وقد تكنى جماعة من العلماء به كأهم رأوا تقييد النهي (بزمنه ﷺ) وذلك عذر لهم منهم الرافعي وأقرانه ، وعندني تحرج إذا ذكرتهم أن أذكر هذه الكنية ... وسار الإمام علي السبكي يقرر هذه المسألة على المذهب حتى أشبعها بحثاً ، واعتذر عمن كنّى بهذا اللقب أنه لا يُعرف إلا به ، وكان يتكلم في مجلسه على رجال الحديث ومخرجه إلى أن بهت الحاضرون لعلمهم أن الشيخ الإمام من سنين كثيرة لم ينظر في أسماء الرجال حتى قال الذهبي : " والله كنت أعلم أنه فوق ذلك ولكن ما خطر لي أنه مع الترك والاشتغال بالقضاء يُحْضَر من غير تهئية ويُسند هذا الإسناد "

أيها الإخوة: سمح الإمام السبكي للحاضرين بسؤالين فقام الأول فسأل : عن الدليل على تقبيل المصحف فقال : دليله القياس على تقبيل الحجر الأسود ، ويد العالم والوالد والصالح ، ومن المعلوم أن المصحف أفضل منهم .

فقام آخر فسأل عن الصوفي الحق . فقال الإمام : الصوفي من لزم الصدق مع الحق . والخُلُق مع الخُلُق ، طريق الصوفي إذا صحت هي طريقة الرشاد التي كان السلف عليها ، ثم أنشد بديهة :

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا	قدماً وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى	صافي فصوفي حتى لقب الصوفي

هذا هو العلم وهؤلاء هم العلماء ، فكيف تعامل هذا الإمام مع قضايا عصره ، أعلق هذا السؤال لأجيب عليه في الجمعة القادمة إن شاء الله تعالى مع وقفة أخيرة مع الإمام علي السبكي وأعود بكم من هناك إلى هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله

(٢٠٦)

الإمام علي السبكي ٢/

٦٨٣. ٧٥٦ هـ

الحمد لله الذي شرح قلوب أوليائه بعرفانه ، وأوضح لهم نهج الحق بلائح برهانه لمن أراد طريقه ، وأنار البصيرة لمن ابتغى تحقيقه، والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بمابه يكرمهم، فهم به عنه ناطقون ، وعن لطائف كتابه مخبرون وإليه يشيرون .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنزل الفرقان هدى وتبياناً على صفيه سيدنا محمد ﷺ معجزة له وبياناً ، وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله ، وأكرمهم بعلم قصصه ونزله ، رزقهم الإيمان بحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه ووعدده ووعدده .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليفه شهادة له بكمال نبوته ، وعموم رسالته وتخصيص عبوديته

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وعترته وذريته وأهل بيته ، ورضي الله عن جميع أصحابه وتابعيهم أبداً بإحسان من أمته وأهل ملته ، وسلم تسليماً

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

وقفت معكم في الأسبوع الماضي على القمة الشماء التي وصل إليها إمام الأئمة سيدنا تقي الدين علي السبكي ، وكيف أصبح رأس علماء عصره ، ومن كثرة المصنفات التي ألفها (وعددها مئتان) والمناصب التي تولّاها والعلوم التي درسها وصنف فيها جعلته يغدو أحد المجتهدين واليوم أجيب عن السؤال الذي علّقته معكم الجمعة الماضية وهو :

كيف تعامل الإمام مع قضايا عصره ؟

إن أول عمل قام به بعد توليه دار الحديث أن نظر في المكتبة حوله فوجد كتاب المجموع للإمام النووي قد توقف في تأليفه عند باب الربا ، فأملى على تلامذته بقية الكتاب إلى باب التفليس في خمسة مجلدات ، تصوروا يا إخوة أن الإمام كان يحفظ المذهب الشافعي ، وشهد تلامذته أنه كان يستحضر نصوص الإمام الشافعي وأقواله ، وكأنه يحفظ كتاب الأم له ، ومختصر الإمام المزني ، أو كأنه ينظر إلى كتاب التعليقة لأبي حامد الإسفرايني في الفقه والقاضي حسين وغيرهم من قدماء أصحاب المذهب . حتى قال عنه ابن تيمية : (رأيت شيخاً يتقاطر فقه الشافعية من لحيته) وحتى ظن شيخه ابن الرفعة أن الإمام السبكي يدرس فقط المذهب الشافعي ، وكان لشدة احترامه له يعامله معاملة الأقران ويبالغ في تعظيمه ، ويعرض عليه ما صنفه في كتابه المطلب (أي شرح الوسيط ٤٠ مجلداً ولم يكمله) وإذا بابن الرفعة يدخل مرة إلى مجلس المحدث أبي محمد الدمياطي فوجد الإمام السبكي بين يديه (قلت لكم كان يظن لعظمة السبكي في الفقه أنه لا يعرف سواه) فقال : محدث أيضاً؟! فقال : الدمياطي لابن الرفعة : كيف قلت ؟ قال : قلت للسبكي : محدث أيضاً؟! قال : بل قل إمام المحدثين فقال ابن الرفعة : وإمام الفقهاء أيضاً ، فبلغت هذه الكلمة شيخه الباجي فقال : وإمام الأصوليين .

وصارت العلماء تقول : الناس يقولون : ما جاء بعد الغزالي مثله ، وعندنا أنهم يظلمونه بهذا ما هو عندنا إلا مثل سفيان الثوري .

إننا معشر السادة . مع الحلقة السبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عنه الإمام علي السبكي رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : في خضم حياة الإمام العلمية يفاجأ العالم الإسلامي بعدة فتاوى وصلت إلى الإمام السبكي نشرها ابن تيمية الذي كان في الشام في عصر إمامنا .

١. أن الطلاق الثلاث يعدّ واحدة

٢. ثم زاد الطين بلة فأفتى بحرمة شد الرحال لزيارة النبي ﷺ إلى المدينة مدعياً أنه يؤدي إلى الشرك وأن من خالف هذه العقيدة فقد كفر .

فانبرى له الإمام السبكي يردّ عليه بشدة ، مبيناً أنه خرج بفتواه تلك عن إجماع المسلمين وخالف أهل السنة والجماعة وكفّر سادات الأمة المحمدية وكتب كتاباً بذلك سَمّاه : شفاء السقام في زيارة خير الأنام ، وضح فيه أن ما تخيله ابن تيمية من منع الزيارة والسفر إلى النبي محافظة على التوحيد تخيل باطل ، لأن المؤدي إلى الشرك هو اتخاذ القبور مساجد والعكوف عليها والسجود إليها ، بخلاف الزيارة والسلام والدعاء . وأما قوله ﷺ : " لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد .. " فمعناه لا تشد الرحال إلى مسجد في الدنيا لأجل تعظيمه والصلاة فيه إلا إلى هذه الثلاثة ، وهذا التقدير لا بد منه ، ولو لم يكن هذا التقدير هكذا لا يقتضي منع شدّ الرحال إلى الحج والجهاد والهجرة من دار الكفر ولطلب العلم والتجارة ، ولا يقول بذلك أحد .

إخوتي في الله :

أستطيع أن أقول إنّ شخصية الإمام من الشخصيات المميزة في سماء الإسلام ، وأصبح يهابه الخاص والعام ، ولم يخف في الله لومة لائم ، حتى إن أحد نواب السلطان تكلم في عزله عن أحد مناصبه ، أتعرفون عندما علم الإمام بذلك ماذا فعل ؟ قام بالليل يصلي ركعتين وينادي ربّ العزة والجلال أن يتولى هذا النائب تعلموا إذا وقعتم في ضائقة ما تفعلون ، انظروا مدى المكانة التي وصل إليها الإمام عند الله ؟! ما إن طلع الفجر في تلك الليلة حتى نودي : إلا إن النائب فلان قد مات .

مات ، لا تلجؤوا إلا إلى الله ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ .وحين عين نائب جديد للسلطان في دمشق وقف يناقشه في قضية تهم أمر المسلمين ، والنائب يريد أن يرتكب مخالفة شرعية ، فاحتمد معه بالنقاش فقام الإمام السبكي قاضي القضاة وأمسك بتلابيب النائب وقال له : . يا أمير أنا أموت وأنت تموت .
فقال له : . يا قاضي كم نائباً رأيت ؟ فقال : كذا وكذا نائباً .

فقال : ما يزعجك إلا أنا ؟! فقال الإمام : سوف تبصر .
وقام الإمام على عادته كل ليلة يطرق باب الله تعالى ، لكن هذه المرة صعد إلى سطح داره بعد أن أوتر واستمر واقفاً مكشوف الرأس مطرقاً ساكناً لا يتكلم قائماً على رجله إلى أن طلع الفجر ، ثم نزل فصلى الصبح بوضوء العشاء وقال لأهل بيته وهو نازل : انقضى أمر نائب السلطان فلان فلا يتكلمن أحد .

أتدرون ماذا فعل الله بذلك النائب الذي كان يسمى أراغون يريد هتك هناك حجاب الشريعة عامداً متعمداً متحدياً شرع الله . سلط الله عليه رجلاً تلك الليلة وذبحه ذبح النعاج ، ووصل الخبر إلى ولد الإمام تاج الدين ، فأسرع إلى والده تقي الدين وهو في التهجد ، وكان يتلو القرآن يريد أن ييشره ويفرح بما حدث للنائب، فتح الباب لولده وقال له مباشرة :

. يا تاج الدين لا تظهر الشماتة في أخيك فيعافيه الله ويبتليك .
هكذا كانت أخلاق الإمام ، وهكذا كانت حاله في توجهه إلى الله تعالى ، وكان أحياناً (عندما يريد حاجة من الله تعالى) يكتب بخطه إلى الله تعالى رُقعة ويعلقها على خشبة في السطح، وربما أنزلها بعد أيام وكان ذلك علامة استجابة الدعاء .

أيها الأحبة والصحب :

بقي الإمام علي السبكي معلماً ومدرساً ومفتياً وقاضياً وأمرأً بالمعروف وناهياً عن المنكر حتى وافاه مرض أقعده عن أداء وظائفه ، ودخل عليه ولده الإمام تاج الدين فقال له :

. يا بني إياك ثم إياك أن تطلب القضاء بقلبك فضلاً عن قلبك ، ولكن أنا أطلبه لك .
لعلمي بالمصلحة في ولايتك لك ولقومك وللناس ، وأما أنت فاحذر لئلا يكللك الله إليه على ما قال ﷺ : " يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة " وهنا رفع الإمام علي السبكي يديه وقال : اللهم أريد ثلاثاً :

١. ولاية ابني هذا موضعي .

٢. ورؤية ولدي أحمد (المسافر)

٣. وموتني بمصر .

أتعرفون - أيها الإخوة - لتحقيق هذه الأمنية ماذا فعل الإمام ، وإلى أين ذهب الإمام تقي الدين السبكي قاضي القضاة والمحدث (عفواً شيخ دار الحديث) وأحد المجتهدين ... الخ ذهب إلى قبر أحد الأولياء في مقبرة باب الصغير هو سيدنا حماد الدباس شيخ سيدنا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهما ، جلس عند قبره منفرداً وقال له : ياسيدي الشيخ لي ثلاثة أولاد ، أحدهم قد راح إلى الله ، والآخر في الحجاز ولا أدري حاله ، والثالث هنا وهو تاج الدين وأشتهي أن موضعي يكون له . وإذا برجل يأتي الإمام السبكي في اليوم التالي ويقول له الولي فلان يسلم عليك ويقول لك كيف تتركه وتذهب إلى حماد ، ومع ذلك الشيخ حماد يقول لك (انقضت حاجتك بإذن الله تعالى والتي هي كيت وكيت وكيت) .

كان للشيخ الإمام اعتقاد كبير بالأولياء، وكان إذا كره شيئاً أو اعترض عليه أحد ضد الشرع يذهب إلى قبر سيدنا حماد الدباس ثم بعد زيارته يقول : أشهد أنني من

ساعة زرت قبر الشيخ حماد عرفت استجابة دعائي، وهكذا الدعاء مستجاب عند قبور الأولياء .

أيها السادة: صدقوا أو لا تصدقوا إن الله استجاب للإمام علي السبكي دعواته التي دعاها على قبر الولي سيدنا حماد ، تولى ولده تاج الدين عبد الوهاب (٧٢٧هـ - ٧٧١هـ) القضاء مكانه وجهزوه وهو مريض للسفر إلى مصر وقبل السفر حضر ختم القرآن الكريم في الجامع الأموي وحضرت معه القضاة وأعيان البلد لتوديعه وهو جالس في محراب الصحابة وأنشد المنشدون :

قليل ملوح المصطفى الخط بالذهب وأن ينهض الأشراف عند سماعه
فحصلت لسيدنا السبكي حالة مع رسول الله ﷺ فقام واقفاً للحال وقام الناس جميعاً ، وحصلت ساعة لم يشهد العلماء مثلها بعده .

ثم سافر الإمام إلى مصر واستمر عليلاً حتى وافته منيته ليلة الاثنين سنة ٧٥٦هـ ست وخمسين وسبعمائة ، وخرجت جنازته التي أجمع من شاهدها أنه لم ينقل بعد جنازة الإمام أحمد بن حنبل في كثرة اجتماع الناس مثلما حضر جنازته .

رحل إلى الله تعالى بعد أن ترك أكثر من مئتي مؤلف قال عنها الإمام السيوطي :
حقها أن تكتب بماء الذهب ، ونقل ولده تاج الدين عبد الوهاب الذي غدا فقيهاً شافعيًا مجتهداً أصولياً مؤرخاً أديباً قاضي القضاة أن والده رؤي في المنام بعد ليلتين من وفاته فقيل ما فعل الله بك ؟ فقال :

. فتحت لي أبواب الجنة وقال لي : ادخل ، فقلت : وعزتك لا أدخل حتى يدخل كل من حضر الصلاة عليّ . فقولوا جميعاً : اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والإمام علي السبكي :

أي طود من الشريعة مالا
 أي ظل قد قلّصته المنايا
 أي بحر كم فاق بالعلم حتى
 أي حير مضى وقد كان بحراً
 أي شمس قد كورت في ضريح
 مات قاضي القضاة من كان يرقى
 قد تقضى قاضي القضاة تقي الد

زعزعت ركنه المنون فزالا
 حتى أعيأ على الملوك انتقالا
 كان منه بحر البسيطة آلا
 خاض للواردين عذبا زلالا
 ثم أبقيت بدرأ يضى وهلالا
 رتب الاجتهاد حالاً فحالا
 ين سبحان من يزيل الجبالا

(صلاح الدين الصفدي)

المصادر :

مرجع العلوم الإسلامية محمد الزحيلي . دار المعرفة
 شفاء السقام في زيارة خير الأنام للسبكي
 تحرير المسالك شرح عمدة السالك عبد العزيز الخطيب الحسني
 رسم المفتي على المذهب الشافعي عبد العزيز الخطيب الحسني

(٢٠٧)

الإمام عقيل المنبجي /

٤٥٠ . ٥٥٥ هـ

الحمد لله الذي تحيرت في بحار عظمته قلوب العارفين ، وتنزهت في بستان وصله نفوس العابدين ، وطاشت بنسيم أنسه صدور العاقلين ، وتلاشت بكشف قدسه أرواح المحبين.

سبحانه وتعالى لم يزل سمياً بصيراً فتبارك الله أحسن الخالقين .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أتخذها حجة وابتغي بها جنة وحريراً.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله بين يدي الساعة شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين .

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

عجبت فيما مضى يوم تحدثت عن الإمام عدي بن مسافر أحد أولياء الأمة وذكرت بعض كراماته كيف أن بعض الإخوة خطر له أن هذه الغيبات لا تحصل للأولياء بل للأنبياء .

ومن هو الذي قال للأخ المعترض إنه يمكن للأنبياء أن يعلموا الغيب بدون إعلام

الله لهم ؟!

علينا أن نعرف أن العلم علمان : علم تفرّد الله تعالى به ، وعلم أعلمه لأتبيائه ورسله وأوليائه وملائكته ، إذا علمنا هذا عرفنا أن الأنبياء ومن على قدمهم لا يطلق عليهم أنهم يعلمون الغيب ، إذ لصفة لهم يقتدرون بها على الاستقلال بعلم الغيب ، هذا أولاً .

وثانياً : هم ما علّموا وإنما علّموا . هم ما علموا غيباً مطلقاً ، ولكن علموا غيباً شاركهم فيه الملائكة الكرام

وثالثاً : على الأخ المعترض أن يعلم أن إعلام الله تعالى للأنبياء والأولياء ببعض الغيوب أمر ممكن لا يستلزم محالاً بوجه ، فإنكار وقوعه عناد ، ومن البدهة أنه لا يؤدي إلى مشاركتهم له تعالى فيما تفرّد به من العلم الذي تمدّح به واتصف به جل جلاله وهذا هو بالضبط معنى الآية القرآنية على موجات سورة النحل (٥٦) :

﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ أتعرفون ماذا قال الإمام النووي رضي الله عنه في فتاويه في تفسير هذه الآية ؟ قال : "معناها لا يعلم ذلك استقلالاً وعلم إحاطة بكلّ المعلومات إلا الله ، وأما المعجزات والكرامات فبإعلام الله لهم علّمت ، هل لاحظتم مدى عظمة هذا الكلام : وأما المعجزات والكرامات فبإعلام الله لهم علّمت .

ولذلك يقول الإمام النبهاني في كتابه العظيم شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ﷺ (ص ٢٧٩) يقول : "أما علم الغيب فهو مختصّ بالله تعالى بالأصالة ، وقد يُطلع جل جلاله على غيبه من يشاء من عباده ، كما قال ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ (الجن ٢٦).

وهذا الإمام القرطبي رضي الله عنه يقول : معنى هذه الآية : لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يظهره ما يشاء من غيبه، لأن الرسل مؤيدون

بالمعجزات ، ومنها الإخبار عن بعض المغيبات كما ورد في التنزيل : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ (آل عمران ٤٩) .

ثم يبين لنا الإمام ابن حجر الهيثمي في فتاويه (٣١٠) : أن علم هؤلاء القوم (يعني الصوفية) لا يحصل بمحبة الدنيا ولا ينكشف إلا بمجانبة الهوى ، ولا يدرس إلا في مدرسة التقوى ، قال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ ﴾ (البقرة ٢٨٢) .

رجال لهم علم بما جهل الورى	لهم صار مكشوفاً فانمحي حجابُهُ
فأسرار غيب عندهم علمُ كشفها	وقد سكرُوا مما يطيب شرابُهُ
أولئك هم أهل الولاية نالهم	من الله فضلُهُ وتوابعه
ملوك على التحقيق ليس لغيرهم	من الملك إلا اسمه وعقابُه

ونحن اليوم . إخواني . مع أحد العارفين بالله بل سيدهم في عصره ، بركة الإسلام، انتهت إليه تربية الشيوخ ، هو من بلادنا الشامية وأكابر مشايخها وعظماء العارفين ، صاحب الكرامات الظاهرة والأفعال الخارقة ، لُقّب بالطيار ، لأنه كان ينتقل بين البلاد طائراً بلا طيارة ، طار في الهواء والناس ينظرون إليه حتى حط في منبج ، فجاء إليه الناس أفواجا ، فأعطى العهود وأقام في خدمة الملك المعبود.

إننا مع سيدنا عقيل بن أحمد بن عمر المنبجي يصل نسبه إلى سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

ومع الحلقة الواحدة والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام عقيل المنبجي .

رضي الله عنه أرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد سيدنا عقيل في بلدة البطائح في أرض العراق بين واسط والبصرة سنة ٤٥٠ هـ وتلقته يد الشيخ عبد الرحمن مسلمة السروجي (ت ٤٦٦ هـ) أحد العارفين بالله في عصره ، وهذا الشيخ انتهت إليه تربية الشيوخ في العراق . أخذ الفتى ونشأه علمياً ولقنه الذكر وأشرف على تعليمه وكان في بداية أمره تأخذه الأحوال من الذكر فيأتي شيخه فيخبره فيقول له : لا تلتفت إلى شيء من الأحوال وعليك بالعلم والعمل ، طريقنا هذا جد الجد .

فبقي الشيخ عقيل المنبجي سنوات قاربت الستة عشر عاماً يدرس ويعمل حتى أصبح عالماً من العلماء الأفذاذ الربانيين ، واستأذن شيخه مرة لزيارة أمه برأً بمافأذن له وقال :

. يا عقيل سيحدث لك في الطريق أمر عجيب فاثبت له ولا تجزع .

فودع شيخه وسار إلى أمه ، وفي الطريق سمع صوتاً من جهة السماء فرفع رأسه وإذا بنور ساطع مثل السلسلة تداخل بعضها في بعض ، فالتفت عن يمينه فأحسَّ برودتها كالثلج البارد في ظهره ، فلم يجزع بل تثبت الله تعالى قلبه .

وحين رجع إلى شيخه أخبره بما جرى فضمه إلى صدره وقال: يا عقيل الآن تمت عليك النعمة ، أتعلم ما هذه السلسلة؟ قال :لا قال :هذه سلسلة الطريق وسنة رسول الله ﷺ ، فالذي يلزمك يا ولدي تربية الفقراء والمريدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .والآن قد وهبتك (أي أجزتكَ) فخذ هذه السبحة وهذا التاج وهذا الدلق (ثوب) وهذه العكاز وهذه السجادة (هذا ما يسمى بالخرقة الصوفية)وسر إلى حيث ما أردت ، يا عقيل ! الوصية في طريقك ، لأنه طريق السنة والجماعة ولا تجعل فيه رخصة ولا بدعة ...

وهكذا غادر سيدنا عقيل العراق بعد أن دعا له شيخه مسلمة ، وسار إلى هنا، إلى حران في الغوطة حيث بطل آخر من أبطال الأمة هو شيخ الشيوخ سيدنا حياة

بن قيس الحراني (ت ٥٨١ هـ) أحد الأولياء بدرجة سيدنا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهما ، فلما رآه استقبله ورحب به وهنأه بالخلافة ، وكان طيلة إقامته عنده سبع سنين يأمره بالأذان والذكر معهم ، لا يفارقه في كل صباح ، حتى أذن له بالرحيل إلى الخلوة والعزلة في رؤوس الجبال .

والعزلة . يأسادة . وردت السنة في فضلها والندب إليها وحرض عليها جميع الشيوخ والسالكين والعارفين بالله تعالى المرشدين إليه جل جلاله . فمن مدرستي البخاري ومسلم عن سيدنا أبي سعيد الخدري قال : قال رجل : " أي الناس أفضل يا رسول الله ؟ قال : مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى قال : ثم من ؟ قال : ثم رجل يعتزل في شُعب من الشعب يعبد ربه " .

ولهذا قال سيدنا الإمام الجنيد : " من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس " . وقال سيدنا سفيان الثوري : من خالط الناس دارهم ، ومن دارهم راءاهم ، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا وهلكوا فيما هلكوا ، والله الذي لا إله إلا هو لقد حلّت في زماننا " . ولما سمع أحد العارفين المتأخرين بهذه العبارة قال : إن كان حلّت في زمانه فقد وجبت في زماننا .

لكن العلماء بالله نصّوا أن من آداب العزلة أن يكون صاحبها عالماً ليؤدي فرضه ، ولا يستهويه الشيطان بوساوسه .

وتذكروا . أيها الإخوة . أن سيدنا عقيلاً كان من العلماء قبل الخلوة . ساح في رؤوس الجبال ، وكان يعبد الله في الغار ولم يكن له غار يعبد الله فيه كسيدنا محمد ﷺ ، لم يكن فتحه كاملاً ونفسه صافية .

كان سيدنا عقيل يعبد الله تعالى في الغار فتأتيه الذئب والغزلان والسباع بكل اطمئنان تتبارك بأنفاسه وعبادته ، حتى أُمر بالسير إلى منبج بلدة الشاعر البحري .

أيها الأحبة والصحب : هيا الله سيدنا عقيلاً ليكون إمام أهل منبج وما حولها ، تسلم فيها دقة التربية في المنطقة ، وهرع إليه أهل الله من كل صوب ، منهم أربعون ولياً من رجال الشام الأكابر ، اسمعوا أسماء بعضهم لتتبارك بذكرهم : سيدنا عدي بن مسافر والشيخ رسلان الدمشقي والشيخ قضيب البان الموصلية .

هرعوا إليه ليعلمهم الصدق ، ويربهم على العمل بطاعة الله وذكره ، ويرغبهم في طريق الله والتصوف ويدرسهم دينهم ويروي لهم من خلال ذلك كرامات الأولياء كل صباح ومساء . وكان يقول لهم :

- أنا شيخ الطرائق ، أنا شيخ الحقائق ، أنا شيخ من لا شيخ له ، وأنا وسيلة من توصل بي إلى الله تعالى .

قام رجل من مريديه مرة يسأله : ما علامة الرجل الصادق ؟ فقال : لو قال لهذا الجبل تحرك لتحرك . قال : فتحرك الجبل .

وقام آخر فسأل : ما علامة المبارك على أهل زمانه . فقال : لو وكز برجله هذه الصخرة لتفجرت عيوناً . فتفجرت صخرة كانت بين يديه عيوناً ، ثم عادت كما كانت هكذا كان سيدنا عقيل المنبجي شيخ أهل الشام ، ولكي تتفجر ينابيع رحمة الله تعالى في الشتاء القادم أدعكم لتسألوا الله تعالى بسيدنا محمد ﷺ وأهل الله أن يبارك لنا في الشتاء القادم ويفجر الأرض عيوناً ويسقينا بماء منهمر .

المصادر :

- . إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء محمد راغب الطباخ دار القلم ١٤٠٨هـ
- . ثلاثة الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر . المطبعة الحميدية ١٣٥٦هـ للتاديني .
- . الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي ٦٨٨/١ . دار صادر ١٩٩٩ .
- . نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أرباب المقامات العالية لليافعي مطبعة البابي ١٩٩٠ .
- . بحجة الشيخ عقيل المنبجي . عقيل عبد الرحمن العمري . ت باسم محمد .
- . شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق للمنبهاني . دار الفكر ١٩٩٠ .
- . تفسير الإمام القرطبي .

(٢٠٨)

الإمام عقيل المنبجي ٢/

٤٥٠ . ٥٥٥٥ هـ

الحمد لله مجلي السماء ببديع المصاييح ومغذي الملائكة بحلاوة التسبيح الذي شهدت بتوحيده عجائب المصنوعات ، ونطقت بتحميده غرائب المبدعات ، وسبح له الخلق علماء وأولياء جماد وإنس وجان باختلاف اللغات ، فسبحان من لا يساويه أحد في الأرض والسموات .

أحمدته وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة باسقة الفروع .
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله من أرجح العرب ميزانا وأوضحها بيانا، وأعلاها مقاما ، وأحلاها كلاما، وأوفأها ذماما ، فأوضح الطريقة ونصح الخليفة، وشهر الإسلام ، وكسّر الأصنام ، وأظهر الأحكام ، وحذر الحرام، وتابعه على ذلك الأئمة الأعلام.

اللهم فصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه البررة الكرام ، وعلى أزواجه وذريته في كل محفل ومقام ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :فيا معشر الإخوة الكرام :

عندما أتحدث عن كرامات الأولياء يستوقفني قوله تعالى عن الولية الطاهرة السيدة مريم رضي الله عنها، والتي قال فيها ربّ العزّة والجلال :﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال المفسرون :وجد سيدنا زكريا عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، ولذلك لما سألها رَدَّتْ عليه فقالت ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ويستوقفني أيضاً ما فعلت أم موسى بولدها وقد ألهمها الله تعالى أن تلقيه في اليم ، وقصة ذي القرنين وتمكين الله تعالى له ما لم يمكنه لغيره ، وقصة أصحاب الكهف رضي الله عنهم ، وقصة آصف بن برخيا مع سيدنا سليمان حين أتى بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين.

وكل هؤلاء ليسوا بأنبياء بل أولياء ، وهو في القرآن الكريم لا شك فيه ولا امتراء ، فإذا ضمنا إلى هذه الآيات ما ورد في السنة المطهرة ، كحديث (ق) جريج الراهب الذي كَلَّم الطفل في المهد ، وحديث (ق) أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة ثم انفرجت ، وحيث ضيف الصديق أبي بكر المخرّج في الصحيحين ، وبركة الطعام حتى صار بعد الأكل أكثر مما كان قبله بثلاث مرات ، وإخبار الصديق أبي بكر رضي الله عنه عن حمل امرأته أنه أنثى ، فكان ذلك كرامة عند ربه.

وما صح عن الفاروق أنه قال : يا سارية الجبل ... في حال خطبته يوم الجمعة فبلغ صوته إلى سارية في الصين ، فكان لسيدنا عمر رضي الله عنه كرامتان في ذلك : إحداهما : ما كُشف له عن حال سارية وأصحابه المسلمين وحال العدو.

والثانية : بلوغ صوته إلى بلاد بعيدة .

والحديثان المتفق على صحتهما في سيدنا سعد وسعيد رضي الله عنهما في إجابته دعوة كل واحدة منهما ، وحديث البخاري في سيدنا خبيب في قطف العنب الذي وجد في يده يأكله في غير أوانه ، وحديث البخاري في سيدنا أسيد بن حضير وعباد بن بشر اللذين خرجا من عند سيدنا رسول الله في ليلة مظلمة ومعهما قضيبان من الشجر أضاء لكل منهما الطريق ، وكذا سيدنا العلاء بن الحضرمي الذي كان في غزاة وبينه وبين الموضع قطعة من البحر فدعا الله تعالى باسمه الأعظم فمشى هو وجيشه على الماء .

هؤلاء كلهم أولياء الله تعالى ، بل هي من قبيل الممكنات ، ولذلك اسمعوا ماذا يقول إمام الحرمين الجويني في كتابه الإرشاد : " ما صار إليه أهل الحق : انخراق العادات في حق الأولياء " والكرامات من جنس المعجزات لأن كليهما دلالات على الصدق ، فمن ادعى النبوة دلت المعجزة على صدقه وصحة دعواه ، ومن أشار إلى الولاية دلت الكرامة على صدقه في حالته . فالفارق بينهما تحدي النبوة فقط .

أيها السادة : هذه المقدمة لابدّ منها ، لأننا اليوم مازلنا ننزل زائرين على شيخ الأولياء العارفين الذي اختار الله له منبج سكناً وأكرمه بأنواع الكرامات التي دلت على صدقه ، إننا مع سيدنا عقيل المنبجي رضي الله عنه ومع الحلقة الثانية والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربصوا عن الإمام عقيل المنبجي .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة إيمان : طار صيت الإمام عقيل في كل مكان ، واشتهر ذكره في كل مجلس وخاصة أن مريديه انتشروا في بقاع الأرض ، منهم الأعلام والعلماء والقضاة والصالحون ، وكان حفيده أحمد بن سويدان قاضي قضاة عجلون يكثر ذكره في مجالسه ويتحدث عن علمه وكراماته ، فقال العلماء الذين ذكره أمامهم وهم من حلب : يا أحمد لا بد أن نزوره وأن نمتحنه بسؤالات من الفقه والتصوف .

فسار القوم حتى وصلوا منبج ، فاستقبلهم الشيخ عدي بن مسافر رضي الله عنه وقال للشيخ أحمد : ما شأن هؤلاء العلماء والفقهاء ؟ فقال له : جاؤوا لزيارة الشيخ والسلام عليه . فقال الشيخ عدي : يا أخي في هذا الوقت قد ذكرك الشيخ عقيل وذكرهم وقال : قادم علينا علماء فقهاء من حلب ، جاؤوا يسألوني ويمتحنوني ، وإني قد لجمت كل واحد منهم بلجام (لا يستطيعون السؤال) .

يقول الراوي يا سادة يا كرام: فدخلوا على الإمام عقيل وسلموا عليه فرد عليهم السلام ، وأشار لهم بالجلوس في جهة جانبه الأيمن . وبقي يتكلم ويدرس ، ثم التفت إليهم فقال: ماذا تسألون يا علماء حلب وفقهاءها؟ قال: فما قدر أحد منهم أن يتكلم بكلمة. وهنا قال الشيخ عقيل للذي على يمينه: أما جئت تسألني عن كذا وكذا، والتفت إليهم واحداً واحداً فأعطى كل واحد سؤاله مع جوابه ، فقاموا جميعاً إليه يطلبون منه السماح ويستغفرون الله تعالى على اعتراฟهم .

وأقيم مجلس السماع (الإنشاد والحضرة) واشتد السماع فصار الفقهاء يسمعون الدفوف وهي تقول: الله الله. فقام أحد الفقهاء فدخل في وسط الحضرة، وجعل يدور ويتمايل في السماع .

فقال له الشيخ عقيل: ما بالك تدور؟ فقال الفقيه: كان عندي مسألة مشكلة علي منذ زمان أطلعني الله عليها الآن فتمايلت بذلك سروراً فلم أتمالك نفسي من الطرب . فقال الشيخ عقيل: - يا بطل هذا من أجل فرحك في مسألة ، فكيف تنكر على من كان حبه وفرحه بالله تعالى .

فقال أحد المريدين: سيدي هذا الوجد الذي يحدث للمريدين ما شأنه؟ فقال: الوجد سرٌّ من أسرار الله تعالى ، تحركه رياح الأنس من بحار القدس ، لا يقع على كيفية بل يتفرق على الأعضاء ، فما وقع في اليد كان منه التصفيق ، وما وقع في القلب كان منه البكاء ، وما وقع في الرجل كان منه الرقص ، وما وقع في الروح كان منه الصراخ ، وما وقع في السويداء كان منه الغشيان ، فهذه كلها أسرار الوجد .

فقال الشيخ أحمد بن سويدان خليفته: لم لا تتحرك يا سيدي في السماع ، فقال: يا أحمد الجواب في قوله تعالى ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي قمرٌ السحاب﴾ فقال الشيخ أحمد: ما معنى ذلك يا سيدي؟! فقال: يا أحمد القوي لا

يتحرك في غالب الأحوال وإنما يتحرك ضعيف الحال ، كما قال الإمام الجنيد : " إن حركات المريدين لضعفهم وضعف قوتهم ". فقيل للشيخ عقيل : إن بعض الناس تنكر علينا .

فقال الإمام : والله لا ينكر إلا كل أعمى قلب :

السعادة لهؤلاء السادة ، أينكر عليهم التحلي بمحاسن الصفات والتخلي عن مساوئها ، وطهارة القلب وجلاله من الصدا ، أم مخالفة النفس الأمانة بالسوء ، وتركها ونهيها عن الهوى ، أم الجد والاجتهاد (في العبادة) ومواصلة الأوراد ، واستغراق الأوقات بالذكر ومراقبة المولى ، أم (ينكر عليهم) حضور القلب ونفي الغفلة عند مذموم الخطرات ، أم الإقبال على الله تعالى ، والإعراض عن سواه من جميع المخلوقات ، أم العمل بعزائم الشريعة المشتملة على مقامات اليقين ، التي هي عندهم التوبة من الغفلة عن الله تعالى ، أم الأحوال الفائضة عليهم من غيظ الفيض ، والمواهب السننية كالحبة لله والشوق إلى الله والأنس بالله والهيبة لله ، أم ينكر المكاشفات وسائر الكرامات ، فليس ينكر شيئاً من جميع المذكورات إلا كل محروم النوال بعيد عن طريق الخير ، جامد غير ذائق ولا معتقد ولا مصدق بما خص الله به الرجال .

أيها الأحبة والصحب :

علم المريدون للإمام أنه من المقربين إلى الله تعالى ، وأوصاهم الشيخ إذا أصابتهم حاجة أن يتوسلوا إلى الله تعالى به فيستجب لهم وفي هذا يقول العارف بالله الولي قضيب البان الموصلية (ت ٥٧٠ هـ) أنه كان في بعض أسفاره فأدركه شيء من الجوع والعطش ، فوقع في باله وخاطره قول شيخه سيدنا عقيل (إذا كنتم في سفر فتوسلوا إلى الله تعالى بي تجدونني) فتوسلوا إلى الله تعالى به فإذا هو بإنسان واقف على صخرة يقول له : تعال فساكن نحوه فإذا هو الشيخ عقيل وإذا معه كوز

ماء ورغيفان . وقال له : يا قضيبي البان لا بأس عليك كل واشرب (باسم الله) .
وهذا سيدنا عدي بن مسافر رضي الله عنه يقول : خرجت من أهلي إلى زيارة
شيخنا الشيخ عقيل ، فلما قدمت منبج وجدت الشيخ يزور قبر نبي الله يونس ،
فمضيت إليه وسلمت عليه وقبلت يديه ، فلما جلست إليه قال لي : يا عدي !
فقلت لبيك يا سيدي . قال : إذا كان لك صاحب وهو ولي الله تعالى أو شيخ ،
ووقعت في أمر مهم فاسأل الله به فإنه يستجاب لك ، فلا تعتقد أن ذلك في حياتي
فقط ، ولكن في حياتي و بعد مماتي ولكن بشرط أن تكون مظلوماً لا ظالماً . يقول
الشيخ عدي بن مسافر ثم قصدت من بعد زيارته زيارة الشيخ علي الكردي (أحد
العارفين بالله وهو أبو الحسن القرشي ت ٦٢١ هـ) فقال : إيش سمعت من شيخك
الشيخ عقيل ؟

قال : فأخبرته . فقال يا عدي إن شيخك عقيلاً من المدللين على ربه وإنه
لصادق فيما قال ، فاسأل الله تعالى به في حياته وبعد مماته فإنه يستجاب لك .
إخوتي في الله : آخر ماعهد المريدون عن شيخهم سيدنا عقيل حجه سنة
٥٥٥ هـ وزيارة سيدنا المصطفى ﷺ مع شيوخ عصره سيدنا عبد القادر الجيلاني
وسيدنا حياة بن قيس الحراني وسيدنا أحمد الزعفراني ، ومعهم شيخ الأولياء وسيدنا
الإمام أحمد الرفاعي رضي الله عنهم جميعاً ، وهناك شهد وحضر كرامة مد اليد التي
لثم بها السيد الكبير الرفاعي يد سيدنا رسول الله ﷺ ، وكان الحجاج قد زادوا عن
تسعين ألفاً ، قالوا : لما أشرف سيدنا الرفاعي على المدينة المنورة ترجل مطيته ومشى
حافياً إلى أن وصل إلى الحرم الشريف ووقف تجاه الحجرة النبوية العطرة
وقال :

. السلام عليك يا جدّي .

. فقال له رسول الله : وعليك السلام يا ولدي .

وهنا تواجد الإمام الرفاعي لهذه المنحة العظيمة والنعمة الكبرى وحنّ وأنّ وجثنا
على ركبتيه مرتعداً وخاطب صاحب الحضرة ﷺ
في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبّل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك قد تحظى بها شفتي
فمد رسول الله ﷺ يده الشريفة النورانية من روضته الزهراء فقبلها سيدنا أحمد
الرفاعي والناس ينظرون ، وأقبل إليه أهل الله والحجيج يبائعون سيدي أحمد ، وممن
بايعه سيدنا عقيل المنبجي ، الذي ختم حياته بهذه المكرمة ، بعد أن عاد إلى منبج
وسكنها أربعين سنة وهو بعد ما زال هناك ، يزار هناك كما يتوسل به هنا ، وما
أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله

المصادر:

- . الإصابة لابن حجر العسقلاني .
- . جامع كرامات الأولياء للنبهاني دار الفكر ١٩٩٢ .
- . حقائق عن التصوف عبد القادر عيسى مكتبة العرفان حلب ١٩٩٣ .
- . حياة الصحابة للكاندهلوي دار الريان للتراث القاهرة ١٩٨٧ .
- . الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري دار الخير ١٩٩١ .
- . شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق للنبهاني دار الفكر ١٩٩٠ .
- . طبقات الأولياء لابن الملقن مكتبة الخاني القاهرة ١٩٩٤ .

(٢٠٩)

الإمام محمد الجزولي

(٨٠٧ . ٨٧٠ هـ)

الحمد لله الذي أحيا قلوب المؤمنين باتساع رحمته ، وألهمهم من حسن التوسل ما يدفعون به عظيم أخذه وعقوبته ، ووهب لهم من حكايا الصالحين والأولياء ما يتوصلون به إلى منازل جنته ومغفرته .

فسبحانه من إله شرفنا بملة التوحيد ، وأرسل لنا سيد الخلق والعبيد ، وجعل لنا صلاتنا عليه شفيعاً لنا بين يديه ، فمن أراد تكفير الخطايا والزلات ، وبذل العطايا والصلوات ، والحلول في أعلى الدرجات فلكثير على سيدنا محمد من الصلوات آدم الصلاة على النبي محمد فقبولها حتماً بغير تردد أعمالنا بين القبول وردها إلا الصلاة على النبي محمد وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يشاركه شيء وكل الأشياء خليقته ، من قابل إحسانه بالإساءة نادى عليه شقوته .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله ، بشر بطاعته المتقين ، وأنذر بمعصيته المجرمين حتى قامت على الخلائق حجته :

نبي الهدى ضاقت بي الحال في الورى وأنت لما أمّلت فيك جدير
فسل خالقي تفريج كربى فإنه على فرجى دون الأنام قدير

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد سيد الكائنات وخير البريات الحائز
لأعلى الكمالات فبه ترفع الدرجات وتمطر الرحمات وتنال الخيرات ، وهو الواسطة
في نيل كل خير في الحياة وبعد الممات .

اللهم زده شرفاً على شرفه الذي منه خلقتة . وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

كنت وقفت معكم قبل حج بيت الله الحرام عند ملف الشخصيات الإسلامية
قبل أن نرد على أعداء المرأة الذين يريدونها أن تنحرف عن جادة القرآن والسنة
بحجة الحرية الشخصية .

وها نحن اليوم نعود بحمد الله تعالى (والعود أحمد) بعد أن ردَّ سبحانه هؤلاء
بغیظهم لم ينالوا خيراً إلى الحديث عن تلك الطبقة التي حملت الراية بأمانة وأدوها
بأمانة، نعود إلى عصر المخلصين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه لنكمل ما بدأناه
إلى تمام المئة الأوائل إن شاء الله تعالى، ريثما تتابعون عليّ اقتراحاتكم عن الملف
القادم الذي تريدون مني الحديث عنه ، فأنا بانتظار اقتراحاتكم لأنها غالية على قلبي
غلاوة أصحابها.

إخوة الإيمان : أزور اليوم مع حضراتكم علماً من أعلام الشخصيات الإسلامية
رزق كتابه القبول والاشتهار ، وأعطي لكتابه ما لم يعط لغيره من الشروح والحواشي،
كتاب ولعت به العامة والخاصة به عن الشيوخ المغاربة والمشاركة، بل إن بعضهم
رأى النبي صلى الله عليه وسلم يناوله هذا الكتاب.

هذا الكتاب حفظه أهل الله عن ظهر قلب، واهتم به العلماء الأخيار بعد أن لمسوا بركته، ونالوا به منازل الأبرار، أتعرفون بماذا ؟ بكثرة الصلاة والسلام على النبي المختار.

فنحن اليوم مع سيد طريقته مبنية على كثرة الصلاة على النبي، والمواظبة على كتاب دلائل الخيرات، وفضل على عصره بكثرة الصلاة على النبي وإعداد المريدين للجهاد في سبيل الله، مما أعطى لطريقته نكهة خاصة .

نحن اليوم مع ولي كان يردد لمريديه : عليكم بذكر الله العظيم والصلاة على سيدنا رسول الله وزيارة الأولياء، فبذكر الله تطمئن القلوب ، وزيارة أولياء الله تعرف الطريق إلى الله تعالى.

إننا مع أحد أعلام الأمة وقطب وقته وولي عصره سيدي محمد بن سليمان الجزولي الحسني المغربي صاحب كتاب دلائل الخيرات.

ومع بداية الحلقة الرابعة والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام محمد الجزولي رضي الله عنه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد سيدنا أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي في المغرب العربي من أسرة تنتسب لآل بيت رسول الله من جهة جدي سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما والجزولي نسبة إلى قبيلة من البربر في المغرب.

ولد سنة سبع وثمانمئة هجرية على التقريب، في دار بقي العالم الإسلامي يتبارك بها حتى اليوم، والتبرك لا ينكره إلا أعمى القلب والبصيرة ذلك أنه بذكر الصالحين

تتنزل الرحمات، فكيف ببيوتهم التي لا زموها، يقرؤون فيها القرآن ويذكرون الله تعالى على كل حال آناء الليل وأطراف النهار.

هكذا كان شأن هذا الإمام ، إذ التحق بأحد جوامع فاس وزواياها فحفظ القرآن واشتغل بطلب العلم وحفظ كتباً كثيرة وألف بها رسائل.

وكانت زوايا التصوف ملجأ العلماء أثناء الفتن الحاصلة في عصره، حيث يجدون الطمأنينة وراحة البال والقناعة بما قسم الله تعالى.

كان يخلو في غرفته التي سكنها في المدرسة فلا يُدخل عليه أحداً ، حتى ظنوا أن فيها مالا ، وأرسلوا لأبيه يخبرونه ، فجاء ودخل عليه الغرفة فوجده قد كتب على حائط غرفته : الموت ، الموت ، الموت .

فكان الإمام الجزولي يربي نفسه بنفسه ، فَمَنْ جعل الموت بين عينيه ينشأ مخلصاً صادقاً في حياته ، فكفى بالموت واعظاً .

إخوتي في الله: نشأ الفتى زاهداً في الدنيا طالباً للعلم إلا أن فيه خصلة جعلته في الأوج بين علماء عصره ، إذ قرأ في البخاري أن السيد الأعظم عليه السلام يقول: (إن أولى الناس بي أكثرهم عليّ صلاة) فراح يكثر من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم جرت له حادثة دعت به إلى أن لا يفتّر بالصلاة على النبي في جميع أوقات فراغه، بل كانت هذه الحادثة سبباً في تأليف كتابه دلائل الخيرات، إذ إنه قام ليتوضأ في ليلة فلم يجد الدلو الذي سيخرج به الماء في البئر، فبينما هو كذلك إذ نظرت صبية من مكان عالٍ فقالت له: من أنت ؟ فأخبرها. فقالت له: . أنت الرجل الذي يثنى

عليك بالخير، وتتحير فيما تخرج به الماء من البئر؟! وبصقت الصبية في البئر ففاض ماؤها حتى ساح على وجه الأرض .

وتوضأ الشيخ وهو منذهل فلما فرغ ناشدها الله وأقسم عليها لتقول له بم نالت هذه المرتبة . فقالت الفتاة بكلمتين : بكثرة الصلاة على النبي ﷺ وهنا عاهد الله تعالى تعظيماً لنبيه الكريم أن يؤلف كتاباً في الصلاة على النبي ﷺ وتوجه إلى خزانة كتب في منطقة فاس في أحد المساجد، وجمع كل ما روي عنه ﷺ من صلوات، وعن غيره من فضلاء أمته .

وبقي يتابع عمله فيه حتى وهو منتقل بين البلدان يطوف بين الحجاز ومصر والقدس الشريف بحثاً عن إمام الوقت الشيخ العارف بالله ، لكنه وبعد سنوات سبع لم يعثر على ضالته ، فعاد إلى المغرب بعد أن أدى مناسك الحج وزار الحبيب الأعظم ﷺ وبقي مجاوراً في المدينة ثلاث سنوات .

عاد الإمام ليجد أهل بلده متخصصين لمقتل واحد منهم، فحاول إصلاح ذات البين وقال لهم: أنا أتحمل قتلته ، فاستحيوا منه، وكان من عادتهم أن إخراج القاتل من بينهم شرط للاصطلاح ، وعاود الإمام الغربية فخرج إلى طنجة، لكن أهل الله ردوه إلى بلده لتدريس الشريعة والتف حوله عدد من طلاب العلم نبغوا به ، منهم أحد علماء عصره الشيخ زروق الفاسي (٨٤٦ . ٨٩٩ هـ) وهذا التلميذ هو الذي دل الإمام الجزولي على شيخ وقته في المغرب الشيخ محمد أمغار الصغير (ت أواسط القرن التاسع) .

يا أحباب رسول الله : هذه المرحلة من أهم مراحل حياة الإمام ، ولذا اسمحوا لي أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك ، إلى شواطئ المحيط الأطلسي حيث ملتقى البحرين إمامنا " الشيخ أمغار (فترضوا عنهما) .

الشيخ محمد أمغار كانت أسرته تتوارث الصلاح والتقوى كما يتوارث الناس المال، كان من المتمسكين بالسنة ، وله قدم راسخة في علم القوم والعربية ، وكان له من الأتباع قرابة اثني عشر ألفاً أو يزيد ، كلهم يلزمون الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ .

هناك أخذ الإمام الجزولي على شيخه الورد الشاذلي ، ودخل الخلوة للعبادة ، أتدرون كم يوماً خلا بربه عز وجل ؟ نحو أربعة عشر عاماً ، يراقب الله تعالى في جميع أحواله واقفاً عند حدوده ، عاملاً بكتاب الله وسنة رسوله ، إلى أن اشتهر بالصلاح وظهرت منه الكرامات وتاب على يديه خلق كثير .

يخيم في كل يوم القرآن بكامله، ويقرأ كتابه دلائل الخيرات، ويتكلم عن فضل الصلاة على النبي ﷺ حتى انتشر ذكره في الآفاق ، وملاً الأسماع وأخذ في تربية المريدين بعد أن أذن له شيخه بذلك.

أريد منكم اليوم أن تحضروا معي درس هذا الإمام لتروا مدى النور والحكمة اللذين آتاهما الله إياه ، أدعوكم جميعاً لحضور درس التوبة ، فهيا إلى هناك لعل الله يرزقنا توبة نصوحاً ، يقول سيدي الإمام محمد الجزولي :

" للتوبة تسعُ علامات وهي الحسرة والندامة والإنابة والخشوع والتواضع والابتغال والمداممة على آيات الذكر ، والرضا بالقضاء وحسن الظن بالمولى عز وجل ."

واعلم يا أخي في الله . أنَّ سبعة تقطع عن الارتقاء بالتوبة وهي: الحقد والحسد والعُجب والرياء والكبر وحب المحمدة ولذّة الرياسة .
ومن كان في قلبه ثلاثة أمور وهو يدعو إلى التوبة فهو زنديق : الافتخار بالعلم .
وسوء الخُلُق . وسوء الظن بالخلق .

ومن شرط التائب أن يقتدي بشيخ عالم بالظاهر والباطن ، ويعدّ المشي إليه نوراً ورحمة وسراً في القلوب ، الشيخ الواصل حبل الله في أرضه ، من تعلق به وصل .
وإذا لازم الشيخ وجب أن يتأدب معه بعشرين أدباً :

خمسة في حال الجلوس : وهي السكينة والوقار والهيبة والحياء والخوف .
وخمسة في حال الغيبة : وهي المراقبة نحوه ، والافتقار إليه والتواضع والاستمساك بعنانيته ، والمداممة على ذكر فضائله في قلبه بالتعظيم .

وخمسة في حال ذكره : وهي النظر إليه والرجاء فيه والاستنصار ببركته والنظر فيما بينك وبينه في العقيدة .

وخمسة في حال المحبة : وهي مداومة الحب ومداومة الشوق والحمى نحوه والهيم والانذهال من الاشتياق إليه .

وهكذا . معشر السادة . حضرت وإياكم درس هذا الإمام الذي كثر مريدوه حتى بلغوا ألوفاً ، كلما دخل قرية وكثر مريدوه أخرج منها حتى قضى سبع سنوات وهو ينتقل بين البلدان بالدعوة إلى الله تعالى حتى خاف منه أحد الوزراء فبعث إليه من يدس له السم في طعامه ، فقام الإمام ليصلي فما إن سجد السجدة الأولى في الصلاة حتى قبضه الله إليه ساجداً عام سبعين وثمانئة (٨٧٠ هـ) ودفن بجوار مسجد أسسه هناك ، وقام أحد تلامذته وكان سيافاً فقتل كل من كان سبياً في سم شيخه .

أيها السادة الأعزاء : كنت أريد أن أسدل الستار على حياة هذا الإمام ، لكنّ مشهداً عجيباً حدث بعد وفاته بستين سنة يدل على كرامته عند ربه إذ أن سلطان مراکش أبي إلا أن يعود الجثمان إلى مراکش فأمر بحمل الجثمان إليه ، فلما فتحوا قبره رأوا الإمام كما هو كأنه دفن الآن .

حفظت أمتنا الأرض جسده الطاهر كما تحفظ أجساد الأنبياء والشهداء ، وقد مات شهيداً مسموماً ، وهو أحد الرجال السبعة في مراکش الذين منهم القاضي عياض وسيدي عبد العزيز الدباغ ، وتواترت أن رائحة المسك تشم في قبره من كثرة الصلاة على النبي ﷺ وهكذا كل مجلس يصلى فيه على الحبيب الأعظم تصعد منه رائحة مسكية فتبلغ عنان السماء فتقول الملائكة : إلهنا وسيدنا ما هذه الرائحة المسكية ؟ فيقول الله تبارك وتعالى :

. يا ملائكتي هذا مجلس صُلِّي فيه على حبيبي محمد .

عوّد لسانك كثرة الصلاة على محمد خير ما به قد اشتغلا
فهو المصيد به أيها الرجل فاصطد به الخير لا تصطد به الحيلة
من في صحيفته من الصلاة على محمد قدر سطر يعدل الجبال

من أدعية الإمام

اللهم امنن علينا بصفاء المعرفة وهب لنا تصحيح المعاملة بيننا وبينك على السنة
والجماعة وصدق التوكل عليك وحسن الظن بك وامنن علينا بكل ما يقربنا إليك
مقروناً بالعفو في الدارين يارب العالمين .

يارب أظننا في ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلك ، يارب اكفنا بك أنت الكافي
من كل شيء ولا يكفيني عنك شيء ، يارب لا تحرمنا كرمك فأنت الكريم الأكرم
يارب ملكني نفسي ولا تسلطها علي فإنك أنت الله الملك الفعال .

يارب عدلك حق وقوتك صدق فاجعلني من الذين وعدتهم مغفرة وأجرأ
عظيماً يارب لا أرجوا أحداً سواك فأنت رجائي ومقصودي يا من يهدي من
يشاء إلى صراط مستقيم اهدنا أوضح السبل إليك ودلنا عليك بجاه أنبيائك
وأصفياك.

يارب نجنا من فتنة الطاعة ومن شر العصيان يارب صبرنا على طاعتك وعن
معصيتك واجعلنا من الصابرين في البأساء والضراء بمنك ، يارب ضاقت علينا
الأرض بما رحبت وضاقت علينا أنفسنا وأيقنا ألا ملجأ منك إلا إليك ، يارب

عفوك أعظم من ذنوبنا وأوسع فاعف عنا بجودك وعفوك يارب أغني بحلالك عن
حرامك وبطاعتك عن معصيتك وأغني بك عمن سواك فإنك أنت الغني المنان .
يارب افتح لنا أبواب رحمتك وأبواب فضلك وافتح قلوبنا بنور معرفتك حتى لا
نعرف أحداً سواك ولا نرى في الوجود إلا إياك .

يارب طهرنا من كل وصف يمنعنا عنك وعن الوصول إليك واضرب روحي إلى
حضرة قدسك يارب طهرنا من آفات إبليس وجنوده وحل بيننا وبينه وبين من يريد
أن يمنعنا عنك ، يارب أشهدنا عظمتك وكبرياؤك وارزقنا الشهادة يارب هون علينا
السلوك إليك وهب لنا نوراً نتهدي به إليك .

المصادر :

ابن الزيات	. التشوف إلى رجال التصوف
محمد بن محمد مخلوف	. شجرة النور الزكية في طبقات المالكية
د. حسن حلاب	. محمد بن سليمان الجزولي
العباس بن إبراهيم التعارجي	. الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام
محمد المهدي الفاسي	. ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتبّاع ومالهما من الأتباع
الشيخ يوسف النبهاني	. الدلالات الواضحة على دلائل الخيرات
عبد المغيث بصير	. التعرف الشمولي بالإمام الجزولي
١٩٧٦	. ألف سنة من الوفيات ص ٢٥٧ : دار المغرب للطباعة والنشر الرباط

(٢١٠)

الإمام أبو شجاع أحمد بن الحسين ٤٣٤ . ٥٩٣ هـ

الحمد لله محدث الأكوان والأعيان ، ومبدع الأركان والأزمان ومنشئ الألباب والأبدان ، وفتحت الأحباب والخلان ، منور أسرار الأبرار بما أودعها من البراهين والعرفان .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ألزم الحجة بالقادة من المرسلين وأبجح بالسادة المحققين ، الذين جعلهم خلفاء الأنبياء ، وعرفاء الأصفياء ، المقربين إلى الرتبة الرفيعة والمنزهين عن النسب الوضيعة .
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله عن الله بلغ وشرع ، وبأمره قام وصدع وملتبعه غرس وزرع فهو المصطفى المصطنع .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وعلى آله وصحابه المنتخبين وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فإنني اليوم أعطيكم خلاصة لوقفاتنا الطويلة مع علماء الأمة الأبرار ، فإنهم أعطونا درساً هو الأهم من خلال حياتهم الدعوية ، وهو أن الدعوة إلى الله لا يتحقق لها النجاح إلا بالعلم ، وأن الله تعالى لا يقبل من عباده أن يكونوا جاهلين ، فإن كانوا كذلك (جاهلين) لم يستحقوا خلافة الله في أرضه بل استحقها غيرهم ممن تعلموا .

العلماء . يا سادة . يستدلون على عظمة قدرة الله تعالى وكثير فضله فتزداد خشيتهم لله ومعرفتهم بالعبودية الحقّة له ، ولذا أعطاهم وساماً علّقه على صدرهم أبد الدهر فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر ٢٨) هذا الشرف العظيم يحبه الله من عباده ويرغبهم فيه في كتابه ويقول لهم :

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة) والله جل في علاه لم يأمر حبيبه الأعظم أن يستزيد من شيء إلا من العلم ، فقال : ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه ١١٤)

يا معشر المؤمنين : هذا أمر من رافع السماء بلا عمد ، فهل يسمع هذه التوجيهات أحبابنا اليوم ، هل يعود الناس للجلوس بين أيدي العلماء ولو لمرة واحدة في الأسبوع يرفعون راية العلم والعمل ، على المسلمين اليوم أن يثبتوا أنهم يحبون رسول الله بالتوجه نحو مجالس العلم تنفيذاً لأمر النبي الذي أمر به فقال : " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين " (ق)

لم يقل من يرد الله به خيراً يوجهه نحو التجارة أو الصناعة أو البناء أو غير ذلك بل قال يفقهه في الدين ، وفي رواية أخرى حسنة الإسناد (بز. طب) أنه قال : "إذا أراد الله بعبده خيراً فقهه في الدين وألهمه رشده " .

ترغيب وتشويق بدراسة الفقه والعلم ، ومرة شوقهم ورغبهم أكثر فقال : من مدرسة الإمام البخاري رضي الله عنه : " ما جميع أعمال البر في الجهاد إلا كبصقة في بحر . وما جميع أعمال البر والجهاد في العلم إلا كبصقة في بحر "

العلم أفضل وأعظم أجراً ، فإذا ما رأى النبي الكريم من صحابته بعض الميل عن الفقه رأيناه يمسك الصحابي ويهمس في أذنه أن يعود إلى مجلس العلم ، فهذا هو يقول لسيدنا أبي ذر رضي الله عنه : " يا أبا ذر لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مئة ركعة ، ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم عمل به أو لم

يعمل خيرٌ لك من أن تصلي ألف ركعة " (جه . حسن) وأخذ مرّة ينصح سيدنا أبا الدرداء بلهجة تملأ قلب العبد إيماناً و يقيناً بفضل التعلم والدراسة قال له : " من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع " (أي تعنيه على سعيه وتيسر له الأسباب وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ... " (د . ت . حسن) .

أرأيتم كيف يوجه رسول الله أمته إلى الخير في الدنيا والآخرة ، النبي يغار على أمته ويجب لها أن تكون على قدمه في العلم ، حتى إنه لشدة غيظه قال لهم مرّة : " من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فبينه وبين النبيين درجة " علينا اليوم أن نقرر ، أين نحن من تلك الأصناف الثلاثة التي يقسم إليها الناس :

١ . هل نحن من أولئك العلماء الأبرار الذين مضوا إلى الله وهم يعلمون .

٢ . هل نحن من أولئك الأبطال المجاهدين الذين استشهدوا في سبيل الله تعالى

٣ . هل نحن من أولئك التجار الأبرار الذين بذلوا أموالهم في سبيل الله تعالى

ونحن اليوم مع عالم من الطراز الأول (من الصنف الأول) عالم عامل حمل لواء العلم والفقهاء طوال حياته بأمانة وإخلاص ، وضرب المثل بالتنسك والتعبد والعلم والديانة ، ولي القضاء ثم الوزارة ، وكان جواداً كريماً ، له عشرة أشخاص يفرقون على الناس الصدقات ويتحفونهم بالهبات ، يصرف على يد الواحد منهم مئة وعشرين ألف دينار ، فعمّ إحسانه الصالحين والأخيار .

ألف متناً في فقه الشافعية لا يوجد طالب علم في الدنيا إلا ويعرفه ، اختصره من أبداع المختصرات وأحسنها ، وسمّاه متن أبي شجاع أو متن الغاية والتقريب ، هذا المتن عني به العلماء دراسة وشرحاً وتحشية ونظماً لما عرفوه من غزارة علمه وكثرة

فوائده وتقسيماته ، وما عنوا به إلا للجلالة قدره عندهم ، ومعرفتهم بما تضمنه من التحقيق .

فهذا المتن ضمّن فيه هذا الإمام ثمرة أدلة الأحكام الشرعية الفرعية ، وثمره اجتهاد النخبة من علماء الملة.

إننا مع سيد من سادات الأمة هو سيدنا أبو الطيب أو أبو شجاع شهاب الملة والدين سيدنا أحمد بن الحسين بن أحمد الأصفهاني أو الأصبهاني .

ومع الحلقة الخامسة والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام أبي شجاع أحمد بن الحسين :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه .

إخوة الإيمان : أصل هذا الإمام من مدينة أصفهان الإيرانية التي تعرف اليوم بشهرستان مدينة فيها كثير من اليهود أو من كان أصله يهودياً ، لأن يختصر لما أخذ بيت المقدس وسبى أهلها حمل معه يهودها وأنزلهم أصفهان ، هذه المدينة هي التي يخرج منها الدجال آخر الزمان ومعه سبعون ألف يهودي عليهم الطيالة كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ ، وقد فتحها سيدنا عمر سنة ١٩ هـ بعد فتح نهاوند ، ولذلك لقب هذا الإمام بالأصفهاني نظراً لأصله ، لكنه ولد في البصرة سنة ٤٣٤ هـ ، ودرس العلوم الشرعية على علماء عصره وسادة أهل زمانه حتى صار نابغة عصره ، فولاه السلطان القضاء ، فنشر العدل والدين ولم تأخذه في الحق لومة لائم ، يعلق قلبه بالله ، ولا يخرج من بيته حتى يصلي ويقرأ من القرآن ما أمكنه ، وحين ترجم له المؤرخون قالوا : هو من أولاد الدهر المعدودين ، وبقي يدرس في البصرة المذهب الشافعي أزيد من أربعين سنة حتى أصبح آية من

آيات الله في الاستحضار للمسائل الفقهية الدقيقة وصنع هذا المتن من عيون
الفقه الشافعي ، ثم عرضت عليه قضية ضد أمير البصرة ، بماذا حكم فيها ؟ أدعوكم
الآن . أيها السادة . أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك ، إلى البصرة فَرَّجَ الله عنها ، لحل
هذه القضية الشائكة والحرجة .

كان إمامنا يكنى بأبي الطيب ، وبعد هذه القضية صار يكنى أبا شجاع
لشجاعته في إقرار الحق ودفع الظلم، إذ تقدم خباز يقدم الخبز إلى قصر الأمير،
وتتوالى الأيام والأشهر والأمير لا يدفع للخباز لانشغاله بالحكم ، فرفع قضيته أمام
القاضي أبي الطيب أحمد بن الحسين ، فاستدعى الإمام الأمير ليحضر مجلس
القضاء وعين له يوماً ، وتداعى الناس إلى مكان المحكمة ، وأوقف الأمير بجوار
الخباز وقال للخباز : تكلم . فقال لي قيمة خبز سنة كاملة .

قال القاضي للأمير : أحقاً ما قال ؟ قال الأمير : نعم . فقال القاضي : أدِّ إليه
حقه . قال الأمير : نعم . والتفت إلى خادمه وقال ادفع له أمام القاضي . وانتهت
القضية .

وهنا دعا سيدنا القاضي أبو الطيب الأمير إلى أن يجلس بجواره بعد انتهاء
القضية، و التفت الأمير إلى الإمام القاضي وقال :- أتعرف لو أنك لم تقض بالحق
لكنت أمرت السيف أن يقطع رأسك . فقال الإمام القاضي :

. أتعرف أيها الأمير لو أنك لم تدفع للخباز لكنت سلطت عليك هذا الشجاع.
ورفع الطراحة من تحته فإذا بثعبان يتناول لياًكل الأمير . ومن وقتها كُنِيَ القاضي
بأبي شجاع (أبو الثعبان الذي أخاف الأمير) وركي لرتبة وزير لشدة صلاحه
وتقواه، لكنه طلب إقالته ليتفرغ للعبادة والعلم فرحمك الله يا سيدي أبا الطيب
ورضي عنك .

أيها الأحبة في الله : زهد الإمام أبو الطيب في كل شيء بعد أن حصل له كل شيء وترك البصرة واتجه إلى طيبة إلى سيدنا محمد ﷺ حتى مات أحد خدمة الحجرة النبوية الشريفة فأخذ وظيفته وصار يكنس المسجد الشريف ويشعل المصابيح ويخدم الحجرة النبوية ، واستمرت إقامته بطيبة بجوار رسول الله حتى بلغ مئة وستين سنة ، مئة وستون سنة مع سيدنا النبي ولصلاحه وتقواه وإخلاصه وورعه لم يختل له عضو من الأعضاء ، فسئل عن ذلك فقال: أعضاء حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، حفظناها من المعاصي فحفظها الله تعالى علينا .

وبنى لنفسه مسجداً قرب المسجد النبوي عند باب جبريل ، (أي الجهة التي كان ينزل منها سيدنا جبريل على سيدنا النبي ﷺ) ، يتعبد ويتحنث ويخدم ، وخدمة النبي شرف ما بعده شرف حتى مات سنة ٥٩٣ هـ واليوم مسجده وقبره ضمن المسجد النبوي الشريف بعد التوسعة وقبلها ، هو الآن مع النبي في الحياة وبعد الممات فمن مثلك ياسيدي أبا شجاع ويا سيدي أبا الطيب .

وهكذا معشر السادة طابت نفوسنا بزيارة سيدنا النبي وخادمه سيدنا أبي شجاع فمن كان يريد أن يجتمع بهما هناك ، فليبق معنا هنا وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى الحبيب الأعظم وتحيتنا إليك يا سيدي :

الصلاة والسلام عليك .

المصادر :

. حاشية الباجوري على بن قاسم

. حاشية البجيرى على الإقناع

(٢١١)

السلطان محمد الفاتح/١

٨٨٦ . ٨٣٣ هـ

الحمد لله الذي هيا لهذه الأمة من يقودها إلى النصر المبين وأيدها بالأنبياء والمرسلين والملائكة والقادة الفاتحين وجعل الظفر والفلاح والعاقبة للمتقين .
فإذا ما أرادت هذه الأمة أن يعود لها مجدها القديم ، فعليها أن تعود إلى الاعتصام بالدين القويم ، وتفتح المساجد في دوائرها وثكناتها للعبادة والتمسك بجبل الله المتين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له نادى أهل الإيمان فقال ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ . ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ .
وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله وصفيه وخليله أشرف جميع الخلائق في الأرض وفي السماء ، سيد الأبرار ومحيي الكفر والكفار
اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

كلما طالعت كتب التاريخ أقرأ أروع قصص العباقة ، وكلما ازددت قراءة رأيها أجل وأكبر .

ولكل علم عباقة تسمع أخبارهم فتقول : هؤلاء أعظم علماء الزمان ، فإذا ما تابعت وسمعت أخبار علماء آخرين تقول : هؤلاء أعظم وأقدر ، فنحن أمام سلسلة ذهبية لا تدري أي حلقة فيها أثمن من الأخرى .

وتقرأ عن قواد فتحوا البلاد فيعظم في نفسك كم أراقت الأمة من أنهار الدم ،وكم ضحّت فيها بجمال من الأجساد .

لقد تعاقب على هذه الراية الإسلامية .أيها السادة .قواد بلغوا بها الأفقين ، وركزها في المشرق والمغرب مئات من القواد ، ونحن اليوم مع قائد من هؤلاء القواد الكبار ، واحد من سادة المعارك وعباقرة الحروب في التاريخ الإسلامي ، نابغة عبقرية من طبقة سيدنا سعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد وعقبة بن نافع والمهلب بن أبي صفرة وطارق بن زياد ومحمد بن القاسم الثقفي وصلاح الدين .

نحن اليوم نقف مع سلطان قائد ضم بسيفه إلى الوطن العربي بلاداً أوسع من فرنسة وإيطالية وإنكلترا معاً ، بلاداً يسكنها أقوى شعوب العالم القديم على الحروب وأشدّها تمسكاً به : الروم أو بيزنطة .

وقفنا اليوم مع سلطان أسس ملك بني عثمان ، وأسس قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزمان ، وترك لمن بعده ملكاً استمرّ أربعمئة عام سلطان حدثنا عنه سيد الأنام ﷺ وأخبرنا أنه سيأتي في يوم من الأيام يدك معاقل الشرك والأصنام .

هو أول سلطان اشتهر عند أوربة ، وأول حاكم أطلق عليه الأوروبيون لقب : السيد العظيم وكان اسمه يثير الرعب والهلع في قلوب أعدائه .

جاء إلى الزمان وقوى الإسلام تنحلّ عروة عروة في الشرق والغرب ، في الشرق كان المغول يسيطرون على شعوب الأرض ، وفي الغرب كانت أوربة تستهدف الإسلام وتستولي على الأندلس .

ويرسل ربك عز وجل من غير العرب أناساً من الترك دافعوا عن الإسلام وأصبحوا حرباً على الدول البيزنطية سميت دولتهم التي استمرت قرابة قرنين من الزمان (٤٤٧ .

٦٥٦ هـ) بالدولة السلجوقية

ثم أيد الله هذا الدين بقبيلة تركية أخرى فرّت من وجه التتار يرأسها أرطغرل وابنه عثمان شدّوا من أزر السلطان السلجوقي ضد بيزنطة وقاتلوا معه فجعل رئيسهم أميراً، وبدأ الأمير عثمان هذا يفتح بلداً وراء بلد ، وأقام مع قبيلته دولة تركية في آسيا الصغرى شمال بلدكم سورية هذا ، وكان شيخه شيخ الطرق الصوفية يحضه على الجهاد في سبيل الله ضد بيزنطة ، فالتصوف ليس مجاهدة العدو الداخلي الباطني الذي هو النفس فقط ، ولكنه جهاد للعدو الظاهري أيضاً .

يا سادة . عثمان هذا وخذ المسلمين من كل الأجناس ، وجعلهم أمة واحدة كسروا بها قوّة الصّرب والبلغار حتى أصبحت البلقان أرضاً إسلامية . وتعاقب أولاده من بعده على الجهاد في سبيل الله ، وأعطوا أوربا درساً قاسياً حين قضى بنو عثمان على قوة التحالف الأوربي في موقعة أواخر القرن الرابع عشر الميلادي (نيكوبولس) .

وزاد من حظ بني عثمان أن مجموعة كبيرة من الأتراك هربوا أمام حجاجل التتار وانضموا إليهم في آسيا الصغرى مما زاد من قوة الدولة الحربية حتى جاء عهد السلطان مراد الثاني (٨٢٤ . ٨٥٥ هـ) حيث سيطر بنو عثمان على البلقان وشبه جزيرة اليونان وهزموا المجريين وغيرهم ، وبُعِدَ بذلك الخطر الأوربي إلى الأبد ، ولم يبق لهم إلا القسطنطينية وضواحيها ، وقد حاول مراد الثاني حصارها وفتحها ، لكن الله تعالى لم يأذن بذلك على يديه ، وقيض لفتحها السلطان بن السلطان زائرنا اليوم . فهل عرفتم من هو يا سادة؟؟

إنه السلطان محمد الفاتح بن السلطان مراد الثاني ومع الحلقة السادسة والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن سيدنا محمد الفاتح :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد السلطان محمد الفاتح سنة (٨٣٣هـ) وقضى طفولته تحت رعاية والده ، وأحضر له الأساتذة في كل فن وختم القرآن على يدي أستاذه الملا أحمد بن إسماعيل الكوراني الذي كان يلقبه محمد الفاتح : بأبي حنيفة زمانه .

وكان والده يستصحبه معه إلى بعض معاركه ليألف هو الجهاد ، وقد حذق الفتى في مدّة لم تتجاوز العشر سنوات : العربية والفارسية واللاتينية و الإغريقية وبعضاً من الإيطالية فضلاً عن التركية ، وكان مغرمّاً بدراسة التاريخ وقراءة سير العظماء الأبطال . فلما شبَّ زوّجه والده ، وجعله أميراً على إحدى المقاطعات ، فظهر من بؤادر أدبه وحسن سلوكه مع رعيته وعلماء عصره ما بهر الألباب حتى كانت مائدته لا تخلو من عالم أو شاعر أو رجل فكر .

فلما مات والده السلطان مراد الثاني سنة (٨٥٥هـ) تولى السلطنة بعده وهو في الحادية والعشرين من عمره ، ليقوم بأكبر مهمة سجلها التاريخ وهي فتحه مدينة القسطنطينية .

إخوتي في الله: ماذا تنتظرون من شاب في مقتبل العمر وأوج الشهوة أن يقدم لبلاده، هاهم شبانا اليوم يتسكعون ضمن الشوارع ، لادين ولا عفة ولا شرف ، همهم الأول تقليد الغرب واقتناء أحدث الجوالات والسيارات والخليلات ، إن أمة فيها أمثال هؤلاء الشباب لا ينصرهم الله على عدوهم ، فمن هم الشباب الذين ينصرهم الله على عدوهم ؟! .

إن السلطان محمد الفاتح درس للشباب اليوم أن يعودوا إلى الله ،قد آتاه الله كل شيء ، ودانت له البلاد ورقاب العباد ، لكنه لم يفرط في ذرة من أخلاقه ولا تراب بلده ، لقد آتى الله أولاد خدام كل شيء: الخدم والحشم والسلطة ولكنهم دمروا البلد وأدخلوا إليها النفايات النووية وسرق والدهم مال الدولة والشعب وباعوا واشتروا باسم الخدام هذا وآثر أن يكون خداماً في الغرب الكافر من أن يكون زعيماً في بلده وما سحب جنسيته السورية والحكم عليه بالخيانة العظمى إلا أول العذاب ،خدام وصل

قطار خيانتة اليوم إلى المحطة الأخيرة ألا وهو ذهابه لإسرائيل ليبوح بكل أسرار البلد لأعداء الأمة الصهانية (اللهم طهر هذا البلد من كل الخونة الذين يتسللون لؤاذا وافضحهم في عقر دارهم) أولاد خدام درس للخونة ، وأولاد بني عثمان درس للشرف والرجولة والدين .

ليسمع شباب الأمة ما فعل السلطان الشاب صاحب الواحدة والعشرين سنة : ما كاد السلطان يجلس على العرش ويتسلم سيف عثمان حتى بعث إليه ملك القسطنطينية يهدده بدفع جزية (إتاوة) كبيرة إلا سيعلنها عليه حرباً شعواء .

كانت تلك الشرارة التي أطلقها ملك القسطنطينية ، شرارة الحرب العارمة التي شنّها السلطان محمد الفاتح على الإمبراطور البيزنطي فبدأ بالاستعداد للحرب . إذ أمر ببناء قلعة مواجهة لأسوار القسطنطينية حشد لها الحشود الكثيرة لبنائها ، فبناها بشكل مثلث في ثلاثة شهور ، ونصب على جدرانها المدافع الضخمة .

ثم أرسل جيشاً ليقطع الطريق والإمدادات من جهة البر عن القسطنطينية ، فأرسل الإمبراطور البيزنطي إلى أوروبا يطلب نجدة ومدا ، وبدأت بوادر الحرب ، وقام السلطان محمد الفاتح بجمع جيش ضخم قوامه ربع مليون ، وأنشأ أسطولاً بحرياً ضخماً مألّه بالأسلحة والذخيرة وبدأت الحرب فعلاً من جهة بيزنطة فهاجمت السفن الإغريقية شواطئ تركيا الإسلامية فقتلت وسفكت ونهبت ولم تدع من أذاها مسلماً ولا نصرانياً ، وهجموا على المساجد والكنائس ونهبوا ما فيها ودمروا مدينة إزمير تدميراً تاماً .وهنا أقسم السلطان لينتقم ممن فعل ذلك .

أيها الأجابة : هذا درس لكل شاب أن يكون أسداً على الأعداء ، قوياً في دينه قوياً في توكله على الله مع الأخذ بأسباب النصر .

السلطان محمد الفاتح أول شيء فعله قبل حصار القسطنطينية أنه دمر كل القرى المجاورة لها، التي كانت تمدّها بالمؤن والذخائر ، وجمع جنده في أدرنه ، وكان حماس

الجيش العثماني للجهاد كبيراً لإعزاز كلمة الله ورغبوا في الشهادة ، وخصوصاً أن العلماء وشيوخ الإسلام شدوا من أزهرهم وبثوا فيهم روح الجهاد ، وهبت عليهم رائحة الجنة.

وصنع السلطان محمد الفاتح مدافع لم تشاهد أوربا مثلها من قبل ، كان يزن الواحد سبعمئة طن ، وتزن قذيفته الواحدة اثني عشر ألف رطل . ويجره مئة ثور يساعدهم مئة رجل يزحفون به مثل زحف السلحفاة ، وحين أرادوا تجربته لأول مرة في أدرنه أنذر السلطان سكان المنطقة فسمع دويه على بعد عشرين كم .

فهل نفعت هذه العدد العَدَد من جيوش الإسلام ، في كم جولة كانت الحرب ؟، هل يؤس السلطان من جولات الهزيمة وأوهنت من عزمته .

أجيب عن هذه الأسئلة كلها إن شاء الله تعالى في الجمعة القادمة بإذن الله ، وأدعوكم ألا تغييوا لنكون مع الجيش هناك ، ومن هناك أعود بكم إلى هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى الحبيب الأعظم ﷺ ، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله :

الصلاة والسلام عليك

(٢١٢)

السلطان محمد الفاتح/٢

٨٨٦ . ٨٣٣ هـ

الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ومزيد النعم
بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذي قدر الأيام دولاً بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين
بفضله ،

أحمده على أظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصرة أنصاره .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة موقن بتوحيده ومستجير
بحسن تأييده ، فسبحانه من عزيز لا حد يناله ، ولا حدّ يحتاله ، ولا أمد يحصره ،
ولا أحد ينصره ، ولا ولد يشفعه ولا عدد يجمعه ، ولا مكان يمسكه ، ولا زمان
يدركه ، ولا فهم يقدره ولا وهم يصوره ، لا إله إلا هو الكبير المتعال .
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المنصور بالرعب مسيرة شهر على أعدائه
وكتب الله على ذاته المقدسة ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا
وفي الآخرة ﴾

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

أما بعد : فيا معشر السادة الكرام :

وقفت معكم في الجمعة الماضية مع سيد من سادات الأمة وقائد من قادتها التي
تفخر بهم ، سيد يعد من أولاد الدهر المعدودين كما يقولون ، وهو سيدنا السلطان
محمد الفاتح رضي الله عنه ، رأيناه في الجمعة الماضية وقد جيش الجيوش في البر
والبحر مما جعل الإمبراطور البيزنطي يستنجد بأوروبا ، ولكن النجدة كانت قليلة .

إنني اليوم معشر السادة أنقل لكم الأنباء من أرض المعركة ، بثاً حياً بعين الإيمان واليقين ومع الحلقة السابعة والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن السلطان محمد الفاتح :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان :

حديثنا اليوم عن تحقق معجزة سيدنا محمد ﷺ عندما أخبرنا عن فتح القسطنطينية فقولوا صدق رسول الله .

انظروا بعين الإيمان إلى هذا الجيش الجرار الذي يقوده السلطان أمام أسوار القسطنطينية ، وأرى العلماء الأبرار وأبراراً من آل بيت سيدنا رسول الله أمام السلطان يتبارك بهم ويستنجد الله تعالى ويتوسل بجاههم أن ينصره الله تعالى ، فالتوسل والتبرك أمر مشروع لا ينكره إلا أحمق غبي ، وهو من أعظم الوسائل في حصول المقصود بين يدي العبد والدليل السلطان محمد الفاتح. إذ دقت طبول الحرب وأبواقها ، ونصب السلطان سرادق مركزاً لقيادته في وسط المعركة لا عن طريق الهاتف الميداني ولا عن طريق الخنادق المحكمة ، كان هو في مقدمة الجنود على البر ، ونسق خطة حربية حصد لها من البحر أيضاً / ٣٥٠ / سفينة ، وأصبح منظر الجيش من البر والبحر يوحى بالعظمة والقوة ، لكنه وعلى عادة سيدنا محمد رسول الله وكما أمر به الشرع المطهر فإنه بعد حصاره لمدينة القسطنطينية ذات الأسوار المحصنة المنيعة أرسل إنذاراً للإمبراطور يتعهد فيه (إن هو سلم المدينة أن يحترم سكانها ويؤمنهم على أرواحهم ومعتقداتهم وأموالهم) لكن الإمبراطور الأحمق رفض ، وأمر بغلق أبواب القسطنطينية واستنفار أهلها ، وأقام سلسلة طويلة لمنع السفن أن

تقترب من ميناء القسطنطينية كان هذا الرفض من الإمبراطور البيزنطي إشارة لبدء الحرب ، فبدأت المدافع تدك معاقل الأسوار ليلاً ونهاراً حتى امتلأت الخنادق تحت الأسوار بالانقاض ، واندفع الجنود تحت الأسوار وتسلقوها بالسلام ، ولكن قذائف بيزنطة تصدت لهم ، وانهمرت السهام من كل جانب حتى أظلم الليل ، وكانت الجولة الأولى من صالح بيزنطة .

لكن السلطان لم يهن عزمه ذلك ، وأصدر أمره إلى السفن بمهاجمة سفن أنت لنجدة بيزنطة ومنعها ومحاصرتها وقال للقائد البحري :
. إذا لم تنجح في ذلك فلا ترجع لي حياً .

وهنا حدثت الكرامة للجيش الإسلامي إذ تغيرت جهة الرياح لصالح الجيش الإسلامي ، وتلاحمت السفن وانتهاز القائد البحري الرياح العاتية ، وصار الأبطال يلقون بأنفسهم إلى السفن الإيطالية رغم النيران والقذائف ، ولكن السفن نجت إلى القسطنطينية ، وأرخی الليل سدوله ، وكانت الجولة الثانية من صالح بيزنطة ، ودقت أجراس الكنائس بالنصر .

إخوتي في الله :

أريد منكم اليوم أن تستيقنوا أن الذي يلزم العلماء ويجلس إليهم ويحترمهم كيف أن الله تعالى يفتح له مداركه إلى أبعد مدى حتى إنه يأتي بخوارق لم نسمع عنها إلا مرة واحدة، فإياك يا أخي المسلم أن تترك الجلوس إلى أهل الله وخاصته وهم العلماء، تعالوا بنا لنرى الأمر الجلل الذي تفتقت عنه قريحة هذا السلطان المؤمن الشاب صاحب السنوات الواحدة والعشرين، السلطان الفتى أخذ يبحث عن وسيلة لإدخال سفنه إلى ميناء القرن الذهبي لحصار القسطنطينية في أضعف جوانبها،
أعرفون ماذا فعل ؟

شيء لا يتصوره عقل ، نقل السفن عبر ثلاثة أميال عن طريق البر ، إذ مَهَّدَ الأرض بين الحقول الخضراء وأتى بالواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم ، وجَرَّ السفن عبر الأميال الثلاثة .

ورأت بيزنطة سبعين سفينة مشرعة تجرّ في الحقول من البوسفور إلى القرن الذهبي في ليلة واحدة، وكان عند أهل القسطنطينية نبوءة تقول: ستسقط القسطنطينية عندما ترى السفن تمخر على اليابسة، وحاول الإمبراطور حرق هذه السفن ولكنه فشل وتفوق الأسطول التركي المسلم على السفن الرومية العملاقة

أيها الأحبة الصّحب : مازلت أنقل لكم هذه الأنباء من أرض المعركة، السفن تمخر عباب اليابسة والمسلمون الأتراك يدكّون أسوار المدينة لنقبتها في آن واحد، وهم يرددون الله أكبر الله أكبر ، تشق عنان السماء فكانت هذه الكلمة تنزل على الأعداء كالصواعق المدمرة ، وحاولت حاشية الإمبراطور مراودته على الهرب لكنه أبى أن يتخلى عن شعبه .

وحاولت السفن المسلمة الهجوم على ميناء القرن الذهبي لكسر سلسلتها الحديدية ولكن دون فائدة ، وحين تعذّر تخطي الأسوار لجأ السلطان إلى خدعة جديدة ، أرسل سرايا لحفر أنفاق تحت الأسوار المنيعة ، واكتشف البيزنطيون نفقاً منها واستطاعوا صد هجماته ، وتسربّ الخوف إلى الجنود أن يكون هناك أنفاق أخرى واشتركت الحرب النفسية مع الحرب العسكرية ، وكلما تعذر طريق خرج لهم بفكرة جديدة وخدعة فريدة يفاجئ بها عدوه .

اسمعوا إلى الجهاز العسكري الجديد الذي ما سمعنا به إلا بحصان : طروادة استيقظ البيزنطيون ذات يوم فإذا بهم يرون أمامهم قلعة ، قلعة ضخمة شاحخة من الخشب أكثر ارتفاعاً وعلواً من سورهم الخارجي ، وذات ثلاث طوابق ، قد كسيت بالجلود السمكية المبللة ، محملة بالقذائف والجنود والأقواس ، قيل عنها في التاريخ

البيزنطي : لو اجتمع جميع نصارى القسطنطينية على أن يصنعوا مثلها لما صنعوها في شهر ، ولقد صنعها المسلمون الأتراك في ليلة واحدة .

وصار البيزنطيون يقذفون القلعة الخشبية والجنود بالنيران الكثيفة حتى حطموها واحرقوها ، وانسحب العثمانيون ، وابتسم السلطان وقال لمهندس القلعة :
. غداً نصنع أربعاً أخرى غيرها.

وأرسل الله تعالى السحب الكثيفة في سماء القسطنطينية وانعدمت الرؤيا وتشاءم الشعب الرومي ، وانقض نيزك من السماء على قبة كنيسة سانت صوفيا كاد يخطف الأبصار ، ومضت سبعة أسابيع والحصار قائم والحرب دائرة ، وكلت أيدي المدافعين عن الأسوار ، وأرسل السلطان إنذاراً أخيراً قبل الهجوم على المدينة ، لكن الإمبراطور رفض الاستسلام . فقال السلطان محمد الفاتح :

. عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر .

وأمر بمضاعفة الضرب بمدفعيته الثقيلة ، واخترع مدفعاً جديداً يرمي قذيفته إلى الأعلى فتتخطى السور وتسقط في قلب المدينة ، فأصاب الروم الهلع ، ولم يبق لبوادر الفتح إلا أيام .

يا شباب : اسمعوا كيف تكون القيادة ، وكيف يكون النصر ، وكيف بالإيمان والصلاة والصيام تستطيعون أن تفتحوا الدنيا وتنقاد لكم القلوب ، إذ أن السلطان قبل الفتح المبين أمر جنوده بالصيام تطهيراً لنفوسهم وتقوية لعزائمهم وإرادتهم ، وأمرهم بكثرة الصلاة على النبي ﷺ وذكر الله تعالى .

نحن اليوم نريد أن نتنصر ونحن نحارب الله ولا نقيم الصلاة في المواقع الجهادية وأماكن التدريب ، نريد أن نتنصر على أمريكا ونحن ننهى الناس عن الصلاة ونتوعدهم إن هم صلوا بالعقاب الأليم . خذوا الدرس ممن سبقكم، خذوا الدرس من السلطان محمد تلميذ سيدنا محمد ﷺ .

أمرهم بالصلاة والتهجد والدعاء وشجعهم على القتال ونفذ حديثاً للنبي ﷺ (من قتل قتيلاً فله سلبه) زار بنفسه المواقع الجهادية وحض المجاهدين ووعدهم إن افتتحت المدينة سيتركها لهم ثلاثة أيام يغنمون منها ما قدروا وقال لهم :
 . إن رسول الله ﷺ يقول : " لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش ."

ورأى الجنود النصر على أسنة الرماح ، ولمعت بوارق السيوف والمدافع وأمر الجنود بالتكبير ، وتقدمهم نحو الأسوار ، وهجم على المدينة من البر والبحر في وقت واحد ، وعلى كلمة الله أكبر سقطت المدينة بعد ساعات ورفرف عليها أعلام الإسلام على يد بطل شاب له من العمر ثلاث وعشرون سنة .

فهل صدق رسول الله ؟ اللهم نعم بأبي هو وأمي .

أمة الحبيب الأعظم : ترك السلطان محمد الفاتح المقاتلين يأخذون من المغنم ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع دخل القسطنطينية على جواده في موكب يتبعه فيه الأمراء والوزراء ، وصار الناس يهتفون بالنصر والفتح وهو لا يريد أن يقول : حمداً لله . ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد .

أيها الإخوة : الآن أنقل لكم الأنباء الإيمانية من وسط المدينة ، ها هو موكب السلطان يسير نحو كنيسة سانت صوفيا ، والسلطان يأمر جنوده بالكف عن القتل والسلب ، الآن وصل السلطان أمام الكنيسة ، ها هو يترجل أمام الباب وينحني ويضع حفنة من التراب على رأسه خضوعاً لله وشكراً له .

اسمعوا كيف يحتفل القادة العظام بالنصر ، لا يحتفلون بإحضار المغنيات والراقصات وآلات اللهو المحرمة ، إنما يسجدون لله شكراً وتعظيماً .

كانت أبواب الكنيسة موصدة ، فلما علم الرهبان أن السلطان على بابها

فتحت الأبواب ، ودخلها الفاتح العظيم ولأول مرة يسجد على أرضها الله تعالى سجدة شكر ، وأمن الناس هناك ، وصعد المذبح وأذن للصلاة لأول مرة في الكنيسة التي صارت مسجداً جامعاً من أعظم مساجد الإسلام يعرف اليوم بمسجد أياصوفيا .

وقام السلطان خطيباً فيهم ، وأمن الناس على أموالهم وعقائدهم وبيوت عبادتهم واستقبل البطريرك النصراني واحتفى به وتناول معه الطعام ، وتغيرت فكرة النصراني التي كانوا يحملونها عن المسلمين وساد الأمن في البلاد .

أيها المسلمون : إن السلطان محمداً الفاتح درس للملوك والحكام في عصرنا هذا فتح الفتوح ووطد دعائم الدولة ، ووضع التنظيمات الإدارية للدولة ، وبنى المساجد ، وأقام مصانع عسكرية وكتب فوق عرشه (العدل أساس الملك) وكان كثيراً ما يتمثل بقول الفاروق عمر : (والله لو تعثرت عنزة في العراق لسئل عنها عمر يوم القيامة) .

وأنشأ جامعات علمية في العلوم ، أحضر لها كبار العلماء والأساتذة في البلاد الإسلامية ، وصارت جامعة أيا صوفيا ذات شهرة علمية ، كبيرة حتى غدت القسطنطينية أجمل عواصم العالم وحاضرة الفنون والعلوم ، وسمّاها : إسلام بول أي عاصمة الإسلام .

أيها الإخوة الأعزاء :

لم تطو صحيفة السلطان محمد الفاتح من الوجود حتى أصبحت الدولة العثمانية الإسلامية دولة منيعة استمرت قرابة أربعة قرون ، وترك وصيته لولده من بعده قائلاً : " ها أنذا أموت ولكنني غير أسف ، لأنني تركت خلفاً مثلك . حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند ، وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن بابك ، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة فإن الدين غايتنا ، والهداية منهجنا ، وبذلك

انتصرنا، فالزم مسلكي، واعمل على توقيير هذا الدين وتوقيير أهله، فهذا هو واجب الملوك على الأرض "

هذه وصية السلطان محمد الفاتح للملوك تكتب بماء الذهب على حروف من نور :

يا حكام المسلمين : حذار حذار لا يغرنكم المال ولا الجند وإياكم أن تميلوا إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة فإن الدين غايتنا ، والهداية منهجنا ، والإسلام طريقنا ، والنبي قدوتنا ، والجهاد سبيلنا هذه هي الشعارات التي تعلو سماء دولتنا الحبيبة تحت راية القائد بشار فرددوها ولا تخافوا عدواً ولا شامتا .

وهكذا مضى السلطان محمد الفاتح ليلة الجمعة ١٥ ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ وهو بعد مايزال في الثامنة والخمسين من عمره ، مضى كما سيمضي كل ملك أو حاكم ، مضى وتركها إسلامية لا شرقية ولا غربية، وصدق رسول الله حين قال ﷺ " فلنعم الأمير أميرها " فقولوا : صدق رسول الله .

المصادر :

. السلطان الفاتح سلسلة دار القلم .

. تاريخ الدولة العلمية العثمانية محمد فريد بك المحامي

(٢١٣)

الملك المظفر ملك إربل

الحمد لله الذي الذي أطلع كواكب سعود المصطفى فطلعت ، وألمع بوارق وجوده فلمعت ، وبث أنوار أقمار شهوده فتلاأت وسطعت ، وقطع آمال الكفار من مرادهم فانقطعت ، وأذل ملوكهم بعزه فذلت لهيبته رقابهم وخضعت ، فالأنس بقدمه قد تأنست وارتفعت ، والجن من استراق السمع قد منعت ، والأفلاك قد سجدت وركعت ، وآمنة قد فازت بما حازت حين لجمال هذا الحبيب وضعت ، وحليمة الحليلة تشرفت له إذ أرضعت ، وألسنة المداح قد أثنت بشكره في الآفاق وأسمعت فيا رسول الله :

إني أتيتك وافداً عن أمة	بالشام ترجو كل خير للورى
حلت بها الأهواء في أرجائها	وتقطعت والأمر صار منكرا
أدرك أبا الزهراء قوماً فرّقوا	وأغث بإذن الله شعبك بالعري
صلى عليك الله يا خير الورى	صلى عليك الله ربي مكررا

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المستحق لكمال النعوت والصفات ، المسبّح بصنوف اللغات ، المحمود على جميع الأفعال والحالات ، حمداً دائماً على ممر الأوقات والساعات .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله استخرجه من أشرف الآباء والأمهات ، وابتعثه بالمعجزات البالغات والآيات والحجج الواضحات وختم به النبوة والرسالات ، فمن أراد أن يكون حبيباً للحبيب فلكثير عليه من الصلوات .

اللهم صلّ وسلم وبارك وعظم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه
وعترته وأنصاره وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام :

أعجبني جداً الحديث عن الملوك الشباب الذين حملوا الراية الإسلامية بصدق
وأمانة ، لذلك جئتكم اليوم بملك شقيق للسلطان محمد الفاتح ليس شقيق النسب
وإنما شقيق الدين والأدب ، شقيق العدل والجهاد ، شقيق الاتباع والمحبة لسيدنا
رسول الله ﷺ .

هو سيد كريم كان من أدين الملوك وأجودهم وأكثرهم براً ومعروفاً على صغر
مملكته ، لم يكن في الدنيا شيء أحب إليه من الصدقة والبذل ، لا للشعراء ، فما
كان للشعراء منه حظ ، ولكن للفقهاء والفقراء والوعاظ والمحتاجين ، تراه على طول
حياته يجلس العلماء ويدين مجالسهم ويستسلم لهم ، ويهش للوعظ ويصغي للفوائد .
ولا تسأل عن أخلاقه العالية فهو كثير التواضع ، حسن العقيدة ، سالم البطانة ،
شديد الميل إلى أهل السنة والجماعة ، لا يتفق عنده من أرباب العلوم سوى الفقهاء
والمحدثين ، وله ميزتان عظيمتان لم تكن لأحد من قبله :

أما الأولى : فهي أنه أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف بعرفة ،
ودفع فيه أموالاً طائلة ، وجعل بجبل عرفة مصانع للماء (صهاريج) يستسقي منها
الحجاج فجراه الله خير الجزاء .

وأما الثانية : فهي أنه أول من احتفل بالمولد النبوي الشريف بشكل يقصر
الوصف عن الإحاطة به لشدة محبته لسيدنا رسول الله ﷺ سبق بها مهرجانات
الاحتفال بمولد سيد البرية .

وهو على هذا وذاك فارس شجاع ، كانت له اليد الطولى مع صلاح الدين الأيوبي وصاحب حمّاه (والي حماة) في النصر بموقعة حطين ، أما صلاح الدين فلا يخفى على أحد ، وأما ملكنا اليوم فهو الملك المظفر الذي لجرأته في الحرب ومعرفته بفنون القتال لقب بالذئب الأزرق ، إذ ما عرف الهزيمة قط .

إننا معشر الإخوة الكرام مع الحلقة الثامنة والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الملك مظفر الدين :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه .

إخوة الإيمان : ولد الملك المظفر (واسمه كوكبوري بن علي) بقلعة الموصل سنة ٥٤٩ هـ من أصل تركماني ، وكان والده أميراً من أمراء التركمان يتصف بالقوة المفرطة والجرأة البالغة ، وكان من قواد آل زنكي ، فتح الفتوح الجلييلة وولي أعالي العراق والجزيرة ، ولما كبر وقارب المئة تنازل عن حكم عدد من المناطق وأبقى لنفسه مدينة إربل قرب الموصل شمال العراق ، وحين توفي سنة ٥٩٣ هـ تولى ابنه الملك المظفر هذا إربل وكان عمره أربع عشرة سنة .

لكن قائد جنده تعصّب عليه بعد مدّة ، واعتقله وأقام أخاه يوسف مكانه ثم أخرج الملك المظفر من البلاد ، فإلى أين توجه ؟!

توجه إلى السلطان صلاح الدين جندياً مجاهداً في سبيل الله ، فحظي عنده و لشجاعته وحنكته الحربية زوجه أخته . وجعله يده اليمنى إذ شهد مع صلاح الدين مواقع الجهادية ، وأبان فيها عن نجدة وقوة نفس وعزيمة صادقة ، ولما تضعضع الجيش الإسلامي غداة معركة حطين وكاد ينكسر ويتمزق رأينا كيف ثبت الملك المظفر مع صاحب حمّاه والسلطان صلاح الدين ، ثبتوا في قطعة من الجيش وتلقوا

بصدورهم هجمة الإفرنج ثم ردّوها كما تتلقى صخور الشاطئ الموجه العاتية العالية ثم تردّها ، وعاد بذلك الجيش الإسلامي إلى مواقعه بالنصر الأبلج في موقعة حطين الذي لا تزال تتحدث حديثه العصور .

إذا بقدر الله يتجلى بموت أخيه يوسف ، فالتمس المظفر من صلاح الدين أن يعيد إليه إربل ، فدفعها إليه سنة ٥٨٦ هـ .

فكيف سار الملك بأهل إربل ، هل جمع المال من حلّه ومن حرامه وأرسلها إلى بنوك سويسرا ، هل كان متكبراً وقد دخلها بعد أن أُخرج منها ؟

إن درس الملك المظفر درس لكلّ ملوك الأرض وحكام الدول ، إنّ سيرة الملك المظفر في السلم أعظم من سيرته في الحرب ، هناك النجدة والثبات والظفر ، وفي السلم العدل والإحسان والكرم ، وليس ذلك عجباً ولا نادراً في ذلك العصر ، فإن الناس على دين ملوكهم ، ومتى صلح الرأس صلحت الجوارح ، ومتى كان السلطان مثل صلاح الدين كان الأمراء مثل الملك المظفر .

إننا نسمع عن لينين وخرشوف وزعيم الإلحاد في العالم ماركس ، بأنهم كانوا ينادون بالعدالة الاجتماعية ، نعم نادوا بها ولكنهم كانوا يملكون كل شيء وشعوبهم تموت جوعاً ، يتنعمون بكل نفيسة وشعوبهم لا يجدون ما يسدّ رمقهم ، كلهم كذابون على شعوبهم ، من أراد أن يعرف العدالة الاجتماعية على حقيقتها فليقرأ لأتباع سيدنا محمد ﷺ .

إخوتي في الله : مازلت أنقل لكم هذه الأنباء من شهود العيان الذين كانوا في عصر الملك المظفر ، فقد بلغت العدالة الاجتماعية عنده أوجها فلم يسمع عن ملك من الملوك صنع مثلما كان يصنع ، وقد ترجمه عدد من المؤرخين فلا أدري أكنت أقرأ سيرة ملك من الملوك أم رئيس جمعية خيرية ، فلم يكن في الدنيا شيء

أحبَّ إليه من الصدقة ، فاسمحو لي . أيها السادة . أن أنتقل بحضراتكم من هنا إلى هناك ، إلى شمال العراق فرج الله عنها لأشهد معكم هذه المشاهد التي لم نسمع عنها إلا نادراً :

فقد بنى المدارس الشرعية وعيَّن فيها فقهاء من الشافعية والحنفية، ونفقة الطلاب والمدرسين على حسابه الخاص . وبني مشفى كبيراً وداراً للنساء الأرامل وداراً للصغار الأيتام ، وداراً للعميان والمرضى أصحاب المرض المزمن ، وداراً للملاقيط ووضع فيها مرضع ، وكل مولود يلتقط يحمل إليهن فيرضعنه ، وكان يقوم عليها بجولة تفتيشيه مرتين في الأسبوع يتفقدهم ويقدم لهم والكسوة والدنانير هذا على الصعيد العلمي والاجتماعي والصحي ، أما على الصعيد اليومي فكان له في كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز يفرّقها على الفقراء والمساكين في عدة مواضع من البلد ، وكانت له دار ضيافة للمسافرين والحجاج ، كلما قدم إليها أحد نزل معزراً مكرماً (الضيف ضيف الله) ، فإذا ما غادر زوّده بنفقه تليق به وبأمثاله .

وعلى صعيد الجهاد في سبيل الله : كان له أمناء يسرون إلى بلاد الكفار يفتكّون الأسرى المسلمين من أيديهم .

معاشر المسلمين : هذا غيض من فيض ، وكأنه شيء من الخيال لكنه حقيقي وواقعي ، والأدهش من هذا ، والوصف الذي يقصر عن الإحاطة به هو احتفاله بمولد سيدنا محمد رسول الله ﷺ . والاحتفال بالمولد يا سادة مشروع ومطلوب تعظيماً لهذا النبي الذي وصفه ربه عز وجل بقوله ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ وكيف لا يحتفى به وقد احتفى القرآن بولادة سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام وقد كان ﷺ يصوم يوم الاثنين والخميس فلما سئل كما في مدرسة الإمام مسلم . لماذا تصوم الاثنين ؟ قال: " ذلك يوم ولدت فيه " وكيف لا

يحتفل بيوم مولده وهو الرحمة المهداة التي قال عنها رب العزة والجلال ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾

وقد قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد اليهود يصومون عاشوراء فقالوا : إنه اليوم الذي نجى الله فيه موسى من فرعون فقال رسول الله : " نحن أولى بكم من موسى " . فصامه وأمر الناس بصيامه . فإذا كان موسى قد نجاه الله من فرعون فاتخذ رسول الله يوم نجاته عبادة ، فكيف بمن نجى الله به الكون كله من أوثان كانت تعبد في الأرض وشرك ووثنية

لقد ضرب الصحابة أيها الأخوة أروع الأمثلة باحتفالهم بسيد الخلق وحبيب الحق ﷺ ، ها هو سيدنا عبد الرحمن بن عوف يصرح التصريح التالي فيقول :
" كنا نتدارس سيرة رسول الله ﷺ كما نتدارس القرآن " وكان الصحب الكرام يتداعون بعضهم إلى بعضهم ويقولون : (تعالوا بنا نؤمن ساعة) ، تعالوا يجلس بعضنا إلى بعض نتذكر ما كان عليه رسول الله ﷺ ليزداد الإيمان في قلوبنا"
إن الاحتفال بمولد خير البرية وهو بعد أسبوع من الآن يذكرنا كم نحن مبتعدون عن السنة النبوية الشريفة ، ويدعونا للاقتداء والانتصار لهذا النبي المختار .

إن هذه الأشعار يا سادة ((الأناشيد الدينية)) غير المصاحبة لآلات اللهو المحرمة والتي تمدح سيدنا رسول الله ﷺ هي من عين السنة النبوية ، فكم وقف الشعراء أمام الحبيب الأعظم ينشدون المديح الشريف كسيدنا عبد الله بن رواحة وسيدنا حسان بن ثابت وسيدنا كعب بن زهير وغيرهم والنبي يسرّ بهم ويشيبهم على مديحهم ، بل إن أهل المدينة كلهم استقبلوا القادم العظيم من مكة ومعه صاحبه الصديق يضربون بالدفوف وهم ينشدون :

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا الله داع

وانطلقت ألسنة الجواري من بني النجار وهن ينشدن بحضور رسول الله ﷺ ويقولن :

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار
وارتجز الصحابة الكرام في أثناء بناء المسجد النبوي الشريف والنبي يسمعهم ويقرهم
وهم يقولون :

لئن قعدنا والنبي يعمل فذاك منّا العمل المضلل
بل كان يحرض سيدنا حسان بن ثابت على إنشاد الشعر الإسلامي ضد معسكر
الشرك ويقول له : " اهجمهم وروح القدس يؤيدك "
لكن يشترط في هذه الأناشيد . يا سادة . شرطان :

الأول : ألا يوصف رسول الله بالصفات التي تخرجه عن العبودية ، أي بالصفات
التي هي من حق الله تعالى ، فقد أنشدت الجواري بين يديه مرة إنشاداً فإذا بهن
يقلن : وفينا نبي يعلم ما في غد . فنهاهن ﷺ عن هذا الكلام .

الشرط الثاني : ألا يصاحبها آلة لهو محرمة كما يفعل بعض الفساق من المنشدين
في المفسديون والحفلات (عليه من الله ما يستحق)

بل هناك شرط ثالث : وهي ألا يكون فيها اختلاط بين الجنسين (الذكور
والإناث) فإنه محرم (محرم سماعه ومحرم حضوره)

أيها الأحبة والصحب : إن الإنشاد الديني يحبه رسول الله ، يحبه ، يحبه على رغم
أنف المعاند ، وهو القائل في مدرسة البخاري : "إن من الشعر لحكماً" .
والدليل أيضاً أن سيدنا رسول الله ﷺ لما ألقى سيدنا كعب بن زهير قصيدته
العصماء :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
وحين وصل إلى قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

قام رسول الله ﷺ من شدة سروره بهذا الشعر فخلع جبته وألبسها كعب بن زهير بل كان سيدنا النبي ﷺ يمتدح بذكر يوم مولده ويقرر هذا المديح وإليكم الدليل:

وقف سيدنا العباس أمام النبي ﷺ عندما رجع من غزوة تبوك وقال له :
يا رسول الله إني أريد أن امتدحك فقال رسول الله : ((قل لا يفضض الله فاك))
فألقى العباس أمام النبي أبيات من الشعر قال فيها :

إنك كنت في صلب آدم طيباً عندما خلقه الله تعالى وأدخله الجنة ثم نقلك الله من
أصلاب الأنبياء إلى أرحام النساء الطيبات حتى وصلت إلى نوح فنجاه الله من
الغرق لأجلك ، ثم انتقلت إلى إبراهيم فنجاه الله من الحرق لأجلك ، ثم نزلت في
أصلاب الأطهار من قريش في البيت الحرام ، ومما قاله محتفلاً بيوم مولده الأغر
مخاطباً أشرف خلق الله :

وأنت لما ولدت أشرقت الأبر
ض فضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي
النور وسبل الرشاد يخرق

بالله عليكم أليس هذا احتفالاً بمولد النبي الأكرم ؟ وأمام من ؟ أمام النبي
الأعظم ﷺ ، هل اعترض عليه النبي ؟ لا ، بل سر سروراً كبيراً من عمه العباس
وقال ﷺ : لا يفضض الله فاك .

إن الفرح بسيدنا رسول الله وتقديم الطعام في حبه قرينة إثر قرينة والنبي يقول (م) (من)
سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة) :

١ . قال الصحابي الجليل ابن مسعود رضي الله تعالى عنه :

ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند

الله قبيح "

- ٢ . قال الإمام السيوطي في كتابه الحاوي للفتاوى :
- يستحب لنا إظهار الشكر بمولده صلى الله عليه وسلم والاجتماع وإطعام الطعام ونحو ذلك من وجوه القربات وإظهار المسرات .
- ٣ . قال العلامة ابن عابدين : " صاحب الحاشية الشهيرة :
- فالاجتماع لسماع قصة صاحب المعجزات عليه أفضل الصلوات وأكمل التحيات من أعظم القربات لما يشتمل عليه من المعجزات وكثرة الصلوات .
- ٤ . قال الحافظ العلامة ابن حجر العسقلاني :
- قال تعليقاً على حديث الصحيحين " فأنا أولى بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه " فيستفاد منه فعل الشكر لله تعالى على ما منّ به في يوم معين في إسداء نعمة أو رفع نقمة ، ويعاد ذلك في نظير ذلك اليوم من كل سنة ، ثم قال : وأي نعمة أعظم من بروز هذا النبي ﷺ نبي الرحمة في ذلك اليوم وعلى هذا فينبغي أن يقتصر فيه على ما يفهم الشكر لله تعالى من التلاوة وإطعام وإنشاد شيء من المدائح النبوية المحركة للقلوب وإلى فعل الخير والعمل للأخرة .
- ٥ . قال الإمام الحافظ المفسر السيوطي رحمه الله تعالى في تفسير آية (قل بفضل الله وبرحمته ..) ناقلاً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه " فضل الله العلم ورحمته محمد ﷺ " .
- ٦ . عن معاوية رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما أجلسكم ؟ ، قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ به علينا ، قال : الله ما أجلسكم إلا ذلك ، قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذلك قال : أما إني لم أستحلفكم تهمّة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بك الملائكة " (رواه مسلم والترمذي والنسائي)

إن من يبدع المحتفلين بالمولد فإنه يبدع كبار علماء الحديث النبوي الشريف وهم
أعلم بالبدعة من غيرهم

هؤلاء الخراصون يتهمون سيدنا ابن حجر العسقلاني شارح البخاري وأمير
المؤمنين وابن كثير تلميذي ابن تيمية بالابتداع، إنهم يتهمون الحافظ السيوطي
وقبله الإمام العراقي وابن حجر الهيتمي شيخ علماء مكة بأنهم مبتدعون لاسمح الله
فهؤلاء جميعاً ألقوا في المولد النبوي الشريف
إذا كان هؤلاء مبتدعين فنحن مبتدعون (خسئوا والله بل هم الذين مرقوا من
الدين)

فكر رعاك الله ذكر محمد ففي ذكره العيش المهناً والأنس
فكل له عرس بذكر حبيبه ونحن بذكر الهاشمي لنا عرس

فما رأيكم . أيها الإخوة . أن نحضر عرس سيدنا محمد ﷺ الذي يقيمه الملك
المظفر ؟ والله ما هو بعرس فقط ، ولكنه مهرجان عظيم ، مهرجان المولد النبوي
الأول ، أنقله لكم من شاهد عيان هو المؤرخ ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان
بعد أن تصلوا على سيد ولد عدنان ﷺ .

يهياً لهذا الاحتفال قبل شهر أو أكثر ، وتبنى له الغرف الخشبية المزينة بالستائر
والأعلام والأضواء ، سرادقات أعجوبة ، أكثر من مئة غرفة ممتدة ويفعل مثل فعل
الملك القواد ورجال الدولة .

ويتوافد الناس من كل مكان إلى أرض إربل حتى يصير مثل أرض المحشر ويعدّ
كل خطيب أحلى خطبة ، وكلّ شاعر أحلى ما عنده في مديح النبي ﷺ ويأخذ
الناس عطلة بمناسبة هذه الاحتفالات ، كلّ الناس يوقفون أعمالهم ويبدأ المهرجان (
الذي يعمل سنة في الثامن من شهر ربيع وسنة في الثاني عشر منه للخلاف الوارد
في يقين يوم مولده ﷺ) .

يبدأ المهرجان بسوق عدد هائل من الإبل والبقر والغنم يتقدمها الأناشيد الدينية وقرع الدفوف وكأنها تزف على شرف الحبيب الأعظم لله عز وجل ، فتذبح كلها ويعد لحمها للولائم التي لم يشهد مثلها أحد من الملوك بهذه المناسبة.

ويخرج الملك بعد صلاة العشاء وبين يديه الشموع العظيمة والمشاعل والناس حتى ينتهي إلى مكان الاحتفال ، وقد نصب له برج كبير يجلس عليه مع رؤساء دولته والعلماء والصوفية . ثم يمر العرض العسكري بين يديه للجيش بفرسانه ورجالاته وأعلام راياته وطبوله ، ثم يمر طلبة المدارس والمنشدون ويستقرون في مكان الاحتفال . ثم يقوم الخطباء والوعاظ يذكرون سيرة الحبيب الأعظم ﷺ رجل من العلماء الصالحين (اسمه ابن دحية) قد ألف رسالة في المولد النبوي الشريف فألقاها في الاحتفال سَمّاها (التنوير في مولد السراج المنير) فكافأه الملك عليها ألف دينار ، وكان إذا أعجبت قصيدة شعر أو إنشاد منشد خلع على صاحبها الخلع والعطايا . ثم يبدأ الإنشاد ومديح النبي ﷺ ويقوم الذاكرون بالذكر ويكثرون من الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ ، وتكون أيام كلها محبة وتوقير وتعظيم لسيدنا ومولانا ﷺ .

فيا أمة الحبيب الأعظم : ها هو شهر المولد النبوي الشريف ، وها هي نسمات هواه ومحبه تهب علينا فمن هو الذي سيحتفل بهذا النبي الكريم محبة به علينا أن نظهر للغرب في هذا العام كم المسلمون يحبون نبيهم ورسولهم وكم يعظمونه، لا تدعوا وسيلة تظهر ذلك إلا فعلتموها لتكونوا كسيرة هذا الرجل الصالح الذي كان أعدل الملوك في الرعية ، ومن نماذج الحكم الصالح وكان حقاً تلميذاً من تلاميذ سيدنا محمد ﷺ في هذه المدرسة هنا وما أدراك ما هنا ، هنا

مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى النبي الأعظم وتحتنا
إليك يا سيدي :

الصلاة والسلام عليك

المصادر :

- سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٣٤.
- النجوم الزاهرة ٦/٢٨٢
- شذرات الذهب ٧/٢٤٣
- وفيات الأعيان لابن خكان ٤/١١٣
- رجال من التاريخ للطنطاوي ٢٦٧
- تاريخ المئة الأولى الهجرية للمؤلف

(٢١٤)

الإمام البوصيري

٦٠٨ . ٦٩٦ هـ

الحمد لله على النجم المبارك الذي هوى ، نورالعيون هو ، صاحب أعلى اللوا
ماحاز من الجمال وما حوى ، من فنا الدنيا سرى ، سر الوجود المجتبى ، نعمة
الباري النبي المصطفى .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مثل النبي لم يخلق في كل الأكوان
مطلقاً ، من قدره قد رقا .

وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله سيد السادات مجلى نور الله في المرآه ،
طاب الفرح بميلاد أطيب المخلوقات ، يامن إذا المكسور ناجاه جبر ، يا صادق
الوعد الأبر ، أنت رجائي في المقر ، أنت النبي المنتظر في الشفاعة والمستقر .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه سادات البشر،
وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

نحن اليوم مع إمام وفارس ، ليس فارس قتال ولكنه فارس شعر ، إذا ذكر شعراء
المديح النبوي فهو فارس هذه الحلبة بلا منازع ، إمام البلاغة والمديح ، أتى بآية من
آيات الفن ، ووردة في جبين الأدب العربي ، ونظم قصائد فيها من الجمال
والتصوير الأدبي ما جعلها غرراً في جبين الدهر ، ومن قصائده قصيدة ذاع صيتها
وبقيت خالدة حتى اليوم ، قصيدة عريقة المقام راسخة القدم في مديح سيد البرية
وصحابته وبيان فضل الشريعة الإسلامية السمحاء ، حاكى فيها قصائد جهابذة
الشعراء في العصر الإسلامي كسيدنا حسان بن ثابت وكعب بن زهير ، ووقع إجماع
الأدباء العلماء والأولياء على أن قصيدته أفضل مدائح الرسول العربي ﷺ .
ولمكانة هذه القصيدة صارت إنموذجاً للشعراء بعده ينسجون على منوالها
ويحرصون على مجاراتها .

إننا مع صاحب قصيدة البردة في الشعر الإسلامي سيدنا الإمام العارف بالله الأديب البليغ والشاعر المجيد والصوفي المتحقق سيدنا شرف الدين محمد بن سعيد ابن حماد البوصيري المصري .

ومع الحلقة التاسعة والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لترضوا عن الإمام محمد البوصيري :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد مولانا الإمام البوصيري سنة ٦٠٨ هـ في مدينة بوصير في مصر ، وأصله يعود إلى المغرب العربي ، وتلقته أيدي علماء عصره تثقفه وحبب الله إليه الأدب والشعر خاصة وشيخه في الأدب والنحو واللغة سيدنا الإمام أبو حيان التوحيدي ، كما لزم الإمام الفتح بن سيد الناس من أكابر الأئمة والحفاظ والإمام المعز بن جماعة ، وما زال مكباً على الدراسة حتى اتسعت معارفه وأتقن العلوم بأسرها ، وبرع في صنوف الآداب فأجاد صناعته المنظوم والمنثور وبدّ أقرانه في فنون الشعر والبديع دروس المذهب الشافعي حتى برع فيه وصار يفتي به وقرّ به السلطان الظاهر بيبرس وولاه بعض الوظائف ثم اعتزل الوظائف كلها وانطلق إلى مدينة الاسكندرية حين سمع بسيدنا أبي العباس المرسى (أحمد بن عمر) تلميذ سيدي أبي الحسن الشاذلي رحمه الله ورضي عنه ، فلازمه وانقطع على يديه إلى التصوف ، ومال إليه ودرس آداب الطريق وأسراره وحضر في مجالسه وأخذ عنه علوم الحقيقة ، ونشأت بينهما محبة ظهرت في شعره وبدت عليه إشارات الولاية ، وظهرت عليه بركة أهل التصوف حتى فاق أهل زمانه ، فلما توفي شيخه أبو العباس المرسى قام بتدريس العلم مكانه وترقى إلى درجة الإفتاء حتى لقب بلقب شيخ علماء الاسكندرية .

ونام ليلة فرأى حصار عكار وفتحها ، ورأى في منامه أن السلطان الظاهر يهاجم عكا ويفتحها ، ويساعده على ذلك شاب أسمر دمشقي يرمي أبراج القلعة الخشبية التي صنعها العدو بالنار فتحرقها .

فما إن انتبه حتى أسرع إلى السلطان الظاهر وأخبره بهذه الرؤيا وكان السلطان يهتم لفتحها فاستبشر بالرؤيا وراح يبحث عن الشاب الدمشقي حتى عثر عليه وكلفه بصناعة شيء صنع لأول مرة ألا وهو النابالم ، مادة تلتصق بالشيء فتحرقه ، وفعلاً حاصر السلطان عكا وهاجم القلاع الخشبية ورمائها بالنابالم فاشتعلت واحترقت الأبراج واحدة تلو الأخرى وكبر المسلمون وازدادت حُظوة البوصيري عند الناس والسلطان .

إخوتي في الله : لما بلغ الإمام هذه المرتبة من الولاية امتحنه الله ببلاء شديد ألا وهو مرض الفالج ، فمكث الإمام في بيته وأحضر له السلطان الأطباء فأعياهم معالجته ، وهو صابر محتسب راضٍ بقضاء الله وقدره لأن (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأئمة فالأئمة) .

وبدا ينظم قصيدة يستشفع بالنبي إلى الله تعالى أن يعافيه ، وكان كلما نظم أبيات يكررها بدأها بقوله :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلّة بفم

حتى أتمها مئة وستين بيتاً ، وفي ليلة قرأها كاملة وبكى ودعا وتوسل بالنبي ﷺ :
يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيف رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلّى باسم منتقم
ما سامني الدهر يوماً واستجرت به إلا ونلت جواراً منه لم يضم

ويختتم البوصيري قصيدته المدحية بالتوسل بجاه النبي ألا يخيب الله رجاءه أن يغفر له
ولسائر المسلمين قائلاً :

يارب بالمصطفى بلغ مقاصدنا واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم
واغفر إلهي لكل المسلمين بما يتلوه في المسجد الأقصى وفي الحرم
بجاه مَنْ بيته في طيبة حرم واسمه قسم من أعظم القسم

قصيدة نظمها بحب ملاً حنايا هذا الإمام وصدق بتوسله إلى الله تعالى وبنام تلك الليلة فيرى سيدنا النبي ﷺ ، رأى نفسه يلقي القصيدة أمام السيد الأعظم ، وشاهد السرور قد اعتري الحبيب الأعظم ، ورآه يتمايل سروراً ، فلما وصل البوصيري إلى قوله : (فمبلغ العلم فيه أنه بشر) وقف البوصيري وأرتج عليه فقال له سيدنا رسول الله ﷺ : قل (وأنه خير خلق الله كلهم)

وقام سيدنا رسول الله ﷺ يمسح على وجهه بيده المباركة وألقى عليه برده ، فانتبه الإمام البوصيري من نومه فرأى نفسه وقد عافاه الله تعالى وقام يمشي على رجله ، فستماها بالبرأة لأنه برئ بها من علته وزاد بها وزاد عليها :

كم أبرأت وصباً باللمس راحته وأطلقت أرباً من ربة اللمم
أيها الأحبة والصحب : خرج الإمام من بيته فجراً فصار الناس يهتفون به بشفائه فلقبه بعض الأولياء فاستوقفه وهناك وقال له : أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله فقال : أيها . قال : أمن تذكر جيران بذي سلم والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله ﷺ ورأيت رسول الله يتمايل وأعجبته وألقى على من أنشدتها بردة . فقال : أنا هو الذي ألقيت عليه البردة .

وصار الإمام البوصيري كثير الاجتماع بسيدنا النبي ﷺ في المنام واليقظة وكانت رائحة الإمام البوصيري لاجتماعه بالنبي الكريم تصدر عنه رائحة طيبة مسكية يشمها الكبير والصغير .

وتسامع الناس بالقصيدة وصارت تتلى في كل فرح ومولد ويستشفى بها من الأمراض وكم شفى الله بسببها أناساً كان اليأس قد بلغ من شفائهم ، وتابع الإمام البوصيري مديحه للحبيب الأعظم منظم قصيدة على حرف الهمزة تدعى الهمزية بدأها بقوله :

كيف ترقى رقيق الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقدحا ل سناً منك دونها وسناء

ويستبد به حب سيدنا رسول الله الذي كان أساس قصائده كلها فيخاطب
رسول الله ﷺ :

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته	لكل هول من الأهوال مقتحم
فاق النبيين في خلق وفي خلق	ولم يدانن في علم ولا كرم
فإن فضل رسول الله ليس له	حد فيعرب عنه ناطق بفهم
فانسب إلى ذاته ما شئت من شرف	وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

معشر الإخوة :

أستطيع أن أقول : إن حبَّ النبي الأعظم ملاً علياء سماء حياته وكان مخلصاً في
نظم قصائده فإذا بها كالهشيم واشتهرت في العالمين الإسلامي والغربي حتى ترجمت
إلى عدد من اللغات.

وقام السلطان عبد الحميد فأمر بخطها على القباب الداخلية للحرم النبوي
الشريف وقد شاهدتها بنفسي قبل أن تقوم الحركة الوهابية بطمس معالمها وانظروا إلى
رؤوس هذه الشبايبك لتروا أبيات البوصيري تزين هذه الشبايبك بالزخرفة
والسراميك.

وعارضها الشعراء في كل عصر وجبل منهم أمير الشعراء أحمد شوقي .
لكن كل المعارضين لقصيدته ماتوا هم وقصائدهم وبقيت قصيدة البوصيري واسمه
حياً حياة أبدية لشيء واحد فقط وهو حبه الصادق لسيدنا محمد ﷺ بقي حبيبه
في حياته وعند انتقاله إلى الدار الآخرة سنة ٦٩٦ هـ وعاش فقيراً ومات فقيراً
وحشره الله في زمرة المساكين تحت لواء سيد المرسلين تذكروا أنه ختم قصيدته بقوله :

وهذه بردة المختار قد ختمت	والحمد لله في بدء وفي ختم
أبياتها قد أتت ستين مع مئة	فرّج بها كربنا يا واسع الكرم
أبياتها قد أتت ستين مع مئة	اشف بها مرضانا فإن يا واسع الكرم
أبياتها قد أتت ستين مع مئة	ارحم بها موتانا يا واسع الكرم
مولاي صلّ وسلم دائماً أبداً	على حبيبك خير الخلق كلّهم

(٢١٥)

حسان بن ثابت

ت ٥٤ هـ

الحمد لله الذي وسع كل شيء رحمة وعلما ، وأسبغ على عباده المؤمنين نعماً جمه
، وبعث فيهم رسولاً من أنفسهم وأشرفهم عرباً وعجماً ، وأرجحهم عقلاً وحلماً ،
وأوفرهم علماً وفهماً ، وأقواهم يقيناً وعزماً ، وأزكاهم روحاً وجسماً .

أحمده سبحانه وتعالى وأشكره كما يحب ويرضى

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تيقناً وإخلاصاً لا تخيلاً ووهماً .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أخرجه من أفضل المعادن منبتاً ، وأعزّ
الأرومات مغرساً ، من الشجرة التي صدع منها أنبياءه ، وانتخب منها أمناءه . عترته
خير العتر وأسرته خير الأسر ، وشجرته خير الشجر ، نبتت في حرم وبسقت في كرم ،
فهو إمام من اتقى ، وبصيرة من اهتدى سراج لمع ضوؤه ، وشهاب سطع نوره ، وزند
برق لمعه ، سيرته القصد ، وسنته الرشد وكلامه الفصل ، وحكمه العدل .

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت مثل الرسول نبي الأمة الهادي
ولا برا الله خلقاً من بريته أوفى بذمة جاري أو بميعاد
من الذي كان فينا يستضاء به مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد
اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم
تسليماً كثيراً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

من هو المتحدث الرسمي لسيدنا محمد ﷺ ، من هو وزير الإعلام الإسلامي المعبر عن المسلمين في معركة الإسلام بينهم وبين كفار مكة ، من هو أكبر شعراء سيدنا رسول الله ﷺ الذي امتاز بالصدق والإخلاص ، والذي استطاع بما عرف من أنساب قريش أن يهجوهم هجاء موجعاً ، هجاء كان سيدنا النبي يراه أشد عليهم من وقع النبل .

إنه الصحابي الجليل الذي كان ينصب له الحبيب الأعظم منيراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله .

والنبي يقول له: (إن الله يؤيده بروح القدس ما نافح (دافع) عن رسول الله) .
هو شاعر فذ شهد النابغة بأنه شاعر حقاً ، وقال فيه الخطيئة : إنه أشعر شعراء العرب .

ورث الشعر عن أبيه ، وأورثه ابنه عبد الرحمن ، وحفيده سعيداً ، وعاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام وتوارث المسلمون شعره باحترام وتعظيم لصاحبه .
إنه أحد الشعراء الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن الإسلام ونبي الإسلام إلى جانب كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وكلاهما خزرجي أنصاري ، إلا أن عبد الله بن رواحة كان كل همه أن يعير قريشاً بالكفر وعبادة الأصنام فكان قوله أهون القول عليهم ، وكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم ، فلما أسلموا وفقهوا كان قول عبد الله أشد القول عليهم .

نحن اليوم مع سيد حمل الراية بشعره حتى ذلت أنصاب الشرك والوثنية ، ومع كل هذا المديح للنبي الكريم كان يقول بتواضع :

أنا ما مدحت محمداً بقصائدي ولكن مدحت قصائدي بمحمد

إننا مع سيدنا حسان بن ثابت الأنصاري ومع الحلقة الثمانية من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن سيدنا حسان :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد سيدنا حسان بن ثابت في المدينة المنورة سنة (٦٠ ق هـ) وأسرته من بني النجار أخوال رسول الله من الخزرج .

ولما شبَّ التقى بفحول زمانه من الشعراء أمثال النابغة الذبياني والأعشى والحطيئة يتكسبون الشعر ويحترفون بالمديح وأحسَّ بنفسه القدرة على قول الشعر الجيد ، ورغب في عرض مدائحه على ملوك العرب شرقي بلاد الشام فكان يُقدِّم بمدائحه عاماً ويقعد عنهم عاماً ويرجع عنهم بالجوائز السنية .

فلما هاجر الحبيب الأعظم ﷺ إلى المدينة أسلم سيدنا حسان مع أهل المدينة ، وبدأ قلمه السيل يفيض حباً بسيدنا محمد ﷺ

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم وقدس من يسري إليهم ويغتدي
ترحل عن قوم فضلت عقولهم وحلَّ على قوم بنور مجدّد
نبي يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مسجد
ليهن أبا بكر سعادة جده بصحبته من يسعد الله يسعد

إخوتي في الله : لم يترك سيدنا حسان مناسبة لنصرة النبي الكريم إلا اهتبلها واغتمها ، نافح عنه بشعره لأنه لم يستطع أن ينصره بسيفه ، لأنه كان جباناً ، لم يشارك بقتال مع النبي ولم يشهد معه غزوة ، وكان له بالمدينة بناء عال يسكنه ضم النساء والأطفال وكبار السن يوم الخندق ، وحسان يشرف عليهم حيث لا طاقة له بخوض المعارك بسيفه .

وسمع رسول الله يقول : (ما يمنع القوم الذين نصرُوا رسول الله بأسيا فهُم أن ينصروه
بألسنتهم) فقال حسان : أنا لها .

فقال رسول الله ﷺ : كيف تهجوهم وأنا منهم ، وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن
عمي ؟ : فقال : يا رسول الله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين . فقال :
أنت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك . فعلمه الصديق أنسابهم .

فجعل يهجوهم ويمدح رسول الله ﷺ :

وجبريل أمين الله فينا	وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله قد أرسلتُ عبداً	يقول الحق إن نفع البلاء
شهدتُ به فقوموا صدقوه	فقلتم لا نقوم ولا نشاء
ألا أبلغ أبا سفيان عني	فأنت مجوّف تحبّ هواء
هجوتَ محمداً فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفاء	فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركاً براً حنيفاً	أمين الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعرضي	لعرض محمد منكم وقاء

نحن فداك يا رسول الله

كل ذلك وسيدنا النبي يدعو له وهو يناضل عن النبي ويقول له :

. أجب عني ، اللهم أيده بروح القدس (م٧/١٦٢)

يا حسان : (اهجوهم وجبريل معك) (م٧/١٦٣)

. اهج قريشاً فإنه أشد عليها من رشق النبل .

أيها الأحبة والصحب : لئن كان سيدنا حسان لم ينصر النبي بسيفه فلقد نصره بشعره ونافح عنه بلسانه فشفى واستشفى ، وكان يفخر ، وحق له أن يفخر مع قومه الأنصار ، فقد آووا رسول الله والمهاجرين ونصروهم وأيدوهم وأكرمهم الله بنصر نبيه الذي أقام بهم دعائم الإسلام :

وَبِنَا أَقَامَ دَعَائِمَ الْإِسْلَامِ	اللَّهُ أَكْرَمَنَا بِنَصْرِ نَبِيِّهِ
وَأَعَزَّنَا بِالضَّرْبِ وَالْإِقْدَامِ	وَبِنَا أَعَزَّ نَبِيِّهِ وَكُتَابِهِ
قَسَمًا (لِعَمْرِكَ) لَيْسَ كَالْأَقْسَامِ	يَتْلُو عَلَيْنَا النُّورَ فِيهَا مُحْكَمًا

كان مديح سيدنا حسان مخلصاً به لأنه لم يمدحه لأجر دنيوي بل ليرضى عنه الله ورسوله ، حتى مدحه بأوصافه الحسنية ومن أجمل ما قال رضي الله عنه :

وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَرْقُطْ عَيْنَ	وَأَكْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءَ
خَلَقْتَ مَبْرُوءًا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ	كَأَنَّكَ قَدْ خَلَقْتَ كَمَا تَشَاءُ

وقد شعر النبي الكريم بإخلاص حسان للدعوة ، وحين أهدى إليه المقوقس عظيم القبط مارية وأختها سيرين لم يجد النبي إلا أن يهدي سيرين لحسان مكافأة له .
وقد حمل حسان لواء الإعلام عن نبي الأنام فكان اللسان المترجم للدفاع عن الإسلام ضد أعداء الشرك والوثنية ، وكان قلمه يؤرخ للأحداث التي خاضها رسول الله في غزواته ، وكلما ألم حدث أو تتابعت الفتوح أسرع حسان يؤرخها بشعره ويشيد بالدين الإسلامي ، فحين استشهد عمي سيدنا حمزة يوم أحد وأتت ابنته أمامة تسأل عن قبر أبيها خاطبها قائلاً :

فَإِنْ أَبَاكَ الْخَيْرَ حَمَزَةَ فَاعْلَمِي	وَزِيرَ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرَ وَزِيرَ
دَعَاهُ إِلَهُ الْخَلْقِ ذُو الْعَرْشِ دَعْوَةً	إِلَى جَنَّةٍ يَرْضَى بِهَا وَسْرُورَ

إن من ينظر في شعر سيدنا حسان يجد النفحات الإيمانية الكبيرة والمحبة الصادقة للدين الإسلامي ، وتعظيمه للنبي الكريم واضح جداً في شعره يجلجل صوته في المحافل والمجامع ليعلن على الملأ حبه لهذا النبي وقف في أحد المجامع يخاطب سيد الخلق وحبيب الحق فيقول :

أغرّ عليه من النبوة خاتم	من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم إليه اسم النبي إلى اسمه	إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله	فذو العرش محمود وهذا محمد
نبي أتانا بعد يأس وفترة	من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
وأنذرنا ناراً وبشّر جنّة	وعلمنا الإسلام فالله نحمد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا	سواك الهاً أنت أعلى وأعجد
لك الخلق والنعماء والأمر كله	فإياك نستهدي وإياك نعبد

معشر الإخوة الكرام : إن تعظيم النبي فرض في الدين لأن احتقاره كفر وردة ، وقد جاءنا الأمر من رب العزة والجلال ﴿ **لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ** ﴾ التوقير والاحترام واجب ، لذا كان سيدنا حسان لا يسمح لأحد أن يتطاول على مقام النبوة ، دخل رسول الله على الصحابة مرة فوقف له الصحب الكرام فقال لهم رسول الله : لا تفعلوا كما تفعل الأعاجم تقوم لملوكها نهاهم عن القيام له ، فلما دخل بيته قال سيدنا حسان للصحابة :
والله لو رجع رسول الله إلينا ولم تقوموا له لأعلنكم بسيفي هذا .

وإذا بالحبيب يدخل عليهم ثانية فيقوموا له . فيقول : ألم أنحكم عن القيام . فالتفتوا إلى حسان وقال : أجب عنا رسول الله فقال سيدنا حسان :

قيامي للحبيب علي فرض وترك الفرض أني يستقيم
عجبت لمن له عقل ولب يرى هذا الجمال ولا يقوم^(١)

أيها السادة : كانت وفاة الحبيب الأعظم مصيبةً حلت بالمسلمين لانقطاع الوحي وعدم رؤيتهم محياه الشريف ، فلقد كان أمان أهل الأرض بوجوده بينهم ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ فبكاه الصحب الكرام أشد البكاء ، وكان ممن بكاه شاعر الرسول حسان ، رثاه فقال :

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تغفو الرسوم وتحمد
ولا تحمي الآيات من دار حرمة بها منبر الهادي الذي كان يصعد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
إمام لهم يهديهم الحق جاهدا معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
عفو عن الزلات يقبل عذرهم وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا
وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يُفْقَدَ

ومن كثرة ما بكاه وشدة ملاقاه لفقد رسول الله عَمِيَ آخر حياته ، وكان قد بلغ مئة وعشرين سنة وعاش أبوه ثابت وجده المنذر وأبوجده حرام مثل ذلك ، ولا يعرف في العرب أربعة تناسلوا من صلب واحد عاش كل منهم مئة وعشرين سنة غيرهم حتى جاءته منيته في خلافة معاوية سنة ٥٤هـ (٦٧٤ م) رضي الله عنه

(١) هذه الحادثة ذكرها الإمام عبد الله الجرداني في كتابه (فتح العلام) عند استحباب القيام

تذكروا . يا إخوة . أن سيدنا حسان فضل الشعراء بثلاثة :
كان شاعر الخزرج قبل الإسلام ، وشاعر النبي في عصر صدر الإسلام ، وشاعر
اليمن في الإسلام ، وأنه أول وزير إعلام في الإسلام وأنه ختم حياته بالصلاة على
النبي فقال :

صلى الإله ومن يحف بعرشه
والطيون على المبارك أحمد

المصادر :

- . الإصابة لابن حجر العسقلاني
- . أسد الغابة لابن الأثير
- . المدائح النبوية في الأدب العربي زكي مبارك
- . حسان بن ثابت شاعر الرسول محمد إبراهيم سليم
- . سيدنا محمد في الشعر الحديث حلمي القاعود

(٢١٦)

عبد الله بن رواحة

ت ٨ هـ

الحمد لله الذي أرسل سيدنا محمداً رحمة للعالمين ، وقدوة للعاملين ، ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ، وجعله هادياً مهدياً ، وأرسله بشيراً ونذيراً ، وكتب السعادة لمن كان من أتباعه واتبع هديه إلى يوم الدين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أوحى الكتاب إلى نبيه وأمرنا بقوله: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله

نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل والأوثان في الأرض تُعبد
فحذرنا ناراً وبشّر جنّة وعلمنا الإسلام فالله نحمد
وشق له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمود وهذا محمد
فنوره أنور ، وبرهانه أظهر ، وصورته أجمل ، ودينه أكمل ، ولسانه أفصح ، ودعاؤه أنجح ،
وعلمه أرفع ، ونداؤه أسمع ، ونصره مؤيد واسمه محمد

وانسب إلى ذاته ماشئت من شرف وأنسب إلى قدره ماشئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له حدّ فيعرب عنه ناطق بفهم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه
وعترته وأنصاره وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

من هو الزعيم المطاع والفارس الشجاع والقائد المجرب والصحابي المقرب
والشاعر الشديد والشهيد السعيد الذي شهد له سيدنا رسول الله ﷺ بالشهادة
والجنة ، من هو نائب رسول الله على المدينة وواليتها حال غيابه ، من هو الذي زاد
عن حياض الإسلام أيام البعثة والحروب وكان أول خارج للقتال وآخر قافل عنه ،
من هو أحد أعلام المدينة المنورة ، الذي ساد في الجاهلية والإسلام وما غابت مفاخر
السيرة من علياء سمائه منذ إسلامه إلى أن لقي الله شهيداً مكرماً ، هو أحد الشعراء
المجودين الذين ردوا الأذى عن رسول الله والإسلام والمسلمين
(النووي) ؟ نحن نقف اليوم مع سيد طاولت مفاخره الشمس والقمر إننا مع
شاعر سيدنا رسول الله سيدنا عبد الله بن رواحة .

ومع الحلقة الواحدة والثمانين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع
الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن سيدنا ابن رواحة :
رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : سيدنا عبد الله بن رواحة ابن الأسرة الكريمة من أشرف أنساب
الخزرج الأنصار ، أسرة تمتاز بالفروسية والسيادة والتضحية والشعر في جاهلية العرب
وإسلامها ، وهي خصال لا تنبت إلا خصالاً كريمة مثلها ، قرض الشعر صغيراً ، ولما
اشتد ساعده أصبح شاعراً خطراً نافس فيه كبار شعراء زمانه ، وحين دعا رسول الله
الأوس والخزرج إلى الإسلام في موسم الحج نرى سيدنا عبد الله بن رواحة مع
السبعين الأنصار من أهل المدينة ، وأعطوه عهداً أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم
وأولادهم وأزواجهم فهنئاً له وكفاه شرفاً . وأقام رسول الله ﷺ حينئذ عليهم اثني
عشر نقيباً كان سيدنا عبد الله أحدهم ، وحين تمت البيعة خرج القوم يمهدون لأمر

رسول الله في يثرب ولأعظم هجرة تمت على وجه الأرض وما أن وطئت قدما سيدنا رسول الله دار الهجرة حتى أصبح ابن رواحة شاعر النبوة ، وأحد أمناء الوحي وكتبه القرآن .

إخوة الإيمان : كان الشاعر لسان قومه والمدافع عنهم ، كان صحيفة الدعاية ، وصوت الكرامة يصطنعه الكبراء ، ويخشى أذى لسانه العقلاء ولهذا كانت مساهمة الشعر في بناء مجد العرب لا تقل عن مساهمة الفرسان والأبطال ، وهذا إذا كان شاعراً لا يقاتل ، فكيف بكم إذا كان هذا الشاعر فارساً ومغوراً وبطلاً متفانياً كشاعرنا اليوم ، إن القتال في الإسلام ضد الشرك لا يقتصر على الأسلحة دون الألسنة . يقول سيدنا عبد الله بن رواحة مررت بمجلس رسول الله ﷺ وعنده أناس من أصحابه ، فلما رأوني نادوا علي فعلمت أن رسول الله دعاني فانطلقت نحوه ، وجلست بين يديه فقال : كيف تقول إذا أردت أن تقول كأنه يتعجب لذلك ، فقلت : أنظر في ذلك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركين . يقول سيدنا الزبير بن العوام : ما سمعت أحداً أجراً ولا أسرع شعراً من ابن رواحة ، سمعت رسول الله يقول له يوماً : قل شعراً تقتضيه الساعة وأنا أنظر إليك فانبعث مكانه يقول :

إني تفرست فيك الخير أعرفه والله يعلم أن ما خاني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن تثبت موسى ونصراً كالذي نصروا
فأقبل النبي بوجهه مبتسماً وقال : وإياك فثبت الله يابن رواحة فقال سيدنا عبد الله :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنبيك بالخبر

(صلوا عليه)

وتبدأ المشاهد والغزوات فنرى ابن رواحة ينخرط في جيش المسلمين كبطل من أبطال الإسلام ، وينصر الله نبيه في بدر فيسرع هذا الصحابي يبشر الأنصار في المدينة بنصر رسول الله ، فيشاهد الناس تخرج من دورهم (النساء والرجال والأطفال) يستقبلون الفاتح العظيم بالدفوف وهم ينشدون :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

(إمتاع الأسماع ٩٩)

وفي أحد تذرف عينا سيدنا ابن رواحة حين رأى شهداء أحد وخاصة سيدنا حمزة أسد الله وأسود رسوله ويكيه بكاء مرأً :

بكت عيني وحق لها بكاهها	وما يغني البكاء أو العويل
على أسد الإله غداة قالوا	أحمزة ذاكم الرجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعا	هناك وقد أصيب به الرسول
أبا يعلى بك الأركان هدت	وأنت الماجد البر الوصول
عليك سلام الله في جنان	مخالطها نعيم لا يزول

وفي الخندق كان ينقل التراب مع الصحب الكرام حتى وارى التراب بياض إبطينه ، وكان ينشد :

والله لولا أنت ما اهتدينا	ولا تصددقنا ولا صـلينا
فأنزلن سـكينة علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا	إذا أرادوا فتنة أبينا

(فارددهم الله خاسرينا)

وكان رسول الله مرار يرفع بها صوته :أبينا .. أبينا

فلما كانت الحديبية ثم عمرة القضاء في السنة السابعة للهجرة يدخل ابن رواحة بين يدي سيدنا النبي وهو آخذ بزمام ناقته وهو ينشد :

خلو بني الكفار عن سبيله قد نزل الرحمن في تنزيله
بأن خير القتل في سبيله خلوا فكل الخير في رسوله
نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

فقال سيدنا عمر : يا ابن رواحة : أفي حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ تقول هذا الشعر؟ فقال رسول الله ﷺ : خل عنه يا عمر، فو الذي نفسي بيده لكلامه أشد عليهم من وقع النبل .

إخوتي في الله : إن من يتتبع حياة سيدنا ابن رواحة يراه مجاهداً عابداً داعياً إلى الله تعالى فقد كان سيدنا أبو الدرداء صديقاً حميماً له قبل إسلامه (وقيل: هو أخوه لأمه) وكان سيدنا أبو الدرداء صديقاً متعلقاً بصنم له ، وكان سيدنا ابن رواحة يدعوه إلى إسلام فيأبى فقدم إليه مرة فلم يجده فسأل امرأته فقالت : خرج أخوك آنفاً . فدخل بيته ومعه القدوم فجعل يضربه وهو يرتجز :
(ألا كل شيء ما خلا الله باطل) حتى كسره ، ثم خرج فلما جاء أبو الدرداء إلى منزله وجد امرأته تبكي شفقاً منه ، وأخبرته الخبر فغضب غضباً شديداً ، ثم فكر في نفسه فقال : لو كان عند هذا الصنم خير لدفع به عن نفسه ثم انطلق حتى أتى رسول الله ومعه ابن رواحة فأعلن إسلامه أمام النبي الكريم .اسمعوا التصريح التالي يصرح به سيدنا أبو الدرداء يقول :

. أعوذ بالله أن يأتي علي يوم لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة ، كان إذا لقيني مقبلاً ضرب بين ثديي ، وإذا لقيني مدبراً ضرب بين كتفي ثم يقول : يا عويمر اجلس فلنؤمن ساعة . فنجلس فنذكر الله تعالى ما شاء ثم يقول : يا عويمر هذه مجالس

الإيمان ، مثل الإيمان مثل قميصك بينا أنك قد نزعته إذ لبسته ، وبيناً أنك قد لبسته
إذ نزعته القلب أسرع تقلباً من القدر إذا استجمع غليانها
ولذلك قال فيه سيدنا رسول الله : رحم الله بن رواحة إنه يحب المجالس التي
تباهى بها الملائكة ، رحم الله أخي عبد الله بن رواحة كان أينما أدركته الصلاة أناخ
" (طب حسن) .

يقول سيدنا أبو الدرداء : لقد رأيتنا مع رسول الله في بعض أسفاره في اليوم
الشديد الحر ، حتى إن الرجل ليضع من شدة الحر يده على رأسه ، وما في القوم
صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة " (ق) وحين نزل قوله تعالى ﴿ولو أنا
كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾
إذا برسول الله يشير إلى عبد الله بن رواحة ويقول :
لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل .

أيها الأحبة والصحب :

أرى الآن بعين الإيمان واليقين سيدنا طلحة حزيناً كئيباً منطوياً على نفسه وبدأت
قطرات الدمع تتلأل في عينيه ، سأله بعض الصحابة ما الذي أبكاك وأنت شاعر
رسول الله والمناضل عن الإسلام فقال : قد أنزل الله في حقي قرأناً يتلى قالوا : أين
؟ قال قوله تعالى ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون
وأ أنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ . فهذا ما أحزن وأبكى ابن رواحة لكن رب العزة
والجلال أنزل على نبيه ومصطفاه تزكية لابن رواحة والشعراء الإسلاميين فقال :
﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما
ظلموا﴾ .. فهذا نفس سيدنا ابن رواحة رضي الله عنه .

معاشر المسلمين : أكبر وسام ناله سيدنا ابن رواحة وسام الشهادة علقه على صدره سيّدنا رسول الله ﷺ فقد انتدب المسلمين ليوم مؤتة فاجتمع المجاهدون ومنهم سيدنا عبد الله بن رواحة في ثلاثة آلاف ، فأمر رسول الله على المقاتلين سيدنا زيد بن حارثة وقال : "فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب عبد الله فليترض المسلمون رجلاً فليجعلوه عليهم " . وهذا من معجزاته ﷺ فكان الله تعالى أعلمهم باستشهادهم فتجهز الناس وودعوا أمراءهم وسلموا عليهم وقالوا لهم : صحبكم الله وردكم إلينا

صالحين ودفع عنكم فقال ابن رواحة :

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرع يقذف الزبد
أو طعنةً بيدي حران مجهزةً بحربة تنفذ الأحشاء والكبد
حتى يقولوا إذا مروا على جدتي يا أرشد الله من غارٍ وقد رشدا
وسار القوم حتى أتوا معان فبلغهم أن هرقل نزل في منطقة مآب في مئة ألف من
الروم ومئة ألف من المستعربة ، فتشاوروا أن يبعثوا إلى رسول الله ليخبروه بكثرة
عدوهم ، فالمشركون قد بلغوا مالا يقل عن خمسين ضعفاً من عدد المسلمين .

فقام سيدنا عبد الله بن رواحة فقال :

. يا قوم ، والله إنّ التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس
بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا
فإنما هي إحدى الحسينين : إما نصر وإما شهادة .

معشر الاخوة الكرام

اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى مشارف المعركة، إنها هنا بقربنا على أطراف الأردن، هاهو جيش المؤمنين في كوكبة من الفرسان يرى أولها وآخرها، وها هو جيش الكفار يرى أوله ولا يرى آخره، جيشان يقول الناظر إليهما:

أنها لمحة من النظر وينتصر جيش العدو.

أيها الاخوة:

أنتقل بكم إلى موجة الحق، إلى الناطق الرسمي الصادق المصدوق (صلوا عليه)، فإن الحبيب الأعظم، زوى له مولانا عز وجل الأرض، وكشف الغطاء فيما بينه وبين المعركة، فرأى القلة المؤمنة والكثرة الكافرة، وها هو رسول الله يقف على المنبر في المدينة يصف المعركة لأصحابه.

وقد بدأت المعركة حامية الوطيس، ولا تصدّق أبداً ما تنظر إليه، فقد اندفع الصحابة نحو العدو، وكأن خلف كل واحد منهم كتيبة من الفرسان قوامها ألف مقاتل، لقد أذهل الروم قوة الإيمان كيف تندفع وتطيح بالهجمات، إنها كتيبة الموت، ولماذا لا يكون ذلك، فالرومي يقاتل بدون هدف وهو يعلم أنه عندما سيموت سيكون جيفة قدرة، أما المسلم فإن روحه سوف تتلقاها الملائكة لترفعها إلى جنة الخلد.

ومما زاد اندفاع الصحابة التكبيرات التي كانت في المعركة، وبسالة القواد الثلاثة فقد كان حامل اللواء والراية سيدنا زيد بن حارثة يطيح بسيفه بمنة ويسرة وكلما طاح به أطار رأس كافر منهم، وكان يندفع إليهم يهزم بسيفه هزاً، مقبلاً غير مدبر بين عينيه الشهادة في سبيل الله تعالى حتى لقي ضربات من الروم جعلته في عداد الشهداء.

فتناول الراية سيدنا جعفر بن أبي طالب ابن عم سيدنا النبي ﷺ وهو يومئذ شاب في الثالثة والثلاثين وراحت صيحات التكبير تجلجل أرض المعركة، وقتل من الروم مالا يحصى فأحاطت مجموعة فرسان بسيدنا جعفر فنزل عن فرسه فعقرها واندفع وسط الروم منطلقاً كالسهم وهو يردد:

يا حبذا الجنة واقتربها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

عليّ إن لاقيتها ضرابها

ولكن الكثرة تغلب الشجاعة ، فقد تجمع عليه فرسان العدو فقطع أحدهم يده اليمنى فأخذ اللواء بشماله فأهوى آخر على يده اليسرى فقطعت، فاحتضن اللواء بعضديه، والدماء تنزف منهما ولسان حاله يقول: لا يسقط لواء رسول الله على الأرض أبداً ما دمت حياً. ولكن فارساً رومياً ضربه ضربة قطعتة نصفين، وهنا بكى رسول الله ﷺ وهو على المنبر يرثي أصحابه، ودمعت عيناه ثم قال: تناول الراية عبد الله بن رواحة.

وقد تردد بعض التردد فصار يخاطب نفسه:

أقسمت يا نفس لتنزلنه لتزلن أو لثكـرهنـه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالي أراك تـكرهين الجنة
ويقول:

يا نفس إن لا تقتلي تموتي وما تميت فقد أعطيت
هذا حمام الموت قد صليت إن تفعلي فعلهما هـديت

وراح يقاتل ويشد على أعداء الله حتى لقي الشهادة كصاحبه، وهنا ورسول الله على المنبر ينعي سيدنا عبد الله بن رواحة قال: ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله تعالى عليه.

ثم قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فقليل له على من سلمت يا رسول الله؟.

فقال : رفعت إلي أرواح الثلاثة على سرر من ذهب في الجنة فسلموا عليّ فرددت عليهم السلام ثم قال: وقد أبدل الله جعفر بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء. لذلك- أيها الإخوة- سميت هذه السرية بغزوة مؤتة، فإن علماء السيرة اصطَلَحُوا على أن كل مجموعة من الجيش لا يخرج معها رسول الله تسمى سرية، إلا هذه، لأن رسول الله وصفها على المنبر وكأنه كان معهم ﷺ .

وهكذا . أيها السادة . قضيت مع حضراتكم مع شاعر فارس من أبطال الأئمة الأبرار من تلاميذ سيدنا محمد ﷺ هنا ، وما أدراك ما هنا هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله

المصادر :

أسد الغابة في معركة الصحابة لابن الأثير ت ٦٣٠ هـ

الإطابة في تميز الصحابة

لابن حجر العسقلاني ت

٨٥٢ هـ

إقناع الأسماع للمقرئ (أحمد بن علي) ص ٩٩

تاريخ المئة الأولى الهجرية للمؤلف

(٢١٧)

سيدنا كعب بن زهير

(ت ٤٠ هـ)

الحمد لله الذي فضل نبينا ﷺ على جميع الخلق أجمعين ، وفضل أمته على جميع الأمم السابقين واللاحقين .

واصطفى من هذه الأمة أناساً هم أصحاب سيد الأنبياء والمرسلين واختار منهم خلاصة هم حزب سيد الأخيار والصالحين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس أنبياء ومن عامة الناس أولياء بره متقين .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله أكرم به عبداً سيداً وأعظم به حبيباً مؤيداً فما أذكاه أصلاً ومحتداً ، وأطهره مضجعاً ومولداً وأكرمه أصحاباً كانوا نجوم الاهتداء وأئمة الاقتدا .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعترته وأنصاره وحزبه وأتباعه وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

مدح سيدنا رسول الله ﷺ يعد من جملة الطاعات والعبادات ، وهو أمر يحتاج للتوفيق من الله تعالى للعبد ، ولذلك منع الله أقواماً من الشعراء عن مديحه ﷺ فخرج المتنبي وأضرابه من الشعراء من هذا الخير العظيم ورزقه الله تعالى كثيراً من العلماء والصلحاء .

هذه المدائح النبوية . ياسادة . تذكر بشمائل الحبيب الأعظم ﷺ وأحواله الشريفة ،
فإذا ما أكثر العبد من سماعها بحيث يصير لا يذهب من خياله صورة هذا النبي
الكريم فإن الله تعالى يكرمه برؤيته في منامه ببركة الاشتغال بمديح سيدنا رسول الله
ﷺ فإذا ما رآه العبد في منامه يكرمه برؤيته في اليقظة ، وقد ثبت في الحديث
الصحيح قوله ﷺ : " من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي "
وقال :

" من رآني في المنام فقد رآني حقاً " ، وقال ﷺ " من رآني في المنام فسيراني في
اليقظة أو لكأنا رآني في اليقظة " (رواها الإمام مسلم) . وهذا تبشير بحسن
الخاتمة لمن رآه ﷺ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .
ونحن اليوم مع سيد اكتحلت عيناه بمراى الحبيب الأعظم ﷺ ومدحه هو شاعر
تخرج في بيت كله شعراء :

فأبوه شاعر ، بل من أصحاب المعلقات وهي القصائد التي كانت لجودتها تعلق
على جدار الكعبة في الجاهلية .
وزوج أمه شاعر ، وسلمى عمته شاعرة ، وأخوه شاعر ، وابناه عقبة والعوام
شاعران .

وشاء الله تعالى أن يهديه للإسلام بعد أن هجا رسول الله وأصحابه وينضم إلى
قافلة شعراء رسول الله المنافحين عن الإسلام ، وصارت كلماته سهاماً قاتلة في
صدر شعراء الكفار .

إننا مع مادح آخر في شهر ربيع الأنور مع سيدنا كعب بن زهير ، ومع الحلقة
الثانية والثمانين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع
بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن سيدنا كعب بن زهير :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد سيدنا كعب بن زهير وفي فمه ملعقة ملئت حكمة وفصاحة ورثها عن أبيه ، فأبوه زهير بن أبي سلمى أحد أصحاب المعلقات ، كان ينظم القصيدة أكثر من مئة بيت في شهر وينقحها ويهذبها في سنة حتى سميت بالحوليات ، شاعر عرف بالميل إلى الحكمة ، جرب الدهر ، وحلب أشطره ، خبر الناس وعرف نفوسهم فعمد إلى صياغة ذلك في شعره وأتى بما لم يسبق إليه .

وقد أجمعت كتب الأدب أن عمالقة الشعر في الجاهلية ثلاثة :
زهير بن أبي سلمى ، وامرؤ القيس (الذي يحمل لواء الشعراء إلى النار) ،
والنابغة الذبياني .

وقد أعجب المسلمون في الصدر الأول بحكم زهير لما فيها من صدق القول وحسن النظر ، ولما فيها من مبادئ الإسلام ، كقوله :

فلا تَكُثُمنَ الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكُتَم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يُعَجَلُ فيُنْعَم
واسمعوا إليه يختم قصيدته بقوله :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمي
هذا هو زهير والد سيدنا كعب ولولا أنه مات قبل بعثة النبي بسنة لكان أسلم والله أعلم . هذا هو الشاعر الذي تربى على يديه مع زوج أمه أوس بن حجر شاعر مضر في زمانه

إخوتي في الله : ظهرت بوادر الشعر عند سيدنا كعب منذ الصغر ، وكان والده ينهيه عن قوله مخافة أن يكون لم يستحكم شعره ، فيروى عنه ما لا خير فيه فكان يضربه في ذلك حتى قال مرة : والذي أحلف به لا تتكلم بيت شعر إلا ضربتك ضرباً يصرفك عن قول الشعر ثم لم يمتثل فحبسه .

لكن الولد سر أبيه ، وقد قالوا قديماً : من شابه أباه فما ظلم ، إذ صدف أن زار
النابعة زهيراً فحمر له وأكرمه ، ثم عرض لهما شعر فقال النابعة :

تراك الأرض إمامت حقا وتحي ما حييت بها ثقيلا

نزلت بمستقر العز منها

ثم وقف فقال لزهير : أجز . فهمهم ولم يُحضر بشيء ، وكان كعب يلعب بالتراب
مع الصبيان فقال له : ما يمنعك أن تقول :

" فتمنع جانبيها أن تميلا "

فضمه أبوه زهير إليه وقال : ابني وربّ الكعبة . ومن جيد شعره قوله :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدر

يسعى الفتى لأمر ليس يدركها فالنفس واحدة والهـم منتشر

والمرء ما عاش ممدود له أمل لاتنتهي العين حتى ينتهي الأثر

أيها الأحبة والصحب :

وهكذا نجد كيف استحکم الشعر عند سيدنا كعب وصار يقوله كالشعراء
الفحول، وخلف أباه أو كاد ، حتى انعقد إجماع رواة الشعر على أن كعباً كان أحد
الفحول المجودين في الشعر ، والمقدم في طبقتة ، وحين سئل أحد النقاد للشعر
(خلف الأحمر) أيهما أشعر زهير أم ابنه كعب ؟

فقال : لولا قصائد لزهير يذكرها الناس ما فضلتـه على ابنه كعب

معاشر المسلمين : أستطيع الآن بعد أن تحدثت عن هذا الشاعر أن أريكم حرص
أخيه بجير على أن يسلم ، فقد سبقه إلى الإسلام أخوه بجير وراح يدعوه إلى الإسلام
بعد أن هجا رسول الله فأمر النبي الكريم بإهدار دمه مع بعض من كان يهجون
الإسلام بشعرهم وغنائهم فأرسل بجير إليه أن رسول الله يعفو عمن جاءه تائباً وإلا
فانج بنفسك إلى أقطار الأرض .

فلما بلغ كعباً الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه فجاء إلى المدينة المنورة بعد فتح مكة ، وراح يسأل من هو أرق أصحاب رسول الله ﷺ فدلوه على سيدنا أبي بكر الصديق فأخبره خبره فقال : لا أحد يجير على رسول الله ﷺ ثم ذهب إلى الفاروق عمر فرده ، ثم ذهب إلى سيدنا عثمان فرده ثم ذهب إلى سيدنا علي فقال له : أرى أن تستأذن رسول الله ﷺ ثم تعلن إسلامك أمامه ، فإنه يعفو عنك فغدا به إلى رسول الله ﷺ حيث صلى الصبح فصلى معه ثم قيل له : هذا رسول الله فقم إليه فأستأذنه . فقام وهو مثلثم فقال لسيدنا النبي : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت محمد رسول الله الأمان يا رسول الله ومد يده فوضعها في يد سيدنا محمد رسول الله ﷺ وقال

. يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئت بك به ؟ قال رسول الله : نعم .

فكشف كعب عن وجهه وأعلن إسلامه أمام رسول الله ، وقَبِلَ رسول الله توبته وعفا عنه ، وهنا ألقى سيدنا كعب قصيدته المشهورة في مدح النبي ﷺ بدأها على عادة العرب بمقدمة غزلية مطلعها :

بانث سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

مقدمة نظمها كعب على طريقة شعراء الجاهلية قبل أن يجتمع بالنبي الكريم ويسلم على يديه ويعرف آداب الإسلام ، فلينتبه أهل النهى منكم وليعلم أنه لا يجوز التشبيب أو التغزل بامرأة معينة في الإسلام ، ولهذا أقره رسول الله على طريقته لأنه كان حديث عهد بجاهلية ، ولو صدرت هذه القصيدة بعد إسلامه واجتماعه بسيدنا النبي ﷺ ومعرفته أحكام الدين وآداب المسلمين ولزوم كمال التأدب في خطاب سيد المرسلين لما كان فيها مثل هذه المقدمة الغزلية ، لأنه لم يحدث من شعراء النبي كحسان

وابن رواحة وكعب بن مالك رضي الله عنهم أن ذكروا ذلك في مقدمة شعر مدحوا به رسول الله إلا مع قرب عهدهم بالجاهلية .

وكيف يكون ذلك وهم أوفر الناس عقولاً وأعظم الناس أدباً مع الله ورسوله ، وقد قال الله لهم ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾

أتراهم بعد أن سمعوا هذا يضعون سفاهات الغزل بالنساء وأوصافهن المستهجنة موضع الصدقة في مناجاة رسول الله ؟ حاشاهم

ونحن . يا إخوة . على ما بيننا وبينهم من الفرق العظيم ندرك بالبداهة عدم استحسان ذلك ، ومن ذا الذي يستحسن أن يُتَغَزَّلَ به أو بأبيه أو برجل جليل من قومه أو ممن يعتقدهم ويجلهم من العلماء والأولياء يتغزل بهم كما يتغزل بالولدان والنساء ، لا شك أن ذلك لا يستحسنه أحد من العقلاء .

نعم من الواجب ذكر محاسنه ﷺ الجميلة وأخلاقه الجليلة التي اشتملت عليها ذاته الشريفة من صفات الجمال والكمال ، ولكن لا على وجه التغزل بل على وجه العلم والتعظيم والإجلال .

أما سيدنا كعب فذكر ذلك لأنه قريب عهد بجاهلية . وبعد أن ألقى خمسين بيتاً جعلها بين يدي مديحه لسيدنا رسول الله ، وصوّر فيها حاله حين أهدر دمه ، وكيف أن أصدقاءه تخلو عنه وأنه فقد المجير والملجأ .

اسمعوا وتذوقوا الشعر الأصيل :

إنك يا بن أبي سلمى لمقتول	تسعى الوشاة بجاييها وقولهم
لا أهيتك إني عنك مشغول	وقال كلُّ صديق كنت آمله
فكل ما قدّر الرحمن مفعول	فقلت خلوا سبيلي لا أبا لكم
يوماً على آلة حدباء محمول	كل ابن أنثى وإن طالت سلامته

ثم راح يطلب العفو من الحبيب الأعظم ﷺ ويستشفع لديه بشعره :
 نبئت أن رسول الله أوعدي والعفو عند رسول الله مأمول
 مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة ال قرآن فيها مواعيط وتفصيل
 لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت في الأقاويل
 وبعد هذا الاعتذار اللطيف انتقل إلى الغرض الأسمى وهو مديح سيدنا رسول الله
 ﷺ فقال :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
 في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
 شم العرانيين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سراويل
 ليسو معاريج إن نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا
 لا يقع الطعن إلا في نحورهم ولا لهم عن حياض الموت تهليل
 فما كان من الحبيب الأعظم إلا قام وخلع بردته وألبسها كعب بن زهير من شدة
 سروره بهذا البيت (فصلوا عليه)

لقد أسلم كعب وحسن إسلامه وبدأ مرحلة جديدة من حياته نظيفة تقية بيضاء
 ناصعة ، وملاً فراغاً كان قد تركه وفاة سيدنا عبد الله بن رواحة حين استشهد بمؤته
 وكان لا يترك فرصة يمدح فيها رسول الله إلا اهتبلها واغتنمها ، ومما
 قال فيه :

تجري به الناقة الأدماء معتجراً بالبرد كالبدر جلا ليلة الظلم
 ففي عطافيه أو أثناء بردته ما يعلم الله من دين ومن كرم

وهكذا أيها السادة بقي سيدنا كعب يدافع عن الإسلام بشعره حتى وافته منيته سنة ٤٠ هـ و اشترى معاوية من ولده البردة النبوية ، وصار الخلفاء يلبسونها في الأعياد متبركين بأثر الرسول ﷺ فالتبرك بأثار الرسول والأولياء والصالحين جائز هنا وهناك ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله

المصادر :

- ١ . الإصابة في تميز الصحابة لابن حجر العسقلاني
- ٢ . الروض الأنف للسهيلى ٣١٢/٢
- ٣ . سيرة ابن هشام ٥٠٢/٢
- ٤ . أسد الغابة لابن الأثير
- ٥ . دلائل النبوة للإمام البيهقي
- ٦ . البداية والنهاية لابن كثير سنة ٨ هـ

(٢١٨)

الإمام الماوردي

٣٦٤ - ٤٥٠ هـ

الحمد لله الذي رفع منازل المخلصين ، وتجلى بالرضوان على المطيعين
والمحسينين ، أحمده حمد النبيين إليه ، وأشكره شكر المعتمدين عليه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القائل في محكم كتابه المبين
﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين وإمام المتقين ومن شرفه الله على
جميع المخلوقين ونبأه وآدم بين الماء والطين وأرسله إلى الخلق كافة فقال تعالى في كتابه
الحكيم ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ فجعل مقامه رفيعاً ، وحسنه بديعاً ،
ومولده للمؤمنين ربيعاً

هذا ربيع أتى بالبشر يتسم لأجل طه الذي بالله يعتصم
خير النبيين لم يذكر على شفةٍ إلا وصلت عليه العرب والعجم
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلم
تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

لا أستطيع اليوم أن أقوم بإحصاء مناقب شخصيتنا العبقريّة ، لكثرة ما أعطاه الله
من الفضل العميم ، ولكي أترك لكم أن تعرفوا قدره أو بعض قدره أدعوكم فوراً
لحضور المجلس الفقهي العام الذي يعقده هذا الإمام لطلابه الذين لا يحصون كثرة ،
فاسمحوا لي أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك إلى حاضرة العراق بغداد فرج الله عنها ،

لأشهد معكم نظم الدرر في الفقه لتروا كيف تمكن هذا الإمام من ناصية الفقه ،
وإليكم هذا المشهد ، مشهد الطلاب ويدهم الأقلام وهم يتابعون الإمام ويكتبون ،
يقول هذا الإمام : الوضوء يشتمل على أربعة أقسام

فقسم فريضة ، وقسم سنة ، وقسم هيئة ، وقسم فضيلة

أما الفريضة : فست لا يختلف فيها المذهب الشافعي ، وسابع يختلف فيه :
أحدها : النية . والثاني : غسل جميع الوجه ، والثالث : غسل الذراعيين مع
المرفقين . والرابع : مسح بعض الرأس وإن قل . والخامس غسل الرجلين مع
الكعبين . والسادس : الترتيب . والسابع المختلف فيه : الموالاة . (فعلى القول
القديم فرض) .

وأما السنة فعشر : خمس قبل الوجه ، وخمس بعده :

فأما الخمس التي قبل الوجه : فأحدها : التسمية . والثاني : غسل الكفين ثلاثاً ،
والثالث : المضمضة . والرابع : الاستنشاق . والخامس : المبالغة في الاستنشاق إلا أن
يكون صائماً فيرفق . وكان أبو العباس بن سريج يضم إليها سادساً : وهو السواك وأما
الخمس التي بعد الوجه : فأحدها التبدئة بالمياحين .

والثاني : استيعاب جميع الرأس

والثالث : مسح الأذنين ظاهرهما وباطنهما بماء جديد .

والرابع : إدخال السبابتين في صماخي الأذنين .

والخامس : تحليل أصابع الرجلين .

وكان أبو العباس بن القاص يضم إليها سادساً : وهو مسح العنق بالماء

ويتابع هذا الإمام تقسيما للفقه وترتيباً للأبواب بشكل يأخذ بعقول الطلاب حتى
فاق أهل زمانه .

وإمامنا اليوم يا سادة ليس فقيهاً فحسب بل هو قاضي القضاة ، وهو عالم بالسياسة
عفواً نابغة زمانه في السياسة الإسلامية ، فقد ألف كتباً قل نظيرها في المذهب .
أيها الإخوة : لا شك أنكم أصبحتم في شوق لمعرفة هذا الإمام العلامة ، إنه الإمام
الماوردي (نسبة لبيع ماء الورد) سيدنا علي بن محمد بن حبيب ومع الحلقة الثالثة
والثمانين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه
الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام الماوردي :
رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد الإمام الماوردي علي بن محمد في البصرة سنة أربع وستين وثلاثمئة
هجرية (٣٦٤هـ) ونشأ محباً للعلم وأهله ، دخل المسجد فرأى شيخاً من شيوخ
الشافعية يلقي درساً يعظم فيه طالب العلم . ويذكر الآيات والأحاديث التي تشيد
بالعلم والعلماء ، ثم يذكر فيه أقوالاً للإمام الشافعي في فضل طلب العلم ، وسمعه
يقول : قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : " من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد
الآخرة فعليه بالعلم . ما أحد أروع لحالقه من الفقهاء ، ومن تعلم القرآن عظمت قيمته
، ومن نظر في الفقه نبه قدره ، ومن نظر في اللغة رق طبعه ، ومن كتب الحديث
قويت حجته ، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه " .

أثرت هذه الكلمات النورانية في نفس الإمام فاتخذها له منهجاً في الحياة ، ترك كل
شيء وأقبل على العلم ، زهد بالدنيا وانكب على التعلم وهو يكرر ويقول :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله فأجسادهم دون القبور قبور
وإن امرأ لم يحيي بالعلم صدره فليس له حتى النشور نشور

انكب الإمام الماوردي علي بن محمد على التحصيل العلمي بكليته في مجالس الفقهاء والمحدثين والمناظرين وأهل العربية والتفسير فلم يرفع رأسه عنها حتى أكرمه الله تعالى فامتلك الحجة وناصية العربية .

ولم يكتف بعلماء البصرة ، بل غادرها مرتحلاً إلى بغداد حاضرة العلم والأدب فارتاد مجالس الأئمة الثقات الأعلام . ولم يكتف بالتفقه على المذهب الشافعي وبمذاهب الفقهاء وخصوصاً الأئمة الأربعة . وأنتم تعرفون أحد شيوخه من الذين ترجمناهم وهو الإمام أبو حامد الاسفراييني (أحمد بن محمد) فقد درس عليه بعد أن مات شيخه الصيمري (عبد الواحد بن الحسين ت ٣٧٦ هـ)

إخوتي في الله : نال الإمام الماوردي أعظم الأوسمة من أسيادته الذين شهدوا له بالنبوغ والاجتهاد وأجازوه بأطراف العلوم فاتخذ لنفسه حلقة في المسجد يقصدها طلاب العلم وذووا المكانة فيه يشرح لهم في دروسه أصول الفقه وقواعده، ودرّسهم الفقه السياسي وكتب فيه ، أريد أن أشرح لكم كيف أبدع الإمام الماوردي كتباً للمكتبة الإسلامية ، كتباً رائعة في بابها .

إذ يوجد عندنا في المذهب الشافعي كتاب اسمه مختصر المزني (مجلد واحد) ألفه الإمام المزني (إسماعيل بن يحيى ١٧٥ - ٢٦٤ هـ) صاحب مولانا الإمام الشافعي رضي الله عنه وتلميذه المباشر ، بل أفقه تلاميذه ، شهد له مولانا الإمام الشافعي بسعة الإطلاع والعلم فقال فيه : (المزني) لو ناظر الشيطان لغلبه) وقال مرة : المزني ناصر مذهبي .

وقد صدق مولانا الإمام الشافعي فقد قام المزني فألف مختصره من سائر كتب الإمام وأدخل فيه اجتهاداته وأحكامه .

وهذا المختصر . يا أحبابنا . عدّه الإمام النووي واحداً من الكتب المشهورة التي يحتاجها كل مبتدئ ، ويرجع إليها الخواص (وهي مختصر المزني . والمهذب . والتنبيه . والوسيط . والوجيز) .

ولشدة اعتناء الفقهاء بهذا المختصر وصلت شروحه وتعليقاته ومختصراته إلى تسعة عشر .

إخوتي الكرام : أخذ الإمام الماوردي هذا المختصر وعمل له شرحاً من الفقه المقارن ذكر فيه اختلاف الفقهاء ليستغني الناس به عن جميع الكتب ، ولم يقل لأحد أنه يؤلف كتاباً ، عفواً موسوعته الفقهية النادرة ومن أراد رؤيتها فهي في غرفتي في المسجد ، صدقوني يا إخوة كتابه هذا احتوى معظم مذاهب الفقهاء خصوصاً المذهب الشافعي حتى قالوا : لم يؤلف قبله مثله في المذهب ، ولذلك سماه بالحاوي . لكن الكتاب النادر الذي ألفه هو كتاب خاص بالسياسة وأحكامها والخلافة وموجباتها ، وكيف يدير كل وزير وزارته ، وكل والٍ ولايته ، سبق بهذا الكتاب كتاب (الأمير لميكافيلي) .

أتعرفون بماذا سمى هذا المؤلف : سمّاه : الأحكام السلطانية ، ثم ألف كتاباً آخر في الباب نفسه سمّاه نصيحة الملوك ، وكتاباً ثالثاً هو التحفة المملوكية .

هذه الكتب الثلاثة يا سادة تعد دستوراً عاماً للدولة الإسلامية والأسس التي تقوم عليها ولأهمية كتاب الأحكام السلطانية ترجمه الأوروبيون إلى لغات متعددة .

أيها الأحبة والصحب :

بلغ الخليفة في ذلك الزمان (من بني بويه) مكانة الإمام في العلم وثناء الوزراء والولاة عليه فقلده القضاء في بلدان شتى ، ففاق قضاة زمانه ، فنال أعظم لقب من ألقاب العلماء لقب أفضى القضاء ، فحسده عليه شيخه الصيمري فلم يقر هذه التسمية وقال : . لا يجوز لأحد أن يتسمّى بأفضى القضاء .

إن إخلاص الإمام الماوردي وما وصل إليه من مرتبة في العلم جعله يصل إلى مرتبة
مستشار الخليفة وسفيره إلى السلجوقيين .

وهذه المكانة التي وصل إليها الإمام لم تجعله مداهناً ولا مسخراً أحكامه لخدمة
أغراض الخليفة وأعوانه ، بل لم تكن على حساب معتقده الديني ، وإنما كان الحق
نصب عينيه لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولأدلل لكم على هذه القضية اسمحوا لي أن
أنتقل بكم إلى هناك إلى بغداد فرج الله عنها ، فإن الخليفة البويهري أتى أمراً عظيماً
لأول مرة في تاريخ الإسلام ، فسمى نفسه بشاهنشاه أي ملك الملوك ، وأفتى له
بعض العلماء (طاهر بن عبد الله الطبري) بالجواز لكن ملك الملوك من ؟ الله تعالى .

ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب

الله يعطي من يشاء بغير سعي أو طلب

لكنّ حيلتك الدعاء فقف على حد الأدب

وحين سمع الإمام الماوردي بما قام به الخليفة رئيس الدولة البويهية خرج على الناس
ليعلن بطلان هذه التسمية وأنها خاصة بالله تعالى ، وأظهر احتجاجه بانقطاعه عن
مجلس الخليفة وقطع وشائج الصداقة معه ، مما دفع بجلال الدولة إلى استدعائه وسؤاله
عن امتناعه وفتواه وقال له معترفاً باستقلال رأيه وصدق إيمانه : إنك لو حايت أحداً
لحايتني لما بينك وبينك وما حملك إلا الدين فزادت بذلك مكانتك عندي .

هذا موقف أعزّ فيه الإمام الدين ، ولم تأخذه في الله لومة لائم فكان بحق قاضي
الحق .

لكن العجب العجاب الذي ماسمنا به أبداً في حياتنا إلا عن هذا الإمام أنه لم
يُظهر أي تأليف له أمام أحد في حياته ، وكان يكتفي بإلقاء دروسه على طلاب
العلم فلم يعرف أحد أن له مؤلفات طوال حياته ، فالإمام الماوردي ألف الحاوي شرح
المختصر المزني بـ ٢٤ مجلداً ، واختصره بكتاب يسمى الإقناع ، وكتب كتباً في

الأحكام السلطانية وكتب في الأخلاق أدب الدنيا والدين وكتب في الأدب والنحو وغيرها ولم يخبر أحداً أنه ألفها ، كان يضعها بصندوق ، ولما دنت وفاته قال لشخص يثق به :

- الكتب التي في الصندوق الفلاني كلها تصنيفي وإنما لم أظهرها لأني لم أجد نية خالصة لله تعالى ، فإن عاينت الموت ووقفت في النزاع فاجعل يدي في يدك فإن قبضت عليها وعصرتها فاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها فاعمد إلى الكتب وألقها في دجلة ليلاً ، وإن بسطت يدي ولم أقبض على يدك فاعلم أنها قبلت وأني قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية الخالصة .

يقول الراوي يا سادة يا كرام لما حضرت الإمام الوفاة سنة ٤٥٠ هـ وبعد مضي ست وثمانين سنة في طلب العلم وتعليمه يقول التلميذ : فوضعت يدي في يد شيخي فبسطها ولم يقبض على يدي، فعلمت أنه علامة القبول فأظهرت كتبه بعد.

أيها الإخوة : هذا هو الإخلاص : أفراد الحق في الطاعة بالقصد وقد كان سيدنا الإمام الماوردي من المخلصين بدليلين :

الدليل الأول : بسط يده عند الموت

الدليل الثاني : الحكمة التي آتاها الله تعالى هذا الإمام وقضى بها بين الناس .

وسيدنا مكحول الدمشقي يقول : ما أخلص لله عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

إن الإمام الماوردي ضرب المثل في إخلاص المحبين وهو العمل لله إجلالاً وتعظيماً ولذلك بقيت كتبه على مر التاريخ يستفيد منها كل طلاب العلم ، هؤلاء الذين خرجوا في جنازته مع أصناف العلماء والقضاة والتجار حتى صلى عليه تلميذه العالم العلامة سيدنا أبو بكر الخطيب البغدادي (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ) صاحب تاريخ بغداد، ومن بغداد هناك ، حيث أعداء الله اليوم يقتلون أهل السنة ويرمون جثثهم في

الطرقاٲ ويطالعا كل يوم مقتل عشرة إلى عشرين إلى خمس وعشرين في كل يوم يموت
هناك خلق لا يحصون فاللهم شتت شمل أمريكا وبريطانيا وأعوانهما وكما أكرمت
إماننا بجنة الخلد فأكرم أمريكا وأعوانها بجهنم يصلونها وسعيرا يارب العالمين .

المصادر :

البداية والنهاية ٨٠/١٢

تاريخ بغداد ٧٧/١٠

تهذيب الأسماء والغات للنووي ٢١٠/٢

شذرات الذهب ٢٧٥/٣

طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢٦٧/٥

الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦٥١/٩

وفيات الأعيان ٢٨٢/٣

طبقات الإسنوي ٢٠٦/٢

مقدمة الحاوي الكبير ٣/١

النجوم الزاهرة ٦٤/٥

سير أعلام النبلاء ٦٤/١٨

(٢١٩)

الإمام

عبد الملك الجويني / ١

٤١٩ - ٤٧٨ هـ

الحمد لله الذي غمر العباد بلطائفه ، وعمر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه ، تنطق
بذكره الألسن الناطقه ، وتعرفه القلوب الواعيه .

أحمده حمداً يبلغه صدق النيه ، ويزكي لديه خلوص الطويه .
وأشكره شكر عبد خائف من سوء النيه ، يسأل مولاه أن يهون عليه عذاب
القبر وعظم الرزبه ، فالشاكر لمولاه غداً يفوز بشفاعه خير البريه ، وينال أعلى درجة
عليه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ينال قائلها العيشة المرضيه،
وينظر إلى مولاه في الجنة بكرة وعشيه

وأشهد أن كل معبود سواه باطل ، وكلّ نور سوى نوره آفل ، فالمتقون بجواره
منبسطون ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ ، فالإسلام شرف الدين ووثار
المتقين ، وهم عن طريق الهدى غير حائدين ، كفروا بالجبت والطاغوت ، وآمنوا
بالحي الذي لا يموت ، وأجلسهم على بساط قربه ، وناداهم وسقاهاهم من شراب
أنسه ، فهم من حبه هائمون .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أطلعه على خزائن سره المصون ،
وعلمه من أمور الأمم السابقة واللاحقة ، ما كان وما سيكون ، سيد الأولين
والآخرين وإمام المتقين ، وحبيب رب العالمين ، نوره أعظم من الشمس المضيئه .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وعترته وأنصاره وأصحابه
وأزواجه وذريته ، أفضل الصلاة وأزكاها وأتمها وأشرفها وأطيبها إنه سميع الدعاء
فعال لما يشاء وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

هل سمعتم بفخر الإسلام ؟ ، لأن الإسلام أنجب أمثاله تربية وعلماً وتأليفاً
وتلامذة

هل سمعتم بأبي المعالي ؟ سيد فاق أهل زمانه وتفوق عليهم فلقب به .
هل سمعتم بلقب لم يطلق إلا عليه هو لقب إمام الحرمين ، ناداه على بعد الديار
البيت الحرام فلبى وأحرم ، وما أن وضع قدمه بمكة وأشرق تلاح ذلك الوادي ،
وأسبلت عليه الكعبة ستورها ، وأقبلت عليه وهو يطوف بها ناداه المنادي :
يا إمام الحرمين طبت وطاب ممشاك .

نحن اليوم . معشر الإخوة . مع إمام أجمع على إمامته كل إمام ، واستعلى بهيمته
على كل هام ، إننا مع الإمام عبد الملك الجويني ومع الحلقة الرابعة والثمانين من
سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم
جميعاً لتتعرضوا عن الإمام الجويني :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : درسنا اليوم عن اللقمة الحلال ، سأثبت لكم بالتجربة والبرهان
ماذا تفعل اللقمة الحلال التي يأكلها العبد ويطعمها أولاده ، وسوف أنظر وإياكم
كيف أن صلاح الآباء ينتقل إلى الأبناء ببركة آبائهم ، وليس بعد كتاب الله من
كلام :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾ (الطور ٢١)

﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ (الكهف ٨٢)

طلب الحلال . يا سادة . فريضة بعد الفريضة ، اسمع إلى ذلك يوجهك إليه سيد الكائنات ﷺ فيقول : (طب حسن) : " طلب الحلال واجب على كل مسلم " . ويقول لنا (خ) : " يأتي على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ أمن الحلال أم من الحرام " ، وقال لسيدنا كعب بن عجرة (حب حسن) : " يا كعب بن عجرة : " إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت " ولذا وردت الأحاديث الضعيفة الجملة (أن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل الله منه عمل أربعين يوماً) (طص)

(فطوبى لمن طاب كسبه وصلحت سريره وكرمت علانيته) (طب . ض)

وهذا ما فعله والد إمامنا

والد إمامنا اليوم يربينا تربية إسلامية ويعلمنا أن التربية تبدأ قبل الولادة بحسن اختيار الزوجة الصالحة وتغذية الأولاد بالمال الحلال ، فقد قام سيد من سادات الأمة لا يوجد على وجه الأرض أحد من العلماء وتلامذتهم إلا ويحفظ اسمه ويتردد اسمه بإجلال في مجالس العلم هو والد إمامنا اليوم سيدنا عبد الله بن يوسف الجويني ، هذا الإمام كان علامة في التفسير (له كتاب في تفسير القرآن) والأصول والعربية والفقهاء الشافعي على طريقة الإمام القفال المروزي (عبد الله بن أحمد ت ٤١٧ هـ) وصار الإمام بعده ، ولأدلل لكم على مدى صلاحه وتقواه وورعه أنه لما مات وغسلوه رأوا يده اليمنى إلى الإبط تشع نوراً من غير سوء تتلألأ تتلألأ القمر ، لأنه كان يطلب الكسب الحلال بيده ويتحرى الحلال في مطعمه ومشربه ، وكان أول أمره ينسخ بالأجرة الكتب ، فاجتمع له من كسب يده شيء اشترى به جارية موصوفة بالخير والصلاح وصار يطعمها ويكسوها حلالاً طيباً ، ورأى فيما يرى النائم سيدنا إبراهيم الخليل ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، يقول الإمام أبو

محمد : فأهويت لأقبل رجله فمنعني من ذلك تكريماً لي ، فاستدبر فقبلت عقبيه ، فأولت ذلك الرفعة والبركة تبقى في عقبي .

هذا الإمام . يا إخوة . صدق الله فصَدَقَهُ الله تعالى ، إذ حملت زوجته بهذا العقب واستمرَّ على تربيتها بكسب الحلال ، فلما وضعت إمامنا عبد الملك سنة ٤١٩ هـ أوصاها أن لا تمكن أحداً من إرضاعه ، فاتفق أنه دخل عليها وهي متألِّمة والصغير يبكي وقد أخذته امرأة من جيرانهم وشاغلتها بشديها فوضع منه قليلاً ، فلما رآه شق عليه ، وأخذه إليه ونكس رأسه ومسح على بطنه وأدخل أصبعه في فمه ، فلم يزل يفعل به ذلك حتى قاء جميع ما شربه ، وهو يقول : يسهل عليَّ أن يموت ولا يفسد طبعه بشرب لبن غير أمه .

فلما صار هذا الرضيع رجلاً وبدأ يث علمه في أصقاع الأرض وتنقاد إليه المجالس كان تلحقه بعض الأحيان فترة في مجلس المناظرة فيقول : هذا من بقايا تلك الرضعة .

إخوتي في الله :

هذا هو والد إمامنا وهو أول شيخ له قرأ مؤلفات والده جميعها ، وله شيوخ آخريين في العقيدة والفقہ .

فلما توفي والده وهو لم يكمل العشرين سنة أقعد مكانه للتدريس وتولى المناصب بعده ثم فاق أباه ، وكان إذا فرغ من إعطاء درسه يمضي إلى أستاذه أبي القاسم الإسفرايني (عبد الجبار بن علي ت ٤٥٢ هـ) يتابع تحصيله في العقيدة حتى صار متبحراً بعلم الفقہ وأصوله والعقيدة ، يمضي إلى أستاذه كان (بروفيسوراً) في علم الكلام والفقہ ، طالع معه مئة مجلدة في العقيدة ، يصل الليل بالنهار ، وهو القائل رضي الله عنه : " ما تكلمت في علم الكلام كلمة حتى حفظت من كلام القاضي أبي بكر وحده اثني عشر ألف ورقة " .

إن سيدنا الإمام عبد الملك الجويني بمفرده حجة على كل من يعترض على الأشاعرة (من المتأخرين الضلال) فقد انخرط في مدرستهم وسار في كتبه وتدريسه على طريقتهم ، وصار من أنصار مذهبهم ثم تولى مشيخة الأشاعرة وإمامة المتكلمين في عصره ، وصار عنده علم الكلام بجرأ لا ساحل له ، ثم انتقل هذا العلم عن طريقه إلى تلميذه النابغة الإمام الغزالي رضي الله عنهما الذي حمل مشعل الدعوة والتأليف بعده ، ويمكن أن نقول لكل خراس يطعن على الأشاعرة في العقيدة : إن سيدنا أبا الحسن الأشعري والباقلاني والاسفراييني والجويني والغزالي وقمماً شامخة في الإسلام لأكبر دليل على صحة العقيدة والرد على الفرق الضالة .

يا ناس . يا عالم : أصبح المذهب الأشعري في العقيدة هو المذهب الرسمي في الدولة الإسلامية من شرقها إلى غربها منذ القرن الخامس فكيف تجتمع أمة النبي ﷺ على ضلالة .

وليس هذا فقط ، بل قام الإمام الجويني بتأليف كتب في نصرته هذه العقيدة كتب عديدة كالعقيدة النظامية ، والإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد وجمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة ، والشامل وغيرها

أيها الأحبة والصحب : كان درس الإمام الجويني مميزاً وفريداً ، وحضر درسه الأكابر والجمع العظيم من الطلبة ، ويقعد بين يديه نحو من ثلاثمائة متفقه ، وكان من تلامذته الأئمة الأعلام ، ومن شدة تواضعه يدارسهم العلم ويمنحهم المحبة والتقدير ويتواضع معهم ويشجعهم على العلم ، وربما وصفهم بأوصاف تليق بهم ليتابعوا مسيرتهم العلمية ، علّق ذات مرة أوسمة ثلاثة على صدر ثلاثة منهم فقال :

الغزالي بحر مغرق (سيدي محمد بن محمد ت ٥٠٢ هـ)

والكيا أسد محرق (سيدي علي بن محمد بن علي الطبري (ت ٥٠٤ هـ)

والخوافي نار تحرق (أحمد بن محمد بن المظفر) ت ٥٠٠ هـ)

كل واحد من هؤلاء قمة من القمم بعد إمام الحرمين ، واسمحو لي معشر الإخوة الكرام أن أنتقل بكم إلى هناك لأنقل لكم الدرس الأخير الذي عقده الإمام بعد خبرة خمسين سنة ، درس في العقيدة فاسمعوا وعوا واعتقدوا وتمسكوا بهذا الاعتقاد فمن فعل هدي إلى صراط مستقيم ، يقول الإمام العلم

"كان الله ولا عرش ، وهو على ما عليه كان فقليل له : أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها (ما هي) : ما قال عارف قط : يا الله . إلا وجد في قلبه ضرورة تطلب العلو ، لا يلتفت بمنة ولا يسرة " . فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا ؟ أفتنبئنا كيف نتخلص من الفوق والتحت ؟ فبكى الإمام وأبكى من حوله ، وضرب كفه بالسرير ، وقال :

. يا حبيبي ما ثمَّ إلا الحيرة .

ومرَّ ما كان على السرير ، وقامت القيامة في المسجد ، وصار الناس ييكون والإمام أخذه التوله ، وهو يقول : . يا حبيبي الحيرة الحيرة ، والدهشة الدهشة ثم قال :

قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً ، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها وعلومهم الظاهرة ، وركبت البحر الخضم وعُصت في الذي نهى أهل الإسلام عنه ، كل ذلك في طلب الحق ، وهرباً من التقليد (في العقيدة) ، والآن قد رجعت من العمل إلى كلمة الحق " عليكم بدين العجائز " (أي رجعت إلى التقليد في العقيدة) . فإن لم يدركني الحق بلطفه وأموت على دين العجائز ، ويختم عاقبة أمري عند

الرحيل على الحق ، وكلمة الإخلاص ، لا إله إلا الله فالويل لابن الجويني وصار

الإمام يبكي وأبكى من حوله وراح يكرر :

. لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلت بعلم الكلام ، اشهدوا علي أنني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة ، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور .

فكيف صار هذا الإمام عملاق الدنيا علماً وإرشاداً ؟ ما هي أهم أعماله العلمية ؟ ما هي الأوسمة الثلاثة التي علقت على صدره ؟، أعلق هذه الأسئلة لأجيب عنها في الجمعة القادمة إن شاء الله وأعود بكم من هناك من نيسابور و بغداد إلى هنا ، وما أدراك ما هنا هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ .

المصادر :

. ذيل بغداد

. طبقات الإسنوي ٤١١/١

. طبقات السبكي ٢٤٩/٣

. شذرات الذهب ٣٣٨/٥

. سير أعلام النبلاء ٤٦٨/١٨

. وفيات الأعيان ١٦٧/٣ - ٤٧/٣

. الإمام الجويني : للزحيلي . دار القلم

(٢٢٠)

الإمام

عبد الملك الجويني ٢/

٤١٩ - ٤٧٨ هـ

الحمد لله الذي براهين آياته دالة على وحدانيته بالدليل الأقوى ، الثابتة حجة ذاته عقلاً ونقلاً ، فلا تحتاج لحكم وفتوى ، الواحد المنفرد فلا خصام بتفرده وبقائه ولا دعوى ، الملك الحاكم الذي لبابه التضرع من عباده والشكوى .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له موضح الدين القويم بالآيات الباهرة الواضحة الدلالة .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله خصه الله بالمعجزات والشريف والبسالة ، الشمس المنيرة التي تفسحت بها غياهب الإفاك والضلالة ، وانمحت بأنوارها حوالك الشرك والجهالة .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوا أحواله ومقاله ونهجوا في كل طريقته وحاله وسلم تسليمًا .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

جئناكم اليوم بأهم كتاب ألف في علم أصول الفقه وتاريخ الفكر الإسلامي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين .

وصاحبه علامة بمصادر التشريع الإسلامي . استطاع استخراج الأحكام الشرعية من

الأدلة الشرعية ، وكتب منهجاً كاملاً للعلماء يسلكوه إذا أرادوا أن يكونوا أئمة

مجتهدين وعلم مَنْ بعده أن الأدلة الشرعية تنقسم إلى قسمين :

١. أساسية : وهي القرآن والسنة والإجماع والقياس ، من طعن في واحد منها لا

يؤخذ برأيه .

٢. وفرعية : هي الاستحسان والاستصلاح والاستصحاب والعرف وسد الذرائع

وشرع من قبلنا وقول الصحابي .

وقد عدَّ من أرخ للحياة العلمية أن هذا الكتاب يعد أعظم كتاب بعد كتاب الإمام الشافعي في الأصول (الرسالة) والذي يعد أقدم كتاب في الأصول على طريقة المتكلمين ، حتى قال فيه الإمام تاج الدين السبكي :

" إن صاحبه وضعه في أصول الفقه على أسلوب غريب لم يقتد فيه بأحد وسمّاه الإمام السبكي (لغز الأمة) أما صاحبه فسمّاه (البرهان في أصول الفقه) فكيف تمّ بناء هذا الصرح الفكري العظيم ؟
أيها الإخوة :

مازلت معكم مع أستاذ الفقهاء والمتكلمين ، وفحل النجباء المناظرين ، فخر الإسلام والأئمة ومفتي الأمة ، ما رأت عينٌ عاشقاً للعلم في أي فن كان مثل هذا الإمام ، رباه حجر الإمامة ، وحرك ساعدُ السعادة مهده ، وأرضعه ثدي العلم والورع إلى أن ترعرع فيه وَيَنَع ، وأحكم العربية وما يتعلق بها من علوم الأدب .
فاق الأقران وحمل القرآن ، لا يتلعثم في كلمة ولا يحتاج إلى استدراك عشرة ، إذا تصدّر للفقه فالمرني من مزنته قطرة ، وإذا تكلم فالأشعري من وفرتة شعرة ، أعلم المتأخرين في أصحاب الإمام الشافعي بلا خلاف .

كان من أذكىء العالم حتى والده كان يعجب لطبعه وجودة قريحته إذا وعظ ألبس الأنفس من الخشية ثوباً جديداً ، ونادته القلوب إننا بَشَرٌ فترفق فلسنا جبلاً ولا حديداً ، عالم صوفي شخصيته ترد على كل من يمنع التصوف ويتصور أنه ليس من الدين .

إننا معشر السادة ما زلنا مع سيدنا الإمام عبد الملك الجويني رضي الله عنه ، ومع الحلقة الخامسة والثمانين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام عبد الملك الجويني :
رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان :

هياً الله تعالى لإمامنا ثلاث وسائل رئيسية في تعلمه وطلبه للعلم أدت إلى تفوقه على غيره ، هذه الوسائل هي البيت والمجتمع والموهبة .

أما البيت فأسرته أسرة علم وفضل كابراً عن كابر ، فأبوه وعمه وابنه أئمة في الدين ، وصهره زوج ابنته إمام . وأما مجتمعه فبلده نيسابور من أكبر مراكز الثقافة بخراسان حتى قيل : إنها أول مدرسة بنيت في الإسلام في نيسابور . وأما الموهبة فقد ظهرت عليه النجابة والتفتح والذكاء منذ حدثته ، كما توافرت لدى هذا الإمام أساتذة جهابذة ملؤوا الأرض علماً ، على رأسهم القاضي حسين بن محمد فقيه خراسان ، وهو صاحب وجه في المذهب ، يقال له حَبْر الأئمة ، وحَبْر المذهب (ت ٤٦٢ هـ) .

ثم المحافظ أبو نعيم الأصبهاني (أحمد بن عبد الله) صاحب كتاب حلية الأولياء من أكابر المحدثين جمع بين الفقه والتصوف والرواية والدراية قيل : لم يصنف مثل كتابه حلية الأولياء ، عمّر (٩٤ سنة) (وتوفي سنة ٤٣٠ هـ) ثم أخذ عن أعلم الشافعية في مرو وهو الإمام عبد الرحمن بن محمد الفوراني صاحب كتاب الإبانة في الفقه (ت ٤٦٣ هـ) .

ولم يكتف بالتلمذة، بل أكب على قراءة كتاب الرسالة لمولانا الإمام الشافعي . وما إن تكاملت فيه الأهلية في علم الأصول حتى بدأ بكتابة الأصول على طريقته، فكيف تم له ذلك ؟

أريد اليوم من طلاب العلم أن ينتبهوا في أثناء دراستهم للعلوم الشرعية والذين يريدون التخصص في الشريعة ، انظروا كيف صار الإمام علماً من أعلام الأئمة ، بدأ في دراسة الفقه أولاً على هؤلاء السادة الأعلام ، ثم جمع طرق المذهب وأقواله وأدلته، وألّف كتابه الكبير (نهاية المطلب في دراسة المذهب) كتاب قال عنه الإمام

السبكي : (ما صتّف في الإسلام قبله مثله) حوالي ثلاثين مجلداً شرح فيه المذهب الشافعي كله . كتاب جمع فيه بين طريقتي المذهب في تدوين الفقه طريقة العراقيين وطريقة الخراسانيين

واسمعوا يا شباب إلى العمل الموسوعي الذي قام به هذا الإمام ، عمل ما سمعنا عنه إلا في القليل النادر ، ألف كتاباً اسمه (مغيث الخلق في ترجيح القول الحق) استعرض فيه المذاهب الفقهية لكل مسألة ثم أثبت أن أرجح هذه المذاهب فيها هو المذهب الشافعي .

وخلال هذه الحياة الطويلة بدأ بكتابة الأصول فكتب الورقات والتحفة وكتاب المجتهدين والبرهان وغيرها .

انظروا هذا البرهان حققة أحد العلماء لنيل شهادة الدكتوراه وبقي سبع سنوات يعمل فيه ، أعاد فيه أنفاس الإمام الجويني إلى العالم بعطرها وشذاها من جديد .

وهكذا . معشر الإخوة . صار الجويني إمام الدنيا ، وسافر في الدنيا إلى بغداد والحجاز وجاور بمكة أربع سنين وبالمدينة المنورة ، فلما عاد إلى بلده عاد إليها وهو يحمل ثلاثة ألقاب، ولو وجدوا واحد منها لأحد صار أعلم أهل الأرض :

الأول : أبو المعالي : لأنه ساد أهل زمانه وتفوق عليهم فلقب به .

والثاني : فخر الإسلام : لأن الإسلام أنجب أمثاله تربية وعلماً وتأليفاً وتلامذة.

والثالث : إمام الحرمين ، مكة والمدينة المنورة .

بالله عليكم رجل يحمل ثلاث شهادات كل شهادة منها لقب بروفيسور ماذا يفعل به ملك زمانه ؟ ما إن حط رحله في نيسابور واجتمع بالسلطان ألب أرسلان ووزيره نظام الملك حتى قربوه وأجلّوه وبنوا له مدرسة (عفواً جامعة) لم يكن لها نظير هناك ، كان فيها الإمام الأوحّد ، وانتهت إليه رئاسة الشافعية وبقي على ذلك قريباً من ثلاثين سنة غير مزاحم ومدافع ، مسلّم له المحراب والمنبر والتدريس ومجلس

التصوف يوم الجمعة وبقي على عرش العلم والمعرفة يخرج أبطالاً قل نظيرهم حتى توفي في شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٨ هـ .

وصلى عليه ولده أبو القاسم ، وكان يوماً حزيناً ، وأغلقت الأسواق يوم موته ، وكُسِر منبره في الجامع وقعد الناس لعزائه ، وأكثروا فيه المراثي ، وكانت تلامذته يومئذ أربعمئة من شدة حزنهم عليه كسروا محابره وأفلامهم وأقاموا عليه حولاً كاملاً ، صحيح أن الله قطع نسله من جهة الذكور ولكن الله تعالى نشر علمه في كل نسب .

قلوب العالمين على المتعالي وأيام الورى شبه الليالي
أيثمر غصن أهل العلم يوماً وقد مات الإمام أبو المعالي

المصادر :

- ١ . طبقات الشافعية الكبرى ١٨٥/٥
- ٢ . مقدمة الكافية في الجدل لإمام الحرمين .
- ٣ . مقدمة لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة لإمام الحرمين .
- ٤ . مقدمة غياث الأمم في التباين الظلم لإمام الحرمين .
- ٥ . معجم المؤلفين عمر رضا كحالة .
- ٦ . الجويني إمام الحرمين لفوقية محمود .
- ٧ . مقدمة النظامية لإمام الحرمين .

(٢٢١)

الإمام ابن عطاء الله السكندري

ت ٧٠٩ هـ

الحمد لله الذي فجر ينابيع الحكمة من قلوب الصادقين فجرت وفتح لها أسماع
المحبين والراغبين فسرت ، ونور بها بصائر المتوجهين والطالبن فأبصرت .
أحمده حمد معترف بمنته في حمده ، وأشكره شكر عارف بإحسانه ورفده ،
وأستغفره من كل ذنب في هزل العمل وجده ، وأستعينه استعانة من علم أن كل
شيء من عنده .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له من وقف ببابه الكريم أنجح وملك ،
ومن استند لجنابه العظيم أفلح وسلك ، من حاد عن منهجه القويم خسر وهلك ،
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار والخيار من الخيار
المختص بجميل المآثر وجليل المفاخر وعظيم الذخائر ، المنعوت بفاجر المحامل وكامل
المقاصد وظاهر العوائد أرفع خليقته وأنفع بريته وأجمل ذوي طريقته يا رسول الله
وراءك نمضي :

وراءك يا رسول الله نمضي ويتبع صفنا للمجد صفٌ

على رغم المعاند والمعادي لواء محمد أبداً يرف

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد نبيه الكريم وعبده ، وعلى آله وأصحابه
وذريته وكافة أهل وداده ، صلاة تؤدي بها ما وجب من تعظيم قدره ومجده وأسلم
عليه وعليهم تسليماً كثيراً

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

أحب دوماً أن أعرفكم على أعلام الشخصيات الإسلامية ، لأن أبطال الأمة — والله الحمد — لا يعدون ولا يحصون ، ولكننا نزور كل أسبوع الأعلام منهم والمميزين الذين تركوا بصمات في التاريخ لا ينكرها إلا كل أعمى قلب وبصيرة.

ونحن اليوم مع رجل من هؤلاء الأعلام هو واحد من شيوخ خمسة كانوا في عصر واحد أجمعوا على الاقتداء بهم لأنهم جمعوا بين علم الظاهر والباطن ، جمع بين رئاسة علماء الشريعة ورئاسة علماء الحقيقة .

نحن اليوم مع تاج الدين وترجمان العارفين ، مالكي المذهب الاسكندري داراً ، القاهري مزاراً ، يعد أبرز ممثلي التصوف الشرعي المصري في القرن السابع الهجري ، بل أعجوبة زمانه في التصوف عجن ذاته بقواعد التصوف والزهد ، هو أحد أفراد سلسلة الذهب في التصوف وإمام في التفسير والحديث والأصول ، متبحر في الفقه ، كم من تائب على يديه تاب ، وتغيرت أحواله السيئة وأصلح وأتاب ، وكم من غافل تيقظ ، وجاهل به تبصّر ، جعل منذ نشأته الإخلاص رائده ، والصدق والاستقامة منهجه ، فبؤاه الله مكانة علمية مرموقة ، وجعله نبزاً يقتدى به .

إننا مع الشيخ القدوة شيخ الطريقتين وإمام الفريقين العارف بالله تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندري صاحب الحكم المشهورة ، ومع الحلقة السادسة والثمانين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام ابن عطاء الله السكندري

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد إمامنا ونشأ في الإسكندرية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، نشأ طالباً فذاً للعلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وأصول والعلوم العربية، وكان في أثناء دراسته يقابل الصوفية فينكر عليهم إنكاراً شديداً ويتعصب لعلوم الفقهاء ، وربما قال في الصوفية قولاً عظيماً، ثم جذبت العناية بعد أن صار إماماً من أئمة الإسلام ومدرساً في الجامع الأزهر ، سمع عن سيدنا المرسى أبي العباس (أحمد بن عمر ، ت ٦٨٦ هـ) علامة زمانه في العلوم الإسلامية وخليفة سيدنا أبي الحسن الشاذلي (ت ٦٥٦ هـ)، قطب من أقطاب عصره، قال عنه سيدنا أبو الحسن الشاذلي: " إنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض، منذ عرف الله لم يحجب عنه " وكان سيدنا أبو العباس رضي الله عنه نفسه يقول: " لو احتجبت من رسول الله ساعة ما عددت نفسي من جملة المؤمنين " أتدرون لماذا ؟ لأنه كان يصلي على النبي ﷺ كل يوم خمسين ألف مرة

سمع بهذا الإمام ابن عطاء الله فقال لنفسه : أريد أن أنظر هذا الرجل ، فصاحب الحق له إمارات لا يخفى شأنه ، فأتى مجلسه فوجده يتكلم في درجات السالكين إلى الله تعالى ، سمعه يقول :

الأولى في درجات السالكين إلى الله تعالى : الإسلام : وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسيم الشريعة .

وثانيها : الإيمان : وهو مقام حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية .

وثالثها : الإحسان : وهو مقام شهود الحق تعالى في القلب .

وإن شئت قلت : الأولى عبادة . والثانية عبودية والثالثة : عبودة

وإن شئت قلت : الأولى شريعة . والثانية : حقيقة . والثالثة : تحقيق .

فما زال يقول : وإن شئت قلت ، وإن شئت قلت .. حتى بهر عقل ابن عطاء الله وسلب قلبه .

وهنا أدرك ابن عطاء الله أن الإمام أبا العباس المرسي إنما يغترف من فيض بحر إلهي ومدد رباني فأذهب الله ما كان عنده ، وعاد إلى بيته وتفكر ليلته بالكلام الذي سمعه ، كلمات لمست شغاف قلبه ، لم يكن يدري هذه المعارف ، فأراد أن يستزيد منها ، فما أصبح الفجر حتى أسرع إلى المسجد ، فتلقاه الإمام أبو العباس ببشاشة وإقبال ، وخجل ابن عطاء الله من عداوته السابقة واستصغر نفسه أن يكون أهلاً لذلك الاستقبال ، فكانت أول كلماته أن قال :

. يا سيدي ... أنا ... والله ... أحبك .

فقال سيدنا أبو العباس : أحبك الله كما أحببتني .

إخوتي في الله : جلس ابن عطاء الله إلى الإمام وهو يدرّس بعد الفجر بكل انتباه وتيقظ ، سمعه هذه المرة يقول :

أحوال العبد أربع لا خامس له : النعمة والبلية والطاعة والمعصية ، فإن كنت في النعمة فمقتضى الحق منك : **الشكر ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾**

وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك : **الصبر ﴿ فصبر جميل ﴾** وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك : **شهود منته عليك ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾**

وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك : **وجود الاستغفار ﴿ واستغفروا الله ﴾**

قام ابن عطاء الله من مقام شيخه وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوباً نزعته عنه ، ثم صار يكرر زيارته إليه ، لقيه بعد ذلك فسأله : . كيف حالك ؟

فقال : أفتش عن الهم فلا أجده .

وهنا قال سيدنا أبو العباس : عرفت فالزم . فو الله لئن لزمتم لتكونن مفتياً في المذهبين (الشريعة والحقيقة) وقال لمن حوله : . والله لا يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله تعالى (فراصة صادقة) .

معاشر المسلمين : ولزم ابن عطاء الله أستاذه اثنتي عشرة سنة حتى مات ، وصدقت فراسة شيخه به ، إذ صار من بعده شيخ الطريقة الشاذلية ، وجند قلمه للدعوة إلى طريق الله ، وكتب درراً صارت أنجماً ومعالم تهدي طريق السائرين إلى الله ، وكتابه الحكم مجموعة من الأدب العالي الرفيع والفكر الصوفي لمعراج الروح تضع ابن عطاء الله في صحاف أعلام الأدب الفصيح البليغ ومن عيون النثر الصوفي ، كما يعد كتابه الآخر المناجاة العطائية من روائع الأدب الصوفي ، ظهرت فيها شخصيته كمرب ومعلم يتوجه بإرشاداته للمريدين والطلابين ، فاسمحوا لي . أيها الإخوة . أن أنتقل بكم إلى هناك إلى الجامع الأزهر في مصر يوم أن كان أزهر ، هناك حيث يجلس الإمام على كرسیه والناس حوله يستمعون إليه بشغف قلّ نظيره ، تعالوا لأسمع معكم درراً وحكما لم ينطق بمثلهما أحد من قبل من الأولياء ، اسمعوه وهو يقول :

" أصل كل معصية وغفلة وشهوة ، الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعقّة عدم الرضا عن النفس ، وإذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً "

" مطلب العارفين في الله الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية "

" بالشكر والذكر والدعاء يصل العبد إلى الله تعالى "

" نعمتان ما خرج موجود عنهما ، ولا بد لكل مكوّن منهما : نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ، أنعم عليك أولاً بالإيجاد ، وثانياً بتوالي الإمداد .

" متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك "

" و" لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح بالدعاء موجباً ليأسك ، فهو قد ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد " .

أيها الأحبة والصحب : وما زال الإمام يعظ ويذكر ويتكلم في علوم الشريعة وعلوم الحقيقة : توحيد ، فقه تصوف ، وتنبيه على الآفات المهلكة : كالكبر والعُجب والرياء ، وذكر الأدوية النافعة في ذلك حتى صار عدد الحكم / ٢٦٤ / حكمة .

وما زال يرقى المريديه بهذه المعارف والعلوم حتى وصلوا إلى دقائق التوحيد ومدارج السالكين . وكان تلامذته يقولون :

- كنا ندخل على الإمام وفي نفوسنا أسئلة نريد أن يجيبنا عليها ، فإذا به في الدرس يجيبنا عن هذه الأسئلة بعينها فيقول :
لو سأل سائل كذا كانت الإجابة عنه كذا ..

إن أستاذاً هذا شأنه كيف تريدون لتلامذته أن يكونوا ، نعم ، صار تلامذته أئمة الدنيا عرفنا منهم الإمام تقي الدين السبكي قاضي القضاة .

وحين أُلّف ابن تيمية رسالته في العقيدة الحموية والواسطية ثار عليه العلماء وعلى رأسهم ابن عطاء الله السكندري ، لأنه تحدث فيهما على تجسيم الله تعالى وقال فيهما : إن اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية لله تعالى ، وأنه مستو على العرش بذاته ... وتكلم عن الصحابة الكرام فقال عن سيدنا علي إنه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها وأنه قاتل للرئاسة لا للديانة ، و أنه أسلم صبيّاً والصبي لا يصح إسلامه على قول ، كما تكلم عن بعض الصحابة ، وأنكر التوسل بالنبي ﷺ وذكر طامات أخرى... "مما حدا بالعلماء أن يثوروا عليه ، وممن ثار عليه ابن عطاء الله والتقي السبكي واستعدوا عليه السلطان ، فخيره بين الإقامة بدمشق أو القاهرة بشروط أو الحبس ، فاختر ابن تيمية الحبس فحبس نحو أربع سنين حتى خمد ذكره بين معارضيه .

معاشر المسلمين : كانت حياة ابن عطاء الله رضي الله تعالى بالكلام البليغ والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة حتى توفاه الله في القاهرة سنة ٧٠٩ هـ / وخرجت مصر في جنازته ، وخرج الصوفية العلماء والمريدون خلف شيخهم وسيدهم وصار شعارهم من بعد :

ما لذّة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمر

المصادر :

- البدر الطالع ١٠٧/١
- النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨
- شجرة النور الزكية ٢٩٢/١
- الموسوعة الصوفية ٢٩٥
- الطبقات الكبرى للشعراني ٢٠/٢
- جامع كرامات الأولياء ٥٢٥/١
- طبقات الشافعية للسبكي ٢٣/٩
- حسن المحاضرة للسيوطي ٤٢٩/١
- شذرات الذهب ٣٦/٨
- الأعلام للزركلي
- الدرر الكامنة لابن حجر ٢٧٣/١

(٢٢٢)

الإمام ابن سريج

(ت ٣٠٦ هـ)

الحمد لله الذي علّم القرآن، من حضرة اسمه الرحمن، وخلق الإنسان علمه البيان، وأبان ما في محكم تنزيله، وشرف العلماء بمكنون تأويله، فأعربوا عنه بأفصح لسان، لكل قاص ودان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الكريم المنان .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليفه كان خلقه القرآن .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ذي الخلق العظيم والنور المبين ، والركن الركين ، بحر المعاني وصاحب السبع المثاني الذي أوتي علم الأولين والآخرين ، وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى لمن اقتدى وعلى تابعيهم بإحسان من الورثة الكرام والعلماء الأعلام ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

من الأحاديث التي تعد من أعلام نبوة سيدنا محمد ﷺ

حديث (الأئمة من قريش " (أحمد). أي إمامة العلم والدين أو إمامة

الخلافة في قريش يؤيد المعنى الأخير قوله ﷺ (م) : " لا يزال هذا الأمر في قريش

مابقي من الناس اثنان " .

فلا أحد بعد انصرام عهد الصحابة الكرام رضي الله عنهم اتفق الناس على أنه

حَبْرٌ مقدم في العلم والدين وأنه من قريش سوى مولانا الإمام الشافعي رضي الله

عنه، فقد انقاد الناس لقوله واستمعوا لمذهبه ، ودانوا لله بمعتقده وعبدوا الله ركعاً

وسجداً بتلقيه قريباً من ألف ومئتي سنة ، تطلع الشمس وتغرب ، ويموت أناس ويحيا آخرون ، وتنقرض دول وتنشأ دول ، ومذهبه باقٍ لا ينصرم وقوله متبع لا يتغير: (ابن المقرئ) :

الشافعي إمام كل أئمة تربى فضائله على الآلاف
حُتِّم النبوة والإمامة في الهدى بمحمدين هما لعبد مناف
إن إرادة الله تعالى اقتضت أن يتوضح أمر إمامته ، ويتبين للخاص والعام أن لا يخرج من قریش متبوع في العلم والدين بعد سيدنا محمد ﷺ غير الإمام الشافعي ليستقيم هذا المنهاج ، ولا يخالط القلوب شيء من الاختلاج ، فهو عالم قریش الذي ملأ الأرض علماً ، ومجدد الدين على رأس المئة الثانية التي قال فيها سيدنا رسول الله ﷺ (عن أبي هريرة) : " يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها "

وفي لفظ آخر : يبعث الله لهذه الأمة في رأس كل مئة سنة رجلاً من أهل بيتي يجدد لهم أمر دينهم "

يقول سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : فنظرت في سنة مئة فإذا هو رجل من آل رسول الله : عمر بن عبد العزيز ، ونظرت في رأس المئة الثانية فإذا هو رجل من آل رسول الله ﷺ : محمد بن إدريس الشافعي .

فمن هو مجدد الدين للمئة الثالثة الهجرية ؟ من هو صاحب المسألة السريجية ؟ من هو الباز الأشهب ، والأسد الضاري على خصوم المذهب ؟ من هو شيخ المذهب الشافعي الناصر له وحامل لوائه والراذ على مخالفيه ، من هو البدر المشرق في سمائه ، صاحب الأربعمئة مؤلف ، الذي انتهت إليه الرحلة في عصره ، فضربت الإبل نحوه آباطها ، وأتته أفواج الطلبة ؟ من هو الذي كان يفضل على جميع أصحاب الإمام

الشافعي رحمه الله عليهم حتى على الإمام المزي ، وعنه انتشر مذهب الشافعي في أكثر الآفاق ؟ من هو الذي دعاه وزير الخليفة ليلي القضاء فرفض فسمر السلطان بابه عليه ليحبسه على القضاء وما رضي ؟

إننا اليوم مع سيد طبقة بإطباق الفقهاء ، وأجمعهم للمحاسن بإجماع العلماء ، مع الصدر الكبير ، والشافعي الصغير والإمام المطلق والسباق الذي لا يلحق ، نحن اليوم تشرق علينا شمس الإمام سيدنا أحمد بن عمر بن سريج القاضي أبو العباس البغدادي

ومع الحلقة السابعة والثمانين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام ابن سريج :
رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان :

ولد إمامنا في بغداد سنة ٢٤٩ هـ في بلدة العلماء ، في عهد ازدهار الحضارة الإسلامية العباسية ، وقبض الله له جهابذة ثقافته وعلموه في كل فن ، حتى إنه تعلّم دقائق القضايا عنهم ، أبرزهم وعلى رأسهم سيدنا الإمام الجنيد شيخ الطريقتين الشريعة والحقيقة ، والمحدث سيدنا الحسن بن محمد الزعفراني ، وسيدنا أبو داود السجستاني ، والفقهاء والإمام أبو القاسم الأنماطي وغيرهم ، ورأى الإمام أحمد بن سريج في منامه كأنما مطر كبريتاً أحمر فملأت أكمامه وحجره ، فعبّروها له : أنه يرزق علماً غزيراً كمعزة الكبريت الأحمر . أتعرفون . أيها الإخوة . كيف حقق الله له رؤياه ، وكيف بدأت إمامته ؟ بدأت بملازمة ودراسة ودوام مطالعة كتب المذهب الشافعي ، وكان يجب قراءة مختصر المزي كثيراً ، ويلزمه أينما ذهب ويضعه في كم جيبه العريض ، حتى إنه نظم في ذلك شعراً فقال :

لصيق فؤادي منذ عشرين حجة وصيقل ذهني والمفرج عن همي
عزير على مثلي إعارة مثله لما فيه من علم لطيف ومن نظم
جموع لأصناف العلوم بأسرها فأخلق به أن لا يفارقه كمّي
حتى أتقن المذهب الشافعي ، وصار يعرف دقائقه وظواهره ، وحتى قال من أرخ
له: (ابن سريج شيخ الأصحاب ومالك المعاني وصاحب الأصول والفروع). ثم ولي
قضاء شيراز في أول أمره ، وقال فيه الإمام الضياء الخطيب (والد الإمام فخر الدين
الرازي): (إن أبا العباس كان أبرع أصحاب الشافعي في علم الكلام كما هو أبرعهم
في الفقه) .

وكان مناظراً من الدرجة الأولى لم يجلس في مجلس مع خصمه إلا غلبه
وخصمه، وكلما انتهت مناظرة له ويعجب الحاضرون بكلامه يقول لهم : أتدرون من
أين لي هذا ؟ هذا من بركة مجالستي أبا القاسم الجنيد.

ومن ناظرهم سيدنا أبو العباس ابن سريج الإمام داود الظاهري ، الذي كان
ينكر القياس في الشرع ويأخذ بظواهر الكتاب والسنة (ولذلك لا يؤخذ بمذهبه)
داود هذا . يا سادة . إمام كان مقلداً لمولانا الإمام الشافعي متمسكاً بمذهبه ، ثم
انفرد عنه، وأخذ بظواهر الألفاظ اللغوية للقرآن والسنة، وأنكر التأويل والرأي
والقياس، وعنه انتشر المذهب الظاهري حتى وصل إلى ابن حزم الأندلسي وغيره
، الذي زاد في الطنبور نعماً فأباح آلات اللهو المحرمة حتى قال فيه الفقهاء :

واجزم على التحريم أي جزم والحق ألا تتبع ابن حزم
فقد أبيحت عنده الأوتار والعود والطنبور والمزمار

وقد رفض هذا المذهب رفضاً تاماً من علماء الأمة المعترين ، أتدرون لماذا ؟
لأن أصحابه الظاهرية شنعوا على المتبعين للمذاهب الأربعة (إلا من رحم الله) سواء
كان هذا المتبع عامياً أو عالماً ، ونهوا الناس عن التقليد ، ونفوا آيات من كتاب الله
حين أولوها على حسب رأيهم الباطل ، الظاهرية خالفوا علماء الأمة قاطبة ،
فأنكروا تعارض النصوص وأوجبوا العمل بها جميعاً دون النظر إلى الناسخ والمنسوخ
والعام والخاص وغيرها من القواعد ، ونفوا الاجتهاد بالرأي ، وسدوا باب الاستنباط
والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة ومبدأ سد الذرائع ، بل سدوا باب التفكير
في النصوص لاستخراج عللها .

وللانتصار لرأيهم الباطل أنكروا جملة من الأحاديث النبوية وضعفوها ، وأنكروا
رسالة سيدنا عمر بن الخطاب في القضاء إلى سيدنا أبي موسى الأشعري لأن فيها
الدعوة إلى القياس ، أنكروها وقد رواها الثقات ، كما أنكروا حديث خيار الشرط
في البيع وفيه حديث صحيح ، وأنكروا أن سيدنا أبا بكر كان إذا نزلت به قضية
فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً ، ولا في السنة أثراً اجتهد رأيته ثم يقول :
هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله عز وجل ، وإن يكن خطأ فمني وأستغفر
الله تعالى)

وبالتالي ضللوا كثيراً من الصحابة الذين كانوا يقولون بالقياس أمثال سيدنا
الصديق وعبد الله بن مسعود ، واستمرَّ بهم التماذي فاتهموا الأئمة الأربعة الفقهية
بأنهم شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله وأنه لا يؤخذ حكم من الأحكام إلا من
الكتاب والسنة ، ومن أخذ الشريعة من غيرها اتخذ إلهاً غير الله ، واختاروا أعنف
القول في جدالهم ، ومازالوا في جدال ونزال حتى جافاهم العلماء وانطلقت كلمتهم
في داود الظاهري فقالوا فيه : داود كان عقله أكبر من علمه " .

فلما مات داود الظاهري (سنة ٢٧٠هـ) صار يناظر الإمام ابن سريج ولده محمد بن داود ، وصارت مناظراتهما ترويهما المجالس قال له مرة : أنت تقول بظاهر القرآن ، والله تعالى يقول (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فمن يعمل نصف مثقال يره أم لا يره ؟! فسكت محمد بن داود طويلاً فقال له ابن سريج : لم لا تجيب ؟ فقال له : أبلغني ريتي فقال : أبلغتك دجلة . ومرة ناظره فكأنما ألقمه حجراً فقال له : أمهلني ساعة . فقال : أمهلتك من الساعة إلى قيام الساعة . وقال له يوماً : أكلمك من الرجل فتجيني من الرأس . فقال له : هكذا البقر إذا جفت أظلافها ذهبت قرونها "غلب الظاهرية وأفحمهم ، لكنه لما مات محمد بن داود قبله حزن عليه ابن سريج وجلس للتعزية عند موته ، وقال قولته : (ما آسى إلا على لسان محمد بن داود كيف أكله التراب) .

لكن الحزن لم يمنعه من متابعة العلم ، فالموت سبيل كلنا صائر إليه .
أتاه رجل وسأله مسألة في الطلاق لم يسأل أحد قبله مثلها سأله : إن رجلاً قال لزوجته : كلما (أو إن) وقع عليك طلاقي أنت طالق قبلها ثلاثاً) . ثم قال لها : أنت طالق . قال ابن سريج : لا يقع شيء . (للدور)
فسميت هذه المسألة بالسريجية ، وأفتى الإمام البلقيني بصحة هذه الفتوى ، وأن مقلدها لا يأثم .

أيها الأحبة والصحب : مع كل هذا الفضل والعلم والرفعة في الدفاع عن المذاهب الأربعة كان علي بن عيسى الوزير منحرفاً عن إمامنا ابن سريج لفضل ترفعه وتقاعده عن زيارته ، منصباً بالميل إلى القاضي أبي عمر (محمد بن يوسف) المالكي ، لمواظبته على خدمته ، ولذلك قلده القضاء ، وكانت في هذا القاضي المالكي نخوة على أكفائه من فقهاء بغداد لعلو مرتبته (شايف حاله عليهم) ، فحمل ذلك جماعة من الفقهاء على تتبع فتاويه ، حتى ظفروا له بفتوى خالف فيها

الجماعة وخرق الإجماع ، وانتهى ذلك إلى الخليفة والوزير ف عقدوا لذلك مجلساً ، وكان خدّ القاضي المالكي فيه الأضرع الدليل ، وفيمن حضر الإمام ابن سريج ، فلم يزد على السكوت . فقال له الوزير : ما رأي الإمام ابن سريج ؟ فقال : ما أكاد أقول فيهم وقد ادعوا عليه خرق الإجماع ، وأعياه الانفصال عما اعترضوا به عليه ، ثم إن ما أفتى هذا القاضي قول عدة من العلماء . وأعجب ما في الباب أنه قول صاحبه مالك ، وهو مسطور في كتابه الفلاني . فأمر الوزير بإحضار ذلك الكتاب ، فكان الأمر على ما قاله ، فأعجب به غاية الإعجاب ، وتعجب من ابن سريج من حفظه لخلاف مذهبه ، وغفلة القاضي المالكي من مذهب صاحبه . فصارت صداقة بين الإمام ابن سريج والوزير ، وما زالت عناية الوزير به حتى رشحه للقضاء ، فامتنع أشد الامتناع . فقال : إن امتثلت لما أمرتك به وإلا أجبرتك عليه قال : افعَل ما بدا لك . فأمر الوزير حاشيته : إن دخل ابن سريج بيته فسَمُّوا عليه بابه . وتسامع الناس بذلك ، فصاروا يعاتبون الوزير ، فقال الوزير : أردت أن يتسامع الناس أن رجلاً من أصحاب الشافعي عومل على تقلد القضاء بهذه المعاملة وهو مصرّ على إباته زاهد في الدنيا .

إخوتي في الله : قضى الإمام عمره وهو ينافح عن الشريعة ويثبت عقيدة أهل السنة والجماعة ، وحين أُخرج من حبسه في بيته ودخل المسجد تلقاه الناس بالترحاب والتهنئة ، وقام شيخ من أهل العلم فقال : أبشر أيها القاضي (سَمَّاه قاضياً) فإن الله بعث عمر بن عبد العزيز على رأس المئة الأولى من الهجرة ، فأظهر كل سُنَّة وأَمَات كل بدعة ، وَمَنَّ الله تعالى على رأس المئتين بالإمام الشافعي حتى أظهر السنة وأخفى البدعة ، وَمَنَّ الله تعالى على رأس الثلاثمئة با بن سريج حتى قوَّى كل سنة وأضعف كل بدعة . ثم أنشأ يقول :

اثنان قد مضيا فبورك فيهما عمر الخليفة ثم حلف السؤدد
الشافعي الأملعي محمد إرث النبوة وابن عم محمد
أرجو أبا العباس أنك ثالث من بعدهم سقياً لتربة أحمد

فصاح الإمام ابن سريج وبكى وقال : لقد نعى إلي نفسي يقول الراوي . يا
سادة يا كرام . فمرض الإمام لليلته ، فرأى في منامه قائلاً يقول له :

. هذا ربك تعالى يخاطبك . قال فسمع الإمام ابن سريج الخطاب ب : . ﴿ ماذا
أحببتكم المرسلين ﴾ (القصص ٦٥)

فقلت : . بالإيمان والتصديق .

. قال فقليل ثانية ﴿ ماذا أحببتكم المرسلين ﴾ (ما سئلتكم عن الأقوال بل سئلتكم
عن الأعمال) ؟ يقول الإمام ابن سريج :

فوقع في قلبي أنه يُراد مني زيادة في الجواب فقلت :

. بالإيمان والتصديق غير أنا أصبنا من هذه الذنوب : أما الكبائر فقد
اجتبنناها ، وأما الصغائر فعولنا فيها على عفو الله ورحمته .

فنودي الإمام : أما إني سأغفرها لك .

فلما صحا الإمام قال لمن حوله : اقتربت وفاتي . وحدثهم عن الرؤيا
فقليل له : . ما في هذا ما يقتضي سرعة الموت .

. فقال : أما سمعتم قوله تعالى ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ يقول الراوي . يا

سادة يا كرام . فمات الإمام بعد ١٨ يوماً ، سنة (٣٠٦ هـ) ست وثلاثمئة هجرية ،
بعد سبع وخمسين سنة قضاها في الدفاع عن الدين ، كان وحيداً بين المدافعين بقوة ،
وتصدى للرد على المذهب الظاهري ، وبين أنه لا يؤخذ بآراء الظاهرية وأقوالهم ،

ولذلك هو اليوم منفرد هناك في قبره ، يزار هناك ، وقد كان معنا اليوم هنا ، فمن أراد أن يجتمع به هناك فليترض عنه هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله

المصادر :

- ١ . البداية والنهاية ١٢٩/١١
- ٢ . تاريخ بغداد ٢٨٧/٤
- ٣ . النجوم الزاهرة ١٩٤/١ - ٦٦/١
- ٤ . وفيات الأعيان ٤٩/١
- ٥ . طبقات الشافعية الكبرى ٢١/٣
- ٦ . شذرات الذهب ٢٩/٤
- ٧ . سير أعلام النبلاء ٢٠١/١٤
- ٨ . الأعلام للزركلي ٣٣٣/٢
- ٩ . ابن حزم الأندلسي محمد أبو زهرة

(٢٢٣)

الإمام جلال الدين الرومي

٦٠٤ . ٦٧٢ هـ

الحمد لله مظهر الحق ومبديه ، ومبطل الباطل ومنفيه ، ومنجز الوعد وموفيه ،
ومسعد العبد ومشقيه ، الذي تعرّف على خلقه فحارت الخليفة فيه .
أحمده سبحانه وتعالى وأشكره على نعمة نور الإيمان الذي
﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، العظيم في رفعة تعاليه ، الذي
حار العقل فيه ، فأشار العقل إلى عرشه : هل أنت بقربك تليه ، أم بدنوك تدانيه ؟
فناداهم العرش من سكرة تغاشيه وحيرة تلاشيه :

لست بالمحيط به فأدرية ، ولا بالحامل له فأحكيه ، ولا بالمتصل به فأحاذيه ولا
بالمنفصل عنه فأقصيه ، ولقد سألت . ياعقل . عن أمر لا أدريه ، وكشفت عن سرّ
ما برحت أتمليه وأستجليه فما وقعت منه إلا على الحيرة والتهيه .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله أعطاه الله لسان الحق
وموفيه ، وقال لنا : ﴿إن هو إلا وحي﴾ يوحيه ، فهو السيد المطاع ، وصاحب
البيت أدرى بالذي فيه ، إن صافيته سقاك من كأس صفوته صافيه ، وإن شربت
بكأس محبته فالكأس هو ساقيه ،

أضحى على المولى الكريم كريماً صلوا عليه وسلموا تسليماً
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعترته وأنصاره
وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

هبت عاصفة عقليه جامحة في القرن السابع الهجري بعثها علم الكلام (العقيدة) الذي كان الشغل الشاغل للمسلمين في القرون الأخيرة ، وكانت هذه العاصفة ضد المعتزلة والفلاسفة ، انطفأت بها مجامر القلوب فأصبحت رماداً وركاماً بشرياً ، انتصر في هذه المعركة الكلامية : الأشاعرة أهل السنة والجماعة ، وفقد الاعتزال والفلسفة شيئاً كثيراً من سيطرتهم ونفوذهما ، وجاء العلامة فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) فجدد دولة علم الكلام ووسعها بشخصيته القوية ومؤلفاته العظيمة وبحوثه الدقيقة ، ولم يتم ذلك إلا بعد حروب كلامية في العقيدة ، وجدل مستفيض حوّل العالم الإسلامي إلى مدرسة فيها القيل والقال ، والنقاش والجدال ، بعيداً عن العاطفة وصار عند الناس جفاف عاطفي رهيب .

وفي هذا الجو العقلي كان العالم بحاجة إلى شخصية قوية عبقرية تملأ القلوب عاطفة تعادل كفة الطغيان العقلي ، في وسط هذه العاصفة هتف هاتف بالحب والعاطفة ، فهب العالم الإسلامي من نومه العميق ودبت فيه الحياة ، إنه إمامنا اليوم ، إمامنا اليوم . يا سادة . أعاد للعالم توازنه ، وكان ديوانه الشعري المشوي ثورة على المعتزلة والفلاسفة الذين بالغوا في تقدير الحواس وتقديس العقل

خاطب العالم أجمع بلغة الحب والعاطفة ، الحب الذي يحوّل المرّ حلوّاً والتراب تبراً ، والكدر صفاء ، والألم شفاء ، والسجن روضة ، والسقم نعمة ، والقهر رحمة ، خاطبهم بلغة الأحباب التي تلين الحديد وتذيب الحجر ، وتبعث الميت وتنفخ فيه الحياة

والحب . يا إخوة . إذا سرى في الجبال الراسيات ترنحت ورقصت طرباً

﴿ فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكاً و خرّ موسى صعباً ﴾ الأعراف ١٤٣

الحب يطير بالعبد بجناحه من المادة إلى عالم الروح .

بهذه اللغة خاطب أهل القرن السابع ، ناداهم : إن الحب شعلة تحرق كلّ ما سوى المحبوب ، وقال لهم : لقد رأينا كثيراً ممن يحسنون السباحة قد غرقوا في هذا البحر اللجج ، ولكن ما رأينا سفينة الإيمان والحب تُغرق " إن مكانة الحب لا تنتهي ، لأن الحب وصف من لا يفنى ولا يموت " .

إننا اليوم نزور معاً سيداً بقي حياته في شعره الرنان يتغنى بالعاطفة والحب حتى دبّ في مجتمعه ديب الحياة ، وترنح بهذا الرجز والحداء القوي الأدب الإسلامي كلّهُ، ردّده الشعراء وضربوا على وتره ، وانطلقت في عالم التصوف موجةٌ جديدةٌ تستحق أن تسمّى الاعتزاز بالإنسانية ، أو تكريم الإنسان .

كان يقول لمريديه هل وُجّه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء ٧٠) (هذا التكريم هل وُجّه) إلى السموات والأرض ؟ إنه لم يوجه إلا لهذا الإنسان الذي يستهين بقيمته ويجهل مكانته

إن الإنسان . أيها الناس . مظهر لصفات الله تعالى وأثر من قدرته ، وهو المرأة الصادقة التي تجلت فيها آياته ، ناداه إمامنا (نادى هذا الإنسان فقال له) : (يا من من عبيده العقل والحكمة والمقدرة كيف تبيع نفسك رخيصة ، إن الله اشتراك وخلّصك من المساومات والمقاولات إلى آخر الأبد، فالشيء لا يباع مرتين) .

(فهل أنت من الرجال أم من أشباه الرجال ولا رجال ، هل أنت فريسة شهوتك، لا تعرف من إنسانيتك سوى الشبع والري والشهوة)، ثم قال لهم :

(إن هؤلاء ليسوا رجالاً إنما هم صور الرجال ، هؤلاء الذين يُحْكَم عليهم الخبز وقتلت الشهوات فيهم الإنسانية) .

معشر السادة : لعلكم اشتقتم معي لمعرفة من هذا الإمام الذي جاء يزورنا اليوم إنه سيدنا جلال الدين الرومي (محمد بن محمد) ومع الحلقة الثامنة والثمانين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام جلال الدين الرومي :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد سيدنا جلال الدين (محمد بن محمد) الرومي في بلخ من أعمال أفغانستان سنة (٦٠٤ هـ) وعكف والده منذ نشأته على تربيته تربية إسلامية ، وكان والده من كبار علماء بلاده يلقب بسلطان العلماء ، وينتهي نسبه إلى الصديق أبي بكر رضي الله عنه ، وكان والده ينتقد علماء عصره لعكوفهم على دراسة العلوم العقلية وتعلمها وانصرافهم عن علوم القرآن والسنة ، ولاقى من الناس قبولاً، والتفَّ حوله الرجال والمريدون ونبغوا على يديه ، فسلمهم تربية ولده جلال الدين ليعتنوا به خاصة ، فنبغ هذا الفتى على أيديهم وتعلم علوم الكتاب والسنة ، ولكنه فوجئ بأبيه يترك (بلخ) وينتقل إلى تركيا عبر البلاد ، مهاجراً من بلد إلى بلد حتى استقرَّ بقونية ، واستقبله سلطان الروم واحتفى به وبالغ في إكرامه .

عاش الفتى في العز والعلم ، ولم يمنعه الجاه العريض من أن يسافر لأجل التبحر في العلوم ، فقدم بلاد الشام سنة (٦٣٠ هـ) ومكث بجلب والتقى بعلامتها ابن العديم ، ثم توجه إلى دمشق ودخلها (فقولوا رضي الله عنه) ، هنا في الشام الشريف التقى بعلماء عصره الأفذاذ أمثال سيدنا الشيخ محيي الدين بن عربي ، والشيخ صدر الدين القونوي ، وكانت بينهما مسامرات لطيفة . عاد بعدها الإمام جلال الدين من رحلته عالماً من الدرجة الأولى ، وصار مدرّساً تحت أنظار أبيه الذي توفي سنة ٦٣٨ هـ فخلفه ولده جلال الدين ، وبنى له أستاذ السلطان مدرسة

ولاه رئاستها ،حتى التفَّ عليه الطلاب من كل صوب ، فَكَبُرُوا على يديه وصاروا علماء معلّمين ، تعلموا منه العلم والعبادة والسلوك ، يقول أحد مريديه : كان الإمام شديد الرياضة والمجاهدة والتعبد ، لم نره قط في لباس النوم ، ولم نر عنده وسادة ولا فراشاً ، فإذا غلبه النوم نام جالساً .

وقال آخر : رأيته مراراً دخل الصلاة وقت العشاء وقضى الليل كله في ركعة " وقد بكى مرة في الصلاة فابتلَّ وجهه ولحيته بالدموع الغزار، وكان الزمن شتاءً (والبرد في قونية شديد) فجمدت الدموع على الخد واللحية وهو في صلاته . كان يفرح إذا أصابته فاقة أو جوع ، ويقول : الآن أشم رائحة التجرد والافتقار إلى الله تعالى . ومع ذلك كنا نراه إذا جاءه سائل وليس عنده شيء خلع له قميصه أو عباءته وأعطاه إياها.

أيها الأحبة والصحب : أستطيع أن أقول إن أخلاق الإمام المحمدية فاق بها أهل زمانه جميعاً ، ولأدلل لكم على هذه القضية أعرض لحضرتكم هذا المشهد الفريد :

إذ مرَّ يوماً برجلين يتسابان يقول أحدهما للآخر :
. إنك إذا أسمعني واحدة أسمعك عشراً
فقال لهما : . دونكما نفسي فإن أسمعتماني ألفاً لم أسمعكما واحدة .
فخر الرجلان على قدميه يتصالحان .

إخوتي في الله :

لكنَّ الفتح الأكبر للإمام الذي قلب تيار حياته واتجاهه وفتح قريحته وأشعل مواهبه وكان سبب شهرته وتأثيره هو حادثة حصلت له سنة (٦٤٢ هـ) حين وصل إلى قونية رجل من كبار الصوفية من تبريز اسمه محمد بن علي التبريزي ويعرف بشمس الدين .

ولأن الموقف عظيم والخطب جلل اسمحو لي أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك إلى القرن السابع الهجري ، المكان : قونية في تركيا ، الحدث التقاء بحرين عظيمين بحر الشريعة وبحر الحقيقة ، إذ نظر الإمام شمس الدين التبريزي إلى موكب الإمام جلال الدين يخرج من المسجد وحوله المريدون والعلماء والناس يتبركون به فتقدم الإمام شمس الدين وسأله : ما المقصود من الرياضيات والعلوم ؟

قال الإمام جلال الدين : . الإطلاع على آداب الشرع .
قال الإمام شمس الدين في هدوء وثقة : . لا ، بل الوصول إلى المعلوم ، إن العلم إذا لم يجردك من نفسك فالجهل خير منه " .

وقف الإمام جلال الدين متحيراً ، وأصاب شمس الدين هدفه في كلمة واحدة
معاشر المسلمين :

كان الإمام جلال الدين في وسط الأشاعرة ومدرستهم الفكرية وفي وسط الجدل مع المعتزلة والفلاسفة ، وحين قابل أستاذه شمس الدين جذبته الجاذبة الربانية ، وانتقل من القيل والقال إلى حقيقة الحال ، ومن الخبر إلى النظر ، ومن الألفاظ إلى المعاني ، ومن القضايا الحسية إلى القضايا الغيبية .
رجع الإمام جلال الدين الرومي إلى بيته ، ولكنه هذه المرة رجع مع أستاذه الجديد في التربية ، أتدرون ماذا فعل به أستاذه ؟:

أدخله الخلوة ، وجعله يعتزل الناس في حجرة أربعين يوماً يلقيه الذكر والمعارف فكان لا يخرج إلا إلى الجمعة ، والذكر . يا إخوة . يجلو القلب ، والقلب إذا لم تكن مرآته صافية لا تنطبع فيه العلوم الإلهية .

إن الإمام جلال الدين بخلوته تلك امتلاً بروح جديدة ، وانكشف له عالم جديد من الحقائق والأذواق حتى قال مرة : إن الشمس التبريزي هو الذي أراني طريق الحقيقة ، وهو الذي أدين له في إيماني و يقيني " .

غاب الإمام جلال الدين ، عن تلامذته ، فكانوا كلما حضروا الدرس لم يجدوه ، ووجدوا أنفسهم بلا شيخ ، فضجوا لغياب شيخهم ، وكبر عليهم هذا التشاغل بشيخه ، فقالوا : صرفنا أعمارنا في خدمة الشيخ ثم جاء رجل غريب مجهول وقطعه عنا ، وأوقف الدروس والمحاضرات ، فلا شك أنه رجل ساحر أو داهية فاشتدت عداوتهم لشمس الدين ، وعزموا على إقصائه عن قونية ليخلو لهم وجه أستاذهم ويكونوا من بعده قوماً صالحين ، وتحمل الإمام شمس الدين كيدهم بصبر وحلم ، لكنه خاف في النهاية الفتنة فخرج مستخفياً دون إعلام أحد .

وحزن الإمام جلال الدين ، واعتزل تلاميذه ومريديه ، وأقصى من مجلسه من كان سبباً في غياب شيخه ، وصار يكتب شعراً في الشوق إليه ، وكانت غيبة شيخه عنه فيها الخير ، إذ تفتحت معارفه ، وبدأ منهجه الجديد في الاستدلال بالمصنوع على الصانع ، وبالمتحرك على المحرك ، ويضرب لذلك الأمثال الحكيمة ، صار ينافخ عن منهاج الصحابة الكرام ويقول : هؤلاء لم يقرؤوا الفلسفة التي تولد الظن والشك وتحجب عن الربِّ جل جلاله

أما حكمة الأنبياء فهي الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً ، بالله عليكم يا سادة أصغوا إلى هذه الحكم التي اختلط فيها التوحيد بالتصوف ، والتي عجز أهل القرن السابع أن يأتوا بمثلها في قونيه ، تذكرُّو أننا مازلنا هناك مع هؤلاء الربانيين الذين دخلوا غار الخلوة وخرجوا بمفاتيح الحكمة ، يقول :

(جرّد نفسك من صفاتك حتى تشاهد نفسك وحقيقتها ، إنك ترى في قلبك علوم الأنبياء من غير كتاب ومعلم ، فإن المرأة كلما صَفَّت تجلت فيها الأنوار ، وإذا تفتحت نافذة نفسك دخل فيها النور الإلهي من غير واسطة ومن غير حجاب) اسمعوا كيف ضرب لهم الأمثال الحكيمة لإثبات وجود الذات الإلهية (يقول :

(إنك ترى قلماً كاتباً ، واليد التي تحركه من ورائه مخفية ، وترى جواداً يعدو ولا ترى فارساً ، والسهم يصيب غرضه ، والقوس غائبة عن العيون ، أليست الحركة دليلاً على المحرك ؟ إذا سمعت صريراً للهواء وخيراً للماء ، ألا تستدل بذلك على وجود الهواء والماء ؟ إذا عجزت أن ترى المؤثر فإنك لا تعجز عن أن ترى الآثار ، فاستدل بها على وجود المؤثر ، وإذا رأيت جسمًا يتحرك ويعيش فإنك (ولو لم تر الروح في حياتك) تبرهن على وجود الروح التي هي مصدر الحركة والحياة في الجسم) أهذا هو العلم ، وهذه هي الإمامة يتصدّر جلال الدين الرومي الصدارة فيها .

فيا أحباب رسول الله : قضى الإمام حياته التي بلغت الثامنة والستين قضاها في خدمة الشريعة الإسلامية حتى أقعده المرض ، وأصبح الناس في قونية يوماً على زلزال شديد أشاع الرعب في المنطقة فصار الناس يزورون الإمام ويطلبون منه الدعاء ، فقال لهم : إن الأرض جائعة تطلب لقمة دسمة وستنالها عما قريب ، واستمر الزلازل أسبوعاً كاملاً ثم مات الشيخ بنهاية الأسبوع سنة (٦٧٢ هـ) ووقفت الزلزلة .

وما إن أعلن نبأ وفاة الإمام حتى خرج الناس في جنازته ، وازدحموا عليها ازدحاماً شديداً ، وشيعها المسلمون والنصارى واليهود وكلهم يبكيه ، فكان اليهود يقرؤون التوراة ، والنصارى يقرؤون الإنجيل ، وكان المسلمون ينحّونهم فلا يتنحّون ، وبلغ ذلك حاكم البلد ، فصار يقول لهم :

. مالكم ولجنازة هذا العالم المسلم .

فقالوا : قد عرفنا به حقيقة الأنبياء والسابقين ، وفيه رأينا سيرة الأولين الكاملين .

يقول الراوي . يا سادة يا كرام :

خرجت الجنازة في الصباح ، فلم تصل المقبرة إلا في المساء ، ولم يدفن الإمام إلا في الليل .

وهكذا . معشر السادة . يتبين لنا أن وجود هؤلاء المصلحين المجددين للدين الإسلامي يقضي بخلوده وبقائه ، وأن مهمة الهداية والإرشاد التي كان الأنبياء يبعثون لها في العصور الماضية قد أُلقيت على عاتق هذه الأمة التي تَخَلَّفَ خاتم النبيين في هذه المهمة ، وأن هذه المدرسة مدرسة سيدنا محمد ﷺ لن يخلو منها زمان من الأزمان هنا أو هناك لذا الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله

(٢٢٤)

الإمام أبو اسحق الشيرازي

(٣٩٣ . ٤٧٣ هـ)

الحمد لله الذي اختار من عباده المؤمنين أفراداً أراد بهم خيراً ففقههم في الدين وسلك بأحبابه نهج الصراط المستقيم، واختص بالعناية من أتى إلى بابه بقلب سليم .
أما الله قلوباً بالمعاصي وأحيا قلوباً بالطاعة، فسبحان من يحيي العظام وهي رميم .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من به يتوله وفيه يهيم .
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله الذي وجب علينا اقتفاء آثاره في الحديث والقديم وجعلنا أولى بهذا السيد العظيم فما فضّلت هذه الأمة عن غيرها إلا لإكثارها من الصلاة عليه والتسليم .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أولي الفضل العميم، صلاة وسلاماً دائماً يضيء نورهما جنح الظلام البهيم وسلم تسليماً :
أما بعد فيا معشر الإخوة الكرام :
جئكم اليوم بفتواه ، بل سيد الفقهاء الشافعيين في وقته ، والفتوه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية .
الفتوه معرفة الأحكام التي تتوقف على مصدر شرعي من قرآن أو سنة أو غيرهما ، وهذا فتوه مجتهد .

وقد يكون الفتوه حافظاً لمذهب يعلمه للناس ، وأهم الفقهاء المجتهدين ثلاثة عشر مجتهداً ، مراً معنا منهم : سيدنا سفيان بن عيينة بمكة ، والإمام الأوزاعي بالشام ، والإمام الشافعي والليث بن سعد بمصر ، واسحق بن راهوية بنيسابور ،

والإمام أبو ثور (إبراهيم بن خالد ٢٤٠ هـ) راوية كتاب الشافعي في مذهبه القديم (الحجة) ، والإمام أحمد وداود الظاهري وابن جرير الطبري ببغداد .

وظهرت مذاهب نسبت إلى الأئمة كمذهب الشيعة الإمامية المنسوب إلى سيدنا جعفر الصادق ، ومذهب الشيعة الزيدية المنسوب إلى الإمام زيد بن علي زين العابدين (١٢٢ هـ) ومذهب الإباضية المنسوب إلى عبد الله بن إباض التميمي (ت ٨٠ هـ) .

ثم انقطعت معظم هذه المذاهب ، ولم يبق منها إلا الأربعة المشهورة في العالم الإسلامي وتشكل نسبة ٨٠ % من المسلمين ، بالإضافة إلى المذهب الجعفري في إيران ، ومذهب الزيدية في اليمن ، ومذهب الإباضية في عمان .

فنحن اليوم مع إمام قدوة مجتهد مذهب من أئمة الشافعية الكرام ، رحل الناس إليه من البلاد وقصدوه ، وتفرد بالعلم الوافر مع السيرة الحسنة والطريقة المرضية ، جاءته الدنيا وهي صاغرة فأبأها ، واقتصر على خشونة العيش في أيام حياته ، وصنّف في الأصول والفروع والخلاف والمذهب ، وأثنى عليه علماء عصره فقالوا : (أبو بكر الشاسي) : إنه حجة الله على أئمة العصر ، وقالوا (الموفق الحنفي) : هو أمير المؤمنين في الفقهاء .

وقال عنه الإمام الماوردي : مارأيت كأبي اسحق لو رآه الشافعي لَسُرَّ به .

نحن اليوم ننزل ضيوفاً على وحيد عصره ، وفريد دهره الذي عاش حصوراً لا يشغله عن طلب العلم شاغل وكان يقول : من قرأ علي مسألة فهو ولدي ، ويقول : العوام ينسبون بالأولاد ، والأغنياء بالأموال والعلماء بالعلم . اليوم يزورنا سيدنا الإمام إبراهيم بن علي الشيرازي المكنى بأبي اسحق . ومع الحلقة التاسعة والثمانين من سلسلة

الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً

لتتربوا عن الإمام أبي اسحق الشيرازي

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد إمامنا بيران ، وقرأ الفقه بشيراز على علماء عصره ، ولأتبرك معكم بهم أذكر لكم بعضهم : الأول : الإمام أبو القاسم الداركي (ت ٧٥ هـ) من أئمة المذهب الشافعي

والثاني : الإمام أبو حاتم القزويني صاحب ابن الباقلاني .

والثالث : الإمام القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله (ت ٤٥٠ هـ) الطبري ، وهو أهم هؤلاء فقد لازمه وبرع على يديه ، وصار معيد الدرس عنده ، وكان يضرب المثل بفصاحته وقوة مناظرته ويقول إنه لازم مجلسه بضع عشرة سنة في بغداد التي قدمها ، سنة خمس عشرة وأربعمئة (٤١٥ هـ) وهو لا يملك شيئاً ، وبلغ به الفقر مبلغه حتى لا يجد قوتاً ولا ملبساً ، كان أصحابه يأتونه فيقوم لهم نصف قومة كي لا يظهر منه شيء من العري (رضي الله عنه) .

وحين عرف الناس قدره صاروا يرسلون إليه المؤن ، ومرة أرسلوا له بدلة وعمامة بقيمة عشرين ديناراً ، فنزل إلى الشط ليغتسل فسرقها لص وترك له عمامة رديئة بدلها ، فطلع الإمام ولبسها وذهب للدرس ، وما شعر حتى سألوه عنها فانتبه وقال : لعل الذي أخذها محتاج .

معاشر المسلمين :

وبوفاة الإمام أبي الطيب الطبري أصبح الإمام أبو إسحاق إمام عصره لا ينازعه في المذهب أحد

وأضحى الإمام من أئمة الهدى والدين فقيهاً أصولياً مناظراً للمذهب بصيراً بقواعده وحين لمع نجمه ، وسطع نوره ، دعي إلى المدرسة النظامية التي بناها الوزير نظام الملك السلجوقي في بغداد ونيسابور للشافعية لكنه أبى ، ووقف إلى جانب الإمام أبي القاسم القشيري صاحب الرسالة القشيرية (ت ٤٦٩) الذي نصر مذهب الأشاعرة، وحين نال الحنابلة من الشافعية قرر أن يقبل التدريس في المدرسة النظامية ، وكان لا يتناول راتباً منهم بل يقتصر على عمامة صغيرة وثوب قطني ، ويقنع بالقليل من القوت

إنني . أيها السادة . أذكر لكم منهجه الفريد في حياته وزهده لتروا كيف أن هؤلاء الأفاضل لم تغرهم الدنيا كما غرّت غيرهم ، يا شباب : حاولوا تقليد المخلصين لا الطامعين ، الإمام أبو إسحق الشيرازي رضي الله عنه يعطينا الدرس تلو الدرس ، انظروا إليه عندما كان يريد التصدق على فقير كان قبلها يحسن النية لله تعالى ، وإذا أراد أن يتكلم في مسألة قدّم الاستقامة بالله تعالى ، وأخلص القصد في نصره الحق، دون التملق للخلق، وأخذ نفسه بخطة صارمة فكان إذا صَنَف مسألة صلى قبلها ركعات لله تعالى ، وإذا أَلَف أو كتب يعيد كلّ قياس للمسألة ألف مرة حتى يستيقن منه ، ويعيد كلّ درس قبل إلقائه ألف مرة ، فإذا كان يريد أن يستشهد على مسألة فيها بيت حفظ القصيدة كلها التي فيها البيت .

وكان يكرر ويقول : العلم الذي لا ينتفع به صاحبه أن يكون الرجل عالماً ولا يكون عاملاً، وقال : الجاهل بالعالم يقتدي، فإذا كان العالم لا يعمل فالجاهل ما يرجو من نفسه، فالله الله يا أولادي ، نعوذ بالله من علم يصير حُجَّةً علينا وينشد لنفسه :

علمت ما حلل المولى وحرّمه فاعمل بعلمك إن العلم بالعمل
وبحسن نيته في العلم والعمل اشتهرت تصانيفه في الدنيا ،أنتم يا إخوة تعرفون
بعضها حتماً .

منها المذهب والتنبيه واللمع وشرحه والتبصرة في أصول الفقه وطبقات الفقهاء .
وكتابه التنبيه . يا سادة . مجلد مختصر في المذهب الشافعي ، اقتصر فيه على بيان
الأحكام الشرعية مجردة من الأدلة والخلاف والمناقشة ، وهو أحد الكتب الخمسة
المشهورة المتداولة بين الشافعية ، وكان الطلبة يحفظونه عن ظهر قلب تقبله الله بقبول
حسن ، فشرحه علماء كثير بلغ عددهم ثلاثة وأربعين شرحاً ، واختصره آخرون
، ونظمه عدد من الفقهاء

وأما كتابه المذهب فذكر فيه أصول مذهب الشافعي بأدلتها ، يذكر الأحكام ثم
يبين الاستدلال عليها من القرآن والأحاديث الشريفة بأسلوب سهل وعبرة أدبية ،
شرحه مولانا الإمام النووي والسبكي والمطيعي وخرج أحاديثه ابن الملقن ٨٠٤ هـ فمن
منا لا يعرف كتاب المجموع موسوعة المذهب الشافعي للإمام النووي رضي الله عنه .

إخوتي في الله : لم يخل الإمام على أحد بعلمه في ليل أو نهار ، في حلّه
وترحاله ، حتى غدا عامة المدرسين بالعراق والجبّال من تلامذته وأتباعه وكفاهم بذلك
فخراً لكن أكبر وسام ناله الإمام من سيدنا رسول الله ﷺ ، فقد رأى رسول الله
ﷺ في منامه ومعه سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله
بلغني عنك أحاديث كثيرة عن ناقلتي الأخبار ، فأريد أن أسمع منك حديثاً أتشرف به
في الدنيا ، وأجعله ذخراً للآخرة ، فقال له رسول الله : يا شيخ ، قل عني (من أراد
السلامة فليطلبها في سلامة غيره) فكان الإمام الشيرازي يقول : ناداني رسول الله
بلقب الشيخ ، (فهو عندي بالدنيا وما فيها) .

أيها الأحبة والصحب : كانت هذه الرؤيا المنامية بشارة خير للإمام فقد سبق علماء عصره وصار رأس الشافعية والمقدّم عليهم في وقته ببغداد ، وأحبه الخاص والعام، وحين انتدبه الخليفة العباسي المقتدي بالله ليرسله إلى أحد المعسكرات للجند (سنة ٤٧٥ هـ) تسامع الناس بخروجه فخرجوا لوداعه وما إن تهيأ للركوب حتى خرج أهل البلد بنسائهم وأولادهم يتمسّحون بثيابه تبركاً به ، ويأخذون تراب نعليه يستشفون به ، وخرج الخبازون ونشروا الخبز وهو ينهائم ولا ينتهون ، وخرج أصحاب الفاكهة والساكر ونشروا ما معهم على الناس ، وهي تقع على رؤوسهم والشيخ الإمام يعجب مما يفعلون وحين توفي قاضي القضاة الحسين بن مأكولا (ت ٤٤٧ هـ) أكره الخليفة العباسي القائم بأمر الله الشيخ أبا إسحق بأنه يتقلد القضاء لرد المظالم فامتنع الإمام وكتب إليه (ألم يكفك أن هلكت حتى تهلكني معك) فبكى الخليفة وقال هكذا فليكن العلماء ، وإنما أردنا أن يقال : إنه كان في عصرنا من وكل به وأكره على القضاء فامتنع ، وقد أعفيناه .

حين قدم إلى خراسان ما دخل بلدة إلا كان قاضيهما أو خطيبها أو فقيهها من تلامذته .

وحين قدم نيسابور مع بعض تلامذته تلقاه أهلها بالترحاب وخرجوا لاستقباله وعلى رأسهم إمام الحرمين الجويني ، أخذ ببعض متاع الإمام الشيرازي ومشى بين يديه وقال: لي الفخر أن أفعل هذا وتدور رحى المناظرات ويناظره الإمام الجويني في نظامية نيسابور في عدد من المسائل بحضور مشهود من العلماء فيظهر عليه الإمام أبو اسحق ويحيب ببراعة نادرة وقوة حجة يظهر على أبي المعالي بقوة جدلة فقال له: ما غلبتني إلا بصلاحك .

لكن هذه الدار كتب الله على أهلها الفناء ، فقد شاء الله أن يجتبيه لجواره بعد أن عاد إلى بغداد ، فمرض الإمام ودخلوا عليه يعودونه ، سأله أحدهم : أوصنا يا إمام . فقال :

سألت الناس عن خلٍّ وفي فقالوا ما إلى هذا سبيل
تمسك إن ظفرت بِذيلِ حَرٍّ فإنَّ الحرَّ في الدنيا قليل
ثم راح يناجي مولانا عز وجل بأبيات ودّع فيها الدنيا ملؤها التضرع والدعاء ، بالله أصغوا إليها ناداه :

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا وقمت أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت : يا عُدِّي في كلِّ نائبة وَمَنْ عليه لكشف الضرِّ أعتمد
أشكو إليك أموراً أنت تعلمها مالي على حملها صبر ولا جلد
وقد مددت يدي بالضرِّ مبتهلاً إليك يا خير من مدّت إليه يد
فلا تردّها يارب خائبه فبحرُ جودك يروي كل من يَرُدُّ

رحل سيدنا أبو اسحق الشيرازي سنة ٤٧٦ هـ ولم يَخْلَفْ درهماً ولم يتزوج ، وأعلنت جنان الفردوس طوائرها لاستقبال روحه الطاهرة ، فقد رئي في المنام وعليه ثياب بيض وعلى رأسه تاج فقيل : ما هذا البياض فقال : شرف الطاعة . قيل : والتاج ؟ قال عزّ العلم .

وأما في الأرض فقد نادوا على وفاته ، وحمل إلى دار أمير المؤمنين المقتدي بالله
فصلى عليه، وأقيم له العزاء بمدرسته النظامية ، بعد أن ترك خمسة عشر كتاباً من درر
الفقه والعقيدة و تلامذة ملؤوا الأرض علماً ، أشهرهم وأعظمهم الإمام الخطيب
البغدادي صاحب تاريخ بغداد هناك ، جمعنا الله تعالى بهم هنا وهناك ، وما أدراك ما
هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى السيد
الأعظم، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله :

الصلاة والسلام عليك

المصادر :

- صفة الصفوة ٦٦/٤
- الكامل لابن الأثير ١٣٢/١٠
- تهذيب الأسماء واللغات ١٧٢/٢
- وفيات الأعيان ٢٩/١
- طبقات السبكي ٢٦٥. ٢٦٦/٤
- طبقات الإسنوي ٨٣/٢
- البداية والنهاية ١٢٤/٢
- النجوم الزاهرة ١١٧/٥
- شذرات الذهب ٣٤٩/٣
- مقدمة طبقات الفقهاء لإحسان عباس بيروت ١٩٧٠
- مقدمة كتاب المجموع للإمام النووي .

(٢٢٥)

الإمام

أبو بكر الخطيب البغدادي

(٣٩٢ . ٤٦٣ هـ)

الحمد لله الذي تفرّد بجلال ملكوته ، وتوحد بجمال جبروته ، وتعزّز بعلو أحديته ، وتقدّس بسمو صمديته ، وتكبرّ في ذاته عن مضارعة كلّ نظير ، وتنزه في صفاته عن كلّ تناء وتصوير ، فسبحانه وتعالى له الصفات المختصّة بحقه ، والآيات الناطقة بأنه غير مشبّه بخلقه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة عبد موقن بتوحيده .
مستجير بحسن تأييده وصف ذاته فقال ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ طه ه
استوى كما أخبر ، وعلى الوجه الذي أراد ، وبالمعنى الذي قال ، استواء منزهاً عن الحلول والانتقال ، فلا العرش يحمله ، ولا الكرسي يسنده ، بل العرش وحملته ، والكرسي وعظمته ، الكلّ محمول بلطف قدرته ، مقهور بجلال قبضته . فالاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ، ومنّ الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، بأنه تعالى كان ولا مكان ، وهو على ما عليه كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان ، علم ما كان ، وعلم مايكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، من الذي أمره بين الكاف والنون ؟ الله ، أإله مع الله ؟! وحدوا الله .
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده المصطفى وأمينه المجتبي ورسوله المبعوث إلى كافة الورى .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله مصاييح الدجى

وأصحابه مفاتيح الهدى ، وسلم تسليمًا كثيرًا .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

هل سمعتم بعلم الرجال ، علم لم تسبق أمة من الأمم أمة الإسلام إليه ، علم يسعى لمعرفة صحة المصدر وطريق وصوله وصحة نسبته إلى صاحبه المنسوب إليه .
علم يبحث في رواية الخبر ، من هو الراوي وبلده وشيوخه وحاله ، ومدى ما وصل إليه من علم ، ميزان يزن صحة الرواية والدراية ، ويكشف الزائف من السالم ، والصحيح من المكذوب ، والمثبت من الموضوع .

نحن اليوم مع رجل ملك ناصية ذلك كله ، وكتب فيه تاريخاً اعتمد فيه تلك الطريقة ، كتب تاريخاً للمدينة التي نشأ بها ، لكل من سكنها أو مرَّ بها ، أو مات فيها حتى عام ٤٦٣ هـ ، ترجم لكل الطبقات : للخلفاء والملوك ، والأمراء والوزراء ، صحابة أو تابعين ، ترجم للمحدثين والقراء ، والمفسرين والفقهاء ، مجتهدين أو قضاة ، أصوليين ، زهاد ، متصوفة ، نحاة أو لغويين ، أطباء أو صيادلة ، مؤدِّبين أو متأدِّبين ، فرسان رماة صناع ، حتى بلغت تراجم الكتاب (٧٨٣٢) ترجمة ، كما بلغ عدد الأحاديث (٤٤٦٥) حديثاً ، وسمي هذا الكتاب تاريخ بغداد مدينة السلام ، وأخذ وساماً عليه لقب (محدث الشرق) ، كما أطلقوا على ابن عساكر الدمشقي من بعد لقب محدث الشام .

إننا مع الإمام المؤرخ ، الحافظ ، المحدِّث الناقد ، العلامة المفتي الأشعري ، خاتمة الحفاظ سيدنا أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي ، ومع الحلقة التسعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام أبي بكر الخطيب البغدادي .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد الإمام أبو بكر الخطيب البغدادي عام (٣٩٢ هـ) في عصر الصحوة الفكرية عصر السلاجقة الذين استولوا على بغداد بعد إضعاف الخلافة العباسية .

وكان والده أبو الحسن خطيباً حول بغداد ، ودفع بولده إلى السماع والفقہ منذ نعومة أظفاره ، ونشأ ببغداد وقرأ القراءات بالروايات ، وتفقه على القاضي أبي الطيب الطبري الشافعي ، والمحامي ، وأبي إسحق الشيرازي . وبدأ يسمع الحديث وهو في سن الحادية عشرة (٤٠٣ هـ)

ورحل إلى البصرة وهو ابن عشرين ، ثم إلى نيسابور ، وزار الأقطار وهو كهل، يكتب ويجمع ويحفظ ، حتى صار أحفظ أهل زمانه على الإطلاق ، وحين دخل مكة حاجاً وشرب من ماء زمزم سأل الله ثلاث حاجات : أن يكتب تاريخاً لبغداد ويحدث به ، وأن يملئ الحديث بجامع المنصور ، وأن يدفن عند الإمام بشر الحافي ، فهل استجاب الله تعالى دعاءه ؟

إخوتي في الله : إن مولانا عز وجل لم يخب رجاء الإمام الخطيب البغدادي ، فقد بدّ أقرانه في الحديث لأنه لم يترك مطالعته ، كان إذا سار يمشي وفي يده جزء يطالعه حتى قيل فيه : ما أخرجت بغداد بعد الإمام الدارقطني (علي بن عمر) أحفظ من أبي بكر الخطيب . ولأدلل على هذه القضية اسمحو لي أن أنقل لكم هذا المشهد الفريد من حياة الإمام ، اسمحو لي أن أنقل بحضرتكم إلى هناك ، إلى بغداد حاضرة الشرق العربي الإسلامي فرج الله عنها ، ها هو يحضر درساً عند شيخه الإمام أبي إسحق الشيرازي شيخ الشافعية في عصره ، فروى الشيخ حديثاً ، ثم التفت إلى الإمام الخطيب وقال : ما تقول فيه : فقال : إن أذنت لي ذكرت حاله . فأسند الشيخ أبو إسحق ظهره إلى الحائط ، وقعد مثلما يقعد التلميذ بين يدي الأستاذ يستمع لكلام الخطيب ، وشرع الخطيب في شرح أحوال الحديث ويقول : فيه فلان كذا ، وقال

فلان كذا ، حتى استوفى أحواله شرحاً حسناً على البديهة ، إلى أن فرغ من رجاله .
فأثنى عليه الإمام الشيرازي ثناء حسناً وقال : دارقطني عهدنا .

مع كل هذا التحقيق والذاكرة كان إذا سئل سؤالاً لا يجيب حتى يتثبت من
جوابه ، وإن ألحوا عليه غضب .

فحقق الله تعالى أمنيته الأولى ، فصار مدرساً في جامع المنصور ، ونودي بين
الخطباء والوعاظ أن لا يردوا حديثاً حتى يعرضوه عليه ، فما صححه أو رده رده ولم
يذكروه ، ولما كان درسه اليوم مهماً أحببت وإياكم أن أطير بكم عبر جناح الشوق
إلى جامع المنصور ببغداد لأسمع مع حضرتكم هذا الدرس ، لأنه بالغ الأهمية ، فهو
درس في العقيدة وبالذات عن آيات الصفات يقول :

(أما الكلام في الصفات (الإلهية) (نحو قوله تعالى ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾
وقوله ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ وقوله ﴿ يَوْمَ يَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ وقوله
﴿ وَلَتَصْنَعُ عَلَى عَيْنِي ﴾ وقول رسول الله ﷺ : ينزل الله تعالى كل ليلة إلى السماء
الدنيا وقوله : (إن الله خلق آدم على صورة الرحمن) . فإن ما روي منها في السنن
الصحيح مذهب السلف إثباتاً وإجراً على ظواهرها ونفي الكيفية والتشبيه عنها ،
وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبتته الله (وهم المعطلة) ، وحققتها قوم من المثبتين فخرجوا
في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف (وهم المجسّمة) والقصد إنما هو سلوك
الطريقة المتوسطة بين الأمرين ، ودين الله تعالى بين الغالي فيه والمقصر عنه ، والأصل
في هذا الكلام في الصفات فرع الكلام عن الذات ، ويحتذي في ذلك حذوه ومثاله ،
فإذا كان معلوماً أن إثبات رب العالمين إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فكذلك
إثبات صفاته ، إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف ، فإذا قلنا : لله يد وسمع
وبصر ، فإنما هي صفات أثبتها الله لنفسه ، ولا نقول : إن معنى اليد القدرة ، ولا إن
معنى السمع والبصر العلم . ولا نقول : إنها جوارح ، ولا نسبها بالأيدي والأسماع

والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل . وتقول : إنما وجب إثباتها لأن التوقيف ورد بها ، ووجب نفى التشبيه عنها لقوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ (الشورى ١١) ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ (الإخلاص ٤) هذا هو العلم بين التفويض والتأويل لا التشبيه ولا التجسيم . والإمام يميل للتفويض . والله أعلم بمراده .

أيها الأحبة والصحب : واستجاب الله تعالى له في الدعوة الثانية فأكرمه بعقد مجلس يقرأ فيه تاريخه العظيم تاريخ بغداد مع أنهم سألوه قبلها أن يصنف لهم كتباً فكان يقول : من صنف فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس . وقد ألف لهم تاريخ بغداد لم يؤلف قبله مثله ، دلّ به على عقل الإمام واختياراته السديدة ، لأنه جعله على مبدأ رواية الحديث الشريف : حدثنا وأخبرنا ، وقد تتابعت مصنفاته حتى بلغت ستة وخمسين مصنفاً :

فأق الخطيب الورى صدقاً ومعرفة	وأعجز الناس في تصنيفه الكتب
حمى الشريعة من غاوٍ يدنسها	بوضعه ونفى التدليس والكذب
جلى محاسن بغداد فأودعها	تاريخه مخلصاً لله محتسباً
يا أحمد بن علي طبت مضطجعاً	وباء شانيك بالأوزار محتقبا

(أبو الخطاب بن الجراح المقرئ)

وقد بارك هذا الكتاب سيدنا رسول الله ﷺ ، إذ رؤي في المنام والإمام جالس يقرأ الدرس وعن يمينه سيدنا رسول الله ﷺ جاء لسمع درس التاريخ ، وكان يقرأ معرباً صحيحاً .

والحق يقال يا سادة . :

إن الإمام البغدادي استطاع أن ينفي تحريف الغالين وانتحال المبطلين مع إيمان ويقين وعبادة قل نظيرها ، كان يختم كل يوم ختمة قراءةً وترتيلاً ، ثم يجتمع إلى الناس فيحدثهم ، وقد استدعاه وزير القائم بأمر الله علي بن الحسن الملقب بشرف الوزراء ليعرض عليه عريضة رفعها اليهود ادعوا فيها بوجود كتاب معهم عن رسول الله بإسقاط الجزية عن أهل خير ، وفيه شهادة بعض الصحابة ، وزعموا أنه خط سيدنا علي رضي الله عنه فماذا اكتشف الإمام ؟ .

تذكروا . إخواني . أننا مازلنا في بغداد فرج الله عنها ، جاء الإمام وما إن أمسك بالكتاب وتأمله حتى قال : هذا مزور . وبهت اليهود . قال الوزير : من أين قلت يا إمام ؟ قال : فيه شهادة معاوية ، وهو أسلم عام الفتح ، وفتحت خير سنة سبع ، وفيه شهادة سعد بن معاذ ، ومات يوم بني قريظة قبل خير بسنتين ، (هكذا على البديهة)

وقام الناس يهللون ويكبرون ويعظمون ما أتى به الإمام من علم ومعرفة ، وقد بلغ السبعين من عمره ، وصار عنده من الهبات والثياب والذهب ما يعد ثروة ضخمة ولم يكن له ولد ، فكتب إلى الخليفة يستأذنه بتوزيعه على فقراء المحدثين ، فأذن له بذلك ، وأوقف كتبه على وجوه البر ، وأوصى أن يتصدق بجميع ثيابه . حتى رحل إلى الله تعالى نقياً تقياً .

وكان انتقاله إلى الرفيق الأعلى يوم الاثنين سنة ٤٦٣ هـ وخرج بجنازته القضاة والأشراف والفقهاء وخلق كثير ، وكان بين يدي الجنازة جماعة ينادون : هذا الذي كان يذبُّ عن النبي ﷺ الكذب ، هذا الذي كان يحفظ حديث رسول الله ﷺ وحقَّق الله له أمنيته الثالثة فدفن بجوار قبر سيدنا بشر الحافي ، تبرع له به أحد العلماء الصوفية كان يمضي إليه كل أسبوع ينام فيه ويتلو القرآن فهنيئاً له الجوار

هنا ، وهنيئاً له الجوار هناك .

مضى إلى الله تعالى كما يمضي الأخيـار إلى هناك هناك ، إلى روح وريحان وجنة
نعيم فاللهم كما جمعتنا به هنا فاجمعنا به هناك وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا
محمد ﷺ ، الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله .

المصادر :

- سير أعلام النبلاء ٢٧٠/١٨
- النجوم الزاهرة ٨٧/٥
- الأعلام للزركلي ١٦٦/١
- طبقات الإسنوي ٢٠١/١
- طبقات الحفاظ ٤٣٤
- وفيات الأعيان ٧٦/١
- البداية والنهاية ٢٣١/٨
- شذرات الذهب ٣١١/٣
- طبقات الشافعية للسبكي ٢٥٨/٢٩/٤
- المستفاد من تاريخ بغداد ٥٧
- الوافي بالوفيات للصفدي ٩٢/١
- تاريخ ابن عساكر ٣١/٥
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي
- (وفيات ٤٦٣ هـ) .

(٢٢٦)

الإمام

ابن كثير الدمشقي

(٧٠١ . ٧٧٤ هـ)

الحمد لله الذي ذرأ وبرأ ، وصوّر العالم صوراً ، وخلق من الماء بشراً وخرق له سمعاً وبصراً ، وأمضى بقدرته

وإرادته قضاءً وقدرًا ، وأظهر بحكمته من آياته عبراً ، جبر من خضع لديه وجعله من الأولياء ، بعد أن وقف بالذلة بين يديه منكسراً ، وأغنى بفضلته من تمسك بمجبله وأمسى إليه فقيراً .

فسبحانه من إله ليس في قدرته مرا ، ولا في وحدانيته امترا ، وهو السميع البصير الذي يسمع ويرى .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، نظر إلى الماء فعاد من الهيبة حجراً ، وإلى الجماد فسال برحمته كالسيل وجرى ، ورفع قبة السماء بغير عمد كما ترى .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله تواضع فلم يبد تكبرا ، وقطع لياليه يناجي الله سهراً ، بسط كفاً منكسراً ، وجاد بالدنيا علانية وسراً ، فمشى على هديه العارفون بالله ليلاً ونهاراً ، واستنشقوا منه عنبراً وعطراً من صلى عليه نال رفعةً وقدرًا ، وزاده الله عزاً وفخراً .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعترته وأنصاره الذين نشر الله لهم رحمته نشرًا ، وسلم تسليمًا .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

هل سمعتم بثقة المحدثين ، وعمدة المؤرخين ، وعلم المفسرين (ابن ناصر الدين)
هل سمعتم بأعظم العلماء المسلمين الدمشقيين في الفقه والتفسير والحديث و
التاريخ ، حتى لقبه تلامذته (ابن الجزري) بـ الإمام مؤرخ الإسلام وحافظ الشام .
وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد ، وانتشرت تصانيفه في حياته حتى بلغت أربعة
وثلاثين كتاباً ورسالة ، مما دعا شيخه الإمام الذهبي الدمشقي يلقبه :
بالإمام الفقيه المفتي المحدث الأوحـد البارـع الذي خرّج وناظر وصنف وفسّر
إمامنا اليوم عربي أصيل ينتسب إلى الشرف الرفيع لقريش ، هو سيد من سادات
دمشق المحروسة ، حاضرة بلاد الشام التي كانت موحدة مع مصر في عصر المماليك
(٦٤٨ . ٧٨٤ هـ) التي جاءت بعد دولة الأيوبيين في مصر والشام .
نحن اليوم مع علّم مضى على وفاته ستة قرون ونصف تقريباً ولا يزال ذكره يتردد
في ردهات العلم ، وعلى ألسنة العلماء وطلاب العلم ، لاعتداله وإخلاصه .
إننا مع العالم المفسر ، والحافظ المحدث ، والفقيه المؤرخ الإمام عماد الدين
إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ومع الحلقة الواحدة والتسعين من سلسلة
الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً
لتنفضوا عن الإمام ابن كثير :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد الإمام ابن كثير في بصرى الشام سنة
(٧٠١ هـ) ونشأ بها يتيماً ، كان والده الإمام عمر خطيب بصرى الشام أديباً
شاعراً فقيهاً ، ربى أولاده تربية إسلامية ، ووجههم لدراسة العلوم الشرعية ، لكنه مات
و ترك ولده يتيماً ، ولعلّ هذا السبب كونه اشتهر باسم جده (ابن كثير) كما اشتهر
من قبل الإمام ابن حنبل باسم جده ، ثم بعد وفاة والده لازم أخاه عبد الوهّاب (ت

٧٥ هـ) فكان له بمثابة الأب والأستاذ الأول ، انتقل معه إلى دمشق حاضرة العلماء في زمانها فحفظ القرآن الكريم في صغره ، وختمه وهو في السنة الحادية عشرة من عمره ، أتقن القراءة وصار من القراء ، ووهبه الله ذاكرة ممتازة وحافظة متميزة وموهبة متفوقة ، واستطاع بتوفيق الله تعالى أن يحفظ العلوم والمتون والرجال وأحوالهم حتى عدّه تلميذه (أحمد بن حجي ت ٨١٦ هـ في طبقات المفسرين) : بأنه أحفظ من أدركه لمتون الأحاديث ورجالها .

فكيف تمكن الإمام ابن كثير من ناصية العلم ؟

إخوتي في الله : بعد أن حفظ الإمام كتاب الله التفت إلى الفقه الشافعي فحفظ كتاب التنبيه للإمام الشيرازي (٣٩٣- ٤٧٦ هـ) ومن كثرة ما تعلق به وطالعه قيض الله له أن يشرحه .

ثم تناول مختصر ابن الحاجب (٥٧٠- ٦٤٦ هـ) في علم الأصول والجدل فقام بحفظه وخرّج أحاديثه .

ثم تناول مقدمة ابن الصلاح في مصطلح الحديث فقام باختصارها

يفعل هذا كله في أثناء تلمذته على الأشياخ الذين ملؤوا أسماع العالم في عصره فقد صاحب ابن كثير أربعة من عظماء عصره وتأثر بهم ، الأول : الإمام الحافظ ومحدث الديار الشامية الإمام المزيّ يوسف بن عبد الرحمن (٦٥٤ . ٧٤٢ هـ) قرأ عليه كتابه المشهور (تَهذِيبُ الْكَمَالِ فِي أَسْمَاءِ الرِّجَالِ) ومن شدة ملازمته له وسماعه تصانيفه ، رَوّجه الإمام المزيّ ابنته زينب ، الحافظة لكتاب الله وجعله صهره .
الإمام الثاني : شيخ الشافعية في زمانه بلا مدافع الإمام ابن الزملاكي (٦٦٦ هـ . ٧٢٧ هـ) .

الإمام الثالث: شمس الدين محمد الذهبي (٦٧٣- ٧٤٨ هـ)

الإمام الرابع : الإمام البرزالي .

ويُضم إلى هؤلاء الإمام ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم ٦٦١ - ٧٢٨ هـ) الذي كان يأتيه في سجنه يقرأ عليه .

كما يضم إليهم الإمام القاسم بن عساكر الدمشقي (٦٢٩ - ٧٢٣ هـ) مؤرخ الإسلام وشيخ دار الحديث النورية ، كما قرأ على الإمام ابن قاضي شهبه وبرهان الدين الفزاري (ابن الفركاح ت ٧٢٩ هـ)

والإمام ابن القلانسي (أحمد بن محمد ٦٦٩ - ٧٣ هـ) الذي أذن له بالإفتاء حتى بلغ عدد شيوخه أربعين

أهلّ هؤلاء الشيوخ ليفتي ويخبر بالأحكام الشرعية التي هي من أهم واجبات الفقيه ، ولها منزلة رفيعة ، لأنها من مهمات الأنبياء والمرسلين أولاً ، وواجبات العلماء الفقهاء ثانياً ، لتبليغ دين الله وتأدية الأمانة ، وبدأ مرحلة جديدة في حياته ، مرحلة التدريس الشرعي ، ففي دمشق وحدها كان من المدارس الشرعية ١٣٨ مدرسة شرعية متوزعة على المذاهب الأربعة ، يدرس ويؤلف ، يدرس على طريقة أهل الحديث : حدثنا وأخبرنا بالسند المتصل ، لذا اصطبغت مؤلفاته في التفسير والفقه والتاريخ والتراجم اصطبغت برونق الحديث ومنهجه ، ومن كتبه البداية والنهاية في التاريخ ١٦ مجلداً) أرّخ فيه للدول الإسلامية حتى زمانه ، عرض للسيرة النبوية كاملة ، واعتمد في عرضها على القرآن الكريم والسنة الشريفة وعلى من تقدمه من كبار المؤرخين وأصحاب السير منسقة مرتبة ، وله ٣٠ مجلداً هو كتاب جامع المسانيد في الحديث ، حتى بلغت عدد مؤلفاته ٣٤ كتاباً وكتابه التفسير يعد في المكانة العليا بعد تفسير الإمام الطبري وتفسير جامع بين (الرواية و الدراية) فسّر فيه القرآن بالقرآن ثم بالسنة ثم بأقوال السلف الصالح ويتكلم على الأسانيد جرحاً وتعديلاً ، تعالوا بنا نسأل ابن كثير عن أفضل طريقة لتفسير القرآن اسمعوا جواب الإمام : إن أصح الطرق في ذلك أن يفسّر

القرآن بالقرآن ، فما كان أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر ، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنّة فإنّها شارحة للقرآن وموضحة له " .

ثم إنه ينبه في تفسيره عن الإسرائيليات ويحذّر منها ، ويقول إنما تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد ، ويبيّن أنّها على ثلاثة أقسام :

١ . ما علمنا صحته مما بأيدينا فما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

٢ . ما علمنا كذبه مما عندنا فما يخالفه فذاك مردود

٣ . ما هو مسكوت عنه لا صحيح ولا مردود ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجاوز

حكايته .

هل رأيتم مثل هذا التحقيق العلمي ، ولو لم تعودوا إلى بيوتكم إلا بهذه القاعدة لكفى .

لقد أتعّب ابن كثير نفسه في حياته بالدراسة والمطالعة ، ثم بالتأليف والتصنيف ، والبحث والاطلاع فكان ذلك سبباً مؤثراً في فقد بصره ، وهذا ضريبة العلم والبحث ، وكان يقول : لازلت أكتب في جامع المسانيد في الليل والسراج ينوص حتى ذهب بصري معه (على ضوء السراج يكتب)

اتقوا الله يا شباب و يا طلاب العلم: فقد هيا الله لكم ما لم يهيئ لغيركم ، ذهب بصره ، والنبي يقول (خ) إن الله تعالى قال (إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته خيراً)منهما الجنة) .

ويبدو أن الإمام بعد أن أصيب بالعمى ولم يستطع القراءة والمطالعة قد ملّ

حياته وطلب القرب من الله تعالى ، تجد ذلك بالزفرات التي أنشدها وهو يقول :

تمر بنا الأيام تترى وإنما	نساق إلى الآجال والعين تنظر
فلا عائد صفو الشباب الذي مضى	ولا زائل هذا المشيب المكدر
ومن بعد ذا فالعبد إما منعم	كريم وإما بالجحيم يسعر

إنّ ما فعله الإمام ابن كثير وغيره قد عوض الثقافة الإسلامية خير عوض عما أريد في نكبة بغداد على أيدي التتار ، وفي الشام على أيدي التتار والصليبيين ، وفي الأندلس على أيدي الصليبيين .

أيها الإخوة : ولكن عمى الإمام لم يمنعه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إن الإمام ابن كثير الدمشقي تحدّى سطوة السلطان ولم يخف في الله لومة لائم، فكيف تم له ذلك ؟

إنّ الصليبية الحاقدة في الإسكندرية استولت على أموال المسلمين ظلماً وعدواناً ودمرت ما دمّرت ، فما كان من سلطان مصر والشام إلا أن أصدر مرسوماً يأمر فيه بمصادرة أموال النصارى في الشام ، رداً على فعل الصليبيين في الإسكندرية ، فماذا كان موقف إمامنا ؟ إنّ الإمام ابن كثير وقد قرأ قوله تعالى ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ وقف في وجه نائب السلطان معلناً بطلان هذا المرسوم السلطاني ، فما هو ذنب نصارى الشام بما فعل الصليبيون في الإسكندرية ؟ لقد أسرع يحذّر السلطان ويأمر بإلغاء المرسوم . فقال له نائب السلطان : إنّ بعض فقهاء مصر أفتوا إلى الأمير بذلك ، فأنكر عليهم ابن كثير فعلهم ذاك ، حتى توصل إلى إلغاء المرسوم ، هذه وقفة أبية وقفها الإمام ، ولموقفه هذا الشريف استطاع بما أوتي من علم في آخر حياته أن يتصل بحكام دمشق الذين قربوه لمكانته العلمية والاجتماعية الرفيعة ، فكانوا يطلبونه للمشورة في معضلات الأمور ولفض النزاع بين علماء عصره .

فيا أهل دمشق الحبيبة تذكروا إمامكم الفذ ابن كثير واحرصوا على شراء هذا التفسير الذي اختصره وبسطه لإمام من أئمة أهل السنة والجماعة هو الشيخ علي الصابوني الذي أعاد للعالم عطر ابن كثير الدمشقي الذي رحل إلى الله تعالى هنا

بدمشق سنة ٧٧٤هـ وهنا لم تضرب الموسيقى نغم الوداع ولكن جنان الفردوس
أعلنت طوائرها لاستقبال روحه هناك ، أما هنا فقد ودفن إلى جانب شيخه الإمام
المزي في مقبرة الصوفية (الإمام الزركشي ٧٩٤ هـ) :

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا وجادوا بدمع لا يبيد كثير
ولو مزجوا ماء المدامع بالدماء لكان قليلاً فيك يابن كثير

المصادر :

- ابن كثير الدمشقي د. محمد الزحيلي . دار العلم
- ابن كثير الدمشقي د. مسعود الندوي
- مقدمة البداية والنهاية لابن كثير .
- مقدمة تفسير القرآن لابن كثير
- طبقات الشافعية الكبرى تاج الدين السبكي .
- شذرات الذهب ٣٢١/٦
- الدرر الكامنة ٣٩٩/١
- البدر الطالع ١٥٣/١

(٢٢٧)

الإمام عبد الله الياقيني

(٦٩٨ . ٧٦٨ هـ)

الحمد لله الذي أحيا بالعلماء الأولياء هذا الدين ، ونفع بهم المريدين ، وفقهم
لصالح الأعمال ، وحفظهم في الأقوال والأفعال ، وصفى لهم الأحوال ، وقلوبهم بذكره
أحيا ، ومن الأرجاس والأكدار طهر وجلا ، ونشر لهم أعلام ولايته ، وكلاهم بحسن
كلاءته ، وصرفهم في المملكة وولى ، وشوقهم إلى النظر لوجهه الكريم ، فزهدوا في
الدنيا والآخرة ، فهم الناطقون بالحق عن الحقيقة ، والمرشدون إلى سلوك الطريقة :
ملوك على التحقيق ليس لغيرهم من الملك إلا اسمه وعقابه
أولئك أهل للولاية نالهم من الله فيها فضله وثوابه
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كشف لأوليائه السرّ المكنون ،
وفتح لهم العلم المصون ، شربت أرواحهم راح محبته في حضرة القدس ، فسكرت عند
مشاهدة الجمال على بساط الإنس ، فهم الأصفياء المحبوبون والجلساء
المقربون :

فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه وأرواحهم في الحجب نحو العلى تسري
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله سيد الأصفياء ، وأمير الأنبياء ، وخير من
مشى تحت أديم السماء ، من أكثر من الصلاة عليه صار من الأولياء .
اللهم صل وسلم وبارك وعظم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى
أصحاب سيدنا محمد ، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين ، وأنزلهم في مقعد صدق عندك

يا مليكننا المقتدر وفي رحمتك يا أرحم الراحمين ، وعَجَّل فرجنا بحقهم وحق من جعلته
رحمة للعالمين ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد فيا معشر الإخوة الكرام :

لماذا كان أفضل العلماء هم العارفين بالله ؟ ولماذا علماء الحقيقة أفضل من
علماء الشريعة ؟

سؤالان أسألهما اليوم لأجيب عنهما بعونه تعالى من خلال شخصيتنا اليوم .
العلماء . يا إخوتي وأحبتي إنما يشرفون على قدر شرف علومهم ، وشرف العلوم
إنما على قدر شرف متعلقاتها ، فعلم المعارف المتعلقة بالله تعالى أشرف العلوم ،
وأصحابها أشرف العلماء ، وبعدها علم الفقه لتعلقه بأحكام الله تعالى وشرعه الذي
تعبّد به عباده .

وجميع العلوم وسيلة إلى هذين العلمين المشتملين على معرفة الله تعالى ومعرفة
عبادته ، لأن الخلق إنما خلقوا لمعرفة الله وعبادته ، كما قال عز وجل ﴿ وما خلقت
الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ . ثم العابد مفتقر إلى معرفة المعبود ومعرفة كيف يعبد
هذا أولاً ، وثانياً أشرف العلوم لا تنال بالكسب وإنما تنال بالوهب ، فالعلوم الوهبية
أو اللدنية أفضل العلوم ، وأصحابها أفضل العلماء ، والدليل على ذلك من أوجه :
الأول : من المعقول: أن المعارف والعلوم اللدنية يُخَصّ الله بها الولي والصدّيق ،
والعلوم الظاهرة ينالها الصالح والزنديق .

الوجه الثاني : من كتاب الله تعالى الذي قال عن سيدنا الخضر ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ
لَدُنَّا عِلْمًا ﴾

الوجه الثالث : فضّل رسول الله ﷺ سيدنا أويساً القرني على طبقة التابعين
لشغله وولاه بمحبة الله تعالى .

لذا . أيها المحتفلون كل جمعة بواحد من هؤلاء الأفاضل ، لهذا علماء الحقيقة أفضل من علماء الشريعة ، أتعرفون لماذا ؟

لأن علماء الحقيقة علماء بالشريعة وزيادة علماء بالحقيقة ، الحقيقة نهاية عزائم الشريعة ، الحقيقة مشاهدة أسرار الربوبية للعلماء بالله الذين كُشِفَ لهم الغطاء فشاهدوا الجمال الأسنى ، وسكروا بمحبة المولى وهاموا بأسمائه الحسنى وهم يرددون :

يا عين سحّي أبدا يا نفس موتي كمدا
ولا تحبي أحدا إلا الجليل الصمدا

واليوم أعرفكم بضيف من هؤلاء ، شيخ الطريقتين وإمام الفريقين ، منقطع القرين في الزهد ، شدّ الرحال إلى المساجد الثلاثة لطلب العلم ، نزيل الحرمين الشريفين ، نطقه الشعر ، وقوله السجع ، أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن سيدنا الخضر حي ، وألّف في حياته كتابه : نشر الروض العطر في حياة سيدنا أبي العباس الخضر ، وكان يقول ويردد : إن لم تقولوا أن الخضر حي غضبت عليكم .

نحن اليوم مع عالم الحجاز اليمني المكّي ، الذي قيل فيه وهو بعد حي : الحمد لله الذي افتتح المذهب بالإمام الشافعي واختتمه بالإمام اليافعي
استقبلوا ضيفكم الإمام سيدنا عبد الله بن أسعد اليافعي .

ومع الحلقة الثانية والتسعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا على الإمام عبد الله اليافعي :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : شاء الله تعالى أن يعطر الكون في نهاية القرن السابع الهجري ، وفي عدن اليمن حيث ولد سيدنا عبد الله اليافعي ، ولد كما يولد الأولياء يستنشقون عبير الإيمان ، فعزفت نفسه عما يشغل به الأطفال من اللعب ، ولما رأى والده عطر

التقوى ينشر عقبه على سفوح بلده ، أرسله إلى عدن وفتيها الإمام الحرّازي (أحمد بن علي) وعلامتها الشيخ البصّال (محمد بن أحمد) .

(وما اتخذ الله من ولي جاهل ولو شاء أن يتخذ له علمه) ، ولم يشتغل بشيء غير القرآن والعلم حتى برع فيه ، وحفظ السيد الإمام المتون في الفقه والنحو ، وقضى الله له علماً ولياً هو الشيخ علي الطواشي ، فلازمه في التربية والسلوك ، ورقاه حتى صار له طبعاً وديناً ، لكنه صار يتردد : هل ينقطع للعلم أو للعبادة والذكر ، واهتم لذلك ففتح أحد كتبه يوماً لينظر فيه على مقصد التبرك والتفاؤل فوجد فيه ورقة لم يكن رآها قبل ، وإذا مكتوب عليها هذه الأبيات :

وَكِلِ الْأُمُورَ إِلَى الْقَضَا	كُنْ عَنْ هُمُومِكَ مُعْرِضَا
وَلِرَبِّمَا ضَاقَ الْفَضَا	فَلِرَبِّمَا اتَّسَعَ الْمُضْطِيقُ
لَكَ فِي عَوَاقِبِهِ الرِّضَا	وَلِرَبِّ أَمْرٌ مُتَعَبٌ
تَنْسَى بِهَا مَا قَدْ مَضَى	وَأَبْشُرْ بِعَاجِلِ فَرْجَةٍ
ءَ فَلَا تَكُنْ مُتَعْرِضَا	اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ

إخوتي في الله : هدأت نفس الإمام وسكن ما عنده من الهم ثم شرح الله صدره أن يلازم العلم الشريف فاستأذن أشياخه للسفر إلى بيت الله الحرام ، فسكنها عشر سنين ، يشتغل فيها بالعلم ، ويتجرد للعبادة والذكر ، ثم توجه إلى طيبة الحبيب الأعظم ﷺ وقال : لا أدخل المدينة حتى يأذن لي رسول الله ﷺ فوقف على باب المدينة أربعة عشر يوماً يصلي على النبي ﷺ وناداه قائلاً :

وَمَنْ جُودَهُ خَيْرُ النُّوَالِ يُبَلِّ	أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا أَكْرَمَ الْوُورِ
وَدَجَلَةٌ تَجْرِي وَالْفَرَاتُ وَنِيلُ	وَمَنْ كَفَّهُ سَيِّحُونَ مِنْهَا وَجَيْمُحُنْ
وَأَنْتَ الَّذِي فِي الْمَكْرَمَاتِ أَصِيلُ	مَدَحْتُكَ أَرْجُو مِنْكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ
عَطَا مَا نَحْ مِنْهُ الْجَزَاءُ جَزِيلُ	يَا خَيْرَ مَدُوحٍ أَثْبَثَ شَرِّ مَا دَحِ

فرأى رسول الله في المنام فقال له :

- يا عبد الله أنا في المدينة نبيك ، وفي الآخرة شفيحك ، وفي الجنة رفيقك . واعلم أن في اليمن عشرة أنفس من زارهم فقد زارني ومن جفاهم فقد جفاني فسأله : من هم يا رسول الله ، فعددهم له ، وعدّ منهم شيخه علياً الطواشي . ثم استأذنه بالدخول إلى المدينة فقال له : ادخل إنك من الآمنين . ثم زار الحبيب الأعظم وكانت ساعة من ساعات الزمن المرضية عند أعتاب سيد الكائنات .

وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

حدّث الإمام قاضي القضاة مجد الدين الشيرازي فقال : رأيت في المنام وكان معي أجزاء من كتب الحديث ، وأنا أفكر في نفسي فيمن أذهب للسمع عليه ، وكان إذ ذاك بمكة من الشيوخ المسندين جماعة معظمون مقدّمون في أكثر النفوس على الإمام الياضي ، فسمعت صوتاً من جميع جهاتي وهو يقول : ليس عند الله أعظم قدراً من الياضي فقلت في نفسي : لعل المراد أعظم قدراً في أهل مكة .

فسمعت القائل يقول : ولا في الشام ولا في مصر فمضيت أسير وقلت : هذه رؤيا منام ولا بد لها من تعبيرها ، فما سرت خطوات حتى رأيت شخصاً واقفاً على طريقي غلب على ظني أنه سيدنا إبراهيم الخليل فسلمت عليه وذكرت له رؤيائي فقال : تعبيرها أن الياضي يشتهر حتى يصير مثل الشمس ثم يموت .

وهناك بجوار الحبيب الأعظم ينظم قصائده العلمية ، فإن لإمامنا قصائد في العلوم الشرعية منها ثلاث قصائد نظم بها المسائل المعتمدة في عقيدة أهل السنة والجماعة ، ومنها قصيدة جمع فيها عشرين علماً من العلوم ، لم يأت قبله أحد بمثل ما أتى به

أستطيع أن أقول . أيها السادة . أن من ألزم نفسه آداب السنة نور الله

قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب الأعظم في أوامره وأفعاله وأخلاقه ، خذوا هذا الدرس اليوم واكتبوه بحروف من نور على قلوبكم : من

أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ ، وَالدَّلِيلُ : قَوْلُهُ تَعَالَى :
﴿وَأِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ يَا سَعْدُ مِنْ صَلَّى عَلَيْهِ .

معاشر المسلمين : بقي الإمام يتردد على الحرمين الشريفين مع زيارته للشام وبيت المقدس وسيدنا الخليل إبراهيم ، لينهل من علوم أولياء أهل زمانه ، ويحج كل عام لاتفتته حجة ، ويصرف أوقاته في وجوه البر ، مرتفعاً على أبناء الدنيا ، زاهداً فيها ، يري المريدين ويدافع عن عقيدة الأشاعرة الكرام ، ويذم أعداءهم حتى اشتهر صيته في التصوف وأصول الدين ، وعار علينا أن يزورنا هذا الإمام الرباني ولا نستمتع لدرسه ، فتعالوا بنا نحضر ولو درساً واحداً نغدي به أرواحنا وقلوبنا وعقولنا من واحد من أفذاذ الأمة الكرام :

نَجَابُ فَتِيَّةٍ غُرَّ كَرَامُ مِنْ الْعِلْيَاءِ فِي أَعْلَى مَكَانِ
بَحَارُ الْعِلْمِ أَوْتَادُ لَأَرْضِ مَلُوكِ الْخَلْقِ أَقْمَارُ الزَّمَانِ

اسمعوه واستبشروا بالخير فإن الدرس في مقام الرجاء يقول :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ ويقول سبحانه ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقال رسول الله ﷺ " لما خلق الله كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي " وفي رواية " غلبت غضبي " وفي رواية سبقت غضبي " رواه البخاري ومسلم ، " وقال رسول الله ﷺ حاكياً عن قول الله عز وجل " وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال : لا إله إلا الله " رواه البخاري ، وقال ﷺ " يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان " رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وقال ﷺ : " لله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها " رواه البخاري ومسلم

وأما حقيقة الرجاء فقال بعضهم: تعلق القلب بمحجوب سيحصل في المستقبل ،
وتكلم الشيوخ في الرجاء فقالوا : الرجاء حسن الطاعة . وقيل : قرب القلب من
ملاطفة الرب " .

ثم أخذ الإمام في حكايات الصالحين عن الرجاء : وقد حكى عن إبراهيم بن
أدهم فقال: كنت أنتظر مدة من الزمان أن يخلو المطاف بمكة لي ، حتى إذا كانت
ليلة ظلماء شديدة المطر فخلا المطاف فدخلت ورحت أدعو: اللهم اعصمني
واحفظني عن المعصية ، فسمعت هاتفاً يقول : يا بن أدهم أنت تسألني العصمة وكل
الناس يسألون العصمة فإذا عصمتكم فلمن أرحم وعلى من أتكرم ؟
وراح يتابع حكايات الصالحين ثم أيدّ كلامه بالشعر وذكر قول الإمام الشافعي
رضي الله عنه

ولما قسا قلبي وضاق مذهبى	جعلت الرجا منى لعفوك سلما
تعاطمني ذنبى فلما قرنته	بعفوك ربي كان عفوك عظما
فمازلت ذا عفو عن الذنب لم	تزل تجود وتعفو منةً تكرما

وقام فتى من الحاضرين يسأل الإمام أنه لا يحفظ دروسه كما ينبغي وطلب منه
شيئاً يعينه على الحفظ فقال له الإمام : عليك بأوائل (سورة البقرة ألم ... المفلحون)
فإنها تزيد في الحفظ وتقوي النفس وتثبت العلم في القلب وتعين على المعرفة . (٢٧
الدر النظيم في خواص القرآن العظيم)

وقام آخر فقال له : يا إمام قد قُدر علي رزقي فهل من ذكر أقوله ؟ فقال
الإمام: أكثر من ذكر اسم : (الكريم الوهاب ذو الطول) لا يستديم على ذكره من
قُدر عليه رزقه ومسئله حاجة إلا يسّر الله عليه رزقه، والاسم (الباسط) إذا ذكر وحمل
أثر سعة الرزق وتفريج الكرب وراح الناس كل منهم يسأله كيف يقضي الله له حاجة

وتكاثر عليه الناس فقال لهم : من كان له حاجة مهمة فليكتب في رقعة : (بسم الله الرحمن الرحيم . من عبده الذليل إلى ربه الجليل ربي ﴿إِنِّي مُسْنِي الضَّر وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء ٨٣) ثم يرميها في نهر جار ويقول : إلهي بسيدنا محمد وآله الطيبين اقض حاجتي (ويذكرها) .

وهكذا ملأ القرآن حياة الإمام يصف الدواء من القرآن وأسماء الله الحسنى ، بل ألف كتاباً في ذلك سمّاه الدر النظيم في خواص القرآن العظيم .

أيها الأحبة والصحب : قال العارفون بالله في عصر الإمام : لم يمت الإمام عبد الله اليافعي حتى نال القطبية وشهد له أهل الأبطح بمكة أنه فضيل مكة وفاضلها وعالمها وعاملها، ولقد توفاه الله بمكة سنة ٧٦٨ هـ ودفن بجوار العارف الرباني الفضيل بن عياض رحمهما الله تعالى .

وبيعت حوائجه المتواضعة بأعلى الأثمان للتبرك بها هنا وهناك ، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :
الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله

المصادر :

- ١ . طبقات الصوفية للمناوي ٣٥/٣
- ٢ . جامع كرامات الأولياء ٢٥٠/٢
- ٣ . النجوم الزاهرة ٩٣/١١
- ٤ . طبقات الشافعية الإسنوي (٣٣٠/٢)
- ٥ . الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ٢٤٧/٢
- ٦ . شذرات الذهب لابن العماد ٢١٠/٦
- ٧ . طبقات الشافعية للسبكي ٣٣/١٠
- ٨ . معجم المؤلفين لكحاله ٣٤/٦
- ٩ . البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاتي ٣٧٨/١
- ١٠ . نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية للإمام عبد الله اليافعي .

(٢٢٨)

الإمام القاضي عياض

(٤٧٠ . ٥٤٤ هـ)

الحمد لله الواحد فلا يجحد ، الأحد الذي في سرمديته توحد ، الفرد الذي في ربوبيته تفرّد ، الملك الذي أفنى الممالك والملوك وملكه سرمد .

الحاكم الذي حكم بالموت على أهل الدنيا فليس فيها أحد يخلد .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له العلي الذي إليه الكلم الطيب يصعد .
أرسل الرسل ليرشد الناس إلى الطريق الأحمد ، وجعلهم بين يدي من له الشفاعة ولواء الحمد في القيامة يعقد .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله جعله آخر الأنبياء ليبين لهم الطريق الأرشد ،
فلذلك قال تعالى في كتابه الممجّد ، ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ . فنوّه بذكره تشريفاً لقدره وتوقيراً ، وأكمل به لأمته فرحاً وسروراً فأشرقت شمس الوجود يوم أن جاء سيدنا محمد .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

التوحيد هو الأصل الأصيل الذي لأجله خلق الله الخلق وكفى بالله شهيداً ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ على هذا المنهج أُرْسِلَ الله أنبياءه ورسله ﴿ وَمَا أَمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ وحين يُتَّخَذُ التوحيد وسيلة

لسفك الدماء وقتل الأبرياء ويدّعي أصحابها أنهم موحدون تكون هذه الدعوى كاذبة ومدعوها منافقين زنادقة .

لقد جاء رسول الله بالتوحيد وبقي الأمر على هذا المنهج الصافي طيلة عهد الخلفاء الأربعة ثم بدأ الانحراف حين نشأت الخوارج والفرق الضالة فكفّروا مرتكب الكبيرة في عصر أمير المؤمنين سيدنا علي ، وتشيع له آخرون ، وظهرت المذاهب الاعتقادية الضالة ، وقام أناس بعصيان الله تعالى علانية أمثال الجهمية الذين نفوا القدر ، والجبرية الذين قالوا إن الإنسان مجبور مقهور كالريشة في مهب الرياح ، وظهرت المعتزلة وقالوا : إن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر بل هو في منزلة بين المنزلتين . ونشأت الفرق الباطنية ، فرق تسترت بالإسلام وشككوا فيه وأثاروا الشُّبهة بين المسلمين ، هم أمام الناس يقولون لك نحن موحدون ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ وإذا ما اختلطوا بنسائهم وانطفأ الضوء زناوا بأخواتهم وأمهاتهم وزوجات غيرهم ، (وإذا انطفأ ضوء شعيب ما بقاشي عيب) ، يستحلون حرمة الله وينتهكون حدوده ، ييطنون ما لا يظهرون (ودين مخبأ صرماية عتيقة خير منه) .

هذه القضايا الخارجة عن الإسلام جعلت أهل السنة والجماعة الممثلين بالأشاعرة والماتريدية أن ينبروا ليدافعوا عن منهج الإسلام في العقيدة وأصول الدين ويبينوا أن هؤلاء ضالون مضلون منهم كافر ومنهم فاسق . ومن هؤلاء الذين تصدوا للعقائد الفاسدة والمتحللة من الدين وعقيدة التوحيد ومبادئه إمامنا .

إمامنا اليوم الذي دفع حياته ثمناً لعقيدة الأشاعرة أهل السنة والجماعة .

حق لكم اليوم أن تفخروا بسيد وإمام من شيوخ الإسلام ، لا أستطيع أن أحصي فضائله في جلسة واحدة ، هو أحد الأئمة الحفاظ المحدثين الأدباء الشعراء الخطباء البلغاء القضاة ، استبحر في العلوم وجمع وألف ، وسارت بتصانيفه الركبان ، واشتهر اسمه عند كل قاص ودان ، هو إمام أهل الحديث في وقته ، وأعلم الناس بعلومه ، مَقَامه في المغرب كمقام البخاري ومسلم في المشرق ، قالوا فيه : (لولاه ما عُرف المغرب) لكثرة شهرته .

نحن اليوم مع رأس علماء المغرب في الإسلام المستمسكين بالسنة والمدافعين عنها، يزورنا اليوم سيدنا القاضي عياض بن موسى اليحصبي صاحب كتاب الشفا ، ومع الحلقة الثالثة والتسعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن القاضي عياض رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : إلى جوار مضيق جبل طارق آخر الغرب ، وشمال المملكة المغربية اليوم ، وحيث يلتقي البحران المتوسط مع الأطلس ولد البحر الثالث القاضي عياض ابن موسى سنة سبعين وأربعمئة في سبتة (٤٧٠ هـ) فتح عينيه على حياة جادة في مدينة مليئة بالعلماء والعباد والمجاهدين ، فقد كانت دولة المرابطين (٤٤٥ - ٥٤١) المعاصرة لإمامنا عياض في المغرب دولة متحققة بالشرع منقادة له ، قامت على يد فقيه زاهد ، وعالم مشارك هو عبد الله الجزولي (ت ٤٥١ هـ) الذي قادها على أسس شرعية وجاهد حياته القبائل المرتدة من البربر هذا الشيخ . يا سادة . كان سبب هداية القبائل الجنوبية للصحراء ، نقلها من ظلمة الجهل إلى نور الإيمان ومن الصحارى الإفريقية الجنوبية إلى ملك المغرب كله والأندلس ، جعل من قومه الملتزمين دعائم دولة المرابطين التي ظللت رايتها فيما بعد المغرب كله من تونس إلى البحر الأطلنطي

والأندلس ، ومن هنا ترون أن عالماً واحداً يدعو إلى الله بإخلاص يحبي الله به أمة كاملة . ثم تول بعده القيادة يوسف بن تاشفين فسار بهم إلى المدن إلى فاس حاضرة المغرب وكبرى مدنه وأقام عليها أميراً يحكم بكتاب الله وسنة رسوله وهكذا فعل بكل مدينة حتى فتح مدن المغرب الأقصى كلها ، ثم ملك الجزائر ثم توجه إلى تونس فجعل كل هذه البلاد بلداً واحداً كما فعل قبله الفاتح الإسلامي عُقبة بن نافع . و ابن تاشفين خليفة عُقبة من يراه يجده الأسد قوة ومضاءً والصقر حدة بصر وسرعة انقضاض ، كان محارباً ليس له نظير ، وقائداً من الطبقة الأولى من القواد ، بقي يشد وتر الجهاد مئة سنة وسمى نفسه أمير المسلمين ، وأعلن أنه تابع للخليفة في بغداد ، إن ابن تاشفين نقل المغرب الإسلامي من الفرقة والانقسام والضعف إلى الوحدة والقوة ، وكان أخيراً عادلاً يميل إلى أهل العلم والدين ويكرمهم ويجعلهم أصحابه وبطانته تماماً كما فعل بسيدنا القاضي عياض ، ولذا نشأ هذا الحب بين الإمام ورأس السلطة .

وبداً بتلاوة كتاب الله تعالى وحفظه وأتقن القراءات السبع المتواترة ، ثم بدأ بحفظ الحديث الشريف والتفقه على مذهب الإمام مالك ، فدرس على شيوخ عصره في المغرب حتى قاربوا المئة .

حبوا إليه العلم فعكف على المطالعة والبحث ودراسة عقيدة أهل السنة والجماعة ، مستدلاً عليها بالكتاب والسنة وكلام أئمة السلف الصالح من الأشاعرة رضي الله عنهم . واستغنى بعلماء (سبته) ومن يفد إليها عن الرحلة لطلب العلم خارجها ، كانت هذه الأسباب مجتمعة قد دفعت الإمام إلى التحصيل العلمي والطلب ، والحرص على مجالسة العلماء والاستفادة منهم قارئاً ومستمعاً ومتفقهاً ومناظراً ومكاشفاً حتى أتم الله عليه شخصيته العلمية الفريدة ، فلا عجب بعد ذلك أن يتصدر علماء عصره ويسود أقرانه هناك . لذا نرى أن المصادر التي ترجمت لحياته

أطبقت على أنه أحد كبار أعيان علماء مذهبه ، وقد خدم مذهب مالك خدمة متميزة في مقامات التأصيل والتأليف ، ألّف كتاباً في حل مشكلات المدونة (موسوعة المذهب المالكي) وضبط ألفاظها ، وترجم لأصحاب مالك في كتابه ترتيب المدارك ، حتى ثبت لديه ترجيح مذهب مالك على غيره بطرق النقل والأثر وبطريق الاعتبار والنظر .

اخوتي في الله : تناهى إلى سمع الإمام وجود علماء أبرار في الأندلس جارة المغرب العربي فاستأذن أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين للسفر إلى هؤلاء الأعلام فما كان من ابن تاشفين وتقديراً للإمام القاضي إلا أن كتب رسالة إلى قاضي قرطبة يوصيه بالإمام ، وكانت قد سبقته شهرته إلى هناك ، فما إن حطت قدما الإمام أرض قرطبة حتى خرج الناس لاستقباله استقبال الأمراء ، وبوؤوه مكانة عالية في المسجد ليفد عليه الطلاب من كل ناحية ، وما إن استقرّ به المقام حتى طار صيته في البلاد ، وراح ينتقل من بلد إلى بلد في الأندلس ويلقى العلماء الأجلّة في أكبر مدنها حتى بلغوا ستّة وثلاثين ، أخذ عنهم مسموعاتهم ومروياتهم من كتب متون السنة والرجال والتاريخ وعلوم القرآن ، فما عاد إلى سبتة حتى أصبح أكبر موسوعة علمية في عصره ، وحمل وساماً علق على صدره أبد الدهر وهو قول علماء الأندلس: (ما وصل إلينا من المغرب أنبل من عياض)

وقلدوه القضاء في بلده سنة (٥١٥هـ) وبقي مدّة طويلة حمدت فيها سيرته وما زاده ذلك إلا تواضعاً وخشية لله تعالى ، ورحل إليه طلبه العلم من أنحاء الغرب ، وراسله الحفاظ من الشرق والغرب ، وأحبه العامة وأجله الخاصة ، وهابه السلطان ، فلم يكن أحد يجترئ على مخالفة الشرع ، وتجاوز حدوده ، فشاع في عهده العدل ، واستتب الأمن .

ومن أعظم كتبه التي انتفع بها واشتهرت بعد شرح مسلم كتابه الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ﷺ ، إذ جعل له طريقة خاصة ومنهجاً مستقلاً لم يؤلف مثله في الإسلام من كتب السيرة النبوية ، أراد به الإمام التقرب به إلى الحبيب الأعظم ، وأثبت فيه أن سيرته تمتاز عن سيرة الأنبياء والرسل والقادة والعظماء بميزات فريدة خاصة تجعلها في مجال القدوة والأسوة .

يا شباب : انظروا ماذا فعل القاضي عياض بهذا الكتاب ، أثبت للعالم أن سيرة سيدنا محمد ﷺ واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها منذ ولادته وحتى وفاته ولحاقه بالرفيق الأعلى ، أراد أن يقول للعالم بأسره (إن سيدنا محمداً ﷺ هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس) فتعالوا بنا نرى كيف فعل ذلك ؟
رتب القاضي عياض كتابه الشفا على أربعة أقسام :

الأول : في تعظيم الله تعالى لقدر هذا النبي الكريم قولاً وفعلاً في الثناء عليه وما خصّه الله تعالى للكرامة وما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات .

والقسم الثاني : ذكر فيه ما يجب على الأنام من حقوقه عليه الصلاة والسلام كفرض الإيمان به ووجوب طاعته واتباع سنته ولزوم توقيره وبرّه .

القسم الثالث : ذكر فيه ما يستحيل في حقه ﷺ وما يجوز عليه ، وهذا القسم هو سرّ الكتاب ولباب ثمرته ، لأنه يشمل اختصاصه ﷺ بالأمور الدينية وأهمها العصمة
القسم الرابع : في حكم تنقصه أوسبه ﷺ .

ولهذا التوزيع الفريد للكتاب شاع في البلاد واختصر وشرح .
مع كل هذه الأهمية العالية وتقدمه على علماء مذهبه هناك لم يدع بلوغ مرتبة الاجتهاد ، وكان ينكر على من قال له : (إنا نرى شروط الاجتهاد قد تكاملت فيك) ، واشتهر عنه قوله : (الاجتهاد في زماننا هذا طارت به للجو عنقاء المغرب ، فهو أصعب من لمس الثريا) .

أيها الأحبة والصحب : لكن حدثاً هاماً جرى في أواخر حياة الإمام ، إذ انقضت دولة المرابطين ، وبدأت مرحلة جديدة لدولة تستولي على بلاد المغرب سميت نفسها (دولة الموحدين) ، وكانت هذه الدولة الجديدة مخالفة للإسلام والعقيدة وكفّروا غيرهم ، وبالغوا في سفك الدماء وقتل الفقهاء ومهاجمة مذهب مالك . فماذا فعل القاضي عياض ؟

إنّ التاريخ سجل لإمامنا الزائر اليوم حروفاً من نور في الدفاع عن الشريعة ولأجل ذلك أدعوكم جميعاً لنشهد هذا الموقف للقاضي الجليل :

جمع أعيان سبئة ونبه الناس إلى مخاطر من تسمّوا بالموحدين ، وحذر الناس من هؤلاء المفسدين في العقيدة والدين ، وحذرهم أن يدخلوا بلدتهم ، وجهزهم للجهاد ، فاجتمعوا تحت قيادته ، وخاض بهم غمار الحرب ضدهم ، ونازلهم عدّة مرات ، ثم اضطر آخر الأمر للخضوع حقناً لدماء أهل بلده ، واتباعاً لأخف الضررين ، مدركاً خطورة ذلك عليه شخصياً ، وأنه سيكلفه حياته ، ولهذا ودّعهم وقد نفته دولة الموحدين (لإبليس)، ودّعهم وهو يبكي قائلاً : جعلني الله فداكم .

وهناك في المنفى أمروا واليهم بقتله لكنه وقبل أن ترتقي روحه إلى بارئها شهيداً تنهى لسمعه أن الشاعر الأندلسي محمد بن هانئ تملق بقصيدة الحاكم المعز قائلاً :

ماشت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فأصدر فتواه بتكفيره على هذا البيت ، وما هي إلا أيام حتى اغتيل القاضي عياض على يد شذاذ الآفاق موحدي (إبليس) سنة ٥٤٤ هـ واليوم قبره هناك مستقر للدعاء المستجاب ، لم يقف أحد على قبره ودعا الله متوسلاً بالقاضي إلا استجاب الله تعالى دعوته ، لأنه أعزّ الإسلام ونصر دينه ، وصار الشعار في الليل والنهار :

اجعل بربك كلّ عزّك يستقرّ ويثبت

فإن اعتززت بمن يموت فإنّ عزّك ميت

المصادر :

- سير أعلام النبلاء ٢٠/٢١٢
تهذيب الأسماء واللغات ٢/٤٣
وفيات الأعيان ٣/٤٨٣
البداية والنهاية ١٢/٢٢٥
النجوم الزاهرة ٥/٣٨٥
شذرات الذهب ٤/١٣٨
شجرة النور الزكية ١/١٤٠
القاضي عياض د . حسين شواط . دار القلم .

(٢٢٩)

الإمام ابن عبد البر

(٣٦٨ . ٤٦٣ هـ)

الحمد لله الذي بيّن أحكام الملة السنية ، وزين أعلام الجلة السنية ، وبصرهم بما آتاهم من الآثار النبوية ، ونصرهم على من ناوهم من الأشرار الحشوية ، أشكره على أيادٍ جارية وحفيه ، وأستغفره لمساوئ بادية وخفيه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المتوحد بالبقاء في الأزلي ، المنفرد بالكبرياء والجبرية .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، الذي دعانا إلى الملة الزهراء الحنيفة وتركنا على محجة بيضاء نقيه .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ذوي المقادر العلية والمآثر الجليلة وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

سافرت بكم منذ فترة طويلة بلغت قريباً من التسعين حلقة عبر بلاد الدنيا كلها، خطت معكم المشرق والمغرب ، والشمال والجنوب نلتقي معاً بسادات الأمة ورجالها الذين أنشؤوا هذه الحضارة الواسعة للدولة الإسلامية عبر القرون ، ولكني طيلة هذه الفترة لم أدخل معكم الأندلس التي طبعتها كبلاد الشام ، ولأجل أن تكون كبلاد الشام راح أهلها يسمون مدنها بمدن الشام فأشيلية تسمى حمص ، وغرناطة دمشق ، وبرية تسمى الأردن ، و شذونة فلسطين ، وجيان قنسرين وهكذا... الأندلس كانت بلاداً إسلامية بقيت ثمانية قرون تحت راية الإسلام ، ثم استولى عليها الإفرنج

الصليبيون وسمّوها إسبانيا ، وحولوا مساجدها إلى متاحف ، ضاعت الأندلس كما ضاع لواء اسكندرون وكما ضاع الجولان .

ونحن اليوم تطأ أقدامنا تراب الوطن السليب ، لأتعرّف مع حضراتكم على حافظ عصره مطلقاً وبحاري المغرب العربي ، أزور مع حضراتكم إمام الأندلس وعالمها ، التي تباركت به أرضها ومعالمها ، صحح المتن (متن الحديث) والسند ، وميز المرسل من المسند ، وفرّق بين الموصول والمنقطع ، وكسا الملة منه نور ساطع ، حصر الرواة ، وأحصى الضعفاء منهم والثقات ، جد في تصحيح السقيم ، وجدد منه ما كان كالكهف والرقيم ، له فنون هي للشرعة رتاج ، وفي مفرق الملة تاج ، كان ثقة ، والأنفس على تفضيله متفقة ، أما أدبه فلا تُعبر لجته ، ولا تُدحض حجته ، له من الصفات والمزايا ما يجعله أحد الأئمة الأعلام (الفتح بن خاقان) ، انظر إلى آثاره تغنيك عن أخباره ، له موسوعتان شاملتان في الفقه والحديث رتبهما على طريقة المسندين في الحديث الشريف ، سمّى الأولى التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. وسمّى الثانية الاستذكار ، جمع فيها كل ما ورد عن سيدنا رسول الله من الحديث الموجود في الموطأ للإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة . وهل تعرفون كم قضى الإمام في تأليفها ؟ نصف عمره البالغ (٩٥ سنة) استغرق كتاب التمهيد بمفرده ثلاثين سنة حتى قال فيه :

سمير فؤادي من ثلاثين حِجَّةً	وصاقل ذهني والمفرج عن همي
بسطت لهم فيه كلام نبيهم	لما في معانيه من الفقه والعلم
وفيه من الآداب ما تهتدي به	إلى البر والتقوى وينقي من الظلم

إن الآثار التي تربو على العشرين التي تركها الإمام لتدل على مكانته السامية في اللغة والحديث واللغة والأدب وعلم الأنساب والسير (الذهبي) : كان أول أمره ظاهرياً أثرياً ، ثم صار مالكياً ، مع ميل كثير إلى فقه الإمام الشافعي رضي الله عنه ، لا ينكر له ذلك فإنه ممن بلغ رتبة الاجتهاد ، ومن المسائل التي سار فيها على مذهب الشافعية الجهر بالبسملة في الصلاة .

فنحن اليوم مع علم مميز لا شك أنّ بعضكم قد عرفه من مؤلفه ، إننا مع الإمام يوسف بن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عمر بن محمد بن عبد البر القرطبي) العربي الأصيل ، ومع الحلقة الرابعة والتسعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام أبي عمر ابن عبد البر :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه .

إخوة الإيمان :

في مثل هذه اللحظة من يوم الجمعة والإمام على المنبر يخطب ولد إمامنا في شهر ربيع الثاني سنة ثمان وستين وثلاثمائة هجرية ، ورحلت قبيلته العربية من بني عدنان إلى بلاد الأندلس إبان الفتح الإسلامي . وكان والده من الشعراء البارعين وأهل اللغة والأدب لكنه رحل إلى الله قبل أن يشب إمامنا عن الطوق ، فنشأ في مدينة قرطبة عاصمة الخلافة في الأندلس وسرير الملك ، قرطبة حاضرة الأندلس التي احتضنت فطاحل العلماء من كل فن ، وكانت مستقر أهل السنة والجماعة ، وأصبحت مركز الحضارة الإسلامية في المغرب ، ولاشتهار أهلها بالتمسك بالسنة صار عمل أهلها حجة في بلاد المغرب ، كما كان عمل أهل المدينة حجة عند الإمام مالك ، ولذا كان الناس يشدون إليها الرحال لرواية الحديث والعلوم ، وربما لهذا انتشرت فيها

المكتبات في سائر أوساطها ، وكثر الكتبة والنساخ وتنافس الناس في اقتناء نوادر المخطوطات .

وأصبح العلماء عند أهل قرطبة لهم من المكانة والتعظيم الحظ الأوفى ، يشار إليهم بالبنان ويحال عليهم عند أخذ الرأي .

إخوتي في الله : أحببت أن أعطيكم لمحة موجزة عن تلك البيئة التي نشأ فيها الإمام وفيها تفقه ، فمن جالس جانس ، وكما قال سيد الكائنات (**المرء على دين خليله**) ، إن ابن عبد البر تلقته الأيدي الحنونة الشريفة الطاهرة ، فكتب بين أيدي العلماء ولازمهم سني حياته لا سيما في التفقه والحديث ، إذ برع فيهما براعة فاق فيها من تقدمه من رجال الأندلس فأتقن علوم السنة والقراءة ضبطاً وحفظاً وفهماً ، حتى حاز لقب حافظ المغرب بدون منازع ، وكان ناصراً للسنة مستقل الفكر بعيداً عن الجمود ، يبغض التقليد ، ولعلَّ السبب أن الله تعالى آتاه اجتهاداً في استنباط المسائل الفقهية والأحكام ، وأصبح لديه بسطة في الاستدلال والحججة على آرائه وفهمه ، وهذا هو الملاحظ في مؤلفاته : فهو يمحس آراء الأئمة المجتهدين ، فيقبل ويرفض ، ويرجح و يستدل لرأيه بالسنة ، ويقارع الحجة بالحجة ، لا يرفض قولاً إلا عن بينة ، ولا يرجح رأياً إلا ببرهان فأصبح علماً بين المجتهدين من الفقهاء والمحدثين ، ومفخرة من مفاخر المغرب على المشرق دلل لكم على هذه المكانة اسمحوا لي أن أحضر معكم هذا الدرس المهم درس يفيد طلبة العلم فهو يتكلم عن الحديث الذي رواه واحد فقط هل يقبل هذا الحديث في العلم والعمل معاً أم يفيد العلم وحده أو العمل وحده ، وهل يفيد الاعتقاد أم لا ؟

الله راضٍ عنكم يا شباب أنكم ستحضرون هذا الدرس (اللهم ارض عنا ، اللهم فقهنا في ديننا) اسمعوا النبوة العلمية والتحقيق العالي يقول : واختلف أصحابنا وغيرهم في خبر الواحد العدل ، هل يوجب العلم والعمل جميعاً ، أم يوجب العمل

دون العلم ؟ والذي عليه أكثر أهل العلم منهم : أنه يوجب العمل دون العلم ، وهو قول الشافعي وجمهور أهل الفقه والنظر .

ولا يوجب العلم عندهم إلا ما شهد به على الله وقطع العذر بمجيئه قطعاً (يعني قطعي الدلالة قطعي الثبوت) وقال قوم كثير من أهل الأثر وبعض أهل النظر : إنه يوجب العلم الظاهر والعمل الظاهر والعمل جميعاً ، منهم الحسين الكرايسي (الشافعي الفقيه المحدث أحد متكلمي أهل السنة من تلامذة الإمام الشافعي المباشرين ت ٢٤٥ هـ) وغيره وذكر آخر أن هذا القول يخرج علي مذهب مالك .

يتابع الإمام ابن عبد البر قوله : والذي نقول به : إنه يوجب العمل دون العلم (أفتي بقول الشافعي والجمهور) كشهادة الشاهدين والأربعة سواء ، وعلى ذلك أكثر أهل الفقه والأثر وكلهم يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات ويعادي ويوالي عليها ، ويجعلها شرعاً ودينياً في معتقده ، على ذلك جماعة أهل السنة ولهم في الأحكام ما ذكرنا ، وبالله توفيقنا :

يقول الراوي . يا سادة يا كرام . وكان رجل من أهل العلم يحضر مجلسه ويعجب بحفظه وإتقانه فخاطبه : يا حافظ المغرب ، فأجابه الإمام أبو عمر ابن عبد البر : لعلك تريد الخطيب البغدادي حافظ الشرق . فسكت الرجل . فصادف أن الرجل رحل إلى الشرق وأدى فريضة الحج وحضر مجلس الخطيب البغدادي هناك وسمع منه ، ثم عاد إلى الأندلس واستمع ثانية من الإمام ابن عبد البر ووجد البون شاسعاً ، ولما انتهى المجلس قال له : يا حافظ و يريد باحافظ المغرب والمشرق ، فحذف كلمة المغرب لأنها وردت في خطابه سابقاً ، وحذف كلمة المشرق لأنها وردت في كلام ابن عبد البر .

أيها الأحبة والصحب : رحل الإمام ابن عبد البر داخل الأندلس فقط شرقاً وغرباً حتى وصل إلى اشبونة (التي هي عاصمة البرتغال اليوم فتولى قضاءها ، وأخذ الإمام

عن الجهابذة من كبار علماء الأندلس ، وقد كانت قرطبة كعبة القاصدين من أنحاء المعمورة شرقاً وغرباً ولو أننا نعرف أسماء علمائها لذكرت لكم بعض مشايخه ، ولكني أذكر لكم بعض أقوالهم في الثناء على الإمام يقول الإمام أبو الوليد الباجي : لم يكن في الأندلس مثل أبي عمر ابن عبد البر في الحديث ، ومرة قال : أبو عمر أحفظ أهل المغرب .

وقال ابن حزم : وممن أدركنا من أهل العلم على الصفة التي بلغها واستحق الاعتداد به في الاختلاف مسعود بن سليمان ويوسف بن عبد البر . وكتابه التمهيد لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً ، فكيف أحسن منه .
وقال تلميذه الإمام الحميدي المحدث (ت ٤٨٨ هـ) : أبو عمر فقيه حافظ مكثر ، عالم بالقراءة وبالحلاف ، ويعلم الحديث والرجال ، قديم السماع يميل في الفقه إلى أقوال الإمام الشافعي رحمه الله عليه .

رحل إلى الأندلس وأقام في مدنها إلا اشبيلية (التي كانوا يسمونها بحمص) فقد نزلها الإمام فعامله أهلها بجفوة وتنكر ، فارتحل عنها منشداً :

تنكر من كنا نُسرُّ بقربه	وعاد زعافاً بعد أن كان سلسلاً
وحق لجار لم يوافقه جاره	ولا لاءمته الدار أن يتحولاً
بليتُ بحمص والمقام ببلدة	طويلاً لعمرى مخلقٌ يورث البلى
إذا هان حر عند قوم أتاها	ولم ينأ عنهم كان أعمى وأجهلاً
ولم تُضرب الأمثال إلا لعالم	وما عوتب الإنسان إلا ليعقلاً

وهكذا ترون . أيها الإخوة هذا الحافظ المحدث كيف تحول ببركة العلم الشرعي أديباً شاعراً حكيماً ، وله مؤلف في ميدان الأدب اسمه (بهجة المجالس وأنس المجالس) جمع فيه نوادر أدبية مختارة رائعة ، وبالمناسبة له شعر خاص بياهي فيه بالعلم ويحض على طلبه و يقول :

إذا فاخرتَ فافخر بالعلوم ودع ما كان من عظم رميم
وكائن من وزير سار نحوي فلا زمني ملازمة الغريم
وكم أقبلتُ متئداً مهاباً فقام إليّ من ملك عظيم
وركب سار في شرق وغرب بذكر مثل عَرَف في نسيم
وهكذا . معشر السادة . كنا اليوم في ضيافة ابن عبد البر الأندلسي الإمام البحر
الذي لا ساحل له في علم الأثر ، الحائز قصب السبق في مضماره ، الذي لم يستطع
أحد أن يشق غباره في التحقيق والتحميم ، انتهى به المطاف في رحلته الأندلسية
إلى مدينة شاطبة فأدركته منيته في ليلة الجمعة آخر ربيع الثاني سنة ثلاث وستين
وأربعمئة هجرية عن خمس وتسعين سنة : لكنه وهو على فراش الموت يُحتضر أوصى
ولده بوصيته أحب أن تكون لنا هدية من الإمام ، اسمعوا وصيته كم ملئت حكمة
بعد خمس وتسعين سنة قال له :

تجاف عن الدنيا وهونْ لقدرها ووفّ سبيل الدين بالعمرة الوثقى
وسارع بتقوى الله سرّاً وجهرة فلا عزّ أقوى . هديت . من التقوى
ولا تنس شكر الله في كل نعمة يمنّ بها فالشكر مستجلب النعمى
فدع عنك مالا حظ فيه لعاقل فإن طريق الحق أبلج لا يخفى
وشحّ بأيام بقين قلائلاً وعمر قصير لا يدوم ولا يبقى
ألم تر أن العمر يمضي مولياً فجذّته تبلى ومدّته تفنى

المصادر :

- . شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد
- . وفيات الأعيان لابن خلكان
- . مقدمة كتابه التمهيد . الأعلام للزركلي
- . سير أعلام النبلاء . معجم المؤلفين

(٢٣٠)

الإمام عقبة بن نافع

(ت ٦٣ هـ)

الحمد لله الذي أتمَّ كلمة الإسلام ، وعلت سيوف توحيد الملك العلام وتم به نظام أنبياء الله ورسله العظام ، فمن وفقه الله ألقى لدعوته بيد الاستسلام ، وذلك شأن ذوي العقول الراجحة والأحلام .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له اختصَّ بفضلته من شاء فارتقى ، وعمَّ تعالى ذوي السعادة والشقا ، بالحدوث والفنا ، وخذل أهل الجود والاعتزار ومن جنى ، وزين لكل منهم سوءَ عمله فرآه حسناً . فلم يغن ذوي الغنى الهنا .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله النبي الأمين سيد الرسل الغر الميامين ملجأ الأمة ، جعلنا الله ممن نجا باللجأ إليه آمين .

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعهم القائمين بحقوق نصرته أرباب العقل الرصين . الفاتحين بسيوف دعوته أبواب المعقل الحصين ، حتى بلغت أحكام ملته وأعلام بعثته من الشام والعراق والأندلس والصين وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

أترون إلى هذه البلاد التي تمتد من الصين إلى المحيط الأطلسي
إننا لم نفتح هذه البلاد لهواً ولا لعباً ، ولكن أرقنا فيها أنهاراً (أنهاراً حقاً) من
دمائنا ، وضخينا بها بجبال (جبال حقاً) من أجسادنا ، وسخرنا لها عبقرياتنا ،
ووقفنا عليها بطولاتنا .

ولكل منطقة فتحها المسلمون قصة رائعة تقرأها فتقول هذه أروع قصص الفتوح ، فإذا ما قرأت الثانية رأيتهما أجلّ وأكبر ، ولكل معركة قواد عباقرة تسمع أخبارهم فتقول : هؤلاء أعظم وأقدر ، وإذا نحن أمام سلسلة ذهبية من مراحل الفتوح تاليها أروع من سابقتها ، فتوح الشام ، أم العراق أم المغرب ، أم المشرق ، أم الروم أم الأندلس وجزائر البحر ؟

لقد تعاقب . أيها السادة . على هذه الراية الإسلامية حتى بلغ الأفقيين و ركزها في المشرق والمغرب مئاث من القواد ، كان منهم في المشرق قتيبة بن مسلم الباهلي الرجل الذي فتح من حدود إيران إلى أواخر تركستان ، ووصل بفتوحاته إلى أن دخل الصين ، ولولا الأجل لفتح الهند بقية الصين .

فمن هو فاتح المغرب العربي ؟ وعباقرة الحروب في التاريخ العالمي ؟ من هو النابغة العبقري من طبقة الاسكندر وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص والمهلب بن أبي صفرة وطارق بن زياد ومحمد بن القاسم الثقفي وصلاح الدين . من هو هذا القائد الذي استطاع أن يضم إلى الوطن العربي بسيفه بلاداً أوسع من فرنسا وألمانيا وإيطاليا؟ نحن اليوم مع بطل وقائد وأمير ، مع سيدنا عقبة بن نافع القرشي الفهري ومع الحلقة الخامسة والتسعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن سيدنا عقبة بن نافع .

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد سيدنا عقبة بن نافع في عهد النبوة ، وكان أخاً لعمر بن العاص من أمه ، وصاحب الدورة الأولى في مدرسة سيدنا محمد ﷺ خلاصة البشر ولباب اللباب صحابة سيدنا رسول الله ﷺ

فكان نموذجاً للدورة الثانية في مدرسة سيدنا النبي وهم التابعون ، ولزم سيدنا عمرو بن العاص وصاحبه حتى شبَّ وأينع وشجاعاً مقاتلاً ورجلاً صالحاً . ولكنه فوجئ في يوم من الأيام وقد أصبح أعمى ومضت عليه مدة وهو يجأر إلى الله أن يرد عليه بصره ، ثم رئي مبصراً فسئل . فقال أتيت في منامي ف قيل : قل : يا قريب يا مجيب يا سميع الدعاء ، يا لطيف لما يشاء رُدَّ علي بصري . فقلتها فرد الله علي بصري . وجاء إلى عمر و ابن العاص مبصراً معافى فولاه عمرو بن العاص إمرة جيش فغزا به السودان ، وسكن برقة ، ثم عينه سيدنا معاوية نائباً له على إفريقية وأرسله في عشرة آلاف مقاتل ، فجمع عقبة من أسلم من البربر وضمهم إلى جيشه ، وتوجه الجيش المؤمن على اسم الله لينشر الإيمان في أرض لم ينشر فيها ، وفيض النور على أمم لم تر بعد النور ، سار ليصل الحلقات القديمة من سلسلة الفتوح الذهبية بحلقات جديدة ، سار ليتمم ويحقق الكرامة ويحمل راية الإسلام .

إخوتي في الله : رأى التاريخ فتوحاً لا تعد من كثرتها ولا تحصى ، فما رأى فتحاً أسرع منه ولا أنفع ، لم يكن فيه شعب غالب ومغلوب ، بل كان فيه أتقياء برره وملحدون كفره .

ولئن هدى الله مصر بعمرو فكان إسلامها حسنة من حسناته فالمغرب العربي حسنة من حسنات عقبة بن نافع أولاً وحسان بن النعمان ثانياً وموسى بن نصير أخيراً ، ولولا موسى ما استقرَّ فيها الفتح ولا خلصت للإسلام ، ولولا موسى ما كان لنا في الأندلس هذا الفردوس الذي فقدناه .

معاشر المسلمين : لم يكن سيدنا عقبة قائداً عسكرياً فحسب بل كان حاكماً ربانياً إدارياً ، وكان ديناً مراقباً ربه ، عاملاً لاخرته ، انظروا كيف فتح الله على يديه ؟ أولاً : صحح عقبة النية لله تعالى لنشر الإسلام في إفريقية فسلك بجيشه الصحراء ، واخترق به الشمال الإفريقي كله ماضياً وسط القبائل البربرية كالسهم ، وقاد حملات

وسرايا حتى بلغ بهم البحر المحيط ، وكان كل من أسلم من البربر يعود إلى الكفر ، فيعود عقبة إليهم فيسلموا ، حتى عاجزوه وخاف أن يخذلوه .

سيدنا عقبة خاف على الجيوش الإسلامية من أعدائها الغادرين ، وقد فتح بلاداً طويلة دون أن يثبت الفتح رجال يخلفوه ، خاف على الإسلام من البربر ، فلم يجد الفاتحون المسلمون في كل بلد مَنْ قابلوا من الأمم مَنْ هو أقوى ساعداً وأجرأ قلباً وأكثر بالحرب تمسكاً من الترك في الشرق ، والبربر في الغرب ، فرمى الله أولئك بقتيبة بن مسلم الباهلي ، وهؤلاء البربر بعقبة بن نافع ثم بموسى بن نصير .

والبربر يا سادة . أمة صحراوية ، وسليمة القلوب ، متينة الأخلاق حاربت الإسلام كما حاربت العرب ثم قبلته كما قبلوه ، فكان منها جند عقبة وموسى وأعوانهما في الجهاد ، فنجحت ذلك النجاح العجيب .

وفتح عقبة مدناً عظاماً ، وكاد يكتسح الأندلس كلها ، لكن الله قيض فتحها لسيدنا موسى بن نصير وطارق بن زياد .

فماذا فعل سيدنا عقبة ؟ ويثبت حكمه ، ويحمي الإسلام من المرتدين ؟ بنى القيروان .

معشر السادة : أريدكم أن تشهدوا هذا المشهد الذي لم نسمعه في حياتنا لإمام أو قائد ، أريد أن أنتقل بحضرتكم إلى هناك إلى تونس اليوم حيث جمع عقبة أصحابه وقال لهم : (إن أهل هذه البلاد لاخلاق لهم ، إذا عضَّهم السيف أسلموا ، وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا إلى عاداتهم ودينهم ولست أرى نزول المسلمين فاستصوبوا رأيهم فجاءوا إلى موضع القيروان ، وهي طرف البر ، وكانت بلاداً كلها أشجار ملتفة لا يشقُّها الحيات من تشابك أشجارها وقال :

(إنما اخترت هذا الموضع لبعده عن البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكها ، وهي في وسط البلاد) . ثم أمر أصحابه بالبناء فقالوا : . هذه غياض كثيرة السباع والهوام ، فنخاف على أنفسنا .

وكان سيدنا عقبة مستجاب الدعوة ، فجمع من كان في عسكره من الصحابة وكانوا ثمانية عشر ، ونادى :

- أيتها الحشرات والسباع ، نحن أصحاب رسول الله ﷺ فارحلوا عنا فإننا نازلون ، فمن وجدناه بعد ثلاث قتلناه .

يقول الراوي يا سادة يا كرام : فنظر الناس يومئذ إلى أمر هائل وكرامة عظيمة ، رأوا بأمر أعينهم السباع تحمل أشياءها ، والدئب يحمل جرائه ، والحية تحمل صغارها ، وهم فارجون أسراباً أسراباً .

وصدق الإمام البوصيري عندما قال :

وَمَنْ تَكُنْ بِرَسُولِ اللَّهِ نَصْرَتَهُ
إِنْ تَلَقَّهِ الْأُسْدُ فِي آجَامِهَا تَحِمُّ
كان هذا الحدث العظيم سبباً قوياً في حمل كثير من البربر على الإسلام ، رأوا السباع تنقاد لسيدنا عقبة ، فهم أولى أن ينقادوا له ، وقطع سيدنا عقبة الأشجار واختطف سيدنا عقبة جامع القيرون لكنه تحير في قلبه فبقي مهموماً تلك الليلة ، فبات فسمع هاتفاً يقول :

- في غدٍ دخل الجامع فإنك تسمع تكبيراً فاتبعه ، فأني موضع انقطع الصوت فهناك القبلة التي رضيها الله للمسلمين بهذه الأرض .

فلما أصبح سمع الصوت فتبعه حتى انقطع فوضع المحراب ثمة .

أيها الأحبة والصحب : وعمر الناس المدينة فاستقامت في سنة (٥٥ هـ) وافتتح شمال إفريقية كلها ، بعد أن أعد جيشاً قوياً لو رمى به المرامي لاستجاب له ولو قحم به البحر لا فتحه ، ولو رام به الجبال لدكها .

تذكروا يا أحباب :

أن سيدنا عقبة وموسى بن نصير وطارق بن زياد سلسلة ذهبية في الفتح الإسلامي المغربي ، استطاعوا بفضل الله وتأييده أن يخترقوا أوربة من الغرب إلى الشرق ، وكانوا قادرين على افتتاحها كلها ، كان ذلك ممكناً عسكرياً بعونه تعالى ، ولو تمَّ ذلك لتغير تاريخ العالم ، وكانت السيادة اليوم في الأرض للمسلمين ، وكانوا هم أرباب العلم والقلم والسيف والعلم ، ولنجت الدنيا من شرور الشرق والغرب ، ومن القبلة الذرية التي تهلك الحرث والنسل ، ومن القبلة الأخرى التي تُذهب الدين والخلق والحرية والإنسانية وهي اللادينية أو الإلحاد أو الشيوعية ، سمَّها ما شئت ، ولكن الله تعالى لم يرد هذا ولا رادَّ لإرادته ، فأقام حاجزاً باستشهاد سيدنا عقبة سنة ٦٣ هـ بعد فتح جميع بلاد المغرب وبنى القيروان .

كانت هذه هي الأنباء بالتفصيل وإليكم موجزها :

ومن تكن برسول الله نصرته

إن تلقه الأسد في آجامها تجم

المصادر :

أسد الغابة ٥٥٦/٣ . دار الفكر .

الإصابة ٤٩٢/٢

الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٠٥/٤

البداية والنهاية لابن كثير ٢١٧/٨

سير أعلام النبلاء ٥٣٢/٣

رجال من التاريخ للطنطاوي .

معجم البلدان لياقوت الحموي ٤٢/٤ - ٤٢١ .

(٢٣١)

الإمام الرافعي

(٥٥٥ . ٦٢٣ هـ)

الحمد لله المبدئ المعيد ، الفعال لما يريد ، ذي العرش المجيد والبطش الشديد ،
الهادي صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد ، السالك بهم إلى اتباع رسولهم المصطفى ،
واقترء آثار صحبه المكرمين بالتأييد والتسديد .

أحمده سبحانه وتعالى وأشكره وأثني على ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا
يدركها إلا من ألقى السمع وهو شهيد .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فرد لا مثيل له ، صمد لا ضد له ،
منفرد لا ند له ، واحد قديم لا أول له ، أزلي لا بداية له ، أبدي لا نهاية له ، قيوم لا
انقطاع له ، دائم لا انصرام له ، المكرم لمن خافه واتقاه بدار لهم فيها من كل خير
مزيد ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ريك بظلام للعبيد ﴾

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المحذر للعصاة من نار تلظى بدوام الوقيد،
المبشر للمؤمنين بدار لا ينفد نعيمها ولا يبيد .

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعترته
وأحبابه صلاة وسلاماً لا تزال على كر الجديدين في تجديد ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

ها هي حلقات الشخصيات الإسلامية تمضي الواحدة تلو الأخرى حتى بلغت
فوق التسعين بخمس وها هي تلکم الشخصيات تودعکم عند تمام المئة ، کلهم
حمدت سيرتهم وصلحت سيرتهم ، فماذا تركت . أيها المسلم . من سيرة محمد عليها
بعد وفاتك ، من أي الشخصيات تحب أن تكون: مجاهداً شجاعاً ، أم مفسراً قارئاً ،

أم فقيهاً مجتهداً ، أم أصولياً عقائدياً أم قاضياً مرضياً ، أم زاهداً صوفياً ، أم عابداً تقياً ، المهم أن تكون والمصيبة ألا تكون ، هل سيرتك مثل سيرة الصدر الأول ، هل قرأت السيرة النبوية وتتبع أفعال حبيبك ، واقتفيت آثاره واستهديت به ما أمكنك .

يا أخي المسلم : إن لم تحمل ألم التعلم لم تذق لذة العلم ، إن لم تعرف المعبود كيف تصح عبادتك ، إن لم تكدح لم تفلح ، وإذا ما خلوت الدهر يوماً من التعلم والتفكر فحرك لسانك بالذكر وخاصة عند النوم كما كان يفعل حبيبك رسول الله

ﷺ .

أيها المسلم تخلق بخلق واحد من أخلاق أعلام أمتك هؤلاء ، فإن للدين عبقاً وعزقاً ينادي على صاحبه يوم القيامة ، ونوراً وضيقاً يشرق عليه في أرض المحشر ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴾

يا ترى في أي يوم سيعلن اسمك بين هؤلاء الفائزين ؟ تعالوا لأستعرض لكم شخصية لم يسجل مثلها التاريخ إلا أفراداً ، إمام ألف موسوعة في الفقه الشافعي جمع فيها بين أهل الرأي وبين أهل الرواية ، فأهل الرأي هم أهل العراق اعتنوا باستنباط المعاني من النصوص واستخدام الأقيسة التي أجادوا استخدامها ، وأهل الحديث الإمام مالك وفقهاء الحجاز والإمام أحمد فقد اعتنوا بالحديث ورجاله ومثله واعتبروه المرجع الوحيد في الأحكام ، فهم لا يأخذون بالرأي إلا اضطراراً عند عدم وجود الحديث .

ونحن اليوم مع سيد جمع بين المدرستين معاً فأخذ بالحديث والرأي وتصرف فيهما ، وأصل الأصول وقعد القواعد ووضع أصولاً للأخذ بالسنة النبوية ، فالتفت حوله الفريقان وشهد له الأئمة العدول بأنه من المتمكنين الصالحين ، وأن موسوعته الكبيرة لم يصنف في مذهب الشافعي أكمل منها في التحقيقات ، وشهد له آخرون أن موسوعته لم يوجد مثلها في الكتب السابقة ولا المتأخرات .

نحن اليوم مع عالم العجم والعرب ، مجتهد زمانه في المذهب الشافعي في القرن السابع ، والمرجع الأول في عصره لعامة الفقهاء في غالب الأقاليم ، وإذا اتفق هو والإمام النووي على حكم في المذهب لا يعدل عنه ، ومع هذا التفوق كان متواضعاً وقوراً مع العبادة والورع والمجاهدة ، وليس عالماً فقيهاً فقط بل عالم بالتفسير والحديث ، وانتفع الناس بمجالسه كثيراً ، وخرج طائفة كبيرة من الأئمة الأعلام .

نحن اليوم مع فخر الأكابر ، المحدث المفتي ، قرين الإمام النووي سيدنا عبد الكريم الرافعي أحد شيوخ المذهب في القرن السابع الهجري ، ومع الحلقة السادسة والتسعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام الرافعي :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه .

إخوة الإيمان : في شمال إيران وفي منطقة قزوین ولد مولانا الإمام الرافعي سنة ٥٥٥ هـ من نسب طاهر يرجع إلى الصحابي الجليل رافع بن خديج ، وكان والده من فقهاء بلده البارعين في العلم حفظاً وضبطاً ، صلب في الدين مهابة عند الناس ، وهو أول أسيادهم ، مات وعمر ولده خمس وعشرون سنة ، فتحول إلى علماء عصره وبلده ينهل منهم ، يسهر الليل والنهار ، يتتبع سيرة حبيبه المصطفى ويتقصى آثاره ويهتدي بهديه ، ويتحمل ألم التعلم فأذاقه الله لذته ، وكان إذا خلا من التعلم والتفكير اشتغل بالذكر والعبادة شعاره في ذلك ما قاله :

أقيماً على باب الرحيم أقيماً ولا تنيا في ذكره فتهيماً
هو الرب من يقرع على الصدق بابه يجده رؤوفاً بالعباد رحيماً

وجلس للتدريس مكان والده يتابع المسيرة ويحمل الراية عالية خفاقة ، درس في التفسير ، ودرس في الحديث ، ودرس في الأصول ، ودرس في عقيدة الأشاعرة ، لكن أكثر اشتهاره كان في الفقه ، وقعت تحت يده نسخة من كتاب الوجيز للإمام الغزالي رضي الله عنه ، فرآه يحتاج إلى شرح وتحقيق وأدلة ففتح الله تعالى عليه فتحاً مبيناً فكأنما كان الفقه ميتاً فأحياه وأنشره ، وأقام عماده بعد ما أماته الجهل فأقبره ، فكتب بالفقه مجلدات وكتب شرح الوجيز وسمّاه العزيز ، وكتب المحرر والمحمود ، بسط فيه الفقه غاية البسط ولم يكمله ، لكنه أتم فتح العزيز شرح الوجيز كتاب قال فيه الإمام تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى : وكفاه بالفتح العزيز شرفاً ، فلقد علا به عنان السماء مقداراً وما اكتفى ، فإنه الذي لم يصنف مثله في مذهب من المذاهب ، وسمّاه الشرح الكبير ثم اختصره بشرح صغير ، ومرة انطفأ السراج عليه وهو يكتب ويطالع فبحث فلم يجد زيتاً للمصباح فتألم فإذا بمولانا عز وجل يضيء له عريشة العنب نوراً فجلس يطالع ويكتب على نورها .

لكنه وهو يحضّر درس الحديث مرّ عليه حديث عجيب توقف عنده الإمام في كيفية شرحه وإعدادة للطلبة ، حديث احتار فيه الأئمة الأعلام أنفسهم ، فألهم الله تعالى شرحه بما يليق بسيدنا محمد ﷺ هذا الحديث في صحيح مسلم : وهو قوله ﷺ : " إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في كل يوم مئة مرة " سأل نفسه : مم كان يتوب النبي ﷺ وعلام يحمل الغين (أي ما يتغشى القلب)

هذا الحديث استعظم جمعاً من المسلمين أن يغان على قلب رسول الله (غين الأوزار والذنوب) فأنكروا هذا الحديث

لكن علماء الحديث قالوا : الحديث صحيح فلا داعي لهذا الإنكار ، وتوقف آخرون في تفسير معناه ، لأن الأنبياء معصومون عن ارتكاب الصغائر والكبائر وخلاف الأولى قبل النبوة وبعدها ، فكيف يتغشى قلوبهم غيُّ الأوزار ، فعن سيدنا

شعبة قال : سألت الأصمعي ما معنى (ليغان على قلبي) فقال : . عمن يروي ذلك ؟ قلت : عن النبي ﷺ قال : لو كان عن غير قلب النبي ﷺ فسرتك لك ، وأما قلب النبي ﷺ فلا أدري (فكان شعبة يتعجب من هذا الحديث) وأما سيدنا الإمام الجنيد فكان يقول : لو لا أنه حال النبي ﷺ لتكلمت فيه ، ولا يتكلم على حالٍ إلا من كان متصفاً بها (مشرفاً عليها) . وجلت حاله ﷺ أن يشرف على نهايتها أحدٌ من الخلق ، وقد تمنى سيدنا الصديق رضي الله عنه مع علو مرتبته أن يشرف عليها فعنه قال : ليتني شهدت ما استغفر منه رسول الله ﷺ .

هل عرفتم الحالة التي استشعرها الإمام الرافعي حول هذا الحديث ؟ فكيف استطاع الإمام أن يأتي بحلٍ يناسب مقام سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، فتعالوا بنا نحضر درس هذا الإمام في هذه القضية الهامة ، إلى هناك إلى شمال إيران إلى منطقة قزوين ، إلى الدرس العام الذي يحضره مئات المتعطشين لحديث رسول الله ﷺ ها هو يقرأ الإمام الحديث ، ما هو ؟ احفظوه : " إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في كل يوم مئة مرة " من أخرجه ؟ مسلم . يقول الإمام : في هذا الحديث ثلاثة أقوال :

الأول : حمل هذا الغين على حالة جميلة ومرتبة عالية اختص بها النبي ﷺ والمراد من استغفاره خضوعه وإظهار حاجته إلى ربه ، أو ملازمته للعبودية .

الثاني : حمل هذا الغين على السكينة والاطمئنان . فعن أبي سعيد الخراز : الغين شيء ولا يجده إلا الأنبياء وأكابر الأولياء لصفاء الأسرار . (فهو غين الأنوار كلما ارتقى من نور إلى نور أعلى استغفر من الحالة النورانية التي كان فيها) .

والثالث : حمل الغين على النظر في حال الأمة وإطلاعه على ما يكون منهم فكان يستغفر لهم ، فإذا خالطهم وبلغهم الشريعة ورأى منهم التقصير استغفر لهم ، ليصل إلى صفاء وقته مع الله ، فرسول الله لم يزل مترقياً من رتبة إلى رتبة ، كلما رقي

درجة وجد ما قبلها قليلة وقاصرة إلى التي انتهى إليها فيستغفر الله منها، ثم قال : وهذا ما كان يستحسنه والذي رحمه الله ويقرره .

أيها الإخوة : وهكذا ترون كيف استطاع الإمام حل مشكلة عويصة في حديث ظاهره موهم أن النبي يذنب ونَقَلَ عن الأئمة الثقات بدقة وأمانة ما قالوه فيه وما ذلك إلا للنور الذي كان يشع من قلب الإمام إلى عقله وجوارحه فقولوا رضي الله عنه.

أيها الأحبة والصحب : بهذا أصبح الإمام قدوة وحجة في الدين حتى وصل خبر إمامته إلى السلطان فزاره في بيته (وقديماً قالوا : نعم الحاكم في باب العالم وبئس العالم في باب الحاكم) فحين غزا السلطان خوارزم شاه (ت ٦٢٨ هـ) واسمه جلال الدين منكوبري ، سلطان بن سلطان بن سلطان غزا رجالاً من الكفار (سنة ٦٢٣ هـ) ، هم الكرج العتاة ، وهذا السلطان دانت له الأمم وتملك البلاد وجرت له عجائب حتى كتبوا سيرته في مجلد ، كان أسداً ضرغماً أسمى تركياً قصيراً ، وأشجع فرسانه إقداماً لا غضوباً ولا شتاماً ، وقوراً لا يضحك إلا تبسماً ، وكان تقياً عادلاً ، التقى هذا السلطان (جلال الدين) التتار فهزمهم وهلك مقدّمهم ابن جنكيز خان ، فعظم على أبيه هلاك ولده فجاء بجيش عظيم فالتقى الجمعان على نهر السند فانهمر جنكيز خان هزيمة منكرة ، ولولا أن الله قيض لهذه الأمة هذا السلطان لداس التتار الدنيا ، ثم التقى بالكُرج وهم قوم كفار فطحنهم وقتل ملوكهم وقتل بسيفه منهم حتى جمد الدم على يده.

هل عرفتم يا سادة من هو السلطان الذي جاء يزور الإمام ؟ جلس الإمام الرافي وقال له : سمعت أنك قاتلت الكفار حتى جمد الدم على يدك فأحب أن تخرج إلي يدك لأقبلها . فقال السلطان : لا بل أنا أحب أن أقبل يدك ، (فلولا العلماء لما جاهد العباد) فقَبَّل السلطان يد الشيخ الإمام فكان لقاء

المخلصين ، أخلصوا دينهم لله وتركوا تلامذة كثر ، أبرزهم الإمام الحافظ عبد العظيم
المنذري صاحب كتاب الترغيب والترهيب .

معشر المسلمين : توفي الإمام سنة ٦٢٣ هـ كما توفي من قبله وتركوا لنا علماً بقي
حجة علينا إن لم نجالس العلماء ونتعلم هذا العلم . فمن منكم اليوم سيسجل اسمه
إلى جوار هؤلاء ويحمل الراية ، من أي الخلفاء ستكونون ، من أولئك الأتقياء البررة أم
من أولئك الذين قال الله فيهم ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ ، سجلوا الجواب عن
السؤال قبل خروجكم من مدرسة سيدنا محمد ﷺ

المصادر :

- طبقات الشافعية للسبكي ٢٨١/٨
- طبقات الإسنوي ٢٨٠/١
- الأسماء واللغات ٢٦٤/٢
- فوات الوفيات ٣٧٦/٢
- النجوم الزاهرة ٢٦٦/٦
- شذرات الذهب ١٠٨/٥
- جامع كرامات الأولياء ٢٢١/٢
- سير أعلام النبلاء ٢٥٢/٢٢

(٢٣٢)

الإمام عبد الله بن قدامة المقديسي

(٥٤١ . ٦٢٠ هـ)

الحمد لله الذي جعل العلماء نجوماً يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر ، كما يهتدى بنجوم السماء وكواكبها ، وفضلهم في الرتبة والمقام بوراثة علوم الأنبياء الكرام على ملوك الأرض في محافل عساكرها ومواكبها ، ونزههم من رياض العلوم وحدائق الحقائق والفهوم في لطائف غرائبها وظرائف عجائبها . ورفعهم في مناصب الفضل ومراتب الكرم بما امتطوا من ركائب الهمم ونجائبها ، فسبحانه من إله عظيم وربّ متفضل كريم خصّ هذه الطائفة بمزيد العناية حتى علا بهم إلى مراقي الزّلف ومراتبها .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توصل النفوس المطمئنة إلى مطالبها ومآربها .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله خير نبي نبأه وأرسله إلى خير أمة أخرجت للناس في شمائلها ومناقبها .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وعترته وأصحابه وأحزابه ومحبيه صلاة تتضاعف أجورها ويتزايد وفورها وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

لو تعلمون بمن جئكم اليوم لأسرعتم بعد الصلاة لزيارته في منطقة الشيخ محيي الدين بن عربي في سفح جبل قاسيون جبل الأنبياء ، فهذه قصة شيخ من دمشق شيخ قال عنه الحافظ ابن الحاجب حين ترجم له : إنه لم ير مثله الناس ، ولم ير هو مثل نفسه "شيخ لم يكدرى تاريخ الإسلام في كل عصوره عشرين من أمثاله ، عالم تباركت دمشق الأبية بوجوده بينها ، وما أكثر الأولياء والعلماء والصالحين بالشام ، هذا الإمام أجمع أهل عصره من كل المذاهب الفقهية بأنه إمام في القرآن وتفسيره ، إمام في الحديث ومشكلاته ، إمام في الفقه وأحد زمانه فيه ، وإمام في علم الخلاف (الفقه المقارن) ، وأحد زمانه في الفرائض إمام في أصول الفقه ، وإمام في النحو ، وإمام في علم الفلك والحساب .

وحين قدم إليه الملك يزوره وكان يصلي لم يتجاوز في صلاته وبقي مع ملك الملوك ، وحين قدم بغداد آخر مرة قال علماء بغداد : ما نعرف أحداً في زماننا أدرك درجة الاجتهاد إلا الموفق ، لقبوه بالموفق لما وفقه الله تعالى إليه من العلم والعمل ، وقد طنت بذكره الأمصار ، وضنت بمثله الإعصار ، وشهد له الإمام أبو شامة تلميذه وشيخ الإمام النووي أنه شيخ الحنابلة ، إمام من أئمة المسلمين وعلماء من أعلام الدين في العلم والعمل .

فيا أهل الشام افخروا واسعدوا بسيد من ساداتكم ومعلم من معالم الشام في زمانه ، رحبوا بسيدنا عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي ، ومع الحلقة السابعة و التسعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام موفق الدين ابن قدامة :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد مولانا الإمام موفق الدين ابن قدامة سنة (٥٤١ هـ) إحدى وأربعين و خمسمئة في جبل نابلس من الأرض المقدسة في مدينة جماعيل ، ونشأ على سمّت أبيه الإمام أحمد وأخيه أبي عمر في الخير والعبادة .

وقدم دمشق المباركة مع أهله وله عشر سنين ، فقرأ القرآن وحفظ مختصر الخرقى في المذهب الحنبلي ، وقرأ العلوم الشرعية على والده ، وعلى علماء عصره ، وحين بلغ عشرين سنة بدأ الرحلة في طلب العلم فرحل إلى بغداد مرات ليأخذ على علمائها ، وأكرمه الله تعالى أن أدرك أربعين يوماً من حياة سيدنا عبد القادر الجيلاني إمام المذهب الحنبلي في عصره ، والتقى بسبط ابن الجوزي ودرس عليه ، ثم رحل إلى مكة المكرمة والتقى بشيوخها من الفقهاء والمحدثين حتى برع في العلوم الشرعية والفقه المقارن والأصول وجمع المذهب الحنبلي في صدره ، وبدأت دروسه في المجالس والجامع الأموي بدمشق وبدأ يعلّي شرحاً ما زالت علماء الحنابلة تستفيد منه منذ ثمانية قرون ألا وهو شرح لمختصر الإمام الخرقى في الفقه الحنبلي يذكر في كل مسألة شرحها ودليلها من الكتاب والسنة وآراء العلماء قاطبة بقي عشر سنوات تقريباً حتى أتمه عشرة مجلدات وأجاد فيه وأصبح موسوعة المذهب الحنبلي والفقه المقارن وحتى ترواكم نحن مقصرون في مجالس العلم أريدكم أن تتصوروا كم بذل الإمام جهداً في نشر العلم الشرعي في حياته ، كان رضي الله عنه يصلي الفجر في الجامع الأموي في محراب الحنابلة ، ويشغل عليه الناس بقراءة الدروس من بكرة إلى ارتفاع النهار ، فإذا صلى الظهر تابعوا القراءة عليه ، فإذا أفطر بعد صلاة المغرب عاد إلى الدرس ثانية في الحديث والتفسير وعلوم القرآن والسنة أو بقراءة أحد كتبه في العقيدة (الاعتقاد . العلو . ذم التأويل . كتاب القدر) أو في الفقه الحنبلي (المغني . الكافي . المقتع . العمدة) أو في أصول الفقه (روضة الناظر وجنة المناظر) أو في اللغة .. فقد ترك الإمام ثروة علمية كبيرة بلغت ٢٨ كتاباً أعظمها انتفاعاً المغني ، فقد انتفع به

المسلمون عموماً وأهل المذهب الحنبلي خصوصاً وانتشرت واشتهرت كتبه بحسن قصده وإخلاصه في تصنيفها ، يقول تلميذه الإمام الحافظ الضياء المقدسي :
. رأيت الإمام أحمد بن حنبل في النوم ، وألقى علي مسألة في الفقه ، فقلت : هذه في مختصر الخرقى . فقال ما قصّر صاحبكم الموفق في شرح الخرقى .

إخوتي في الله : كان الإمام في درسه في أثناء القراءة يمازح تلامذته وينبسط إليهم ، لعلمه أن الفقه بحاجة إلى ذلك ، وكلموه مرة في صبيان يشتغلون عليه فقال : هم صبيان ولا بد لهم من اللعب ، وأنتم كنتم مثلهم ، وكان رضي الله عنه إذا فرغ من صلاة العشاء يمضي إلى بيته بالصيف ومعه من فقراء الخنابلة فيقدم لهم ما تيسر يأكلون معه .

وكانت نسخ كتابه المغني يتناقلها العلماء ويشهدون بكما لها وقامها بل كان الإمام العز بن عبد السلام سلطان العلماء ومن انتهت إليه الرياسة في مصر بلا نزاع من العلماء والسلطين ، واعترفوا له بالاجتهاد المطلق ، كان هذا الإمام يشهد لكتاب المغني بأنه ما رأى في كتب الإسلام في العلم مثله في جودته وتحقيق ما فيه ، ونقلوا عنه أنه قال : لم تطب نفسي بالفتيا حتى صارت نسخة من المغني عندي . وهذا منتهى الإنصاف .

كما شهد علماء مذهبه فقالوا (ابن غنيمه) : ما نعرف أحداً في زماننا أدرك درجة الاجتهاد إلا الموفق . واسمعوا ماذا يقول ابن تيمية غفر الله له : (ما دخل الشام بعد الأوزاعي أفقه من الشيخ الموفق رحمه الله) أي في الفقه الحنبلي .

أيها الأحبة والصحب : وعادة كل من ينظر الناس في العلم يصعد الدم لرأسه ويغتم ويغضب إلا الإمام ابن قدامة ، استطاع بابتسامته العريضة أن يفوز في كل المناظرات التي أقامها أسبوعياً في الجامع الأموي بعد صلاة الجمعة ، فقد جبله الله تعالى على خلق كريم وأفرغ عليه المكارم إفراغاً ، وأسبغ عليه النعم تطوف به في كل

حال . حتى قال بعض الناس : هذا الشيخ يقتل بتبسمه خصمه المناظر له . وكان للإمام نور خاص يشع من وجهه حتى يقول من رآه كأنما يرى بعض الصحابة الكرام أتدرون بماذا ؟ بعبادته وصلاته بالليل ، يقول تلميذه الضياء المقدسي : كان الإمام يصلي بين العشاءين أربع ركعات : بسورة السجدة . ويس . والدخان . وتبارك ، لا يكاد يخلُ بهن ويقوم السَّحَر بسبع القرآن ، (يَحْتَم كل سبعة أيام ختمة) .

وقد رويت عنه الكرامات لشدة صلاحه وتقواه وتمسكه بالسنة فإن رسول الله ﷺ يقول (ما أنعم الله تعالى على عبد نعمة أفضل من أن يلهمه ذكره) فقد ثبت بهذا الحديث أن الذكر أفضل الكرامات ، وأفضل الذكر ما يتعدى نفعه إلى العباد وهو تعليم العلم والسنة .

نعم رويت عنه كرامات عادية أقل من هذه الكرامة بكثير ، قال أحد المعاصرين له في نفسه (ابن فضل الأعناكي) : لو كان لي قدرة لبنيت للموفق مدرسة وأعطيته كل يوم ألف درهم ، يقول : فجئت بعد أيام فسلمت عليه فنظر إلي وتبسم وقال :- إذا نوى الشخص نية كُتِب له أجرها .

وحكى آخر (ابن حمدان الجراعي) فقال : كنت أبغض الحنابلة لما يشنع عليهم من سوء الاعتقاد فمرضت مرضاً شنجاً أعضائي وأقمت سبعة عشر يوماً لا أتحرك وتمنيت الموت ، فلما كان وقت العشاء جاءني الموفق وقرأ علي آيات وقرأ ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ ومسح على ظهري فأحسست بالعافية وقام يريد الخروج فقلت : يا جارية افتحي له الباب . فقال : أنا أروح من حيث جئت . فغاب عن عيني مباشرة فقممت من ساعتى (معائى بإذن الله) فتوضأت فلما دخلت المسجد فجراً وصليت خلف الموفق وصافحته عصر يدي وقال : احذر أن تقول شيئاً (لأحد) ، فقلت : أقول وأقول .

وقال أحد تلامذته : كنت أسمع شناعة الخلق على الحنابلة بالتشبيه (كانوا يقولون عن بعض الحنابلة إنهم مجسمة ومشبّهه) فعزمت على سؤال الشيخ الموفق وبقيت أشهراً أريد أن أسأله ، فصعدت معه الجبل (جبل قاسيون حيث دار الإمام الموفق) فلما كنا (ببعض الطريق) قلت : يا سيدي ، وما نطقت بأكثر من (سيدي) فقال لي : التشبيه مستحيل . فقلت : لم . قال : لأن من شرط التشبيه أن ترى الشيء ثم تشبّهه ، من الذي رأى الله ثم شبهه لنا ؟ !

ويقول القيم على الجامع الأموي : كان الإمام الموفق يأتي ليقيم الليل في الجامع في الليل والأبواب تفتح وتغلق على حالها كلما دخل أو خرج . وقال آخرون : كان الإمام يمشي على الماء

هذه كرامات انقضت وبقيت الكرامة العظمى وهي كتب الإمام ومصنفاته ، ومرة تعب من التهجد فجلس يذكر مستريحاً فغفلت عيناه وأخذته سنة من النوم ، فخاطب نفسه قائلاً :

أنغفل	يا بن أحمد والمنايا
أغرّك أن تخطّتك	الرزايا
كؤوس الموت دائرة	علينا
إلى كم تجعل التسوييف	دأباً
أما يكفيك أنك كل حين	
كأنك قد لحقت بهم قريباً	

شوارع يختزنك عن قريب
فكم للموت من سهم مصيب
وما للمرء بد من نصيب
أما يكفيك إنذار المشيب
تمرّ بقبر خِلٍّ أو حبيب
ولا يغنيك إفراط النحيب

إنها الحقيقة التي لاشك فيها نعم لحق بهم الإمام إلى هناك يوم عيد الفطر سنة ٦٢٠ هـ / عشرين وستمئة ، وما أعلن نبأ وفاته حتى امتلأ سفح جبل قاسيون بأهل

الشام ، كان وفيّاً معهم فبقوا أوفياء معه ، ولئن انقطع عقب الإمام الموفق ، فقد أبقى الله له أثراً من العلم فلم ينقطع ، بقي أهل الشام يذكرونه هنا وهناك في سفح جبل الصالحية قاسيون حيث مرقدّه :

صدر الزمان وعينه وطراره	والزاهد العلامة المتورع
بحر العلوم أبو الفضائل كلها	شمل الشريعة بعده لا يجمع
كان ابن أحمد في مقام محمد	إن هالهم أمر إليه يفرعوا
	(موسى بن محمد المقدسي)

المصادر :

- ذيل الروضتين لأبي شامة ١٣٩
- فوات الوفيات ٤٣٣/١
- البداية والنهاية ٩٩/١٣
- طبقات الحنابلة لابن رجب (الذيل) ١٣٣/٢
- شذرات الذهب ٨٨/٥
- معجم البلدان لياقوت الحموي ١١٣/٢
- مقدمة المغني لابن قدامة طبع الكويت .

(٢٣٣)

الشيخ محمد سهيل الخطيب الحسني

١٤٠٢ . ١٣١٤ هـ

١٨٩٧ . ١٩٨١ م

الحمد لله الذي وصّى بالوالدين قضاءً مبرماً إلى يوم المصير وقضى ببرها وأمر به ، فمن خالف ذلك هوى في نار السعير ، أحمده سبحانه وتعالى وأشكره فهو أهل الثناء والتقدير .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، من نعمه نعمة الآباء الصالحين .
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله سيد المرسلين وإمام المتقين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وعترته وذريته وأهل بيته ،
ورضي الله عن جميع أصحابه وتابعيهم المبرئين من الخلل والتقصير ، وسلم تسليمًا .
أما بعد : فهذا سيد لم يكن يوماً يدّعي أنه ولي لكنه صاحب الأولياء ، لم يدّع يوماً أنه عالم لكنه كان جليس العلماء ، لم يذكر يوماً أنه محدّث لكنه أطل المكنث معهم ، لم يذكر يوماً أنه من الصالحين إلا أنه لم يدع رجلاً صالحاً في عصره إلا جالسه أو أخذ عنه، صرف عمره كله في خصال عدّة : هو إما في عمله في خدمة أوقاف المسلمين ، أو في مجالسة العلماء والمحدثين ، أو في قيام ليل طال أمده ، أو على مكتبه وبين كتبه ، فإذا ما خلا له حال من بين تلك الأحوال رأيته ذاكراً لله مصلياً على جده سيدنا رسول الله ﷺ .

في ليلة الاثنين طلع نوره على الكون في حي القيمرية بدمشق خلف الجامع الأموي جامعة المسلمين آنذاك ، يوم ١٧ ذي القعدة سنة ١٣١٤ هـ الموافق سنة ١٨٩٧ م .
من أبوين قرشين تقيين هما مولاي الجد الشيخ عبد الفتاح محافظ المكتبة الظاهرية بالوكالة ، ووالدته بنت علامة الشام الشيخ أبي الفتح الخطيب ، وكان باراً بهما وبأمه خاصة بعد وفاة أبيه سنة ١٣٣٦ هـ . وبدت أمارات عناية الله به منذ الصغر ، فقد كان يكتب وظائفه في المكتبة الظاهرية عند أبيه ، وكانت مادة الحساب من المواد الصعبة عليه ، ومرة أهمته مسألة فغفا وهو

يفكر فيها ، فرأى الملك الظاهر بيبرس في نومه وسأله هل تريد أن أعلمك القسمة ؟ فقال له السيد الوالد : نعم . وعلمه القسمة على رقمين وثلاثة أرقام وهو نائم . (هكذا يقول السيد الوالد رحمه الله) . وحينما استيقظ من نومه راح يضرب ويجمع ويقسم ، فحمد الله تعالى أشد الحمد . فلما غدا إلى المدرسة في اليوم التالي استغرب الأستاذ فسأله من علمك الحساب ؟ فقال : علمني الملك الظاهر .

تدرج في التعليم حتى دخل كلية صلاح الدين الأيوبي في القدس الشريف ، وفيها من العلماء أمثال : الشيخ أمين العوري ، والشيخ أمين السويد والشيخ حسام الدين جار الله ، والشيخ عبد القادر المغربي ، وكان يصحبه في هذه الكلية الشيخ محمد رفيق السباعي وتخرجاً سنة ١٣٣١ هـ وكان يرعاه في دراسته أبناء عمومته الأفيذاذ ، فأسرته أسرة علمية دينية بارزة لها أربعة مدارس شرعية تديرها ، حوت عدداً لا يضاهاى من علماء الإسلام ، وكان من شيوخه : عمه عميد الأسرة الشيخ عبد الرحيم الذي أسس معهد التهذيب والتعليم وتبعه بن أخيه الشيخ هاشم وأخوه الشيخ عبد الرحمن والشيخ حسن بن أبي الفرج والشيخ كمال بن أحمد كلهم من آل الخطيب . وتابع تحصيله على علماء عصره أمثال الشيخ عبد الوهاب الشركة ، والعلامة الشيخ أحمد الجوبري ، والعارف بالله العلامة الشيخ عبد الله الجلال ، وفي المذهب الحنفي الشيخ محيي الدين الحاني وفي القرآن الشيخ عبد الرحيم دبس وزيت .

لم يترك مولاي الوالد رحمه الله فناً من الفنون أو علماً من العلوم الشرعية إلا قرأ فيه وأخذ عن أهله ، وتكونت لديه ثقافة فاق بها أقرانه حتى أصبح آية من آيات الله في الفقه والفرائض مما أهله أن ينوب بالدرس العام في الجامع الأموي عن شيخه الشيخ هاشم الخطيب .

وتوّج حياته العلمية بدراسة علم الحديث والتخصص به على علماء عدوا في عصرهم من أكابر المحدثين ونبغوا فيه وحازوا المكانة العالية أمثال مولانا الشيخ محمد بدر الدين الحسني مؤرخاً إجازته له سنة ١٣٤٨ هـ ومحدث الغرب الشيخ محمد بن جعفر الكتاني الفاسي ، والشيخ أحمد البلغيشي نقيب أشرف فاس مؤرخاً إجازته له سنة ١٣٤٦ هـ والشيخ محمد عبد الحي الكتاني مؤرخاً إجازته له سنة ١٣٢٥ هـ والشيخ إدريس أحمد البناي المدني الدمشقي وتاريخها سنة ١٣٥٢ هـ كتب مولاي الوالد دروس المحدثين الثلاثة أعني مولانا البدر والشيخ البلغيشي والإمام الكتاني التي ألقوها في جامع بني أمية الكبير . كان رحمه الله يأتي بالملازم الورقية ويبري دزينة أفلام

فإذا بدأ الدرس بعد صلاة الجمعة انحنى على الأرض بهيئة السجود ووضع الملازم ليكتب الدرس ، وكلما نبا قلم تناول آخر حتى أذان العصر ، وكان الشيخ البدر يلقي بالكلام لو عده العادّ لأحصاه كما هي طريقة الحبيب الأعظم ﷺ . وبلغ ما كتب عن مولانا البدر سبع مجلدات قرئت كلها بعد وفاة الشيخ البدر رحمه الله من قبل تلامذته الأبرار ، وقد طبعت مؤخراً على الحاسوب وأسأل الله أن يتم فضله بنشرها .

لم يكتف مولانا الوالد بعلم الشريعة بل تابع تحصيله في علم الحقيقة ، أكرمه الله أن يتحقق بعد أن تشرع ، والحقيقة . كما يقول أرباب هذا العلم . نهایة عزائم الشريعة ، علماء الحقيقة علماء بالشريعة وزيادة علماء بالحقيقة ، فصحب العارف بالله شيخ الطريقة النقشبندية الشيخ عبد الرزاق الطرابلسي (غلا الحليب) الذي كان يلقبه مولاي الوالد رحمه الله : بالقطب الولي العارف بالله ، صحبه مدّة طويلة لغاية وفاته ، ولأزم الشيخ عبد الله الجلال من أكابر العلماء بالطريقتين وسيد الفريقين ، وصحب الشيخ رشيد الحال ، والشيخ أحمد الحارون رحمهم الله جميعاً .

درّس السيد الوالد بعد خدمته كضابط في الجيش التركي (لغاية سنة ١٩٢٠ هـ) في مدارس آل الخطيب ، وكان لآل الخطيب مدارس شرعية كما ذكرت : الأُمينية ويديرها عمي الشيخ شريف الخطيب ، والنورية الصغرى ويديرها الشيخ عبد القادر الخطيب الثاني . ومدرسة الخياطين ويديرها الشيخ سعيد الخطيب . ومدرسة التهذيب والتعليم ويديرها عمي أخو جدي الشيخ عبد الرحيم الخطيب وابن أخيه الشيخ هاشم الخطيب كما أقام دروساً ليلة الاثنين وليلة الجمعة . وكانت دروسه تتسم بالروحانية وحضور القلب ، ممزوجة بالآيات والأحاديث والفقه والسيرة النبوية والقُدوة الحسنة وخطب في مساجد دمشق آخرها جامع الجراح في المهاجرين .

سل منبر الجراح كيف يهـرّه	ربّ البلاغة كم أنرت قلوبنا
سل جامع الأموي كيف يزينه	بدروسه والحق فيه معلنا
واسأل محارب المساجد إذ أتى	فيها بعلم الدين إحياء لنا

وهذا كله في أثناء وظيفته في أوقاف دمشق كمفتش للمعاهد الدينية والمساجد ، وبعض الوظائف الأخرى ، وحين خرج على التقاعد سنة ١٩٥٦ م وجه إليه الأستاذ عبد الرحمن الطباع مدير الأوقاف العام كتاب شكر وثناء لجهوده ، وحرصه على أموال الأوقاف فقد أثر عنه أنه كان حريصاً أشد الحرص أن يخرج قرش واحد في غير ما أمر الله تعالى . قدم إليه ابن القولي أحد الموظفين في مديرية الأوقاف يسأله أن يكتب له عبارات على ورقة فمد ابن القولي يده ليأخذ ورقة من مسودات الأوقاف فأمسك السيد الوالد يده وقال : لا ، من هذه الأوراق لا تأخذ ،

وأخرج من حقيبة له ورقة ثم أخذ ابن القولي الريشة ليضعها في الحبر ، فقال السيد الوالد ولا من هذا الحبر وأخرج قلماً له من جيبه : وكتبها له . وقال: هذا القلم والحبر للأغراض الخاصة ، وهذا الورق والحبر خاص بمعاملات الأوقاف .

كان رحمه الله تعالى دمث الأخلاق طلق الوجه مع أهله وجيرانه و المراجعين في الأوقاف ، يصلي إماماً بالموظفين وربما يراجعهم مراجع وقت الصلاة فيقول له :أتأذن لي أن أصلي ثم أعود إليك ؟ فيستحيي المراجع من نفسه فيذهب ويتوضأ ويصلي مع الجماعة .

وكان لا يرد أحداً عن بابه ، اعتاد بعض المتسولين أن يطرقوا بابه ليتصدق عليهم في المديرية ، فيقوم مولاي الوالد رحمه الله من مكتبه وهو رئيس المفتشين الدينين فيخرج من جيبه نصف فرنك سوري يضعهما في يده اليمنى ثم يدور على غرف الموظفين يدخل غرفة غرفة ويقول : (حدا معه شي لله) .

وعرف كل موظف ما يفعله هذا الشيخ الصالح فكان كل منهم يضع أمامه على المكتب أنصاف فرنكات فيقدم للشيخ نصف فرنك ، وتجمع هذه القروش ثم يخرج إلى السائل فيضع في يده ما جمعه . فيقول الشيخ بشير الباري (وكان من المفتشين في غرفة مولاي الوالد) : يا شيخ سهيل تفعل هذا وأنت أنت ؟! فكان مولاي الوالد يجيبه : أنا لا أرد أحداً عن بابي حتى إذا سألت الله لا يردني عن بابه .

كانت سيرته عطرة في التفتيش ، يعلم أن راتب الأئمة والمؤذنين والخدم قليلة فإذا ما جاءت شكوى على أحدهم بالغياب أو ببعض الإهمال يستدعيه إليه ويقول له : في اليوم الفلاني سأتي للتفتيش عليك في المسجد . يعلمه بذلك حتى يقوم بواجبه في الاعتناء بالمسجد .

كان آمراً بالمعروف بلطف ، ناهياً عن المنكر بالنصيحة الهادفة ، قال مرة لرجل يرتدي (شورت) في الطريق : يا أخي غط فخذك فإن رسول الله يقول (**الفخذ عورة**) فقال الرجل : (أنت شو دخلك في يا ح م ا ر) . فمضى مولاي الوالد لشأنه وكانت والدتي تسير خلفه بخطوات على عادة أهل الشام فقالت : يقول لك كذا وتسكت عنه فقال لها : قال لي يا حمار هل صرت حماراً . فإذا بصوت وقعة على الأرض وصرخة ، فالتفت الوالدان فرأيا الرجل قد سقط

في حفرة وكسرت رجله . فقال السيد الوالد : قد كنت أظن أن الله سيفعل به شيئاً لمخالفته أمر الشريعة .

أيها الأحبة والصحب : بعد هذه السنوات التي قضاها في الأوقاف طلب منه مدير الأوقاف العام أن يبقى في مديرية الأوقاف متعاقداً معه لغاية عام ١٩٧٧ م فخدم مولاي الوالد قريباً من خمسين سنة من عام ١٩٢٩ العام ١٩٧٧ . وفي خضم هذه السنين لم يترك مولاي الوالد خدمة أسرته ، يشارك في اجتماعاتها وأفراحها وأتراحها ويزوج أولادها ويصل أرحامه خاصة في العيدين ، وأنشأ لفتيانها كشافاً خاصة بهم رباهم من خلاله تربية إسلامية قل نظيرها ورحل بهم داخل بلاد الشام، يحفرون في الصخر (ذكرى كشاف آل الخطيب الحسنية)، وحفظ أنسابهم في سجلات ، وأقام لهم شجرات نسب ذكر فيها تاريخهم وأسماءهم وأولادهم وأسباطهم وأصهارهم كان آخرها سنة ١٩٧٥ م، ظهر فيها كنسابة خدم فيها أسرته والأسر المنسوبة لسيدنا رسول الله ﷺ ، ثبت بها أنسابهم وحفظها من التحريف والضياع ورسم لكل منها شجرة فيها جميع أفرادها من الذكور والإناث وأنشأ لشباب الأسرة نادياً رياضياً ليصرفوا طاقاتهم بشكل الشرعي (ركوب الخيل الضرب بالسيف السباحة) ، وأصبحت هذه الفرقة عضواً في الكشاف المسلم لأن اللباس الذي اختاره السيد الوالد لأعضاء الفرقة كان إسلامياً .

مما حدا بالشاعر أنور العطار لأن يقول :

سهيل الواحد العصر	وروض الفن والفكر
أقام الأهل في الأغصا	ن والأوراق والزهر
فيا دوحاته تيهي	وظلّي آية الدهر

معشر الإخوة : لم يتعدَّ نفعه إلى أسرته فقط بل أنشأ مع أهل الإيمان (جمعية المؤمنين العاملين) في جامع البدرية سنة ١٩٣٩ م مهمتها التدريس الديني لشباب أهل الشام وحين ضربت دمشق سنة ١٩٤٥ م تحولت هذه الجمعية إلى جمعية داوت جراح المرضى وقدمت لهم الدواء والكساء فسبق بذلك ما يسمى بعصرنا بالهلال الأحمر السوري .

هذه الخدمات أهلتها ليكون عميداً لأسرته بعد وفاة مولانا الشيخ هاشم الخطيب سنة ١٩٥٨ . واكبت هذه الحلية العلمية حلية أخلاقية عالية اتفق على تحليته بها الخاص والعام ، مع زهد وورع وتوكل ووفاء بالوعد وخفض جانب للمؤمنين . أضرب لذلك بمثال واحد يوم مرضت والدته مرض الموت واحتضرت وكان رحمه الله وعد شباب الأسرة بالقيام برحلة فجاء على موعده بعد الفجر بكامل جهازه وقال لهم : أنا جاهز ، لكن والدتي تحتضر فإن أذنتم لي عدت وإلا رحلت معكم فأذنوا له وأكبروا فيه الوفاء بالوعد .

وكان لا يفتُر لسانه عن الذكر في أوقاته وخلواته التي يتوقف فيها عن الكتابة ، وقد شهدنا رحمه الله بأم أعيننا قيامه بالليل في جوف الليل الآخر ، ينام بعد العشاء ويكره الحديث بعدها ، ويستيقظ في ثلث الليل الأخير ، ويحيي الليالي الفضيلة ويعرف متى تكون ليلة القدر ، وكان في كل ليلة من النصف من شعبان يرحل إلى مغارة الدم في جبل الأربعين ليحيي هذه الليلة مع أحبائه وأبناء عمومته يخلو بها بعيداً عن ضوضاء المدينة ، متذكراً خلوة حبيبته وجده المصطفى ﷺ متعبداً في غار حراء .

وقام بعمل ما سمعنا عنه إلا في سلفنا الصالح ، فقد اتخذ لنفسه قبراً من خشب ، قاطعاً من خشب يستلقي فيه ويتلو القرآن ويذكر الموت وما بعده ، وراه الشيخ ناجي الطنطاوي مرة صدفة ، فقال له : . غداً إذا أنزلوني في القبر أكون قد اعتدت على النزول فيه .

كانت صوفيته سنية صادقة ، كان لا يسمع بسنة عن جدنا رسول الله ﷺ إلا نفذها ولو لمرة واحدة ، سمع مرة أن رسول الله دخل مكة معتملاً بعمامة سوداء قد أرخى عذبتها بين كتفيه ، فلبس العمامة السوداء أسبوعاً وهو يحدث بهذا الحديث كل من تعجب منه حتى عرف الناس أنها من السنة ثم خلعها .

ورؤية سيدنا النبي في المنام والبقظة ورد فيها أحاديث صحيحة صريحة ، حُرِّجَت على ستة أقوال : سادسها أنه ﷺ يرى في الدنيا حقيقة ويخاطب ويرد ، لذا يقول مولانا الإمام أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : لو حجب عني طرفة عين ما عددت نفسي مسلماً . بل قال الإمام النووي والقرطبي والقاضي عياض رضي الله عنهم : الصحيح أن المسلم يراه حقيقة سواء على صفته المعروفة أو غيرها ، وتحتاج الرؤيا إلى تعبير إن كانت على غير صفته .

وقد رأى سيدنا رسول الله ﷺ في إحدى ليالي النصف من شعبان وهو في الموكب الإلهي ورأى عمامته على القلنسوة فلم يضع بعد ذلك عمامته إلا على القلنسوة .

وبلغه أن سيدنا رسول الله ﷺ خرج إلى بقيع الغرقم معتماً بعمامة قد أرخى طرفها بين يديه والأخرى بين منكبيه ، كما عَمِمَ في حديث آخر سيدنا عبد الرحمن بن عوف نحواً من ذلك ، فجعل يفكر كيف فعل ذلك ، واغتمَّ له ، وخاف أن يفعل ما يخالف السنة وفي يوم من الأيام حضر إلى دار الشيخ رشيد الحبال الذاكر ، وبينما كانوا يشتغلون بالإنشاد والصلاة على النبي ﷺ إذ رآه يقظة قد أتى من المدينة وهو ينظر إليه إلى أن استقرَّ معهم في المجلس ، وراح السيد الوالد يشكو له أموراً والنبي الكريم يجيبه عنها بالإشارة ثم خلع النبي الكريم عمامته ولقَّها ليعلم الوالد كيفية إرخاء العذبتين ثم قال له : هكذا تعمم . فنزع السيد الوالد عمامته في المجلس مباشرة وتعمم على تلك الهيئة .

ثم قرأ أن سيدنا رسول الله يرفع يده مسلماً عن بعد ، واهتم لكيفية الرفع على وجه السنة ، فإذا بالسيد الوالد يكثر من الصلاة على سيدنا النبي ﷺ ، وقام يصلي في جامع الخريزاتية فلما تلا التشهد وقال السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته إذا به يرى سيدنا رسول الله ينشق عنه جدار المسجد إلى المدينة المنورة رآه يشير إليه من الروض الشريف يرد عليه السلام ، فرأى أصابع يده الشريفة وصلت إلى حاجبه الأيمن ، وكادت يده أن تحجب عينه اليمنى اللهم صل وسلم عليه .

وصار كثير الالتقاء بسيدنا رسول الله ، لا يقع منه خلل إلا رأى رسول الله ينهيه عليه في الرؤيا .

وحين كان الشيخ هاشم الخطيب وطلابه يقرؤون الأناشيد الدينية بعد مجلس الصلاة على النبي ﷺ قبل فجر الجمعة و أنشد المنشدون :

صفا وقتنا طاب الزمان بمدحه فقوموا على مدح الحبيب إلى الرقص

كان الحبيب الأعظم يحضر هذا المجلس فخاطبه : يا رسول الله ما هو الرقص المحمدي ؟، فإذا به يرى السيد الأعظم يأخذ بيد الشيخ هاشم الخطيب والسيد الوالد ويقيم حضرة الشاذلية الله الله ورأى الشيخ رشيد الحبال الحبيب الأعظم يقيم حلقة الذكر فأتى هو وجماعته الذاكرون يشاركون بهذه الحضرة التي لم يشهد لها الجامع مثيلاً .

لكن الرؤيا العظيمة التي خص بها مولانا الوالد ولم نعلم عنها عن أحد من عصره هي رؤيته لنور الإلهي في المنام وسمع هاتفاً ناداه وهو يرى نوراً عظيماً وقال له : يا شيخ سهيل هذا النور لك .

هذا كله ببركة الذكر ومجلس الصلاة على النبي ﷺ الذي استمر به السيد الوالد بعد وفاة شيخه الشيخ هاشم قبل فجر الجمعة بساعة في الجامع الأموي يقرأ فيه ٤٤٤٤ صيغة الصلاة النارية لسيدى إبراهيم التازي يضعون الفوانيس وسط الحلقة ثم نقله إلى البيوت بعد ذلك ومحبه لسيدنا رسول الله لا توصف ، إذا كان لا يمضي عليه عام إلا قام باحتفال لمولد الشريف في داره العامرة فلما مرض مضى عليه ثلاثة أعوام لم يحتفل ، فأقام في العام الثالث ثلاثة احتفالات في ثلاثة أيام متوالية أنشد فيها من عيون الشعر في مديح الحبيب الأعظم ﷺ .

أيها الأحبة والصحب : بقي السيد الوالد في ترقٍ دائم من كثرة الذكر حتى قال مرة : إنني لأحس في بعض الأوقات بذكر الله إياي في الملاء الأعلى عندما أذكره بحضور تام ، كما أنني أرى عندما أذكر الله تعالى كيف يجئ الذكر لي إلى يوم القيامة ، فكأنّ ألفاظي تجعل شيئاً يلف بورق ، كل لفظ على حدة ، وكل ألف مرة على حدة تصرُّ بورق جيد منتظم .

وإذا قرأ القرآن وتأثر به كأن اللفظ الذي خرج منه صار نوراً ، وجعل على بلور فانوس ومما قاله رحمه الله تعالى : كنت ربما وقفت في الصلاة فأرى ما يخرج مني بحضور كأنه نقط عطر توضع ضمن قارورة ثم يحتّم على تلك القارورة ، وما يخرج مني في حالة الغفلة أرى تلك النقط من العطر تقع خارج القارورة .

معاشر المؤمنين : أستطيع أن أقول إن مولاي الوالد رحمه الله بلغ من الشفافية الإيمانية أن أصبحت مرآة قلبه صافية ، وفراسته صادقة حتى كان الناس يسألونه الاستخارة عن طريق الرؤيا المنامية فينام على نية صاحبها على طهارة ويقرأ سبعا ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ فإذا كان الفجر سجل ما رأى وأوله وأخبر به صاحبه وكانت تقع كما يقول . وكان معتقداً من العلماء ، كان الشيخ صالح العقاد يرسل إليه الناس ويقول لهم : ليس لكم إلا الشيخ سهيل .

ولعل الذي ساعد على ذلك دوامه على حج بيت الله الحرام كل عام وهي سنة مشى عليها آباؤه رحمهم الله فمولاي الجد حج ثلاثين حجة ، وكان من أوائل من يفتتحون موسم الحج كل عام ، وجده الشيخ محمد حج ٣٩ حجة ، ومولاي الجد الثالث العلامة الشيخ عبد الله حج ٤١ حجة ، ولا أدري عدد سنوات حج مولاي الوالد لكنها فاقت العشرين أو الثلاثين والله أعلم ، فلم ينقطع عن الحج حتى غاية عام ١٩٧٢ وله تجليات يعجز المقام عن الحديث عنها أخبرنا بها أبناء عمومته ومحبه الذين كانوا يرحلون معه ، لكنه كان لا يعود من حجه حتى يطوف حول البيت ٣٥٠ شوطاً ، لأنه قرأ عند الترمذي بسند ضعيف (من طاف حول البيت خمسين طوافاً عاد من ذنوبه كيوم ولدته أمه) .

ومما ساعده على الوصول لهذه المرتبة بَرّه بوالدته السيدة باهية الخطيب فقد خدمها بإخلاص بعد وفاة والده وهي مقعده يقدم لها كل ما تحتاجه ورفض الزواج ليتفرغ لخدمتها ولما يعلم بما تفعله غالب الزوجات ، حتى كادت والدته تغضب عليه لعدم تزوجه فهدأ من روعها وقال لها: نامي الليلة على هذه النية وأخبريني صباحاً . فنامت الجدة رحمها الله فرأت فتاة صغيرة في لفافة مربوطة بخنصر قدم مولاي الوالد . فلما استيقظت أخبرته فقال : ألم أقل لك إنها مازالت صغيرة (في الإنداءة) فهدأت الجدة رحمها الله وراحت تدعو له : زوّجك الله حورية من حوريات الجنة

وتمضي الأيام وتنتقل الجدة إلى جوار ربها عز وجل ، وكانت تكرر رب سهيل يرضى عن سهيل . قدم مرة إلى دار أبيه بعد العشاء وفي أثناء صعوده درج البيت سمع والدته تقول لجارتها : ألم ينزل التفاح إلى الأسواق ، فيأني أشتهي التفاح . سمع مولاي الوالد هذه العبارة وهو يصعد الدرج فعاد أدراجه من القيمرية إلى سوق الهال وأحضر لها كيلو تفاح وقال لها : اشتهيت لك هذه التفاحات ، فصارت تدعو له ، كان رحمه الله يفهم عليها بالإشارة حتى انتقلت إلى جوار ربها عز وجل .

ويتابع السيد الوالد تدريسه في الجامع الأموي وكان يمشي أحياناً بالنعل الذي صنعه على شكل نعل النبي ﷺ فنعله وبقابه معروفان لدى الناس وكانت تأتي بنت صغيرة عمرها عشر سنوات أو أكثر تأخذ القبقاب وتخفيه لتداعب السيد الوالد ، فيسأل بعد الدرس أين القبقاب فيقولون بنت السبيعي أخذته ، وتكبر البنت حتى تبلغ العشرين أو يزيد وتخطب له نساء آل الخطيب هذه الفتاة ، وحين سألوه ما رأيك يا شيخ سهيل ؟ قال : ما اسم هذه الفتاة فقالوا : حورية . فقال مباشرة: أمي كانت تدعو لي بحورية على بركة الله . وكانت حورية من حوريات الجنة رحمها الله التي بشرته بها والدته رضي الله عنها .

تذكروا يا سادة أن السيد الوالد تزوج وعمره ٤٦ سنة وخلف ١٣ ولداً مات منهم توأمان أو ثلاثة ، وبقي له تسعة أولاد : خمس إناث وأربعة ذكور وعوضه الله تعالى خيراً على انتظاره في خدمة والدته فمات وله من العقب أولادٌ وأحفادٌ ما ينوف عن الستين :

يا أحباب رسول الله :

أدعوكم الآن لمشاركتي اللحظة الأخيرة حين استيقظ فجر الجمعة بابتسامته الأخيرة العذبة وإشراقه النور على وجهه خاطبني بقوله : ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ كانت تلك لحظة الوداع وآخر ما تفوه به مولاي الوالد رحمه الله منتقلاً إلى جوار ربه عز وجل سنة ١٩٨١ عن عمر بلغ ٨٧ سنة .

وكانت أجمل كلمات العزاء التي قيلت في السيد الوالد تعزية الشيخ محمد رفيق السباعي قال لي : أشهد بأبيك ثلاثاً ١ . أنه ولي ٢ . وأنه منسوب لرسول الله ﷺ . ٣ . وأنه من الأئمة الأعلام.

مضى مولاي الوالد رحمه الله تعالى :

في ذمة الله الغفور مقامه وهو الرحيم فما أجل مصيبتنا
أرجوك ربي أن تديم فروعه وجميع من نال الخطابة عندنا
وأنل نزيلاً روضة يلقى بها أبد الدهور مرافقاً لنبينا

ترك غير الذرية ثلاثة وعشرين مؤلفاً في الفقه والسيرة والتاريخ والأنساب والمنطق والحديث الشريف وهو أكبر وأوسع مؤلفاته .

أما بعد أيها السادة : فهل عرفتم من زاركم اليوم إنه حسيب نسيب من آل بيت رسول الله حسني أمماً وأباً حسيني أم جد عباسي أم أب ، فهو منسوب من ثلاث جهات .
إنه سيدنا الشيخ محمد سهيل بن الشيخ عبد الفتاح بن الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله بن الشيخ عبد الرحيم بن الشيخ محمد الخطيب بن الشيخ علي بن الشريف محمد بن الشريف وهبه بن الشريف عيسى بن الشريف أبي محمد رشيد بن الشريف عبد الرزاق بن الشريف قطب الرجال أبي رسلان بن الشريف محمد بن الشريف خالد بن الشريف شمس الدين محمد بن الشريف القطب الغوث أبي محمد رشيد بن الشريف شمس الدين محمد بن الشريف القطب عثمان بن الشريف شهاب الدين أحمد بن الشريف تاج الدين عبد الرزاق بن الشريف أبي النصر محمد بن الشريف أبي صالح محمد بن الشريف تاج الدين عبد الرزاق بن القطب الغوث سيدنا عبد القادر الجيلاني بن الشريف أبي صالح محمد موسى بن الشريف عبد الله بن الإمام يحيى الزاهد بن الإمام محمد بن الإمام داود بن الإمام موسى بن الإمام عبد الله بن الإمام موسى الجون بن الإمام عبد الله المحض إمام المدينة بن الإمام الحسن المثنى بن الإمام سيدنا الحسن بن السيدة الطاهرة البتول سيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا محمد ﷺ :

قليلٌ ملدح المصطفى الخط بالذهب وأن ينهض الأشراف عند سماعه

وحق لنا أن نقوم لشرفه ﷺ .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين . إنك حميد مجيد .

(٢٣٤)

الإمام السيد أحمد البدوي /

(٥٩٦ هـ)

الحمد لله الذي خصَّ بحسن اصطفائه خواص أوليائه الأبرار ، وأسرى بأسرارهم في ليل نيل أوطارهم إلى عالم الأسرار، قاموا بواجب حقه فجعلهم أمناء على خلقه العبيد منهم والأحرار ، تُرفع على أيديهم قصص السائلين، وتُغفر ببركاتهم للخاطئين الذنوب والأوزار ، فهم بأمره متصرفون في البلاد لمصالح العباد البادين منهم والحضار، فمنهم النقباء والأبدال ، ومنهم النجباء والرجال ، ومنهم الأقطاب الأخيار، ومنهم الغوث الذي يسقى به الغيث ، وتدر ببركته الضروع والزروع والثمار، فالنقباء سبعون وهم بمصر دون سائر الأمصار ، والأبدال أربعون : وهم بالشام كالشامة الواضحة لذوي المعرفة والاستبصار ، والنجباء ثلاثمائة استخلفهم بالغرب للقيام بالحرب فهم لدينه حماة وأنصار ، والرجال عشرة وهم بالعراق وشرابهم قد راق وصفا من الأكدار ، والأقطاب سبعة أركزهم بالأقاليم السبعة لمنافع العباد في سائر البلاد والأقطار ، والغوث واحد قد أقامه بمكة المشرفة المعظمة الذكر والمقدار ، فهؤلاء الأمناء لولا وجودهم لغاضت العيون والأنهار ، ولولا ركوعهم وسجودهم لارتفعت الأمطار وتعطلت الزروع والثمار ، فهم في دائرة إرادته ليس لهم عن مراقبة حضرته غفلة ولا قرار .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الجبار الذي قضى فقال

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين وسيد الكونين وعظيم
الثقلين ، ختم به النبيين ، وتمم به المرسلين وأنزل عليه في كتابه المبين ﴿وما هو على
الغيب بضنين﴾ .

فقد زمزم الحادي بذكر محمد نبي كريم للشفاعة مجتبي
رسول عظيم مصطفى ذو مهابة له الله بالذكر المرقع قد حبا
فلولاه ما سار الحجيج لمكة ولا حنّ مشتاق لنجد ولا صبا
صلى عليك الله يا علم الهدى

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وعترته
وأنصاره ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

شيخ ومريد وبيعة على التزام الطاعة تبدأ بالتوبة الخالصة النصوح ، وذكر
ومجاهدة، تلك هي عناصر الطريق الصوفي ، فماذا يقول المنتقدون على التصوف في
طريقة أول شرطها : تطهير القلب عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها استغراق القلب
بالكلية بذكر الله تعالى ، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى .

هذه دعوة الإمام الذي يزورنا اليوم ، سيد أحدث دويماً هائلاً في حياته ، وما زال
هذا الدوي يملأ سمع الوجود على الرغم من أن هذا الشريف قد فارق الدنيا منذ
أكثر من سبعة قرون ، فإنه ما زال يعيش في وجدان الزمن ، ورويت عنه قصص تبلغ
حد الأساطير ، هو من أولئك النفرة الذين تعلموا العلم وعملوا به، وتأدبوا بأدب
سيدنا رسول الله ونشروه بين الناس .

هو غرس طيب في منبت طيب ، فوالداه قرشيا النسب ، ينتهي نسبه إلى جدي
سيدنا علي رضي الله عنه ، نزح أجدادهما من مكة بعد أن استولى عليها الحجاج بن
يوسف الثقفي عنوة وضرب الكعبة بالمنجنيق سنة ثلاث وسبعين للهجرة ،

واستوطنوا مدينة فاس في المغرب ، وعاش أجداده بأمان وبقوا يحنون إلى مكة موطنهم الأول ، وطال بهم المكث ما يزيد عن خمسمئة عام (حتى سنة ٦٠٣ هـ) يزورنا اليوم سليل بيت النبوة من نسل سيدنا علي زين العابدين بن سيدنا الحسين سبط سيدنا رسول الله ﷺ ، إننا مع الإمام الولي شيخ الطريقة البدوية سيدنا أحمد البدوي، ومع الحلقة التاسعة والتسعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن سيدنا الإمام أحمد البدوي :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : كانت والدته إمامنا تحدّث أن هاتفاً قد جاءها في المنام يبشرها بولدها الذي منّ الله تعالى به على الكون سنة ٥٩٦ هـ وكان أصغر إخوته السبعة، وقد تولى والده سيدنا علي تربيتهم وتحفيظهم القرآن الكريم . ولد وعلى مفرقه تاج الولاية ، وفي أنفاسه عبير شجرة النبوة ، وشرع في أحضان المغرب يحفظ كتاب الله ويتفقه في الدين (واتخذ اللثام شعاراً له) وما أن بلغ السابعة حتى انتقلت أسرته إلى رحاب بيت الله الحرام بهاتف هتف بوالده في المنام أن يقدم مع أسرته أرض الحجاز، وانتقلت الأسرة المباركة إلى مكة بعد ما استغرقت رحلتها أربع سنوات.

أيها الأحبة والصحب : فتحت مكة ذراعيها لاستقبال أسرة البدوي ، وقدم أشرف المدينة يهنئون الأسرة بعودتها بعد خمسة قرون وعلى رأس هذا الموكب والي المدينة، وما أن دخلوا البيت حتى سأل الوالي: . أين الشريف أحمد المثلث ؟

وتعجبت الأسرة، من أين علم الوالي بالصبي ، ونادى الشريف علي ولده، فلما رآه الوالي أقبل عليه ، وأخذه بين يديه وقال : إن جدي رسول الله وصفه لي في المنام

وقال : يخرج من المغرب وهو ابن سبع سنين ، ويدخل مكة وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وسيكون له شأن وأي شأن .

ثم دفع إليه صرة ممتلئة بالدنانير ، فرفض أخذها وشكر الوالي ، هكذا كان منذ الصغر معرضاً عن الدنيا ، وكان لا يتكلم إلا للضرورة القصوى ، ويبقى دائماً متطعلاً إلى السماء ، ولا يلهو مع الصبيان ، وكأنه يتلقى الهواتف الإيمانية .

معشر السادة :

وفي مكة شاء الله أن تكون نقطة البدء الروحي لسيدنا أحمد ، بجوار بيت الله الحرام ومهبط الوحي وحيث ولد سيدنا محمد ﷺ ، وبما أن سيدنا أحمد البدوي الملقب على القدم الحمدي فلا بد أن يكون فتحه محمدياً بمعنى الكلمة ، هناك أتم سيدنا البدوي حفظ القرآن ، وأتقن علم القراءات ، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وتعلم الفروسية حتى كان هو فارس مكة وشجاعها الذي لا يبارى ، وقد ذكر أمامه يوماً أن جدّه سيدنا علياً كان يضرب في القتال بسيفين معاً ، فصار سيدنا أحمد يضرب بسيفين حتى تعجب الناس من شجاعته

إخوتي في الله : هذه هي إرهابات ولايته ، تعبد في الليل وفروسية في النهار ، يتدرب على ركوب الخيل والرماية وكأنه يستعد لخوض معركة حتى أطلقوا عليه فتى الفتیان ، وقد شهد له شقيقه الأكبر الحسن بعد وفاة والده سنة (٦٢٧هـ) فقال : (لم يكن في مكة والمدينة من الفرسان أشجع ولا أفرس من أخي أحمد ، لذا سمّيته العطاب) .

كان وراء هذه الفروسية عند السيد البدوي درجة من الشفافية من كثرة الذكر ، حتى تحولت نبضات قلبه إلى تساييح وأصبحت جوارحه في حالة صلاة دائمة ، ورجل هذا حاله يسبق كل أهل عصره ، أتدرون لماذا ؟ لأنّ سيدنا النبي ﷺ قال

ذلك ، قال (م) : " سبق المفردون . قالوا : وما المفردون ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات " .

يا شباب : الذاكر لله تعالى لا تفارقه رحمته وعنايته ، الذاكر مع الله ، ألم يقل الله جل جلاله : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ و اسمعوا معي إلى ما يقوله سيد الذاكرين ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل (ق) : (يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه) .

الذاكر . يا شباب . ليس عليه خطيئة ، لذا شبّهوه بالملائكة ، ذكر ذلك سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الشريف حين قال (ق) : (من قال سبحان الله وبحمده في يومه مئة مرة حطّت خطاياہ وإن كانت مثل زبد البحر) . الذاكر لله غير غافل ، والمقصود في الذكر ذكر القلب ، فإن إنضاف إليه ذكر اللسان فهو أفضل وأكمل لنيل الثواب ، وأما ذكر اللسان وحده فقليل الجدوى ، لكن الاستدامة على ذلك تكون سبباً لذكر القلب .

أستطيع أن أقول : إن السيد البدوي وصل إلى الله تعالى ، وصل إلى الولاية بدوام الذكر ، ولذلك قيل : الذكر منشور الولاية ، فمن وفق للذكر فقد أعطي المنشور .

وكان لمكة أكبر الأثر في ولايته ، ففي ربوعها أطلق لروحه العنان ، وأقبل على المجاهدات والطاعات بعزيمة الرجال ، وأخذت روحه تستمد الفيض الإلهي وتقتبس من نور الأنوار حتى صارت نفسه نوراً ، ومن شدة نوره كان يتلثم بلثامين بحيث لا يرى الناس منه إلا عينيه ، ومن ثم لقب بالبدوي لتوافق مظهره مع مظهر البدو .

يا شباب سيدنا محمد ﷺ : هذا درس لكم ، ولكل من يريد الوصول إلى الله تعالى والانقطاع إليه . ولازم الصيام ظاهراً وباطناً ، وبلغت مجاهداته إلى حد أنه كان يطوي أربعين يوماً لا يتناول طعاماً ولا شرباً ، سرت إليه نفحات (أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني) حتى فتح الله عليه ، وظهر عليه الوكّه ، وصار لا يكلم الناس إلا بالإشارة .

وصل السيد البدوي رضي الله عنه إلى قمة الولاية وسجد قلبه لله إلى الأبد ، وصارت حياته كلها وقفاً على الطاعة والمشاهدة ، وقد عرض عليه أخوه الشيخ حسن الزواج فأبى وقال :
. أنا موعود ألا أتزوج إلا من حور العين .

وصار يلتقي بأرواح الأولياء أمثال جدي سيدنا عبد القادر الجيلاني وسيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنهما ، ويحدثونه فيعي كل كلمة ، ويتعرّف على حقائق الأشياء وأسرار البرزخ ، وتكررت هذه الرؤى حتى دعاه سيدنا الجيلاني والرفاعي لزيارة العراق (فرج الله عنها) . فقص رؤياه على أخيه حسن فأشفق عليه من زيارة العراق لأنها برزخ الأولياء وبلاد الصالحين رضي الله عنهم ، وتردد سيدنا أحمد البدوي ، فإذا بهاتف يهتف به ليلاً :

- قم واطلب مطلع الشمس (العراق) فإذا وصلت إلى مطلع الشمس فاطلب
مغرب الشمس وسرّ إلى طنطا فإن بها مقامك .

معاشر المسلمين : أدعوكم الآن جميعاً أن نزور مع سيدنا السيد البدوي وبخدمته أرض العراق ، وقد أصبح في سن الثامنة والثلاثين ، فاستقبلوا أرواح الأولياء بالتراضي عنهم ، وأرى بعين الإيمان واليقين جدي سيدنا الجيلاني وسيدنا الرفاعي معهم وقالوا له : يا أحمد قد جئناك بمفاتيح العراق واليمن والهند والسند والروم والمشرق والمغرب بأيدينا ، فإن كنت تريد أي مفتاح شئت أعطيناك لك (اطلب

المكان الذي تحب أن تشرف عليه من ناحية وظيفة الأولياء ، اطلب وتمنّ فقال
لهما :

. أنا منكما ، ولكني لا آخذ المفتاح إلا من الفتاح (لا آخذ الإمامة الروحية إلا
من الله تعالى) .

هذا منتهى الاتصال بالله تعالى ، والأولياء يستحيون من الله تعالى أن يبسطوا
أيديهم لأحد سواه .

أحبتي في الله : لم يترك سيدنا أبو الثامين مقاماً من مقامات الأولياء في العراق إلا
زارها بدءاً من سيدنا الجيلاني وموسى الكاظم في بغداد ، ثم الشيخ أبو الوفاء ، ثم
توجه لزيارة الإمام الرفاعي في قرية أم عبيد المقر الرئيس للطريقة الرفاعية .
وفي هذه القرية . أيها الإخوة . يوجد سيدة تسمى فاطمة بنت بري ، كانت ذات
جمال أخاذ وأنوثة طاغية تتصدى بسحرها وجاذبيتها لكل من يدّعي أنه من
الأولياء ، ولا يخضع لفتنة النساء ، وكم وقع في هواها المدّعون للولاية وسقطوا في
حبائلها .

توجّه النداء من سيدنا الرفاعي إلى سيدنا البدوي أن يتوجه إلى هذه المرأة لتقويم
سلوكها المعوج وتأديبها في الحال ، وذكر له خطورة هذه المرأة ، وبشره بالانتصار
عليها وإخراجها من بؤرة العَفْن الذي سقطت فيه .

فودّع السيد البدوي أخاه وتوجه إلى بنت بري ، وصار أهل القرية يقولون:
(ها هي ضحية جديدة من ضحايا فاطمة) .

ووقف التاريخ ليسجل للسيد البدوي نصره على الفتنة والسحر والجاذبية والأنوثة
(وهكذا كلّ شاب من شباب سيدنا محمد ﷺ) ، وفي ليلة أمسك فيها الزمن
أنفاسه في قرية أم عبيد التقى السيد بفاطمة بنت بري ، فإذا بالمرأة تزول رغبته في
الرجال ، وتدخل هيبة الإمام البدوي قلبها فتخرجها من عالم الدنس إلى عالم

الطهارة ، ثأر لمن سلبتهم من الرجال . فسلبها بإذن الله حالها ، فتابت على يديه ، وكان يوماً مشهوداً بين الأولياء وأهل القرية ، ودعته للزواج منها فردّ عليها الإمام : .
لن أتزوج إلا من الحور العين .

أحبابنا في الله : وسرى نبأ توبة المرأة في القرية وأقبل الناس على السيد البدوي يبائعونه ، وأقام بهم مجالس الذكر والحضرة ، وأدبهم بأدب الشريعة ، ثم تركهم وسافر إلى شمال العراق وزار قبر سيدنا عدي بن مسافر رضي الله عنه ، وختم بها زيارته التي استمرت سنة كاملة ، عاد بعدها برصيد طيب من السمو القلبي والوجداني ، وحَدَّث أخاه الحسن بالرؤى التي رآها للأولياء وخاصة مولانا الجيلاني والرفاعي فقال أخوه الحسن : إن الدعاة إلى الله هم مفاتيح الخير ، والرفاعي والجيلاني يريدان أن تسير على طريقتهما في الدعوة ، وقد كان طريقيهما الكتاب والسنة ، وهذا هو طريق الإسلام الصحيح .

ليسمع المخرّصون الذين يعترضون على التصوف ، طريق أهل الله جميعاً :
الكتاب والسنة

شعار أهل الله جميعاً :

يا هذه الدنيا أصيخي واشهدي أنا بغير محمد لا نقتدي

فيلى أين أمر السيد البدوي أن يتجه ؟ وفي أي بقعة أسس دعوته وطريقته ؟ ولماذا كان يُعدُّ نفسه بالفروسية وضرب السيف ؟ أعلق هذه الأسئلة لأجيب عنها في الجمعة القادمة بإذن الله تعالى ، وأعود بكم من هناك من العراق السليب إلى هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ : الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله

(٢٣٥)

الإمام السيد البدوي / ٢

٥٩٦ . ٦٧٥ هـ

الحمد لله الذي فتح لأولياته طرق الهدى ، وأجرى على أيدهم أنواع الكرامات ، ونجاهم من الردى ، فمن اقتدى بهم انتصر واهتدى ، ومن عرج عن طريقهم انتكس وتردّى ، ومن أم حماهم أفلح وسلك ، ومن أعرض عنهم بالإنكار انقطع وهلك أحمدته حمد من علم أن لا ملجأ منه إلا إليه ، وأشكره شكر من اعتقد أن النعم والنعم بيديه .

وأشهد أن لا إله إلا اله وحده لا شريك له فتح لأولياته الباب وكشف لهم الحجاب وشاهدوا جمالاً ليس له مثال ، وخلع عليهم خلع الولايات وصرفهم في المملكة في جميع الجهات فخرقت لهم العادات .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده المجتبى ، ورسوله المصطفى، المختار من جميع الأنام ، المبعوث إلى الخلق كافة والهادي من ظلام الكفر إلى نور الإسلام و دار السلام .
اللهم صل وسلم وبارك وعظم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .
أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

في أعلى قمة الولاية لله عز وجل تربع الأقطاب المحمديون الذين سبّحت أرواحهم في محيط النور المحمدي ، وجالت قلوبهم في حضرة الجمال القدسي ، فاستمدت ذواتهم من نور الأنور وشربت من رحيق الأسرار ، وتحققت بكلمات الإرث المحمدي الذي نالت بفضل شرف الإمامة وتربعت على عرش الكرامة ، قلوبهم بذكره أحيها ، ومن الأرجاس والأكدار طهرها وجلالها أحيها بهم الدين ونفع المريدين وجلالهم عن القلوب الصدا ، وأغاث بهم العباد ، وأصلح بهم البلاد ، هم الناطقون بالحق عن الحقيقة ، والمرشدون إلى سلوك الطريقة، أولئك هم خواص الحق تعالى ، الذين استخلصهم لنفسه ، وأجلسهم

على بساط أنسه وقربهم إلى حضرة قدسه ، وجعلهم شهود حضرته ، وجنود مملكته
فافهم هذا أيها المسلم ، وأصغ إلى ما قال فيهم المعلم :

فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه وأرواحهم في الحجب نحو العلى تسري وما
فما عرّسوا إلا بقرب حبيبهم عرجوا عن مس بؤس ولا ضر
همومهم جوالّة بمعسكر به أهل الله كالأنجم الزهر

فالولي يا سادة . تولى طاعة الله تعالى فتولى الله أمره فلم يكله لغيره طرفة عين .
الولي عبد ظاهر الصلاح ، عارف بالله وصفاته حسب الإمكان ، مواظب على
الطاعات ، مجتنب للمعاصي ، غير منهمك بالشهوات ولو كانت مباحة ، وهو على قدم
سيدنا محمد ﷺ ، تظهر على يديه الكرامات لتدل على مكانته عند الله كإحياء الموتى
وإبراء الأكمه والأبرص .

وفي الذروة العليا ممن تربعوا على عرش الولاية الربانية والوراثة المحمدية الإمام العارف
بالله قطب الأفطاب في عصره ، وسلطان العارفين الأصفياء ، باب الحضرة المحمدية سيدنا
الإمام أحمد البدوي ، فقد انعقد إجماع الأمة على إمامة القطب البدوي للأولياء ، وبلوغه
الذروة العليا في الولاية والمعرفة ، بيد أن حقيقة أبي الثامين لم يقف عليها عارف ،
وحسب الناس أن يستضيئوا بنور الشمس ، ولا عليهم أن يحيطوا بجوهرها أو يصلوا إلى
كنهها .

إننا معشر الإخوة . مع الحلقة المئة خاتمة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية
، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا على سيدنا الإمام أحمد البدوي .
رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان :

تركزت مع حضراتكم سيدنا البدوي يتحول من العراق إلى مصر بعد أن أمر أن يتوجه إلى طنطا سنة ٦٣٤ هـ ليقم فيها ويربي بها الرجال ويتخذها مقراً لطريقته .

وأرى بعين الإيمان واليقين الإمام يتجه نحو مصر ليس معه دينار ولا درهم ، ولا يرتدي إلا الجاكيت الأحمر والثامين والعمامة الحمراء ، لم يثر فضول أحد كالمعتبين الذين لا يسترعون انتباه أحد ، وكما تدل رائحة العبق على الزهرة فقد دل على السيد البدوي سلوكه العجيب ، سبقه صيته إلى مصر ، وخرج الملك الظاهر بيبرس ليستقبل القادم العظيم ويحتفل به هو وعسكره ، وأنزله دار ضيافته وبايعه على طريقته ، ثم توجه إلى طنطا واتخذ من سطح دار الشيخ ركين مقراً له ، لا يرى أحداً ، ولا يراه أحد ، وصار يقوم الليل ويشخص ببصره إلى السماء حتى انقلب سواد عينيه بحمرة تتوقد كالجمرة ، صمت دائم ، عبادات قلبية ، وزهد في الطعام والشراب .

سمع بالسيد البدوي أهل طنطا والبلاد المجاورة لها ، فأقبل عليه الناس واختار منهم أربعين رجلاً من خيرة الزاهدين الصالحين يطلبون صحبتته ، ويرغبون في الاستهداء به، هؤلاء الأربعون كانوا نواة الدولة الصوفية التي أسسها السيد البدوي ورعاها ، وأخذ عليهم العهد:

- ١ . ألا يخوضوا فيما يخوض فيه الناس من لغو الحديث .
- ٢ . وأن يكون نطقهم ذكراً .
- ٣ . وصمتهم فكراً .
- ٤ . ونظرهم عبدة .
- ٥ . وأمر كلاً منهم أن يتخذ صنعة ليأكل من عمل يده ، لأن العرق يطهر الخطايا كما يطهره الوضوء (ومن أمسى كالألم من عمل يده أمسى مغفوراً له ذنبه) كما قاله سيدنا رسول الله ﷺ

٦ . ثم عين لهم يوماً ليدرّجهم على حمل السلاح لمواجهة أعداء الأمة من الفرنجة ، لأن الدفاع عن الأرض واجب مقدس (ومن قتل دون أهله فهو شهيد) قولوا صدق رسول الله .

إخوتي في الله :

نُحج هؤلاء هذا المنهج وبدؤوا يزدادون يوماً بعد يوم ، وبدأ الإمام يفقههم في الدين ليكونوا دعاة على علم ، تعلموا فيه ألا يناموا إلا على وضوء ، وأن تكون صحائفهم سامية طاهرة ، صادقة في مسيرتها إلى الله تعالى ، وحمل القوم الراية بصدق وأمانة ، تعلموا الفروسية ودرسوا مذهب الإمام الشافعي ، وتعلموا تجويد القرآن ، وشعروا أنهم قريبون من الله تعالى ، لم يزعم أحد منهم أنه طار في الهواء أو مشى على الماء ، أو أحيا الموتى بإذن الله تعالى ، إنما كانوا على صلة قوية بالله تعالى ، وهم يتعلمون على سطح الدار عند شيخهم حتى عرفوا بالسطوحية ، وجاءت الساعة التي أعدّها الإمام منذ نشأته ، وهى الأبطال حوله لها ، نادى داعي الجهاد ضد الفرنسيين ، وأمر الإمام أبطاله أن يهيئوا بأهل القرى ويحرضوا الناس على الجهاد ، والتفت حولهم العسكر المؤمنة ، وهبت عليهم ريح الجنة ، طيبة زكية ، واندفع أهل الإيمان بقيادة السيد البدوي يستأصلون شأفة الفرنسيين ويلزّلون الأرض تحت أقدامهم ، وكانت العقيدة أقوى سلاح في المعركة وتهافت الناس على الشهادة ، وذكرت لهم خوارق كالتى نسمعها عن كرامات الأولياء .

هذه هي الصوفية الصادقة ، جهاد النفس وجهاد العدو ، المتصوف الحقيقي هو من يسهم في نهضة بلده ورقية ، زراعة وصناعة وأمرأً بمعروف ونهيأً عن المنكر من غير عنف ولا قهر ولا إكراه .

أُعرفون ماذا فعل هو وجيشه ، لقد أنزل بهم أبشع الهزائم ، حيث أطلق على الفرنسيين مياه النيل وهم في طريقهم إلى المنصورة فمات أكثر من ثلاثين ألف جندي فرنسي ، وأسر الملك لويس التاسع ، وحبسه عنده ، ولم يطلق سراحه إلا بفدية من فرنسة بعد أربع سنوات .

وجاءت إليه امرأة تذكر له أن ابنها أسير ، وهي ترجوه أن يفك ابنها من الأسر ، فإذا بالإمام يمد يده في الهواء ثم يعيدها ثم يقول : ابنك صار في البيت وتكررت هذه الكرامة منه حتى لقب بجلاب الأسير .

هذا الدور العظيم للإمام دعا الأيوبيين حكام البلاد لأن يتعرفوا على حال هذا الرجل العظيم الذي وراءه هذا الجيش الضخم من المريدين ، فأرسلوا له جواسيس منهم لينخرطوا بينهم بدعوى أنهم يريدون ، فلما رأوه رجل دين وليس رجل سياسة انضوا تحت لوائه وصاروا من أتباعه ، فلما اطمأن الأيوبيون إلى الرجل أرسلوا إلى قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد ليتعرف على هذا الرجل ، ففكر ابن دقيق العيد بمن ينجز هذه المهمة ، فأرسل إلى الشيخ عبد العزيز الدريني، وكان من أساطين العلم وسدنة الفقه والتشريع .

كان الإمام الدريني يفكر طوال الطريق من القاهرة إلى طنطا في أعوص المسائل الفقهية من كتاب جعله في كفه ، لي طرحها على الإمام بهدف استكشاف مستواه العلمي .

فما أن دخل عليه حتى قال له : . لماذا تحمل في كمك كتاب الشجرة ، جئت تسأل عن العلم ، وكتاب الشجرة في كمك ، فتماسك الدريني ، وعلى سطح داره دارت المناظرة ، حجة تقارع حجة ، ودليل يضارع دليلاً ، ورأي يناهض رأياً ، كل هذا والسيد البدوي هو الفارس المجلي ، وبعد ساعات رفع الشيخ الدريني يده معلناً ختام المناظرة ، ثم قبّل يد السيد البدوي ، وعاد إلى القاهرة ، ودخل على قاضي القضاة ابن دقيق العيد ، وألقى أمامه قبلة على مسمعه وقال : . لقد أصبحت من أتباع السيد البدوي ، ووجدته بحراً في العلم لا يدرك له قرار ، وقال لي حين ودعته : أبلغ شيخ الإسلام الذي أرسلك

أن المصحف المعلق في صدر حجرته به خطآن ، الأول في سورة الرحمن ، والثاني في سورة يس .

أسرع ابن دقيق العيد وبحث في السورتين في مصحفه المخطوط ، فوجد الخطأين ، فظلاً مبهوتاً مشدوهاً : . لقد صدق السيد البدوي . ثم قرر ابن دقيق العيد أن يذهب بنفسه إلى الإمام البدوي.

وابن دقيق العيد (محمد بن علي ٦٢٥ - ٧٠٢ هـ) من أساطين العلم تعلم هنا بدمشق و الإسكندرية والقاهرة ، وتفقه على المذهب المالكي وأتقنه ثم انتقل إلى المذهب الشافعي فأحاط به وصار يفتي على المذهبين وتوفي بالقاهرة) وانطلق الإمام إلى الإمام ، انطلق بحر الشريعة إلى بحر الحقيقة ، وهو يتمنى أن يفوز عليه فوزاً عظيماً ليخفت صوت الشعبية التي حظى بها السيد البدوي ، فالتقى بالبحران (على السطح) ، ونظر إلى أتباعه في صمتهم وسكوتهم وعمائمهم الحمر يشكلون منظراً غريباً يملأ النفس رهبة فقال في نفسه :

. رباه ماذا أرى ، إنهم قوم مجانين .

ثم تقدم وسلم على السيد البدوي فقال له السيد :

. مجانين ، إلا أن جنونهم عزيز ، على أعقابهم يسجد العقل .

ارتبك الإمام ابن دقيق العيد وتماسك ، وسأله عن الطريقة الأحمدية وأركانها .

ووقف الزمان ، وأنصت الإنس والجان ، وسمعوا الإمام السيد البدوي يقول :

(طريقتنا مستمدة من الكتاب والسنة ، من خالفهما فليس منا ، والمريد الصادق هو من

يعيش طاهر القلب نقي السريرة ، لا تخالجه خواطر تحجبه عن الله ، ويشترط فيه : أن

يكون صادقاً ، صابراً على المكروه ، وفياً بالوعد غير حانث بالعهد ، مستقيماً على

الطريقة ، يأكل من عمل يده ، يطعم الجائع ويكسو العاري ، ويغيث الملهوف ، يعبد

الله في السر ، مثلما يعبد في العلانية ، يحافظ على الصلوات في أوقاتها يصون جوارحه

عن المعصية ، يعرض عن الدنيا وزينتها ، مكثفياً بما يقيم أوده ينتظر الموت أن يأتيه في أية

لحظة، يندم على الوقت الذي يمر عليه دون أن يذكر الله فيه ، يتمثل الصراط وهو مار عليه ، وجهنم وهو واردها، يتخيل موقفه أمام الله وأعضاؤه تشهد عليه ، يستحي من الله أن يراه في حالة تغضبه . هذه أولى الملامح الخاصة بالمريد وعند الله المريد) .

تصوروا الإمام ابن دقيق العيد ، الذي درس الشريعة ووصل إلى أعلى مناصب القضاء في الدولة يكتشف أنه ولد من جديد في جلسة واحدة ، ويقرر أن يصبح واحداً من أتباع السيد البدوي ، ويعود إلى القاهرة ذاكراً من الدرجة الأولى .

أيها الأحبة والصحب :عاش السيد البدوي تسعة وسبعين عاماً ، وكما قيض الله لسيدنا إبراهيم بن أدهم خادمه إبراهيم بن بشار ليحفظ وصاياه ويدون تعاليمه ، فكذلك قيض الله للسيد البدوي تلميذه عبد العال الفيشاوي ليصب في ذاكرة التاريخ الحكم الغوالي والعظات البليغة التي قالها السيد البدوي .

معاشر المسلمين :

لم يكن الإمام ينزل من السطح إلا لصلاة الجمعة والجماعة ، وكان أغلب وقته صامتاً يناجي الله في سره ويمجده ، حتى اختاره الله لجواره في ١٢ ربيع الأول سنة ٦٧٥هـ ودوى نبأ موته كما يحدث زلزال يهز الأرض هزاً ، وصار الناس يتهايمسون إن من رضوان الله على السيد البدوي أن يموت في اليوم نفسه الذي ولد و مات فيه النبي ﷺ ، وعدوا ذلك من محبة الله له .

وحضر مريدوه ليغسلوه فدخلوا على غرفته وأرادوا حمله إلى المغتسل فإذا بالكرامة تحدث ، إذ بالسيد البدوي يقوم من فراشه حياً ويقول : أنا أغتسل نفسي، فدخل فاغتسل غسل الموت ثم عاد إلى فراشه ثانية ومات .

وقامت الدنيا ولم تقعد لهذه الكرامة الأخيرة ، وصلوا عليه ولبثوا أياماً ليصلوا إلى قبره، وبايعوا خليفته عبد العال على الطريقة ، وصار المريدون يحضرون كل عام في ١٢ ربيع الأول يزورون شيخهم و يقيمون مولداً صار احتفالاً سنوياً مازال يكبر ويكبر ويتضخم حتى يجتمع مئات الآلاف ، وبني بجوار قبره مسجد السيد البدوي ، وبجواره

زاويته ، وفيها عمامته وقميصه وعصاه وسبحته التي جاء بها من العراق ، وتتكون من ألف حبة، وتحولت طنطا لوجود ضريح السيد البدوي فيها إحدى العواصم الكبرى في مصر .

إن السيد البدوي سيرة وتاريخاً ليس بأسطورة شعبية لكنها ولاية لا أظنها تختفي ما دامت ولاية الأولياء ومادام قول الله تعالى يتلى ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

المصادر :

- . جوهرة الدسوقي
- . العارف بالله أبو العباس الفتى البدوي أبو اللثامين .
- . شذرات الذهب لابن العماد ٦٠٢/٧
- . السيد البدوي عبد المنعم قنديل . نخضة مصر
- . السيد أحمد البدوي سعد القاضي دار غريب . القاهرة .
- . العظة والاعتبار في حياة السيد البدوي . أحمد محمد جي .
- . أعلام الصوفية د . جوي المهدي
- . النجوم الزهرة ٢٥٢/٧ لابن تفرج بردي
- . النصيحة العلوية للإمام نور الدين الحلبي
- . دائرة المعارف الإسلامية (السيد أحمد البدوي)
- . الأعلام للزركلي ١ / ١٧٥
- . الإمام الشعراي الطبقات الكبرى ١ / ١٨٣
- . الموسوعة الصوفية ١٥٧ للحنفي

(٢٣٦)

إمام المجاهدين
الشيخ أحمد ياسين
ت ١٤٢٥ هـ . ٢٠٠٤ م

الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار ، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار ، فجعلهم أعراضاً لسهام الأقدار ، ووكل بهم أمراضاً تزعجهم عن القرار ولم يخص بها الفقراء دون ذوي اليسار ، بل هي آيات الله عدل بالبادين والحضار ، أحمدته على نعمه وأعوذ به من العتو والإصرار .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة منجية من عذاب النار ، مبنوة من شهد بها دار القرار .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله بآمين شعار وأنور منار ، وأظهر إعلان وإسرار مؤيداً بالمهاجرين والأنصار ، منصوراً بالملائكة المقربين الأبرار .
اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه آناء الليل وأطراف النهار ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

عندما تضيق بي مسالك الحياة ألجأ إلى الله تعالى ، وعندما أرى أحداث العالم الإسلامي تصيب الإنسان المسلم بنزيف داخلي أسأل رسول الله أن يشخص لنا الداء ويصف لنا الدواء .

فمنذ أيام مضت (٢٠٠٤) قامت بعض قوى الشر في غزة بفلسطين من السلاح الجوي الصهيوني تستعرض عضلاتها على شيخ مقعد ، فقامت بإطلاق ثلاثة صواريخ عليه في أثناء خروجه من مسجده بعد صلاة الفجر فقتلته وقتلت تسعة من مرافقيه ، أعلنت أبواب الجنان طوارئها لاستقبال أرواحهم مع ملائكة الرحمن ، حيث اهتزت الأرض تحت أقدام الشيخ في أثناء تشييع جسده ، عفواً ما تبقى من جسده الذي توزع أشلاء في الفضاء، وتوج الشيخ جهاده الطويل فكان من عداد الشهداء ، لتكون روحه في أجواف طير خضر تسرح في أرجاء الجنة.

وإسرائيل مسرورة باغتيال رجل مقعد لا تسمح الإنسانية بخدشه، إسرائيل بجبروتها وعتادها وحلفائها خافت من رجل مقعد، والحق كل الحق أنها لم تقتل رجلاً يمثل منظمة حماس فحسب ، وإنما قتلت رمزاً من رموز الإسلام هو الشيخ أحمد ياسين، الهدف والغاية ضرب الإسلام.

وبالنيابة عنكم وبالأصالة عن نفسي أوجه رسالة تهنئة إلى إخواننا الفلسطينيين، وأقول لهم ما قاله سيدنا رسول الله لسيدنا جابر عندما استشهد والده في أحد ، فعكف جابر على والده عبد الله بن حرام الشهيد يبكي لفراقه ، وراه رسول الله فأراد تعزيته ، قال له: ألا أخبرك ما فعل الله بأبيك ؟ قال: بلى قال: إن الله تعالى لم يلق أحداً إلا من وراء حجاب وإنه لقي أباك من غير حجاب ، فقال: يا عبد الله تمّن علي . قال : يا رب إني أريد أن تعيدني إلى الدنيا لأقتل فيك ثانية ، فقال ربّ العزة: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون قال: فأخبر من ورائي بما أعطيتني ، فأنزل مولانا عز وجل: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾

أيها الإخوة الكرام:

لما سقط الشهداء التسعة في مثل ملح البصر سألت نفسي : ماذا كان موقف العالم الغربي ؟ كان موقفه كموقف الأمة الإسلامية روسيا وفرنسا وبريطانيا تستنكر ما فعلته يد يهود، والدول العربية تشجب العدوان على الشيخ ورفاقه، تونس والمغرب والجزائر وغيرها تستقبل هذا الحادث الأليم بالحزن العميق والأسى، هذا موقف الأمة.

مئات الفلسطينيين يسقطون سنوياً ويقتلون بيد العدو الصهيوني، وأمريكا تبارك بل تبسط جناحها على الشرق الموحد الذي يقول لا إله إلا الله. وماذا فعلنا؟ رفعنا أمرنا إلى الأمم المتحدة النصرانية ، وإلى أمريكا الكافرة، بدل أن نرفعه إلى الله تعالى استعنا بأمريكا والعالم الغربي الكافر.

ومن اعتمد على عقله ضلّ، ومن اعتمد على ماله قل، ومن اعتمد على جاهه ذل، ومن اعتمد على روسيا وأمريكا ملّ، ومن اعتمد على الله فلا ذل ولا قل ولا ضل ولا ملّ.

لماذا نختمي بأمريكا ؟ لماذا نتوجه إلى شعوب الكفر والإلحاد لتحميننا ؟ إلى متى ستظل الأمة الإسلامية على هذه الحال ؟ أمة حالها أسى: الروس على أرض داغستان من جهة، والعراق وأمريكا دخلا على سنة في حرب ضروس لا يعلم مداها إلا الله ، ولبنان تستغيث من إسرائيل ، وليبيا تستسلم لأمريكا، وبلاد البترول في غفلة معرضون، وسورية تتصدى للكيد الأمريكي، فماذا قال لنا رسول الله في حالنا: ﴿يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكله إلى قصعتها، قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله قال: بل إنكم يومئذ كثر، ولكنكم غثاء السيل﴾ أتدرون ما الغثاء؟ الحطيم الجامد ، النباتات الجافة التي يكتسحها تيار الماء اكتساحاً ، فيرى أسود منتناً على أطراف الشوارع.

ما السبب يا رسول الله؟ قال: ينزع الله الرعب من قلوب أعدائكم ، ويلقي
الوَهْنَ في قلوبكم قالوا: وما الوَهْن يا رسول الله قال: حبّ الدنيا وكراهية
الموت ﴿١﴾ ولذلك كان شعار الدولة في عصر الصديق: احرص على الموت توهب
لك الحياة.

يا معشر السادة:

كيف أصبح حالنا؟ أصبح غثاء كغثاء السيل ، لا حول لنا ولا قوة.
حكام المسلمين أمرهم أعجب من العجب ، حتى إنك ترى حاكم قطر
يطرد السفير الروسي لأن روسيا اعتقلت قطريين بتهمة الإرهاب ، ويترك قنصلية
إسرائيل مفتوحة في بلاده رغم أن اليهود في كل يوم يقتلون إخواننا في فلسطين،
وفعل مثل فعله حاكم مصر وحاكم المغرب والأردن ، هؤلاء فتحوا سفارات في
بلادهم لعدو المسلمين الأول، لقتلة الأنبياء والمرسلين ، عقدوا معهم عقد صداقة
وتعاون مع شارون رئيس وزراء العدو الصهيوني ، الرجل الذي يدمر مدن المسلمين
وأهلنا في بلاده، عدو من أعداء الله (اللهم دمرها على كل ظالم) حلفاء روسيا
يلجؤون إلى روسيا، وحلفاء أمريكا يلجؤون إلى أمريكا، وتركوا الالتجاء إلى الناصر
المنتصر، تركوا الالتجاء إلى ﴿٢﴾ من يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء
ويجعلكم خلفاء الأرض ﴿٣﴾ ونزح بحرين بغربالين، وحفر بئرين بإبرتين ، وكنس أرض
الحجاز في يوم شديد الهواء بريشتين ، وغسل عبيدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين
خير لي من أن أقف على باب غير باب الله يضيع فيه ماء عيني .

إذا سألت فأسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. أما أن نستعين بروسيا
وأمریکا فإن مثل روسيا وأمريكا ﴿٤﴾ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر
قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴿٥﴾ وقت الشدائد لا يعرفونك، لأنك
تنطق بكلمة لا إله إلا الله، لا يعرفونك هم أعداؤك وأعداء نبيك سيدنا محمد ﷺ .

يا حكام المسلمين لا تلجؤوا إلى روسيا ولا إلى أمريكا الجؤوا إلى الله، اركبوا معنا في سفينتنا ولا تقولوا سنتعصم بجبل أمريكا ، فلا شيء يعصم من أمر الله، يا حكام المسلمين الجؤوا إلى الله يعطكم نوراً تستفتحون به على أمريكا واليهود، لأن نور الله يوقد من شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، لا هي موسكو ولا هي إلى واشنطن.

وأما أنتم يا أهلنا في فلسطين فلا أجد ما أقول لكم إلا كما قال طارق بن زياد لجنوده يوم لقي جيوش الإسبان وكانوا مئة ألف مقاتل، وكان المسلمون سبعة آلاف قال لكم: العدو أمامكم والبحر وراءكم وليس لكم والله إلا التقوى والصبر. ومكنوا العقيدة في قلوبكم ، لا تخافوا إلا الله افعلوا كما كان الشيخ أحمد ياسين يفعل ، وقد سئل كيف تخرج وتدخل بحراسة أقل بكثير من تقليدية. فقال: أنا لا أخاف إلا الله .

إن العقيدة إذا مكنتها في قلوبكم لن تخافوا من طائرات اليهود الأمريكية، لن تخافوا F14 و F15، لن تخافوا الأسطول الجوي الفانتوم ولا القنابل النثرية ولا الأسطول السابع أو السادس، إن التجاءكم إلى الله واستنصاركم به يزلزل الجبال من أماكنها، يميناً بالله أحلفها لو اجتمع أهل الدنيا جميعاً من شرقها إلى مغربها ليحاربوا الإسلام فإن الله من ورائهم محيط، لا تخافوا مهما هددتم بالسجون ، ومهما هددتم بالمحاكم ، ومهما هددتم بالتنكيل والتشريد (إنّ وليكم الله) هو ناصركم وهو مؤيدكم، إن عدنا إلى الله ملأ قلوب أعدائنا بالخوف والرغبة ، إن اليهود يخافونكم (لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله) بدليل أنهم بدؤوا يقتلون المقعدين والمرضى ، لأنهم لم يقدروا على الأصحاء، ولعمري شيخ مقعد مقيد أيقظ أمة نال الشهادة ، فمتى يتحرك صحيح البدن مقيد الهمة ؟!

اليهود يخافون المسلمين الذين عقيدتهم تزلزل الجبال ، يذكرني بالرعيّل الأول من الصّحب الكرام، إنّ سيدنا خالد بن الوليد أرسل ذات مرة إنذاراً إلى كسرى وقال له: يا كسرى أسلم تسلم وإلا فقد جئتكَ يقوم يحرصون على الموت كما تحرصون على الحياة (لأن الشهادة حياة) والمسلمون يحرصون على الشهادة كما يحرص الفرس على الحياة ، فلما وقع الإنذار في يدي كسرى ارتعدت أوصاله وتفككت أعصابه ، وأرسل إلى حاكم الصين يطلب النجدة والمدد فرد عليه حاكم الصين قائلاً: لا قِبَل لي بـقوم لو أرادوا خلع الجبال لخلعوها.

إخوة الإيمان:

علاجنا في العودة إلى الله ، في الصّـلح مع الله ، الملجأ لا واشنطن ولا موسكو ، إنما الملجأ هو الله، هو الله، هو الله .

اللهم انصرنا على أعدائنا، اللهم ثبت قلوبنا، اللهم ارزقنا الشهادة في سبيلك ، اللهم ارزقنا موت الكرماء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، اللهم لا تخزنا يوم اللقاء.

أعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصّلاة والسلام عليك.

اللهم صلّ وسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه

(٢٣٧)

الشيخ

عبد العزيز الرنتيسي

ت ١٤٢٥ هـ . ٢٠٠٤ م

الحمد لله مقدّر الموت على العباد، ومحذّر الفوت ليتنهزوا فرصة الاجتهاد،
وجاعل موت المسلمين وسيلة إلى لقاءه، ومدخلاً إلى دارا إحسانه وحسن جزائه،
ومعرجاً تعرج به أرواحهم إلى حضرة القدس، ومخرجاً يتروحون فيه من غموم الدنيا
بنفحات القرب والأنس.

أحمده على حسن بلائه لنا في الموت والحياة، وأشكره على توفيقه لشهود
حسن اختياره للمؤمنين في كل ما قدّره وأمضاه.

وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا نعبد إلا إياه.

وأشهد أنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أكرمه بالفضل على سائر
خلقه واجتباها، وجعله إماماً لأهل أعصار الدنيا، ثم نقله إلى الآخرة ليأتم به أهل
تقواه، ولقد خيرّه سبحانه بين الدنيا وبين ما عنده فارتضاه، ولا جرم أنه نقله إلى
الرفيق الأعلى، وجعل أعلى الفردوس مثواه.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الثقة الهداة،
وأدم ذلك بمدد لا يدرك منتهاه، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام يقول الله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه
فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً﴾.

قضى الله على هذه الأمة لتبلغ مكانتها العليا بين الأمم، أن تكون أمة الشهداء اقتداءً بالقادة الأتقياء سيدنا حمزة عم النبي، وابن عمه جعفر بن أبي طالب إلى الشهداء السبعين في بئر معونة ، إلى اليرموك والقادسية وحطين.

واليوم يلحق بهذا الركب العظيم سيدان بطلان كريمان وزعيमान جليлан الشيخ أحمد ياسين وتلميذه الخاص الدكتور عبد العزيز الرنتيسي، خمسة وعشرون يوماً بين الشهيدين، ترى هل اشتاق المعلم لتلميذه ؟ أم اشتاق التلميذ لمعلمه؟ أم الجنة اشتاقت لهما!

البطل الدكتور عبد العزيز كان يطلب الجنة بالشهادة وهو ساجد، يطلبها وهو بين صحبه وأهله، فهنيئاً لأهل الشهيدين، لأن الشهيد في أعلى جنات الخلد، والشهداء كما قال سيد العالمين: ﴿أرواحهم في أجواف طير خضر تسرح في الجنة، الشهيد يشفع لسبعين من أهل بيته كلهم وجبت لهم النار﴾، استشهد صحابي واسمه الحارث بينما كان يستقي الماء للمجاهدين ، فجاءت أمه إلى رسول الله تسأله هل ولدها في الجنة أم في النار؟ فقال لها رسول الله ﷺ : يا أم حارثة ، إنها ليست بجنة واحدة ، ولكنها جنات كثيرة ، وإن حارثة لقي الفردوس الأعلى (حم . خ)

إنني لا أعزي أهل الشهيد والعالم الإسلامي بفقده بل العزاء لنا إن لم نمض على الطريق.

الدكتور عبد العزيز كان يستطيع بمهنته أن يقضي حياته ترفاً بين الدول الغنية طبيباً كأمهر الأطباء، ولكنه فضّل حياة الجهاد، فضّل أن يعيش مجاهداً ليموت شهيداً! أتدرون لماذا؟ لأنه كان مقتدياً بسيدنا رسول الله، أليس هو القائل لنا:

﴿سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله﴾

(حا - والضياء) صحيح.

الدكتور عبد العزيز لم يقف في وجه ظالم واحد، بل وقف في وجه قتلة ظلام غاشمين، وقف صامداً أمام نظام عالمي يريد أن يقضي على شوكة الإسلام، الدكتور عبد العزيز ترى في مدرسة القرآن التي تعلم منها ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا، والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً﴾ (النساء ٨٤).

إخوة الإيمان:

هذه الآية توجه النبي وأمة الإسلام من ورائه إلى طريق المقاومة والتحرير: فقاتل: ابدأ بنفسك ، وهكذا فعل الشيخ أحمد ياسين فارس الكرسي ، بدأ بنفسه وتبعه المخلصون من إخوانه ومنهم تلميذه الدكتور عبد العزيز فقاتل: بالسكين بالحجر بالعمليات الاستشهادية ، حتى يتحول تراب الأرض إلى نار تحرق اليهود والأمريكان ، حتى تحيا الأرض بدماء الشهداء. إن شعب فلسطين كأرض فلسطين تنبت الأبطال والمجاهدين كما تنبت التين والزيتون، إن شعب فلسطين كأصحاب سيدنا محمد ﷺ محمد رسول الله والذين معه أشدّاء على الكفار رحماء بينهم﴾. (الحشر)

إن شعب فلسطين بشّرهم رسول الله منذ ١٤ قرناً أنهم يروون الأرض بدمائهم: ﴿لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلْتَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى كَذَلِكَ﴾ (م-ت-هـ).

فيا إخوتنا في فلسطين: حيّاكم الله وبيّاكم، حيا الله هذه السواعد السخية المقاتلة، كونوا يداً واحدة مع فصائل المقاومة، إنكم إن فعلتم زرعتم الشوك في طريق يهود .

فهل يتحرك زعماء العرب؟

فهل تستيقظ النخوة في رؤوسهم ؟ فهل يستصرخ إيمانهم بالله وا إسلاماه.

أيها الزعماء: أين جيوشكم ؟ فتيات الأقصى كالإعصار في وجه يهود، وأنتم على عروشكم نيام، يا حكام العرب كيف تستنصرون أمريكا وهي التي دمّرت جنين بيد اليهود بطائراتها؟! كيف تستنصرون بمن دمّر أهلنا في الفلوجة والنجف؟! لا تنتظروا النصر من أمريكا، يا مبارك استحيي من نفسك ، فإن لم تستح من نفسك فاستحيي من شعبك، فإن لم تستح من شعبك فاستح من التاريخ، فإن لم تستح من التاريخ فاستحي من الله تعالى، بسلام أمريكا يقتلنا شارون، طائرات الأباتشي الأمريكية التي تقتل إخواننا في غزّة هي نفسها التي تقتل إخواننا في الفلوجة، الضحية المسلمة، هي الضحية المسلمة، والجلاد هو الجلاد، والسلاح هو السلاح.

أما آن لزعماء العرب أن يعلموا أن الإدارة الأمريكية متصهينة أكثر من الصهيونية! إنني لا أستغرب وقفة بوش الوقحة، لكن المستغرب أن يبقى بوش أمل النظام العربي، إن البوتش امتداد لترومان، وما أدراك ما ترومان! كلب أمريكا الأسبق الذي أجبر الكونغرس الأمريكي على اتخاذ قرار بمنع اليهود من القدوم إلى أمريكا ليجبرهم على الذهاب إلى فلسطين.

هل تعلمون . **يا سادة** . أن أول دولة اعترفت بالكيان الصهيوني هي أمريكا بقيادة كلبها ترومان، الرؤساء الأمريكيان يتوارثون الحقد الأسود، في دمهم كريات لو حللها أي مخبر في العالم لوجدوها إيجابيا صهيوني حاقد على الإسلام، نعم، لسنا بقدر أمريكا في السلاح، هذا صحيح.

ولكننا - **معشر المسلمين** - لا نعتمد في الحرب على السلاح ، بل نعتمد على الله، نحن نصرنا بديننا، وإذا ما في دين ما في نصر ، **يا أمة محمد إذا ما في دين ما في نصر**، الجهاد ابن الطاعة، إذا ما في طاعة لله ما في جهاد، والنصر ليس بالسلاح والعتاد وشوكة الحرب ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله** ﴾

﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ إن خالق الأسباب يقدر أن ينصر بدون أسباب.

من الناصر؟ من القادر؟ من المنتصر؟ من العزيز؟

من دمشق إلى فلسطين، شعارهم واحد : هبي يا ريح الجنة ، إنه إيمان بدر وحنين، إنهم فرسان أبناء الحسين.

إن أمريكا لا تعلم أن بقتل الرنتيسي قد أحييت أمة، إذا مات واحد من حماس فكلنا حماس، كلنا حماس، كلنا حماس، نحن الباقون.

قتلانا في الجنة وقتلهم في النار ، باقٍ رغم أنف الطغاة، يا رنتيسي أنت الإمام وشعبك المجاهد الجبار.

يا شارون ﴿ لا تحسبن الله غافلاً عما يفعل الظالمون ﴾ .

يا بوش لا تحسبن أن قتل القادة سيضعفنا ، كلما مات منا سيد قام ألف سيد . يا شارون ستموت، يا شارون ستسحق ، الله أكبر عليك، كبروا على شارون، الله أكبر قتل شارون، الله أكبر قتل بوش ، الله أكبر سحق طن إيليط، الله أكبر على كل أمريكي في العراق، الله أكبر دمرها على يهود، الله أكبر سقط البيت الأبيض، يا شارون يا حقير.

ستدركك المنية في ديارك وتنقل من غناك إلى افتقارك

ودود القبر في عينك ترعى وعين المسلم ترعى في ديارك

الشهادة هي الشرارة لنار الجهاد، الشهادة ليست عائقاً بل دافعاً لمتابعة الطريق، لأننا بعنا أنفسنا لله، الدماء التي سالت ستتحوّل إلى بارود تنسف طغيان أمريكا واليهود، لن يركع شعب ركع لله.

يا شارون يا حقير : نحن أمة الشهداء، وغداً سترى قوافل الشهداء، لن نضعف بإذن الله، لا والله ، لا وربّ أحمد ياسين، لا وربّ عبد العزيز، لا وربّ الشهداء، سيبقى الإسلام بين جوانحنا ستبقى راية الإسلام عالية خفاقة.

استشهد أحمد ياسين هل مات الإسلام ؟ لا ، قتلوا الرنتيسي هل ذهب
الإسلام، لا، الإسلام يبقى ، بالروح بالدم نفديك يا إسلام، هذا هو شعار الذي
سيجبل عالياً في سماء الدول العربية الإسلامية.
نعاهدكم يا شهداءنا أننا على الدرب فيا دماراً لصهيون إن انطلقت قافلة
الشهداء ، ويا فرحة الأقصى إن عاد الدم في الشرايين .
يا أحجار فلسطين كبري الله أكبر، الله أكبر هي في وجه يهود، الله أكبر
حطمي كيانه، الله أكبر ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون ﴾ .

(٢٣٨)

الشيخ مصطفى التركماني

ت ١٤٢٧ هـ ٢٠٠٦

تأبين شيخ الطريقة الشاذلية

الحمد لله المنفرد بالبقاء ، الذي حكم على جميع خلقه بالانتقال عن دار الفناء ،
أحمد سبحانه في السراء والضراء ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد عبد ربه ، شفيع
الخلق المنزل عليه ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ فإنا لله وإنا إليه راجعون :

بكت المعارف والرسوم فقيدنا أواه لو كان البكاء يفيدنا
رزء أصاب المسلمين فصنع الـ أكباد منا واستطار قلوبنا

أما بعد : فقد غادرنا إلى جوار ربه عز وجل العارف بالله الشيخ مصطفى
التركماني ابن الشيخ عبد الرزاق بن السيد إسماعيل .

ألا رحمك الله يا شيخ مصطفى ، وأسبل عليك سحائب الرحمة والرضوان ،
غادرنا وهو يذكر الموت ، لأنه موعد للقاء مع الأحبة محمد وصحبه ، والمحبة لا
ينسى أبداً موعد لقاء الحبيب يقول ﷺ " تحفة المؤمن الموت " وإنما قال ذلك
لأن " الدنيا سجن المؤمن " ويقول : " الموت كفارة لكل مسلم " ويقول أبو
الدرداء رضي الله عنه : " إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم " .

أيها الأحباب : لا يعلم إلا الله ما أصابنا وأصاب المسلمين ، ولم يخص الأقربين
حتى عم جميع الموحدين ، ولم يمس الأرحام حتى زعزع رجال الإسلام ، قد سار
بروحه الشريفة عن عالم الفناء إلى ما أعدّ له من منازل الكرامة في دار البقاء ، صرف
نظره العالي عن مظاهر الحياة ، واستقبل بتمام وجهه ملكوت ربه الأعلى ، قد

اختار لنفسه ما اختاره الله تعالى من الاختصاص بجواره الكريم والاتصال بنور وجهه العظيم ، ولولا اليقين بأن الخير في أمة النبي سيدنا محمد ﷺ إلى يوم الدين لما تعزّت الأنفس في البقاء بعده ، وللحقنا به اختياراً لما عنده :
وما الدهر والأيام إلا كما ترى رزية حرّ أو فراق حبيب

إنها كلمات نسلي بها خواطرننا على ما ألم من الاشتراك في هذا القضاء الذي امتحن الله به صبرنا وصبركم ، وابتلى به إيماننا وإيمانكم رحل عنا أولاً مولانا إمام أهل السنة الشيخ عبد الرحمن الشاغوري العالم والولي الكامل ، وابتدأ الامتحان والبلاء ، وإذا برب الأرض والسماء ينظر بعين العطف فينزل الصبر مع البلاء ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ شيخنا العلامة الشيخ عبد الرحمن الشاغوري سقطت زهرة حياته في جنة عالية قطوفها دانية ، وقلنا : الموت سبيل تزاحم عليه السابقون واللاحقون ، ومورد ينهل منه الخلائق أجمعون ، وإن هي إلا سنتان إذا بالدهر لم يلاقنا إلا بما ألفناه ، وما أنكرنا عليه شيئاً عرفناه يقارع المؤمنين بالشيخ مصطفى رحمه الله تعالى .

أيها الإخوة : إن مصيبة الراحل عنا عظيمة ، ورزية اليأس من لقائه جسمية ، وحرماننا من آدابه يذهب بالنفس حشرات ، وخلو وطنه من مثله يذيب القلوب الواجدات ، لأنه أخذ العلوم على جلة علماء عصره ، وأبطال وقته كان على رأسهم الشيخ حسن حنكة والشيخ محمد الهاشمي وغيره من علماء عصره ، تلقى علم التوحيد على يد الشيخ الهاشمي في بيته المقام في المهاجرين .
وبقي طوال حياته ينهل من معين العلم الشرعي ، دائباً على تحصيل العلم والتعليم والوعظ والنصيحة والارشاد .

كان أيها الإخوة عالماً متواضعاً وشجرة مثمرة قطوفها دانية يقطف من ثمارها الخاص والعام ، فرحمك الله يا شيخ مصطفى لقد بشرك الله تعالى قبل وفاتك بما رأيته في منامك لذا ابتسمت قبل وناتك ، فهنيئاً أيها العارف بربه ، نم نومة العروس هنيئاً لا يوقظك إلا أحب الخلق إليك ، قد ذكرتني مثيلك في طلب العلم ، أحد علماء الأمة الربانيين يزيد بن هارون الواسطي ، فإنه بعدما توفي رؤي في المنام وسئل عن حقيقة منكر ونكير فقال : أي والله لقد أجلساني وأقعداني وجعلنا يسألان : من ربك وما دينك ..

فقفزت إليهما بشجاعة الإيمان وقلت لهما : أمثلي يسأل؟ وقد كنت أعلم الناس دينهم زهاء ستين سنة ، أنا يزيد بن هارون الواسطي. فقال أحدهما للآخر : صدق هو يزيد بن هارون الواسطي وقالوا له : نم نومة العروس هنيئاً مطمئناً وتركاه وذهبا . ألا رحمك الله يا شيخ مصطفى ، لقد أبيت إلا أن تلحق بوالديك وشيخك وأنت في آخر لحظات حياتك تصبر الصبر الجميل وتحتسب مرضك عند الله عز وجل.

نشهد بأنك كنت هادياً مهدياً ، وأنت أدت رسالتك في العمل والوعظ والارشاد فعليك رحمة الله، لقد سئمت العناء وداره، وكرهت الباطل وجواره ، فاستقبلت وجه البقاء وخلصت إلى ما إليه التجاء.

فما الحيلة؟! التصبر أجمل من التحسر ، والجلد أجدر بنا من الكمد.

أيها الإخوة إني وإن وجهت الخطاب إليكم لم أقصر الوصية عليكم، فلي نفس تشارك نفوسكم، وحسٌ يشاطر حسَّكم، لأنه رباني على عينه ووجهني بحاله ومقاله، وفقهني بعلمه وعمله ، فالله أسأل لنا حسن العزاء ، وصرف البأساء وإقبال النعماء فهو أكرم الكرماء.

حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبنا الله ونعم الوكيل في هذه الصفحة المشرقة التي طويت من صفحات تاريخنا، وغاب نجم من النجوم سطع في سماء البشرية فأضاء ما

بين المشرق والمغرب، ونسأل الله أن يجمعنا به وبأمثاله من أهل الله وأحبائه في مستقر رحمته وفسيح فردوسه.

هذا ويتراءى لنا أن روحك الطاهرة ترفرف على المجتمع من إخوانك فعليك منا السلام إلى يوم اللقاء ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ والحمد لله رب العالمين.

وهذا ويستحب في هذا المقام أن يتلى النسب الشريف للطريقة الشاذلية التي كان أحد سلسلتها المباركة شيخنا الشيخ مصطفى فهو خليفة:

مولانا الشيخ عبد الرحمن الشاغوري

خليفة الشيخ سعيد الكردي

خليفة الشيخ محمد بن الهاشمي التلمساني

خليفة الشيخ أحمد بن مصطفى العلوي

خليفة الشيخ محمد بن الحبيب البوزيدي

خليفة الشيخ محمد بن قدور الوكيل

خليفة الشيخ محمد بن عبد القادر الباشا

خليفة الشيخ مولاي العربي الدرقاوي

خليفة الشيخ علي الجمل العمراني

خليفة الشيخ العربي بن أحمد بن عبد الله

خليفة الشيخ أحمد بن عبد الله

خليفة الشيخ قاسم الخصاصي

خليفة الشيخ محمد بن عبد الله الفاسي

خليفة الشيخ عبد الرحمن بن محمد الفاسي

خليفة الشيخ يوسف بن محمد الفاسي

خليفة الشيخ عبد الرحمن المجذوب

خليفة الشيخ علي الصنهاجي الدوار
خليفة الشيخ إبراهيم الزرهوني
خليفة الشيخ أحمد بن زروق الفاسي
خليفة الشيخ أحمد بن عقبة الحضرمي
خليفة الشيخ يحيى بن أحمد القادري
خليفة الشيخ علي بن محمد بن وفا
خليفة الشيخ محمد بن وفا
خليفة الشيخ داود بن عمر الباخلي
خليفة الشيخ ابن عطاء الله السكندري
خليفة الشيخ أبو العباس المرسي
خليفة الشيخ أبو الحسن الشاذلي
خليفة الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيس
خليفة الشيخ عبد الرحمن المسوتي العطار
خليفة الشيخ سيدنا الغوث أبو مدين
خليفة الشيخ سيدنا عبد القادر الجيلاني
خليفة الشيخ سعيد المبارك
خليفة الشيخ أبو علي الحسن بن يوسف
خليفة الشيخ أبو الفرح الطرطوسي
خليفة الشيخ أبو الفضل التميمي
خليفة الشيخ أبو بكر الشبلي
خليفة الإمام أبو القاسم الجنيد
خليفة الشيخ أبو الحسين النوري
خليفة الشيخ تقي الدين الفقير

خليفة الشيخ فخر الدين ..
 خليفة الشيخ نور الدين أبو الحسن علي
 خليفة الشيخ محمد تاج الدين
 خليفة الشيخ محمد شمس الدين
 خليفة الشيخ زين الدين القزويني
 خليفة الشيخ أبو اسحق إبراهيم البصري
 خليفة الشيخ أبو القاسم أحمد المرواني
 خليفة الشيخ أبو محمد سعيد
 خليفة الشيخ سعد
 خليفة الشيخ فتح السعود
 خليفة الشيخ سعيد الغزالي
 خليفة سيدنا جابر بن عبد الله
 خليفة سيدنا الحسن المرواني
 خليفة سيدنا علي بن أبي طالب
 سيدنا ومولانا محمد رسول الله
 وهذا وقد قرر أهل الحل والعقد بهذه الطريقة مبايعة مولانا الحافظ الجامع المربي
 الشيخ شكري اللحفي شيخاً للطريقة الشاذلية ، فهل بايعتم. نعم. سيدي الشيخ
 شكري لقد وضع إخوانكم الطريقة بين أيديكم المباركة وفقكم الله وأعانكم وأيدكم
 بتوفيقه.

(٢٣٩)

سيد الشهداء

سيدنا

حمزة بن عبد المطلب بن هاشم

أبو عماره، عم سيدنا رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة، أرضعتها السيدة ثوية رضي الله عنها.

كان أسنّ من سيدنا رسول الله ﷺ بسنتين.

أسلم في السنة الثانية من البعثة: فقد اعترض أبو جهل سيدنا رسول الله ﷺ فأذاه وشتمه ونال منه ما يكره، فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئاً، ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه فعمد إلى نادٍ لقريش عند الكعبة فجلس معهم، ولم يلبث سيدنا حمزة أن أقبل من صيد له متوشحاً قوسه، وكان لتعظيمه الكعبة لا يدخل بيته حتى يطوف في الكعبة سبعاً، ويمر على نادي قريش ويسلم عليهم. وكان أعزّ قريش وأشدّها قوة، فمرّ بمولاة ابن جدعان فقالت له: يا أبا عمارة لو رأيت مالقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم آنفاً، وجده ههنا فأذاه وشتمه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد.

فاحتمل سيدنا حمزة الغضب لما أراد الله تعالى به من كرامته فخرج سريعاً لا يقف على أحد كما كان يصنع يريد الطواف بالبيت، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها ضربة شجّه شجّة منكّرة، وقامت رجالات من قريش إلى سيدنا حمزة لينصروا أبا جهل . فقالوا: ما نراك يا حمزة إلا قد تركت دين آبائك ولحقت بدين محمد.

فقال سيدنا حمزة : وما يمنعني وقد استبان لي منه الحق . أنا أشهد أنه رسول الله وأن الذي يقوله الحق . فو الله لا أترك دينه فامنعوني إن كنتم صادقين.

وهنا قال أبو جهل : دعوا أبا عمارة ، فإنني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.وتمّ سيدنا حمزة على إسلامه .

وبإسلامه عرفت قريش أن رسول الله قد عزّ وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما كان يتناولون منه .

ثم أسلم بعده سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأيام وقال : يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا قال : نعم . قال ففيم الاختفاء ، والذي بعثك بالحق لنخرجن إلى البيت الحرام فخرج المسلمون إلى الحرم المكي ضمن صفين سيدنا حمزة في أول صف ، وسيدنا عمر في صف ورسول الله ﷺ بين الصفين خرجوا وهم يكبرون ، ودخلوا الحرم وسمعت قريش التكبير فقامت تريد أن تفتك بالمسلمين ، فلما رأت سيدنا حمزة وسيدنا عمر توقفت وقال سيدنا عمر من تحرك من مكانه لأمكنن سيفي من عنقه . فطاف المسلمون سبعاً حول الكعبة وهم يكبرون ، ثم عادوا إلى بيت سيدنا رسول الله ﷺ .

وهنا قلّد سيدنا رسول الله ﷺ السيدتين العظيمين وسام شرف لأبد الدهر فسّمى سيدنا حمزة أسد الله ، وسّمى سيدنا عمر الفاروق فرق الله به بين الحق والباطل . ثم جاءت الهجرة إلى المدينة المنورة ، وهاجر سيدنا حمزة ، وفي المدينة المنورة كان أول لواء حرب عقده رسول الله في الإسلام لسيدنا حمزة بن عبد المطلب بعثه في سرية إلى ساحل البحر .

وشهد سيدنا حمزة بدرّاً وأبلى فيها بلاء عظيماً مشهوراً ، وكان إذا نزل في ساحة المعركة يعرف بريشة نعامة يضعها على عمامته رضي الله عنه ، فقاتل يوم بدر بين يدي سيدنا رسول الله ﷺ بسيفين ، وهو الذي قتل شيبة بن ربيعة مبارزة ، وشارك في قتل عتبة بن ربيعة هو وسيدنا علي .

وشهد أحداً وقتل من المشركين واحداً وثلاثين نفساً ، كان يقاتل يؤمئذ بسيفين فقال قائل: أي أسد هو حمزة (حسده على قوته) فبينما هو كذلك إذ عثر عثرة وقع منها على ظهره فانكشف الدرع عن بطنه فرماه وحشي الحبشي بحربة فقتله. ومثّل به المشركون ، وبقتلى المسلمين السبعين وجعلت نساء المشركين هند بنت عتبة وصويحباتها يجدعن أنف الشهداء وآذانهم وييقرون بطونهم، وبقرت هند بطن سيدنا حمزة رضي الله عنه فأخرجت كبده فجعلت تلوكها فلم تسعها فلفظتها فقال سيدنا النبي ﷺ : لو دخل بطنها لم تمسها النار.

وانتهت المعركة ونزل المسلمون يتفقدون الشهداء الأبرار ، فلما شهد النبي ﷺ اشتد وجده عليه ولهفته وحبه له فقال: لئن ظفرت بهم يوماً من الدهر لأمثلن بسبعين منهم. وقف سيدنا رسول الله على جسد عمه فلم ير منظرأ كان أوجع لقلبه منه وبكى وهو يقول : رحمك أي عم فلقد كنت وصولاً للرحم فعولاً للخيرات، ثم قال : لولا أن تحزن عليه صفيه (أخت سيدنا حمزة) لتركته حتى يحشر من بطون الطير والسباع) (يوم القيامة) .

وأرسل الله تعالى برقية عزاء عطرة لحبيبه ومصطفاه ، نزل بها الأمين جبريل اسمعوها كما نزلت ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله﴾

﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله﴾ (النحل) ونزلت هذه البرقية على قلب سيدنا محمد ﷺ برداً وسلاماً وقال : بل أَرْضَى وَأَصْبِر يارب . فغفا رسول الله وصبر ونهى عن التمثيل بالقتلى .

وأمر بدفن الشهداء بشياهم حيث استشهدوا وقال : إنهم يبعثون يوم القيامة اللون لون الدم وريحه ريح المسك .

وحين عاد سيدنا النبي ﷺ إلى المدينة سمع النوح على قتلى الأنصار ، فقال : لكن حمزة لا بواكي له (لأنه من المهاجرين) فسمع الأنصار مقالة سيدنا رسول الله فأمرؤا نساءهم أن يندبن سيدنا حمزة قبل قتلاهم . ففعلن ذلك

ووقف سيدنا كعب بن مالك يرثي الشهداء ومنهم سيدنا حمزة :

بكت عيني وحق لها بكاءها وما يغني البكاء ولا العويلُ
على أسد الإله غداة قالوا أحمة ذاكم الرجل القليل
أصيب المسلمون به جميعاً هناك وقد أصيب به الرسول
أبا يعلى لك الأركان هُذَّت وأنت الماجد البر الوصول
عليك سلام ربك في جنان يخالطها نعيم لا يزول
ألا يا هاشم الأخيار صبراً فكل مقالكم حسن جميل
رسول الله مصطرير كريم بأمر الله ينطق إذ يقول

استشهد سيدنا حمزة رضي الله عنه وكان عمره سبعاً وخمسين سنة .

وروى حديثاً واحداً عن سيدنا النبي ﷺ أنه قال : الزموا هذا الدعاء : اللهم إني أسألك باسمك الأعظم ورضوانك الأكبر .

ويعضي على الشهداء حوالي خمسين سنة أو أكثر ، ويأتي عهد سيدنا معاوية بن أبي سفيان وقد حفر عيناً يستقي الناس منها الماء ، فانكشفت بعض قبور شهداء أحد ومنها قبر سيدنا حمزة ، فرأى الناس الشهداء وكأنهم أحياء الآن دفنوا لم يبل جسد واحد منهم ، بل إن رجلاً وهو يعيد بناء قبر سيدنا حمزة أصابت المسحاة رجل سيدنا حمزة فجرحته وخرج منها الدم وكأنه ما زال حياً رضي الله عنه ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ فقولوا : صدق الله العظيم

(٢٤٠)

الإمام الأصمعي

١٢٢-٢١٦هـ

الحمد لله خالق المصنوعات وبارئ البريات ، ومدير الكائنات ، ومصرف الألسن الناطقات ، مفضل لغة العرب على سائر اللغات ، المنزل كتابه والمرسل رسوله وحبيبه سيدنا محمداً تنوياً بشأها ، وتعريفاً بعظم محلها وارتفاع مكانها.

أحمده أبلغ الحمد وأكمله وأزكاه وأشمله .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنزه عن الشبيه والمثال في جلاله الذي جعل العاقبة للمتقين بفضله .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف من وطئ الحصى بنعله وخاتم أنبيائه ورسله .

اللهم صلّ وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند الرؤوف الرحيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وأهله ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

وعدتكم أن أضرب لكم من كل علم بطرف ومن كل فن بمثل ، وحديثنا اليوم عن البحار . إذ يوجد في العالم عشرة أبحر يتفرع عنها بحور كثيرة سمعنا منها حولنا ببحر العرب ، والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والبحر الميت وبحر قزوين ، وسمعنا في العروض ببحور الشعر كالبحر الطويل والبسيط ، وسمعنا في الفقه الشافعي بكتاب البحر (شرح مختصر المزني) للإمام الروياني (عبد الواحد بن إسماعيل ت

٥٠٢ هـ) وسمعنا في التفسير والفقهاء بالبحر الحبر سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، لكننا حتى الآن لم نسمع ببحر في اللغة .

نعم هناك محور في اللغة ، لكن البحر الذي جاء يزورنا اليوم هو الذي أخذنا عنه ثلث لغتنا فقد جال ورحل في الأرض العربية في شبه الجزيرة ، وأخذ العهد على نفسه أن لا يتكلم إلا بما صح من اللغة العربية التي سمعها من أعراب البادية الأقحاح ، والتزم بها هو وشيخه سيدنا أبو عمرو بن العلاء .

ولكي تكون هذه الشخصية واضحة تماماً اسمحوا لي بتمهيد بسيط لتكتمل لديكم صورة هذا الإمام ، وبماذا نال وسام بحر اللغة .

أيها العرب والمسلمون : كنا . نحن العرب . قبل أن يمن الله علينا بالإسلام لا نعرف القراءة ولا الكتابة ، تماماً كما قال مولانا عز وجل في معرض تفضله علينا ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم** ﴾ فكانت صدور العرب هي التي تحفظ لنا التاريخ والتراث الأدبي والحضاري .

ولما أراد الله تعالى للعرب أن يجمعوا لغتهم ويدونوها في العصر الأموي كان أهل اللغة يجمعونها من صدور الرجال وشفاه الرواة .

فمن هو الذي نقل لنا ثلث لغتنا عن العرب المستعربة ؟

من هو الذي دار في الأرض العربية وجال في البادية وغشي بيوت الأعراب خيمة خيمة ، وبدواً بدواً ، ورجلاً رجلاً يطلب شعر العرب ونثرهم ويجمع مادته اللغوية والأدبية منهم (من القبائل المشهودة لها بالفصاحة) مسنداً ذلك للأشخاص بأسمائهم بما يسمى اليوم بتوثيق المعلومات ، (يسند الأخبار إلى أصحابها ويتحرى الصدق والدقة) من هو الراوية لأيام العرب بأصدق صورة وأدقها للحياة العربية

وكتب كتاباً سَمَّاه جزيرة العرب بعبارة عربية بدوية ، وسياق عربي بدوي ، وصورة عربية بدوية خالصة ؟

إننا مع الإمام العلامة الحافظ ، حجة الأدب ولسان العرب ، البصري اللغوي الإخباري الإمام عبد الملك بن قريب الأصمعي ومع الحلقة الثالثة والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام الأصمعي :

رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه .

إخوة الإيمان : يعد الإمام الأصمعي المولود في البصرة سنة ١٢٢ هـ من طبقة أتباع التابعين ، ومن نعم الله على العبد أن يجد من يريه ويعلمه ، فقد تلقته يد شيخه إمام أهل البصرة سيدنا أبي عمرو بن العلاء رضي الله عنه .

وهذا الإمام (أبو عمرو) رحالة من الدرجة الأولى فبعد أن جلس في أسواق العرب (كسوق المربد في البصرة ، وسوق الكناسة في الكوفة) يأخذ عن العرب الأعراب لغتهم ترك البصرة ورحل إلى البادية ، إلى جوف الصحراء يتغلغل في أعماق المجتمع البدوي لجمع اللغة والأمثال عن فصحاء العرب ، وشرب من لغتهم حتى الثمالة، يقول فيه الإمام ثعلب اللغوي : (دخل أبو عمرو البادية ومعه مكيال كبير من الخبر فما خرج حتى أفناه بكتب سماعه من العرب) ودخلوا عليه بيته فوجدوا غرفة مليئة بالكتب المخطوطات وصلت إلى قريب السقف ، كلها كتبها بخط يده عن الأعراب .

من الذي ورث الإمام أبا عمرو بن العلاء ؟ ورثه الإمام الأصمعي وبه تخرج ، وصار لا يشق له غبار في هذا المجال ، يقول الإمام الأصمعي : (جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتج بيت شعر إسلامي ، بل كان احتجاجه بشعر العرب في الجاهلية ، وسألته عن ثمانية آلاف مسألة) .

أرايتم . أيها الإخوة . هذا الزرع المثمر الذي زرعه الشيخ في تلميذه ، مما جعله يحمل لواء هذا المذهب ويتشدد فيه ، فلم يقبل من الشعر الإسلامي ولا ممن أتى بعده أي كلمة أو لفظة .

ومما يزيدنا عجباً في إيماننا الأصمعي أن الأدباء في عصره كلهم درسوا تطورات اللغة إلا هو ، بقي قانعاً برأيه ملتزماً بالسماح عن العرب الأقحاح ، وكان يمكن أن يستمرّ هذا التشدد في اللغة لو أن العالم الإسلامي لم يفتح بلدان العالم الأخرى واكتفى بشبه الجزيرة ، أما وقد غزت العربية تلك الأقطار ودخلها الإسلام وحماها القرآن فقد كان لا بد من تطوير اللغة ، وخاصة أن كثرة من طلاب اللغة كانوا من غير العرب بالأصالة والمربي ، فكان لا بد من وضع اللغة تحت كليات يقيسون عليها ليسهل تناولها، وكان على رأس هذا المذهب الجديد الخليل بن أحمد الفراهيدي .

إخوتي في الله : أريد منكم أن تعرفوا جيداً العمل العظيم الذي قام به سيدنا الأصمعي : لقد جمع هذا الإمام لغة عصر الفصاحة أو ما يسمى بعصر الاستشهاد باللغة أو عصر الاحتجاج بها ، تبدأ من أول نص شعري وصل إلينا من نصوص العصر الجاهلي إلى نهاية القرن الثاني الهجري .

فبأي طريقة فعل الإمام الأصمعي ذلك ؟

فعله بكل الحب والاحترام والإجلال للطبقة الأولى من أهل اللغة .

كان رضي الله عنه وهو العالم الإخباري الفذ ووزير الإعلام آنذاك لا ينظر إلى البدو نظرة تكبر واستعلاء أو على أنهم أعراب أميون وبدو أجلاف ، بل على العكس ، كان يجلّهم ويحترمهم ، وربما أخذ بيد الأعرابي ليساعده في النزول عن دابته ، ويتلطف به ويقول له : (بلغني أن عندك حديثاً حسناً رائعاً) يمتدحه ليستحثه على الإدلاء بما لديه من أشعار وأخبار ، شعاره في ذلك : (التعرف بلطف التصرف) أو الرفق بمن يؤخذ عنهم .

أيها الأحبة والصحب : أستطيع أن أقول إن الإمام الأصمعي جمع فأوعى وكان هو يقول عن نفسه إنه يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزه ، ولذلك شهد له علماء عصره الذين ناظرهم في اللغة بالحفظ والذكاء ولطف العبارة حتى قال فيه الإمام المبرد : (كان الأصمعي بحراً في اللغة لانعرف مثله فيها ، كان لا يروي إلا عن عربي خالص العروبة لا يخالط لسانه فساد أو لحن) .

وقال فيه مولانا الإمام الشافعي رضي الله عنه : (ما عبّر أحد بأحسن من عبارة الأصمعي) .

ويقول فيه تلميذه الإمام الحافظ يحيى بن معين : (الأصمعي من أعلم الناس بفته) .

وقف مرة في مجمع من الأدباء وأهل اللغة فأنشد نحواً من مئتي بيت . قال فيها الحاضرون : (مافيه بيت عرفناه) .

كان رحمه الله وعاء من أوعية اللغة ، ترك لنا ثلاثين مؤلفاً منها كتاب في الخيل ، مجلد واحد ، وصنف أبو عبيده معمر بن المثنى خمسين مجلداً في الخيل .

بالله . أيها السادة . اسمعوا هذه النادرة : اجتمع الأصمعي مع أبي عبيده أمام وزير الرشيد الفضل بن الربيع فامتحانهما ، جاء إليهما بفرس وقال : يا أبا عبيده أحضر كتابك في الخيل واقراه حرفاً حرفاً وضع يدك على موضع موضع وسمّه لنا . فقال : لست ببيطار (دكتور بيطري) إنما هذا أخذته من العرب .

فقليل للأصمعي : قم فافعل . فوثب فأخذ بأذن الفرس وجعل يسمي كل عضو ويضع يده عليه وينشد ما قالته العرب فيه .

فقال له الفضل : خذه فهو لك . قال : فكنت إذا أردت أن أغضب أبا عبيدة ركبت الفرس إليه وأتيته .

معشر الإخوة الكرام: اسمحوا لي في نهاية المطاف أن أرحل ومعكم قليلاً إلى هناك إلى داخل البادية مع الإمام الأصمعي لأرى معكم مدى عظمة هذا الإمام أكثر:

هاهو يرى شيخاً بالبادية قد سقط حاجباه على عينيه وله مئة وعشرون سنة وفيه بقية. فسأله كيف بلغت هذه السن؟ فقال : تركت الحسد فبقي الجسد ، وأنشد:

ألا أيها الموت الذي ليس تاركي أرحني فقد أفنيت كل خليل
أراك بصيراً بالذين أحبهم كأنك تنحو نحوهم بدليل
وحين أصابت الأعراب مجاعة مرّ بأعرابي قاعد مع زوجته على قارعة الطريق وهو يقول: يارب إني قاعد كما ترى ، وزوجتي قاعدة كما ترى، والبطن مني جائع كما ترى، فما ترى ياربنا فيما ترى ؟

(دعاء صادر من القلب بدون تكلف)

ومرّة أضل الأصمعي إبلاً له فخرج في طلبها ، وكان البرد شديداً فالتجأ إلى حي من أحياء العرب ، وإذا هو بجماعة يصلّون وبقربهم شيخ ملتف بكساء وهو يرتعد من البرد وينشد:

أيارب إن البرد أصبح كالخا وأنت بحالي ياإلهي أعلم
فإن كنت يوماً في جهنم مدخلي ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم
فقال له الإمام الأصمعي : ياشيخ أما تستحي تقطع الصلاة (يعني لاتصلي والناس يصلون) وأنت شيخ كبير ؟! فأنشد الرجل يقول :

أيطمع ربي أن أصلي عارياً ويكسو غيري كسوة البرد والحر
فو الله لا صليت ماعشت عارياً عشاء ولا وقت المغيب ولا الوتر

ولا الصبح إلا يومٌ شمس دفيئة وإن غيمت فالويل للظهر والعصر
وإن يكسني ربي قميصاً وجبّةً أصليّ له مهما أعيش من العمر
(كاد الفقر أن يكون كفراً)

معشر السادة الكرام: ساد الأصمعي أهل زمانه واحتفى به الخلفاء الذين وفد عليهم وأحبوا منادمته وأكرموه، ومن وفد عليهم الخليفة هارون الرشيد وأبو جعفر المنصور، المنصور الذي كان يتحدّى الشعراء في عصره إذا هم أتوا بقصيدة لم ينقلها واحد منهم عن شاعر كافأه عليها بوزنها ذهباً. هل رأيتم تشجيع الشعراء وأهل العلم، لكنه كان يخذل كل شاعر يأتي إليه، إذ كانت له حافظة قوية يحفظ القصيدة من أول مرة، وله غلام يحفظ القصيدة من مرتين، وله جارية تحفظها من ثلاث مرات، فكان الشاعر يكتب قصيدة طويلة يدبجها طول ليال فيأتي المنصور ليمدحه وينال الذهب من خزينة الدولة فيقول له الخليفة: إن كانت من قولك أعطيناك وزن ما كتبت ذهباً، وإن كانت من منقولك لم نعطك عليها شيئاً، فيوافق الشاعر ويلقيها على مسامع الخليفة فيحفظها الخليفة من أول مرة، ويقول للشاعر هذه القصيدة أحفظها ويلقيها على الشاعر، والغلام على بابه فيذكرها أمامه ثانية، ثم ينادي الجارية فتلقئها ثالثة. فيذهب الشاعر وهو حزين، هكذا كان يفعل بالشعراء، حتى شكوا ذلك إلى الأصمعي فقال: دعوا الأمر لي.

فكتب قصيدة ملونة الأبيات والموضوعات وأكثر فيها من اللامات، وتنكر بزي أعرابي وأتى الأمير ليسمعه شعره.

فقال الخليفة: تعرف الشروط؟ قال: نعم قال: هات القصيدة.

فقال الأصمعي:

صوت صفير البلبل	هيّج قلب الثمل
الماء والزهر معاً	مع زهر لحظ المقل

ثم بدأ يضع كلمات صعبة الحفظ واللفظ : فولولت لاتولولي ، اللؤلؤلي ، طبلي
طبطب طبلي ، طبطب طبطب لي ، لالعسللي ، والكل كعكع كعكع ،
بقي الأصمعي يتناول الوحشي من الألفاظ ويصعبها على الخليفة ثم أنهى قصيدته
فقال :

أنا الأديب الأملعي	من حي أرض الموصل
نظمت قطعاً زخرفت	يعجز عنها الأدبل
أقول في مطلعها	صوت صفير البلبل

حتى وقف الخليفة عاجزاً ولم يستطع لصعوبة كلماتها أن يحفظها لاهو ولا غلامه ولا
جاريته ، فقال للأصمعي :
. احضر ما كتبته عليها لنعطيك وزنه ذهباً .

قال الأصمعي : ورثت عمود رخام من أبي نقشت عليه القصيدة وهو على ظهر
الناقة لا يحمله إلا أربعة جنود . فأنهار الخليفة ، وهنا جيء بالعمود فوزن كل ما في
خزنة الخليفة ، وهنا كشف الأصمعي عن نفسه وقال للخليفة فعلت ذلك لتعطي
الشعراء ما تيسر من الذهب .

أيها الإخوة: عاش الإمام فوق الثمانين وأوصى قبل وفاته طلاب العلم أن يدرسوا
النحو واللغة وقال : إن أخوف ما أخاف على طالب العلم لم يعرف النحو أن يدخل
في جملة قوله عليه الصلاة والسلام ((من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار))
هذه وصية الإمام . يا طلاب العلم . أقيموا ألسنتكم باللغة والنحو ، لتبلغوا شأو هذا
الإمام الذي توفاه الله سنة ٢١٦ هـ وأسأل الله تعالى أن يكون قد سمع صوت صفير
البلبل في جنات ونهر عند مليك مقتدر .

(أبو العالية الشامي) :

لادرّ ذرّ نبات الأرض إذ فجعت
عش ما بدا لك في الدنيا فلست ترى

بالأصمعي لقد أبقت لنا أسفا
في الناس منه ولا من علمه خلفا

المصادر :

- . تاريخ بغداد ١٠ / ٤١٩
- . وفيات الأعيان ٣ / ١٧٦
- . مرآة الجنان لليافعي ٢ / ٧٦
- . شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣ / ٧٦
- . سير أعلام النبلاء للذهبي .

فهرسٲ

الرقم العام	الرقم الخاص	رقم الحلقة	عنوان الشخصيات	الصفحة
٧٩	١	١٣٨	الإمام الربيع بن خثيم	٥
٨٠	٢	١٣٩	الإمام الأحنف بن قيس	١١
٨١	٣	١٤٠	القاضي شريح	١٧
٨٢	٤	١٤١	الإمام أبو إدريس الخولاني	٢٥
٨٣	٥	١٤٢	الإمام عروة بن الزبير	٣١
٨٤	٦	١٤٣	الإمام علي بن سيدنا الحسين	٣٧
٨٥	٧	١٤٤	الإمام سعيد بن جبير	٤٣
٨٦	٨	١٤٥	الإمام مجاهد بن جبر	٤٩
٨٧	٩	١٤٦	الإمام الشعبي	٥٧
٨٨	١٠	١٤٧	الإمام محمد بن سيرين	٦٥
٨٩	١١	١٤٨	الإمام مكحول الدمشقي	٧٣
٩٠	١٢	١٤٩	الإمام ثابت البناني	٧٩
٩١	١٣	١٥٠	الإمام جعفر الصادق	٨٥
٩٢	١٤	١٥١	الإمام عبد الرحمن الأوزاعي إمام أهل الشام	٩٣
٩٣	١٥	١٥٢	الإمام شعبة بن الحجاج	٩٩
٩٤	١٦	١٥٣	الإمام سفيان الثوري	١٠٧
٩٥	١٧	١٥٤	الإمام إبراهيم بن أدهم	١١٥
٩٦	١٨	١٥٥	صقر قريش عبد الرحمن الداخل	١٢٣
٩٧	١٩	١٥٦	الإمام الليث بن سعد	١٢٩
٩٨	٢٠	١٥٧	السيدة رابعة العدوية	١٣٥
٩٩	٢١	١٥٨	سيدنا الإمام عبد الله بن المبارك	١٤١

١٤٧	سيدنا الإمام الفضيل بن عياض	١٥٩	٢٢	١٠٠
١٥٥	الخليفة سيدنا هارون الرشيد	١٦٠	٢٣	١٠١
١٦١	سيدنا الإمام وكيع بن الجراح	١٦١	٢٤	١٠٢
١٦٧	سيدنا الإمام سفيان بن عيينة	١٦٢	٢٥	١٠٣
١٧٥	الإمام معروف الكرخي	١٦٣	٢٦	١٠٤
١٨١	سيدنا الإمام أبو سليمان الداراني	١٦٤	٢٧	١٠٥
١٨٧	الإمام أسد بن الفرات	١٦٥	٢٨	١٠٦
١٩٥	الإمام بشر الحافي	١٦٦	٢٩	١٠٧
٢٠١	الإمام يحيى بن معين	١٦٧	٣٠	١٠٨
٢٠٩	الإمام حاتم الأصم	١٦٨	٣١	١٠٩
٢١٥	الإمام ذو النون المصري	١٦٩	٣٢	١١٠
٢٢١	الإمام محمد بن اسماعيل البخاري	١٧٠	٣٣	١١١
٢٢٩	الإمام أبو يزيد البسطامي	١٧١	٣٤	١١٢
٢٣٥	الإمام الجنيد بن محمد الجنيد	١٧٢	٣٥	١١٣
٢٤١	الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري	١٧٣	٣٦	١١٤
٢٤٧	الإمام أبو بكر الشبلي	١٧٤	٣٧	١١٥
٢٥٥	سيدنا الإمام أبو بكر الباقلائي إمام الأصوليين	١٧٥	٣٨	١١٦
٢٦٣	سيدنا الإمام أبو حامد الاسفراييني شيخ الشافعية	١٧٦	٣٩	١١٧
٢٦٩	سيدنا الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين	١٧٧	٤٠	١١٨
٢٧٧	سيدنا الإمام محمد الغزالي شيخ الشافعية	١٧٨	٤١	١١٩
٢٨٥	سيدنا الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني شيخ الأولياء	١٧٩	٤٢	١٢٠
٢٩٥	السلطان نور الدين الزنكي	١٨٠	٤٣	١٢١

٣٠١	سيدنا الإمام ابن عساكر علي بن محمد محدث الشام	١٨١	٤٤	١٢٢
٣١١	سيدنا الإمام الشيخ أحمد الرفاعي شيخ الأولياء وسيد أهل زمانه	١٨٢	٤٥	١٢٣
٣١٧	سيدنا الإمام الشيخ رسلان الدمشقي	١٨٣	٤٦	١٢٤
٣٢٣	الإمام أبو القاسم الشاطبي الأندلسي	١٨٤	٤٧	١٢٥
٣٣٣	سيدنا الإمام الغوث أبو مدين	١٨٥	٤٨	١٢٦
٣٤١	سيدنا الإمام الرازي	١٨٦	٤٩	١٢٧
٣٤٧	سيدنا الإمام ابن الفارض - ١ -	١٨٧	٥٠	١٢٨
٣٥٣	سيدنا الإمام ابن الفارض - ٢ -	١٨٨	٥٠	١٢٨
٣٦١	سيدنا الإمام محيي الدين بن عربي شيخ الأولياء	١٨٩	٥١	١٢٩
٣٦٧	سيدنا الإمام أبو الحسن الشاذلي شيخ الأولياء	١٩٠	٥٢	١٣٠
٣٧٣	الإمام العز بن عبد السلام	١٩١	٥٣	١٣١
٣٧٩	سيدنا الإمام يحيى النووي شيخ الشام وإمام الشافعية	١٩٢	٥٤	١٣٢
٣٨٧	سيدنا الإمام ابراهيم الدسوقي قطب الأولياء	١٩٣	٥٥	١٣٣
٣٩٥	سيدنا الإمام عبد الرحمن السيوطي إمام المحدثين	١٩٤	٥٦	١٣٤
٤٠٥	سيدنا الإمام الشيخ زكريا الأنصاري شيخ الإسلام	١٩٥	٥٧	١٣٥
٤١٣	الإمام عبد الوهاب الشعراني حجة السالكين ج ١	١٩٦	٥٨	١٣٦
٤١٩	الإمام عبد الوهاب الشعراني ج ٢	١٩٧	٥٨	١٣٦

٤٢٧	سيدنا الإمام الشيخ عبد الرحمن الشاغوري إمام أهل السنة	١٩٨	٥٩	١٣٧
٤٣٥	إمام المجاهدين الشيخ أحمد ياسين	١٩٩	٦٠	١٣٨
٤٤١	استشهاد عبد العزيز الرنتيسي	٢٠٠	٦١	١٣٩
٤٤٧	الإمام أبو القاسم القشيري شيخ الصوفية	٢٠١	٦٢	١٤٠
٤٥٧	جابر بن حيان	٢٠٢	٦٣	١٤١
٤٦٥	سيدنا الإمام عدي بن مسافر	٢٠٣	٦٤	١٤٢
٤٧١	سيدنا الإمام علي بن عبد الله بن العباس	٢٠٤	٦٥	١٤٣
٤٧٧	سيدنا الإمام علي السبكي - ١ -	٢٠٥	٦٦	١٤٤
٤٨٥	سيدنا الإمام علي السبكي - ٢ -	٢٠٦		
٤٩٣	سيدنا الإمام عقيل المنبجي - ١ -	٢٠٧	٦٧	١٤٥
٤٩٩	سيدنا الإمام عقيل المنبجي - ٢ -	٢٠٨		
٥٠٧	سيدنا الإمام محمد الجزولي صاحب دلائل الخيرات	٢٠٩	٦٨	١٤٦
٥١٧	سيدنا الإمام أبو شجاع أحمد بن الحسين شيخ الشافعية	٢١٠	٦٩	١٤٧
٥٢٣	السلطان محمد الفاتح - ١ -	٢١١	٧٠	١٤٨
٥٢٩	السلطان محمد الفاتح - ٢ -	٢١٢		
٥٣٧	الملك المظفر ملك إربل ملك المولد الشريف	٢١٣	٧١	١٤٩
٥٤٩	الإمام محمد البوصيري شيخ البردة الشريفة	٢١٤	٧٢	١٥٠
٥٥٥	سيدنا حسان بن ثابت شاعر الرسول الأعظم	٢١٥	٧٣	١٥١

٥٦٣	سيدنا عبد الله بن رواحة شاعر الرسول الأعظم	٢١٦	٧٤	١٥٢
٥٧٣	سيدنا كعب بن زهير مادح الرسول الأعظم	٢١٧	٧٥	١٥٣
٥٨١	الإمام الماوردي علي بن محمد صاحب الحاوي الكبير	٢١٨	٧٦	١٥٤
٥٨٩	سيدنا الإمام عبد الملك الجويني - ١ -	٢١٩	٧٧	١٥٥
٥٩٧	سيدنا الإمام عبد الملك الجويني - ٢ -	٢٢٠		
٦٠٣	سيدنا الإمام ابن عطاء الله السكندري	٢٢١	٧٨	١٥٦
٦١١	سيدنا الإمام ابن سريج مجدد القرن الرابع	٢٢٢	٧٩	١٥٧
٦٢١	سيدنا الإمام جلال الدين الرومي شيخ الأولياء	٢٢٣	٨٠	١٥٨
٦٣١	سيدنا الإمام أبو اسحاق الشيرازي المجدد	٢٢٤	٨١	١٥٩
٦٣٩	سيدنا الإمام أبو بكر الخطيب البغدادي شيخ المحدثين	٢٢٥	٨٢	١٦٠
٦٤٧	سيدنا الإمام ابن كثير الدمشقي	٢٢٦	٨٣	١٦١
٦٥٥	سيدنا الإمام عبد الله اليافعي	٢٢٧	٨٤	١٦٢
٦٦٣	سيدنا الإمام القاضي عياض إمام أهل المغرب	٢٢٨	٨٥	١٦٣
٦٧١	سيدنا الإمام ابن عبد البر إمام أهل الأندلس	٢٢٩	٨٦	١٦٤
٦٧٩	سيدنا الإمام عقبة بن نافع إمام المجاهدين فاتح المغرب	٢٣٠	٨٧	١٦٥
٦٨٥	سيدنا الإمام عبد الكريم الرافعي شيخ الشافعية	٢٣١	٨٨	١٦٦

٦٩٣	سيدنا الإمام عبد الله بن قدامة المقدسي شيخ الفقهاء الحنابلة	٢٣٢	٨٩	١٦٧
٧٠١	مولاي الوالد سيدي الشيخ محمد سهيل الخطيب الحسني أحد أبدال الشام	٢٣٣	٩٠	١٦٨
٧١١	سيدنا الإمام أحمد البدوي شيخ الأولياء ١	٢٣٤	٩١	١٦٩
٧١٩	سيدنا الإمام أحمد البدوي شيخ الأولياء ٢	٢٣٥		
٧٢٧	الإمام الشيخ أحمد ياسين إمام المجاهدين	٢٣٦	٩٢	
٧٣٣	الإمام الشيخ عبد العزيز الرنتيسي	٢٣٧	٩٣	
٧٣٩	سيدنا الإمام الشيخ مصطفى التركماني شيخ الطرق الصوفية	٢٣٨	٩٤	١٧٠
٧٤٥	سيدنا الإمام حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء	٢٣٩	٩٥	١٧١
٧٤٩	الإمام الأصمعي	٢٤٠	٩٦	١٧٢